الإمام محمد أبو زهرة



المجلد الثانى

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

الجـــزء الثـــانى

بناء الدولة الاسلامية ـ معاهدة جوار مع اليهود ـ نقضهم لها اجلاؤهم من المدينة ـ المنافقـون ـ الاذن بالجهـاد ـ الغزوات والسرايا ـ غزوة بدر ـ غزوة أحد ـ غزوة الأحزاب ـ الأحكام الشرعية التى شرعت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ·

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير خلق الله ، وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوا هداه ·

أما بعد فهذا هو الجزء الثانى من السيرة الطاهرة سيرة خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفيه ابتداء قيام الدولة الاسلامية التى من الله تعالى بها على عباده المؤمنين الذين استضعفوا ، ثم مكن الله تعالى لهم فيها · وصاروا الأئمة والهداة وبدلهم بها من الضعف قوة ومن الذلة عزة بعزة الله ، وقد أذن فيها بالجهاد ، وتعددت ضروبه ، فجهاد للنفس ، وجهاد للشرك ، وجهاد لليهود ، وجهاد للنفـاق ، وجعل الله تعـالى كلمة الله والحق هى العليا ·

وانه ينتهى بانتهاء الجهاد مع المشركين ، وقف أذى قريش ، والصـلح معهم فى الحديبية الذى عده الله تعالى فتحا مبينا ·

والله تعالى هو الموفق والهادى الى طيب القول وصراط العزيز الحميد كتب الله لنا التوفيق ؟

محمد ابو زهـرة

انشاء دولة الاسلام

٣٣٤ — هاجر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخرج من مكة المكرمة ، وهى أحب أرض الله تعالى اليه ، لأن بها البيت الحرام ، ولأنها منزل الوحى ، ولأن بها الأهل والأقربين ، وأن بها ماثر ابراهيم ، ولكنه انتقل مع كل هذا الى المدينة المنورة ، وما كان ذلك الا لأنه بأمر ربه انشأ دولة ، ولأنه ماجاء لرهبانية أو روحانية مجردة ، أو لتهذيب النفوس فقط ، بل بعث رحمة للعالمين ولابد من أن تقوم دولة تقيم الحق ، وتخفض الباطل ، وتمنع الظلم ، وتجمع الانسانية ، وتنشر التعاون بين الناس ، وتمحو كل الفوارق التى تجعل بعض بنى الانسان يتحكم فى الاخر ، وتمنع الفساد فى الأرض •

ولذلك هاجر عليه الصلاة والسلام حيث يستطيع اقامة الدولة المؤمنة التى تتناهى عن الشر ، وتتعاون على الخير ، وكذلك كل رسول يأتى بشريعة تقوم عليها دولة ، كما فعل موسى ، اذ خرج من أرض فرعون ، لينشىء من قومه قوة ترفع الحق ، وحاول ذلك مع بنى اسرائيل ، وحاول أن يربى فيهم روح العزة والكرامة ، وهما لا يسكنان فى قلب الا اذا سكن معهما حب الانصاف ، وحب الرحمة والمؤاخاة ، والرفق ، فالعزيز الكريم هو الذى ينصف ويرحم ، ويرفق ، واللئيم هو الذى يظلم ، ويشق على الناس ، ولا ينزل بهم رحمة ، بل عداوة وبغضاء ، حاول موسى عليه السلام أن يبث فيهم البأس بعد البؤس والخنوع ، فقالوا له ، وهو يريد بهم العزة والدفاع عن أنفسهم ، فقالوا « **اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا ها هنا قاعدون** » •

وعيسى عليه السلام الذى أثر عنه قوله « دع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » لم يشن حربا ، ولم يقم دولة ، وان دعا الى الفضيلة والمحبة ، والروحانية فى وسط الغلظة المادية التى آل اليها اليهود ، فكانوا متنابذين مع الانسانية ، ولكن خاضعون خانعون للدولة الرومانية ، لا يتمردون ، ولا يلاحون ، ولكن يرضون بالمنزل الهون ، كما قال الله تعالى « **ضربت عليهم الذلة اينما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس** » ، فعيسى لم يحاول أن يكون دولة ، ولكن كان داعى رحمة ومحبة ، ورفق ومؤاخاة فى قوم غلاظ الرقاب يثيرون العداوة والبغضاء ، مع من لا قوة لهم ، ويخضعون فى ذلك للقوى ، ويعيشون بالسعاية والافساد •

جاء محمد عليه الصلاة والسلام على فترة من الرسل لاقامة الدولة الفاضلة لأنه خاتم النبيين ، ولأنه آخر صرح فى بناء النبوة الالهية ، فكان لابد من أن تودع رحمته فى جمـاعة مؤمنة ، وأن تكون هى حاملة تبليغ الرسـالة من بعده تقاوم فى سبيلها ، وتسالم فى الدعوة اليها ومد مبادئها ، وتنتقل الرسالة فى الأجيال مع هذه الأمة التى حملت الأمانة ، ومع دولة تحميها ٠

وان قيام الدولة الفاضلة ، بعمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى حياته والحواريين من بعده فيه تطبيق عملى للفضيلة والعدالة والمسـاواة ، واذهاب روح التفاوت والعنصرية ، وبث الايمان والفداء ، ورجاء ما عند الله تعالى ويكون ذلك حجة فى الأرض على الذين يدعون أن قيام دولة فاضلة على مبادىء الأخلاق ليس حلما لا يتأتى تطبيقه ، ولكنه عمل ثبت تحقيقه ، وقامت فى الوجود أعلامه ، وأن الذين يفرطون فى حقوق الانسانية ، ويسرفون على الناس فى ظلمهم زاعمين أن الفضيلة والأخلاق علاقات شخصية ، ولا تصلح أن تكون أساسا للعلاقات الاجتماعية والانسانية عامة ٠

وان قيام الدولة الاسـلامية حجة قائمة على الذين يزعمون أن الدين علاقة بين العبد وربه ، وأنه مقصور على المساجد والكنائس والصـوامع ، لأنه لو كان الدين كذلك ما هاجـر النبى صـلى الله تعالى عليه وسـلم ، ولارتضى البقـاء فى مـكة المكرمة ، واكتفى أن يطلب من المشركين أن يتركوه وما يعبد ، وأن يتركهم وما يعبدون ، ولعلهم كانوا يرتضون بذلك ، وخصوصا أنهم كانوا يعلمون فيه الأخلاق الفاضلة ، والصدق وشرف المحتد ، والنسب الرفيع ٠

ولكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كانت رسالته أبعد من ذلك أثرا ، وأعم من ذلك عملا ، وانا نقول مقالة الذين يقولون الدين هو العلاقة بين العبد وربه ، ولكنا نعمم العـلاقة بين العبد وربه ، فنجعلها عامة شاملة ، وليست خاصة بالصـلاة والصـوم ، انما علاقة العبد بربه تقتضى الرحمة بعباده ، والعدل بينهم أيا كان جنسهم ، وأيا كان لونهم ، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم « لا يؤمن أحدكم ، حتى يحب الشىء لايحبه الا لله » وان كل عمل خير فيه صلاح الجماعة من عدل يقام ، وظلم يخفض ، واعلان مسـاواة ورفق بالناس ، كل هذا عبادة اذا قصد به وجه الله ، ولا يمكن أن يكون مصلح قادرا على الاصلاح ، الا اذا أخلص النية لله تعالى ، وأراد نفع الناس مرضـاة لله تعالى العلى القدير ، فالذين يفصـلون بين عباد الله تعـالى وحده ، وحسن المعاملة ، وتنظيم المعاملات بين الناس ، يفصلون بين الدين ولازمه ، والحقيقة وما يترتب عليها ، والمقدمة والنتيجة ٠

٣٣٥ — وان العرب كانوا أصلح الناس لتجربة الدولة الفاضلة التى وضع الله تعالى فى الكتاب الكريم وعلى لسان رسوله الأمين ، دعائمها ، وأسس اقامتهم ، وقد سن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم السنن العملية لتطبيق أحكام الله تعالى ، فبين العبادات المفروضة من صلاة وصوم ، وحج وزكاة ، وان كانت الصلاة قد ابتدأت فى آخر ايامه صلى الله تعالى عليه وسلم فى مكة المكرمة ، عند الاسراء والمعراج ٠

ووضع سبحانه وتعالىٰ لهذه الدولة أسس تكوين المجتمع من الأسرة الى الجماعة الى العلاقات الانسانية فى السلم والحرب ، ويصح لنا فى هذا المقام أن نشير الى الأهداف الاجتماعية والدولية للدولة الاسلامية بكلمات موجزات لا تغنى الاشارة فيها عن العبارة . ولا الاجمال عن التفصيل ٠

اول الأهداف الاجتماعية تهذيب الآحاد ليكون منهم وحدات متلائمة يتكون منها مجتمع ، ولهذا شرعت العبادات ونفذت أحكامها ، تطهيرا للمجتمع من آثامه ، وتوقيا للأخيار من شرور الأشرار ، فكانت الصلاة ، التى قال تعالى فى بيان غايتها وثمرتها : « **ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر** » وشرع الصوم لتطهر النفس وتسيطر عليها الروح ، وتقوى الارادة ولا يكون الواحد من المؤمنين خاضعا للهوى بل يسيطر عقله على شهوته ، فتكون له أمة ذلولا ، ولا تكون سيدا مطاعا ٠

وشرع الحج للتعارف الانسانى ، وتهذيب الوجدان بالاقامة فى ضيافة الرحمن ، وشرعت الزكاة ليعين الغنى الفقير وليعيش الناس فى وئام ، فكان تطهير المجتمع ايجابيا بتزكية الروح وتطهيرها ، وتنمية العلاقات الاجتماعية ، وبث روح الرحمة فى القلوب ، والتعاون بين الناس ٠

وقد شرعت الكفارات تطهيرا للنفوس اذا أثمت ، وفتحا لباب التوبة عمليا ونفسيا ، وجعل الصدقة تطهيرا من كل اثم كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « الصدقة تطفىء المعصية ، كما يطفىء الماء النار » اذ كل معصية مهما تضؤل فيها اعتداء على الناس ، فكان تكفيرها بمعاونة الناس ٠

(ب) واتجه الاسلام الى تكوين الأسرة الفاضلة ، لأن الأسرة نواة البناء الاجتماعى ، وهى الوحدة الأولى فى اقامة دعائمه ، ولذلك عنى القرآن الكريم ببيان أحكامها ، وشرح الواجبات والحقوق فيها بين الزوجين ، وبين الآباء والأبناء ، وان كل الأحكام الشرعية الخاصة بالعبادات والتعامل جاءت مجملة ، وبين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تفصيلها بالعمل ، لا بالقول فقط ، الا أحكام الأسرة ، فقد تولى الله سبحانه وتعالى بيانها تفصيلا فى كتابه الكريم ،

بين التزامات الزوجية والعلاقات الأسرية ، وعلاجها اذا أصابتها آفة ، وبين أحكام الميراث تفصيلا لا اجمال فيه ، وأحوال الطلاق وما يتصل به ٠

وان ذلك كله حجة قائمة علـى الذين يريدون ان يحـــرفوا الشرع عن مواضعه ، ويجعلوا للأسرة نظاما ، لم يأت به كتاب الله تعالى ، وهو عند الله منكر ، لأنه تقليد للذين لا يعرفون مكانة الأسرة ، ولا حريتها ٠

رأى عام

(ج) وقامت الدولة الاسلامية التى أقامها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تنفيذا لحكم الله على تكوين رأى عام فاضل ، ولذلك حث الاسلام على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واعتبرهما عنوانا للأمة الفاضلة ، واذا كان الرأى العام الذى قام فى مكة المكرمة كان وثنيا ، ولذلك حارب الوحدانية وأباح الخبائث ، فالنبى صلى الله تعالى عليه وسـلم بهداية القـرآن الكريم والوصـايا الالهية اتجه الى تكوين رأى عام فاضـل يقوم المعـوج ، ويمنع الخبائث ، ولقد قال تعالى : « **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** » ، وبين أن اللعنة تكون على الذين يفسـدون الرأى العام فيها فقال تعالى : « **لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود ، وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون** » ٠

وفى سبيل تكوين رأى عام فاضل ، أوجب على كل مؤمن أن يسـتنكر الشر ، ويستهجنه ، ولا يقره ، ويستحسنه ، والا اضطربت أمور الجماعة ، وهوت سفينة الحياة ٠

ولذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « مثل المدهن فى حدود مثل قوم استهموا فى سفينة ، فصار بعضهم فى أسفلها ، وبعضهم فى أعلاها ، فكان الذى فى أسفلها يمر بالماء على الذى فى أعلاها ، فتأذوا به ، فأخذ فأسا ينقر به أسفل السفينة ، فأتوه ، فقالوا مالك ؟ قال تأذيتم ولابد لى من الماء ، فان أخذوا على يديه أنجوه ، ونجوا بأنفسهم ، وان تركوه أهلكوا ، وأهلكوا أنفسهم » ٠

وان الرأى العام الفاضل الذى أراد الاسلام أن يتكون هو الذى يمنع الظلم ، ويقيم العدل ، ولذلك يقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم :« لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخـذن على يدى الظالم ، ولتأطرنه على

الحق أطرا ، أو ليضربن بقلوب بعضكم على بعض ، ثم تدعون ، فلا يستجاب لكم » ٠

وان الرأى العام الفاضل تسوده الفضيلة ، وتقتل فيه الرذيلة ، فلا تظهر ولذلك يحث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على الحياء الذى يجعل صاحبه لا يظهر أمام الناس الا بالخير ، فيقول عليه الصلاة والسلام « الحياء خير كله » ويقول عليه الصلاة والسلام « لكل دين خلق ، وخلق الاسلام الحياء » ٠

وان الجماعات الانسانية التى انحرفت ، وسادتها الرذيلة ، أول مظاهرها فقدان الحياء ، وكذلك يدعو المسرفون على أنفسهم ، وعلى أقوامهم الى هجر الحياء واظهار الرذيلة . ويسمون ذلك بأسماء ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ٠

الكرامة

وان دولة الاسلام التى ألفها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى المدينة المنورة تدعو الى تكريم الانسان ، لأنه انسان لا لكونه شريفا نسيبا ، ولا لكونه أبيض أو أسود ، ولا لكونه مسلما ، بل للانسانية فيه ، ولقد قال الله تعالى فى ذلك ، « **ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** » ، وكرم الله تعالى الرقيق ، ودعا القرآن الكريم الى عتقهم ، ومنع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يذل المالك من يملكه ، أو يرهقه بأن يكلفه مالا يطيق ، وروى الامام أحمد ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال « من لطم عبده ، فكفارته عتقه » وقد سوى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بين نفس الحر ، ونفس العبد ، بل سوى بين نفس العبد ، ونفس مالكه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « من جوع عبده جوعناه ، ومن قتله قتلناه » ٠

العدالة

(د) وأوجب القرآن الكريم العدالة بكل ضروبها ، وعدها عنوان الاسلام ، ويروى فى ذلك أن أكثم بن صيفى لما بلغته دعوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل بنيه ليعرفوا دعوته عليه الصلاة والسلام ، فتلا عليهم قوله تعالى : « **ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** » ٠

وان العدالة مطلوبة على الولى والعـدو على ســواء ، ولذلك قال الله تعالى : « **ولا يجرمنكم شنآن قـوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى** » فالعدل حتى مع العدو المشنوء أقرب للتقوى ٠

والعدالة فى مضمونها تشمل ما يسمى العدالة القانونية ، وهى أن يكون القانون الذى تحكم به الناس واحدا ، وأن يكون تطبيقه على الجميع واحدا ، فلا يضار الفقير فى تطبيقه ، ولا يحابى الغنى فى معاملته ، وأساسه المساواة فى التطبيق ، ولذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « كلكم لآدم وادم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى » ولقد تاسى بهدى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، أبو بكر اذ قال : « القوى منكم ضعيف ، حتى آخذ الحق منه ، والضعيف منكم قوى حتى آخذ الحق له » ٠

وتشمل العدالة فى مضمونها العدالة الاجتماعية بأن يمكن كل انسـان من أن يعيش عيشة كريمة غير مقطوع ولا ممنوع ، وأن يمكن من اسـتغلال مواهبه فيما يفيد شخصه ، وجماعته ، وان تهيأ الفرص لكل انسان أن يعمل بطاقته جسمية كانت أو عقلية ٠

وليس معنى العدالة الاجتماعية محو الفقر واذابته ، فان الفقر والغنى حقيقتان ثابتتان فى الوجود ، لا يمكن محو أحدهما ، أو اذابته ، كما جـاء التعبير على لسان بعض الناس ، انما العدالة الاجتماعية ، تقتضى محو التفرقة بين الطبقات ، وأن يسيطر ناس بحكم الطبقية ، وأن يستطيل غنى على فقير بحكم غناه ، ولا نسيب على ضعيف بحكم نسـبه ، انما الجميع سـواء أمام القانون الاسلامى السامى فى معناه ، وتطبيقه ٠

ولابد أن تتوافر العيشة الكريمة لكل مؤمن ، والدولة الاسلامية المباركة تتكفل بالعاجزين ، عملا بقوله صـلى الله تعالى عليه وسـلم « من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك ضياعا ، فالى وعلى » ٠

ويشمل مضمون العدالة الدولية ، وهى تقوم على ثلاثة مبادىء متقررة فى حكم القرآن الكريم ، وبعمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهى الوفاء بالعهد ، والمعاملة بالمثل من غير أن يجارى الأعداء فى انتهاكهم لحرمة الفضيلة فاذا قتـلوا النسـاء والذرية لا نجاريهم ، واذا انتهكوا حرمات الفضـــيلة لا ننتهكها ، لأن دين العدل والفضيلة لا يجارى الناس فى مآثمهم وثالث الأمور

فى العدالة الدولية أن الأساس فى علاقة المسلمين بغيرهم هو السلم ، حتى يكون اعتداء أو استعداد للاعتداء ، أو محاربة لحرية الاعتقاد ووقوف ضد الدعوة الاسلامية التى تدعو الى أن يكون الدين كله لله تعالى ، بحيث لا تفتن مؤمن ، ولا يعتدى على اعتقاد ·

التعـــاون

(هـ) وقامت الدولة الاسلامية على أساس التعاون ، فقال الله تعـالى : « **وتعاونوا على البر والتقـوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعـدوان** » وأن كل جماعة نظمها الاسلام تقوم على أساس من التعاون ، فالتعـاون فى الأسرة هو قوامها ، فالمرأة هى السـكن ، وهو الحمى ، والآباء والأبناء يتعـاونون فى شدائد الحياة ، ويشتركون فى سرائها ·

واذا تجاوزنا الأسرة الى المجتمع الصغير المكون من الجيران وأهـل الحى وأهل القرية ، وجدنا التعاون قوام الترابط بينهم ، وقد أوصى صـلى الله تعالى عليه وسلم بالجيران ، وأمر القرآن الكريم بالاحسـان الى الجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والجار فى العمل ، والجار فى السفر ·

واذا تجـاوزنا المجتمع الصغير من الجيران وأهل الحى أو القـرية واتجهنا الى مجتمع الأمة أو الشعب ، وجدنا التعاون دعامة بنيانه تتعـاون كل طوائفهـا فى جهـودها المختلفة فى رفع شأنها ، وكأن تلك الجهود أنهار مختلفة تلتقى عند مصب واحد ، لا يذهب فيه الماء هدرا ، بل ينتج الخصب وأطيب الثمار ·

فكل طائفة قوة فى ذاتها ، فمهرة الصـناع قوة ، ومهـرة الزراع قوة متعاونة ، والعلماء يمدون الجميع بالمعارف ، فتعمـل كل القـوى متعـاونة متضافرة ·

والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أقام الدولة الاسـلامية بالتعـاون والتآزر ، وجاء القرآن مقررا ذلك المبدأ الكريم بأدق معانيه ، وكانت الدولة الاسلامية التى أوصى بها القرآن الكريم ، ونفذها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد أتت بمبدأ لم يسبق اليه سابق ، ولم يلحقها فيه لاحق ، وهو سداد دين المدينين الذين استدانوا فى غير فساد أو سرف ، وعجزوا عن سداد الدين ، فان ذلك مصرف من مصارف الزكاة ، وبينما كان القانون الرومانى فى بعض أدواره أجاز للدائن أن يسترق المدين ، كانت الدولة الاسلامية التى

انشأها محمد صلى الله تعالى عليه وسلم باذن الله تعالى تعمل على سد الدين عن المدينين ٠

ولئن انتقلنا من الأمة الى الجماعة الانسانية نجد ان القرآن الكريم والسنة المحمدية يوجبان أن يكون التعاون اساس العلاقات الانسانية عامة ، ويعمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى الدولة التى أقامها على التعاون الانسانى العام استجابة لقوله تعالى « **يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم** » وان القرآن الكريم فى سبيل دعم التعاون يقرر ان الانسانية أمة واحدة ، وتنتهى فى نسبها الى نفس واحدة ، فقد قال الله تعالى : « **يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا** » ٠

مع اليهود

ولقد نفذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى أول اقامته بالمدينة المنورة مبدأ الاتحاد الدولى والتعايش السلمى ، فعقد المعاهدة مع اليهود ومع كثير من القبائل العربية ٠

وقد يقول قائل ألا يتعارض مبدأ التعاون مع الحرب ؟ ونحن نقول لو كان الناس جميعا أخيارا ، ولم يكن قانون الغابة مسيطرا على بعض الدول لكانت الحرب مناقضة لمبدأ التعاون ، ولكن فى الدول أشرار ، كما فى الآحاد أشرار ، واذا كان الأشرار يمنعون من الشر بالعقوبات الرادعة ، فأشرار الدول يمنعون من شرهم بالحرب المانعة ، ولذلك قال سبحانه : « **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين** » ٠

فكانت حرب الأشرار من قبيل التعاون على الخير ، ودفع الاثم والعدوان ، وكذلك كانت حروب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لدفع الأشرار ، ومنع الملوك الغاشمين من أن يرهقوا شعوبهم بمنع حرياتهم ٠

الرحمة والمودة

(و) وقيام دولة الاسلام على أساس الرحمة الشاملة والمودة المقربة ، ومنع البغضاء المنفرة ، ولقد قامت الدولة الاسلامية على أساس الرحمة والمودة ، أما الرحمة فأساسها الرحمة بالأخيار ، لا بالأشرار ، فليست الرحمة

فى الاسلام مجرد انفعـال نفسى ، بل هى الرحمة بالكافة ، ولقـد قال بعض الصحابة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « يا رسول الله أكثرت من ذكر الرحمة ونحن نرحم أزواجنا وذرياتنا ، فقال عليه الصلاة والسـلام ما هذا أريد ، انما أريد الرحمة بالكافة » ، ولذلك شرعت العقوبات الزاجرة رحمـة بالكافة ، فقد قال عليه الصـلاة والسـلام « من لا يرحم لا يرحم » وان بعض أنواع الرأفة يشمل فى أطوائه أشد أنواع القسوة ، وهى الرأفة بالمجرم ، ولذلك نهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن الرأفة بالزناة ، فقال الله تعالى : « **الزانية والزانى ، فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلـدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** » فكان من قانون الرحمة العادل أن يعاقب المذنبون ٠

وان الرحمة العادلة التى تكون للآحاد ، انما تكون على الضعفاء من العبيد ، والفقراء واليتامى ، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ابغونى فى ضـعفائكم ، انما تنصرون وترزقون ، بضـعفائكم » ، ولذلك أوصى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم برحمة المرأة الضعيفة ، وأوصى بالرحمة بالعبيد ، وأوصى برحمة اليتامى باصلاح أحوالهم ، ورعاية أموالهم ٠

هذه اشـارات الى مبادىء الرحمة فى الدولة الاسـلامية التى كونها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر القرآن الكريم ٠

أما المودة فهى قوام الروابط الانسانية دعا اليها الآحاد والجماعات ، ولذلك عد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم افشاء السـلام الذى هو مظهر المودة ، واطعام الطعام الذى هو ادامها عدهما أحسن الاسلام ، فقال عليه الصلاة والسلام : « وأحسن الاسلام أن تطعم الطعام ، وأن تقرأ السلام على من عرفت ، ومن لم تعرف » ٠

نعم كان الأمر بالمـودة ، وجعلهـا قوام الأسرة ، كما قال الله تعالى : « **ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة** » ٠

وأوجب صـلة الرحم مودة فى القربى ، فقـال صـلى الله تعالى عليه وسلم : « ومن أراد منكم أن يبارك له فى رزقه ، وينسأ له فى أثره فليصـل رحمه » ، ويقول عليه الصلاة والسـلام : « ليس الواصـل بالمكافىء ، انما الواصل من يصل رحمه عند القطيعة » ٠

وان المودة ليست واجبة بالنسبة لأبناء الأمة الاسـلامية وحدهم ، بل هى واجبة حتى للمخالفين فى الدين ما داموا لم يعادوا المسلمين أو لم يعتدوا

عليهم ، ولقد بين الله سبحانه وتعالى تلك الحقيقة ، وهى القانون الشامل فى معاملة المسلمين لغيرهم ، فقال الله تعالى : « **لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم ، وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون** » وقال الله تعالى : « **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله** » ٠

ويروى أنه فى مدة الحديبية بلغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن قريشا نزلت بهم جائحة فأرسل مع حاطب بن أبى بلتعة خمسمائة دينار ليشترى بها برا ، ويوزعها على فقراء قريش ٠

بل انه فى أثناء الحرب ، لا تنقطع المودة مع شعوب الدولة المحاربة من غير المقاتلين ، ولا تنقطع المودة الا مع المقاتلين أو من يشتركون فى القتال بالعقل والتدبير ، والترتيب والتنظيم ، فأولئك هم الذين يحادون الله ورسوله ٠

والخلاصة أن الاسلام لا يقطع المودة ، بل يصلها دائما ، ويعد القاطعين لها فى غير الدائرة المذكورة يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ٠

(ز) **المصلحة ودفع الفساد** : وقد قامت الدولة الاسلامية التى بينت أسسها فى القران الكريم ، وطبقها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأرسى قواعدها عمليا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، قامت على رعاية مصالح العباد فى الدنيا والآخرة على القاعدة التى ذكرت فى القرآن الكريم : « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الأرض ان الله لا يحب المفسدين** » ٠

وهكذا كانت المصلحة الجماعية هى من غايات الاسلام ، على أنه يجب ملاحظة أمرين :

أولهما : أن الاعتبار فى المنفعة منفعة المجموع أولا ، وبأوفر حظ ، وأن مصلحة الآحاد غير مسلوبة ، بل هى تكون فى مصلحة المجموع ، وتنفرد عن مصلحة المجموع ، ان لم يترتب عليها ضرر عام ، فان الضرر يزال ، ومنفعة العامة مقدمة على منفعة الخاصة ان لم يمكن الجمع بينهما ٠ ولذلك شرع الجهاد ، وحث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عليه ، ولو كان فيه ضرر ، لآلام تنزل بالمجاهدين ٠ ولكن تركه يؤدى الى تهلكة الجماعة ، وغلبة الشر على الخير ٠

الأمر الثانى : أن المصلحة المعنوية بأداء الواجب والتزام الحقوق ، وتهذيب النفس ـ مطلوبة كالمصلحة المادية بل هى أشد طلبا ، وأكثر رعاية فى الاسلام ، والمصلحة الأصلية تلاحظ قبل المصلحة العاجلة ، ولذلك كانت ملاحظة العبادة قبل ملاحظة المعاش ، ان الدنيا سبيل الخير فى الآخرة ، وان النظر الى الآخرة خير مآلا وغاية « **وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون** » ٠

وان الاسلام لا يدعو الى الزهد فى الحياة ، ولكن يدعو الى أن يطلب المؤمن الحياة من حلالها ، ويجتنب محرماتها ، وما كان تجنب المحرمات الا لأن تناولها يفوت المصالح الحقيقية التى عدها الاسلام مصالح ، وما من مصلحة مضيعة ، الا ومعها تناول محرم حرمه الله تعالى لأن المحرم اعتداء على غيره ٠

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يتناول المباحثات ، وينهى عن تحريم ما أحل الله تعالى من طيبات فى هذه الدنيا ، ولقد استنكر الله تعالى على الذين يحرمون الطيبات ما يصنعون ، فقال الله تعالى : « **قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ، قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** » ويقول الله تعالى : « **يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واتقوا الله الذى انتم به مؤمنون** » ٠

وهكذا نجد أن دولة الفضيلة لا تقوم على الحرمان ، بل الحرمان المجرد نقيضها ، وقد منع النبى صلى الله عليه وسلم بأمر الله أن يحرم مؤمن على نفسه ما أحل الله ، ولقد روى الامام أحمد رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « كلوا واشربوا والبسوا فى غير سرف ولا مخيلة » ٠

ولقد روى أن الامام أحمد رضى الله عنه سئل عن الورع ، فقال رضى الله تعالى عنه : « الورع طلب الحلال » فليس فى الدولة الاسلامية الفاضلة زهادة لمجرد الحرمان ، واذا كان زهد ، فهو لتعويد النفس القدرة على فطمها عن الشهوات عندما يلج داعيها ٠

وان المصلحة فى دولة الاسلام تقوم على المحافظة على النفس والدين ، والعقل ، والنسل ، والمال ، ولـذلك أوجب الله العقوبات على من يعتـــدى على مصلحة من هذه المصالح بمقدار اعتدائه ، فان كان الاعتداء على أمر لا تتحقق الحياة الا به ، فان العقوبة تكون بقدر الاعتداء ، وان كان الاعتداء على أمر تتحقق الحياة مع الاعتداء ولكن بمشقة ، فان العقـوبة تكون دون السابقة ، وان كان الاعتداء على أمر ترفيهى أو كمالى ، فالعقوبة دون العقوبة فيما سبق ٠

وهكذا كانت العقوبات من حدود وقصاص ، لأجل مصلحة العباد ، وهى كما ذكرنا رحمة بهم ٠

وهكذا كانت الدولة الاسلامية رحمة للعباد ، ومصلحة لهم ، ويتحقق فيها قوله تعالى : « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » ٠

أول أعمال النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم

٣٣٦ ــــ استطردنا الى الكلام فى الدولة المحمدية التى أقامها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر ربه ، مشيرين الى دعائم هذه الدولة ، غير مفصلين النظم ، ولا الأحكام ، ولكن نبين مقاصدها وغاياتها بالاشـارة الموجزة المبينة ، لا بالعبارة المفصلة الموضحة ، ليعلم الناس أمرين :

أولهما : أن المبادىء التى تقوم هذه الدولة عليها مبادىء تقبلها العقول السليمة التى تسيطر عليها الأهواء ، ولم تتحكم فيها منازع التقليد من غير تفكير ، ولا اتباع للهوى فى ذاته ، وان جعلهـا مستمدة من أحـكام القرآن الكريم والسنة المحمدية بوحى من الله تعالى لا يجعلها مضطربة ، ولا مزلزلة بأهواء الناس ، وهى متفقة مع مصالح الناس ، ولقد سئل اعرابى لمــاذا آمنت بمحمد عليه الصلاة والسلام ؟ فقال الاعرابى المستقيم الفكر والنفس : « ما رأيت محمدا يقول فى أمر افعل ، والعقل يقول لا تفعل ، وما رأيت محمدا يقول فى أمر لا تفعل ، والعقل يقول افعل » ·

الأمر الثانى الذى جعلنا نشير الى هذه الدولة لرد أقوال الذين يقولون على الله تعالى بغير الحق ، أن الدين للعبادة ، أما الدنيا ، فان الناس ينظمون أمرها ، فبينا أن العبادة لله تعم كل طاعاته ، ومن طاعاته كل اتباع ما أحل وما حرم ، وما نظم ·

ولقد كانت التجارب الانسانية تؤيد اقامة دولة اسلامية تمنع الظلم وتقيم الحق والعدل بين الناس ، ولقد رأينا من اقدم العصور دولا تقوم ، وأخرى تهبط ، والرعايا ضائعون بين الحكام المتغالبين ، وبمقدار استعلاء الحكام يكون الظلم المستمر الذى يعم ولا يخص ، فمن عهــد الرومان والرعايا هم فرائس لمغالبة المتحكمين ·

وان القرآن الكريم الذى نظم الحكم فى الاسـلام يدعو الى أن تحـكم الشعوب نفسها بنفسها ، وأن الحاكم مسئول أمام الله تعالى ينفذ أحكامه أولا : وأمام الشعوب لا يرهقهم ولا يظلمهم ، ولا يشق عليهم · ثانيا : الا أن يكون فى المشقة تنفيذ حكم الله تعالى ·

الاخـــاء

٣٣٧ ـــ وقد ابتدأ عمله صلى الله تعالى عليه وسلم فى المدينة المنورة بايجاد الروابط التى تربط آحاد الجماعة الاسلامية ، وتكون وحدة تضم بهـا العناصر المختلفة الأنساب والاماكن ، وأن يجعل من ذلك المجتمع المختلف أنسابا وقبائل مجتمعا مؤتلفا فى شعوره ، تمحى فيه الفوارق ، والأمور التى تفـرق ولا تجمع ٠

وجد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مهاجرين من بطون مختلفة ، ووجد أنصار آووا ونصروا ، ولكن الدماء لم تكن قد جفت بينهم ، فجاء الى ذلك الجمع الذى كان متنافرا ، ليؤلف بين قلوبهم ، والأمم انما تتكون بتأليف القلوب المتنافرة ، وجمعها على الحق ، وأشد ما يجمع توثيقا ـ الايمان بالله والخضوع لأحكامه ، فى ظل أطهر من فى الوجود وهو محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

قال السهيلى فى كتـــابه الروض الأنف : « آخى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين أصحابه حين نزلوا بالمدينة المنورة ، ليذهب عنهم وحشة الغربة ، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم ببعض » ٠

وعندى أن ذلك أحـد أغـــراض المؤاخاة ، ولكن المؤاخاة أولا وبالذات تتجه الى تكوين وحدة الجماعة المؤمنة ، ولذلك كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار أولا ، وكانت بين المهاجرين بعضهم مع بعض ثانيا ، وبين الأنصار بعضهم مع بعض ثالثا ، أوسهم مع خزرجهم ، ليقضى الرسول عليه الصلاة والسلام على الثغرة السابقة بالألفة التى تجمع القلوب ، وتزيل نفارها ٠

فالمؤاخاة كانت لتكون الأخوة هى العلاقة بين النسيب الشريف ، والمولى الضعيف ، ولذلك كانت المؤاخاة جاعلة حمزة بن عبد المطلب أخا لزيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

فالمؤاخاة كانت لتكوين الجماعة كما ذكرنا ، ولوضع مبدأ المساواة عمليا ، ولنترك الكلمة لابن اسحاق يشرح ما كان فيه ٠

يقول ابن اسحاق فى سيرته بسنده « آخى رسول الله صلى الله تعالى علبه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال فيما بلغنا ، ونعـوذ بالله تعالى أن نقول عليه ما لم يقل ٠ « تآخوا فى الله أخوين » ثم أخذ بيـد على ابن أبى طالب ، فقال هذا أخى ، فكان رسول الله سيد المرسلين ، وامام المتقين ، ورسول رب العالمين الذى ليس له خطيـر ولا نظيـر من العبـاد ، وعلى ابن

أبى طالب رضى الله تعالى عنه أخوين ، وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله تعالى ، وأسد رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وزيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخوين ، واليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضروا القتال اذا حدث به حادث الموت ، وجعفر بن أبى طالب ذو الجناحين ، الطيار فى الجنة ، ومعاذ بن جبل أخو بنى سلمة أخوين (وكان جعفر بن أبى طالب يومئذ غائبا بأرض الحبشة) ·

وكان ابو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، وخارجة بن زهير ·· أخوين ·

وهكذا أخذ يحصى الأخوة بهذا التآخى بين المهاجرين والأنصار ، فذكر المؤاخاة بين بلال مؤذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مع أبى رويحة ·· وقد استمرت الأخوة بينهما لا تنقطع ، كالشأن فى كل من آخى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بينهم ·

ولما دون أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الدواوين بالشام ، وكان بلال قد خرج الى الشام ، واقام بها مجاهدا ، قال له عمر الى من تجعل ديوانك ، فقال مع أبى رويحة ، لا افارقه أبدا ، للأخوة التى كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد عقدها بينه وبينى ، فضم اليه ·

وقد أنكر ابن القيم مؤاخاة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لعلى ابن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه ، وقال فى ذلك : « وقد آخى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار » وذكر ما نقلناه عن محمد ابن اسحاق ، ثم قال :

« وقد قيل ان نبيه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية ، واتخذ فيها عليا أخا لنفسه » · والثابت الأول « أن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فقط » والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الاسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار ، ولو آخى بين المهاجرين ، كان أحق الناس بأخوته أحب الخلق اليه ، ورفيقه فى الهجرة ، وأنيسه فى الغار ، وافضل الصحابة . وأكرمهم عليه ، أبو بكر الصديق ، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا ، لاتخذت أبا بكر خليلا » ·

وهكذا نرى الامام ابن القيم ينكر الرواية لمجرد الاستبعاد ، ولم يتعرض للطعن فى الرواية ، ويقصر المؤاخاة والباعث عليها على ما كان بين المهاجرين

والأنصار ، لأجل توثيق الايواء ، وحاجة المهاجرين اليه ، ولا يحتـاج اليـه المهاجرون بعضهم لبعض ، ولا الأنصار بعضهم لبعض ٠

ولقد وافق ابن القيم فى هذا ابن كثير فقال فيما نقله ابن اسحاق : « وفى بعض ما ذكره نظر ، أما مؤاخاة النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم ، فمن العلماء من ينكر ذلك ، ويمنع صحته ، ومستنده فى ذلك ، ان هذه المؤاخاة انما شرعت لأجل ارتفاق بعضهم من بعض ، لتتألف قلوب بعضهم على بعض ، فلا معنى لمؤاخاة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأحد منهم ، ولا لمهاجرى آخر ، كما ذكره من مؤاخاة حمزة وزيد بن حـارثة اللهم الا أن يكون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يجعل مصلحة على الى غيره ، فانه كان ممن ينفق عليه رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسـلم من صغره فى حياته أبيه أبى طالب وكذلك يكون حمزة قد التزم بمصالح مولاه زيد بن حارثة فآخاه بهذا الاعتبار ، والله تعالى أعلم » (١) ٠

وما ينكره ابن القيم نحن نثبته ، ونرجح أن المؤاخاة بين المهـاجرين بعضهم مع بعض والأنصار بعضهم مع بعض نقررها ؛ وذلك لأن الحافظ ابن كثير لم يتـكلم فى صحة هذه الرواية المثبتـة ، ولأن قصر البـاعث فى المؤاخـاة مجرد تمكين المهاجـرين من الارتفـاق من اخوانهم الأنصـار قصر لا دليـل عليه ، بل هو أخذ من ظاهر الهجرة ، والايواء والنصرة ، كمـا صرح بذلك القرآن الكريم ٠

ان المؤاخاة ليس المقصود منها فيما نحسب هذا الارتفاق فقط ، ولكن آثار غير ذلك منها :

أولا : عقد الألفة بين الضعيف والقوى ، وتمكين الصحبة بين المؤمنين وألا يتعالى مؤمن على مؤمن ، وناهيك بمؤاخاة حمـزة الشريف النسـيب مـع زيد بن حارثة المولى الذى كان عبدا ، ومن عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بالعتق ، وكان قد أعلاه ، وجعله ابنا له ، حتى حرم الله تعالى الأدعياء وقال سبحانه : « **وما جعل أدعياءكم أبناءكم** » فكان من حكمة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن جعله أخا لابن عبد المطلب ٠

وثانيا : أن المهاجرين كانوا من قبائل مختلفة ، والقرشيون منهم من كانوا من بيوت متنافسة ، فكان لابد من محو العصبية والدمج بينهم بحكم أخـوة الاسلام ٠

---

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير جـ ٢ ص ٢٣٧ ٠

وثالثا : أن الأنصار لم يكونوا متآلفين فيما بينهم ، فكانت على مقربة من هدايتهم العداوة المستعرة الأوار بينهم ، بين الأوس والخزرج ، فكان لابد من العمل على نسيانها ، وذلك بالمؤاخاة المحمدية ٠

رابعا : أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عندما عقد عقد المؤاخاة كان يشرع للأمة من بعده هذا النظام الذى يجمع المسلمين ، ولم يكن حكما لحادثة واقعة ، ولا علاجا مقصورا ، على ما بين المهاجرين والأنصار بل هو تأليف للمؤمنين ونظام متبع ، وربما تكون الحاجة اليه من بعد أشد وأكبر ، ولذلك كان ولاء الموالاة الذى تقرر أنه لم ينسخ ، وأنه بين العرب وغيرهم من الأعاجم الذين يدخلون فى الاسلام من بعد ٠

٣٣٨ ـــ وقد أثمرت المؤاخاة ثمرتها ، وربطت بالمودة على قلوب المؤمنين ، روى البخارى ومسلم والامام أحمد عن أنس أن عبد الرحمن ابن عوف قدم المدينة ، فآخى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بينه وبين سعد ابن الربيع الأنصارى فقال له سعد أنت أخى ، أنا أكثر أهل المدينة مالا ، فانظر شطر مالى ، فخذه وتحتى امرأتان ، فانظر أيهما أعجب لك حتى أطلقها ، فقال عبد الرحمن : « بارك الله فى أهلك ومالك ، دلونى على السوق ، فدلوه ، فذهب ، فاشترى وباع ، فربح ، فجاء بشىء من اقط وسمن ، ثم لبث ما شاء الله تعالى أن يلبث فجاء وعليه ودك من زعفران ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مهيم (١) ، فقال يا رسول الله تزوجت امرأة ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما أصدقتها ، قال وزن نواة من ذهب قال عليه الصلاة والسلام اولم ولو بشاة » ٠

وقد كان المهاجرون غير طامعين فى غير الايواء والكفاف ، يروى البخارى عن ابى هريرة « قالت الأنصار للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم اقسم بيننا وبين اخواننا النخيل ، قال عليه الصلاة والسلام : لا ، ويشركوكم فى التمرة ، قالوا سمعنا وأطعنا ٠٠ ولقد كان المهاجرون رضى الله تعالى عنهم يستكثرون ما من به اخوانهم الأنصار عليهم من أموال ، فروى الامام أحمد عن أنس أن المهاجرين قالوا يا رسول الله « ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ، ولا أحسن بذلا من كثير ، لقد كفونا المئونة ، وأشركونا فى المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله « قال عليه الصلاة والسلام : لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله تعالى لهم » ٠

---

(١) الودك الدهن ، ولعل دهن الزعفران عطرا ومهيم ، استفهام عن الحال أى ما هذه الحال التى أنت عليها ٠

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد جعل المهاجرين يعملون ليستفيد الأنصار منهم كما آووهم ونصروهم ، فانه يروى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال مخاطبا الانصار : « ان اخوانكم قد تركوا لكم الأموال والأولاد ، وخرجوا اليكم ، فقال الأنصار أموالنا بيننا قطائع • فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « او غير ذلك • قالوا ومازال يا رسول الله يثنى عليهم حتى قال هم قوم لا يعرفون العمل ، فتكفونهم • وتقاسمونهم الثمر » •

فالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « ابى أن يعمل المهاجرون مع الأنصار ، ويكون الثمر بينهم قسمة عادلة للأرض حصتها ، وللعمل حصته » •

الألفة بين سكان المدينة المنورة

٣٣٩ ــ كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار • والمهاجرين بعضهم مع بعض • والأنصار بعضهم مع بعض تأليفا من الآحاد • وتعاونا بينهم • وهو عقد أواصر المودة الشخصية • وهى أساس للألفة الاجتماعية • والروابط الجماعية ولكن كان لابد أن يكون بجوار تنظيم للعلاقات القبلية أو الأسرية • والتعاون بين البطون والقبائل ، بعد التعاون بين الآحاد بالاخاء • أن يكون الاتصال بينها على أساس التعاون على الخير • ودفع الاثم بينهم • وأن يكونوا جميعا فيما بينهم متماسكين فى دفعة الخير • ودفع الشر •

ولذلك اتجه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى تأليف الجماعات التى كانت تسكن المدينة المنورة من مهاجرين وانصار ويهود بل مشركين ممن بقوا على وثنيتهم •

وقد قال الحافظ ابن كثير فى تاريخه (البداية والنهاية) : كان بها ــ أى يثرب ــ من أحياء اليهود بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، وكان نزولهم بالحجاز قبل الأوس والخزرج ، وقد نزلوا به أيام بختنصر حين دوخ بلاد المقدس فيما ذكره الطبرى •

ثم لما كان سيل العرم ، وتفرقت اليمن شذر مذر نزل الأوس والخزرج بالمدينة عند اليهود ، فحالفوهم ، وصاروا يتشبهون بهم لما يرون لهم عليهم من فضل العلم بالمأثور عن الأنبياء •

وبعد الهجرة قد صار اليهود حانقين على المؤمنين الذين آمنوا ، وعلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ لأنه مبعوث من بين أولاد اسماعيل ، لا أولاد

اسحاق ، مع أنهم كانوا يستفتحون على الذين أشركوا به ، ويرجون النصرة فى بعثه ، فلما جاء ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الظالمين ٠

ويقول ابن القيم انه بعد الهجرة صارت المدينة المنورة بها أنواع من النفوس ، فكان فيها المؤمنون من المهاجرين والأنصار وكان فيها اليهود من بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة ، وفيها المشركون ، وكان من خارجها من يناصبونه العداء ، وقد قال رضى الله تبارك وتعالى عنه فى ذلك :

« لما قدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة ــ صار الكفار معه ثلاثة أقسام ، قسم صالحهم وواعدهم على الا يحاربوه ولا يظاهروا عليه ، ولا يوالوا عليه عدوه ، وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم ، وقسم حاربوه ، ونصبوا له العداوة ، وقسم تركوه ، فلم يصالحوه ، ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يئول اليه أمره ، وأمر أعوانه ، ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره ، وانتصاره فى الباطن ، ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه ، وانتصارهم ، ومنهم من دخل معه فى الظاهر ، وهو مع عدوه فى الباطن ليأمن الفريقين ، وهؤلاء المنافقون ، فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره ربه تبارك وتعالى » ٠

كان قدوم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة المنورة فى هذه الطوائف ، ولكن لم تظهر هذه الأقسام فى وقت واحد ، فالنفاق فيما أحسب وكما تدل الوقائع التاريخية لم يظهر الا بعد النصر فى غزوة بدر الكبرى ، وكما سنبين ، ولما شرق بنو قينقاع بهذا النصر ، وأبدوا العداوة ، واعتزموا الشر ، فقوتلوا حتى أجلوا ، عندئذ ظهر النفاق ، واعلان الاسلام من بعض أعداء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومهما يكن من أمر تاريخ ظهور بعض الطوائف ، فانه من المؤكد انه كان أمام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مشركو قريش الذين ناصبوه العداء ، وأخرجوه من داره ، وان كان الاخراج أمرا مقدورا ، وأن الهجرة كانت أمرا لابد منه كما أشرنا ، وكان أمامه اليهود ، وهم يساكنون أهل يثرب ولهم المقام معهم ، يدنيهم المكان والجوار ، ويبعدهم الاعتقاد ، وأمامه الذين اعتزلوا المؤمنين ، فلم يقاتلوه ، ولم يمالئوا عليه أعداءه ٠

وما كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يتكشف القلوب ممن يريدون ظهوره على أعدائه ، ومن يريدون ظهور أعدائه عليه ، فالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ينفذ شريعة تحكم بما ظهر ، وتترك لله ما بطن ، وان كانت تأمر بالاحتياط والحذر فالله تعالى منزل هذه الشريعة ، يقول تبارك وتعالى فى كتابه العزيز : « **يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم** » ٠

التأليف الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والحربى :

٣٤٠ — كتب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا هو بالنسبة للمؤمنين أمر من الله تعالى بتنظيم مجتمعهم ، وتعاونهم الاجتماعى والاقتصادى وتنظيم لشئون السياسة بينهم ، وتأليف بين بطونهم ، وقبائلهم ، وتعاون على اقامة الخير ، ودفع الشر ، وبيان حكم الاسلام فى العمل على منع الظلم ، والتظالم بينهم آحادا وجماعات ٠

وجعل ما يسرى على المؤمنين فى شعوبهم وقبائلهم يسرى على اليهود وغيرهم ، على أن يكون لهم ما للمؤمنين ، وعليهم ما عليهم ، لا يضارون فى دينهم ، ولا يعتدى عليهم فى اعتقادهم ، وعلى أن تكون الرياسة الكبرى للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ولذلك كان هذا الكتاب بالنسبة لليهود عهدا عاهدهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد آن لنا أن ننشر الكتاب كما رواه ابن اسحاق ، وكما روته صحاح السنة ، واليك الكتاب الشريف ٠

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد النبى « صلى الله تعالى عليه وسلم » بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم :

بأنهم أمة واحدة من دون الناس ٠

المهاجرون من قريش على ربعتهم (الحال التى هم عليها يتعاقلون) (١) وهم يفدون عانيهم (٢) بالمعروف ، والقسط بين المؤمنين ٠

وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ٠

وبنو ساعدة على ربعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ٠

وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ٠

---

(١) أى يدفعون دياتهم بعضهم مع بعض ٠
(٢) العانى الأسير ٠

وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ·

وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ·

وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ·

وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ·

وان المؤمنين لا يتركون مفرجا (١) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل ·

وألا يحالف مؤمن مولى مولى مؤمن دونه (٢) ·

وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى وسيعة (٣) ظلم أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وان أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم ·

ولا يقتل مؤمن فى كافر ، ولا ينصر كافر على مسلم ·

وان ذمة الله تعالى واحدة يجير عليهم أدناهم ·

وان المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ·

وان من تبعنا من يهود ، فان له النصر والأسوة ، غير مظلومين ، ولا متناصرين عليهم ·

---

(١) المفرج المثقل بالدين والكثرة العيال ·

(٢) معناه الا يكون بين مؤمن وآخر ولاء ، فيجىء مؤمن ويأخذ الولاء لأنه لحمه كلحمة النسب ·

(٣) الوسيعة العظيمة ·

وان سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله ، الا على سواء وعدل بينهم وان كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا ٠

وان المؤمنين يبىء بعضهم على بعض بما نال وباءهم فى سبيل الله تعالى ٠

وان المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ٠

وانه لا يجير مشرك مالا ولا نقريش ، ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن ٠

وانه من اعتبط (١) مؤمنا قتلا عن بينة فانه قود الا أن يرضى ولى المقتول ، وان المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم الا قيام عليه ٠

وانه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ، ولا يؤويه ، وأن من نصره أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ٠

وانكم مهما اختلفتم فيه فى شىء ، فان رده الى الله عز وجل ، والى محمد (صلى الله عليه وسلم) ٠

هذا كله بالنسبة للمؤمنين ، وقد عاهدهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على كل ما فيها ، أما ما جاء بالصحيفة خاصا باليهود فقد كان عهدا عاهدهم عليه ، وعلى طرفيه الوفاء به . وقد جاء فى الصحيفة بهذا النص ٠

عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على اليهود

٣٤١ — ان اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وان يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم الا من ظلم وأثم ، فانه لا يوقع الا نفسه وأهل بيته ٠

وان ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى الحارث،

---

(١) اعتبط معناها قتله من غير أى مبرر (يوقع يعنى يهلكه) ٠

مثل ما ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف ، ، وان ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف الا من ظلم وأثم ، فانه لا يوقع الا نفسه وأهل بيته ٠

وان جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ٠

وان ليهود الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف ، وان البر دون الاثم ٠

وان موالى ثعلبة كأنفسهم ، وان بطانة يهود كأنفسهم ٠

وانه لا يخرج منهم أحد الا باذن محمد (صلى الله تعالى عليه وسلم) ، وانه لا ينحجز على ثار جرح ، وان من فتك فبنفســه فتك وبأهل بيته الا مــن ظلم ، وان الله على أبد هذا (أى على الرضا به) ٠

وان على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ٠

وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الاثم ، وانه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وان النصر للمظلوم ، وان اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ٠

وان يثرب حرام صد لأهل هذه الصحيفة ٠

وان الجار كالنفس غير مضار وآثم ، وانه لا تجار حرمة الا باذن أهلها ٠

وانه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله عز وجل ، والى محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وان الله تعالى على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره ٠

وانه لا تجار قريش ، ولا من نصرها ٠

وان بينهم النصر على من دهم يثرب ، واذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه ، وانهم اذا دعوا مثل ذلك فانه مهم على المؤمنين الا من حــارب فى الدين ٠

على كل أناس حصتهم من جانبهم الذين قبلهم ٠

وان يهود الأوس مواليهم وانفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وان البر دون الاثم لا يكسب كاسب الا على نفسه ، وان الله تعالى على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره ، وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم ، وانه من خرج آمن ، ومن قعد آمن الا من ظلم أو أثم ، وان الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) ٠

نظرة فى هذه الوثيقة :

٣٤٢ ــ هذه وثيقة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم التى نظم بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المجتمع الجديد لسكان المدينة المنورة لا فرق بين مهاجرين وأنصار ، ولا فرق بين مؤمنين ويهود ، ويلاحظ فيها :

(أ) أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بحكم النظام الجديد الذى أنشأه فى المدينة المنورة صار هو الرئيس الأول لتنفيذ ما اشتملت عليه الوثيقة ، ولذلك لم يبح لطائفة من اليهود أن تخرج فى حرب الا باذنه ، حتى لا تتورط فى أمر يضطرب أمر هذا المجتمع الذى أريد له أن يقوم على أساس التعاون فى جلب الخير ، ودفع الشر ، يتصادقون ويتوادون ولا يتعاونون على اثم أو عدوان ٠

(ب) انه بمقتضى هذه الوثيقة يصير اليهود الذين يقيمون بيثرب رعية واحدة ، فلا تكون لهم أحكام خاصة بهم لا تسرى على غيرهم ، ولا يختصون بنظم لا تنطبق على غيرهم ، وذلك مع الاحتفاظ بدينهم ، تراعى فيه حرمة العقيدة ، وألا يكون لأحد عليهم سبيل فيها ، وأن عليهم حكم الله تعالى ، وللنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ألا يحكم بينهم اذا وجد مصلحة ، ويبين هذا قوله تعالى فى شأنهم : « **فان جاءوك فاحكم بينهم ، أو أعرض عنهم ، وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا ، وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، ان الله يحب المقسطين** » ٠

وان هذا يدل على أنهم كانوا خاضعين فيما يتعلق بالنظام العام كحرمة الدماء ، والظلم ، ولكن شئونهم الخاصة لا يحكم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيها بينهم الا اذا جاءوا اليه ، فله أن يحكم ، وله أن يعرض ٠

ولذا لا نستطيع أن نقول انهم كالذميين تماما فى الأحكام ، ولكنهم من جهة كالذميين ، ومن جهة ثانية جيران ، يستمتعون بحقهم فى المعاملات الخاصة من غير اثم ٠

(جـ) ان العهد كان أساسه التعاون بين العشائر بحيث تحمى كل عشيرة ضعيفها ، وتعطى الفضيلة بينها وتفك أسر أسيرها ، وتدفع ديات قتلاها ، وذلك يشير الى حرمة كل شخص على أهله فى دائرة البر لا فى دائرة الاعتداء أو الانتقام ٠

(د) أنه مع التعاون بين العشيرة ، هناك تعاون عام بحيث يتضافر المؤمنون جميعا بل الجماعة فى عون المظلوم ، ولذلك عندما كان النص على القود أوجب على المؤمنين جميعا معاونة أولياء المقتول فى القصاص ، وتتعاون الجماعة كلها فى دفع أذى كل من يحدث حدثا أو اشتجارا ، أو ما يثير العداوة والبغضاء ، وانه بهذا التعاون الفاضل تستقر الأمور على خير الجماعة ، وما يجلب لها النفع ، ويدفع عنها الضر ، وانه لو نفذ هذا العهد بكل ما فيه لتكونت من المؤمنين وجيرانهم مدينة فاضلة ٠

وان الحلف يوجب أن يكون عدو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عدوا لليهود ، فلا يجار قرشى ، ولا من يناصر قريشا ، فعلى اليهود الا يوالوا المشركين ؛ لأنهم أعداء الله تعالى ، وأعداؤهم ، وذلك لأن الميثاق يجعل أهل المدينة المنورة مسلمين ويهودا أهل ولاء واحد ، عدوهم واحد ، ومناصرتهم واحدة ، وذلك ليكون أمن الجميع واحدا ، فمن هاجم فريقا من أهل المدينة المنورة فقد هاجم المدينة كلها ، وذلك بلا ريب يلزم اليهود ، لأن الوثيقة أعطتهم حقوقا ، وأوجبت عليهم واجبات ، فاذا أخلوا بما يجب عليهم ، فقد أسقطوا ما لهم من حقوق ، لأن الحقوق والواجبات متقابلة ٠

وما دام الولاء واحدا ، فانه لا يصح أن يتعاون اليهود وأعداء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم على شىء دون ما نص عليه ، وقد وفى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بهذا العهد ٠

فهل وفى اليهود !! ، ان الأمور التى تجرى كفيلة بالجواب ، مع ملاحظة أن الأمر يوجب الوفاء من الجانبين ، وان أخل أحدهما ذهبت الحقوق التى تضمنتها الوثيقة له ، واذا كان الاخلال فيما يتعلق بالأمور الخارجية ، وهى موالاة اليهود للمشركين على المؤمنين ، فانه فى هذه الحالة تزول صفة الجوار ، ويكون من الواجب على من ينكث أن يترك الجوار ، ويتخلى عن الاقامة فى المدينة ، وحل للطرف الآخر أن يخرجه طوعا أو كرها ، فان لم يفعل كان يحل له أن يحمى ظهره ، ولو بقتله ، لأنه صار عدوا له ، وأصبح كالثعبان يكون فى بطانة الرجل ، فيجب أن يبعده ، ولو بقتله ، لأن الأمر اما سلم فيها الأمن ، واما حرب فيها الخوف ٠

الآذان

٣٤٣ — تكونت جماعة الاسلام ، ووضع صلى الله تعالى عليه وسلم نظم هذا الاجتماع ، وألف القلوب فيه ، بالاخاء بين المؤمنين . ووضع النظم للتأليف بين من يدخلون فى الاسلام من بعد .

ثم كان عقد الوثيقة التى ألفت بين الجماعات فى المدينة المنورة كما ألفت الاخاء بين الآحاد ، وبين الواجب على كل جماعة ثم عقد العهد مع اليهود على أن يكون لهم ما للمؤمنين فى الشئون العامة ، ولهم شئونهم الخاصة ، يتحاكمون فيها فيما بينهم ، وان احتكموا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فله أن يحكم بينهم بما أنزل الله تعالى فى القرآن الكريم .

وبعد هذا التأليف وذاك التكوين بين ما يربط جماعة المؤمنين قلبيا ، بعد أن سن ما ألف بين قلوبهم اجتماعيا ، وذلك بتنظيم الجماعات فى الصلاة والتنبيه العام بمواقيتها ، والدعوة اليها ، لتؤدى جماعة فى أوقاتها ، وذلك بالآذان ، فكان شرعه فى هذا الابان .

يقول فى ذلك ابن اسحاق : « فلما اطمأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالمدينة المنورة ، واجتمع اليه اخوانه من المهاجرين ، واجتمع اليه أمر الأنصار ، استحكم أمر الاسلام فقامت الصلاة وفرضت الزكاة والصوم وقامت الحدود ، وفرض الحلال والحرام ، وتبوأ الاسلام بين أظهرهم ، وكان هذا الحى من الأنصار هم الذين تبوءوا الدار والايمان .. وقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين قدمها ، انما يجتمع الناس اليه للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة ، فهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يجعل بوقا كبوق يهود الذى يدعون به لصلاتهم ، ثم كرهه ، ثم أمر بالناقوس ، فنحت ليضرب به للمسلمين » .

ويلاحظ على هذا الكلام أمران :

أولهما : أن ما ذكره من قيام الصلاة وفرضية الزكاة والصوم ، واقامة الحدود وفرض الحلال والحرام انما كان فى أوقات مختلفة من بعد ذلك ، وبعضها كان قبل الهجرة ، وهو فرض الصلاة ، فقد فرضت فى الاسراء والمعراج ، كما هو مذكور فى موضعه ، ولعل الذى جد فى المدينة المنورة هو قيامها جماعة في أمن واطمئنان ، وعبارة ابن اسحاق قد تومىء لذلك .

الأمر الثانى : أن كلام ابن اسحاق فيه أن خاطر البوق اليهودى خطر للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكذلك ناقوس النصارى ٠

ولكن روى ابن ماجه عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم استشار الناس لما يهمهم من الصلاة ، فذكروا البوق ، فكرهه من أجل اليهود ، ثم ذكروا الناقوس ، فكرهه من أجل النصارى ٠

وهذا الخبر يخالف ما قاله ابن اسحاق فى روايته من جهتين :

أولاهما : فى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذى هم بالبوق ، والرسول فى الرواية الثانية قد استشار ، وكره عليه الصلاة والسلام ما أشاروا به ٠

الثانية : أن رواية ابن اسحاق فيها ما يفيد أنه أخذ فى تنفيذ فكرة الناقوس ، مع أن الرواية الأولى تقول انه كرهه ، ونحن نرى أن هذه الرواية الأخيرة هى الأليق بمقام الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهى الأنسب ، فهى عندى أصح ، والله أعلم ٠

ويسترسل ابن اسحاق فى أمر الآذان ، فيقول : « فبينما هم على ذلك اذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه « النداء » فأتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله : « انه طاف بى هذه الليلة طائف : مر بى رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسا فى يده ، فقلت له يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ! قلت ندعو به الى الصلاة ٠ قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ! قلت : وما هو ؟ قال : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ٠ أشهد أن لا اله الا الله أشهد أن لا اله الا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ٠ لا اله الا الله » ٠ فلما أخبر بها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال انها لرؤيا حق ان شاء الله ٠ فقم على بلال فألقها عليه ، فانه أندى صوتا منك ، فلما أذن بلال سمعها عمر بن الخطاب ٠ وهو فى بيته ٠ فخرج الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يجر رداءه ، ويقول : « يا نبى الله ، والذى بعثك بالحق ، لقد رأيت مثل الذى رأى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ فلله الحمد على ذلك ٠

هذا سياق ابن اسحاق فى هذا الاهتداء الى صيغة الآذان ٠ وأن ذلك كان برؤيا رآها بنصه اثنان من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم،

وان هذا نتيجة لرواية الشورى التى استشار بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أصحابه ٠

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اقر الرؤيا فكان الآذان على ذلك شرعا باقرار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذلك على أن اقرار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذى شرع الآذان لا الرؤى والأحلام ٠

ولكن علق ابن هشام فى سيرته على رواية ابن اسحاق بأن الوحى قد نزل بالآذان ، وصيغته ، فقال : « ذكر ابن جريج قال : قال لى عطاء : سمعت عبيد الله بن عمير الليثى يقول : « ائتمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه بالناقوس للاجتماع للصلاة ، فبينما عمر بن الخطاب يريد أن يشترى خشبتين للناقوس اذ رأى فى المنام : « لا تجعلوا الناقوس ، بل أذنوا للصلاة ، فذهب عمر الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليخبره بالذى رأى، وقد جاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الوحى بذلك ، فما راع عمر الا بلال يؤذن ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين أخبره بذلك ، قد سبقك بذلك الوحى ٠

وان هذه الرواية تصرح بأن الوحى نزل على النبى عليه الصلاة والسلام وفيه تفصيل الآذان بأركانه وهى ليست رؤيا عبد الله بن ثعلبة بن ربيعة ٠

وانا نميل الى هذه الرواية ، وذلك ، لأن الآذان شعار من شعائر الاسلام ، وأنه تعرف به الجماعات الاسلامية ، وما يكون كذلك من العبادات لا يكون من الأمور التى تكون بشورى الناس ، وقد تكون الشورى ابتداء لمعرفة طريق الاعلام ، فجاء الوحى بهذا الطريق الذى يعتبر سنة ، وما كانت السنة تعرف بطريق رؤى الآحاد ، انما تكون بوحى من الله تعالى ، وان الآذان لكل صلاة سنة مؤكدة ، وكثيرون من العلماء يقولون انه بالنسبة للجماعات فرض كفاية تأثم الجماعة كلها اذا تركته ٠

وان تفصيل الآذان وبيان أجزائه التى لا يمكن أن يجزى الآذان الا بها لا تكون الا بأمر من الله تعالى ، لأن الآذان عبادة ، ولا تعرف أجزاء العبادة الا بوحى من الله تعالى لنبيه ، لا برؤيا لغيره مهما تكن مكانته فى الاسلام ٠

الاذن بالقتال

٣٤٤ ـــ بعد أن استقر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اتجه الى تعميم الدعوة وحماية الضعفاء من المؤمنين الذين كانوا يفتنون فى دينهم ، ويؤذون فى اعتقادهم ، وكان لابد أن يكون ذلك بقتال المشركين الذين يؤذون المؤمنين ، ولابد من استنقاذ البيت الحرام من عبادة الأوثان ، وأن تحطم الأوثان التى تحيط به ٠

ولذلك شرع الله تعالى القتال ، فقال تعالى فى كتابه المبين : **ان الله يدافع عن الذين آمنوا ، ان الله لايحب كل خوان كفور ، اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز ، الذين ان مكناهم فى الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور »** ٠

كان الاذن بالقتال ، وفتح باب الجهاد ، وفى هذا النص الكريم بيان الباعث عليه ، والنتيجة التى ينتهى اليها ، وانها لخير ، ووسائل الخير تكون خيرا ولو كانت أمرا كريها ، مادام قد تعين ما هو الطريق ، وانه اذا تعين كان خيرا ، ولذلك قال تعالى : « **كتب عليكم القتال ، وهو كره لكم ، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون** » ٠

والآية التى كان فيها الاذن بالقتال فيها اشارات بيانية تليق بالقرآن الكريم أبلغ كلام فى هذا الوجود الانسانى ٠

أولها : أن فيها الاذن بالقتال ، ولكنه لم يصرح بها ، اذ أنه صرح بأشد ما يبعث عليه ، وهو أن القتال من جانب الأعداء قد وقع فعلا ، لأنه سبحانه وتعالى عبر بقوله « **يقاتلون** » بالبناء للمجهول ، أى أن المشركين قاتلوا المؤمنين فعلا ، فقد آذوهم وحاولوا أن يفتنوهم عن دينهم ، والفتنة أشد من القتل كما قال الله تعالى ، وحاولوا قتل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وحاولوا أن يقتلوا المبايعين فى بيعة العقبة الثانية ، فكان التعبير بالبناء للمفعول دليلا على أن قتال المؤمنين فى مقابل انهم ابتدءوا ، وهو دفع للأذى ، وللفساد فى الأرض ، كما قال تعالى : « **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين** » ٠

الاشارة البيانية الثانية أن الله تعالى صرح بأن القتال دفع للظلم أو منع لاستمراره ٠

الثالثة : أن أهل الايمان هم أهل الحق ، فان قاتلوا فهو دفاع عنـــه ، وعن التوحيد ، والايمان به ، فهو قتال يحمل فى باعثه ، وفى ذاته ، الدعوة الى الله تعالى ٠

الرابعة : أن القتال الذى يكون جهادا فى سبيله هو دفع الباطل ، والا كان الفساد فى الأرض ، وألا يعبد الله تعالى فتهدم بيع وصلوات ، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ٠ فالقتال نصرة لله تعالى ، وحماية للحق ، « **ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز** » ٠

الخامسة : أن القتال فيه تمكين للحقائق الاسلامية ، فنتيجة القتـــال تمكين للذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، فالقتال من نتيجته أنه يمـكن أهل الحق من الدعوة اليه بالقول وبالعمل ، وبذلك تقوم شريعة الله سبحانه ٠

وفى هذا اشارة الى أن غاية القتال بعد دفع الاعتداء ومنع الظلم ، هو التمكين للدعوة الاسلامية ، وأن يدخل الناس فى دين الله تعالى مختارين من غير فتنة ، ومن غير ارهاق لهم فى عقائدهم ٠

وبذلك نأخذ من الآية الكريمة أن الباعث على الجهاد فى الاسلام أمران :

أولهما : دفع الظلم ومنع الفتنة ـ كما قال تعـالى : « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عـدوان الا على الظالمين** » ٠ وأن الاعتداء يرد بمثله ، فمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم الذى جاء بالحق لا يدفع ارادة الأذى بالسكوت عليه واستمراره ، بل يدفع الاعتداء بمثله ، كما قال تعالى : « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين** » ٠

الأمر الثانى : هو التمكين للدعوة الاسلامية ، بأن تزال الحاجزات التى يقيمها الملوك والحكام الظالمون بين دعوة الاسلام ، والاستجابة لدين الحق أو أن يعوقوه ، وليس معنى ذلك حمل الشعوب على الدخول فى الاسلام كرها بقوة السيف ، بل ان مؤداه أن يعرفوا الاسلام ، ويتمكنوا من تلقى الدعوة الاسلامية ، فاذا عرفوها فقد تبين الرشد من الغى ، والحق من الباطل ، فمـن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، ولذلك قال تعالى : « **لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقـــد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصام لها ، والله سميع عليم** » ٠

أول القتـال

٣٤٥ — أخرج المشركون من قريش المؤمنين من مكة المكـرمة ، وجردوهم من أموالهم ، وفتنوهم فى دينهم ، فكان لابد من أن يضايقوهم كما ضايقوا المؤمنين ويردوهم عن غيهم ، ويعلموهم أن الباطل لابقاء له ، بل ان للحق قوة ، وانه أبلج ، ابتدأ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بارسال السرايا ، وهى طوائف صغيرة من الجيش على رأسها قائد من القواد ، فهى تشبه كتيبة يرسلها القائد الأكبر ، لتحارب ، أو لتمنع الطريق عن قوم من الأعداء ، أو كسرية الجيوش فى هذه الأيام ، وقد فهم بعض الكتاب من أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ابتدأ بالسرايا تصادر عير قريش ، أو طائفة من تجار المشركين ، وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ابتدأ بالحصار الاقتصادى ، ونحـن نفهم من الحصار الاقتصادى الحصار الذى يفـرض على موارد الجماعة كلها من رزق ، أى أن الحصار يفرض على قريش كلها ٠

ونحسب أن النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم ما كان يريد أن تصاب قريش كلها بمجاعة ، فما كانت قريش كلها على طريقة أبى جهل وأبى سفيان ومن على شاكلتهما من الذين ناوءوا الدعوة ابتداء ، واستمروا على غيهم الى أن كان الفتـح المبين ، وكان منهم السـاكتون الـذين لم يعـادوا ، ولم يناوئوا ، وان لم يؤمنوا ، وليس من شأن المبادىء الاسلامية أن يؤخذ المطيع بظلم العاص أو المعتزل بظلم الذى يرتكب الشر ، وفى قريش من كان مكرها غير مختار ومظلوما مأسورا ، ومنهم من كان يربطه بالمؤمنين مودة وصلة ، بل بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

والحصار الاقتصادى يعم ولا يخص ؛ اذ يعم من بلغـوا أقصى غايات الشر ، ومن سكتوا ، ومن توادوا ، « **ولا تزر وازرة وزر أخرى** » ٠

ولكن هذه السرايا كانت لمنـاهضة زعمـاء قريش ، اذ كانوا أصحاب المتاجر التى تحملها العير وقتا لآخر ، ولأن أولئك الزعماء ، أخرجوا المؤمنين من ديارهم وأموالهم ، فكان حقا على هؤلاء أن يضايقوا من الذين أخرجوهم من أموالهم معاملة بالمثل ، وليأخذوا مقابلا لبعض ما أخـذ منهم ، وليذيقوا أولئك الزعماء وبال ما صنعوا ٠

أول السرايا

سرية حمزة رضى الله عنه :

٣٤٦ — فى السنة الأولى من الهجرة ، ابتدأت السرايا ، وهى عدد ليس بكثيف من المجاهدين يعترضون رجالا من قريش يتجهون الى الشام بأموال لهم ، ليمنعوهم من الذهاب الى الشام ، ويستولوا على ما معهم من المال أو يقاتلوهم ٠

ويلاحظ أن هذه السرايا كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يختار رجالها من قريش ، وليس معهم من الأنصار أحد ، وأول سرية كان قد عقدها صلى الله تعالى عليه وسلم لحمزة بن عبد المطلب ، وخرج حمزة فى رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة على سيف البحر ، وكانت عدة هذه السرية ثلاثين رجلا من المهاجرين وكذلك كانت سرايا هذه السنة ، وكان لواؤها أبيض ، وقد اعترضوا طريقا لعير لقريش ، وكانت لكبرائهم ، وكانت عدة من تعرض لهم حمزة ثلاثمائة ، على رأسهم عمرو بن هشام (أبو جهل) ٠

تقابل الفريقان المؤمنون بقيادة أسد الاسلام حمزة والثانية بقيادة لئيم قريش وخبيثها أبى جهل ، ولكن تحاجز الفريقان عن القتال ، وذلك لتوسط رجل من العرب كان موادعا الفريقين اسمه ابن عمرو الجهنى ولذلك لم يحدث قتال ٠

سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب :

٣٤٧ — وفى شوال من هذه السنة عقد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعبيدة بن الحارس لواء أبيض ، وأمره بالسير الى بطن رابغ ، فى ستين من المهاجرين ليس فيهم أنصارى ٠

التقت هذه السرية بمشركى قريش وكانت عدتهم مائتين ، عليهم أبوسفيان صخر بن حرب ٠

وقد كان اللقاء عند ماء يقال له الاخياء حيث كان المشركون ، والمؤمنون قد بلغوا ثنية المرة ولم يكن بينهم قتال ، ولكن كان بينهم رمى بالسهام ٠

ولقد رمى سعد بن أبى وقاص الذى كان فى هذه السرية وان لم يكن قائدها فقد رمى بسهم ، فكان أول سهم رمى به فى الاسلام ·

هذا هو الترتيب الذى ذكره الواقدى فى ترتيب السرايا ، فذكر أن سرية حمزة كانت أولا ، وأنها كانت أول سرية ، وتليها سرية عبيدة بن الحارث ·

ولكن ابن اسحاق يذكر أن أول راية السرية كانت سرية عبيدة ابن الحارث ، لا سرية حمزة ، ويقول فى ذلك : (وبعض الناس يقول راية حمزة أول راية عقدها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأحد من المسلمين ، ذلك أن بعثة حمزة وبعثة عبيدة كانا معا فشبه ذلك على الناس) ·

هذا ما ذكره ابن اسحاق ، ولكن الواقدى لا يذكر انهما كانا معا ، بل يذكر أن واحدة كانت فى الشهر السابع بعد الهجرة ، وهى سرية حمزة ، والثانية كانت فى الشهر الثامن بعدها وهى بعثة عبيدة ·

وهناك اختلاف آخر بين رواية الواقدى ورواية ابن اسحق ، فالواقدى يقول ان حمزة التقى بأبى جهل ، وابن اسحق يقول ، انه التقى بعكرمة ابن أبى جهل ·

وابن كثير يظهر من لحن قوله أنه يرى رواية الواقدى اثبت على ما سنبين ان شاء الله تعالى ·

سرية سعد بن أبى وقاص :

٣٤٨ — وفى ذى القعدة من سنة الهجرة اتى على راس عشرة شهور من الهجرة أرسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سعد بن أبى وقاص فى سرية ؛ لأنه علم عليه الصلاة والسلام أن عيرا لقريش ستمر بها ، فأرسل سعدا فى عشرين من المهاجرين ساروا الى مكان اسمه الخزار ، وقد عينه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على ألا يتجاوزوه ، ويقول سعد رضى الله تعالى عنه : « خرجت فى عشرين رجلا على أقدامنا ، فكنا نكمن النهار ونسير الليل حتى صبحنا الخزار صبح خامسة ، وكان رسول الله عليه الصلاة والسلام وقد عهد الى الا أجاوز الخزار وكانت العير قد سبقتنا قبل ذلك اليوم » وعلى ذلك لم يلق سعد أحدا من قريش ، ولم يأمره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بمتابعتهم ؛ لأنه يظهر أنه عليه الصلاة والسلام كان يريد مباغتتهم فى الطريق ، والمفاجأة تفزع العدو فينال منه ، والملاحقة لا تكون

فيها هذه المفاجأة ، ولأنهم كانوا راجلين ، فلا يوغلون فى الصحراء حيث لا مركب لهم ٠

والواقدى يذكر فى روايته أن سرية سعد كانت عدتها عشرين أو احدى وعشرين ، كما نقل عن سعد رضى الله عنه ، ولكن ابن اسحاق يقول انه خرج ومعه ستمائة من المهاجرين ٠

ولعل رواية الواقدى أوضح وأقرب الى المعقول ، لأنه ثبت أن العير كان بها نحو ستين رجلا ويناسبهم عشرون وانهم راجلون ٠

٣٤٩ — والسرايا الثلاث على كلام الواقدى كانت فى السنة الأولى ، وقد حد مواقيتها ، فالأولى كانت فى رمضان ، والثانية كانت فى شوال ، والثالثة كانت فى ذى القعدة ٠

ولكن قال أبو جعفر بن جرير رضى الله عنه فى تاريخه ، وعند ابن اسحق أن هذه السرايا الثلاث كانت فى السنة الثانية من الهجرة ٠

ونلاحظ أن ابن اسحق يعين أكان فى السنة الثانية أم كان فى الأولى ، ولكن قد يفهم ذلك لأنه ذكرها بعد غزوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أولى غزواته ، وكانت فى ودان ، وهى كانت فى صفر من السنة الثانية ، وقد صرح بذلك ابن اسحاق ، وذكر بعدها الغزوات الثلاث ، واذا كانت الأحداث ترتب فى الذكر بترتيب زمنها ، فانه تكون هذه السرايا فى السنة الثانية ، ولكن نلاحظ أن ابن اسحق فى سيرته يتكلم فى بعض الوقائع فى غير وقت وقوعها ٠ لمناسبة اقتضت ذكرها فى غير أوانها ٠

وعلى فرض أن ابن اسحاق يعد هذه السرايا فى السنة الثانية ، فان الحافظ ابن كثير رجح ما قاله الواقدى ، ويقول : والواقدى رحمه الله عنده زيادات حسنة ، وتاريخ محرر غالبا ، فانه من أئمة هذا الشأن الكبار ، وهو صدوق فى نفسه ، كما بسطنا القول فى عدالته وجرحه فى كتابنا المرسوم بالتكميل فى معرفة الثقات والضعفاء والمجاهل ، ولله الحمد والمنة ٠

٣٥٠ — وهناك ملاحظة أخرى غير ملاحظة الزمن ، والروايات فيه ، وهى تتعلق بقريش ، ومقدار استمساكها فى اعتقادها ٠

ذلك أن الذين كانوا يخرجون لحماية غيرهم كان منهم من هو مؤمن ، ولكن يكتم ايمانه ، وكانوا يخرجون فى متاجر قريش عساهم يجدون سبيلا لأن

يلحقـوا بالمؤمنين اذا كانت الهجـرة قد فاتتهم عند خروج النبى صـلى الله تعالى عليه وسلم . فانها لن تفوتهم من بعد ، فانه قد حدث عند التقاء سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بعير قريش ، التى انصرف الفريقان فيهـا ، ولم يتقاتلا فر من القرشيين الى المسلمين ابن عمرو البهرانى حليف بنى زهرة ، وعتبة بن غزوان بن جـابر المـازنى حليف بنى نوفـل بن عبد مناف ، وكـانا مسلمين ولكنهما توصلا بالكفار الى المسلمين . فوصلا الى المسلمين بطريق المشركين ليأمنا الايذاء والشر ٠

خروج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم للجهاد

٣٥١ ــ اذن للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالقتال ، كما تلونا فى الآية الصريحة بالاذن وهى قوله تعـالى « **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير** » الى آخر هذه الآيات التى تلوناها من قبل ٠

عندئذ أخذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الأهبة ، وأخـذ يرسـل السرايا سرية بعـد سرية ، ثم كانت الغـزوات ، ونرى فى اصطلاح مؤرخى السيرة أنهم يطلقون السرية على كل بعث يبعثه النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم بعدد من المؤمنين قل أو كثر ، (وفى الغالب لا يكون كثيرا) الى لقـاء المشركين ، ولم يخرج عليه الصلاة والسلام مع ذلك الجيش ، أما الغزوة فانه صلى الله تعالى عليه وسلم يخرج فيها مجاهدا بنفسه ، سواء أقاتل بالفعل أم لم يقاتل ٠

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم ابتدأ الجهـاد بالسرايا الثلاث التى بعثها فى رمضان وشوال وذى القعدة ، وهى سرية حمزه بن عبد المطلب ، وسرية عبيدة بن الحارث ، وسرية سعد بن ابى وقاص ٠

ثم ابتدأت الغزوات فى السنة الثانية ٠

وقد اختلف المؤرخون فى عدد غزوات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وما كان اختلافهم فى أصل الوقائع أو عددها ، انما كان سبب الاختلاف هـو اختلافهم فى خروج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع الجيش أو عـدم خروجه أيعد غزوة أو سرية ٠

وعند التحقيق نجدهم متفقين على العدد ، واختلفوا قليلا فى وصف

الخروج ، وكلمة مغازى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عامة تشتمل على الغزوات والسرايا ٠

وعدتهم كما روى الامام أحمد فى مسنده ثلاث وأربعون ، فقد روى عن قتادة أن مغازى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاث وأربعون ، أربع وعشرون بعثا ، وتسع عشرة غزوة ، خرج فى ثمان منها بنفسه ، بدر وأحد والأحزاب ، والمريسيع ، وخيبر ، وفتح مكة المكرمة ، وحنين ٠

وروى عن الزهرى فى هذه الغزوات الثمانى أنه قال : هذه مغازى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قاتل فيها يوم بدر فى رمضان سنة ثنتين ، ثم قاتل يوم أحد فى شوال سنة ثلاث ، ثم قاتل أحد فى شوال سنة ثلاث ، ثم قاتل بنى المصطلق وبنى لحيان فى شعبان سنة خمس ، ثم قاتل يوم خيبر سنة ست ، ثم قاتل يوم الفتح فى رمضان سنة ثمان ، ثم قاتل يوم الحنين ؛ وحاصر أهل الطائف فى شوال سنة ثمان ، ثم حج أبو بكر سنة تسع ، ثم حج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حجة الوداع سنة عشر ٠

ومن هذا السياق التاريخى يتبين أن الغزوات تسع عشرة ، والبعوث أربع وعشرون ، وأن الغزوات منها ما كان فيه قتال بين المؤمنين والمشركين ، ومنها ما لم يكن فيه قتال ، أو جاء شبه الانهزام لخطأ كان من المقاتلين ، وقد يكون انتصار للمؤمنين بغير قتال ، بل كان برعب وريح ، كما كان فى الخندق فانه لايعد فيها قتال ، ولو كانت الهزيمة للمشركين ، وانما كان القتل والقتال فى بنى قريظة ، وقد كانت هناك غزوات لا قتال فيها ، وأول غزوات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن فيها قتال ، ومنها الايواء والعشيرة ، وغطفان وبدر الأولى ، ومن أعظم الغزوات التى لم يقاتل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الحديبية فقد كانت فتحا لابتداء سلام بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقريش ، ولذلك قال الله تعالى فيها : « **انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصرا عزيزا** » ٠

الحرب الفاضلة أو حرب النبوة

٣٥٢ ــ لم يكن فى السرايا التى بعث بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قتال ، بل كانت نتيجتها سلما ، وما كان الفريقان يلتقيان الا ليفترقا فى سلام ، وان لم يكن ذلك دائما ، الا ما كان من رمية رماها سعد بن أبى وقاص

فى سرية عبيدة بن الحارث ٠ ومع أنه لم يكن فى هذه السرايا قتل ولاقتال كانت ذات فائدة ، لأنها أعلمت قريشا أن الاسلام صارت له قوة ، فاما أن يسارعوا اليه ٠ ولا يكونوا آخر الناس ، واما أن يسارع القصاص ، والرد على ما سبقوا به من الاعتداء ٠ أو من جهة أخرى يشعرون بأن قوة الاسلام ستنقذ المؤمنين الذين لايزالون يفتنونهم عن دينهم الذى ارتضوه والفتنة أشد من القتل ٠ كما ذكر الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم ٠ ومن جهة ثالثة يحسون بأن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم سيضايقهم بالحق ٠ كما ضايقوه بباطلهم ٠

وكما يضايقون أصحابه من المستضعفين فى ديارهم ، وذلك بمصادرة أموالهم كفاء لما أخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم ٠

فكانت هذه السرايا الأولى فى السنة الأولى من الهجرة اشعارا لهم بأن الاسلام قد أمده الله تعالى بالقوة ، ليرهبوه ماداموا لم يسالموه ، بل انهم لم يرغبوه ٠

وكانت كذلك غزوات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الأولى فى الابواء والعشيرة ، وغطفان ، وبدر الأولى ، فقد كانت خالية من القتل والقتال ، بل كانت لهذا الاشعار ٠

حتى اذا شعرت قريش بهذه القوة المؤمنة ، وكونوا جيشا كثيفا ، وساروا به ولم يسبق عيرا ، وبدأ أنهم يرومون الحرب ، اذ استعدوا لها ، وأرادوا الاعتداء بها ، كان القتال ، لانهم كانوا المهاجمين ، وما كان محمد عليه الصلاة والسلام لينظر حتى يغزو المدينة المنورة بجيشهم ، بل لابد أن يلقاهم ، لأنه ما غزى قوم فى عقر دارهم الا ذلوا ، كما قال بطل الجهاد على كرم الله وجهه الذى رباه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعلمه الحكمة وفصل الخطاب ٠

ولكن قد يسأل سائل لماذا كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم محاربا ٠ ونقول فى الجواب عن ذلك انه لم يكن بدعا من الرسل فى ذلك ، لأن موسى وهو من أولى العزم من الرسل حارب ، ودعا بنى اسرائيل الى الايمان ، ولكنهم ارتدوا على أدبارهم فانقلبوا خاسرين ، وقالوا وحال الذلة والجبن تدفعهم « **اذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون** » ٠

والمذكور فى التوراة التى بأيديهم أن موسى عليه السلام حارب ملوكا ، واخترق بجيشه ديارهم ٠ وداود عليه السلام حارب وقاتل ٠ وكذلك ابنه سليمان ٠

واذا كان عيسى عليه السلام لم يقاتل ، فلأنه ما شرع له القتال ، وكأنه كان تمهيدا للبعث المحمدى اذ أن بينهما مدة ليست كبيرة ، تبلغ نحو ستمائة سنة أو تزيد ٠

وان رسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كانت للناس كافة ، للأحمر والأسود والأبيض ، فكانت لابد أن تجتاز الأقطار ، وتصل الدعوة قوية الى الامصار ، وان ذلك لا يكون الا بالاستعداد للقتال ، اذ ان العالم كان محكوما بالملوك الغاشمين ، والرؤساء الظالمين ٠

وان شريعة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم جاءت بمبادىء هى ضد الحاكم ، وقد قاتلوه عليها ، فكان لابد أن تكون قوة مانعة من الظلم دافعة بالحق ، فكان لابد من الحرب أو الاستعداد لها ٠

وان الناس لا يستقيم امرهم اذا لم تكن للمبادىء العادلة قوة تحميها بالحق من غير اعتداء ، وفضيلة الاسلام ليست فضيلة خانعة ضعيفة مستسلمة ، ولكنها فضيلة قوية دافعة للشر ، حاملة على الخير ، فليس فيه من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الايسر ، وانما فيه ٠ « **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله** » ٠

وفيه العفو والصبر ، اذ يقول سبحانه وتعالى « **فاعفوا واصفحوا** » والعفو لا يكون الا بعد أن يكون الأمر للاسلام فلا عفو الا عن مقدرة ، ويكون عزا ولا يكون استسلاما ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : (ما زاد عبد بعفو الا عزا) وأمر سبحانه وتعالى بالصبر ، فقال سبحانه « **وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** » وان الصبر يوجب ألا يندفع الجيش الى القتال ، بل يصابر ، عسى أن يكون الصلح ، وألا تخرج السيوف من أغمادها ، كما كان يفعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان يوصى جيوشه بذلك ٠

وان الصفح الجميل عمن آذوا أهل الايمان يحتاج الى صبر وقوة نفس ، فليس الصبر فقط فى لقاء الأعداء ، انما يكون فى ذلك ، وفى عظم النفس عن شهوة الانتقام ٠

وان حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما سنرى حرب فاضلة فيها الرفق وفيها الفضيلة ، وان اشتجرت السيوف ، وتلاقى الناس بالحتوف فهى تعلم الناس كيف تكون الفضيلة ، والسيوف تقطر دما ، وكيف تكون المرحمة فى الحرب ، وهى فى أصلها أمر مكروه فى ذاته ، فاذا دخلتها

الرحمة ، فانها تكون كالنسيم العليل فى الحر اللافح ، وكالظل فى الحرور ، وقبل أن نتكلم فى غزوات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نتكلم فى بيان الفضيلة فيها ، وانا نأخذ ذلك من اوامر القرآن الكريم للمجاهدين وعمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى سيرها وفى انتهائها ، وفى وصاياه عليه الصلاة والسلام لجيوشه • وقد كان أصحابه من بعده يتبعونها ويحكمونها غير منحرفين عنها •

الفضيلة فى الحرب

٣٥٣ — ان الرحمة من الفضائل الانسانية العالية ، ورحمة الاسلام ليست انفعالا نفسيا وقتيا ، ولا شفقة أو رأفة شخصية تكون على الفاضل والآثم ، والبر والفاجر ، بل ان رحمة الاسلام هى الرحمة بالعامة وقد تكون الحرب رحمة بالعامة ، بل انها يجب أن تكون كذلك ما دامت حربا فاضلة ، كما تلونا من قبل قوله تعالى : « **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين** » • فالشفقة على الظالم والامتناع عن الاقتصاص منه ليست من الرحمة فى شىء ، لأنها تخفى فى ثناياها قسوة على المظلوم ، ولذلك قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « من لا يرحم لا يرحم » •

فالحرب الاسلامية شرعتها الرحمة ، وأظلتها الرحمة ، وأنهتها الرحمة ، واذا كان من الرحمة بجسم الانسان أن تقطع بعض الأجزاء المئوفة ، حتى لا تفسد الجسم ، فان من الرحمة بالناس أن تقطع عناصر الفساد ، لأنها تئوف الجماعة ، وأن يرد الاعتداء بقطع عناصره لسلامة الناس ، وأن يعيشوا آمنين ، وكلمة الحق تسرى بينهم ولا محاجزات تحول دون النطق بها •

ولنتكلم فى حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، معتمدين على كتاب الله تعالى ، وعلى السنة النبوية •

فالباعث عليها ، كما نص القرآن الكريم رد الاعتداء على المسلمين ، فقد قال تعالى : « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين** » وقال تعالى : « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين** » وبين سبحانه أنه يعامل المعتدين بمثل اعتدائهم ، قال تعالى : « **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين** » وذلك بعد قوله تعالى • « **الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص** » •

ونجد من هذه النصوص أن ابتداء الاعتــداء كان من المشركين ، وأنه كان لاعتــداء المشركين على الحــرية الدينية وفتنة المؤمنين فى عقـــائدهم ليحملوهم على تركها ٠ واننا اذا أمرنا برد الاعتداء بمثله ، طلب منا مع ذلك طلبان حليان آخران وهما النهى عن الاعتداء ، فنهينا عن الاعتداء ، والاعتداء بأن نقاتل من لم يبدأنا بالقتال ، ولم يمنع الدعوة الاسلامية من الســير فى طريقها ، والطلب الثانى أمرنا بالتقوى ، وهى التزام الفضــيلة ، فان كانوا يعتدون على الأعراض لا نحاربهم ، وان كانوا يمثلون بالقتلى لا نمثل بقتلاهم كما سنبين ان شاء الله تعالى ٠

لقد علمنا مما قصصنا من السيرة الطاهرة أن النبى صلى الله تعــالى عليه وسلم مكث يدعو الى الاسلام ثلاث عشرة سنة توالى فيها الأذى على المؤمنين ، وخصوصا ضعفاءهم ، ولم يسلم من أذاهم الا من يكون ذا بطش يخشى بطشه كعمر بن الخطاب وحمزه بن عبد المطلب ، ومع ذلك لم يســلموا من الأذى تماما ، بل كانت سلامتهم نسبية ٠

ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم يسلم من أذاهم ، حتى رموا عليه وهو ساجد فرث جزور ، وحتّى لقد هموا بقتله عليه الصلاة والسلام ، ليلة الهجرة ، وقد هاجر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهاجر من كان عنده قدرة على الهجرة ٠

ترك المهاجرون ديارهم وأموالهم فرارا بدينهم الذى ارتضوا ، والمشركون سادرون فى غيهم ٠ وترك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ضعفاء ، لا قدرة عندهم على الهجرة ، وهم يعذبون أشد العذاب ، فهل من مقتضى الرحمة أن يترك هؤلاء يعــذبون ، ويلقى بهم فى المحــابس ، انه لابد من أن يذوق الذين يؤذونهم وبال أمرهم ٠

وننتهى من هذا ومن النصوص السابقة الى أن الباعث على الحــرب دفــع الاعتداء ، ومنع الأذى المســتمر ، وعقوبة الظالمين ، وتأمين الدعــوة الاســلامية حتى لا تكون فتنة فى الدين ، ويتبع الناس الدليــل ، ولم يتبعوا الحكام الذين يرهقونهم ويسومونهم الخسف والهوان ٠

هذا هو أمر القتال فى شبه الجزيرة العربية ، الذى ابتدأ فى قريش ٠ ثم عمم أجزاءها عندما اجتمعت القبائل على حربه فى غزوة الأحــزاب ، أو غزوة الخندق ، وأرادوا اقتلاع الاسلام من قصبته فى المدينة الظاهرة ، فنزل قوله تعالى : « **وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة** » ٠

أما بالنسبة لغير من كانوا فى الجزيرة العربية ، فقد أرسل الى الملوك والرؤساء الكتب على أيدى رسل من حكماء أصحابه ، أرسل الى هرقل ، الى عظيم مصر ، والى كسرى وغيرهم من الملوك · وبعض أمراء البلاد النائية من البلاد العربية ·

ولكن لم يجب الى الاسلام من غير العرب أحد ، ومنهم من أساء الرد ، ومنهم من أحسن فى الاجابة ، ولكن لم يجب داعى الله تعالى الى الاسـلام ، ومنهم من لم يرد بالقول ، ورد بالعمل ، وأعلن برده العداء كالمشركين فكسرى هم بأن يرسل الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من يقتله ، وهرقل قتـل واليه على الشام من أسلم من أهل الشام · ولذلك اتجه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى الشام ، فكانت غزوة مؤتة ، ثم غزوة تبوك ، ثم وصيته بانفاذ جيش أسامة بن زيد الى الشام ·

وبهذا نرى أن الباعث لحرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هو دفع الأذى ، وتمكين الدعوة ، ولم يكن ثمة اكراه على الدين ، لأن الله تعالى يقول : « **لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** » ولم يثبت أن النبى صـلى الله تعالى عليه وسلم أكره أحدا على الدين ، بل ثبت أنه أراد بعض الأنصار أن يكره ولده على الاسلام ، فنهاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك ·

قبل المعـــركة :

٣٥٤ ـــ وكانت تتجلى الفضيلة فى حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عندما أخذ يرسل الجيوش الى الجهات النائية ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يأمر جيشه بالتأنى قبل أن يتقدم للقتال ، وكان يدعو المؤمنين الى ألا يتمنوا القتال ، لأنه امتحان القلوب وهدم الأجسام ، فكان عليه الصـــلاة والسلام يقول (لا تتمنوا لقاء العدو ، واذا لقيتموهم فاصبروا) ·

واذ تعين القتال خيرهم بين الاسلام ، أو أن يعاهدوه ، ليأمن الاعتداء من جانبهم ، وذلك ما يشبه فى العصر الحاضر ميثاق عدم الاعتداء ، أو أن يكون القتال ، وأنهم اذا قبلوا العهد أمن جانبهم ، وأمن أن تســير الدعـوة فى طريقها ، وأن يخلو له وجه الناس ، ويقنعهم بالحق ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن أساء فعليها ·

واننا اذ نتجه الى ذلك الوادى المقدس يسترعى انتباهنا دعاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عند القتال الذى يدل على شعوره صلى الله تعالى

عليه وسـلم بوحدة الانسـانية ووحـدة الخالق ، فهو يقول فى دعائه عليه الصلاة والسلام (اللهم انا عبادك وهم عبادك ، نواصينا ونواصيهم بيدك ، اللهم اهـزمهم ، وانصرنا عليهم) ، وما كان ذلك الجـزء الأخير الا لأنهم معتدون على الحق ، وعلى الحرية الدينية بفتنتهم الناس عن دينهم ، وجحـود بالحق · ولقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا على منع القتال حتى عند أخذ الأهبة ، فهو يقول لمعاذ بن جبل وقد أرسله الى اليمن قائدا ·

« لا تقاتلوهم حتى تدعوهم ، فان أبوا فلا تقاتلوهم ، حتى يبدءوكم ، فان بدءوكم ، فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلا ثم أروهم ذلك ، وقولوا لهم هل الى خير من هذا سبيل ، فلأن يهدى الله على يديك رجلا واحدا خير مما طلعت عليه الشمس وغربت ·

ونجد من هذه الوصية أن نية السلم قائمة والجيشان قد تلاقيا ، فالقائد المسلم لا يقاتلهم الا بعد أن يدعوهم الى العهد الذى يكون فيه تأمين حـرية الدعوة ، ثم هو لا يبدأ القتال ، بل يتركهم يبدءون القتال ، وحتى بعد هـذا البدء لا يقاتلهم حتى يقتلوا فعلا ثم يبين لهم العبرة فى ذلك الدم الذى أراقوه ظلما وعدوانا ، فان لم يعتبروا لم يبق الا السيف ليحكم بأمر الله بينه وبينهم والله خير الفاصلين ·

فى المعـركة :

٣٥٥ — والرفق ملازم المعركة ذاتها ، كما كان فى ابتـدائها ، ذلك أنها حرب نبوة ، وليست مغالبة ولا تناحرا ، ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فى وصف دعوته وحربه : (أنا نبى المرحمة ، وأنا نبى الملحمة) ، وفى الحق ان الرحمة والملحمة متلاقيتان ، فما كانت الملحمة الا لأجل المرحمة ، اذ الرحمة الحقيقية فى هذا العالم هى فى قطع الفساد ومنع الشر ، واذا كانت الملحمة فقد تعينت سبيلا للمرحمة ·

وانه كان يصاحب حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عند ابتداء المعركة العمل على تأليف القلوب حتى وقد اشتجرت السيوف ، ولذلك يوصى عليه الصلاة والسلام جنده وقد أرسلهم للقتال بقوله : « **تألفوا الناس وتأنوا بهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم فما على الأرض من أهل مدر أو وبر أن تأتونى بهم مسلمين أحب الى من أن تأتونى بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم** ·

هى حرب رفيقة تتسم بالتأليف ، لا بالتقتيل ، وبالمحافظة على الأنفس

والرجال الا أن تكون ضرورة ملجئة . فقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يوصى بألا يقوم الجيش باتلاف زرع او قطع شجر أو قتل الضعاف من الذرية والنساء . والرجال الذين ليس لهم رأى فى الحرب ، ولم يشتركوا فيه بأى نوع ، ومن ذلك قوله فى احدى وصاياه :

« انطلقوا باسم الله وعلى بركة الله لا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا ، ولا امرأة . ولا تغلوا . وضموا غنائمكم . وأصلحوا وأحسنوا ان الله تعالى يحب المحسنين » ·

وفى معنى هذه الوصية وصية أخرى . وهو قوله عليه الصلاة والسلام « سيروا باسم الله فى سبيل الله تعالى ، وقاتلوا أعداء الله ولا تغلوا (تخونوا) ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا » ·

ويقول عليه الصلاة والسلام لخالد بن الوليد : « لا تقتل ذرية ولا عسيفا » (أى عاملا) ·

وبهذه الوصايا يتبين أن الحرب النبوية الفاضلة لا يصح أن تكون اتلافا وافسادا ، وتحللا من القيود الانسانية ، ولذلك لا يباح فى القتال كل شىء · ولا يفعل ما يفعله القواد فى هذه الأيام من اهلاك الحرث ، والنسل ، وافساد الزرع والقاء السم فيه · ليتسمم الأحياء ·

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم شدد فى منع قتل الأطفال والشيوخ الذين لا يحاربون وليس لهم رأى فى الحرب ، والنساء ، لأن القتال الذى كان من المسلمين انما كان لدفع الاعتداء والقصاص من المعتدين ماداموا مستمرين أو على نية الاعتداء ، وأولئك ما كانوا يقاتلون ولا يعتدون ، وليس فى طاقتهم أن يقفوا محاربين الدعوة الاسلامية أن تسير فى طريقها ·

وقد مر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على القتلى فرأى امرأة مقتولة، فقال عليه الصلاة والسلام ما كانت هذه لتقاتل ، وأرسل الى خالد ابن الوليد يأمره بألا يقتل عسفيا ولا ذرية ·

ولقد كان عليه الصلاة والسلام يغضب اذا بلغه أن جنده قتلوا صبيانا ، ولقد بلغه أن بعض الاطفال قتلهم جند المسلمين ، فوقف عليه الصلاة والسلام يقول لجنده : « ما بال أقوام تجاوز بهم القتل حتى قتلوا الذرية ، ألا لا تقتلوا الذرية ·· ألا لا تقتلوا الذرية » ·

وكان عليه الصلاة والسلام يمنع قتل العمال ، وكرر منع قتل العسفاء وهم العمال الذين يستأجرون للعمل ، لأن حربه عليه الصلاة والسلام لم تكن لقتل الأقوياء القادرين ، انما كانت لمنع اعتداء الذين يحملون السلاح ، أو يدبرون الاعتداء ، والعمال ليسوا كذلك ، اذا لم يكن عملهم لتهيئة أسباب القتال ٠

وكان عليه الصلاة والسلام ينهى عن التخريب ، فكان يمنع قطع الشجر لأنه لا ضرورة توجب قطعه الا أن يتخذه العدو مستترا له ، ليجعل منه كمينا ، يكمن فيه لجيش المسلمين ، فما كانت حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تسمح بالتخريب ٠

الفضيلة :

٣٥٦ — ليست حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كحرب الأنذال اللؤماء الذين يضعون السيف فى موضع البرء وموضع السقم ، انما هى حرب الخلق القوى الذى لا يضع السيف الا حيث يكمن الداء ، ويستقر ، ليقتلع الشر من مكمنه ، فلا يقتل الا من اعتدى وحمل السيف ، أو دبر الأمر لمن يحمله ٠

ولذلك كانت الفضيلة هى المسيطرة فى كل أدوارها فى ابتدائها وسيرها وانتهائها ، وانها اذ كانت لرد الاعتداء بمثله ، فهى مقيدة بالفضيلة لما ذكرنا من أن الله تعالى أمرنا بالتقوى عند رد الاعتداء ، فالمعاملة بالمثل مع التقييد بالتقوى توجب على جيش الايمان الا ينتهك حرمات الفضيلة لأجل المعاملة بالمثل ، فاذا تعارضت الفضيلة مع المعاملة بالمثل كان الواجب مراعاة الفضيلة لأنها المبدأ الذى لا يقبل التخلف كيفما كانت الحال ٠

وقد يعجب بعض الناس من الفضيلة تحكم فى وسط السيوف ، وحيث تستباح النفوس ، فانها حيث استبيحت لا يبقى شىء يحترم ، ولكنا نقول انها حرب النبوة المقيدة بقانون السماء ، قام بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليعلمها للناس ، فانه مادامت الحرب فى نظام الوجود الانسانى ، فانه لابد من أن تقيد بالفضيلة ، وأن يتولى تعليمها خاتم النبيين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو آخر صرح فى نبوة السماء ، وان حرب النبوة هى حرب الفضيلة التى تدفع الرذيلة دفعا ، وليس من المعقول أن يكون الباعث عليها الدفاع عن الحق والفضيلة ، وتنتهك الحرمات من أهلها فى الميدان مجاراة لأراذل المعتدين ، فاذا كان العدو منطلقا من كل القيود الخلقية فجيش

الفضيلة مقيد بالفضيلة ، فاذا كان العدو يهتك الأعراض ان استمكن ، أو يقتل النساء والولدان والشيوخ الذين لا يستطيعون حيلة ، فان جيش الاسلام المؤمن لا يجاريهم لأنه مقيد بالفضيلة والخلق القوى ·

واذا كان العدو يمثل بالقتلى ، ويشوه أجسامهم بعد القتل ، فان جيش الفضيلة لا يفعل لقول القائد الأعظم المعلم الأول للحروب الفاضلة : « اياكم والمثلة » ·

ولقد قتل المشركون فى غزوة أحد حمزة بن عبد المطلب عم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحبيبه ، أدنى قرابته اليه ، وسيد الشهداء كما سماه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومثلوا بجسمه الطاهر ، ومع منزلته منه عليه الصلاة والسلام لم يفكر فى أن يمثل بأحد من قتلاهم فيما جد من بعد ذلك ·

واذا كان الأعداء يجيعون الأسرى ، أو يقتلوهم بالعطش ، فان جيش المسلمين يعد من أقرب القربان اطعام الأسير ، تحقيقا لقوله تعالى فى وصف المؤمنين الصادقين فى ايمانهم : « **ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا** » ·

احترام الكرامة الانسانية :

٣٥٧ — واذا كانت الفضيلة لابد من احترامها فى أثناء الحرب ، للأمر بتقوى الله تعالى عند رد الاعتداء بمثله فمن الفضيلة المحافظة على الكرامة ، بقوله تعالى : « **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** » ، فكرامة العدو محترمة ككرامة الولى على سواء ، وقد يعد بعض الناس ذلك أمرا غريبا ، حيث كانت السيوف متشابكة ، اذ أن هذا ليس وقت التكريم ، بل هو وقت التقتيل ، ولكن لا غرابة ، فهى ليست حرب انتقام ، ولكنها قمع للشر ، ومنع لاستمراره ، ولا استمرار يتصور من مقتول ·

ولذلك أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بدفن قتلى قريش ، لم يترك جثثهم نهبا لوحوش الأرض وسباع الطير ، أمر عليه الصلاة والسلام بوضع جثث القتلى من قريش فى القليب وهو بئر جافة ·

ولقد نهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن الاجهاز على جريح ، كما نهى عن تعذيب القتلى ، اذ ضعفت قوة الجريح عن أن يقاوم ، وذلك كله

لاحترام الانسانية ، ولأن القتال ليس القصد منه الا اضعاف قوة الطغاة ، ودفع الاعتداء وليس منها الانتقام ٠

وان المعاملة بالمثل التى تفرضها قوانين الحرب ، والتى تفرض بحكم رد الاعتداء به لا يسير به المسلم الى أقصى مداه ولو انتهكت الفضيلة والكرامة الانسانية ، بل ان المسلم بأمر الله تعالى مأمور بالتقـوى عند رد الاعتداء ، وكانت حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم هى المثل السـامى فى تنفيذ ذلك لأنه الذى يتعلم منه الانسـان ان حارب أخاه الانسـان ، فعندئذ يكون قانون الأخلاق هو الذى يحكم لا قانون الغابة ٠

انتهاء الحـرب

٣٥٨ ــ كانت نهاية حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تنتهى بأحد أمور ثلاثة :

أولها ــ الموادعة ــ وقد كانت عهود المـوادعة التى كان يبرمهـا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مرغوبا فيها منه صلى الله تعـالى عليـه وسـلم استجابة لقول الله سبحانه وتعالى : « **وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله** » ولقول الله سبحانه وتعالى : « **يأيها الذين آمنوا ادخـلوا فى السـلم كافة** » ولأن الأصل فى العلاقة هو السلم ، والحرب لا تكون الا اذا دفعت اليهـا ضرورة رد الاعتداء بمثله مع التزام الفضيلة كما ذكرنا ، واذا كانت الموادعة فقد زالت ضرورة الحرب ، والضرورة تقدر بقدرها ٠

وقد عقد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم موادعات ، كما عقد صلحا ، وعقد من بعده صاحباه أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما معاهدات صـلح آخذين بهديه ، مقتبسين من نوره ، وكلها كانت تبدو فيها الرغبة فى الصلح من جانب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما كان النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم يدخل فى الحـرب الا بعد عرض الصـلح ، حتى تتحقق ضرورة الحرب ٠

وان الموادعة لا يفرضها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بحكم القوة ، ان كان هو الغالب ، بل يفرضها بالسماحة وادناء القلوب النافرة ٠

ولعل أوضح الامثال فى الدلالة على ذلك صلح الحديبية ، فقد ذهب الى مكة المكرمة ومعه جيش كثيف فى عدده ، قوى فى رجاله ، مستعد فى عدته ، ليحج بيت الله الحرام ، ولكن ما ان عرضت فكرة المهادنة ، حتى سارع عليه الصلاة والسلام اليها وقبل من الشروط ما لا يقبله الا السمح الكريم ، وفيها كما يدل ظاهرها من الاجحاف بالمسلمين ما كان لغير نبى أن يقبله ، ولكنه قبله راضيا · ولنذكر الخبر فيها ، كما روته الصحاح فى السنة ·

روى البخارى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خرج فى ذى القعدة من العام السادس ليحج الى بيت الله الحرام ، على ألا يقاتل الا اذا منع ، فلما بلغ قريشا عزمه عليه الصلاة والسلام ، ومجيئه مع أصحابه ، جمعوا له الجموع ليصدوه ، ومن معه ، فلما علم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك ، وقد لبس لباس الحج ونواه ومعه الجيش الكبير ـ جمع أصحابه ، وقال : « أشيروا على » ، فقال أبو بكر : « يا رسول الله خرجت قاصدا البيت ، لا تريد قتل أحد ، ولا حرب أحد ، فمن صدنا عنه قاتلناه » فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « امضوا على بركة الله » حتى اذا أشرف على مكة المكرمة قال : « والله لا يسألوننى خطة يعظمون فيها حرمات الله الا أعطيتهم اياها » ·

ولما جاءت رسلهم اليه صلى الله تعالى عليه وسلم قال لهم : « انا لم نجىء لقتال ، ولكنا جئنا معتمرين ، وان قريشا قد نهكتهم الحرب ، وأخذت بهم · فان شاءوا ما رد لهم ، وأخلوا بينى وبينهم » ·

عرض عليه الصلاة والسلام الموادعة ، وهو القوى بجيشه ، وبنصر الله الذى فوق كل شىء ، فقبلوا المهادنة بشروط كان جلها كما يرغبون : **أولها** ـ أن يعود ولا يحج فى عامه هذا ، وأن توضع الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، وأن يعتمر الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه فى العام القابل ·

وثانيها ـ أن من قدم المدينة المنورة من قريش مجتازا الى الشام فهو آمن على دمه وماله ·

وثالثها ـ أن من أتى محمدا عليه الصلاة والسلام من مكة المكرمة مسلما بغير اذن وليه رده عليهم ·

ورابعها : أن من جاء ممن مع محمد عليه الصلاة والسلام مرتدا عن دينه لم يردد اليه ·

هذه كلها شروط كتبت برغبة قريش ٠

وهناك شرط واحد لمصلحة الدعوة الاسلامية ، وهى غاية الغايات ، وذلك الشرط أن من قدم مكة المكرمة من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام حاجا أو يبتغى الرزق فهو آمن على دمه وماله ٠

وهناك شرط سياسى لمصلحة الطرفين ، وهو أن من أراد أن يدخل فى عقد مع محمد عليه الصلاة والسلام دخل ، ومن أراد أن يدخل فى عقد قريش دخل ٠

وربما تكلمنا عن تفصيل لهذا الكلام عليها فى موضعها ٠

الأمر الثانى الذى تنتهى به الحرب ـ هو الصلح بانهاء القتال ، لا بالموادعة المجردة فيه ، والصلح حينئذ يكون على أساس العدالة والوفاء بكل ما يلتزم كلا الطرفين فيه من حقوق ، ويكون ذلك عهدا يجب الوفاء فيه بكل الشروط الجائزة شرعا ، وأن العهد الذى لا يكون فيه الدخول فى الاسلام تكون قبل الحرب عند التخيير بين الاسلام أو العهد أو الحرب ، فيكون الحرب من أن تقع ، لا أن يكون منهيا لها بعد وقوعها ٠

أما الصلح المنهى للحرب بعد وقوعها ، فيكون باعلان الاسلام فى ربوع الديار التى كان النصر فيها للمؤمنين ٠

والأمر الثالث الذى ينهى الحرب هو الانتصار للمؤمنين ، والاستسلام من الكافرين ، وهو النوع الثالث من الصلح الذى ذكرناه آنفا ٠

معاملة المهزومين

٣٥٩ ـــ تبدو السماحة المحمدية ، والرفق على أهله فى الحرب النبوية عند هزيمة العدو واستسلامه ، ويلاحظ أنه فى حرب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، لم يهزم المؤمنون هزيمة فيها استسلام قط ، اذ أنه لم ينتصر خصوم الاسلام انتصارا ساحقا قط فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والراشدين من بعده ٠

وانه لما هزم المسلمون فى غزوة أحد لم يستسلموا ، لأن الاستسلام فيه زلة ، والاسلام دين العزة والكرامة ، فلا يمكن أن يستسلم المؤمنون بقيادة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل انه عليه الصلاة والسلام جمع متفرق

الجيش ، وأراد أن يتبع به المشركين ، فلما علموا هم بذلك مضوا فى طريقهم قافلين ، ورضوا من الغنيمة بالاياب ، اذ علموا أنه مؤيد من عند الله ، وأنه يجاهد فى سبيله ٠

واذا كانت الحرب تنتهى باستسلام العدو فمحمد عليه الصلاة والسلام فى حرب النبوة لا يقول مقالة الغاشمين ، ويل للمغلوب ، بل تكون العدالة ، وتكون السماحة والرفق المحمدى ٠

كانت آخر حرب للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع قريش هى التى انتهت بفتح مكة المكرمة للاسلام والمسلمين ، وهنا يلتقى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع من آذوه ، وأعنتوا أصحابه ، وساموهم سوء العذاب ، ومنهم من مات من شدة التعذيب ، وقد هموا بقتله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنهم كانوا يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ٠

التقى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بهم ، وبكبير حرب الشرك أبىسفيان فنشر عليه الصلاة والسلام ، وهو الغالب والمسيطر راية الأمان عليهم ، فنادى مناديه عليه الصلاة والسلام : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن دخل داره فهو آمن » ٠

وهكذا كان انتصار النبى عليه الصلاة والسلام الرفيق الرءوف الرحيم نشرا للأمان فى ربوع مكة المكرمة حول بيت الله سبحانه وتعالى الحرام ٠ ولما التقى بالملأ من قريش ، قال لهم : « ما تظنون أنى فاعل بكم ؟! قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، قال لهم : أقول ما قاله أخى يوسف : لا تثريب عليكم ، اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، اذهبوا فأنتم الطلقاء » ٠ أى حرب تنتهى بهذه السماحة وذلك الرفق غير حرب النبوة التى قام بها محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وللناس فى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أسوة حسنة ٠

الأسرى

٣٦٠ — لعل أبلغ ما يدل على أن الحرب النبوية التى دافع بها صلى الله تعالى عليه وسلم عن المؤمنين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، هى حرب لتعليم الناس أن الخلق الكريم يلازمها ، وأن الفضيلة تظلها فى كل أدوارها ، هو معاملة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم للأسرى ، لقد كان رفيقا بالأسرى لا يهدر آدميتهم ، ولا يعرف تاريخ الانسانية محاربا كان رفيقا بأسراه كمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد كان صلى الله

تعالى عليه وسلم يوصى بالأسرى ، ولما أسر من أسر فى غزوة بدر ، نزلوا فى بيوت الأنصار ، وكانهم فى ضيافة لا فى أسر ، وذلك لقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « استوصوا بالأسرى خيرا » ولماذا كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يوصى بالأسرى ، ويبالغ فى الايصاء بهم ؟ والجواب عن ذلك أنهم يؤسرون ونيران الحرب مستعرة ، وربما كان بعضهم من قتل الكثير من جيش المسلمين فيكون الاعتداء عليه متوقعا وغليظا لشدة الغيظ ، وانبعاث الرغبة فى الانتقام ، كما فعل الأوربيون والأمريكان فيمن سموهم مجرمى الحرب ، فالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يضرب الأمثال السامية فى تلك الحرب النبوية منع ايذاء الأسرى وأمر باكرامهم منعا لتلك الروح الانتقامية الغليظة ٠

وقد أخذ المسلمون فى أسرى بدر بتلك الوصية الكريمة ، حتى ان الذين قد نزلوا فى ديارهم كانوا يؤثرونهم على أنفسهم وأولادهم بالطعام ٠

وان أولئك الكرام كانوا فى جهادين : أولهما جهاد السيف ونيران الحرب ملتهبة ، حتى اذا انطفأت كان الجهاد الثانى ، وهو ضبط النفس لتكظم الغيظ ، فيكون منها ما لا يرضاه الله سبحانه وتعالى بالنسبة للمغلوبين ، وخصوصا الأسرى ٠

لقد تلونا فيما مضى من قولنا قول الله سبحانه وتعالى : « **ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ، ويتيما وأسيرا** » وان الاسلام يوجب بالنسبة للأسير أمرين :

أولهما : أنه ليس لجيش الاسلام أن يأسر حتى يثخن فى الأرض بأن يثقل جيش العدو بالجراح ، ولا تكون له قدرة على مواصلة القتال ، وقد قال الله سبحانه وتعالى : « **ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم** » ٠

الأمر الثانى : أن القرآن الكريم الذى كان ينفذه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ويبينه كما قال سبحانه وتعالى : « **وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم** » ان هذا القرآن الكريم يذكر بالنسبة للأسرى أمرين لا ثالث لهما ، وهما اما المن عليهم باطلاق سراحهم ، واما الفداء بالمال أو الرجال ، فقد قال الله سبحانه وتعالى : « **فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فاما منا بعد ، واما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها** » ٠

وكما أشرنا : ان الفداء قد يكون بالرءوس ، فيطلق من أسارى المسلمين فى نظير أن يطلق المسلمون من أسرى الأعداء ، وقد يكون بالمال ٠

واذا كان الأسير فقيرا ولا مال له ، فانه يتعين تسريحه ، ويكون ذلك من الصفح الجميل الذى أمر الله سبحانه وتعالى نبيه به بقوله : « **فاصفح الصفح الجميل** » ، ومن أخذ الأمور بالعفو ، كما قال الله سبحانه وتعالى : « **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** » ٠

حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عبادة

٣٦١ — أعظم العبادات الجهاد فى سبيل الله سبحانه وتعالى ، واذا كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد علم المؤمنين الصلاة ، وقال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » فقد علمهم الحرب الفاضلة أيضا ، بل علم الانسانية كلها الحرب الفاضلة ، ولسان حاله عليه الصلاة والسلام يقول : « حاربوا فى سبيل الفضيلة وبالفضيلة كما رأيتمونى أحارب » فحرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد أدت مقصدها ، وهو جعل كلمة الله سبحانه وتعالى هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، ولاتزال المثل السامية التى صورتها الحرب المحمدية قائمة تهدى وترشد العالمين ، ولقد وعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أعلى درجات الزهادة والعبادة الجهاد ، ولذلك قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « الجهاد سنام الدين » ٠

وقد منع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الرهبانية ، وقال لا رهبانية فى الاسلام ، وبين أن رهبانية الاسلام هى الجهاد ، فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « فى كل أمة رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد » ، وقد علل ذلك الامام السرخسى بأن فيه العشرة مع النـاس ، والتفرغ عن عمل الدنيـا والاشتغال بما فيه سنام الدين ، وفيه أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وهـو صفة هذه الأمة ٠

وانه يتشابه المجاهد مع الراهب فى ثلاثة أمور ، ويختلفان فى أمر ٠

أما الأمور المتشابهة فهى :

أولا — اعتزال الناس جملة ، والخروج عن الحياة التى يحياها النـاس لأنفسهم آكلين شاربين متمتعين بحلاوة الحياة وما فيها ٠

وثانيا – أن الراهب يعتزل النساء ، والمجاهد التقى الذى نال شرف الجهاد ومعناه يعتزل النساء وينقطع عن الأولاد فى مدة الجهاد ، وهم فلذات كبده ·

وثالثا – أن كليهما قد قدم نفسه لله سبحانه وتعالى – الراهب بالعبادة ليسمو فى نظره الى الروحانية التى تقربه من الله سبحانه وتعالى فى زعمه · والمجاهد قد قدم نفسه فعلا لله سبحانه وتعالى ليحمى الحق الذى أمر الله بنصرته ، ونرى أن المشابهة قائمة ، وان اختلف القصد فى كليهما ·

ومن هنا كان موضع الافتراق ، فالراهب يعتزل الناس لأجل نفسه وعبادته الانفرادية ، أما المجاهد فيعتزل الناس ، ليحمى الناس ، وينفذ أمر ربه ، فالأول عبادته فى دائرة وجوده الشخصى لا تعدوه ، والثانى عبادته فى دائرة النفع العام · والأول لا تخلو عبادته من اثره ، والثانى عبادته كلها ايثار ·

وان الاسلام منع الرهبنة ، لأنها فرار من الحياة ومتاعبها ، ولذلك تعتبر القوانين الأوروبية الرهبان فى حكم الأموات ، والرهبنة موتا اختياريا ، والاسلام لا يريد للمتعبد هذا الموت ولا ذلك الفرار ، ولكنه يريد المؤمن نافعا للناس ، حيا فى وسط الأحياء ، حاميا لهم من المضار ، جالبا لهم المنافع ، اذ ليست العبادات الاسلامية سلبية ، بل هى ايجابية – هى المشاركة فى رفعة النوع الانسانى ، ولذلك يعد كل نفع للأحياء صدقة ، فقد قال عليه الصلاة والسلام ، ما من مسلم يغرس غرسا ، أو يزرع زرعا ، فيأكل منه انسان أو دابة الا كتب له به صدقة ، وانه ليس معنى ذلك أن الروحانية فىالاسلام لا وجود لها ، بل ان لها المقام الأول ، ففى الصوم والصلاة والحج روحانية ، بل كلها روحانى ، وفى الاعتكاف روحانية ، ولكن روحانية الاسلام ليست انقطاعا عن الحياة والأحياء ، بل هى مع ما فيها من سمو نفسى ، وتجرد من الجسم وأهوائه وشهواته ، هى لتحسين العلاقات الانسانية ، وان يكون المؤمن مألفا يألف الناس ، ويألفونه ·

الخلاصة

٣٦٢ – هذه كلمة تقدمنا بها عند الكلام فى حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لنرد بها قول الذين يتقولون الأقاويل فى حرب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويزعمون أن الحروب والدمار ليست من أعمال النبيين ، وهى فرية افتروها ، فانه مادام الانسان ابن الانسان ، فانه لابد من مغالبة ·

ومن وقت أن امتنع ابليس عن السـجود لآدم اسـتكبارا أو اسـتعلاء ، والمعركة بين الخير والشر قائمة ، والعداوة مستحكمة بين الرذيلة تعتدى ، والفضيلة تدفع ، ومن وقت أن نزل آدم وذريته الى الأرض ، وابليس الذى قال « **لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين** » ، من هذا الوقت وقد تحقق قول الله سبحانه وتعالى : « **اهبطوا منها جميعا ، بعضكم لبعض عـدو** » والنزاع بين الخير والشر قـائم ، وليس من الفضيلة أن يترك الشر يرتع ، ولا يدفـع ، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين** » ٠

وان أولئك الذين يعترضون على قتال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لا يتصورون الحرب الا مغالبة بشرية كما تتغالب الوحوش على فريسة تأكلها ، أو على غابة تحتلها ، ولا يتصورون لفرط ماديتهم أن الحرب تكون لاعلاء الحق وخفض الباطل ، وكذلك كانت حروب النبيين موسى وداود ، وسليمان ، وغيرهم من الأنبياء ، وما كان قتالهم شرها الى الدماء ، فمعاذ الله وتنزهت ذاته الكريمة فلا يرسل الا ملكا كريما ٠

وننتهى من هذا الى تقرير هـذه الحقائق التى بدت من البحث واضـحة نيرة ٠

الحقيقة الأولى : أن حرب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، كانت أمرا لابد منه ، ليقيم الحق ويخفض الباطل ، وما كانت رسالته تدعو الى استخذاء الخير أمام الشر ، وما كانت دعوتهم لتسير فى مسارها الا اذا أزالت الحواجز التى كانت تحاجز دونها ، ليتم التبليغ ، والناس بعـد ذلك يختارون الهداية أو يستمرون على الغواية : « **فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما ربك بظلام للعبيد** » ٠

الحقيقة الثانية : أن حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كانت حربا فاضلة مثالية تعلم الانسان أنه قد يكون محاربا وهو فاضل ، وأن الانسـانية تحترم ، والسيوف مشتجرة ٠

الحقيقة الثالثة : أن حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومن يتبعونه فى هديه ، ويتخذونه أسوة فى حربه وفى سلمه هى عبـادة ، لأن رفع الحق والحرب لرفعه هو فى ذاته عبادة ، فليست عبادة الاسلام عكوفا فى الصوامع من غير عمل نافع ، بل كل عمل نافع فيه عبادة اذا نواها المؤمن : « **انمـا الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرىء ما نوى ٠٠٠٠** » ٠

أدوار الحرب المحمدية

٣٦٣ ــ كان لابد قبل أن نخوض فى حروب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأدوارها ، والمعارك التى خاضها ــ من أن نسبق بالقول فى أوصاف حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فان ذكر الحرب قد يفزع ، ويرهب ، فكان من الضرورى أن نعرف القارئين بأنها ليست كحرب الناس تستمد أحكامها من الغلب بالظفر ، والناب ، وأنها حرب نبوة تدفع اليها الفضائل الانسانية ، ويظلها الحق والخلق الكريم فى الباعث عليها ، وفى ابتدائها ، وفى سيرها ، وفى الانتهاء منها ، وفى معاملة المغلوبين ، ليتميز الخبيث من الطيب ، ولكيلا يتطاول ملحد فى دين الله على مقام الرسالة ، ومكان الهداية ، ويقع فى القول بغير حق ويفترى بالباطل ، فنضع الحقائق بين يديه ، فان شاء استنار بها ، وان طمس الله تعالى على بصيرته فما له من هاد ، ويكون كما قال الشاعر :

كناطح صخرة يوما ليوهنها   فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وبعد هذه التقدمة نقول ان حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد اتخذت أدوارا ثلاثة :

الدور الأول : توجه عليه الصلاة والسلام للتصدى لمتاجر قريش ليشعرهم بقوة الحق ، وليحملهم على منع الفتنة فى الدين ، وليدركوا نور الحق ، بعد أن تبين نوره قويا وهاجا ، وليعلموا أنه لا ملجأ لهم من الله سبحانه وتعالى الا اليه ·

والدور الثانى : تلقيه لمن يهاجمون المدينة المنورة لينالوا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه · ظانين أنهم بذلك يقتلعون الاسلام من جذوره ولينالوا منه نيلا ، قد ابتداوه فى مكة المكرمة ، وحاولوا أن يقطعوا شجرته فى المدينة المنورة ، حاسبين أنه قد استغلظ سوقها ·

وفى هذا الدور كانت بدر الكبرى ، وأحد ، والخندق أو الأحزاب ، ومعها كان اجلاء بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة ·

الدور الثالث : كان فى الخروج الى العرب الذين قاتلوه كافة ، فكان حقا عليه أن يقاتلهم كافة ، كما أمره الله سبحانه وتعالى بقوله : « **وقاتلوا المشركين كافة ، كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين** » وفى تلك الغزوات كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يعمم الدعوة الى الاسلام ، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يخيرهم بين الاسلام ، ويبين حقيقته وأركانه ، وبين

القتال ، واذا اختاروا السلم كان ، وان اختاروا الحرب ، وهزموا ، وجدوا فى رفق المعاملة ولين القوى وعطفه ما لم يحتسبوا ، فيألفونه ، ويدخل الايمان فى قلوبهم ٠

وانه فى هذا الدور قد أخذت الحرب تنتقل من جزيرة العرب الى خارجها، لأن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ يدعو الملوك ورؤساء الدول الى الاسلام ، أو أن يفتحوا الطريق أمام الدعوة الاسلامية ، فما آمن منهم الا النجاشى ملك الحبشة ، ومنهم من لم يجب ، ومنهم من أساء فى الرد ، ومنهم من أجاب جوابا رقيقا ولكنه لم يؤمن ٠

وحدث أن ملك الروم قد قتلت جيوشه من أسلم من أهل الشام ، فتعرض المسلمون لفتنة دينية كالتى كانت فى مكة المكرمة ، وأمر الله سبحانه وتعالى بالقتال لأجلها ، فقال الله سبحانه وتعالى : « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين** » ، ولذلك كانت غزوة مؤتة ، وغزوة تبوك من بعدها ٠

وقد تجمع اليهود الذين أجلاهم من المدينة المنورة فى خيبر ، لينقضوا على المدينة المنورة ، فكان لابد أن يساورهم ، قبل أن يساوروا المدينة المنورة ٠ وهكذا ٠٠٠

الدور الأول

٣٦٤ ــ وان هذا الدور يصح أن نقسمه الى قسمين : أحدهما لم يلق فيه حربا ، ولا قتالا ، بل كان اللقاء ينتهى بالمسالمة ، وكان فيه تأليف للقلوب النافرة ، وتقريب الاسلام من العقول والنفوس ، وفيه بيان لقريش ان الاسلام قد أعزه الله سبحانه وتعالى ، وأن المسلمين صاروا فوق منالهم ، والناس يستقبلونه ، وقد أرادوا أن يحولوا بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وبينهم٠

والقسم الثانى كان فيه قتل وقتال ٠

وفى القسم الأول كانت غزوات أربع خرج فيها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قبل غزوة بدر الكبرى التى هى ابتداء القسم الثانى من هذا الدور ٠

وتلك الغزوات التى لم يكن فيها قتال هى غزوة الأبواء ، وتسمى الدوان وغزوة بواط ، وغزوة العشيرة وغزوة بدر الأولى ، وكانت بينهما سرية عبد الله

ابن جحش والغزوات الثلاث الأولى كانت فى الطريق بين المدينة المنورة ومكة المكرمة ، وأما بدر فكانت قرب المدينة المنورة ، وان كانت على هـذا الطـريق وغزوة أبواء ، أو ودان كانت فى صفر فى السنة الثانية ، وودان قرية كبيرة من أمهات القرى ، وقريب منها الأبواء ، وكانت الغزوة بينهما ، ولذا صح أن تسمى بكل واحدة منهما · وهما على مقربة من الجحفة ، وبين المدينة المنورة ، وتبعد عن المدينة المنورة بنحو ثلاثة وعشرين فرسخا ·

وقد كان خروج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى جمع من المهاجرين ليس فيهم أنصارى وسبب الخروج أنه علم أن عيرا لقريش قد خرجت ، فترصد لها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لكن وصل بعد فصل العير عنها ، ولقى بنى ضمرة ، فتوادع معهم على أن ينصروا المسلمين اذا دعـوهم الى النصرة وأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن على المسلمين نصرهم على من يعتدى عليهم ·

وكان الذى تولى العقد عن بنى ضمرة مخشى بن عمر الضمرى ، وكـان سيدا فى قومه فى زمانه ، وقد خلف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سعدا بن عبادة على المدينة المنورة ·

وقد أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقية صفر ، وكانت غيبته عن المدينة المنورة خمس عشرة ليلة (١) ·

غـــزوة بواط :

٣٦٥ — فى ربيع الأول بلغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن عيرا لقريش مقبلة من الشام ، أميرها أمية بن خلف فيها مائة رجل ، ومعها ألفـا بعير وخمسمائة ، فخرج اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى جمع مائة من المهاجرين وخلف عنه فى المدينة المنورة سعد بن معاذ ، وحمل لواءه سعد بن أبى وقاص ، وبواط — بفتح الواو — جبل من جبال جهينة من ناحية رضوى ·

ولكن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم عندما وصل الى هذا المكان لم يلق كيدا ·

---

(١) نهاية الارب للنويرى جـ ١٧ ص ٤ ·

غزوة العشـيرة (١) :

٣٦٦ — فى جمادى الأولى من هذه (السنة) علم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن عيرا لقريش ذاهبة الى الشام ، فخرج عليه الصلاة والسلام لملاقاتها ، فنزل تحت شجرة ببطحاء ابن أزهر يقال لها ذات الساق ، فصلى عندها ، فكانت مسجده ، وصنع للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم طعام فأكل وأكل أصحابه ، ثم استقى له من ماء يقال له المشيرب ، وأخذ يتابع البحث عن تلك الشعاب المتعرجة ، ثم اعتدل فى الطريق حتى نزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها ، جمادى الأولى ، وليالى من جمادى الآخرة ٠

ولكن العير قد سبقت ولم يدركها ، فلم يلق حربا ، ولكنـه عاد بتألف القلوب ، فوادع بنى مدلج ومن معهم من حلفاء لهم ، فاذا كان لم يدرك العير ، ولم يكسب منها مالا ، فقد كسب قلوبا ، وألفها ، وذلك هو أول أعمال الرسـالة المحمدية ٠

وقد خلف رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم على المدينـة المنورة أبا سلمة الأسدى ، وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب ، ويذكر ابن اسحاق أنه فى هذه الخرجة ، كنى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على بن أبى طالب كرم الله وجهه بكنية (أبو تراب) فيقول : « ويومئذ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال : فحدثنى يزيد بن خيثم ٠٠٠ عن عمار بن ياسر ، قال كنت أنا وعلى بن أبى طالب رفيقين فى غزوة العشيرة من بطن ينبع ، فلما نزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقام بها شهرا ، فصالح بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ، فوادعهم فقال لى على بن أبى طالب رضى الله عنه : هل لك يـا أبا اليقظان أن هؤلاء النفر من بنى مدلج يعملون فى عين لهم ننظر كيف يعملون فأتيناهم ، فنظر اليهم ساعة ، فغشينا النوم ، فعمدنا الى صور من النخل فى دقعاء من الأرض ، فنمنا فيه ، فوالله ما أهبنا الا ورسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم يحركنا بقدمه ، فجلسنا ، وقد تتربنا من تلك الدقعاء ، فيومئذ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعلى يا أبا تراب لما عليـه من التراب ، فأخبرنا بما كان من أمرنا ، فقال : ألا أخبركم بأشقى رجلين قلنا بلى يا رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام أحيمر ثمود الـذى عقـر الناقة ، والذى يضربك يا على ، على هذه ، ووضع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم — حتى بل منها هذه ووضع يده على لحيته » ٠

---

(١) يقال عنها العسيرة والعشيرة بالمهملة ، ويحذف التاء فيهما ٠

وقد علق على ذلك الخبر ابن كثير ، فقال : « وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، له شاهد من وجه آخر فى تسمية على أبا تراب ، كما فى صحيح البخارى أن عليا خرج مغاضبا فاطمة ، فجاء المسجد ، فنام فيه فدخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسأل عنه ، فقالت خرج مغاضبا ، فجاء عليه الصلاة والسلام الى المسجد فأيقظه ، وجعل يمسح التراب عنه ، ويقول : « قم يا أبا تراب » ٠

ونستطرد فى ذكر هذه الكنية النبوية الشريفة ، فنقول انها كانت أحب كنية الى على كرم الله وجهه فى الجنة ، لأنها تسمية من حبيبه وكافله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولأنها اقترنت بمسحه بيده الكريمة التى أزال بها التراب عن بدنه ، كما أزال الغبار عن الحقائق الانسانية بالشرع الذى حمله وبلغه للخلق ٠

والخبران متلاقيان كما ذكر الحافظ ابن كثير ٠ فانهما يدلان على أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ناداه بذلك النداء الحبيب اليه فى عدة مواطن ٠

ولقد فسق ناس عن أمر ربهم ، فأذاعوا بين من تبعوهم على غيهم أن هذه الكنية تدل على الحط من مكانة على عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فساء قولهم كما ساء فعلهم ٠

وفى هذه الغزوة كما أشرنا وادع بنى مدلج وحلفاءهم بنى ضمرة ، وقد ذكر السهيلى فى الروض كتاب الموادعة بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وبنى ضمرة ، وهذا نصه كما جاء فيه « كانت نسخة الموادعة فيما ذكر غير ابن اسحاق « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله لبنى ضمرة ، فانهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصر على من رامهم الا أن يحاربوا فى دين الله ما بل بحر صدفة ـ وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اذا دعاهم لنصرة أجابوه ، عليهم بذلك طاعة الله تعالى وذمة رسوله ، ولهم النصر على من بر منهم واتقى ٠

بدر الأولى :

٣٦٧ ـ أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى العشيرة ليالى من جمادى الأولى وبعض ليال من جمادى الآخرة كما ذكرنا ، ثم عاد الي المدينة المنورة ، ولكنه لم يقم فيها الا ليالى قلائل حتى أحس بشبه غارة

أزمعتها قريش على المدينة المنورة لتوهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه لاتزال عندهم همة للقتال ولم تكفكف عزيمتهم تلك الانذارات التى قام بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن أرسله ، فقد أغار كرز بن فهر القرشى على سرح المدينة المنورة أى علـى فنائها فخرج رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم اليه واستعمل على المدينة المنورة زيد بن حارثة ، وسار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى بلغ واد يقال له صفوان من نـاحية بدر ، ولكن كرزا ومن معه نجوا بانفسهم ، فلم يدركهم جيش الايمان والفضيلة ثم رجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة المنورة فأقام بها بقية جمادى ورجب وشعبان ، وتسمى هذه الغزوة التى لم يلق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قتالا فيها • بغزوة بدر الأولى ، وهى فى مقابل غزوة بدر الكبرى التى سماها الله سبحانه وتعالى فى كتـابه الكريم يوم الفرقان ، اذ جعل الله تعالى فيه الكلمة العليا لله والحق والايمان ، والكلمة السفلى للشيطان والكفر ، ولقد كان حامل لوائه فى بدر الأولى سيف الله على بن أبى طالب •

سرية عبد الله بن جحش :

٣٦٨ ـــ قد علمت أن النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم عندما جـاء الى المدينة المنورة سالم الذين يقيمون فيهـا ، وعقد معهم الأحلاف البرة من جانبه عليه الصلاة والسلام ، وقد رأيت أن غزواته صلى الله تعالى عليه وسلم الأولى لم يكن فيها قتال ولكن كـان فيهـا سلم ومواثيق تؤخذ ، وتأليف بين القلوب النافرة • ولو استمرت على كفرها ، اذ أن وراء التأليف أن تخلص النفوس بطلب الحق ، فتشرق من غير أن يدخلها ظلام النفرة •

ومن القبائل من كانت تجىء الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تلقى بالمودة من غير نفاق ولا ريبة ومنهم قبيلة جهينة فقد روى الامام أحمد بمسنده عن سعد بن أبى وقاص ، أنه قال : « لما قدم رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم المدينة المنورة جاءت جهينة ، فقالوا انك قد نزلت بين أظهرنا ، فأوثق حتى نأتيك وقومنا ، فأوثق لهم فأسلموا فبعثنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى رجب ، وكنا مائة ، وأمرنا أن نغير على حى من بنى كنانة الى جنب جهينة فأغرنا عليهم ، وكانوا كثيرا ، فلجأنا الى جهينة ، فمنعونا وقالوا لم تقاتلون فى الشهر الحرام ، فقال بعضنا لبعض ما ترون ، فقال بعضنـا : نأتى نبى الله فنخبره ، وقال قوم : بل نقيم هـا هنا ، وقلت أنـا أبى عبد الله ابن جحش فى أناس معى ، لا بل نأتى عير قريش ، فنقتطعها ، وكان الفىء اذ ذاك من أخذ شيئا فهوله ، فانطلقنا الى العير ، وانطلق أصحـابنا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخبروه ، فقام غضبان محمر الوجه ، فقال :

أذهبتم من عندى جميعا ، ورجعتم متفرقين ، انما أهلك من كان قبلكم الفرقة ، لأبعثن عليكم رجلا ليس بخيركم أصبركم على الجوع والعطش » ٠

هذه رواية عند الامام أحمد ، وليس فى سنده من عرف الطعن فيه ، وقد روى مثله مع بعض زيادة فى السند البيهقى فى دلاءل النبوة ، وزاد فى متن الحديث أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم استنكر القتال فى الشهر الحرام ٠

والحديث برواية الامامين احمد والبيهقى يدل على ثلاثة امور :

أولها ـ ما جاء من أن جهينة آمنت اذ بدت البينات ، واستعدت لنصرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وثانيا ـ أن المسلمين لم يقاتلوا فعلا ، وان هموا بالقتال ، وترددوا عندما نبهوا الى الشهر الحرام ٠

والأمر الثالث ـ أنه كانت ثمة عير لقريش على أهبة القدوم ، ولعل هذا هو الباعث على السرية ، ومهما يكن من أمر هذه الرواية التى اتفق عليها امامان من أئمة الحديث ، فان الأمر الذى أشارت اليه تلك الرواية هو أن السرية سارت بامره عبد الله بن جحش ، ولكن الذين كانوا فى هذا على رواية ابن اسحاق كانوا ثمانية ولم يكونوا مائة ، وقد عدهم بأسمائهم ٠ وكانوا من المهاجرين ، ولم يكن أحد من الأنصار ، كشأن كل البعوث والغزوات التى سبق ذكرها ، ولعل هذا العدد المحدود ٠ قد قرره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن رأى الاختلاف ، ولعل عدد المائة كان من أسبابه ، وكلما قل العدد بعد الاختلاف ، وفى الفرقة الهلاك كما قرر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على أن النص لا يدل على قصر العدد على ثمانية ، انما يدل على أن فيهم هؤلاء المذكورين مع عدد ليس بالقليل ، وقد ذكر ابن اسحق أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كتب كتابا لعبد الله بن جحش أمير السرية وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه ،فلما سار بهم يومين فتح الكتاب ، فاذا فيه اذا نظرت فى كتأبى ٠ فامض حتى تنزل نخلة بين مكة المكرمة والطائف فترصد بها قريشا ، وتعلم من الناس أخبارهم ، فلما نظر فى الكتاب ، قال سمعا وطاعة ، وأخبر أصحابه بما فى الكتاب ، وقال قد نهانى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن استكره أحدا منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق معى ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض ٠

وان هذا التخيير يدل على ان العــدد لم يكن ثمانية ، والا ما كان ذلك التخيير ، فانه لا يكون الا فى عدد كبير ولو نسبيا . ولا يمكن فى العادة أن يكون فى ثمانية ٠

ولعل ذلك التخيير ، ما كان من قبل من الافتراق ، اذ قد يكون سببه وهنا فى بعض القلوب ، فأراد النبى صلى الله تعالى عليه وســلم ألا يســير الا من اعتزم وأراد ، واستولى على قلبه ، وذهب عنه الوهن أو احتماله سارت السرية بامرة أميرها ، سالكة طريق الحجاز ٠

ولكن ضل عنهم سعد بن أبى وقاص وعتبه بن غزوان وكانا من الثمانية المقدمين ، وكان معهما بعير يعتقبان فى ركوبه ٠

ولكن القافلة سارت ، وكان رجاء فى أن يهتديا اليها ٠

مضى عبد الله مع من بقى من أصحابه ، حتى وجدا عيرا فيها من قريش وحــواليهم الحضرمى بن عبد الله بن عبــاد ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومى ، وأخوه نوفل ، والحكم بن كيسان مولى المغيرة بن شعبه ٠

لما رأى السرية أصحاب العير ، هابوا لقاءهم ، ولكنهم رأوا عكاشــة ابن محصن من سرية النبوة قــد حلق فقــالوا آمنوا وقالوا عمــار « أى ناون العمرة ، لا بأس عليكم منهم » ٠

تشاور الصحابة من أهل السرية ، وقد كانوا فى آخر رجب ، وهو رابع الأشهر الحرم الذى بينها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأنها ذو القعــدة وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان ترددوا أيقاتلــون فى الشهرالحرام ، أم يتركونهم ، هذه الليلة ، وحينئذ يدخلون الحـــرم ، فيمتنعون عليهم ، ولا يمكن انتظارهم هذه الليلة الباقية ، من رجب الحرام ٠

وانتهت الشورى بالاجماع على القتال ، فرمى أحــد السرية عمرو بن الحضرمى فقتله ٠ وأسروا عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان ، وأفلت من القوم ، نوفل بن عبد الله ٠

وعــادت السرية بالعير ، والأسيرين حتى قدموا رســول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

القتال فى الشهر الحرام :

٣٦٩ ـ قدمت السرية الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالعير والأسيرين ، ولكن مع ذلك كان قتال فى الشهر الحرام ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الحريص على احترام الحرمات قد تأثم من ذلك ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : « ما أمرتكم بالقتال فى الشهر الحرام ، ووقف توزيع العير ، وحبس الأسيرين ، فسقط فى أيدى القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وكان الكلام اللائم من اخوانهم الذين لم يشتركوا فى القتال ، ولم يبلوا بلاءهم ٠

أما الأسيران فوقف عليه الصلاة والسلام اطلاقهما حتى يعود سعد ابن أبى وقاص وصاحبه ، فلما عادا أطلقهما ٠

وقد قامت قائمة من التشنيع على محمد عليه الصلاة والسلام ، جاهر بها المشركون من قريش ، وما حركهم احترام الحرمات ، والمناسك ، وانما حركهم العير التى أخذت فى مقابل ما أخذوا من أموال المهاجرين ، وحركهم الغيظ من أن يكون لمحمد عليه الصلاة والسلام قوة تتولى تأديبهم والقصاص منهم ، وأنه قد ابتدأ أمر جديد قد انبلج فجره ٠ فظهروا بمظهر المدافعين عن الحرمات ، وأن محمدا عليه الصلاة والسلام ينتهكها وهم يصونونها ، ونسوا أنهم هم الذين فتنوا المسلمين عن دينهم ، وانتهكوا حرمات البيت الحرام ، ونسوا أنه حرم الله سبحانه وتعالى الآن غير مفرقين فى هذا الايذاء بين شهر حرام وشهر حلال ٠

واليهود قد وجدوها فرصة لائحة تشفى غيظهم ، فأخذوا ينثرون من أفواههم ما تنغر به قلوبهم من احن ، وعداوة للاسلام أخفوها ابتداء ، ولكن بدت من أفواههم رغم أنوفهم ٠ وما تخفىَ صدورهم أكبر ٠

حدث هذا ، والمجاهدون الأطهار تكاد نفوسهم تذهب حسرات حتى نزل قوله الله سبحانه وتعالى : « **يسألونك عن الشهر الحرام ، قتال فيه ، قل قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، واخراج اهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا** » ٠

كانت هذه الآيات الكريمات بردا وسلاما للمؤمنين ، وردا قاطعا حاسما للكافرين ، وانه ليس لأولئك الذين انتهكوا الحرمات ، من كفر بالله وبالمسجد

الحرام وصد عن سبيل الله سبحانه وتعالى . وقتل فى البيت الحرام أن يتكلموا فى انتهاك الأشهر الحرام .

على أنه يجب أن يعلم أن الذين ابتدءوا بالقتال هم المشركون ، فقد أغاروا ابتداء على فناء المدينة المنورة ، نعم انهم لم ينالوا مأربا ، وفروا فرارا ، فهل كان لأهل الايمان ان يتركوهم ليعيدوا الكرة عليهم ، لا يمكن أن يتركوهم ليغزوهم فى عقر دارهم .

ومهما يكن من الامر ، فقد كانت هذه الغزوة ارهاصا لبدر الكبرى ، فقد كانت العير هى التى استولى عليها المؤمنون .

لماذا كانت هذه الغزوات ؟ :

٣٧٠ — قد خرجت غزوات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاث مرات ، وخرجت اربع سريات لم يحصل قتال فى السرايا ، ولا فى الغزوات الا سهما ارسله سعد بن أبى وقاص فى سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وسهما قتل ابن الحضرمى فى سرية عبدالله بن جحش ، وكانت سهما عائرة ، لأخذ العير ، ولا يمكن أن يسمى ذلك قتالا ، انما يسمى محاولة لأخذ مال هو من بين ما اغتصبه المشركون من المؤمنين ، اذ أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله .

اذا لم يكن قتال بمعنى كلمة قتال التى تكون مفاعلة من الجانبين ، فلماذا كلف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نفسه ورجاله مئونة هذا الخروج ، ونقول فى الاجابة عن ذلك :

(أ) ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خرج من مكة المكرمة ، وهو هضيم ، أو شبه مطرود فى ظاهر الأمر ، وما هو الا ليجمع قوة الحق ، فكان لابد أن يعمل على اظهار ما أيده الله سبحانه وتعالى به من قوة ، تستطيع أن تشعر الظالمين بأن للحق شوكة ، وأنهم اذا لم يتركوا الدعوة فى طريقها رغبا ، فانهم لابد أن يتركوها رهبا ، ولابد للحق فى هذه من صولة تكف أذى الباطل ، أو على الأقل تجعل الباطل يتردد عند انزال أذاه ، وأنه ان لم يخش صوت الضمير ، فانه يخشى صلصلة السيوف . فكانت هذه السرايا وتلك الغزوات مظاهر من صولة الحق ليتركوا الدعوة الى الحق تسير فى سبيلها ، ولتستيقظ ضمائر كانت نائمة ، فمن الضمائر ما لا يستمع لصوت الحق الوادع الرفيق ،

ولكنه يستيقظ ٠ اذا رأى جلجلة القوة ، فيخفف من حدة الأذى ، ويتبع ذلك أن يسير فى طريق الهداية ان لم يكن الضلال قد كتب عليه ٠

(ب) وانـه اذا لم يكن قتـال ، فقد كان هنا دراسة للمؤمنين فى البـلاد العربية يتعرفون وهادها ، وجبالها ٠ ويدرسون مجاهلها ، فيعرفها من لم يكن يعرفها ، ويلتقون فيها بالأعراب فى أخبيتهم ، ومساكنهم ، وفى ذلك اعـلان الدعوة لمن لم يكن يعلمها ، وتوجيه العقول اليها وتوضيحها وبيانها ٠

وان فى هذه الجولات التى كان يجولها أولئك المؤمنون فى السرايا التى بعث بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تعرفا لمساير عير قريش ، وما كانت الا للتجار الأغنياء فيهم ، فما كان للشعب فيها الا النزر اليسير ، وما كانت تلك البعوث التى تتبع عير قريش لأخذها ، الا ليكون هذا بدل ما اغتصبوا ، وقد قلت من قبل ، ان ذلك لم يكن حصارا اقتصاديا ، كما يجرى فى عبـارات الكاتبين والمحاربين والسياسيين فى هذا الحصار كالذى تجرى كلماتها فى عصرنايقصد به التضييق علىالأمة التى يعادونها فىموارد رزقها ، فلايرسل اليها طعام ، ولا المواد الضرورية للحياة والعمران ، بحيث يعم الضيق الشعب كله ، وما كان ذلك فى سرايا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولا فى غزواته انمـا كان الاتجاه الى محاربة التجار الذين كانوا يقومون بالتجارة ، وجلهم أو كلهم ممن حاربوا النبى صلى اللهتعالى عليه وسلم واشتركوا فى ايذاء أصحابه ، واخراجهم من أموالهم وديارهم ، فما كان فعله عليه الصلاة والسلام حـربا اقتصـاديا يعم البرىء والسـقيم ، بل هو مصادرة لمـال ظالم اغتصب أموال المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، كما تلونا من الآيات من قبل ذلك ٠

(ج) وان غزوات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع ما فيها من نشر الدعوة الى الله سبحانه وتعالى بالحكمة والموعظة الحسنة كان فيها تأليف للقلوب ، ففيها عقدت اتفاقات على النصرة والايواء ، ففى غزوة بوان اتفـق عليه الصلاة والسلام مع بنى ضمرة على أن ينصروه اذا دعاهم الى النصرة ، وينصرهم اذا دعـوه ٠

وفى غزوة العشيرة عقد مع بنى مدلج ، وحلفائهم من بنى ضمرة اتفاقا على المناصرة بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم ووثقه بكتاب كتب ، كما نقلنـاه من قبل من الروض الأنف للسهيلى ٠

واذا كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يغز لحرب ، فقد غزا قلوبا ، وألفها لتكون قوة لأهل الحق ، وليدخل الايمان الى قلوبهم ، لأن تآلف القلوب السبيل الى دخول الحق اليها لكيلا تنفر ، فتعمى ٠

ويلاحظ أن هذه البعوث كلها كان جنودها من المهاجرين ، فأمراؤها من المهاجرين، وغزوات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان الجنود فيها من المهاجرين ، ولم يكن فيهم من الأنصار أحد ، فلم يندب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أحدا من الأنصار الا فى بدر ، ولماذا كان ذلك ! ولابد أنه كان مقصودا منه صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يجىء اذا اتفاقيا من غير قصد له بالذات ٠

والجواب عن ذلك :

أولا : أن المهاجرين هم الذين أوذوا فى أبدانهم وكراماتهم من أولئك المشركين ، فهم أشد الناس رغبة فى القصاص ممن آذوهم والقصاص شريعة لحكمهم ، فكانوا أولى بلقاء قريش من غيرهم ، ولأنهم هم الذين استضعفوا وأراد المشركون اذلالهم ، فكانوا فى لقائهم بالمشركين وفرارهم منهم أشد تبيينا لبيان أن الحق قد علا ، وأنهم مكن لهم فى الأرض وان ذلك يكون أروع وأوقع ، وماذا تكون حال الصناديد من قريش اذا رأوا عمار بن ياسر وقد أوذى هو وأبوه وماتت أمه تحت حر العذاب ، حتى قال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « اصبروا آل ياسر فان موعدكم الجنة » ، فماذا يكون وقع ذلك فى نفوس الغلاظ اذا رأوا عمارا العملاق واقفا لهم بتمكين الله سبحانه وتعالى ٠

ثانيا : أن الذين أخرجوا من أموالهم وديارهم هم المهاجرون ، فكانوا أحق الناس بأن يطالبوا بما لهم الذى اغتصب ، وديارهم التى خربت ، وأن يكفوا عن أهليهم وضعفائهم الذين لم يهاجروا شر أولئك العتاة أو يعطوهم وبال أمرهم جزاء بما اكتسبوا ٠

ثالثا : وهو عمدة الأسباب وقوتها ـ أن عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان على الايواء والنصرة وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونسائهم

وذرياتهم ، ولم يكن فى ذلك النص على ان يخرجوا معه فى حرب ، وان فهم ضمنا أنهم يكونون معه فى الحرب والسلم ، فلم يرد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يخرجوا معه فى غير ما نص عليه العقد نصها صريحا لا تأويل فيه ، ولذا لم يدعهم الى الخروج معه فى هذه الغزوات وتلك السرايا ، وكان فى المهاجرين غناء بالنسبة لهذا الغزو المحدود ٠

ولذلك لما جد الجد ، وجاء جيش كثيف من المشركين عدته تجاوزت الألف استشارهم ، لتكون الاجابة رضا بأن يشتركوا فى الحرب ، وتلك الاستشارة كانت عند الاقدام من قريش برجلها وعتادها وفرسها ، فكانوا عند رجاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيهم ، وعلى ما دفعهم اليه ايمانهم ، وهو أوثق العهود ٠

تحويل القبلة وفرض الصوم

٣٧١ — لم يكن عمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الحرب وارسال البعوث ، وعقد المعاهدات ، وتنظيم شئون المدينة المنورة وما حولها · لم يكن ذلك عمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقط ، بل كان عمل النبى عليه الصلاة والسلام مع ذلك تنظيم الدولة بوحى من الله سبحانه وتعالى ، فما كان ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى ، فأصل الجهاد بوحى من الله سبحانه وتعالى ، ولكن الترتيبات الجُزئية والترتيبات التنفيذية ، وكل ذلك الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليقوم بمثله من بعده عند انقطاع الوحى ، وله فى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اسوة حسنة ، ولم يكن تنظيم الدولة فقط ، بل كانت التكليفات التى يتلقاها عن الله سبحانه وتعالى من العبادات ، والتكليفات الاجتماعية التى من شأنها أن تربى روحا قوية لتجعل من اتباع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قوة متحدة ، فى نظام اجتماعى متماسك قوى تربطه أشد عناصر الترابط الاجتماعى الذى يكون مجتمعا متكافلا ·

ولذلك كانت الفترة ما بين جمادى الآخرة ، أو بالأحرى ما بين رجب ورمضان ، أو الشطر الأكبر منه كانت تلك الفترة زمان شرعية أمور من العبادة ، تتصل بتقوية النفس وتقوية المجتمع ·

وفى هذه الفترة شرع تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة الشريفة . وفى هذه الفترة فرض صوم رمضان ، وفرض مع صوم رمضان صدقة الفطر ، وهما فرضان اجتماعيان كما سنبين ·

وتحويل القبلة ايذان من الله سبحانه وتعالى بازالة الأصنام ، أو الأخذ فى أسباب هذه الازالة ·

تحويل القبلة الى الكعبة الشريفة

٣٧٢ — عندما فرضت الصلاة بعد الاسراء والمعراج على أنها خمس صلوات ، وان كان لها ثواب خمسين صلاة ، ان أقيمت على وجهها ، كانت قبلة المسلمين الى الشام ، الى بيت المقدس ، ولكن تتوسط الكعبة الشريفة ، فيكون الاتجاه الى الكعبة الشريفة على ناحية بيت المقدس ، فكان المصلى يجمع فى صلاته بين القبلتين بأمر ربه ٠

ولما هاجر الى المدينة المنورة لم يكن الجمع ممكنا ، بل لابد من استدبار احدى القبلتين ، وقد ترك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مكة المكرمة ، والكعبة الشريفة تحيط بها الأوثان ، ولم يكن ثمة ما يؤذن من الأمور بزوالها ، فكان استقبالها لايخلو من استقبال الأوثان المحيطة بها ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان حريصا على أن تكون الكعبة الشريفة هى القبلة ، وحريصا على أن تزول الأصنام عنها ٠

وقد أمره الله سبحانه وتعالى بأن تكون القبلة الى بيت المقدس مؤقتا ، لأن الله سبحانه وتعالى لم يؤذن بأن تخرج الكعبة الشريفة عما هى ، ولعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم علم بأمر ربه أن استقبال بيت المقدس ، واستدبار الكعبة الشريفة أمر مؤقت وأن النهاية الى الكعبة الشريفة ، وأن الاتجاه اليها ايذان بذهاب دولة الأوثان ، وطهارة البيت الحرام ٠

ولذلك كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يضرع الى الله سبحانه وتعالى أن يقرب الوقت الموعود بالعودة الى الكعبة الشريفة ، لأن العودة الى الكعبة الشريفة عودة الى كعبة ابراهيم أبى الأنبياء ، ولأن الاتجاه اليها ، ايذان بنصر الله سبحانه وتعالى ، وايذان بازالة الأوثان بعد زمن طال أو قصر ، وان كان فى عمر السنين والحساب ليس كثيرا ٠

وفى هذا الوقت كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يضرع الى الله سبحانه وتعالى أن يقرب البعيد ، وكان اليهود يتوهمون أن جعل القبلة الى بيت المقدس معناه أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم لا يكون خارجا عن أنبياء بنى اسرائيل ، وهو وهم باطل سكن فى نفوسهم التى تتخيل ثم تخال ثم تعتقد ، كشأن أصحاب الديانات الذين لا يؤمنون بالديانة الا على أن تكون أمانى لهم أو تتفق مع أمانيهم ٠

قبيل بدر كان الايذان بزوال دولة الأوثان التى كان يومها يوم الفرقان ، قد أذن الله سبحانه وتعالى بتحويل القبلة الى الكعبة الشريفة ، أو بالأحرى اعادة القبلة الى الكعبة الشريفة ، اذ نزل قول الله سبحانه وتعالى :

« سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب ، يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ٠ وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا ، وما جعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله ، وما كان الله ليضيع ايمانكم ، ان الله بالناس لرءوف رحيم ٠ قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، وان الذين اوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم ، وما الله بغافل عما يعملون ٠ ولئن اتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ، وما انت بتابع قبلتهم ٠ وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذن لمن الظالمين » ٠

كان تحويل القبلة الى الكعبة الشريفة ، بهذا النص وهو يدل على أمرين :

أحدهما : أن أهل الكتاب هم الذين كانوا يقولون : ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، وأنهم كانوا فرحين ، اذ أن المؤمنين كانوا يتبعون قبلة بيت المقدس ٠

ثانيهما : أن نص الآية يشير الى أن جعل القبلة الى بيت المقدس كان حكما مؤقتا يزول بزوال سببه ، ولذلك لا نعتقد أنه نسخ ، ولكنه انتهاء حكم مؤقت بانتهاء وقته المعلوم ، وقد بين الله سبحانه وتعالى ذلك ٠

بقى أن تعرف الميقات الذى كان فيه التحويل !! لقد رويت فى هذا روايات ظاهرها الاختلاف ، ولكن الاتفاق على أنها كانت بعد جمادى الآخرة ، والاختلاف أكان ذلك التحويل فى رجب أم كان فى شعبان فروى عن قتادة وزيد بن أسلم وعبد الله بن عباس أن ذلك كان فى رجب ، وروى أنه كان فى شعبان ، وكلام ابن اسحاق يومىء الى ذلك ، اذ يقول انها كانت بعد سرية عبد الله بن جحش ، وما كانت فى آخر رجب ويقول فى هذا المقام :

« قال ابن اسحاق كانت بعد غزوة عبد الله بن جحش ، ويقال صرفت القبلة فى شعبان على رأس ثمانية عشر شهرا من مقدم رسول الله » (صلى الله عليه وسلم) ٠ وحكى هذا القول ابن جرير عن ابن عباس ، وناس من

الصحابة ٠٠ قال الجمهور الاعظم انما حولت فى النصف من شعبان ، على راس ثمــانية عشر شهرا من الهجرة ٠٠ وعن محمد بن سعد الواقدى أنهــا حولت يوم الثلاثاء فى النصف من شعبان ٠

ومهما يكن فقد ذكر الحــافظ بن كثير ، أنه يميل الى هذه الرواية التى تقول انها فى النصف من شعبان وذلك لأنه رأى الجمهور الأعظم ، كما يقرر ابن كثير ، وما كان الجمهور ، ليتجه الى رواية الا اذا ثبتت لديه صحتها ، ورأينا دائما أن ما يتلقاه الناس وفيهم العلماء بالقبول لا يرد الا اذا ثبت بدليل قاطع أو راجح بطلانه ٠

واننا قد رأينا أن نصف شعبان يحتفل به المسلمون على أساس أنه يوم مبــارك ، والاحتفــال به يتفق مع كونه اليوم الذى تحولت فيه القبلة من بيت المقدس الى الكعبة الشريفة ، وكلاهمــا مقدس ، اذ هو فرحة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

على أننا نلاحظ أن ابن كثير قدر المدة بين الهجرة ، أو مقدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بثمانية عشر شهرا ، وانه باستقراء عدد الأشهر من وقت مقدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى منتصف شعبان لا يكون قد مضى ثمانية عشر شهرا ، ذلك أن الهجرة كانت فى ليلة الثانى عشر من ربيع الأول ، فاذا احتسبنا ربيع الثانى وجمادى الأولى والآخرة ، ورجبا يكون سبعة عشر شهرا وأياما ٠

صــوم رمضــان

٣٧٣ ـــ هذا ما يتعلق بالقبلة ، اما فرضية صوم رمضان ، **فقد روى** ابن جرير أن ذلك كان فى شعبان كما كان فيه تحويل القبلة الى الكعبة الشريفة، فهو شهر مبارك ٠

وقد روى أن فرضية الصوم اخذت ثلاثة أدوار :

الدور الأول : كانت عندما قدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة المنورة ، فقد وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء ، فســألهم عنه ، فقالوا هذا يوم نجى الله سبحانه وتعالى فيه موسى ، فقال عليه الصلاة والسلام : نحن أحق بموسى منكم ، فصامه ، وأمر الناس بصيامه هذا هو الدور الأول ، وقد يفهم منه أن ذلك كان باجتهاد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونحن لابد أن نقدر مع ذلك وحى الله سبحانة وتعالى ، والا مــا كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليأمر الناس بعبادة ان لم يكن قد نزل وحى الله سبحانه وتعالى بذلك ٠

الدور الثانى : عندما نزل قول الله سبحــانه وتعــالى : « **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ، كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ٠ أياما معدودات ، فمن كــان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيــام أخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمن تطوع خيرا فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون** » ٠

وقد قال ابن كثير فى هذا الدور انه كــان المؤمن بخيار بين أن يصوم ، وبين أن يفطر ، وهذا نص قوله فى هذا الدور ، فكان من شاء صام ، ومن شاء أطعم مسكينــا ، فأجزأ عنه ، وفى ذلك نظر سنبديه ، ان شاء الله تعــالى بعد ذكر الدور الثالث ٠

الدور الثالث : هى فرضية الصيــام فى شهر رمضان ، فقد ق سبحانة وتعالى : « **شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن هدى للناس ، وبيـ من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضــا او على سفر ، فعــدة من أيــام اخر يريــد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ، ولعلكم تشكرون** » ٠

ويذكر ابن كثير فى هذا الدور حالين :

احداهما : أنهم كانوا يأكلون ويشربون حتىيناموا ،فاذا ناموا امتنعوا ·

والحال الثانية : وهى الأخيرة أن الله سبحانه وتعالى أباح لهم الرفث الى نسائهم وأن يأكلوا ويشربوا حتى يتبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، وقد بين الله سبحانه وتعالى هذه الحال الأخيرة بقوله سبحانه وتعالى : « **احل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم ، هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن ، علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم فتاب عليكم ، وعفا عنكم ، فالآن باشروهن ، وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا ، حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم اتموا الصيام الى الليل ، ولا تباشروهن وانتم عاكفون فى المساجد ، تلك حدود الله فلا تقربوها ، كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون** » ·

ولنا أن ننظر فى كلام الحافظ بن كثير من ناحيتين :

الأولى : انه ذكر أنه عند فرضية الصوم كان المؤمن مخيرا بين أن يصوم ، وأن يفطر ، ويقدم فدية طعام مسكين ، ولعله فهم هذا من قول الله سبحانه وتعالى : « **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** » ونحن نرى متبعين للسلف أو على الأقل لبعضهم أنه لم يكن تخيير بين الصوم والافطار ـ أولا ، لأن ذلك ينافى الفرضية ، وقد ثبتت الفرضية مؤكدة فى قول الله سبحانه وتعالى : « **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ، كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياما معدودات** » · فقد تأكدت الفرضية بالتعبير عنها « **بكتب** » وبيان أن فرضية الصيام شريعة أزلية ، دائمة كتبت على المؤمنين ، كما كتبت على غيرهم ، ثم أفاد كلام الله سبحانه وتعالى أنها ذريعة الى تقوى الله ، وتقوى الله مطلوبة فى كل الأحوال ·

الثانية : أن الله سبحانه وتعالى فرض على المترخص بالسفر أو المرض أن يصوم فى أيام أخر ، فدل على أن الأيام محدودة معلوم وقتها ، وعلى أنها لاتفوت وتترك اذا كانت أعذار ، بل يجب أن تقضى ، ولو كان ثمة تخيير لذكر التخيير هنا وما وجب القضاء فى أيام أخر ، ويكون ذلك للمسافر أو المريض المقيم ·

والثالثة : أن اية كتب عليكم الصيام ، فى سياقها « **شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن** » فلا يعقل أن تكون آيتان فى نص واحد ، احداهما ناسخة

والأخرى منسوخة ، بل المعنى المتسق هو أن يكون قول الله سبحانه وتعالى : شهر رمضان بيان للأيام المعدودة ٠

والرابعة : أن قول الله سبحانه وتعالى : « **يطيقونه** » ، معناها الذين يبلغون أقصى الطاقة فى الصوم ، ولا قبل لهم بالاعادة من بعد ، فإن عليهم الفدية ، وقد روى أن هذا النص ينطبق على الشيخ والشيخة اللذين يبلغان أقصى الطاقة فى الصيام ، وقد روى ذلك عن ابن عباس ، ومثلهما الزمن والمريض بمرض ، لا رجاء فى البرء منه ٠

والخامسة : أن قول الله سبحانه وتعالى : « **فمن تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم** » لا تدل على التخيير ، لأن الواضح منها هو صوم التطوع ، لا صوم الفريضة ٠

بقى أن ننظر نظرة فاحصة فيما ذكره من أنه بعد الفرضية ، كان الفرض أن يمنع الأكل والشرب ، والرفث الى أزواجهم بعد النوم ، وأنه من بعد ذلك أبيح الى الفجر ، ونقول فى ذلك انه لم يثبت من نص قرآنى ، ولا من حديث نبوى أنه بمجرد النوم تنتهى اباحة الأكل والشرب ، وغيرهما ، بل الثابت أنهم فعلوا ذلك ، أو أن بعضهم على التحقيق فعل ذلك ، أكان هذا من فهم فهموه ، أم من نص أدركوه ، واذا كنا نبحث عن النص المروى فى ذلك عن النبى صلىٰ الله تعالى عليه وسلم فلا نجده فان الراجح أن يكون ذلك من فهمهم لفرط تورعهم ، ويُرشح لهذا المعنى قول الله سبحانه وتعالى : « **علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم** » والمعنى أنكم تريدون صيانة أنفسكم ، وقد فسر الراغب الأصفهانى الاختيان بأنه مرارة الخيانة ، وانى أرى أن خيانة النفس بتكليفها مالا تطيق ٠

ولهذا أرى أن ذلك فهم فهموه ، فصحح القرآن الكريم الأمر ووضحه وبينه فلم تكن هذه حالا جديدة ٠

وانى أعتقد مؤمنا أن الآيات الكريمة من أول فرضية الصيام الى آخر الآيات الكريمة المتعلقة به نسق واحد ، ليس فيها ناسخ ومنسوخ ، والله أعلم ٠

فرضية زكاة الفطر

٣٧٤ ــ وفى هذه السنة فرض الله سبحانه وتعالى زكاة الفطر ، ويبدو من سياق الحوادث أنها كانت تابعة لفرضية الصوم ، ولذلك روى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خطب بفرض صدقة الفطر ، قبل الافطار فى رمضان هذه السنة بيوم أو يومين ، وقال الحافظ ابن كثير : وفيها أى فى السنة الثانية صلى النبى عليه الصلاة والسلام صلاة العيد ، وخرج بالناس فصلى بالناس الى المصلى ، فكانت أول صلاة عيد ، وخرج بالناس الى المصلى وصلاها ، وخرجوا بين يديه بالحربة ، وكانت للزبير وهبها له النجاشى ، فكانت تحمل بين يدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الأعياد ٠

وكان حملها بين يدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى مجتمع الأعياد الجامع ، اشعارا بالوحدة الجماعية التى تقوم بالعبادة ، وأنها قوية عزيزة بعون الله سبحانه وتعالى لا ذلة فيها ، بل فيها العزة والكرامة ٠

وان زكاة الفطر يبدو من السياق التاريخى أنها شرعت بعد واقعة بدر الكبرى ، لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خطب بها قبل عيد الفطر بيوم أو يومين ٠

أما الصوم ، فمن المؤكد أنه فرض قبل يوم الفرقان فى شعبان على الأرجح ٠

وان من الرواة المتأخرين من يقول : ان الزكاة التى تفرض فى المال ، وتسمى زكاة المال قد فرضت فى هذه السنة ، فيقول : وفى هذه السنة ــ أى السنة الثانية ــ فرضت الزكاة ذات النصب كما ذكر غير واحد من المتأخرين ٠

وقبل أن ننهى الكلام فى رمضان وصدقة الفطر نذكر أمرين جديرين بالنظر :

أولهما : أن صريح الأحاديث الواردة فى صدقة الفطر يفيد بأنها فرض ، ليست سنة مؤكدة ، ولا واجبة وجوبا دون الفرض ، كما يقرر الحنفية ، ولقد روى الترمذى بسند أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعث مناديا فى حجاج مكة المكرمة « ألا ان صدقة الفطر واجبة على كل مسلم ذكر وأنثى ، حر وعبد

صغير أو كبير » أى أنـه يجب على الغنى أن يدفـع زكاة كل واحد من هؤلاء لأنه يمونهم ٠

ولقد قـال ابن القيم : « وكـان من هديه صلى الله تعـالى عليه وسلم تخصيص المساكين بصدقة الفطر ، ولم يكن يقسمها على الأصنـاف الثمانية (أى المذكورة فى قول سبحـانه وتعالى : « **انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغـارمين وفى سبيل الله وابن السبيل** » ولا أمر بذلك ، ولا فعله أحـد من أصحابه ، ولا من بعدهم ، بل أحد القولين عندنا (أى الحنابلة) أنه لا يجوز اخراجها الا على المساكين عامة ، وهذا القول أرجح ٠

وان هذه الصدقة فيهـا معنى اشراك المسـاكين فى أفراح العيد بـأن يغنوهم عن السؤال فى هذا اليوم ، كما ورد عن النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم ٠

ثانى الأمرين اللذين يجب التنبيه اليهمـا : أن الصيام فرض قبل غزوة بدر يوم الفرقان ، لأن الصوم ، يربى ضبط النفس وينمى روح الصبر ، ويعلى الارادة ، وهذه هى أدوات الجهاد النفسية ، فان عدة الجهاد هو الصبر ٠

فكان فرضه تمهيدا لما يجىء من بعد ، وهو يوم الفرقان ٠

يوم الفرقان

بدر العظمى

٣٧٥ ـــ كانت الغزوات التى قام بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى أول العام الثانى من الهجرة ، والسرايا التى قام بها أصحابه بأمر منه ، لاشعار قريش بأن الاسلام صارت له قوة تناوىء من آذوا أهله . وحاولوا فتنة الضعفاء عن دينهم ، فأرهقوهم ليحولوهم عن اعتقادهم ، فلم ينالوا خيرا .

وكانت ليتعرف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم داخل البلاد العربية ، ويشعرهم بوجود الاسلام ، ويتألف قلوبهم ليجمعهم من بعد على كلمة الحق ، وقد عقد عليه الصلاة والسلام مع بعضهم مواثيق عدم اعتداء ، والنصرة لهم وبهم .

وكان من بعد ذلك أن يلاقى صلى الله تعالى عليه وسلم قريشا لا بسرية يرسلها ، ولكن بغزوة يغزوها بنفسه ، وقد مهدت الأسباب ، وعلم المشركون أنه صار للمسلمين قوة يقدرون معها عواقب أمرهم .

وانه عليه الصلاة والسلام قاطع عليهم طريق تجارتهم ، فقد صارت الحرب قائمة بعد أن أخرج المؤمنون من ديارهم ، وبعد أن هموا بقتله ، وأخذوا العدة . فما ان علم بتجارة لهم ذاهبة الى الشام أو عائدة ، حتى يبادر اليها .

ولما قتل عبد الله بن جحش فى سريته ابن الحضرمى كما أسلفنا ، وأسر المسلمون من أسروا أحس المشركون من قريش فكانوا يحصنون تجارتهم بحرّاس .

خرجت قريش بتجارة عليها نحو اربعين مقاتلا ، وسارع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قبل سرية ابن جحش ليدركها ، ولكنها أفلتت ، وكانت فيها أموال ذوى المال من قريش ، فأخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يترصدها عند عودتها من الشام ، وتتبع أخبار قريش وأخبارها .

العـير :

٣٧٦ — علم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن عير قريش قـافلة راجعة من الشام ، وفيها ثلاثون أو أربعون رجلا ، فندب المسلمين اليهم ، وقال عليه الصلاة والسلام :

« هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا اليها ، لعل الله سبحانه وتعالى ينفلكموها » ٠

فخف بعضهم استجابة لنداء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وثقـل بعضهم ، وان كان على استعداد ، لأنهم لم يتوقعوا قتالا ، كما كان فى السرايا والغزوات السابقة ، فانهم لم يلتقوا بالمشركين ، ولم يكن قتال ٠

وان أبا سفيان الذى كان على رأس العير التى حمولتها ألف بعير ، كان يتخوف من أن يلقاه المسلمون فيأخذوه ، كما أخذوا عير ابن الحضرمى وقتلوه ، ولذلك كان يتحسس أخبار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ، ويتعرف حركاتهم ٠

فكان يسأل من يلقى من الركبان ، حتى أصاب خبرا ، بأن النبى صـلى الله تعالى عليه وسلم استنفر أصحابه للقاء أبى سفيان ، وعيره ، وتأكد أن المصير الذى سيلقاه هو والعير هو ما لقيه ابن الحضرمى وعيره ٠

وقد دفع به الحرص على عير قريش الى أمرين :

أحدهما ـ أنه مال عن طريق بدر ، ونجا بعيره ، وجاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من المهاجرين فوجدوا العير قد أفلتت منهم ، ولم ينالوا منها ، وعلموا أن وراءها القتـال ٠

الأمر الثانى : أنه أرسل الى قريش يستغيث بها لتحمى عيرها التى معه ، وليعمل على أمن الطريق من محمد صـلى الله تعالى عليه وسـلم وأصحابه وليجهز جيشا يقضى على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى أصحابه ٠

أرسل ضمضم بن عمرو الغفارى يبين ما تتعرض له العير ، وأن محمـدا صلى الله تعالى عليه وسلم وصحبه يتعرضون لها ، فذهب ضمضم يصرخ ببطن الوادى ، واقفا على بعيره وقد جدعه وحول رحله ، وشق قميصه ليسـتدعى

الناس ، وينبههم الى ما يقول ، ثم قال : « يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة (١) أموالكم مع أبى سفيان ، قد عرض لها محمد فى أصحابه ، لا أرى أن تدركوها ، الغوث ، الغوث » .

كانت تلك الكلمات الحارة مع المظهر الذى ظهر به دافعة القوم الى أن يندفعوا معتزمين الدفاع عن أموالهم ، وانقاذها ، فكانت قريش ما بين رجلين ، رجل اعتزم أن يخرج بنفسه ، وآخر ينيب عنه من يدافع عن ماله ، ومال قريش كلهم ، وبينما هم قد تجهزوا وأعدوا العدة بلغهم أن العير قد نجا بها أبو سفيان اذ غير الطريق كما أشرنا ، فأرسل الى قريش يبشرهم بنجاة العير ، اذ قال لهم : « انكم انما خرجتم لتمنعوا عيركم ، ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله ، فارجعوا » .

وبذلك ذهب السبب الذى كان من أجله الخروج ، ولكن لأجل الحقد والعنف فى قلوب بعض المشركين ، وعلى رأسه أبو جهل أبى الا المضى الى بدر ، فقال : « والله لا نرجع حتى نرد بدرا » .

فرد كلامه بعض حلفاء بنى زهرة ، وقال وهم بالجحفة :

« يا بنى زهرة قد نجى الله أموالكم ، وخلص لكم صاحبكم مخزمة ابن نوفل (وكان فى حماة العير) وانما كفرتم بنعمته وماله ، فاجعلوا لى جبنها وارجعوا ، فانه لا حاجة لكم بأن تخرجوا على غير ضيعة ، لا ما يقول هذا الرجل (أى أبو جهل) فلم يشهدها زهرى واحد » .

ولم يكن بقى من قريش بطن الا وقد نفر منهم ناس ، وبنو عدى بن كعب لم يخرج منهم .

وكانت محاورات فى صفوف الذين خرجوا للقتال من شأنها أن توجد ترددا فى الخروج ، وقد قال بعضهم فى محاورة لطالب بن أبى طالب ، وقد استعد للخروج « لقد عرفنا يابنى هاشم ، وان خرجتم معنا . ان هواكم لمع محمد » . فغضب لذلك طالب . ورجع مع من رجع .

كان هذا التردد والرجوع من بعضهم بعد أن خرجت رجالات قريش للدفاع عن العير ، ولا شك أن من بقى مصرا على القتال قد نهنه من عزمته ذلك الخلاف ، مع رجوع بعضهم ، وخصوصا أن سبب الخروج قد زال .

---

(١) اللطيمة : الابل التى تحمل الحرير والطيب وغيرهما .

ومهما يكن من أمر ذلك التردد فقد خرجت قريش على الصعب والزلول في خمسين وتسعمائة مقاتل معهم مائتا فرس يقودونها ، وأعـداد من الابـل تجاوزت الحسبة ، ومعهم القيان يضربن بالدفوف ، ويتغنين بهجاء المسلمين ·

٣٧٧ ــ لنترك هؤلاء وعيرهم وجيشهم وقيانهم ، ولنذكر العطـر من أخبار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لقد خرج رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم بنحو تسعة وثلاثمائة أو حول هذا العدد ، وكان فى هذه المرة من المهاجرين والأنصار قاصدين بدرا ، ليلقوا العير هنالك ، فلم يدركوها ، وفر بها أبو سفيان مخالفا طريق بدر جاعلا بدرا على يساره ، وبذلك نجا العير ومن معـه ·

وعلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مما تحسس من أخبار أن قريشا قد خرجت فى هذا العدد بجيش لجب فيه الأفراس والابل ، وأنه اذ فر منه العير فقد لقى النفير ، وانها الحرب لا محالة ·

ولذلك أخذ بجمع قلوب جنده ، بعد جمع عددا وان كان قليلا فى عدده هو قوى فى ايمانه ، انه واثق من المهاجرين والأنصار ، ولكن خشى أن يفهم الأنصار أن العهد لا يلزمهم أن يخرجوا معه ، بل يلزمهم العهد ان دهم فى المدينة المنورة وأن ليس عليهم أن يسيروا معه لقتال عدو لم يجىء الى بلدهم ذلك أن صـيغة العهد أنهم قالوا : يارسول الله (عليه الصلاة والسلام) انا براء من ذمـامك حتى تصل الى ديارنا ، فاذا وصلت الينا فأنت فى ذمتنا نمنعك مما نمنـع بـه أبناءنا ونساءنا ·

وربما توهم بعضهم أن هذا العهد لا يلزمهم بالخروج ولابد من اليقين عند الحروب ، لذلك أراد أن يتعرف ما فى قلوب أولئك الذين أووا ينصرونه فى هذا الموطن ، وقد خرجوا للعير ، لا للنفير ·

استشار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أصحابه ليظفر بمشـورة رجل حسن المشورة ، وليتعرف حال جنده مهاجرين وأنصارا بصفة خاصة ·

استشار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فقال أبو بكر وأحسـن القول ، وقـال عمر بن الخطـاب فأحسـن القول ، ، وما كان يريد قول عمـر وأبى بكر ، فهو مستيقن بايمانهما واقدامهما ، ولكنه يريد من وراءهم ·

فقام المقداد بن عمرو واقفا وقال :

يا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) امض لما أراك الله ، فنحـن ، والله

لا نقول لك ، كما قالت بنو اسرائيل لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغماد لجالدنا معك ، من دونه ، حتى نبلغه » ٠

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ، ودعا له ٠

وهنا استيقن مـن المهـاجرين ، وبقى أن يطمئن الى الأنصار الـذين قد يتوهمون أن العهد الأول لا يلزمهم بالخروج ، فقال : أشيروا على أيها الناس (يريد الأنصار) ٠

قال سعد بن معاذ : « والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال عليه الصلاة والسلام : أجل » ٠

قال سعد : « لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق ، لـو استعرضت بنا هذا البحر ، فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا ، انا لصبر فى الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعـل الله يريك منا ما تقـر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » ٠

عندئذ آمن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن الله سبحانه وتعالى قد صدق وعده ، وأن معه جيشا يؤمن بالله وبالحق ، وأنه لا يتردد ، ولذلك سر عليه الصلاة والسـلام بقول سـعد ، ونشطه قـوله ، فقال عليه الصـلاة والسلام : « سيروا وأبشروا ، فان الله قد وعدنى احدى الطائفتين ، والله لكأنى انظر الى مصارع القوم » ٠

هذا هو جيش النبى صـلى الله عليه وسـلم عقد العـزم وتؤيده قوة الله سبحانه وتعـالى ٠

الجيشــان

٣٧٨ ــ رأيت الجيش النبــوى قــد ربط نفســــه وقلبــه بالحــق ، ولكن عدده قليل ، وعدته ناقصة ، فلم يكن فيه الا فرسان وأربعون بعــيرا لأكثر من ثلاثمائة مجاهد ، فكانوا يعتقبون البعير ، يتبادله أكثر من أربعة ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يعتقب معهم ، حتى اذا كان سيره أرادوا اعفــاء النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال عليه الصلاة والسلام : لست أقل منكم قوة ، ولا أقل منكم طلبا للأجر ٠

وجيش الشر كان خمسين وتسعمائة كما ذكرنا ، وكان معهم ســبعون فرسا ، وكان معهم العدد الكثير الذى يركبونه والذى يذبحونه فى مأكلتهم ، ولكنه تنقصه العزيمة والايمان ، بل الرغبة القاطعة فى القتال فالتردد فيه قد كان من كثيرين منهم ، ومنهم من تورط فى القتال ، ولم يكن له فيه ارادة ٠

(أ) انهم خرجوا من أجل حماية عيرهم ، ودفعتهم الرغبة فى حمــاية حماها ، الى أن يتقدموا على الصعب والزلول لحمايتها ، وانهم ان لم يفعلوا فقدوا المال ومعه النعمة ٠ ونالتهم المهانة فى العرب ، وقد أرسل اليهم أبو سفيان يذكر لهم أنــه نجــا بالعير ، وقال : « انمــا خرجتم لتمنعــوا عيركم ورجالكم واموالكم ، فقد نجاها الله فارجعوا » ٠

واذا زال السبب ، فليس لهم ما يبعث حميتهم لقتــال ، ولــكن الحقــد الدفين ، والحسد لبنى هاشم حرك أبا جهل ، فدفعهم الى المضى فى القتــال حقدا وحسدا ، واندفع معه من هو على شاكلته ٠

(ب) وجاء بنو زهرة فتخلفوا جميعا لهذا السبب ، وقال قائلهم ، لا حاجة لكم بأن تخرجوا فى غير ضيعة ، ورموا أبا جهل بالحمق والجهل ٠

(ج) ان بعض القرشيين الأقوياء الذين لهم مكانة فى قومهم ترددوا فى الخروج كأمية بن خلف ، فانه امتنع عن الخروج ، جاء فى سيرة ابن اسحاق أن أمية بن خلف ، كان قد أجمع القعود ، وكان شيخا جليلا جسيما فأتاه عقبة ابن أبى معيط وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى قومه بمجمرة يحملهــا نــارا ومجمر (أى بخــور) حتى وضعها بين يديه ٠ ثم قال : يا أبا على استجمر فانما أنت من النساء ٠

قال أمية : قبحك الله ، وقبــح ما جئت به ـ وتجهز ذلك الرجل ذو المكانة من غير حماسة ، ولكن خشية الملامة وأبو لهب الذى كان يخـذل الوفود العربية فى الحج عن متابعة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، امتنع عن أن يذهب الى القتال بنفسه وأناب عنه العاصى بن هشام بن المغيرة فى نظير تركه دينا له كان قد أفلس به ، فجعله فى نظير خروجه ٠

ولم يذهب طالب بن أبى طالب ، لأنه كمـا قال بعض القرشيين : كان هوى بنى هاشم مع محمد الهاشمى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وكان خروج العباس ، وهو الهاشمى الأول غريبا ، لأنه كان يذهب مـع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عند لقائه مع الأوس والخزرج فى العقبـة الثانية ، ويطمئن على حمايتهم للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويبين لهم أنه فى منعة من قومه ، وأنهم ان لم يمنعــوه ، فليتركوه فى حماية قومه ، فما كان ليخرج ويقاتل جيش ابن أخيه ٠ وهو يريد هزيمته ، بل خرج ليدرأ عن نفســه ملامة قريش الذى يعد من كبرائها ، وليكون له دائما السلطان فيهم ، ولا يكون فردا ما بينهم ٠

وانا نحسب أن أبا سفيان نفسه لم يكن مؤمنا بضرورة هذه الحــرب بدليل رسالته التى أرسلها الى قريش ٠

(د) وان قريشا فى جملتها خافت من الحرب ذلك أنهم بعد أن فرغــوا من جهازهم وأجمعوا المسير ، ذكروا ما كان بينهم وبين بنى بكر بن عبد منــاة ابن كنانة من الحرب ، فخشوا أن يأتوهم من ورائهم ، وقال قائلهم انا نخشى أن يأتونا من خلفنا ، ونراهم قد فزعوا من الحرب ، وظنوا أن ما وراءهم مــن عورات أكثر مما يستقبلهم من حروب ، فما كانوا مؤمنين بالحرب ، ولا معتزمين لهــا الا ما كان ممن أعماهم الحقد والجهل والحسد ـ وهم أيضا كانوا يرهبون المؤمنين ، ويخافونهم ، وكان من بعضهم عندما التقى الجمعان أو أوشــكا على اللقاء فى وقت يثبط عن القتال ، وقد صارقاب قوسين أو أدنى ولعله كان يثبط لحقن الدماء ، وقد بدا من كلامه ما يدل على أنه يريد الرحم لا الحــرب مـع الاختلاف فى العقيدة ٠

روى ابن اسحاق بسنده ، أنه لما اطمأن القوم (أى المشركون) بعثــوا عمير بن وهب الجمحى فقالوا احرزوا لنا أصحاب محمد ٠ فاستجال بفرسه حول العسكر ، ثم رجع اليهم ، فقال : ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا ، أو ينقصون ، ولكن أمهلونى حتى أنظر للقوم كمين أو مــدد فضرب فى الوادى حتى أبعد ،

فلم ير شيئا ، فقال ما وجدت شيئا ولكنه بين رهبة الموقف وان العبرة ليست بالعدد ، ولكن بقوة النفس وارادة الموت ، فقال مخاطبا الجيش ، وهو على أهبة القتـال :

« يا معشر قريش ، البلايا تحمل المنايا ، نواضح (١) يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ الا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتـل رجل منهم ، حتى يقتـل رجل منكم ، فان أصـابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ، فروا رأيكم » ٠

سمع حكيم بن حزام ذلك القول ، ومشى فى الناس ، فذهب الى عتبـة ابن ربيعة فقال له يا أبا الوليد انك كبير قريش وسيدها والمطاع فيهـا ، هـل الى أمـر لا تزال تذكـر فيها بخير الى آخـر الدهر ، قال : وماذاك يا حكيم ، قال : ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمى (أى الذى قتـل فى سرية عبد الله بن جحش) قال : قد فعلت أنت على بذلك ٠ انما هو حليفى ، فعـلى عقله ٠

بعد ذلك مباشرة قام عتبة بن ربيعـة خطيبا ، وقال :

يا معشر قريش ، انكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئا ، والله لئن أصبتموه لايزال الرجل ينظـر فى وجه أخيه يكره النظر اليه ، قتل ابن عمه ٠ أو ابن خاله ٠ أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فان أصابوه فذلك الذى أردتم ، وان كان غير ذلك ألفاكم ، ولم تتعرضوا منه ما يريدون ٠

تسامع الجيش بذلك ، ولكن كان أبو جهل حامل الحطب يريدها ويدفعـه الحسد ، فحرض عامر بن الحضرمى أخا عمرو الذى قتـله أصحاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على المناداة بثأره فصرخ واعمراه ٠ فحميت النفـوس واشتد الناس واجتمعـوا على ماهم عليه من الشر ٠

وننتهى من هذا الى أن ارادة الحرب كانت ضعيفة مترددة عند قريش وفى جيشها ، اذ زال باعثها وداعيها وتردد ذوو الرأى فيهم ، ومنهم من تنـادى بالرحم ، ومنهم من أفزعه حال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وارادتهم الموت فى سبيل الله سبحانه وتعالى ٠

وفوق ذلك كان الجيش القرشى يخشى ما وراءه ٠

---

(١) النواضح : الابل التى يستقى بها الماء ، أو تحمله ٠

فكانت ارادة القتال غير ثابتة ، وقوة الجيش تبتدىء بالعزمة والارادة ، وما كان من بعضهم الا انفعالة الحقد ، وهى ان أجدت فى الابتداء والتحريض لا تستمر عند اللقاء ، وعندما تعض الحرب بنابها ، هذه حال جيش البـاطل يبدو التخاذل فى صفوفه ، ووراء التخاذل والتردد الهزيمة لا محالة ٠

وانا نقول ان رحمة الله سبحانه وتعالى بأهل الايمان أن جعل جيش الباطل يحمل فى نفسه ذرائع انهزامه ، وعوامل خذلانه ٠

٣٧٩ — ولننتقل الى الجانب الفاضل ، وهو جيش محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فقد أجمع القتال،ولم يكن الباعث عليه مالا يبتغونه،ولاعرضا من أعراض الدنيا يريدونه ، ولكنه عدو الله قد جاء اليهم ، فلا بد لهم من أن يخوضوا استجابة لله سبحانه وتعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وان لهم احدى الحسنيين ، اما الغنم واما الشهادة وكلاهما غنيمة فى ذات نفسه ٠

عنـدما رأى المشركـون المؤمنين بعين المتحسس منهم هـالهم حـالهم ، فاسترهبوهم ، وهم القلة الذين بلغوا نحو ثلاثمائة وازدادوا تسعة ، وقـال ابن كثير : انهم كانوا ثلاثة عشر وثلاثمائة عدا ٠

وعلى ذلك أرى الله سبحانه وتعالى المؤمنين المشركين قلة يستهان بها ، ولاتهولهم حالها ، وقد رأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك بالرؤيـا الصادقة ، ورأوهم كذلك رأى العين ، وقد قال الله سبحانه وتعـالى فى ذلك : **« اذ يريكهم الله فى منامك قليـلا ، ولو اراكهم كثيرا لفشـلتم ، ولتنازعتم فى الأمر ، ولكن الله سلم انه عليم بذات الصـدور ، واذ يريكموهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلا ، ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، والى الله ترجع الأمور »** ٠

ونرى من هذا أن المشركين كانوا يهلعون من اللقاء ، ويترددون سـاعته الا من ركبت الحمـاقة رءوسـهم ، بينما المؤمنون فى بشرى من الله سـبحانه وتعالى ، يستصغرون شأنهم ، ويتقدمون غير راهبين ، ولا يستغيثون الا بالله ، والله سبحانه وتعالى يلقى فى نفوسهم الطمأنينة ، والروحانية تظلهم والله سبحانه وتعالى يعينهم ، ويمدهم فى ذات أنفسهم بالملائكة فى قلوبهم بالأمـن والدعة ، وهم ينامون مطمئنين واثقين بالنصر راجين ماعند الله سبحانه وتعالى،

ولا يستعينون الا بذاته الكريمة ، ولقد قال الله سبحانه وتعالى فى حالهم ، وهم مقبلون على المعركة :

« اذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم انى ممدكم بالف من الملائكة مردفين ، وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم ، اذ يغشيكم النعاس امنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ، ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ، ويثبت به الاقدام ، اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سالقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان ، ذلك بانهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب » •

ثم يقول سبحانه : **« ذلكم وانى موهن كيد الكافرين »** •

جيشان قد تلاقيا أحدهما كثير العدد ، والعدة ، ولكنه فاقد الايمان ، حتى بالحرب التى اقدم عليها ، فقد أوهن الله سبحانه وتعالى كيده وتدبيره ، أوهنه بازالة الباعث على القتال ، وأوهنه بالتردد فى بعض كبرائهم ، وأوهنه بانفصال بعض بطونهم ، وأوهنهم باثارة الأرحام التى قطعوها ، وألقى الله سبحانه وتعالى فى قلوبهم الرعب عندما التقى الجمعان •

هذه حالهم اما حال المؤمنين فارادة مؤمنة مجمعة ، وبشرى من الله سبحانه وتعالى بالملائكة وايحاء الى الملائكة بتثبيت المسلمين والقاء الطمانينة فى قلوبهم ، حتى غشاهم النعاس أمنة ، وأرسل لهم المطر خفيفا لتثبت الأرض تحت أقدامهم ، واستبدلوا بطلب العير طلب العزة ، فقد أرادو المال ابتداء • ثم أرادوا اعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى ، كانوا يودون المال ، وبعزة الله سبحانه وتعالى أرادوا القوة والعلياء ، كما قال الله سبحانه وتعالى : **« واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم »** ، جيشان درع أحدهما بالعدد والعدة مع الوهن ، والثانى ادرع بالعزيمة والايمان والصبر ، والرغبة فى الشهادة ، وانها احدى الحسنيين ، فاما نالوها ، واما نالوا النصر ، وفى كلاهما الغنم الكثير •

فهل هما متكافئان ؟ أقول ان أهل الخبرة فى الحروب يقولون انهما غير متكافئين ، ذلك أن قواد الحروب فى القرنين الحاضر والسابق قدروا أثر القوة الحربية المادية بالنسبة للقوة المعنوية بواحد الى ثلاثة أى أن نتائج النصر أو الهزيمة يكون للقوة المادية فيها الربع • وللقوة المعنوية الروحية ثلاثة الأرباع ، واذا كان عدد المشركين الفا فهو ألف ، أما عدد المؤمنين فى ميزان

القوة فهو مائتان وألف على الأقل فوق تأييد الله سبحانه وتعالى بالملائكة « **اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا** » ، « **وما رميت اذ رميت ، ولكن الله رمى** » ٠

وان تقدير النسبة بين قوة المادية الى قوة الروح بواحد الى ثلاثة هو تقدير أهل الخبرة ، وهم يخطئون ويصيبون ، أما تقدير الله تعالى فهو أعلى من ذلك اذ قدر الواحد من أهل الايمان فى حال القوة التى لا ضعف معها ، بعشرة من أهل الكفر ، فقال الله سبحانه وتعالى : « **يأيها النبى حسبك الله ، ومن اتبعك من المؤمنين ، يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا ، بانهم قوم لا يفقهون ، الآن خفف الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضعفا ، فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم ألف يغلبوا الفين باذن الله ، والله مع الصابرين** » ٠

ونرى من هذا النص أن القوة المعنوية عشرة أمثال القوة المادية اذا لم يكن فى أوساط المؤمنين ضعاف الايمان ، الذين يخالطون المؤمنين الصادقين خصوصا عندما كان فى المسلمين منافقون ، لا يريدون بأهل الايمان الا خبالا كما قال الله سبحانه وتعالى فيهم : « **لو خرجوا فيكم مازادوكم الا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم ، يبغونكم الفتنة ، وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين ، لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون** » ٠

هذا هو الضعف فى الصفوف ، وقد ظهر فى غزوة أحد ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يسوى الصفوف للقتال ، كما قال الله سبحانه وتعالى « **واذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم ، اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون** » ٠

هذه هى النسبة فى حال قوة الايمان ٠ والا يخالط المؤمنين نفاق قط ٠ وهى قوة الواحد بعشرة ٠

فاذا خالط المؤمنين منافقون مع مرضى القلوب كان هناك ضعف ٠ فيكون الواحد من المؤمنين يقابل اثنين من المنافقين ، فالنسبة الكبرى فى حال قوة الايمان الخالص ، والنسبة الثانية اذا كان مرضى القلوب فى صفوف المؤمنين ، فلا ناسخ ولا منسوخ ٠ كما يقال ان الثانية نسخت الأولى ٠

التقاء الجمعين يوم الفرقان

٣٨٠ — ذهب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى بدر ليدرك العير ، فلم يدركها ، وأدركه النفير فلم يكن من القتال بد ، وقد أقبلت قريش بخيلائها وفخرها ، فتعرف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم العدو ، فقدره بين تسعمائة وألف ، مما كانوا يعقرون من ابل ، فقد قيل له وقد سأل عن عددهم فقال المسئول انهم كثير لا يحصون فسألهم عما ينحرون من ابل ، فقال يوم تسع ، ويوم عشر ، فقال هم بين تسع مائة وألف ، فكانوا خمسين وتسعمائة وسأل عن أشراف رجالاتهم ، فذكروا عتبة بن ربيعة وأخاه شيبة ، وغيرهم من أشرافها ، فقال عليه الصلاة والسلام لمن معه من جند المسلمين ليحثهم على القتال ويحرضهم : « هذه قريش قد ألقت اليكم أفلاذ أكبادها » ٠

وقد نزلوا من بدر بالعدوة القصوى ، وهى كثيب من الرمل مرتفع ، بعيد عن بدر ، ونزل أهل الايمان بالعدوة الدنيا من بدر ، وهذا ما ذكره الله سبحانه وتعالى بقوله : « **وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير ، اذ أنتم بالعدوة الدنيا ، وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ، ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حيى عن بينة** » ٠

كان اختيار المكان بتوفيق الله سبحانه وتعالى ، لا بارادة أحد ، ولو كان بارادتهم وأمرهم لاختلفوا فى المكان والزمان ، ولكن الله سبحانه وتعالى دبر الميقات ، فجعله فى هذا الزمان ، ودبر المكان فكان هذا المكان ، وكان منزل المؤمنين دهسا رمالا يعوق السير ، فأنزل الله سبحانه وتعالى مطرا خفيفا لبد الأرض ، وجعلها معبدة يسهل السير فيها ، وأنزل أمامهم على قريش مطرا كثيرا عوق سيرهم ٠

روى النسائى عن مجاهد : أنزل الله سبحانه وتعالى عليهم المطر ، فأطفأ الغبار ، وتلبدت به الأرض ، وطابت به أنفسهم ، جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، بجيش الايمان ، فنزل على أقرب ماء من بدر ، وعرض الأمر على الصحابة فجاء اليه الحباب بن منذر بن الجموح وقال :

يا رسول الله أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله تعالى ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخره أم هو الرأى والحرب والمكيدة ٠

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : بل هو الرأى والحرب والمكيدة ٠

قال : يارسول الله هذا ليس بمنزل ، فامض بالناس ، حتى تاتى أدنى ماء من القوم ، فتنزله ثم تغور (١) ما وراءه من القلب ، ثم تبنى عليه حوضا ، فتملؤه ماء ، ثم تقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ٠

اختار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ذلك المنزل ، وأخذ برأى الحباب ابن منذر كاملا ، وبنى الحوض على البئر التى اختارها ، وامتلأت ماء لأنه آل اليها كل ماء الآبار التى غورت رأى المشركون ذلك فأحسوا بأنها المكيدة التى تحرمهم من الماء ٠

وقد تواجهت الفئتان وتقابل الفريقان ، وحضر الخصمان ، واستغاث برب العالمين سيد الأنبياء ٠ وقد ابتدأت المناوشات بأن رجلا شرسا من بنى مخزوم أحس بمكيدة الماء ، وظن أنه يستطيع أن يهدم على المؤمنين الحوض الذى بنوه ، فقال : لأشربن من حوضهم ، أو لأهدمنه ، أو لأموتن دونه ، فخرج اليه وانقض حمزة بن عبد المطلب أسد الله فانقض عليه ، فلما التقيا قطع حمزة بسيفه رجله الى نصف ساقه ، ولكنه لحرصه على أن ينفذ ما أقسم عليه حبا الى الحوض ، فضربه حمزة حتى قتله ٠

كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الجيش كسائر جنده ، ولكنه رأى أن يكون فى مكان مرتفع ليشرف على حركة جنده ، فاتخذ له عريشاً على مرتفع من الأرض ، ويروى أن معاذ بن جبل هو الذى أشار به على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ يروى ابن اسحاق بسنده أن سعد بن معاذ قال : يا نبى الله ، ألا نبنى لك عريشا تكون فيه ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فان أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا ذلك ما أحببنا ، وان كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا رسول الله ، ما نحن بأشد حباً لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ، ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك ، فأثنى عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ودعا له بخير ٠

بنى له عليه الصلاة والسلام العريش ، وكان فيه فائدة ، وهو الرقابة على حركة الجند وعمله ، وليكون مع الجند كله ببصره ، لا مع فريق منه ، فهو يراقبهم ، ويعرف أعمالهم ٠

---

(١) رويت فى هذه الكلمة بحرف الغين ، المعجمة ، ومعناها تغوير ما حولها ليذهب ماؤها ، ورويت بالعين ومعنى تعويرها افسادها بما يشبه ردمها فينحصر الماء فى القليب المختار ٠

ولا شك أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان بوجدانه وشعور العطف والرحمة بجيشه يغلب عليه الاشفاق ، فعندما رأى جيش قريش ضرع الى ربه داعيا قائلا :

« اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم أحنهم (١) الغداة » ٠

وكان أبو بكر مع رسول الله فى العريش ، ومعاذ بن جبل فى نفر من الأنصار يطوفون حوله ، والرسول صلى الله عليه وسلم دائم الدعاء والضراعة الى ربه يقول فوق ما روينا ما رواه على بن أبى طالب رضى الله عنه ، « كان رسول الله يكثر الابتهال والتضرع والدعاء ، ويقول فيما يدعو « اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها فى الأرض ، وجعل يهتف بربه عز وجل ويقول :

« اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم نصرك ، ويرفع يديه الى السماء حتى سقط الرداء عن منكبيه ، وجعل أبو بكر يلتزمه من ورائه ، ويسوى عليه رداءه ، ويقول مشفقا عليه من كثرة الابتهال ، يا رسول الله : بعض مناشدتك ربك ، فانه سينجز لك ما وعدك ، وهكذا كان القائد الرشيد الحكيم لمحبته لجيشه ، ولكل رجل من رجاله ، ولحرصه على الأمر الباعث على الجهاد ، وهو حماية الوحدانية ، والقضاء على الوثنية ، كان يشتد فى الابتهال الى الله سبحانه وتعالى ٠ وبجوار ذلك كان يجتهد فى بث العزيمة على القتال فى جيشه الحبيب اليه ، فهو يلجأ الى جنده ليأخذ الأهبة ، ويعمل على النصر ، ثم يضرع الى ربه متوكلا عليه مستغيثا ، لتجتمع له ولجيشه قوة العمل ، وقوة الاعتماد على الله سبحانه وتعالى الذى لا يغير أمر الا بأمره ٠

ولقد أخذ صلى الله تعالى عليه وسلم يحرض على القتال استجابة لقول الله سبحانه وتعالى : « **يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال** » فقال عليه الصلاة والسلام :

والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا غير مدبر الا دخل الجنة ، هذا بعض تحريض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتحريض الله تعالى كان أقوى من ناحية التحذير فقد قال الله سبحانه وتعالى : « **يأيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا ، فلا تولوهم**

---

(١) أحنهم : من الحين والهلاك ٠

الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره الا متحـرفا لقتال او متحيزا الى فئة ، فقـد باء بغضب من الله وماواه جنهم وبئس المصير » ٠

واذا كان تحريض النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تبشيرا ، فتحريض الله سبحانه وتعالى كان تحذيرا ، فالأول يبين عاقبة الخير ان أقدموا ، وكلام الله سبحانه وتعالى يبين العاقبة السوء اذا فروا أو احجموا ٠

القيادة والتنظيم

٣٨١ ـــ كانت القيادة حكيمة ، وكانت رحيمة ، وكانت حـازمة ، وكانت قوية ، فكان عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة ٠ لقائد الحرب العادلة ، كما هو أســوة حســنة للمؤمنين فى عمله وخلقه وسننه وقد قــال الله سبحانه وتعالى « **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** » ٠

(أ) وأول مظاهر قيادته الحكيمة المرشدة ، أنه كان وسط الجنـد فى القتال ، فلم يكن بعيدا عنهم ، بل كان يشرف عليهم ويوجههم ، ويشـترك فى شدائد الحرب ، كما يشترك فى ثمراتها ، سواء أكانت حلوة أم كانت مرة ٠

روى عن على رضى الله تبـارك وتعـالى عنه انه قـال : « كنا اذا اشتد الخطب ، وحمى الوطيس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب الى العدو منه ، ولقد رايتنى يوم بدر ، ونحـن نلوذ برسول الله صلى الله تعـالى عليه وسـلم ، وهو أقـرب الى العـدو » ، فالنبى القائد كان فى المعركة ولم يكن بمنأى عنها ، بنى له أصحابه عريشا ، ويظهر انه لم يسـتقر فيه الا بالقـدر الذى أشرف به على الجيش ، وحـرك الجند ، ليتبعوا نظامه ٠

ولقد رأينا من بعد قوادا مسلمين اتبعوا هديه ، كصلاح الدين الأيوبى الـذى كان يعيش فى جيشــه وقطـز الـذى كان جنـديا مع الجنود ٠ فكان النصر ٠

وخالف طريقه ناس سموا أنفسهم قوادا كانوا يديرون دفـة الحرب ، وهم فى قصور مشيدة ، فكانت الهزيمة ، وذهب جند الله باهمالهم ٠

وثانى مظاهر قيادة النبى صـلى الله تعالى عليـه وسـلم ، المسـاواة بينه ، وبين جنده ، فقد كان يشعر كل جندى أن النبى صلى الله تعالى عليـه

وسلم بجواره ، ويتساوى معه فى الحقوق والواجبات الجندية وليس أدل على ذلك من أنه كان يتعاقب مع على بن أبى طالب ومرثد فى جمل واحد ، فلما جاءت نوبته فى السير أرادا أن يعفياه ، فرفض ، وقال : لستم أقوى منى ، ولا أنا أغنى عن الأجر منكم ، وازن بين هذا ، وبين جيوش المسلمين ، وخصوصا المصريين فى العصر الأخير ، والأمور المفرقة التى تجعل فريقا يكتوى بنيران الحرب ، والآخر ينعم بالخيرات ، وينال الفخر ان كان انتصار ، ولا شرف يناله الذين اكتووا بنارها ، ولذلك كانت الهزيمة تتلوها أختها ٠

وثالث مظاهر القيادة النبوية ، اشعار الجند بأنهم يعملون مختارين ، ولا يعملون مسخرين ، وأنهم يطلبون الثواب بحربهم ، وأنهم ان انتصروا بهدى الله تعالى نالوا نصرا لأنفسهم ، وللحق الذى يدافعون عنه ٠ وان قتلوا نالوا شرف الشهادة وجنة الرضوان ، وما بينهم وبين دخول الجنة الا أن يقاتلوا ويقتلوا ، فهم ينالون احدى الحسنيين ، فهم يقاتلون مختارين لله وللحق ، ولأنفسهم ، فهم فى صفقة رابحة اختاروها ولم يسخروا لها ، كما قال الله سبحانه وتعالى : « **ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم** » ٠

فالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أودع قلب كل مؤمن من الجند بأنه يقاتل مختارا لنفسه ، لا لدنيا يصيبها ، ولكن لله وللحق فى ذات الحق ، فلم يكن أى واحد من جند الله بهداية الايمان ، وقيادة النبى عليه الصلاة والسلام مسخرا أو مجندا ، ولكن كان جنديا مختارا ٠

ورابع الأمور التى لوحظت فى قيادة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنها كانت لينة مع حزمه وقوة تنظيمه ، فقد كان رفيقا سهلا لينا فى قيادته ، لا سيطرة ، ولكن قيادة رفيقة هادئة هادية مرشدة من غير اعنات ولا غلظة ، فكانت القلوب مستجيبة ، والأجسام لها تبع ، فالتفوا حول القائد الحكيم ، يفدونه ، ويفدون معه الحق طوعا واختيارا ، لا كرها واضطرارا ، ولقد كان ذلك من رحمة النبوة ، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى فى قيادة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « **فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله** » ٠

والأمر الخامس الذى لوحظ فى قيادة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حرصه على جنده ، واشفاقه عليهم ، واعظامه لأمر آحادهم وجماعتهم ، كما ثبت فى ضراعته لربه ، وخوفه عليهم ، فلم يكن الجند معه الا الأحباب والأولياء ، ودعاة الحق وهداته ، وأنهم عصابة الله ان هلكوا لا يعبد الله فى الأرض فتتربى فيهم عزة ، ويحسون بأنهم موضع المحبة ٠

واذا أحسوا بذلك باعوا أنفسهم لله ، فلم ينظر اليهم القائد الحكيم ، كما ينظر بعض قواد المسلمين اليوم ، على أنهم أدوات الحرب ، كآلاتها ٠

وسادس الأمور التى لوحظت فى قيادة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اشراكهم معه فى تحمل التبعة بالشورى يقيمها فيهم ، كأمر الله سبحانه وتعالى بقوله فيما تلونا « **وشاورهم فى الأمر** » وان الشورى مع الجند ، تجعل الجندى يحس بتحمل التبعة ، وأنه ذو رأى فى توجيهاته ، وذلك يوجد فيه عزة الجندى المتحمل للتبعة وليس كالآلة المتحركة ، وفوق ذلك يشارك فى تدبير القتال ، فيزداد قوة نفس ، ومن قوة النفس تكون الارادة الحازمة الراغبة غير المترددة ٠

بهذه القيادة الحكيمة اللينة الحازمة ، الرقيقة الرحيمة ، تربى جند الله تعالى ٠ فكان النصر والغلب ٠

التنظيم :

٣٨٢ — أول ما اتجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تنظيم جيشه جعله صفوفا متتالية أمام العدو ، وذلك كقول الله سبحانه تعالى : « **ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص** » ، فهذا توجيه من الله تعالى فى القيادة الى أن يصف الجنود صفوفا ، وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذى يبين القرآن الكريم بعمله ، وقوله ، ان احتاج القرآن الكريم الى بيان ٠

وأول معركة فى الحرب النبوية كانت بدرا الكبرى ، فطبق نظام الصف الذى يحبه الله سبحانه وتعالى ٠

روى ابن اسحق بسنده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عدل صفوف أصحابه ، وفى يده قدح يعدل به القوم ، فمر بسواد بن غزية ، وهو

مستنتل (١) من الصف ، فطعن عليه الصلاة والسلام فى بطنه بالقدح ، استو ياسواد فقال : يارسول الله اوجعتنى ، وقد بعثك الله تعالى بالحق والعدل ٠ فأقدنى (٢) فكشف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن بطنه ٠ وقال استقد قال فاعتنقه فقبل بطنه !! فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما حملك على هذا ياسواد ؟ قال يارسول الله ٠ حضر ما ترى ٠ فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم له بخير » ٠

واصدر امره الى جيشه جيش الايمان ألا يحمل على العدو الا عندما يصدر اليهم الأمر بذلك ٠

وامرهم أن ينضحوهم ، فلا يقاتلون مهاجمين حتى يصدر امره عليه الصلاة والسلام ، لكى يهجموا هجمة رجل واحد غير متفرقين ، ولا مانع من ان يكون النبل ، فرادى ، ومع ذلك كانت أوامره ألا يسرفوا فى النبل ، بل يتخيرون من يرمونه ، ليكون ذلك أنكى للعدو ، وأبقى للعدة ٠

روى ابن اسحاق بسنده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمر أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم ، وقال ان اكتنفكم القوم ، فانضحوهم عنكم بالنبل ٠

وفى صحيح البخارى عن أبى أسيد قال لنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم بدر اذا أكثبوكم فارموهم واستبقوا نبلكم ، وأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن تقطع الأجراس من أعناق الابل لئلا يشغل الناس بها ٠

وقد جعل شعار الصحابة فى هذه الحرب العادلة « أحد أحد ٠٠ وشعار المهاجرين يابنى عبد الرحمن ، وشعار الخزرج يابنى عبد الله ، وشعار الأوس يابنى عبد الله » ٠

وكانت عدة المؤمنين كما ذكرنا ٣١٣ ثلاثة عشر وثلاثمائة ، وكانت عدة المهاجرين نيفا وستين على رواية البخارى ، وعند الامام أحمد ستة وسبعين ٠

---

(١) مستنتل : معناها متقدم فى الصف ، وفى رواية مستنصل ومعناها : خارج من الصف ٠

(٢) أى مكنى من القصاص ٠

وقد أعطى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اللواء لمصعب بن عمير ، وكان أبيض ، وأعطى راية المهاجرين وكانت سوداء لعلى بن أبى طالب ، وراية الأنصار وكانت سوداء أيضا لسعد بن معاذ ، وروى أن راية الأنصار كانت مع الحباب بن المنذر ٠

وجعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قيس بن أبى صعصعة معه ٠

هذا تنظيم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، جعل على المهاجرين رجلا منهم ، وهو من صناديد الاسلام ، وجعل على الأنصار رجلا منهم ، لا للتفريق بين المهاجر والأنصارى ، ولكن ليأنس كل فريق بصاحبه ، وليكون الجهاد الذى يراه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم والناس ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ٠

المعركة

٣٨٣ ـــ بعد ذلك التنظيم الذى لم يكن للعرب عهد به كان لابد من اللقاء ، بين جيشين أحدهما قوى الايمان وقد عقد العزم ، والثانى غير مؤمن بالله ، ولا عزيمة عنده كما بينا فى حال الفريقين ، وينطبق عليهما قول الله سبحانه وتعالى : « **هذان خصمان اختصموا فى ربهم ، فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم ٠ يصهر به ما فى بطونهم والجلود ٠ ولهم مقامع من حديد** » الى آخر الآيات الكريمات ٠

وانها اذا كانت الآية فيما يلقاه الكافرون يوم القيامة ففى لفظها ما يومىء الى حالهم فى المعركة ٠٠ ابتدأ القتال بالمبارزة ، طلبها بعض كبار المشركين ، فأجيبوا اليها ، وجندلوا بسيفى أسد الله ورسوله حمزة بن عبد المطلب ، وفارس الاسلام على بن أبى طالب ٠

خرج عتبة بن ربيعة ، ومعه أخوه شيبة بن ربيعة ، وابنه الوليد يطلبون المبارزة فخرج اليهم ثلاثة من الأنصار ، فقالوا مالنا بكم من حاجة ، ولكن نريد أكفائنا من قومنا ، ثم نادى مناديهم : يامحمد أخرج الينا أكفائنا من قومنا ، فاختار لهم الأكفاء من ذوى قرابته الاقربين عمه وابنى عمه ، وقد آثرهم بالجهاد والعمل ، ولم يرض لهم القعود ٠

أخرج عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وحمزة ، وعليا ، فلما رأوهم سألوهم عن أنفسهم ، ويظهر أنهم قد تقنعوا بالسلاح ، فلم يعرفوهم

فعرفوهم بأنفسهم ، فقالوا أكفاء كرام ، فبارز عبيدة عتبة ، وبارز حمزة شيبة ، وبارز على الوليد ، فقتل كل من حمزة وعلى صاحبه ، أما عبيدة وعتبة ، فاختلفا ضربتين كلاهما أصاب صاحبه ٠ فكر حمزة وعلى بأسيافهما على عتبة فأجهزا عليه ٠

بعد ذلك أخذ النبل يرمى من الجانبين ، وأصيب به بعض المسلمين ، وأرمى الجيش المحمدى نبلهم بمهارة متخيرا كبارهم ، متصيدا زعماءهم ، والرمى يمكن التصيد فيه ، أما الملاقاة بالسيف ، فلا تحيز فيها ، ولكن اللقاء هو الذى يحدها ٠

عندما رأى المشركون ذلك هجموا ، فكان لابد من ملاقاتهم ٠

وعندئذ تقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأمر جيشه بأن يحمل على المشركين حملة رجل واحد ، وأخذ حفنة من تراب ، فاستقبل بها قريشا ، وقال : شاهت الوجوه ، وتفحم بها فلم يكن منهم الا أصيب منها ، ثم قال لأصحابه : شدوا ٠

فالتحم الجيشان والنبى عليه الصلاة والسلام ينظر من فوق العريش ، وهو يحس بأن الله تعالى أنجز وعده ، وهزم قريشا وحده « **ومارميت اذ رميت ، ولكن الله رمى** » ٠

وسعد بن معاذ قائم على باب العريش ، متوشح السيف فى نفر من الأنصار يحرسون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، يخافون كرة العدو ٠

وقد أخذ الجيش المحمدى فى تقتيل صناديد قريش وزعماء الشرك الذين كانوا يفتنون الناس ٠ عن دينهم ، ويأسرون فريقا ٠ وقد اشتدت النازلة بالمشركين ، وعلموا أن كلمة الله تعالى العليا ٠

٣٨٤ ــ هذا ويجب أن نلاحظ أمرين جديرين بالنظر ٠

أولهما ــ أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينس رحمه وواجب الوفاء وأن يكون جزاء الاحسان لبنى هاشم الذين ذاقوا مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ماذاقوا ، وقريش تقاطعهم فى شعبهم ، وهم على مثل قومهم من الشرك ، فما كان من الوفاء بالعهد ، وجزاء المعروف بمعروف مثله أن يقتلهم فى الميدان وقد خرجوا لحربه كارهين وكان من بعض رجالات قريش من لم يؤذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ بل من سعى سعيه فى منع

حصار بنى هاشم وبنى المطلب ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم الوفى الأمين ، لن ينسى احسان محسن ، والله سبحانه وتعالى يقول : « **هل جزاء الاحسان الا الاحسان** » ٠

وهذا العباس بن عبد المطلب الذى كان يذهب مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى بيعة الأوس والخزرج ليستوثق من منعة يثرب للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهل يتركه تعتوره السيوف . ! ٠

ولذلك قال لجيشه فى رواية ابن عباس :

« انى عرفت أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها ، لا حاجة لنا بقتالهم ، فمن لقى منكم أحدا من بنى هاشم ، فلا يقتله ، ومن لقى أبا البخترى فلا يقتله ، ومن لقى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا يقتله ٠

فقال بعض من قتل ذووه ، وهو أبو حذيفة ، (ويظهر أن قوله لم يكن فى حضرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم) ، أنقتل آباءنا وأبناءنا واخواننا ، ونترك العباس ، والله لئن لقيته لألجمنه السيف فبلغت هذه القالة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأثرت فى نفسه ، فقال لعمر بن الخطاب آسيا : يا أبا حفص : أيضرب وجه عم رسول الله (عليه الصلاة والسلام) بالسيف ، وفى ذلك اشارة الى موقف العباس فى العطف على رسول الله عليه الصلاة والسلام ، والفرق بينه وبين أبى لهب ٠

ولقد ندم أبو حذيفة (ولعله قالها لقتل أبيه) أشد الندم ، فكان يقول ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفا الا أن تكفرها عنى الشهادة ، فقتل يوم اليمامة شهيدا ٠

هذا وان الذين حضروا الموقعة من بنى هاشم لم تمسهم السيوف استجابة لطلب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لرحمه ، ولحدبهم عليه ، ولمشاركتهم له فى الضراء ، وما كان القتال لأجل الكفر ، بل كان للاعتداء ٠

أما أبو البخترى وله مقام مشهود في نقض الصحيفة ، وقد عرفها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم له فى شديدته كما كانت منه المعونة فى الشديدة ، فقد لقيه المجذر بن زياد البلوى حليف الأنصار ، فقال لأبى البخترى : ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد نهانا عن قتلك ٠

وكان أبو البخترى له زميل قد خرج معه من مكة المكرمة ، فجمعتهما رفقة السفر ولعله كانت بينهما مودة موصولة ، فطلب ألا يقتل صاحبه ، فقال المجذر : « والله ما نحن بتاركى زميلك ، ما أمرنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الا بك وحدك » ٠

فقال أبو البخترى : لا والله : اذن لأموتن أنا وهو جميعا ، ولا تتحدث عنى نساء مكة أنى تركت زميلى حرصا على الحياة ٠

فتنازلا ، ولم يسلم أبو البخترى سيفه الا أن يكون مقتولا ، وقال فى ذلك :

لن يسلم ابن حرة زميله   حتى يموت أو يرى سبيله

هذا وفاء محمد عليه الصلاة والسلام فى ميدان القتال ، والبلاء بلاء ٠

الملاحظة الثانية : أن الشرك وان فرق النفوس ، قد كانت المودة بين بعض الرجال مازالت موصولة ، لقد كان أمية بن خلف صديقا ودودا لعبد الرحمن بن عوف ، فلقيه فى بدر فلم يرد أن يقتله بل أراد أن ينقذه ، لقد رآه وابنه عليا ، وانه ليقودهما بدل أن يقتلهما ــ اذ رآه بلال الذى كان عبدا لأمية ، وكان يعذبه ليترك الاسلام ، فيخرجه الى رمضاء مكة المكرمة اذا حميت فيضجعه على ظهره ، ثم يأتى بالصخرة العظيمة ، فتوضع على صدره ، ثم يقول : لاتزال هكذا أو تفارق دين محمد فيقول بلال : أحد أحد ٠

وجدها بلال الفرصة التى يقتص فيها منه جزاء ما فتنه فى دينه ، فقال رضى الله تعالى عنه : رأس الكفر أمية بن خلف لانجوت ان نجا ، ثم صرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت ان نجا ، فأحاطوا به ، وعبد الرحمن بن عوف يذب عنه ، ولكنه قتل هو وابنه ٠

القتل والأسر :

٣٨٥ ــ كان الجيش الاسلامى يقتل ويأسر ، لأنه فى حال حرب ، ولكن معاذ بن جبل الذى كان يحوط عريش رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان يكره الأسر ، ولا يريد الا القتل ، وأن يثخن فيهم ٠

يقول ابن اسحاق « رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس ، فقال له رسول الله صلى الله تعالى

عليه وسلم : « والله لكأنك ياسعد تكره ما يصنع القوم !! قال أجل والله يارسول الله كانت أول واقعة أوقعها الله تعالى بأهل الشرك ، فكان الاثخان فى القتل بأهل الشرك أحب الى من استبقاء أحد » .

ونرى من هذا أن القرآن الكريم نزل بموافقة سعد اذ قال الله سبحانه وتعالى : « **ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض** » .

نتائج المعركة وأعقابها

٣٨٦ — هذه المعركة اكتفينا فى ذكرها بالاجمال لضيق ، فلم تمكث الا يوما واحدا من صبيحة الليلة السابعة عشرة من رمضان فى السنة الثانية ، وكان شهرا مباركا ، وهو يوم بدر ، وفيه آخر فتح بازالة الأوثان وتطهير بيت الله الحرام .

واذا كنا ذكرنا المعركة بايجاز ، لأنها كانت فى وقت قصير ، فقد كانت نتائجها بعيدة الأثر فى حياة المسلمين ، ذلك أن زعماء الشرك الذين ما كان يرجى فيهم خير ، قد قتلوا ، ومنهم من كان يؤذى النبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين ، ولا يألو فى ذلك ولا يقصر ، ومنهم أشد مشعليها ، ومؤججيها .

وكان عدة من قتل من المشركين سبعين ، وأسر منهم سبعون ، وكان ممن أسر النضر بن الحارث الذى كان شريك أبى جهل فى ايذاء المسلمين والمبالغة فى الأذى ، وعقبة بن أبى معيط الذى كان يقف ضد كل داعية للسلام ، حتى أشعلت الحرب ، فوقف ضد ابنه ، وعيره بأنه رضى أن يعيش كالنساء ، والحرب قد قامت أسبابها ، فقتل النضر على بن أبى طالب ، وروى أنه هو أيضا الذى قتل الثانى .

وفى غب المعركة كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا على أن يعرف مآل أبى جهل الذى سمى فرعون هذه الأمة ، فاذا أدال الله سبحانه وتعالى منه ، فقد أدال من فرعون .

يروى ابن اسحاق أنه لما فرغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من عدوه أمر بأبى جهل أن يلتمس فى القتلى ، وقد كان هو مقصودا فى القتال ، لأنه رأس الفتنة ، ولقد أحيط بمن يدفعون عنه ان أريد قتله ، فكان معه عكرمة

وبعض سـفهاء القـوم ، وكان أول من لقيه بضربة معـاذ بن عمـرو ابن الجموح أخو بنى مسلمة ، فقال رأيته كالحرجة (أى كالشجرة الكبيرة) وهم يقولون لا يخلص اليه أحد ، فضربته ضربة أطنت قدمه الى نصف ساقه (أى قطعتها) وضربنى عكرمة على عانقى فطرح يدى · لم يستطع معاذ الاجهاز عليه ، حتى جاء معوذ بن عفراء ، فأثبته ، ولكن لم يقض عليه أيضا ، وان منعه الحـركة حتى جاء عبد الله بن مسـعود ، وبه رمق فوضع رجله على عنقه ، وكان قد آذاه ، ثم قلت له أخزاك الله يا عدو الله ، ثم حز رأسه ، وذهب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ·

انتهى أمر زعماء الشرك ، والـذين بقوا منهم كانوا أقل عداء وايذاء ، وان كان قتل ذويهم قد أرث قلوبهم بالأحقاد ·

وانه فى هذه المعركة لم يستشهد من المؤمنين الا أربعة عشر ، أى نحو خمس من قتل من المشركين ، واذا أضيف المأسـورون ، يكون ما أصيب من المسلمين من عشر أصيب من المشركين ، ولقد كانت هذه المعركة شفاء لغيظ المؤمنين الذين أوذوا فى الحق وأخرجوا من ديارهم كما قال الله سـبحانه وتعالى : « **قاتلوهم يعذبهم الله بأيدكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء** » ·

وان الأمور الأربعة التى ذكرها الله سبحانه وتعالى قد كانت ، فقد عذبهم الله سبحانه وتعالى بأيدى الذين عذبوهم ، وأخزاهم الله بالهزيمة ، وشـفى الله قلوب المؤمنين وأذهب غيظهم وكانت المعركة سبيلا لأن يذهب غرور بعض الناس ، ويفكروا من جديد فى دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهى دعوة الحق ·

ويقول ابن كثير فى تاريخه فى قتل أبى جهل : « كان قتل أبى جهل على يد شاب من الأنصار ، ثم بعد ذلك وقف عليه عبد الله بن مسـعود وأمسـك بلحيته ، وصعد على صدره ، حتى قال له لقد رقيت مرتقى صعبا يا رويعى الغنم ثم بعد هذا حز رأسه وحمله حتى وضعه بين يدى رسـول الله عليه الصلاة والسلام ، فشفى الله تعالى به قلوب المؤمنين ، وكان هذا أبلغ من أن تأتيه صـاعقة ، أو أن يسـقط عليه سقف منزله أو يموت حتف أنفه ـ والله أعلم ·

وقد ذكر مؤرخو السيرة أنه فيمن خرج يوم بدر بعض المسلمين الذين شهدوا أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، ولكنهم بقوا فى مكة المكرمة ،

وهم مؤمنون فخرجوا مع المشركين تقية ، كما خرج بعض بنى هاشم وهو أهم مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان لم يكونوا قد آمنوا من بعد ٠

ومن هذه الجماعة المسلمة الحارث بن زمعة بن الأسود ، وأبو قيس ابن الفاكه ، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ، وعلى بن أمية بن خلف ، والعاص ابن منبه بن الحجاج ٠

وقد قتل هؤلاء يوم بدر ٠٠٠

قال ابن اسحق ، وفى هؤلاء نزل قول الله سبحانه وتعالى « **ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى انفسهم ، قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك ماواهم جهنم وساءت مصيرا الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله ان يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا** » ٠

وسواء أصح أن تكون حال هؤلاء هى سبب النزول أم لم يصح ، فان الآية توجب على كل مؤمن يقيم فى أرض الكفر أن يخرج مهاجرا الى الله حيث يكون قوة للاسلام ، ولا يتخذ قوة الكفر ، وان ثبت أن النزول كان لذلك السبب ، فان الآية عامة ، وكما يقول علماء الأصول اذ العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب ٠

الكرامة الانسانية فى أعقاب المعركة :

٣٨٧ — قلنا ان حرب الاسلام هى حرب الفضيلة ـ لا يستباح فيها الا الدماء ، ولا تباح فيها المثلة تكريما للانسان ولا يترك فيها أشلاء الانسان تنهشها الذئاب والغربان ، بل انها تدفن تكريما للانسان ، وذلك لقول الله سبحانه وتعالى : « **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** » ، وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كرم الانسان حيا وميتا ، والقتل فى الميدان عند الاعتداء ، لا يتنافى مع تكريم الانسان ، لأنه العدل ، والعدل فيه تكريم الانسانية دائما ، ففيه تكريم الانسان الفاضل بأخذ الحق له ، وتقويم الفاسد بأخذ العدل منه ٠

ومن هذا المبدأ السامى لم يترك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قتلى بدر من المشركين تنوش جثثهم سباع الحيوان ، ولا تنقرها الغربان جيفا ملقاة فى الأرض ، كما فعلت جيوش فى قتلاها أنفسهم ، لا فى قتل أعدائهم فقط ٠

بل ان النبى صـلى الله تعالى عليه وسـلم قد جاء الى حيث القتلى من قريش فى هذه المعركة المباركة فدفنهم فى القليب ، وهو بئر جافة ، وتقـول عائشة فيما رواه عنها ابن اسحاق : « أمر رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسـلم بالقليب فطـرحوا فيه ، الا ما كان من امية بن خلف ، فانه انتفخ فى درعه ، فملأها ، فذهبوا ليخرجوه فتزايل لحمه ٠ فأقره ، وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة ٠

وهكذا ، فعل ليوارى سوءاتهم ، وليحمى أجسامهم من سباع البهائم ، وسباع الطير ٠

قال ابن اسحق : حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال مخاطبا جثث القتلى : « يأهل القليب ، بئس عشيرة كنتم لنبيكم كذبتمونى ، وصـدقنى الناس ، وأخرجتمونى ، وآوانى النـاس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ، فانى قد وجدت ما وعـدنى ربى حقـا » ٠

ويروى أنه نادى طائفة من زعماء الشر فيهم ، أو كبرائهم ، فقد روى أنه كان يقول : « يا عتبة بن ربيعة ، ويا شيبة بن ربيعة ، ويا أمية بن خلف ، ويا أبا جهل بن هشام ــ فعدد من كان منهم بالقليب ــ هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ، فانى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا » ويظهر أن الواقعة قد تعددت ٠

فقال الحاضرون : يا رسول الله ، أتنادى قوما قد جيفوا ، فقال صـلى الله تعالى عليه وسلم : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يسـتطيعون أن يجيبوا » ٠

ومعنى أسمع أعلم بحقيقة ما أقول لهم ، لأن السمع الحقيقى يحتاج الى جارحة السمع ، وقد فقدوها بالقتل ولأن الله سبحانه وتعالى يقول : « **وما أنت بمسمع من فى القبور** » وفى رواية عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « لقد علموا ما أقول » ٠

والعبرة فى هذه المسألة أن النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم قد عمل على كرامة الانسان بموارة سوءات هؤلاء ، وليبين للأحياء المسلمين الاعتبار فى هذه المعركة ، وهو أن الله صدق وعده ، ونصر عبـده ، وهزم عـدو الله سبحانه وتعالى وعدوهم ٠

الأسرى

٣٨٨ — أسر من المشركين سبعون ، وقد علمت أن سعد بن معاذ رضى الله تبارك وتعالى عنه كان يكره الأسر ، ويريد القتل ، حتى يثخن المشركين ، وذكر للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم رأيه ، وأنه كره الأسر ، ولكن سياسة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كانت تتجه الى الاستبقاء بدل القتل ، عسى أن يسلموا ، ويكونوا قوة للاسلام ولأن يكونوا مؤمنين ، ولو مآلا خير من أن يقتلوا كفارا فى عجلة الحرب ٠

والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا يعمل عملا الا بمشورة أصحابه ، مادام الوحى لم ينزل بأمر ، فهو يجتهد فيما يفعل ، لا فيما يشرع ، واذا اجتهد فى عمل ، فالشورى روح العمل ، وقوة الجماعة ٠

قال الامام أحمد فى سنده بروايته : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما تقولون فى هؤلاء الأسرى ، فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك ، استبقهم ، واستأنهم ، لعل الله أن يتوب عليهم ٠

وقال عمر : يا رسول الله ، أخرجوك وكذبوك ، قربهم فأضرب أعناقهم ؟

وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله انظر واديا كثير الحطب ، فأدخلهم ثم أضرمه عليهم نارا ٠

استمع اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد ابتدأ الرأى رفيقا ثم اشتد حتى صار حريقا ، فدخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتركهم مليا ، ليتدبروا مغبة كل قوم ، ثم خرج عليهم ٠

فقال عليه الصلاة والسلام : « ان الله ليلين قلوب رجال ، حتى تكون الين من اللبن ، وان الله سبحانه وتعالى ليشد قلوب رجال ، حتىتكون أشد من الحجارة ، وان مثلك أبا بكر كمثل ابراهيم ، قال : « فمن تبعنى فانه منى ، ومن عصانى ، فانك غفور رحيم » ، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى ، قال : « ان تعذبهم ، فانهم عبادك ، وان تغفر لهم ، فانك أنت العزيز الحكيم » ٠

وان مثلك يا عمر كمثل نوح ، قال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » ، وان مثلك يا عمر ، كمثل موسى ، قال : « ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » ٠

انتهت الاستشارة بأن أبدى رأيان أحدهما رفيق مؤلف ، لا جفوة فيه وهو رأى الصديق رضى الله تعالى عنه ، والثانى رأى مخيف ، وهو رأى

الفاروق عمر بن الخطاب ، رضى الله تبارك وتعالى عنه ، ويتبع ذلك فى عنفه بأشد فى طريقته ، وهو رأى عبد الله بن رواحة ، اذ كان رأيه القتل بالحرق ٠

وقد رأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يأخذ بمبدأ الفداء ، اذ فيه رفق أبى بكر ، ونفع لجماعة المسلمين ، وقد كانوا فى غير غنى ، ورخص فى غير ذلك ، فرخص لنفسه فى القتل ، ورخص لنفسه فى المن من غير فداء ، وان كان الأكثر كان الفداء ، وكان يسير فى الفداء على مقدار الثروة للأسير ، وفى العفو بالمن على مبدأ من كان يظن أنه أسلم ، وخرج تقية ، ويمن أيضا على من يرى فى المن عليه كسبا للمسلمين ٠

وانه يلاحظ أنه لم يمن على أحد من بنى هاشم مع أنه نهى عن قتلهم ، وأنه يعلم أنهم خرجوا مستكرهين ولم يخرجوا محاربين ٠

وكيفما كانت حالهم من من أو فداء قد أوصى بهم خيرا ، وقد نزلوا عند الأنصار ، وكأنهم فى ضيافة ، لا فى أسر ، حتى ان الأنصارى كان يفضل الأسير فى الطعام على أهله وعياله ، وكان يرى الأسير ذلك ، فيتعفف ، فيشدد عليه الأنصارى ٠ فكانوا يؤثرون على أنفسهم ٠ ولو كان بهم خصاصة ٠

٣٨٩ ــ لقد أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقتل عقبة ابن أبى معيط ، والنضر بن الحارث ٠ لأنهما كانا قائدى الشرك فى المعركة ، ولأن عقبة هو الذى كان يحرض على القتال بعد أن نجت العير ، وأراد بعض كبراء قريش أن يكتفوا بذلك ، ولا يقاتلوا حفظا للرحم ، كأمية بن خلف ٠ وعتبة ابن ربيعة ٠

وروى الشعبى أنه لما أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بقتل عقبة قال : أتقتلنى يا محمد من بين قريش ، قال نعم ، ثم التفت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى أصحابه ، وقال : أتدرون ما فعل هذا بى !! جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقى ، وغمزها فما دفعها حتى ظننت أن عينى تدوران ، وجاء مرة أخرى بسلا شاة فألقاه على رأسى وأنا ساجد ، فجاءت فاطمة ، فنسلت عن رأسى ٠

وكان مثل ذلك النضر بن الحارث ، وكان حامل لواء المشركين ، فكان قتله لما قدم من أذى ، ولما فيه من اذلال الشرك وأهله ٠

وقد أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الفداء من ذوى الثراء من بنى هاشم ، بل شدد فى الأخذ منهم ولم يقبل منهم الا الفداء ٠

ولعل أدل شيء على شدته فى أخذ الفداء من بنى هاشم مجاوبته مع عمه العباس بن عبد المطلب الذى كان يحبه ، وكان يألم لأسره ، والشد عليه بالوثائق ٠

ادعى العباس أنه أسلم من قبل ، ومعنى ذلك أنه ليس عليه فداء ، لأنه جاء مكرها لا محاربا ٠

فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : أما ظاهرك فكان علينا ، والله أعلم باسلامك ، وسيجزيك خيرا ، فادعى أنه لامال عنده يفدى به نفسه ، ومن معه من بنى هاشم عقيل ونوفل ولدى أخيه ، فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فأين المال الذى أودعت أنت وأم الفضل ، وقلت لو أصيب فى سفرى هذا فهذا لبنى الفضل وعبد الله وقثم ، فقال العباس رضى الله عنه والله انى لأعلم أنك رسول الله : ان هذا شيء ما علمه الا أنا وأم الفضل ٠

وقد أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مائة أوقية من ذهب فداء له ولابنى أخيه عقيل ونوفل ، وعن حليف له هو عتبة بن عمرو أحد بنى الحارث بن فهر ٠

وهكذا أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الفداء ، لاينى عن ثرى ، ولا يعفو الا عمن يرجى منه خير للاسلام ، أو من يمن عليه فى نظير أن يمن على مسلم أخذوه عنوة من غير حرب ، كما فعل أبو سفيان فى معتمر من أصحاب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أخذه ، حتى يفك اسار ابن له ، ففك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اساره لذلك ٠

وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يقبل من الفداء نوعا معنويا ، وهو تعليم الأميين من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاذا كان الأسير ليس له مال يفدى به نفسه ، ولكن له علم بالقراءة ، فانه يكون فداءه أن يعلم بعض الأميين من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم القراءة ٠

وقد من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على ناس من الأسرى ، منهم من كان يظن فيه الاسلام ، وقد شهد عبد الله بن مسعود لسهيل بن بيضاء بالاسلام فقد قال سمعته يذكر الاسلام ٠

فقبل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم شهادته ، ومن عليه ٠

وممن من عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبو العاص ابن الربيع الأموى زوج زينب بنت الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكان زوجا بارا مكرما لزوجه غير مضار لها ٠ وقد أرادت قريش أن تحمله على طلاقها كما طلق ابن أبى لهب ابنة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فتأبى عن ذلك ٠

ولقد كانت زينب رضى الله تعالى عنها بمكة المكرمة فأرسلت فداء لزوجها البار الطيب ، وبعثت فى ضمن الفداء قلادة لها ، كانت أم المؤمنين خديجة قد أدخلتها بها على أبى العاص حين بنى بها ، فلما رآها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أثارت ذكريات الزوج الرفيقة الشفيقة والرحم ، فرق لذلك رقة شديدة ٠

وكان للرسول الأمين أن يطلق سراحه ، كما أطلق سراح غيره من بنى مخزوم وغيرهم ، ولكن لكيلا يكون فى نفس أحد ضيق أو حديث نفس ، ولتطيب النفوس كلها جَعل اطلاق سراحه للصحابة ، فقال : « ان رأيتم أن تطلقوا أسيرها ، وتردوا عليها الذى لها ، ففعلوا » ٠

ويجب أن ننبه هنا لأمرين :

أولهما ــ أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رأى ألا تبقى من بعد فى مكة المكرمة ، وألا تكون فى فراش العاص من بعد ، فأخذ عليه عهدا أن يخلى سبيلها رضى الله عنها ، بأن تهاجر الى المدينة المنورة ، فوفى أبو العاص بذلك ٠

ثانيهما ــ أنه لم يكن قد نزل التفريق بين المسلم وغير المسلم ، لأنها لا تحل له ، اذ أن ذلك نزل عند الحديبية فى سورة الممتحنة ، فقد قال الله سبحانه وتعالى : « **يأيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ، فامتحنوهن الله أعلم بايمانهن ، فان علمتموهن مؤمنات ، فلا ترجعوهن الى الكفار ، لا هن حل لهم ، ولا هم يحلون لهن ، وآتوهم ما انفقوا ، ولا جناح عليكم أن تنكحوهن اذا آتيتموهن أجورهن ، ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسئلوا ما انفقتم ،وليسالوا ما انفقوا ، ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم** » ٠

ويلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى أشار الى سبب التحريم وهو الكفر ، اذ قال الله سبحانه وتعالى : « **فلا ترجعوهن الى الكفار** » ولم يقل الى المشركين ، والكفر يشمل الشرك وما عليه النصارى واليهود الذين

كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وآمنوا بالتثليث ، وألوهية المسيح ، كما قال الله سبحانه وتعالى : « **لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم** » وقال الله سبحانه وتعالى : « **لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة** » ٠

وهكذا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على أناس كان يرى خيرا فى المن عليهم ، أو يرى فيهم عجزا عن أن يقدموا فداء ٠

فمن على المطلب بن حنطب بن الحارث من بنى مخــزوم ، ومن على صيفى بن رفاعه بن عائد من بنى مخزوم ، وممن من عليه أبو عزة عمرو ابن عبد الله بن عثمان ، وكان محتاجا ذا عيال فمن عليه رســول الله صــلى الله تعالى عليه وسلم وأخذ عليه عهـدا ألا يظاهر عليه أحدا ، وكان شــاعرا ، ولكنه نقض ما عاهد عليه الرســول صــلى الله تعالى عليه وســـلم ، ولعب المشركون بعقله ، فرجع اليهم بعد أن قرب من الاسلام أو دخل فيه ، فقد قال مادحا النبى صــلى الله تعالى عليه وســـلم ، اذ من عليه من غير فداء فى قصـــيدة :

من مبلغ عنى الرسول محمدا فانك حق والمليــك حميــد

فلما كان يوم أحد أسر أيضا ، فطلب أن يمن عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال له النبى صــلى الله تعالى عليه وســلم : « لا أدعك تمسح عارضيك ، وتقول خدعت محمدا مرتين » ويروى أن النبى صلى الله تعــالى عليه وسلم قال فيه « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ٠

وهكذا فوض النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتصرف فى الأسرى بما يكون خيرا فى ذاته وللمؤمنين ، فقتــل من قتــل منهم ، وفدى كثيرين ، ومن على بعضهم ٠

بيان الله تعالى لخطأ الأسر

٣٩٠ ــ نزل القرآن الكريم من بعد القيام بما اتجهت اليه الشورى بالنسبة للأسرى ــ ببيان الخطأ فى أن المسلمين أسروا قبل أن يثخنوا ، وهو ما كان يميل اليه سعد بن معاذ الأنصارى رضى الله تبارك وتعالى عنه ، ولقد ذكر الخبر كما رواه ابن اسحاق « أنه لما وضع القــوم أيديهم يأسرون رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى وجه سعد بن معاذ ، فقال له كأنى بك يا سعد تكره ما يصنع القوم ٠ قال أجل والله يا رسول الله كانت أول وقعة أوقعها الله تعالى بأهل الشرك ، فكان الأثخان فى القتل أحب الى من استبقاء

الرجال » ولقد قال الله سبحانه وتعالى بعد انهاء ما أشار اليه الشورى : « **ما كان لنبى أن يكون له أسرى ، حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم عذاب عظيم ، فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا ، واتقوا الله ، ان الله غفور رحيم ، يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى ، ان يعلم الله فى قلوبكم خيرا ، يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ، ويغفر لكم ، والله غفور رحيم** » ٠

اذن كان الخطأ ، لا فى أنهم فدوهم ، ولا فى أنهم منوا عليهم ، ولكن فى أنهم أخذوا الأسرى قبل الأثخان أى قبل أن يثقلوهم بالجراح ، حتى لا يستطيعوا أن يثيروا عليهم معركة أخرى ، أو تكون صعبة عليهم لكثرة القتلى ، ومن بعد ذلك يكون الأسر ، ويكون المن أو الفداء ، كما قال الله سبحانه وتعالى : « **فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فاما منا بعد ، واما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها** » ٠

ويجب أن نذكر هنا ثلاثة أمور ؛

أولها ــ فى معنى قول الله سبحانه وتعالى : « **لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم** » فان الكتاب الذى قرره الله سبحانه وتعالى ، هو أنه لا عقوبة الا بنص على المنع ، ولم يكن ثمة نص على منع أخذ الأسر ، قبل الاثخان ، وان ما فعله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اجتهاد ، ولاعقوبة على الاجتهاد فى الخطأ ٠

ثانيا ــ أن كثيرين ممن كتبوا فى الماضى ، وتبعهم أهل الحاضر أن القرآن الكريم نزل موافقا لرأى الامام الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فى الأسرى ، ونحن نرى أن ما جاء به القرآن الكريم لا يوافق رأى الفاروق ، لأن ما جاء به القرآن الكريم ، انما كان معارضة لأصل الأسر قبل الاثخان ، ولم يعترض الفاروق على الأسر قبل الاثخان ٠

انما الذى كره الأسر قبل الاثخان فى القتل سعد بن معاذ رضى الله تبارك وتعالى عنه ، فاذا كان ثمة فضل فى نزول القرآن الكريم موافقا لما كره سعد ، فله فى هذا الفضل ، « **يختص بفضله من يشاء** » ٠

ثالثا ــ وهو الأمر الجدير بالاعتبار عند أهل الاعتبار ، وهو أن الله سبحانه وتعالى وحده يعلم الغيب ، ويعلم السر وأخفى ، وهو سبحانه وتعالى يعلم أن أخذ الأسرى قبل اثخان العدو ، خطأ ، فلماذا ترك النبى

رسوله وحبيبه ، ومعه صحابته يخطئون ، وقد كان وحده هو الذى يعلم الصواب ·

والجواب عن ذلك أن هذا فيه عظة وعبرة ، ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم الذى يوحى اليه ، والذى علمه ربه وأدبه فأحسن تأديبه ، اذا ترك يتصرف باجتهاده فقد يخطىء ، ولا ينزه عن الخطأ أحد ولو كان نبيا ، الا أن يعلمه الله سبحانه وتعالى ، فهو وحده العليم الحكيم الذى يعلم المستقبل كالحاضر والماضى ، وفى ذلك توجيه للذين يستبدون ، وبيان انهم يخطئون ، وليس لهم أن يدفعهم الغرور ، فيحسبوا أن آراءهم منزهة عن الخطأ فيتردون بأممهم فى أفسد النتائج ·

ان ترك محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الذى يوحى اليه ، ثم هو فى ذاته أعقل الرجال ، اذ كانوا قبل البعثة يهتدون برأيه ــ يخطىء فى رأيه ، ثم ينبه الى الصواب ، فيه عبرتان لأولى الأبصار ·

أولاهما ــ أنه لا يصح لأحد أن يغتر برأيه ، فيحسبه الصواب الذى لا يقبل الخطأ ، ويعتقد فى نفسه العلم ، وفى غيره الجهل ·

الثانية ــ أنه ليس لأحد أن يستبد فى تفكيره الذى يعمل فيه للجماعة ، فلا يقول ما قاله فرعون ·· « **ما أريكم الا ما أرى ، وما أهديكم الا سبيل الرشاد** » ·

فعلينا معشر المؤمنين أن نتأدب بأدب الله سبحانه وتعالى ، وهو الا ندلى أنفسنا وجماعتنا بالغرور ، فتكون السوءى ، فى حاضر الأمة ومستقبلها ، وعلينا أن يكون لنا فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، ولا يكون لنا من فرعون ، متبوع يتبع ، فالحق أحق أن يتبع ·

ولقد رأينا فى عصرنا اخوان فرعون يطلبون أن يتلى ما يكتب لهم كأنه تنزيل من التنزيل وقد بوءوا بهذا الغرور عنهم ، والخنوع من غيرهم ــ أمتهم سوء الدار ، وبئس القرار ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، « **ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع ، وهو شهيد** » ·

الأنفــال

٣٩١ ــ كان المشركون يحاربون فى غير ديارهم وأرضهم ، وكان المؤمنــون كذلك ، ولكن كانوا على مقــربة من ديارهم ، وكانت الهزيمة قد نزلت بالمشركين ، فكانوا شبه فارين بعد المعركة لا يلوون على شىء الا مــا يمكنهم من أن يعودوا الى ديارهم راضين باياب بعضهم سالمين ٠

فكان لابد أن يغنم المســلمون منهم غنائم ، وكانت هــذه الغنائم أول ما غنمه المسلمون فى الحروب ، لأنها كانت أول حرب كان الاتجاه فيها الى المنازلة ، وأخذ الغنم نتيجة لهذه المنازلة ، ولم تكن عيرا مصــادرة بل كانت حربا شــعواء ٠

ولذلك اختلف المقــاتلون فى الأنفــال ، وهى الغنائم التى تكون قبــل القسمة ، ولم يكونوا على علم بقسمتها ، والمقسطون منهم سألوا عما يفعلون بشأنها ، وبعض القاسطين ظنوها لمن أخذها ٠

وذلك أن المجاهدين كانوا ثلاثة أقسام ، قسم واجه العدو كعلى وحمزه وغيرهم ، وقســم كان من ورائهم ، وأولئك جمعــوا الغنائم ، وقســم حاط العريش الذى كان به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ويقول فى ذلك عبــادة بن الصــامت وهو من البدريين ، « خرجنا مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فشهدت معه بدرا ، فالتقى الناس ، فهزم الله تعالى العدو ، فانطلقت طائفة وراءهم يهزمون ويقتلون ، وأكبت طائفــة على المغنم يحوزونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله تعــالى عليه وسلم حتى لا يصيب أحد منه غرة ، حتى اذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم الى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويناه وليس لأحد فيهــا نصيب ٠

وقال الذين خرجوا فى طلب العــدو لستم بأحق بها منا ، فنحن نفينا منها العدو ، وهزمناهم ٠

وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله تعالى وسلم خفنا أن يصيب العدو منه غرة ، فاشتغلنا به ، كان هــذا الخلاف ، وكان معه تســاؤل لمن تكون الغنائم ، فنزل قول الله سبحانه وتعالى : « **يسألونك عن الأنفــال قــل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله ، ان كنتم مؤمنين** » ٠

كانت هذه المناقشة فى الغنائم قبل أن ترفع الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فذكر الله سبحانه وتعالى · ما يحسم الخلاف ، ويقطع مادة النزاع ، وهو أن يكون أمرها الى الله تعالى ، وما يحكم به سبحانه وتعالى والى الرسول عليه الصلاة والسلام الذى ينفذ حكم الله سبحانه وتعالى ، فليس لهم أن يقتسموا بأنفسهم ، بل الأمر لغيرهم فليصلحوا ذات بينهم ، ولا يصح أن تكون المادة مفرقة بينهم ، وقد جمعهم الحق وجمعهم الجهاد فى سبيله ··

وما الذى اتبعه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى قسمة الأنفال ، فقال بعض الرواة ، انه قسمها بين المجاهدين بالسوية ، اذ لم يكن حكم تخميس الغنائم قد نزل فى قول الله سبحانه وتعالى : « **واعلموا انما غنمتم من شىء فان لله خمسة ، وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله على كل شىء قدير** » ·

فالنبى عليه الصلاة والسلام على رواية هؤلاء وزع بالسوية بين كل المجاهدين ، لأنه لم يكن ما يوجب التفاوت ، ولا دليل يرجح طائفة على أخرى ·

ويرى ابن كثير أن التوزيع كان حسب التخميس الذى نص عليه قول الله سبحانه وتعالى : « **واعلموا انما غنمتم** ·· » الآية ، لأنها متصلة الواقعة ، فالأمر فى التوزيع كان الى الله سبحانه وتعالى والى رسوله عليه الصلاة والسلام على حسب هذا الحكم الذى شرعه الله تعالى ، فآية الغنائم متصلة بأول السورة التى أشارت الى التوزيع ، وفوق ذلك فان الآية تشير الى أن ذلك ما أنزله الله سبحانه وتعالى يوم التقى الجمعان يوم الفرقان ·

ولقد روى أن عليا ذكر أن الناقتين اللتين نحرهما عمه حمزة ، وهو شارب كانتا من خمسه فى الغنائم ، ونحن نميل الى ما اختاره الحافظ ابن كثير ·

أثر المعركة فى المدينة المنورة

٣٩٢ ــ كان أثر المعركة فى العرب عامة بعيد المدى ، فقد سارت الركبان فى الصحراء العربية بهزيمة قريش على يد طريدها الذى أخرجته وأصحابه من ديارهم وأموالهم ، لأنه ينكر الوثنية ، ويدعو الى الوحدانية

ويقول انه يوحى اليه من عند الله سبحانه وتعالى ، فكان ذلك النصر منبهـا للعرب بحقيقة الدعوة المحمدية وسلامتها وقوتها ، فوهنت العقيـدة الوثنية بين العرب ، وأخذت عقول تدرك الحقائق وتطرح الأوهام التى نسجها الخيال الضال حول الأحجار ، وبذلك صارت كلمة الله سبحانه وتعالى هى العليا ، وكلمة الشرك هى السفلى ، وكان يوم الغزوة بحق يوم الفرقان ، اذ فرق فيه الناس وانتقل المسلمون من مستضعفين فى الأرض الى اقوياء يكاثرون الناس بقوتهم ، كما قال الله سبحانه وتعالى :

« واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافـون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » ·

هذه اشارة الى أثر ذلك النصر المبين فى البلاد العربية ، لقد نظر اليه العرب على أن الاسلام هو القوة الحقيقية فى البلاد العربية ، وكان من ذلك أن أخذ الناس يفكرون ·

هذا أثره بشكل عام فى الجزيرة العربية ، أما أثره فى المدينة المنورة وما حولها ، فقد صـار القوة المرهوبة فيها ، وكان فيها أخلاط من الوثنيين الذين بقوا على وثنيتهم من الأوس والخـزرج ، وكانوا يظهرون عقـائدهم ولا يخفونها ، وكان فيهم يهود ، قد أكل الحقـد قلوبهم ، وان أخفـوه ، وان كانوا يعرفون فى لحن القول وفى استهزائهم بالمؤمنين أحيانا ·

فلما ظهرت قوة المسلمين فى بدر ، وجد فى الفريقين منافقون يظهرون الاسلام بألسنتهم ، ويخفون الكفر ، ويقولون ما لا يفعـلون ، وينطقون بما لا يعتقدون ، ولقـد نزل فيهم سـورة كاملة ، وأولها ـ قـوله الله سبحانه وتعالى : **« اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسـول الله ، والله يعلم انك لرسوله ، والله يشهد ان المنافقين لكاذبون ، اتخذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، انهم ساء ما كانوا يعمـلون ، ذلك بانهم آمنوا ثم كفـروا ، فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون »** ·

فالقوة الاسـلامية التى ظهـرت فى بدر ، هى التى جعلت هؤلاء من المشركين واليهود ، يتخذون مظهرهم الاسلامى جنة يتقون بها قوة أهل الاسلام ويشيعون الخبال فى صفوف المسلمين ، ويخدعون الذين فى قلوبهم ضعف ·

ان قوة المسلمين جعلت من لا يؤمن بالله سبحانه وتعالى ورسـوله عليه الصلاة والسلام يخضع ببدنه ولا يؤمن بقلبه ·

كان ذلك فى السنة الثانية التى كانت فيها غزوة بدر · قال ابن كثير « وفيها خضع المشركون من أهل المدينة المنورة واليهود الذين هم بها من بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة ، ويهود بنى حارثة ، وصانعو المسلمين ، وأظهر الاسلام طائفة كثيرة من المشركين واليهود ، وهم فى الباطن منافقون ، منهم من هو على ما كان عليه ، ومنهم من انحل بالكلية فبقى مذبذبا ، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء كما وصفهم الله تعالى فى كتابه » ·

وهو بهذا يشير الى قول الله سبحانه وتعالى : « **ان المنافقين يخادعون الله ، وهو خادعهم ، واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون الناس ، ولا يذكرون الله الا قليلا ، مذبذبين بين ذلك ، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا** » ·

وانه يتبين من هذا الكلام أنه بعد أن أظهر الله سبحانه وتعالى قوة المسلمين وأعلى كلمة الدين ، صار الذين يخالفونه ، ويعاشرون المؤمنين بالجوار على ثلاثة أقسام :

أولهم الذين نطقوا بكلمة الاسلام والكفر يسكن قلوبهم ، ويستولى عليها وهؤلاء هم الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم « **واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم ، انما نحن مستهزئون ، الله يستهزىء بهم ، ويمدهم فى طغيانهم يعمهون** » فهؤلاء بقوا على كفرهم ، وأمد الله تعالى فى طغيانهم ، لأن مظهرهم كان غير مخبرهم ، وقد استمرءوا ذلك حتى زادوا عتوا وفسادا ·

والقسم الثانى قوم ضعفت نفوسهم ، وانحل تفكيرهم ، فهم منافقون ، فى اظهارهم الاسلام ، ولا عقيدة لهم يؤمنون بها ، وان كانوا الى عقيدتهم الأولى أميل ، ولكن قد انحلت بالتعارض ، بين ما يظهرون وما يبطنون ، فقد خدعوا المؤمنين وأوغلوا فى الخديعة ، حتى خدعوا أنفسهم ، وهم الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم : « **مذبذبين بين ذلك ، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء** » ، وقد وصف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هذا النوع من المنافقين بقوله عليه الصلاة والسلام : « **مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين غنمين لا ندرى الى أيهما تذهب** » ·

والقسم الثالث وهم أكثر اليهود الذين ثبتوا على دينهم من بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة وبنى الحارث ، وأولئك ثبت أكثرهم على اعتقادهم وجاهدوا بالبقاء عليه ، والاعتراض الدينى على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنهم نافقوا فى أنهم لم يخلصوا فى العهد الذين عاهدهم عليه النبى

صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل يخفون الخيانة ، ويتربصون بالمسلمين الدوائر ، ويكاتبون أعداء النبى صلى الله تعالى عليّه وسلم ، ويحرضونهم عليه ،ويسرفون على أنفسهم ، فينافقون المشركين ، ويقولون ان ماهم عليه من شرك خير مما يدعو اليه النبى من توحيد ٠

وفى الجملة ظهر النفاق بعد النصر المحمدى من أعداء هذا الدين ٠

ولنخص اليهود ، ومن والاهم بكلمة موجزة موضحة :

اليهود

٣٩٣ ــ عقد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حلفا مع اليهود ، جعل فيه له ما لهم ، وعليه ماعليهم ، وتعاهد معهم على البر والتقوى ، لا على التعاون على الاثم ، وأنهم فى أحيائهم متعاونون على دفع الاثم ، وعقل الجانى الذى يجب عليه الدية ، وفى الجملة أعطاهم الحرية والحماية ، وعقد معهم جماعة ، وأحياء متفرقة عقدا ملزما ، ولكن الحسد كان يسكن قلوبهم من أن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الذى بعث كانوا يتمنون أن يكون من ولد اسحق لا من ولد اسماعيل ، وقد كانوا يعرفون أن نبيا سيبعث ، فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به حسدا من عند أنفسهم ، وكلما استيقنوا أنه النبى المبشر به فى التوراة ازدادوا ضيقا وغضبا وكفرا ، وكلما وجدوا آيات النبوة زادتهم طغيانا وضلالا ، وعتوا وفسادا فى الأرض ، وكأنهم وحدهم سلالة قابيل الذى قتل أخاه ، لأنهما قربا قربانا فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر (قابيل) ٠

ولننقل شهادة أم المؤمنين صفية بنت حيى بن أخطب ، قالت رضى الله تبارك وتعالى عنها ٠

عندما قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة المنورة ، ونزل قباء فى بنى عمرو بن عوف ، غدا عليه أبى حيى بن أخطب ، وعمى أبو ياسر ابن أخطب مغلسين (أى فى غلس) قلت فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، فأتيا ساقطين يمشيان الهوينى ، قالت فهششت اليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت الى واحد منهما ، مع ما بهما من الغم ، وسمعت عمى أبا ياسر ، وهو يقول لأبى حيى بن أخطب أهو هو ٠٠ ؟ قال نعم والله أتعرفه وتثبته ؟ قال نعم ، قال ما فى نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت ؟ ٠

تلك شـهادة صـادقة من سيدة برة على أبيها ، فما جعلته الآية المثبتة لرسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم مؤمنا مصدقا بل جعلته عدوا لجوجا في عداوته ، وذلك فعل الحسد الذى كان من قابيل على أخيه هابيل اذ تقبـل منه الايمان وحده ، والله تعالى يختص برحمته من يشاء ٠

وحيى بن أخطب وأخوه صـورة نفسية لكل يهـودى ممن كان بجوار المسلمين بالمدينة المنورة ، وبهذه العداوة كانوا يتحركون ، وطويت قـلوبهم على الضغينة المستكنة ٠

فلما انتصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ازدادوا ضيقا ، وظنوا أن الدائرة من بعد ستدور عليهم ، فأرادوا بغريزة حب البقاء أن يعملوا عمـلا يظنون فيه بقاءهم ، لكيلا يجد المسـلمون السـبيل لاخراجهم ، واتحدوا مع المشركين ممن بقوا فى المدينة المنورة ، وحملوا أولئك على أن يظهروا الايمان ، ويخفوا الكفران اذ أوعزوا اليهم بخلقهم ، الذى اشتهروا به فى ماضى أمرهم ونفذوه فى حاضرهم ٠

ولقد انضاف بذلك الى اليهود باغرائهم من كانوا قد بقوا على الوثنية من الأوس والخزرج ، وان لم يكونوا الكثرة ، ولكنهم كانوا بما أظهروا من ايمان يبثون الوهن فى قلوب المؤمنين ، ويلقون بأسباب الفشل ، وقد ظهرت رءوسهم فيما ظهر بعد بدر من الغزوات ٠

وقد ذكر ابن اسحاق كثيرين ممن نافقـوا من اليهـود الذين أظهـروا الاسلام ، وأخفوا عقيدتهم ، وأكنوا الأذى للمسلمين ٠ والكيد للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

كما ذكر من الأوس والخزرج من لف لف اليهود ، وأظهر الاسـلام ، وكان كثيرون منهم من الخزرج ، وعلى رأسهم عبـد الله بن أبى بن سـلول ، واليه كانوا يجتمعون ، وهو الـذى قال : « **لئن رجعنا الى المدينـة ليخرجن الأعز منها الأذل** » فى غزوة بنى المصطلق ٠

والنفر من منافقى الخزرج ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبى بن سلول هم يمالئون بنى النضير ويدسون اليهم أنهم معهم عندما خافوا النبى صـلى الله تعالى عليه وسلم ، فنكثوا فى أيمانهم وعهدهم الذى عاهدوه ، وأرادوا معاونة المشركين ، فقد أرسل اليهم ابن سلول وشيعته أنهم ان خرجوا يخرجون معهم ، عندما حاصرهم النبى صلى الله عليه وسلم فى حصونهم ، وأخذوا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، لقد قال ابن أبى والنفر معه ، « اثبتـوا لئن

اخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحدا أبـدا ، وان قوتلتم لننصرنكم »
وقد أنزل الله سبحانه وتعالى فيهم « **الم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وان قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد انهم لكاذبون ، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون** ... » الى أن قال الله سبحانه وتعالى فى وصف ابن أبى ومن معه : « **كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر ، فلما كفر قال انى برىء منك ،انى أخاف الله رب العالمين** » .

وكان المنافقون من بقية الأوس والخزرج واليهود يحضرون مسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيستمعون أحاديث المسلمين ويسخرون ويستهزئون ، ويبثون الشك فى قلوب المؤمنين بأوهام يذكرونها ، وبأسئلة مشككة يستجوبون بها .

اخراجهم من المسجد :

٣٩٤ ـــ يقول ابن اسحاق اجتمع يوما بالمسجد من المنافقين اناس ، فرآهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتحدثون بينهم خافضى صوتهم ، قد لصق بعضهم ببعض ، فأمربهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخرجوا من المسجد اخراجا عنيفا .

فكان المؤمن يأخذ برجل المنافق ، فيسحبه سحبا ، وأحيانا يجذب المؤمن المنافق ، وينتره نترا شـديدا ويلطم وجهه وهو يشيعه باللعنات قائلا له : « أف لك منافقا خبيثا ، أدراجك يا منافق من مسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم » .

وأحيانا يجىء المؤمن الى ذى اللحية الطويلة منهم ، فيأخذ بلحيته ، ويقوده منها قودا عنيفا ، حتى يخرجه من المسجد ، وأحيانا يأخذ المؤمن بجمة المنافق ذى الجمة « فيسحبه منها سحبا عنيفا » .

وذلك العنف فى الفعل يصحبه عنف فى القـول ، من مثل « لا تقـربن مسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانك نجس ، وقـول بعضهم ، غلب عليك الشيطان وأمره » .

وذلك غير الذين كانوا يدفعون من أقفيتهم .

وكانوا هم والذين بقوا على يهوديتهم من يهود اشد الناس أذى للنبى عليه الصلاة والسلام وأصحابه ، فالمنافقون كانوا يبثون فى المسلمين روح التردد والهزيمة ، وفى المسلمين سماعون لهم ، كما قال الله سبحانه وتعالى : **« ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم ، فثبطهم ، وقيل اقعدوا مع القاعدين ، لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ، وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ، لقد ابتغوا الفتنة من قبل ، وقلبوا لك الأمور ، حتى جاء الحق وظهر امر الله ، وهم كارهون »** ٠

واليهود من وراء المنافقين يتعاونون معهم ، ويكيدون معهم ، ويمكرون ، ويمكر الله سبحانه وتعالى بافساد تدبيرهم ، وكان اليهود ليلقوا الشك فى قلوب المؤمنين يظهرون الايمان ، ثم يعلنون الردة ليشجعوا المسلمين على الردة وليكونوا لهم مثلا لمن يخرج من الاسلام بعد الدخول فيه ، وهؤلاء الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم : « **وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى انزل على الذين آمنوا وجه النهار ، واكفروا آخره ، لعلهم يرجعون ، ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم ٠ قل ان الهدى هدى الله ، أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، أو يحاجوكم عند ربكم ، قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم »** ٠

وهكذا كان الافساد اليهودى ، ينافقون ، ويدعون الوثنيين الى النفاق ، ويبثون بنفاقهم روح الفرقة بين المسلمين ، ويستهزئون ويسخرون من أهل الايمان ، ويجعلون من أنفسهم مثلا لمن يخرج عن الاسلام ، فيظهرون الاسلام ثم يخرجون ليكونوا مثلا سيئا للمسلمين لعلهم يرجعون ، كما عبر القرآن الكريم عنهم ٠

افساد اليهود بين المسلمين

٣٩٥ ــ كانت الحرب بين الأوس والخزرج قائمة بين الفريقين ، حتى جمع الله سبحانه وتعالى بينهما بالاسلام ، وألف بين قلوبهم ، فكانت القوة ، ولكن اليهود كانوا يعلمون بأنباء العداوة السابقة ، فكانوا يبثون فيهم ما يحيى نار العداوة بعد موتها ، ويثيرون نارها بعد اطفائها ، وفى كل فريق من يسمع لضعف فى ايمانه ، أو لبقايا العصبية ، أو لترات بقيت بعد الحرب ٠

لقد كان رجل من شيوخ اليهود ، وذوى الضغن والحسد اسمه شماس ابن قيس ، قد هاله أمر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما أكرمه الله

سبحانه وتعالى به من نصر فى بدر ، وهاله أن الأوس والخزرج اجتمعوا وقد يعيشون على الفرقة بينهم ، فيوالون فريقا على فريق ، ويتخذون ممن يوالونهم قوة يثبتون بها أقدامهم ، فلما رأوا اجتماعهم بالاسلام ، فقال شماس هكذا اجتمع بنو قيلة بهذه البلاد والله ما لنا معهم اذا اجتمع ملؤهم من قرار ·

قدر ذلك الشيخ الخبيث ودبر ، فوجد أن يثير الخلاف القديم جذعا ، فأثار ما كان يوم بعاث ، وهو الذى كان بين الأوس والخزرج ، وانتصر فيه الأوس ، وكانت عقبة البيعة الأولى ، ثم الثانية ·

أثار الأمر فى هذا اليوم بين الأنصار رضى الله تبارك وتعالى عنهم ، وفيهم ضعاف العقول يستطارون فتكلم هؤلاء وتنازعوا ، وتفاخروا ، واشتدت المجاوبة فتواثب رجلان من الحيين ، واحد من الأوس والآخر من الخزرج ، وقال أحدهما لصاحبه ، ان شئتم رددناها الآن جذعة ، فغضب الحاضرون من الفريقين ، واتفقوا على مكان يكون فيه اللقاء ، وقالوا موعدكم الظاهرة ·

بلغ ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فعلم أنها فتنة يهودية ، وخرج اليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم ، فقال :

« يا معشر المسلمين ، الله ، الله أبدعوى الجاهلية ، وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله تعالى للاسلام ، وأكرمكم به ، وقطع عنكم به أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم » ·

أدرك أنصار الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فبكوا ، وعانق بعضهم بعضا ــ ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سامعين مطيعين موفورين ·

ورد الله سبحانه وتعالى كيد الكافرين من اليهود فى نحورهم ·

وأنزل الله سبحانه وتعالى فى اليهود قول الله سبحانه وتعالى : « **قل ياأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا ، وأنتم شهداء ، وما الله بغافل عما تعملون** » ·

وأنزل الله سبحانه وتعالى فى المسلمين الذين انساقوا وراء شر اليهود :
« **يأيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين ، وكيف تكفرون ، وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم ، يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق**

تقاته ، ولا تموتن الا وانتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ، ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم ، اذ كنتم أعداء فالف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا ، واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » ٠

ففى هذا النص الكريم تحذير للمؤمنين من اليهود الذين يفرقون جمعهم ، وتذكير بما كانت عليه حالهم من قبل ، وبيان الطريق لأن يمنعوا الأشرار من الدخول بينهم ، وذلك بالتواصى بالخير بينهم ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فمن يقع فى الغواية منهم يرشده ذو العقل والحكمة فيهم وان التفرق بعد البينات اثم كبير ، وله عذاب عظيم ٠

ليسوا سواء

٣٩٦ ـــ اذا كان ما نكرناه صادقا على اليهود الذين كانوا بالمدينة المنورة عندما هاجر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اليها ، فالحكم فيه بنى على الغالب الكثير ، لا على الجميع ، فمنهم ناس اختاروا الاسلام دينا ، وآمنوا بالله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم حق الايمان ، كما قال الله سبحانه وتعالى : « **من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات ، وأولئك من الصالحين ، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين** » فهؤلاء من أهل الكتاب ، وأهل الايمان بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وسيجزون أجرهم مرتين ٠

ونذكر من هؤلاء اثنين كان كلاهما من أحبار اليهود :

وهما عبد الله بن سلام ، ومخيرق ٠

وجاء من أخبار السيرة فى اسلام عبد الله أنه قال :

لما سمعت برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عرفت صفته واسمه وزمانه الذى كنا نتوكف له أى نترقبه فكنت أسر ذلك صامتا له ، حتى قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة المنورة ٠٠٠

فهو قد عرف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قبل قدومه المدينة المنورة وتعرف صفات النبوة فيه التى بشر فيها فى التوراة ، وخاطب بذلك بعض أهل بيته ، اذ كان فرحا بقدومه ، ولم يوافقه ابتداء من عرف من أهل بيته ، حتى قالت له عمته فى فرحته : « والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما مازدت فقال لها المؤمن المخلص الذى لم يشب اخلاصه تعصب لنحلة سابقة : أى عمة هو والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه بعث ولم تلبث أن وافقته » ·

واذا كان عبد الله بن سلام الحبر اليهودى المخلص قد عرف الحق وأدرك فقد عرف قومه من اليهود وأدرك انحرافهم ، وانهم اتخذوا الهتهم هواهم ، وهواهم هو شهوة التحيز ، حتى جعلوا الدين عنصرا ، وليس اعتقادا خالصا فأراد أن يكشف حالهم ·

ذهب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد اذ آمن ، ولم يعلن ايمانه ، فقال له :

يا رسول الله ان يهود قوم بهت (أى يبهتون ويكذبون بالباطل) ، وانى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك ، وتغيبنى عنهم ، ثم تسالهم عنى ، حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا باسلامى فانهم ان علموا بهتونى ، وعابونى ·

وأدخلنى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فى بعض بيوته ، فدخلوا عليه وكلموه ، وسالوه ثم سالهم أين الحصين (١) بن سلام ، فقالوا سيدنا وابن سيدنا ، وخيرنا وعالمنا ·

فلما فرغوا من قولهم خرج عليهم ، فقال لهم : « يا معشر يهود ، اتقوا الله ، واقبلوا ما جاءكم به ، والله انكم لتعلمون انه لرسول الله ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة باسمه وصفته فانى أشهد أنه رسول الله ، وأومن به وأصدقه وأعرفه ، فقالوا كذبت ·

فقلت لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ألم أخبرك أنهم قوم بهت ، أهل غدر وكذب ، وفجور ، فأظهرت اسلامى واسلام أهل بيتى جميعا ·

ولقد كانوا يكثرون من الطعن فيه ، ويقولون انه من الأشرار عندنا ،

---

(١) وكان اسمه هذا قبل الاسلام ·

وهو الـذى ذكـروا أنه من خيرهم وأعلمهم وأعـدلهم ، ولكنهم يكفـرون بما يعلمون ، ويكتمون ما عندهم ٠

وأما الثـانى وهو مخيرق ، فقـد كان علما من أعـلامهم ، وحبرا من أحبارهم ٠

وكان رجلا ذا مال أعطاه الله تعالى بسطة من العلم والمال ، وكان يعرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بصفته فى التوراة ٠

ولم يكن ممن يجعلون الاعتقاد عنصرية ، بل كان ممن يؤمنون بالحق ، ويعلمون أن الحق أحق أن يتبع ، ويقول ابن اسحاق « غلب عليه الف دينه ، حتى اذا كان يوم أحد ، قال : يا معشر يهود ، والله انكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق ٠

ثم أخذ سلاحه ، فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأحد ، ودخل فى جنده وعهد الى من وراءه من أهله ، فقـال ان قتلت هـذا اليوم ، فأموالى لمحمد صلى الله تعالى عليه وسـلم يصنع فيهـا ما أراه الله سبحانه وتعالى ٠

فقاتل حتى قتل ، فكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول :

مخيرق خير يهود

وقد أسلم فى ساعته الشديدة ، يوم جاءت قريش تريد أن تغزو المدينـة المنورة ثأرا وانتقاما ، فأبى الا أن يكون مع المؤمنين ، فاستشهد فى سـبيل الله تعالى ، فكان خيرا فى ذاته ، وكان خير من فى اليهود ٠

الغـــيرة :

٣٩٧ ـــ صدق الله سبحانه وتعـالى اذ يقـول فى شأن أهل الكتاب عامة ، واليهود خاصة ، منهم أمة مقتصدة ، وكثير منهم سـاء ما يعملون ، ولكن الكثرة هى التى كان لها لجب وصخب ، وهى التى ظهرت بلجاجتهـا ، وعنفها فى الكراهية وحسد الناس ، وهؤلاء هم الذين ظهروا ، وهم الذين ظهر زبدهم ، واستمر ظاهرا ، فهم يكرهون الناس ، أينما كانوا ، وحينما ثقفوا ٠

وقد ذكرنا حالهم بعد غزوة بدر ، وأعمالهم التى كانت أثرا لانتصار أهل الايمان ، فان الخير يجىء الى المحسود ، فيزيد الحاسد بغضا وضراوة ٠

لقد سكتوا فى السنة الأولى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على أثر المعاهدة ، التى عقدها ، والموالاة التى أولاهم بها ، ليكون منهم جماعة مندمجة معه ، وهى على دينها ، ولسان حاله ، يقول لهم « لكم دينكم ولى دين » وليس بيننا وبينكم من بعد الا التواد ، والتعاون على البر والتقوى ، والتناصر على أعداء المدينة المنورة التى يهاجمونها ٠

كان ذلك ، والحسد للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وللذين آمنوا يملأ قلوبهم ، والضغن يأكل صدورهم فاذا كان المؤمنون قد أخلصوا فى ولائهم فأولئك قد أضمروا البغض ٠*

ولما كان الانتصار ، كان أول ثمرات الانتصار فى قلوبهم المدنفة بالحسد أن تحركوا لافساد أهل الايمان وتعاونوا فى ذلك مع المشركين ٠

اجتذبوهم الى النفاق ، فانجذبوا اليه ، وكان منهم منافقون ، والنفاق يسكن القلوب الحاقدة الحاسدة الضعيفة المستكينة ، فكان أول أثر مرير من آثار تلك الغزوة المباركة أن ظهر النفاق ناتئا برأسه ، ويفت فى جماعات المسلمين ، ويعملون على تفريق صفوفهم ويشتد أثر النفاق فى مدة الحروب ، حيث تشتجر السيوف ، وتلتحم الأجسام ٠

ففى غزوة أحد التى كانت فى السنة الثالثة ، كانوا يبثون فى جيش المسلمين روح التمرد والهزيمة ، ويأخذون قلوب الضعفاء من المؤمنين يبثون فيها الذعر ، والخوف ، حتى همت طائفتان من جيش الاسلام أن تفشلا ، كما قال تعالى : « **واذ غدوت من أهلك ، تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ، والله سميع عليم « اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون** » ٠

وهاتان الطائفتان كانتا من المنافقين ، وضعاف الايمان ، فاذا كان المؤمنون فى غزوة بدر قد دخلوا وقلوبهم مستبشرة ، فقد دخلوا فى غزوة أحد ، والمنافقون يبثون فيهم روح التردد والعجز ، ولكن الله سبحانه وتعالى عليه نصر المؤمنين ان لم يأخذوا فى أسباب الهزيمة ، وان استقاموا على الطريقة ، ولم يخالفوا ، وأنه اذا كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يعيش فى المدينة المنورة والمؤمنون من أصحابه يحيط بهم أولئك المنافقون والمفتونون

والحاسدون ، فانه يجب عليه الحذر منهم ، وقد نفذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك بأمر ربه ، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون هاأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ، واذا لقوكم قالوا آمنا ، واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم ، ان الله عليم بذات الصدور ، انتمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ، ان الله بما تعملون محيط** » ، وهكذا نجد حقد اليهود وصدهم قد أفسد النفوس ، وفرق ما بينهم وبين أهل الايمان ٠

ولم يقفوا عند حد العمل على افساد العلاقات الاجتماعية بين الناس ، ومحاولة اضعاف الايمان ، واغراء غير المؤمنين بالنفاق ، حتى شاركوهم بل كانوا يحاولون التشكيك فى قلوب المؤمنين ، لأنهم يودون أن يكفروا حسدا من عند أنفسهم ٠

وكانوا فى سبيل ذلك يسألون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أسئلة معنتة لا لتتبين نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل يرجون من توجيه هذه الأسئلة ألا يجيب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن بعضها ، فيتخذوا ذلك ذريعة للتشكيك ، والقاء الريب فى قلوب المؤمنين ، ولنذكر شيئا من هذه المحاولة ٠

ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن

٣٩٨ — جادلهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالتى هى احسن ، وهو يعلم أنهم يريدون الكيد بالمسلمين والقاء الرعب فى قلوبهم ، رجاء أن يجدوا ثغرة فى الرسالة يطيرون بها فرحا ، ولكن الله سبحانه وتعالى أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يجادلهم ، فقال الله سبحانه وتعالى « **وجادلهم بالتى هى احسن** » لأن ذلك سبيل من سبل الدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ٠

كانوا يسألون ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يجيبهم بما آتاه الله سبحانه وتعالى من علم القرآن الكريم والحكمة ، فيرتد كيدهم فى نحرهم ، وتثبت الرسالة المحمدية ، ويذهب ريب كل مرتاب ٠

لقد سألوه متى تقوم الساعة ، وهم يعلمون من علم الكتاب أن الســاعة لا يعلمها الا الله سبحانه وتعــالى ، ولكنهم سألوا الســؤال ، وهم يعلمون الاجابة ، فيشككون فى أمر البعث الذى يجادل فيه المشركون ، وقد حكى الله سبحانه وتعالى الســؤال والجواب الحكيم الصـــادق ، فقــال الله سبحانه وتعــالى :

« يسألونك عن الساعة ، أيان مرساها ، قل انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الا هو ، ثقلت فى السموات والأرض لا تاتيكم الا بغتة ، يسألونك كأنك حفى عنها ، قل انما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ٠

ولقد كان صيغة السؤال من بعضهم تومىء بالتشكيك فى الرسالة ، فقد قال قائلهم : أخبرنا متى تقوم الساعة ، ان كنت نبيا كما تقول ٠

فأمره الله سبحانه وتعالى بأن يجيب ذلك الجواب الصادق ، ولو كان السؤال ممن لا يؤمن لأن ذلك هو الحق ، والحق أحق أن يتبع ٠

وسألوه عن الروح ، ليعنتوه أيضا ، وليلقوا بالريب فى نفوس المؤمنين فأمره الله سبحانه وتعالى بأن يقول انها من أسرار هذا الوجود الذى لا يعلمه الا الله سبحانه وتعالى ، فقال الله سبحانه وتعــالى فى الســؤال والجواب **« ويسألونك عن الروح ، قل الــروح من أمــر ربى ، وما أوتيتم من العلم الا قليــــلا »** ٠

وان حقيقة الروح لاتزال سرا من أمر الله لا يعلمها أحد ســواه ، نرى مظاهر وجودها ، ولا نعرف حقيقة أمرها ، لقــد عرف ابن الانســان الكون وظواهره ، وأدرك بالاســتقراء الأفلاك ، وأبراجهــا وارتفع ابن الأرض الى السماء ، ووصل الى القمر ، بأسباب المادة ، لكنه الى الآن لا يعــرف حقيقة الروح ولا كنهها ، وان كان يعرف بعض ظواهرها ، وأعراضها ٠

٣٩٩ ـــ وسألوه عن ذى القرنين ما هو وما كان أمره ، وما فعله ، فذكر الله سبحانه تعالى السؤال ، واعلام النبى صلى الله تعالى عليه وســــلم بالجواب فى قول الله سبحانه وتعالى :

« ويسألونك عن ذى القرنين ، قل سأتلو عليكم منه ذكرا ، انا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببا فاتبع سببا ، حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ، ووجد عندها قوما ، قلنا ياذا القرنين ، اما أن تعذب ، واما أن تتخذ فيهم حسنا ، قال اما من ظلم فسوف نعذبه ، ثم يرد الى

ربه فيعذبه عذابا نكرا ، وأما من آمن وعمل صـالحا ، فله جـزءا الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا ، ثم أتبع سببا ، حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا كذلك وقـد أحطنا بما لديه خبرا ، ثم أتبع سببا ، حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا ، قالوا ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ، فهل نجعل لك خرجا ، على أن تجعل بيننا وبينهم سـدا ، قال ما مكنى فيه ربى خير ، فاعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ، آتونى زبر الحديد ، حتى اذا ساوى بين الصدفين ، قال انفخوا ، حتى اذا جعله نارا ، قال آتونى افرغ عليه قطرا ، فما اسطاعوا أن يظهروه ، وما استطاعوا له نقبا ، قال هذا رحمة من ربى ، فاذا جاء وعد ربى جعله دكاء ، وكان وعد ربى حقا » ٠

هذا سؤال قصد به الاعجاز ، واذا عجز محمد عليه الصلاة والسـلام عن الاجابة طاروا فرحا ، وألقوا بالريب فى النفوس ، وذلك ما يقصـدون ، واليه يهدفون ٠

ولكن الاجابة كانت علما غزيرا ، وتتبعا دقيقا لسيرة ذى القرنين ،وما كان له من أعمـال لها أثر وذكر ولسـان صـدق ، وكان ذلك البيان العجيب الصادق مسترعيا لعقول وقلوب الذين يستمعون عليه ، فكان أثر الاجابة حجة لأهل الايمان مثبتا لدينهم الذى ارتضوا ٠

وقد سألوا سؤالا آخر يتعلق بالقرآن الكريم ليشككوا فى أمره ، وهـو حجة الرسـالة المحمدية ، ودليلها الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـه ٠

قالوا أحق يا محمد ، أن هـذا الذى جئت به الحق من عنـد الله ، فانا لانراه منسقا ، كما تنسق التوراة ٠

فقال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « انكم لتعرفون أنه من عند الله ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة ، ولو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به » ٠

فوجهوا السؤال الى ناحية أخرى ، لأن اعتراضهم واهن ، اذ أن نسق القرآن الكريم لا يمكن أن يوزن به نسق التوراة ، ولو كانت هى الألواح العشر التى نزلت على موسى ، فلكل نبى معجزته وآياته ٠

حولوا السؤال الى ناحية أخرى قد توجد شكا ٠ قالوا : يامحمد ٠ أما يعلمك هذا انس ولا جن ؟ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « والله

انكم لتعلمون انه من عند الله ، وانى لرسول الله تجدون ذلك مكتوبا عندكم فى التوراة » ٠

قالوا فى لجاجة ، يا محمد ، فان الله يصنع لرسوله اذا بعثه ما يشاء ، ويقدر منه على ما اراد ، فانزل علينا كتابا نقرؤه ، والا جئناك بمثله ٠

يذكرون بهذا أنهم يستطيعون أن ياتوا بمثله ، فيقول الله سبحانه وتعالى على لسان نبيه : « **قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هـذا القرآن لا ياتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** » ٠

ولسان الحال يقول : ائتوا ان استطعتم ، ولكنكم لا تستطيعون ، وفيصل الأمر أن تأتوا ، ليتبين أمركم ، وينكشف خبىء مكركم وضلالكم ، اذ تسفهون فى أنفسكم بما لم يسفه به المشركون ٠

ويسألون سؤالا آخر يدل على عقليتهم المادية ، وعلى عدم معرفتهم الله سبحانه وتعالى ، وصفاته العلية الذى ليس كمثله شىء وهو العزيز الحكيم ٠

وذلك أنهم كانوا متأثرين بالفلسفة الأيونية التى كانت تؤمن بالأسـباب والمسببات ، ولا تؤمن بغيرها ٠ فالأسـباب العادية جعلوها قانون الوجود ، فكل شىء نشأ بالعلية ، فالوجود الانسانى والخلق كله معلول لعلة ، والعلة سبب عن آخر ، وبهذا أخذت الفلسفة اليونانية ، فيحسبون أن العالم كله نشأ بقـانون العـلية ، عن الأول ، وهو علة لما قبله ، وبذلك يكون التسلسـل لما لا نهـاية ٠

أرادوا أن يظهر عجز النبى صلى الله عليه وسلم بسؤال من هذا النوع ، وتناسـوا أن الله سبحانه وتعالى هو الفاعل المختار ، الفعال لما يريد ، وأن انشائه للكون ، ليس بالسببية أو العلية ، بل أنشاه بارادته المختارة ، وهـذا سؤالهم الذى دل على كفرهم ٠

قالوا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « يا محمد ، هذا الله خـلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ » فغضب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حتى انتقع لونه ، ثم ساورهم غضبا لربه ٠

ولقد كان غضب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأن هذا السؤال كان من اليهود ، وهم أهل كتاب مفروض أنهم يعـرفون الله سبحانه وتعالى ويعرفون صفاته ، وأنه الأول والآخر والظاهر والباطن ، وأنه الفاعل المختار ، القادر على كل شىء ، وليس فوقه شىء ، وهو مبدع الوجود ، بديع السموات والأرض ٠

ولم يقع من العرب مثل هذا السؤال ، فهم كانوا يعرفون أن الله سبحانه وتعالى وحده خالق الوجـود ، وأنه ليس فـوقه أحد ، وانما شركهم فى أنهم كانوا يعبدون مع الله الأوثان التى ابتـدعوها ، وما أنزل الله تعـالى بها من سلطان ، فغضب رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ، لأن اليهود أهل الكتاب أسـفوا فى تفكير الى ما لم ينزل اليه المشركون أهل الأوثان ، وهكذا تذهب اللجاجة فى التعصب الى أن قالوا ما لا يعقلون ٠

ويقول راوى هذا الخبر ، وهو سـعيد بن جبير ، فجاءه جبريل عليه السلام ، وهو غضبان أسفا ، فسكنه وقال له : خفض عليك يا محمد (صلى الله عليه وسلم) وجاءه بجواب ما سألوه عنه : « **قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد** » ٠

كان هذا تنبيها لهم الى ما أسفوا فيه ، ولكنهم نزلوا مرة ثانية عن مرتبة الوثنيين من العرب ، وظنوا الله تعالى مادة كالأحياء ، وتلك بقية من نزعتهم المادية ٠

قالوا : « فصف يا محمد ، كيف خلقه ؟ كيف ذراعه ، كيف عضده » ٠

فغضب رسـول الله صـلى الله تعـالى عليه وسلم كغضبته الأولى ، وساورهم ، فأتاه جبريل الأمين وجاءه بجواب من الله سبحانه وتعـالى عما سألوه ، وهو قوله الله سبحانه وتعالى « **وما قدروا الله حق قـدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون** » ٠

هذه بعض مجـاوبات بين اليهـود الذين لا يتقيـدون بفكر ولا منطق ، ولا علم بكتاب ، ولا ايمان بالله الواحد الأحد ، الفرد الصمد الذى ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يجادلهم ، بالتى هى أحسن ، مع سوء قصـدهم ، اطاعة لقـوله سبحانه وتعـالى : « **ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن** » ٠

نترك الآن اليهود وأثر الانتصار المحمدى النبوى عليهم ، وكيف نافقوا واتجهوا الى الايذاء النفسى بكل ضروبه ، والنبى عليه الصـلاة والسـلام والمؤمنون الذين صابروا فى ميدان القتال ، صابروا اليهود وعلموا شرهم فى ميدان الدس ، والنميمة والخيانة ، والفت فى العضد أو ما يسمى بلغة عصرنا الحرب الباردة ، فصـبروا وانتصروا فى الحالين ، وكان النصر مؤزرا له ما بعده فى تاريخ الاسلام ٠

فى الفترة بين بدر وأحد

٤٠٠ — كانت فيما بين الغزوتين اللتين كان فيهما تعليم للمسلمين فى الحروب ، فالأولى علمتهم أسباب ألنصر ، والثانية أرتهم أسباب الهزيمة ، وأن طاعة القائد الحكيم فيها النصر ، والتقاء القلوب ، وكان الظفر المؤزر من بعد ذلك ، واذا لم يكن انتصار حاسم فى بعض المواقع كحنين فى ابتدائها ، وكبعض الغزوات مع الروم ، فلم يكن انهزام ، ولم يكن خذلان ٠

وانه فى هذه الفترة بعد الانتهاء من الأولى ، والابتداء فى الثانية قد كانت شرائع الاصلاح الاجتماعى بتنظيم التعامل بين الناس ، والاصلاح الاجتماعى ، هو الذى يقيم الجماعة الاسلامية على التعاون الجماعى فوق التعاون الآحادى ٠

اذا كان الاخاء الذى كونه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تأليفا آحاديا ، فقد شرع الله سبحانه وتعالى بعد غزوة بدر الزكاة وهى التعاون الاجتماعى ٠

لقد شرع الله سبحانه وتعالى قبيل غزوة بدر صدقة الفطر ، وهى معاونة من الغنى للفقير والمسكين ، ولا يتجاوز المصرف فيها الفقراء والمساكين ، على ما حققه الأكثرون من الفقهاء ، ومنهم ابن القيم ، كما ذكرنا ، وانه لا تصرف فى كل مصارف الزكاة على ما سنشير من بعد ، ولأنه ورد فى الأثر أن الواجب فى صدقة الفطر ، هو اغناء المساكين عن الحاجة فى ذلك اليوم الذى هو فرحة المسلمين جميعا ، وهو فرحة عيد الفطر ، فيعم الفرح بهذه الصدقة المفروضة على رأى الأكثرين ٠

وأما الزكاة ، فانها تعاون اجتماعى عام يشمل الفقير والمسكين ذوى الخصاصة ، ويشمل غيرهما ممن يكونون فى حاجة اجتماعية وان لم تكن خصاصة ٠

ولقد بين الله سبحانه وتعالى المصارف بقوله الله سبحانه وتعالى : **« انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم »** ٠

فهنا نجد أصنافا ثمانية تصرف لها الزكاة التى يجمعها ولى الأمر فى كل اقليم من الأقاليم ، كما قال عليه الصلاة والسلام « خذها من أغنيائهم ، وردها على فقرائهم » ٠

والمصرفان الأولان الفقراء والمساكين ، وخلاصة ما انتهى اليه الفقهاء من التفرقة بين الفقير والمسكين ، أن الفقير المحتاج ، ولو كان له كسب ، ولكن لا يتكافأ مع حاجاته ، أما المسكين فهو العاجز عن الكسب لعاهة أو لشيخوخة أو لمرض مزمن أو نحو ذلك من الأسباب التى تعجز صاحبها عن الكسب قليلا كان أو كثيرا ، فكلاهما يستحق ، وان كان المسكين أشد استحقاقا ، فان ضاق بيت المال عن الانفاق عليهما معا كان المقدم المسكين ٠

والصنف الثالث من الأصناف الثمانية العاملون عليها ، أى الجامعون لها من الأغنياء الذين يجب عليهم أداؤها ، والذين ينفقونها على مستحقيها ، من بقية الأصناف الثمانية ، وان ذكر العاملين لجمع الزكاة وصرفها فى ضمن المصارف يدل على أن الزكاة تكون لها حصيلة مالية قائمة بذاتها توزن فيها مواردها بمصارفها ، وتكون جزءا منفصلا عن ميزانية الدولة ، ولذلك جعل لها المنظمون لبيوت المال بيت مال للزكاة قائما بذاته ٠ والصنف الرابع المؤلفة قلوبهم ، وهم يدخلون فى الاسلام ، وتؤلف قلوبهم بقدر من المال تثبيتا لايمانهم وليدعوا الى الاسلام قبائلهم ، ويدنوهم الى الاسلام ٠

وهذا مبدأ لم يلغ ، وكذب ما ادعاه بعض الناس من أن عمر رضى الله عنه قد ألغاه ، انما كان عمل الفاروق أنه لم يعطه لناس كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد أعطاهم ، وفعل أبو بكر ما فعل الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجاء عمر رضى الله عنه ومنعهم ، لكيلا يكون حقا مكتسبا ، وليس عطاء لمقصد ، وأجمع الفقهاء على أنه اذ وجد ما يوجبه وجب صرفه ٠

ويصح أن يصرف فى الدعوة الى الاسلام ، كما يصح الصرف من حصة المؤلفة قلوبهم على الذين يدخلون فى الاسلام فيقطعون من ذويهم ، ويضيق عليهم فى أسباب رزقهم ، فيجب أن يعطوا تأليفا لقلوبهم ، وتثبيتا لايمانهم ، ومعاونة لمن يستحق المعاونة ٠

والصنف الخامس — اعتاق الرقيق ، وذلك لأن الاسلام دين الحرية ودين الكرامة والانسانية ودين العدالة الحقيقية ، ودين الاخاء ، فلا يمكن أن يرضى عن أن يكون انسانا مملوكا لغيره ، واذا كانت المدينة فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام والراشدين من بعده هى الصورة الاجتماعية العالية التى

تنفذ فيها أحكام الاسلام كاملة موفورة ، فان الزكاة قد بينت أحكامها فى السنة الثانية ، وأخذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ينفذ فى المجتمع الأحكام الاجتماعية العادلة التى تحمى المجتمع من آفاته ، وان اعتاق العبيد يكون بمعاونة المكاتبين وهم الذين عقدوا مع مالكيهم عقدا على أن يسددوا لهم قيمتهم المالية فى سبيل أن تحرر رقابهم ، فهؤلاء يعانون من الزكاة بما يمكنهم من سداد ما عليهم من المال ، وقد قال الله سبحانه وتعالى « **والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم ، فكاتبوهم ، ان علمتم فيهم خيرا ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم** » •

ويكون منه اعتاق من فى الرقاب بشرائهم وعتقهم ، وقد كان السلف الصالح يفعلون ذلك ، يروى أنه فى عهد الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز كتب اليه والى الصدقات فى افريقية يشكو من أن بيت المال قد اكتظ ، ولا يجد فقيرا يعطيه • فأرسل اليه الحاكم العادل أن سدد الدين عن المدينين • فسددها ، وأرسل اليه يشكو من اكتظاظ بيت مال الصدقات ، فأرسل اليه اشتر عبيدا من عبيد المسلمين وأعتقهم ، وبهذا تلاقى الأحرار على نصرة الاسلام ، فى عهد سيد الأنام محمد علية الصلاة والسلام •

والمصرف السادس ــ الغارمون ، وهم الذين أثقلهم الديون ، وكانوا قد استدانوا فى غير معصية وانفقوا فى غير سرف اذا عجزوا عن سداد الدين ، فان بيت مال الصدقات يسدد الدين عنهم ، رفعا لخسيسهم ، وكذلك يسدد الدين عمن استدانوا لأمر اجتماعى كالاصلاح بين متخاصمين ، أو تحملوا ديات بين المتنازعين فى الدماء ، فان بيت المال يعاونهم على سداد ما عليهم من ديون ، ولو لم يكونوا عاجزين ، لكى يتقدم أهل المروءة لاصلاح ذات البين ، ولتخفف عنهم المغارم ، فى هذا السبيل •

وانه يجب المقارنة فى هذا بين شريعة الله تعالى التى نزلت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقانون الرومان الذى كان يعاصر نزولها فانه بينما كان ذلك القانون يبيح فى بعض عصوره أن يسترق الدائن المدين اذا عجز عن السداد ، جاءت الشريعة بمعاونة المدين فى سداد دينه ، وذلك فرق ما بين شريعة الله وشريعة الانسان •

والمصرف السابع ، هو معاونة ابن السبيل ، وهو من كان غريبا لا مال فى يده ، وان كان له مال فى بلده ، فانه يعان من بيت مال الصدقات ، حتى يثوب ، ويصح لبيت المال أن يعنيه بالمال ، دينا عليه ، حتى يعود الى أهله اذا كان ذا مال يستطيع السداد منه من غير ارهاق ولا مشقة ، والأصل أن تكون المعونة تمليكا لا أن تكون دينا •

والمصرف الثامن هو الانفاق فى سبيل الله تعالى ، وهو الانفاق فى الجهاد ، فللجهاد قدر فى مال الزكاة يعادل الثمن أو أكثر على حسب حاجة الجند فى عتادهم والانفاق عليهم ٠

وبعض العلماء يقول ان كلمة فى سبيل الله تشمل كل ما يكون من المنافع العامة ، مثل انشاء الجسور وتعبيد الطرق ، وقد قال ذلك القفال الشاسى ، على أن يدخل ذلك فى المصرف الثامن ، لا أن تدخل فيه كل المصارف السابقة ، كما فهم بعض الذين يحاولون تعطيل تلك الفريضة الشرعية وهى فريضة الزكاة ٠

المعاقل والديات

١٠٤ ـ ذكرنا أنه فى الفترة بين الغزوتين الكبيرتين كان اصلاح اجتماعى عملى واسع النطاق فانه قبل غزوة بدر كان الاصلاح النفسى بالصلاة والصوم ، والاجتماعى المحدود ، بصدقة الفطر ، وما كان الاصلاح النفسى الا لتتآلف النفوس بالقرب من الله سبحانه وتعالى ، والشعور بجلاله وعظمته ، فمن قرب من الله رحم عباد الله ، ومن رحم عباد الله ائتلف معهم ، وكان معهم قوة مصلحة ، رافعة دعائم الحق والخير ٠

وكانت الزكاة من بعد ذلك اصلاحا عمليا يؤخذ بقوة الحاكم الذى يستمد السلطان من الله سبحانه وتعالى لا بمجرد الرغبة والاختيار ، وان الثواب على مقدارهما ٠

وكانت هذه الفريضة من دعائم المدينة الفاضلة ٠

ولكن المدينة الفاضلة يجب أن تكون فيها الزواجر الاجتماعية التى تحمى الفضيلة ، لأن فضيلة الاسلام ايجابية ، فيجب أن يكون لها من القوة ما تدفع به الرذائل ٠

وكما أن القوة الحربية فى الدولة لحمايتها من الاعتداء ، فالزواجر الاجتماعية من الحدود والقصاص هى القوة التى تحارب بها الرذائل ٠

ولقد ذكر ابن جرير الطبرى أنه فى السنة الثانية من الهجرة شرعت المعاقل أى الديات ، واذا كانت الديات والمعاقل قد شرعت ، فانه قد شرع

القصاص فى النفس وفى الأطراف ـ وذلك لأن الديات قصاص معنوى ، عند عدم استيفاء القصاص صورة ومعنى بالقتل قصاصا أو قطع الأطراف ٠

فالقصاص قد شرع وجوبه فى السنة الثانية ، اذ نزل قول الله سبحانه وتعالى : « **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف ، وأداء اليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم ، ولكم فى القصاص حياة ، يا أولى الألباب لعلكم تتقون** » ٠

وان ذلك بلا ريب اصلاح اجتماعى خطير ، لأنه يحمى الانسان من أخيه الانسان ولأنه بقيام القصاص تكون حياة كريمة آمنة لا اعتداء فيها ولا افساد ولأن ذلك ابطال للعادات الجاهلية التى كان فيها الألف بالواحد ولا يقتل قاتل الكبير ، بل يقتل من يرى أهله أو قبيله قتله ممن يحسبون أن يكون له كفئا ، ولا يرضون أن تكون النفس بالنفس ٠

ولقد كان فى القصاص قتل لروح الحسد والحقد فى النفس ، أو تخفيف لآثار الحسد ، أو حمل للحسود على أن يضبط نفسه ، اذ يرى العقاب يترصده ، ولقد قال الله سبحانه وتعالى أثر الحسد الذى حمل قابيل على أن يقتل هابيل أخاه التقى الذى تقبل الله سبحانه وتعالى قربانه « **من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه منقتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا** » ٠

وان أحكام الديات بأنواعها كما ذكرنا تابعة لأصل الحكم بالقصاص فى هذه الآية ، وقد بينت آية القصاص فى التوراة أن شريعة النبيين فى التوراة القصاص واستمرت فى الاسلام ، فقال الله سبحانه وتعالى فى سورة المائدة «**وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** » ٠

وبهذا يتبين أنه فى الفترة بين الغزوتين كان الاصلاح الاجتماعى باقامة العدل بين الناس ، وسن سنة القصاص ، وبيان الديات ، حيث لا تتوافر شروط القصاص ، أو حيث لا يمكن ، والله سبحانه وتعالى أعلم ٠

بناء على بن أبى طالب بفاطمة رضى الله عنهما :

٢٠٤ — فى هذه السنة بعد غـزوة بدر بنى على بن أبى طالب كرم الله وجهه بفاطمة الزهراء رضى الله تبارك وتعالى عنها وصلى الله وسلم على أبيها سيد الخلق أجمعين ·

وقد روى البخارى بسنده فى ذلك عن على بن أبى طالب رضى الله عنه : قال : كان لى شارف من نصيبى من المغنم يوم بدر ، اذ كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد أعطانى شـارفين مما أفاء الله من الخمس يومئذ ـ فلما أردت أن أبنى بفاطمة بنت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، واعدت رجـلا صواغامن بنى قينقاع أن يرتحل معى فنأتى بأذخر (نبات نفيس بالصحراء) فأردت أن أبيعه من الصواغين ، فأستعين به فى وليمة عرسى ، فبينا أنا أجمع لشارقى من الأقتاب والغرائر والحبال ، وشارفاى مناخان الى جنب حجـرة رجل من الأنصار ، حتى جمعت ما جمعت فاذا بشارفى قد أخبت (أى قطعت) أسـنمتها ، وبقرت خواصرها وأخـذ من أكبادهما فلم أملك عينى حين رأيت المنظر ، فقلت من فعل هذا ، قالوا فعله حمزة بن عبد المطلب ، وهو فى هـذا البيت فى شرب من الأنصـار ، وعنده قنيته وهى تغنيه ، وجـاء فى غنائها : « ألا يا خمر للشرف النواء ··· فانطلقت حتى دخلت على رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم ، وعنده زيد بن حارثة ·· فقلت يا رسول الله ما رأيت كاليوم ، عدا حمزة على ناقتى فأجب أسنمتها ، وبقر خواصرها ، وها هو ذا فى البيت مع شرب (أى ندامى يشربون الخمر) ، فدعا الى ردائه ، فارتداه ، ثم انطلق يمشى ، واتبعته أنا وزيد بن حارثة حتى جاء البيت الذى فيه حمزة ، فاستأذن ، فأذن له ، فطفق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، يلوم حمـزة فيما فعل ، فاذا حمزة ثمل محمرة عينه فنظر الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثم صعد النظر فنظر الى ركبتيه ، ثم صعد النظر ، فنظر الى وجهه ، ثم قال : وهل أنتم الا عبيد لأبى ، فعرف النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم أنه ثمل فنكص على عقبيه القهقرى ، فخرج وخرجنا معه · هذا لفظ البخارى فى روايته ·

سقنا هذا الخبر لأن فيه خبرا عن زواج فارس الاسلام على بن أبى طالب وقد كان يناهز الرابعة والعشرين من عمره ، وانا نتيمن دائما بذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وآله الأبرار ·

والخبر يدل فوق ذلك على أمور :

أولها : أن عليا المجاهد العظيم ، ما كان عنده مال لعرسه ، فخرج يجمع

المال من جوف الصحراء ليستعين بجهده على ذلك ، وهو ابن عمه ، وربيبـه الذى رباه .

ثانيا : أنه يصرح بأن الناقتين من نصيبه فى الخمس الذى كان للنبى صـلى الله عليه وسـلم وآله ، فدل هـذا على أن أنفال بدر خمست ولم تـوزع بالتساوى ، كما ادعى أبو عبيد فى كتابه الأموال .

وثالثها : أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذا الوقت المثير ، لم ينس الاستئذان ، فاستأذن على الشرب .

ورابعها : ما تفعله الخمر فى النفوس ، فمحال أن يصدر عن أسـد الله حمزة فى صحوه ما صدر عنه .

وخامسها : أن الخمر لم تكن حرمت تحريما قاطعا ، ولم يكن قد تبين حكمها بيانا شافيا .

وانها تغرى بالعـداوة والبغضـاء ، وكادت توجـد العداوة بين عـلى وحمزة ، والنبى صـلى الله تعـالى عليه وسلم وحمـزة ، لولا أنهم الحكماء الأبـرار .



حروب فى الفترة

بين الغزوتين الكبيريين

٤٠٣ — بعد غزوة بدر الكبرى كان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرف ما حوله من القبائل ، ويسير اليهم ، فبعد سبع ليال من قفوله الى المدينة المنورة كما قال ابن اسحاق اتجه الى بنى سليم ، فذهب اليهم ، وبلغ ماء من مياههم اسمه الكدر ، فأقام ثلاث ليال متعرفا أحوالهم ، وبيئتهم ، ثم عاد ، ولم يلق كيدا وأقام بالمدينة المنورة ، وكان ذلك فى شوال من السنة الثانية للهجرة ، وتسمى غزوة الكدر ٠

وقد كانت من جولات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى القبائل يتعرف أحوالهم ، ويعرف من يلقاه بالدعوة الاسلامية ، فهذه تسميتها بالغزوة هى وأشباهها ، لا يعنى الحرب ، ولكن هى نشر الدعوة ، والاستعداد لما يكون من بعد ٠

وكان كلما خرج خرجة من هذا النوع وغيره ، أقام فى المدينة المنورة من يخلفه عليها ، لا يختص أحداً دون غيره ٠

غزوة السويق

٤٠٤ — فى ذى الحجة كانت غزوة السويق :

وسببها أن رجوع فلول جيش قريش المهزوم قد أرث حقد كبراء قريش الذين بقوا من معاندى النبوة ، ومحاربى الدعوة المحمدية الى التوحيد ، وهجر الأوثان ، وعبادة الرحمن وحده ٠

وأخص من تألم منهم أبو سفيان الذى آلت اليه زعامة الشرك بعد أبى جهل ، وعقبة بن أبى معيط ، وقد كان أظهر قواد المشركين فى بدر ٠

نذر أبو سفيان ألا يمس الماء رأسه من جنابة حتى يغزو محمدا عليه الصلاة والسلام ، وقد كانت رهبة من المسلمين شديدة اثر الهزيمة المنكرة التى منى بها قومه ، وقتل الأشياخ منهم ، فأورثهم ذلك فزعا وخوفا مع الرغبة الشديدة فى الانتقام ٠

ومع هذه الحال أراد التحلة من يمينه ، فخرج فى مائتى راكب من قريش، فسلك الطرق النجدية ، فنزل بصدر قناة الى جبل يقال « يثب » ، يقرب من المدينة المنورة ثلاثة فراسخ ، ولكنه لم يتجه الى أحد من المسلمين حتى يتصل بيهود بنى النضير الذين كانوا يجاورون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى المدينة المنورة ، وقد علم ما كان يسكن نفوسهم من احن وبغض للمسلمين مع العقد الذى بينهم ، ويظهر أنهم كانوا معهم على مودة كونتها عداوة المسلمين عامة ، وعداوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خاصة ٠

التقى أبو سفيان ببنى النضير ، تحت الليل ، فأتى حيى بن أخطب فضرب عليه بابه ، فلم يفتح له ، ودفعه الحرص ألا يعاونه ، فانصرف الى سلام ابن يشكم ، وكان السيد على بنى النضير فى زمانه ، وصاحب كنزهم الذى اكتنزوه ، فقرى أبا سفيان ، وأخبره ما كان خفيا عليه من أخبار المؤمنين ٠

خرج أبو سفيان من المدينة المنورة بعد أن عرف من أسرار المسلمين ما كان يعلمه بنو النضير ، فأرسل رجالا ممن معه حتى أتوا ناحية من المدينة المنورة يقال لها العريض ، فحرقوا النخيل ، وخربوا ، ثم وجدوا بها رجلا من الأنصار ، وحليفا فى حرث يزرعونه ، فقتلوهما ، وانصرفوا راجعين هاربين ، غير مقاتلين ، وتخففوا مما يحملون ، حتى يسهل الهرب ، وتركوا أزوادا مما تزودوا بها ٠

علم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان أشد حرصا وسبقا الى الفزع والهيعة اذا تنادوا بها ، فخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأقام على المدينة المنورة أبا لبابة ٠

فسار حتى بلغ الكدر ، ولكن كان أبو سفيان ومن معه قد أمعنوا فى الهرب فلم يدركوه ، ولكن وجدوا زاد جيشه الذى كان يبلغ نحو المائتين ٠

وكان أكثر مما تركوا سويقا من أزوادهم ، فأخذ المسلمون سويقا كثيرا ، وجدوا فيه غذاء طيبا ٠

ولذا سميت الغزوة ذات السويق ٠

وقد كانت نتيجة هذه الغزوة ارهابا شديدا للمشركين ، واشعار أولئك الأعداء باليقظة من جانب أهل الايمان ، والحذر من الا يؤخذوا على غره ٠

وكان من نتيجتها أيضـــا أن علم المشركون أن الطريق لهم ولمالهم غير الهزيمة ، وأحسوا بذلك أن الاسلام صار قوة للحق لا ينال منه بغرة ، واذا كانوا قد قتلوا اثنين فى حرثهما ، فما كان ذلك منالا لأبطال ٠

★★★

غزوة ذى أمر

٥٠٤ ــ أقام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد غزوة السـويق بالمدينة المنورة بقية شهر ذى الحجة يدبر أمر المسلمين وينفذ أحكام القرآن الكريم ٠

ولم يلبث الا قليلا حتى اتجه الى تعرف أحوال البلاد العربية ، واتجه الى نجد التى كان قد أتى من طريقها جيش أبى سـفيان الذى فاز بقتـلى الحرث ، ولم يظفر بمقاتل ، فكان مخربا لا محاربا ، ثم فر هاربا ٠

غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم نجـدا يريد غطفان ، وخلف على المدينة عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ٠

ولقد ذكر الواقدى فى تاريخه ، فقال : « بلغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن جمعا من غطفان من بنى ثعلبة تجمعوا بذى أمر يريدون حربه ، فخرج اليهم من المدينة المنورة يوم الخميس لثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من العام الثالث ، واستعمل على المدينة المنورة عثمان بن عفان ٠

وكان معه أربعمـائة وخمسـون رجلا وهربت الأعراب ، فى رءوس الجبال حتى بلغ ماء يقال له ذو أمر فعسكر به ، ولم يمكث فى هذه الغزوة أكثر من أحد عشر يوما وعاد ٠

ويذكر الواقدى فى هذه الغزوة أن المسلمين أصابهم مطر كثير ، ابتلت منه أثواب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنزل تحت شجرة نشر عليها ثيابه لتجفف على مرأى من المشركين الذين شغلهم خوفهم وهربهم ٠

ولكن رجلا مندفعا منهم يقال له غورث بن الحارث أغروه بأن يقتـل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو فى أمنه ، فيأخذه على غرة ٠

فذهب ذلك الرجل الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومعه سيف صقيل ، حتى قام على رسول الله عليه الصلاة والسلام شاهرا السيف عليه ، وقال : « يا محمد من يمنعك منى ؟ قال رسـول الله صـلى الله تعـالى عليه وسلم : الله ، فوقع السيف من يده ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وقال : من يمنعك منى ؟ قال : لا أحد ، وأنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، والله لا أكثر عليك جمعا أبدا ٠

ذكر هذه القصة الواقدى فى تلك الغزوة وهى غزوة ذى أمر ، ولكن البيهقى ذكر فى غزوة ذات الرقاع قصة تشبه هذه ، وحمل السيف منسوب الى غورث ٠

وبعضهم يقول انهما قصتان ، ولكن يلاحظ ابن كثير أن غورث المنسوب اليه حمل السيف واحد فى الروايتين ، فلا يمكن أن تكون ثمة واقعتان الا اذا فرضنا أن غورث هذا لم يسلم ، ولم يعط عهدا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأن لا يكثر عليه جمعا أبدا ٠

والله تعالى أعلم بالحق فى الأمر ٠



غزوة الفرع من بحران

٤٠٦ — كانت قريش لا تريد أن يعيش محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من المؤمنين فى أمن ، وما كان يمنعهم من الاغارة على المدينة المنورة الا أنهم فى غب هزيمة ، وهى توجد الفزع ، فكان الخوف يردهم عن غاياتهم ٠

والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يعمل على تتبع أحوالهم ، وتقصى أخبارهم ، ونقص الأرض عليهم من أطـرافها ، وهو يريد بهذا مع تخويفهم أن يتعرف أحوال قبائل العرب ، وينشر نور الاسلام متنقلا فى أحياء العرب وقبائلهم فى منتجعاتهم ، ومتعرفا أرضهم ٠

لذلك خرج من المدينة المنورة تاركا عليها ابن أم مكتوم ، وسـار يريد قريشا ، حتى بلغ بحران ، وهو معدن من ناحية مكان بقال الفروع ٠

ذهب الى ذلك المكان فأقام به شهر ربيع الآخـر ، وجمادى الأولى ، وهو فى هذه المدة يدرس حال القبائل ويتعرف حالها ، ويدعو الى الاسـلام فى ربوعها ، غير وان ولا مقصر ، فذلك عمله الذى بعث له ٠

فما كان مبعوثا لأجل الحـرب ، وانما كان مبعـوثا لأجل الهـداية ، والحرب كانت لحمـاية الدعـوة من الأذى ، ولمنع الفتنة فى الدين ، ولفتح الطريق لها ٠

ولذلك لا يصح لأحد أن يعترض فيقول اذا كان لم يلق كيدا ، ولا حربا ولا عيرا ولا فقيرا فلماذا يترك المدينة المنورة تلك المدة التى ليست قصيرة ، لأن الغاية نشر الاسلام ، لا مكيدة حرب ولا مصادرة مال ، فالغاية هى نشر دعوة التوحيد ٠

تكشف الوجه اليهودى فى قينقاع

٤٠٧ ــ ذكرنا بايجاز ما كان يقوم به اليهــود ، من اثارة للريب فى قلوب المسلمين ، وما كانوا يحاولون به أن يثيروا روح التردد والهزيمة فى المجاهدين ، وما ملأ قلوبهم من غيظ بعــد غزوة بدر الكبرى ، وكيف علمــوا الوثنيين الحقد وسبقوهم اليه ، وكيف أخــرج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المنافقين من المسجد ، عندما رآهم يهمزون ويلمزون ذكرنا ذلك ، ولكن طائفة منهم تكشف غيظهــا ، ولم تخف أمرها ، لأنها كانت تعيش فى وسط المدينة المنورة مع المسلمين ، ولم تكن فى أطرافها ، وأولئك هم بنو قينقاع ٠

ولقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا على أن يدعوهم الى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ، تاركا ما يعرف من أن قلوبهم تنضح بالحقد يبدو على ألسنتهم ، فالداعى الى الحق لا ينى عن الدعوة اليه ، ولو كان من يدعوه يهوديا لا يؤمن بشىء ، ولا يرضى الا بالخبال للمؤمنين ٠

التقى بهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بسوق قينقاع فحدثهم حــديث الجار لجاره الذى عاهده يدعوه الى الرشــد ، قال عليه الصــلاة والســـلام لهم : « يا معشر يهود ، احــذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا ، فانكم قد عرفتم أنى نبى مرسل ، تجدون ذلك فى كتابكم ، وعهد الله تعالى اليكم » فأجابوا هذا الحديث الرشيد الودود بكلام فيه جفوة وحدة قائلين :

يا محمــد ، انك ترى أنا قومك ، لا يغــرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منها فرصة ، وانا والله لئن حاربناك لتعلمن أننا الناس ٠

لقى النبى صــلى الله تعالى عليه وســلم ذلك الجواب المرعــد المنذر بالاغضاء ، فما كان يحارب المعتدى بالقول ، ولكن كان يحارب الفعال ٠

وذكر ابن اسحاق أن الله تعــالى قد أجاب عنه بقــوله سبحانه وتعالى : **« قــل للــذين كفــــروا ســــتغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد ، قــد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله ، وأخــرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشــــاء ، ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار »** ٠

وهذه الرؤية المضاعفة كانت حال اللقاء فى الحرب ، اذ كانوا يرون أنفسهم رأى أعينهم مثل المؤمنين ، والله تعالى هو الذى يؤيد بنصره من يشاء قلة كانوا أو كثرة ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ٠٠

ولكن بنى قينقاع لم يقفوا عند حد القول ، فى بث روح التفرقة والشك فى أنفسهم ، بل انتقلوا من الاساءة بالقول الى الاساءة بالفعل ، وهم على كثب من المسلمين ، وكانوا يجاهرون بنقض العهد وأنهم لا يحترمونه ، ويتناولون النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالذم ، والأذى ٠

ولقد قال ابن اسحاق : ان امرأة من المسلمين قدمت تبيع فى سوق بنى قينقاع ، وجلست الى صائغ ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ الى طرف ثوبها فعقده الى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ الماجن فقتله ، وكان يهوديا ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون ، فكان الشر بينهم وبين بنى قينقاع ٠

عندئذ كان لابد من الحرب دفاعا عن الفضيلة وعفة النفس ، وقد نقضوا العهد بأقبح طريقة ٠

موقعة بنى قينقاع :

٤٠٨ ــ أخذ بنو قينقاع من قبل ما حدث مع المرأة ، وما كان من تهديد يتطاولون على المسلمين بالسب والأذى ، والتحامل ، وعدم صون لسانهم عن المسلمين والاسلام ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يصابرهم ويوفى بعهدهم ، حتى كان منهم القتل ٠

حاصرهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى ديارهم ، وأقام على المدينة المنورة فى أثناء محاصرته لهم التى دامت خمس عشر ليلة بشير ابن عبد المنذر وهو أبو لبابة ٠

ولما اشتد الحصار عليهم واستطال ، نزلوا على حكم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ فأجلاهم ، ولم يقتلهم ، وقد كانوا حلفاء الخزرج الذين منهم رأس المنافقين عبد الله بن أبى ، كما كان منهم عبادة بن الصامت ، وقد

ناصرهم ابن أبى ، وتعرض للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال رأس النفاق :

يا محمد أحسن فى موالى ، فأبطأ عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : يا محمد أحسن فى موالى فأبطأ عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال يا محمد أحسن فى موالى ، ومع تبجحه فى نداء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من غير وصف الرسالة ، اذ غلبه النفاق فى النداء ، فبدأ فى لحن قولهم ، كما قال الله سبحانه وتعالى : « **ولتعرفنهم فى لحن القول** » مع هذا التبجح تجرأ فوضع يده فى جيب درع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أرسلنى ، وغضب حتى رأوا لوجهه ظللا ، ثم قال ويحك أرسلنى ، قال المنافق : « والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى أربعمائة حاسر (١) ، وثلاثمائة دارع (٢) قد منعونى من الأحمر والأسود ، تحصدهم فى غداة واحدة ، انى والله امرؤ أخشى الدوائر » وكأنه حسب أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سيقتلهم ، والنبى عليه الصلاة والسلام أراد اجلاءهم • ولم يرد قتلهم ، فقال له : هم لك ، أى أنه يجليهم ، ولا يقتلهم ، لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم دفع شرهم بأقل ضرر ينزله بهم •

هذا موقف رأس النفاق ، أما موقف المؤمن عبادة بن الصامت ، وهو حليفهم مثله ، فانه قال : « أتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وابرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم •

ذانكم رجلان مؤمن ومنافق •

يقول ابن اسحاق ان فى ابن أبى وعبادة نزل قول الله سبحانه وتعالى : « **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فانه منهم ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين ، فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده ، فيصبحوا على ما اسروا فى أنفسهم نادمين ، ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين اقسموا بالله جهد ايمانهم انهم لمعكم ، حبطت اعمالهم فاصبحوا خاسرين ، يأيها الذين آمنوا من يرتد**

---

(١) الحاسر : الذى لا درع له •

(٢) الدارع : لابس الدرع •

منكم عن دينه ، فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم ، انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم راكعون ، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون » .

واذا صح أن الآيات الكريمات نزلت لمناسبة موقف رئيس المنافقين ، ورجل مؤمن من المؤمنين ، فان الآيات فيها وصف عام ، لمن يكون ولاؤهم ، لله ومن يكون ولاؤهم لغيره .

وان أمر بنى قينقاع قد انتهى باجلائهم ، وطهرت المدينة المنورة من أرجاسهم ، وما كان ذلك اعتداء من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل كان ذلك لرد اعتدائهم ، ولنقضهم للعهد ، ولأنهم صاروا جيران سوء ، يحق اجلاؤهم ليسلم الناس من فسادهم .

سرية زيد بن حارثة

٤٠٩ ــ بعد غزوة بدر ، وما أصاب قريشا فيها ، خافوا طريق المدينة المنورة فى وصولهم بمتاجرهم الى الشام فاختاروا طريقا حسبوه أسلم من هذا الطريق وان كان أطول ، فاختاروا طريق العراق وهو طريق مع بعده لم يكونوا من قبل يسلكونه ، فلم يعرفوا مسالكه ؟ فاستأجروا رجلا من بنى بكر بن وائل حليف بنى سهم ليكون لهم دليلا ، وليستمدوا من حلفه أمنا لهم .

ولكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الذى كان يتعرف الصحراء وطرائقها علم بمسلكهم ، فبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليهم زيد بن حارثة ، يتتبع مسالكهم ، فلم يفلتوا منه ، ولقيهم على ماء يقال له ماء القردة ، وهم يستسقون ، فأصاب العير ، فأحضرها الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقسمت غنائم ، ولكن الرجال الذين كانوا يصحبون العير قد نجوا بأنفسهم فارين .

ويقول الواقدى فى تاريخ هذه السرية ، والعلم بالعير « كان خروج زيد بن حارثة فى هذه السرية فى مستهل جمادى الأولى على رأس ثمانية وعشرين شهرا من الهجرة (فى السنة الثالثة) وكان رئيس العير صفوان

ابن أمية ، وكان سبب بعثة زيد بن حارثة أن نعيم بن مسعود قدم المدينة المنورة ومعه خبر هذه العير ، وهو على دين قومه ، واجتمع بكنانة بن أبى الحقيق فى بنى النضير ، ومعهم سليط بن النعمان ، فشربوا فتحدثوا بشأن العير ٠٠٠ فخرج سليط من ساعته ، فأعلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبعث من وقته زيد بن حارثة ، فلقوهم فأخذوا الأموال ، وأعجزهم الرجال وانما أسروا رجلا أو رجلين ، وقدموا بالعير ، فخمسها ، فبلغ خمسها عشرين ألفا ، وقسم أربعة أخماسها على السرية ٠ وكان فيمن أسر الدليل فرات بن حيان ، فأسلم رضى الله عنه » وان هذا الخبر ، يعين الوقت ، ويذكر طريق العلم بهذه العير ٠

وانى أرى أن خبر نعيم الذى وصل الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى حينه كان من أحد طرق المعرفة ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقظا عالما بما يفعل قريش من أوقات متاجرهم وخروجها الى الشام ، وميقاته ، وخروجها الى اليمن وميقاته ، فقد كانوا يألفون مواعيد معلومة يعدون فيها المتاجر ، والله سبحانه وتعالى قد أعلم بما يألف قريش ، فقال : **« لايلاف قريش ايلافهم ، رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع ٠ وآمنهم من خوف » ٠**

فالنبى لابد أن يكون بفراسة المؤمن يعلم أنهم سيخرجون فى تلك الوقت وانهم اذا لم يمروا به ، فانهم لابد أن يمروا بطريق آخر ، وهو طريق العراق فجاء الخبر ، متفقا مع ما نحسب أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد حسبه والله أعلم ٠

كعب بن الأشرف اليهودى

٤١٠ ــــ هذه حال فردية ولكنها ذات صلة بسير الحروب ، بين أهل مكة المشركين والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما كان يقوم به اليهود فى هذه المعارك آحادا وجماعات من تحريض للمشركين وتخذيل للمؤمنين ، وبث روح التردد والهزيمة فى أهل المدينة المنورة ، واثارة الحروب فى مكة المكرمة ، وكلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله سبحانه وتعالى ٠

وكان كعب بن الأشرف يقوم فى ذلك بأعمال خطيرة ، تؤجج النيران ضد المؤمنين ، وذلك كعبا من طيىء ، وأمه من بنى النضير ، وظاهر حاله أنه لم يدخل فى عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يقف من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولا المؤمنين موقف المسالمة أو يعتزل ، فلم يكن مع

هؤلاء وأولئك ، بل أظهر العداوة ، وعمل تحت سلطانها ، وبدا ذلك فيما يأتى :

(أ) أنه لما علم بمقتل المشركين من أهل بدر ، أعلن غضبه على المؤمنين قال : « لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها ، وبذلك أعلن العداوة المكنونة فى نفسه ، وماذا يصنع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع عدو أظهر عداوته ، ولم يكن له عهد مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

(ب) أنه كان يهجو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ويشدد فى الهجاء ، غير ملاحظ كرامة ، ولا حرمة ، بل كان منخلعا من كل عهد ، ومن كل فضيلة ، وكان كالذين آذوا موسى من اخوانه اليهود ، وهو متحلل من كل مروءة ٠

(جـ) انه قدم المدينة المنورة يعلن عداوته للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ويجاهر بها ، ويحرض اليهود على المؤمنين ، ويلقى بالشر والفتنة بين المؤمنين من غير حريجة من خلق أو دين أو عهد ، وجعل يشبب بنساء المؤمنين ، ويشيع قالة السوء عن فضليات هؤلاء النساء ٠

(د) وكان يحرض يهود على أن تنقض عهدها مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه كان بأفعاله يجرىء كل من لم يؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام على الخروج عليه ، وشن الحرب ، ولم يترك بابا من أبواب الكيد ، الا دخل اليه ، وليس له أهل يرد عليهم فيمنعوه ، بل هو منفرد بأعماله مقيم فى حصن ، لا ينتمى الى بنى النضير الا من جهة أمه ، ولا تسرى عليه عهودهم ٠

(هـ) انه لم يقف عمله عند العداوة والبغضاء ، واشاعة الفساد ، وتحريض يهود ، بل انه تجاوز ذلك ، اذ ذهب الى مكة المكرمة ، واستعدى قريشا ، فنزل على الذين أوذوا فى غزوة بدر ، وأخذ يحرضهم على قتال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وربط حباله بحبالهم ، ونفسه بنفوسهم ، حتى لقد قال له أبو سفيان من فرط ما امتزجت نفوسهم به : « أناشدك أديننا أحب الى الله أم دين محمد وأصحابه ، وأينا أهدى فى رأيك ، وأقرب الى الحق ، اننا نطعم الجزور الكوماء ، ونسقى اللبن على الماء ، ونطعم ماهبت الشمال » فقال له كعب اليهودى الكتابى أنتم أهدى سبيلا ، وقال الله سبحانه وتعالى فى كتابه : « **ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أولئك**

الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ، أم لهم نصيب من الملك ، فاذا لا يؤتون الناس نقيرا أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملكا عظيما » ٠

وهكذا قد بدت العداوة من افواهم ، والتحريض من أعمالهم ، وارادة الفساد ، واشاعة الفاحشة بين المؤمنين من تصرفاتهم ، وكان كعب المثل الواضح فى ذلك ، وكان يقول القصائد محرضا المشركين على المؤمنين ، ويقول فى شعره محرضا قريشا :

طحنت رحى بدر لمهلك أهله	ولمثل بدر تستهل وتدمع

ويقول فى التحريض من هذه القصيدة :

ويقول أقوام أسر بسخطهم	ان ابن أشرف قل كعبا يفزع
ويقول : نبئت أن بنى المغيرة كلهم	خشعوا لقتل أبى الحكم وجدعوا
وابنا ربيعة عنده ومنبه	ما نال مثل المهلكين وتبع
نبئت أن الحارث بن هشامهم	فى الناس يبنى الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وانما	نحمى على الحسب الكريم الأروع

وهكذا يحرض على القتال ، ويرثى القتلى بعبارات تؤجج نيران الحقد ليدفعها الى الثار ٠

٤١١ ــ هذا ما يفعله الرجل اليهودى المنطلق من كل العهود والمواثيق ، أيسكت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو المحارب الحذر الذى يهجم على مداخل الأذى قبل أن يلج منه العدو ، أم يعلنها على قومه أو من ينتمى اليهم من بنى النضير ، وأكثرهم لم ينالوا المؤمنين بمثل ما نال ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، والنبى عليه الصلاة والسلام لا يعلن الحرب الا على من أعلنها ، ولما يعلنوها ٠

أم يسكت ويترك الشر يستشرى ، ويحاكيه فى أفعاله بقية يهود ، لاشك أن آخر الدواء الكى ، أنه لابد أن يجتث الداء فى موضعه ، ولا يتركه حتى يفسد الجسم كله ، ولا منجاة حينئذ ، لم يبق الا أن يقتل كعبا حسما لمادة الفساد ، وما السبيل لدفع شره غير القتل ، انه لا سبيل الا هو ، وأن يقضى

على الداء ، أن يعلن عليه النبى عليه الصلاة والسلام الحرب ، وهل تعلن الحرب على واحد ، لقد قلنا ان من ينتمى اليهم لم يكن منهم مثل ما فعل .

فلم يبق الا أن يقتل ، وأن يدعو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من يتولى قتله فى مأمنه ، وقد اتخذ حصنا يأوى اليه ، فحرض عليه الصلاة والسلام من يقتله من غير ضجة ، ولا ازعاج لأحد من الآمنين ، ولقد انتدب لذلك من رأى فى نفسه القدرة من الصحابة ، واستأذنوا الرسول فى أن يخدعوه بالقول فأذن .

ولقد وجدنا من الغربيين الذين يكتبون فى تاريخ الاسلام من أثاروا زوبعة حول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . وكيف يأمر بالقتل غيلة ، وهو نبى مرسل ، قالوا ذلك ، ونسوا أنه نبى محارب لا يدعو الى الاستسلام للشر ، بل يقاومه ، ويحتاج لحماية الناس من الدماء ، وانه بمقتضى حكمة النبوة يجب أن يدفع الضرر الكثير بالضرر القليل ، وانه فى سبيل أن تحقن الدماء فى القتال يجب منع أسبابها ، وان الذى كان يثير الحرب جذعا هو واحد وقتل واحد شرير خير من قتل جماعة فى ميدان الحرب ، فهو كان يحرض على الحرب .

قالوا ان القتل كان غيلة ، ونحن نقول فى ذلك ان الرجل جاهر بالعداوة ، وشبب بنساء المسلمين ، وحرض اليهود على الانقضاض على المؤمنين ونكث العهود . ولم يكتف بذلك ، بل ذهب الى مكة المكرمة ، وأثار الأحقاد ودعا الى أن يقاتلوا محمدا عليه الصلاة والسلام .

فعل كل ذلك جهارا نهارا ، فاذا لم يتوقع من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أنه يتربص به الدوائر الدائرة ، وأنه يريد أن يقضى عليه ، لأنه مادة الشر ولسانه ، اذا لم يقدر ذلك فهو أبله ولم يكن كذلك فمحمد عليه الصلاة والسلام أمر بقتله فى وقت كان هو يتوقع ذلك ، أو ينبغى أن يتوقع ذلك ولا يعد القتل غيلة لمن يتوقع القتل ، ان قتل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يشبه من يعلن عن شرير بأنه ارتكب آثاما كثيرة ، وأن من أحضره حيا أو ميتا ، فله جزاء .

اننا فرضنا أن الحكمة والعدالة والأخلاق توجب التخلص منه ، واذا لم يجز التخلص منه بالطريقة التى حدثت وهى الخديعة ، فكيف كان يمكن التخلص ، أيحضره من ينتمى اليهم فيقدموه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، انهم لا يفعلون ذلك ، ولم يوجد من يتحمل تبعة عمله وما يفعل ، واذا

لم يكن ذلك أيأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم باحضاره بين يديه والحكم عليه بالقتل ويتولى قتله ، وما الفرق بين هذا ، وبين ما كان من حيث المعنى ٠

ان قتله كان أمرا لابد منه لما قام به ، ويقوم به رئيس الدولة العادلة التى يحكمها ذلك الحاكم العادل ، فانه لا سبيل لدفع فساده وافساده الا بقتله بأى طريق كان القتل ، وكل ما فعله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه اباح دمه ، جـزاء ما ارتكب ، ومنعا لاستمراره فى غية ، فقد كان يقـوم بجريمة مستمرة غير متحرج ، فالنبى صـلى الله تعـالى عليه وسلم كان مخيرا بين أمرين اما أن يقتله ، واما أن يتركه يرتع فى جريمته ، فاختار أسلم الأمرين ، اللذين لا مناص من اختيار أحدهما ٠

وان أولئك الذين يثيرون الشك حول أعمال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحول رسـالته السـماوية التى كانت رحمة للعالمين ـ يقولون ان الرسالة الالهية تتنافى مع القتل غيلة ، بل تتنافى مع أصل القتل ، كما كان من عيسى عليه السلام الذى يروون أنه قال : « من ضربك على خـدك الأيمن فأدر له الأيسر » ٠

ونقول فى الجواب عن ذلك ، ان قمع أعداء الدعوة الدينية لا يتنافى مع الرسالة ، فموسى عليه السلام وهو من أولى العزم من الرسل ، قد قتل بيده ، وقاتل ، ودعا بنى اسرائيل الى القتال ، وما تنافى ذلك مع رسـالته الالهية التى نزلت بها التوراة ، وهى كتب العهد القـديم المقدسـة عنـد اليهـود والنصارى معا ٠

ويحسبون أن الرحمة النبوية تمنع القتل والقتال ، ونقول فى ذلك ان القتل المشروع يكون بباعث من الرحمـة ، فليست رحمة النبوة انفعالة رعناء تكون على موضـع البرء والسقم ، انما رحمة النبـوة تكون بالكافة ، ومن الرحمة بالكافة أخذ المذنب بذنبه ، ومنع الفساد فى الأرض ، قال الله سبحانه وتعالى : « **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين** » والنبى صلى الله تعالى عليه وسـلم يقول : « أنا نبى المرحمة ، وأنا نبى الملحمة » وملحمته نابعة من مرحمته ، وكثير من العفو يكون مشتملا على أقسى العذاب ، وهو العفو عن الجانى الذى لا رجاء فى صلاحه ٠

والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد اشتملت شريعته على العفو فى الأمور التى لا يعود العفو فيها بالشر على الجمـاعة ، كما قال الله سبحانه وتعالى : « **وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صـبرتم لهو خير**

للصابرين » • فالصبر عن أخذ الجانى بجريمته انما يكون فى الاعتداء على الآحاد الذى لا يتعدى الأمر فيه الى الجماعة ، وقول الله سبحانه وتعالى : **« خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين »** انما هو فى الأمور الشخصية التى لا يعود ضررها على الكافة ، ويقول الله سبحانه وتعالى : **« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها الا الذين صبروا ، وما يلقاها الا ذو حظ عظيم ، واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم »** وهذا واضح أنه فى الأمور التى تمس الشخص ولا تصل الى الجماعة ، وكلام النصارى الذى ينسبونه الى المسيح عليه السلام انما هو فى الأمور التى لا تمس الا الشخص • واذا فهموه على أوسع من ذلك ، فلكل شرعة ومنهاج ، والله ولى الرشاد •



غزوة أحـد

٤١٢ ـــ أهمت قريشا هزيمة بدر الكبرى ، اذ كانت حقا يوم الفرقان بين الحق والباطل ، وقوة المؤمنين وضعفهم ، وكانت أول هزيمة تنالهم من جيش محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكانت مرارة الهزيمة شديدة ، لأنها نالت أشـــياخهم ، والزعماء فيهم الـذين كانوا يجعلونهم بحكم الجاهلية لا يعدلهم بل تعدلهم قبائل ، وما من بيت من بيوت كبرائهم الا كان فيه جـرح كبير قد ولد ترة شديدة ٠

وفوق ذلك قد أحسوا بأن دولة الشرك التى كانوا يستمسكون بها قـد أخذت تنهار ، وقد كانوا يعتبرونها عقيدة آبائهم ، وكانوا يقولون ان نتبع الا ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ٠

وقد وجدوا من بعد ذلك مكانتهم فى العـرب ، وشرفهم أخـذ ينهار ، ولو توالت هذه الحال لزال شرفهم ولزالت مكانتهم ، وظنـوا أن الأعـراب الذين كانوا يخضعون لشرفهم سيخرجون من بعد عن نفوذهم ، وأن القبائل العربية ، تتسنم مكانهم ان استطاعوا ٠

ورأوا متاجرهم تساق الى محمد صـلى الله تعالى عليه وسـلم غنائم تقسم بين أصحابه ، وأنهم لا قبل لهم بأن ينفذوا بمتاجرهم الى الشام ليتوردوا ويستوردوا وتستقيم لهم رحلة الشتاء والصيف ٠

رأوا كل هذا وحاولوا أن ينالوا من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فلم ينالوا ، فأغاروا غارة السويق ، فما استفادوا كثيرا ، بل لم يستفيدوا قليلا ٠

رأوا كل هذه الدنايا ، فهل يسكتون ، وان سكتوا عن متاجرهم ، فلن يسكتوا عن شرفهم الذى ثلم ، ولن يسكتوا عن الثارات التى ولدتها المقتـلا فى أشياخهم ، ومن كانوا فى موطن الزعامة فيهم ٠

القـوة بدل العير :

٤١٣ ـــ مشى عبـد الله بن أبى ربيعـة ، وعكـرمة بن أبى جهـل ، وصـفوان بن أمية فى رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم يوم بدر

فكلموا أبا سفيان بن حرب ليقودهم الى المعركة الجديدة ، وكانت قيادة المعركة التى هزموا فيها بين أبى جهل ، وعقبة بن أبى معيط ، فأرادوا توحيد القيادة هذه المرة ، وأبو سفيان بقية رجالهم ، أو من هو فى مكان الزعامة منهم ، وأبو سفيان هو الذى نجا بعيرهم ، ويريدون أن تكون العير الناجية فداء لثأرهم ·

قال هذا الوفد الذى ذهب الى أبى سفيان ، وخاطب أصحاب العير قائلا :

يا معشر قريش : « ان محمدا قد وتركم ، وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا ندرك منه ثأرا » ·

فنزلوا عن المال ، ليكون مادة القتال ، وأخذوا الأهبة من الرجال ، وأدوات الحرب ، لأنهم علموا أنها الذلة والخزى والعار ، ان لم يستردوا مكانتهم ·

اجتمعت كل بيوتات قريش وبطونهم ، ولم يبق أحد منهم الا أخذ الأهبة ، واستعد للقتال ، وأن يضربوا المدينة المنورة ضربة قاصمة ، وان لم يقتلعوا الاسلام منها ، فانهم ينالون مأربا وثأرا ، ويستردون شرفا ويدفعون عارا ·

وضموا اليهم كنانة وتهامة ، وأحباشا كثيرة ممن لهم دربة فى القتال بالرماح ، وكان منهم وحشى قاتل أسد الله حمزة الذى منى بالعتق اذا قتل حمزة الذى كان سيفه البتار يهد قريشا هذا ، فما ذهب ليقاتل ، ولكن ذهب ليترصد حمزة ، لا ليواجه الجيش ، فكأنه ذهب للاغتيال ، لا للقتال ·

ولم يكتفوا بمن استعانوا بهم من قبائل حول مكة المكرمة وأحباش ، بل استعانوا ببعض المشركين من الأوس فى يثرب لأن لهم أحقادا كأحقادهم ، ولم يرضوا النفاق أو لم يظهروا به ، فقد روى قتادة أن أبا عامر بن صيفى أخا بنى ثعلبة ، وكان قد خرج من مكة المكرمة مباعدا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومعه خمسون من غلمان الأوس ، وكان قبل قدوم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتوهمت قريش أو أوهمها أنه ان لقى قومه ، لم يختلف عليه أحد ·

وقد اجتمع بذلك نحو ثلاثة آلاف ، ومعهم مائتا فرس عليها مائتا فارس وكان خالد بن الوليد على مائة جعلها يمين الخيل ، وعكرمة بن أبى جهل على مائة جعلها على ميسرة الخيل ، وانهم رأوا أن محمدا صلى الله تعالى عليه

وسلم ، انما يقاتل مزودا بحمية الدين ، ومؤيدا بروح معنوية تفوق قوة العدد والعـدة وتتغلب على الصعاب ، فرأوا أن يكون معهم المحرض المعنوى ، وهو أن يكون نساؤهم معهم ، بحيث يستحون أن يفـروا أمامهن ، وأن يؤخـذن سبايا ٠

فخرج أبو سفيان بن حرب ، وهو القائد بزوجه هند بنت عتبة ، وكان لها ثارات ، قتل ابنها وأخوها وأبوها ، وخرج عكـرمة بن أبى جهـل ومعه زوجه أم حكيم بنت الحارث بن هشـام بن المغيرة ٠٠٠ وهكذا كثيرات من عقائل القـوم ، وذوات الشرف فى قريش ، ليكون خروجهن محرضـا على الجلاد ، ومانعا من الفرار ، وجملة القـول فى ذلك أنهم تزودوا بالعـدد ، وبالسلاح والكراع ، وبالمحرضات كلها ، لأنهم يعلمون أنهم أمام خصم مزود بكل قوى النفس والايمان الذى فقدوه ٠

وجاءوا معهم بالشعراء والخطباء ليحرضوا ، وليدفعوا فى الجند روح البأس والقوة ، وحب النضال ، ولم يتركوا بابا من أبواب الاعداد الا دخلوا منه ٠

وكان ممن اشترك فى التحريض على القتال أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحى ، وكان قد أسر ببدر الكبرى ، فمن عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بغير فـداء ، لأنه فقير كثير العيـال ، عـلى الا يظـاهر عليه ، وبالتالى لا يكون لسانه للتحريض على قتال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ولكن المشركين مازالوا به حتى أخرجوه عن عهـده للنبى صـلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد قال له صفوان بن أمية يا أبا عزة انك امرؤ شاعر ، فأعنا بلسانك ، فاخرج معنـا ، فقال : ان محمدا قـد من عـلى ، فلا أريد أن أظاهر عليه ، قال بلى ، فأعنا بنفسك ، فلك عهد الله على ان رجعت أن أعينك فى بناتك وان أصبت أن أجعل بناتك مع بناتى ، يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر ٠

خرج أبو عزة وأخذ يحرض بنى كنانة هو وغيره على أن ينضموا الى جيش قريش ومن معهم فى قتال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ويظهر أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد علم بمخـرجهم ، وفى كثير من الروايات أن العباس بن عبد المطلب الذى لم يشترك فى هذه الحملة أرسل الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يخبره ٠

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان له فوق ذلك العيون يبثها ويتعرف أخبارهم ، فيعرف عيرهم وبالأولى يعرف نفيرهم ، ولكنه انتظر حتى يقع ما توقع ، ويكون أمامهم وجها لوجه ، وما كان له أن يلقاهم قبل ذلك فى غير مأمنه ، وحيث مستقره ٠

وقد سار جيش قريش سيرته ، حتى وصل الى المدينة المنورة ، وانساب فى مزارعها ، تأكل وتعبث أفراس المشركين وابلهم ، متحدين مهاجمين ٠

لقاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لهم

٤١٤ — كان قدوم ذلك الجيش اللجب الى المدينة المنورة فى أول شوال من السنة الثالثة ، وكانت الغزوة فى منتصفه ، وروى أنها كانت فى الحادى عشر منه ٠

وقد أخذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الأهبة للقاء لا بكثرة العدد والعدة ولكن بقوة الايمان والحق وقوة الشورى ، وبث روح التعاون ، والاندماج النفسى بالشورى ، فان الشورى بين المخلصين تجعل نفوسهم تندمج وتحس كل نفس بأنها جزء من الأنفس ٠

وقف عليه الصلاة والسلام بعد الصلاة بين المسلمين ، وقد عاينوا وأحس المؤمنون منهم بأن الأمر خطر : أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يستشير المسلمين قبل المعركة ٠

وكان محور الشورى يدور على أمرين أيخرج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بجيش الايمان ، ويقاتلهم حيث يكون خير مكان للقتال ، أم أنه يبقى فى المدينة المنورة ، فان أقاموا أقاموا فى أسوأ مقام ، وقد ينفذ منهم الزاد والراحلة ، وان دخلوا الى المدينة المنورة ولها مسلكها المبنية بالحجارة والآجر ، وكأنها حصن وهم لا يعرفون مداخله ٠

كانت الشورى فى أى الأمرين أنكى للعدو ، وأقرب الى النصر ، لقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يكره الخروج ، وروى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « امكثوا واجعلوا الذرارى فى الآطام فان دخل علينا القوم فى الأزقة قاتلناهم ، ورموا من فوق البيوت » ، وروى ابن اسحاق أنه عليه الصلاة والسلام قال : « ان رأيتم أن تقيموا بالمدينة ،

وتدعوهم حيث نزلوا فان أقاموا أقاموا بشر مقـــام ، وان هم دخلــوا علينا قاتلناهم فيها » ٠

وانه مما يسترعى الأنظار أن عبد الله بن أبى بن سلول كان على هــذا الرأى ، ولعله جبن اللقاء منه ، ولكيلا ينكشف النفاق ، أو لأنه يرى أن بعض مواليه اليهود قد يجدها فرصة للانقضاض ٠

ومهما يكن من مقصده ، والله أعلم بذات الصدور ، فانه قد قال :

يا رسول الله ، أقم بالمدينة لا تخرج اليهم ، فوالله ما خرجنــا منها الى عدو لنا قط الا أصاب منا ، ولا دخلها علينا الا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله ، فان أقاموا أقاموا بشر محبس ، وان دخلوا قاتلهم الرجال فى وجههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وان رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا ٠

وقد خالف ذلك الرأى مع أنه رأى النبى صلى الله تعالى عليه وســلم كثيرون من المجاهدين ، وكانوا صنفين ، صنف من أهل النجدة والبأس والقوة لم يجدوا فى الانتظار ما يتفق مع ما عندهم من اقدام ، وأنه لابد أن يلاقوهم ولا ينتظروهم ومن هؤلاء حمزة بن عبد المطلب أسد الله ، فقد قال فى قــوة : « والذى أنزل عليك الكتاب لنجادلنهم » ٠

وقال رجل من الأنصار الأشــداء : ومتى تقاتلهم يا رســول الله اذا لم تقاتلهم عند شعبنا ٠

والصنف الثانى من الذين لم يحضروا بدرا ، وأرادوا أن يكون لهم فى هذه الموقعة شرف مثل شرفها ، وقالوا كنا نتمنى مثل هذا اليوم ، وندعو الله فقد ساقه الينا ، وقرب المسير ٠

وبذلك انتهى الرأى بالخروج ، لتكاثر الــذين أرادوه ، وكثرة الــذين أرادوا أن يستعيضوا عن شرف الجهاد فى بدر بشرف الجهاد فى أحد ٠

وما كان لمحمد عليه الصلاة والسلام الذى جاء بالشــورى ، وأمر بها الا أن يستجيب لحكم الكثرة ، ولا يفــرض فيه الخطأ ، كما يفعـــل ويروج المستبدون فى هذا العصر ، اذ يفرضون فى أنفسهم الصواب الذى لا يحتمل الخطأ ، وفى تفكير غيرهم الخطأ الذى لا يحتمــل الصـــواب ، وتردت بهم الجماعات فى منهوى سحيق ٠

النبى عليه الصلاة والسلام يعد المؤمنين للقتال :

٤١٥ — أخذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرف خبر الأماكن التى يلقى فيها العدو المكاثر المكابر ، وأنه لكى يختار لجيشه لابد أن يعرف أماكن جيش العدو ويمر فى غير ممرهم ٠

قال النبى صلى الله عليه وسلم كما روى فى الصحيحين هل من رجل يخرج بنا على القوم من كثب ، من طريق لا يمر بنا عليهم ، فقال أبو خيثمة أنا يارسول الله ، فأخذ يسير ، فنفذ فى حرة بنى حارثة ، وبين أموالهم ، حتى سلك بهم فى مال لمربع بن قيظى ، وكان رجلا منافقا ضريرا ، فلما سمع حس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من المسلمين ، فقام يحثى فى وجوههم التراب ، ويقول : ان كنت رسول الله فانى لا أحل لك أن تدخل فى حائدلى ، وأخذ حفنة من التراب فى يده ، ثم قال : والله لو أنى أعلم أنى لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك ، فابتدره القوم ليقتلوه فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : لا تقتلوه ، فهذا الأعمى أعمى القلب ، أعمى البصر ٠

ولكن قبل هذا النهى ضربه بعض القوم بالقوس فشج رأسه ٠

كان هذا الاتجاه من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن نزل على رأى الكثرة ممن استشارهم من المؤمنين ٠

وقبل أن يخوض بهم المعركة نبههم الى أنه نزل على آرائهم ، فلبس لأمة الحرب ، واتخذ درعه استعدادا للميدان ، وأخذ يضع الجيش مواضعه -

أحس بعض المؤمنين أنهم استكرهوا الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقالوا أمرنا رسول الله أن نمكث بالمدينة المنورة ، وهو أعلم بالله تعالى وما يريد ، ويأتيه الوحى من السماء ٠

حسبوا أن الأمر من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالبقاء يتصل بالوحى وأمر الله فيه ، وظنوا لفرط ايمانهم ولو كان الأمر كذلك ما أخذ فيه رأى أحد ، فلا رأى فى أمر الله تعالى ونهيه ، ولكن كان من الرسول عليه الصلاة والسلام الرأى فى الحرب والمكيدة ، ولهذا عرض الأمر عليهم ، واختار رأى الكثرة ، لأنه الشورى ٠

ويظهر انهم رجعوا عن رأيهم على حسب الزعم الذى زعموه ، ولكن الشورى ليس معناها التردد ، فان مع التردد الهزيمة ، اذ التردد يترتب عليه عدم العزيمة ، والعزيمة من قوة الجيش .

ولقد نبههم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى منع التردد ، وقال فى حكمة النبوة « ما ينبغى لنبى لبس لأمة الحرب وأذن بالخروج الى العدو أن يرجع ، حتى يقاتل ، وقد دعوتكم الى البقاء ، فأبيتم الا الخروج فعليكم بتقوى الله تعالى ، والصبر عند البأس ، اذا لقيتم العدو ، وانظروا ماذا أمركم الله » .

مضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بجيشه من المؤمنين ، وكان عدة المشركين نحو ثلاثة آلاف كما ذكرنا ، بينما كان عدة المسلمين ، وفيهم مرضى القلوب ألفا ، وأراد بعض الأنصار أن يستعينوا بحلفاء لهم من اليهود فقد ذكر الزهرى أن الأنصار استأذنوا الرسول عليه الصلاة والسلام فى الاستعانة بحلفائهم من المدينة المنورة ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم لا حاجة لنا فيهم ، لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أراد أن يكون جيشه ممن يريدون القتال دفاعا عن عقيدتهم ، ولأن الله سبحانه وتعالى يقول : **« يايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يالونكم خبالا ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر»** .

وما كان له أن يستعين باليهود فى نصرته ، وقد كان بينه وبين بنى قينقاع ما كان مما اضطره لأن يخرجهم ، وكتب الله عليهم الجلاء .

المنافقــون :

٤١٦ ـــ نقى الله تعالى الجيش الاسلامى من المنافقين فخرج من الألف نحو ثلث الجيش من أتباع عبد الله بن أبى ، وأظهر أنه خرج مغاضبا ، لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يأخذ برأيه ، وكذلك كل مستبد يريد أن يفرض رأيه على غيره ، فهو لا يخلو من نفاق ، وقد يبلغ فى نفاقه ما بلغه منه عبد الله بن أبى رأس النفاق بين المسلمين ، وكان خروجه ومن معه اعلاما لأهل الايمان بنفاقهم ، ولقد قال أطاعهم وعصانى .

ولقد كان من أثر دعوته الى الخروج أن لامه بعض المخلصين ، وهم باتباعه بعض المؤمنين فكان ممن لامه ومن معه عمرو بن حزام ، وهو يقول له ولمن معه : « يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم ، عندما حضر من

عدوكم » . فكان من نفاقهم أن قالوا والعدو يساور المدينة المنورة : « لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكنا لا نرى أن يكون قتال » فقال الرجل المؤمن عندما استعصوا عليه أبعدكم الله أعداء الله ، فسيغنى الله تعالى عنكم نبيه .

وقد كان رجوعه سببا فى اضطراب بعض المسلمين من المترددين ، وان لم يكونوا من المنافقين ، فقد همت طائفتان من المسلمين أن تفشلا والله وليهما .

وهم بنو سلمة ، وبنو حارثة أن يعودوا مع من عاد مع عبد الله بن أبى ، وكان ذلك من فرط جزعهم من لقاء عدد يفوقهم أضعافا ، وهو مزود بزاد الضغن والعدة ، وقد أثر النفاق فى نفوسهم وان لم يكونوا منافقين .

وهؤلاء هم الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم : « **واذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ، والله سميع عليم ، اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون** » .

وقد فرح رجال هاتين الطائفتين لقول الله سبحانه وتعالى : « **والله وليهما** » اذ اطمأنوا الى أنهم لم يكونوا منافقين وان كانوا مترددين ، لأن الله تعالى ولى المؤمنين ، والمنافقون وليهم الشيطان .

وانه اذ خرج هؤلاء كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يعرض عليه صغار المؤمنين الذين لم يبلغوا الخامسة عشرة ، ولم تكن فيهم مهارة فى الرماية ولا قوة بدنية تغنى غناء الرجال ، فقد ثبت فى الصحيحين أن عبد الله ابن عمر عرض على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى أحد فرده ، وكذلك رد يومئذ أسامة بن زيد ، وزيد بن ثابت ، والبراء بن عازب .. وغيرهم .

وقد هم برد رافع بن خديج وكان فى مثل هذه السن ، فقيل له انه يحسن الرماية ، فأجازه ، لأنها لا تحتاج الى قوة فى البدن ! ولكن الى مهارة فى اصابة الهدف .

وكان سمرة بن جندب قد تقدم أيضا فى قريب من هذه السنة فهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرده ، فقيل انه يصرع الراعى ، ويظهر أنه رآه قوى المنة ، فأجازه .

مقـــاعد القتـــال :

٤١٧ ـــ أخذ النبى صـلى الله تعالى عليه وسـلم يبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ، وقد صفى الله تعالى الجيش من المنافقين ، وثبت المترددين ، فقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم داعيا الى التقوى والصبر ، وأن الله تعالى ناصرهم ، كما نصرهم ببدر وهم أذلة ، ومبشرهم به ان صبروا ، فقال الله سبحانه وتعالى حاكيا عن نبيه عليه الصلاة والسلام فى تثبيتهم فى ذلك اليوم « **ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشـــكرون ، اذ تقول للمؤمنين الن يكفيكم أن يمـدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مســـــومين ، وما جعـله الله الا بشرى لكم ، ولتطمئن قـلوبكم به وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ، ليقطع طرفا من الذين كفروا ، أو يكبتهم ، فينقلبوا خائبين** » ثبت الله سبحـانه وتعـالى قلب المؤمنين بهـذه البشرى ، وهى الامداد الروحى بالملائكة ، ان صـبروا فى الميـدان وثبتوا ، وذكروا الله تعالى ،وأنه فوق كل القوى ، وصبرت نفوسهم ، فلم تنحرف عن القتال والايغال وراء العدو ، ولم تشغل بالغنيمة عن النصر ، وان صـبروا فلم يخالفوا القائد المدرك الذى يدعوهم الى الرشـاد ، والى أن يتعـاونوا جميعا فى الميدان ، وعلموا أنهم يؤلفون جيشا متعاونا وليسوا فرقا متفرقة تتنافس فى الغنائم ، ولا تتنافس فى النصر ٠

تقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومضى حتى نزل الشعب من أحـد فى عدوة الوادى الى الجبـل ، فجعـل ظهـر عسـكره عنده لكيلا يتمكن المشركون ٠

وصف الصفوف ، كما فعل فى بدر ، وقلده المشركون فى هذا فصفوا الصفوف أيضا وجعل الرماة وعددهم خمسون راميا ، وراء ظهر الجيش ، وجعل عليهم عبد الله بن جبير أميرا وأوصـاه ، بأن ينضح عن المســـلمين الخيل ، وقال له : « انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا فاثبت مكانك لا تؤتين من قبلك » ٠

ولبس رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأمته ، وشدد الوصـــية للرماة ، وذلك ليمنع التفاف جيش المشركين حـول جيش المسلمين ، وعـدد المشركين كبير ، وجيشهم كثيف ٠

وبعد أن صف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم جيشه أمره بألا يقاتل ، حتى يأمره بالقتال ، ليتقدم الجيش على قلب رجل واحد ، وظهورهم فى حماية الرماة ٠

وذلك تنظيم حربى لم يعرفوه ، ولو أن الرماة أطاعوا ما اضطرب جيش المسلمين ، ولا أصابهم قرح فى هذه الغزوة ، وقد كان أمام جيش الايمان جيش الشرك يفاخر بكثرته وعدته ، وقد اتخذت الأفراس التى تجاوزت مائتين ، والابل مزارع المدينة المنورة مستزادا ومذهبا ، وذلك مما أثار حمية أهل المدينة المنورة للقتال ، حتى قد قال قائلهم ، والنبى عليه الصلاة والسلام يشاورهم فى الخروج الى المشركين أترعى زروع بنى قبيلة الأوس والخزرج ولما تضار ٠

الجيشان

٤١٨ ـــ التقى الجيشان ، ولكن لم تبدأ المعركة ولابد أن نذكر الأوصاف الظاهرة والنفسية للجيشين قبل أن يخوضا المعركة ، لأن الحال لهما تنبىء عن المآل ، والله ولى المؤمنين ٠

كان جيش المشركين مزودا بكل أسباب القوة المادية فعددهم أضعاف مضاعفة لعدد المؤمنين ، ومن ناحية الدوافع النفسية كان يدفعهم الى القتال أولا الثأر ، ومحاولة استرداد مكانتهم فى العرب ، والخشية على تجارتهم التى كانت مصدر ثروتهم ، وقد تهددتها قوة المسلمين ٠ وقد أخذوا عليهم كل مرصد ، فوجد الدافع الى القتال والاستماتة فيه من النفس والنفيس ، وأدركوا أن الأمر بينهم وبين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أمر حياة عزيزة كريمة يتفاخرون فيها ، أو موت ذليل فيه العار والثبور ٠

ولقد أخذوا يعدون العدة الحربية فى التنظيم آخذين مما صنع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو تنظيم الصفوف ، فالمحارب مأخوذ بنظام محاربه تسرى اليه بالمحاكاة والمدافعة نظمه ومسالكه ٠

ولقد أخذوا نساءهم معهم ، وكلهن موتورات محنقات ، فأرادوا أن يثبتوا بهن ، وألا يرتكبن عار الفرار أمامهن ، ويسلمهن للسبى ٠

وكل ذلك لتقوى الروح المعنوية ، ولا يفرون يوم الزحف ، وقد رأوا

محمدا صلى الله عليه وسلم وصحبه يثبتون عند الحرب ولا يفرون يوم الزحف ·

ولقد روى أنه لما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض قامت هند بنت عتبة فى النسوة اللاءى معها ، وأخذن يضربن بالدفوف ويحرضن على القتال ، وكان اللواء فى بنى عبد الدار فقالت محرضة لهن ·

ويها بنى عبد الدار ، ويها حماة الأدبار ، ضربا بكل بتار ·

وتقول هند الموتورة فى أبيها وأخيها وابنها :

ان تقبلوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

ولقد كان أبو سفيان حريصا على بث الروح الدافعة الى القتال فى جنوده الى آخر لحظة قبل القتال ، لقد كان اللواء لبنى عبد الدار ، وروى أبو اسحاق أن أبا سفيان قال لهم يحرضهم على القتال : يابنى عبد الدار ، قد وليتم لواء يوم بدر ، فأصابنا ما قد رأيتم ، وانما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، اذا زالت زالوا ، فاما أن تكفونا لواءنا ، واما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه فهموا به وتواعدوه وقالوا نحن نسلم اليك لواءنا ستعلم غدا اذا التقينا ، كيف نصنع ! !

٤١٩ ـــ هذا جيش قوى بالعدد ، وقوى بالعدة ، وبثوا فيه روح القوة وأثاروا فيه الحمية ، فكانوا المجتمعين على باطلهم ، جمعهم الشر والحقد والثأر ·

ولنتجه الى جيش المؤمنين ، ولا يمكن أن نقول انه فى ايمانه وقوة روحه كان أقل من قوة المشركين المدافعة ، فاذا كان أولئك يدفعهم الحقد والضغينة والتراث ، فان جيش الايمان يدفعه ايمان قوى راسخ كالرواسى ، وحب فى الشهادة ، وارادة من عند الله سبحانه وتعالى ومعهم أعظم قواد الأرض ايمانا وروحا ، وللمؤمنين فيه أسوة حسنة · ولكن يجب أن نذكر بعض الملاحظات :

(أولاها) أن بعض الذين لم يحضروا بدرا ، ورأوا غنائمها ، ربما كان من المحرض لهم على القتال والخروج للأعداء ـ رجاء أن ينالوا من الغنائم أو الأنفال ما ناله اخوانهم من قبل ، وان كان ذلك مع الايمان والرغبة فى أن

يفدوا الاسلام بأنفسهم ، وجانب المال ان كان بعض الهدف ربما دفع الى طلبه ، فغلب عند ظن النصر ، ومن أجل ذلك كان المنع من الأسر قبل أن يثخن المسلمون فى العدو ، واذا كان الأسر ممنوعا ، فالجرى وراء الغنائم أشد منعـا قبل أن يثبت النصر ، ويستقر ·

(**الثانية**) أن بعض المقاتلين من جيش المؤمنين بعد تصـفيته ، وتنقيته من المنافقين كان لايزال فيه بعض المترددين الذين لم يعقدوا العزم قويا ثابتا ، فالطائفتان اللتان همتا ، بأن تفشلا ، لا أستطيع أن أقول ان كل آحادهما قـد عقد العزم ، وأصر على القتال وأراد النصر ، وانه لا يذهب بقـوة الجيش الا التردد ، فان كان من بعض آحاده ، نقصت القوة بمقدار تردده ·

(**الثالثة**) أن اليهود كانوا حول المدينة المنورة ، ولهم تراث ، وقد انضم اليهم المنافقون ، وهؤلاء يكونون عورة من وراء الجيش المقاتل ·

ولكن قيادة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد ذهبت بكل عوامل الضعف ، واختفت كل عناصر التردد ابتداء ولم يحدث النزوع الى الغنـائم الذى كان مستكنا فى بعض النفوس الا عندما لمع بريق الغنيمة ، وظهرت بوادر النصر ، فلم يكن التتبع للفلول المهزومة من قوات المشركين ·

هذا بانصاف حال الجيشين المقاتلين وكلمة الله سبحانه وتعالى أعلى ، وله حده العزة ، وانه ناصر جنده ان استقام على الطريقة ، واتخذ الصـبر فى الزحف ، والصبر بضبط النفس عدة له ، فان ذلك هو القوة بعد توفيق الله سبحانه وتعالى ·

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد أخذ الأهبة وقوى النفـوس ، وشحذ العزائم وحقق قوله الله سبحانه وتعالى « **فاذا عزمت فتوكل على الله** » ·

المعركـة

٤٢٠ ـــ بوأ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لجنده مقاعد للقتال ، وقد عنى بأمرين عناية شديدة أولهما بالرماة ، فقد شدد عليهم الوصية بألا يبرحوا مكانهم ، ومما قـاله لهم فى ذلك ، « احموا لنـا ظهورنا اننا نخاف أن يجيئوا من ورائنا ، والزموا أماكنكم لا تبرحوا منها ، وان رأيتمونا نقتل فـلا تعينونا ولا تدفعوا عنا ، وانما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل ، فان الخيـل لا تقدم على النبل » ·

الأمر الثانى جعل فى صفوفه الأولى الأشداء من جند المؤمنين الذين أبلوا بلاء حسنا فى غزوة بدر كأسد الله تعالى حمزة بن عبد المطلب ، وفارس الاسلام على بن أبى طالب والزبير بن العوام الذين يذكرهم وجودهم بهزيمة بدر فيكون ذلك ارهابا لهم وايقانا بأن الليلة كالبارحة ، ولأنهم يدقون صفوف المشركين دقا ، فيفتحون الطريق لمن وراءهم ، ويزيلون الرهبة من لقاء أهل الشرك ، ولو كثر عددهم ، ونهاهم عن أن يقدموا الا بأمره ، ويستأنوا ٠

وقد أخذ يتفرس الوجوه ، ويحرض الأبطال ، ويدفع الصناديد الى البأس ، فحمل سيفا ودعا المؤمنين الى أن يحملوه ، ويحموه ٠

روى الامام أحمد بسنده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ سيفا يوم أحد ، فقال من يأخذ هذا السيف بحقه ، فجعلوا ينظرون اليه ، فقال من يأخذه بحقه ٠٠٠ فقال أبو دجانة سماك أنا آخذه بحقه ٠ فأخذه ففلق به هام المشركين ٠

قال ابن اسحق ، وكان أبو دجانة رجلا شجاعا يختال عند الحرب ، وكانت له عصابة حمراء يعلم بها عند الحرب يعتصب بها ، فيعلم أنه سيقاتل ، فلما أخذ السيف من يد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم جعل يتبختر بين الصفين بعد أن اعتصب بعصابته ٠ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين رأى أبا دجانة يتبختر : انها لمشية يبغضها الله الا فى هذا الموطن ٠

كان لواء المشركين مع طلحة بن أبى طلحة ، ثم عثمان بن أبى طلحة ، وكان حملة اللواء جميعا من بنى عبد الدار ٠ والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أعطى لواء جيش الاسلام على بن أبى طالب فلما رأى عليه الصلاة والسلام حامل لواء المشركين من بنى عبد الدار طلحة بن أبى طلحة أخذ اللواء من على كرم الله وجهه فى الجنة ، وأعطاه مصعب بن عمير من بنى عبد الدار ٠

ابتداء القتال :

٤٢١ — ابتدأ القتال من قبل المشركين أبو عامر بن صيفى وهو أوسى ، كان يسمى الراهب ، وسماه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الفاسق عندما خرج الى قريش يحرضهم على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان قبل قدوم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة المنورة ذا مكانة فى قومه ٠

فدفعوه ليتقدم جيش الشرك ، وكان فى نحو خمسين ، وظنوا أن ذلك يوهن من قوة الأنصار ، ويبعث على التردد ، ولذا قال عندما تقدم ونادى يا معشر الأوس ، فقالوا له : « لا أنعم الله بك عينا » فطاش سهمه ومن معه وخاب فألهم ، وقال لما سمع ردهم : « لقد أصاب قومى بعدى شر » ٠

أذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالقتال ، وكانت كلمة التعارف بين المؤمنين أمت أمت ، اندفع الصناديد من جيش المسلمين يقتلون فى جيش الشرك يضربون فاندفع أبو دجانة يفلق الهام بسيف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنه تعهد لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يأخذه بحقه حتى انه ليضرب الرجل على رأسه بالسيف ، فيفرقه فرقتين ٠

وكان النساء قد خرجن فى القتال ملثمات ، أو ظاهرات بمظهر رجال ، فلقى أبو دجانة امرأة قيل انها هند امرأة أبى سفيان بنت عتبة ، فرفع السيف عنها ، ولم يجد من كرامة سيف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يقتل به امرأة ، ولو كانت تقاتل ٠

وحمزة بن عبد المطلب يدق جيش المشركين بسيفه دقا ، وأوغل بسيفه البتار فى جيش المشركين ، وهم يفرون منه فرارا ، كأنها النعاج تفر من الأسد الهصور ٠

وحامل لواء الشرك طلحة بن أبى طلحة يطلب المبارزة ، فلا يقدم على مبارزته الا على بن أبى طالب ، وما هى الا جولة من جولات على الا كانت بعدها الضربة القاصمة التى وصفها المؤرخون بأن ضربات على كانت أبكارا ، أى لا يضرب الا ضربة واحدة تكون بكرا منفردة ٠

الخسارة الفادحة ــ مقتل حمزة مع المضاء فى القتال :

٤٢٢ ــ كانت الجولة للمسلمين ، حتى ان المشركين يفرون فرارا أمام سيوف الله تعالى التى سلها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الشرك وأهله ، وأمام الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، فما تقدموا حريصين على الحياة الدنيا ، انما يحرصون على ما عند الله فى الآخرة ٠

قتل حامل اللواء الاسلامى مصعب بن عمير ، فحمل اللواء على رضى الله عنه ، فما سقط اللواء ، ولكن الخسارة الكبرى كانت فى مقتل حمزة ٠

لقد قتل غيلة ، وما قتل فى مبارزة ، ولا فى مواجهة فما كان بنو هاشم ليقتلوا الا غيلة خيانة وجبنا ، لقد تواصت هند ، وغيرها من قريش مع وحشى العبد الحبشى الذى يجيد القذف بالرمح ، ولا يجيد الضرب بالسيف وما كان يجديه لو أجاده أمام أسد الله تعالى حمزة ٠

كان حمزة يجندل الأبطال ، وما تقدم نحوه أحد الا جعله يعض التراب مستهزئا به ، ساخرا منه ، وهو يتبختر ، ويدل بمواقفه فى القتال ٠

وقد كان يتربص به العبد الذى جعل سيده جبير بن مطعم قتل حمزة عم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثمن عتقه ، كما قتل حمزة عمه ٠

كان وحشى يختبىء وراء الأشجار لتسنح له فرصة يرمى فيها رميته ، وحمزة ، كمال قال العبد ، يحمل سيفه كالجمل الأورق يهد به الجيش هدا ، فرماه بحربته التى لم تخطىء ، ونال حريته ٠

فقتل عم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسيد الشهداء ٠ كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قال كلمة حق أمام سلطان جائر فقتله » ٠

واذا كان ذلك قد أرضى جبير بن مطعم ، وأرضى هند بنت عتبة ، فانه لم يرض الشرف والمروءة ، وأرضى النذالة والخيانة ، وأنى يكون هذا من فعل أبى دجانة ، وقد رأى محاربه امرأة فتركها تنزيها لسيف رسول الله أن يقتل به امرأة تقاتل ٠

ولكن ما وهن جيش الاسلام ، ولا ضعف ، وان ذهبت منه قوة ليس من السهل أن تعوض اذا استشهد منه رجل كان كألف من الرجال الأشداء ٠

بل استمر جيش الحق فى تتبعه لأعداء الله تعالى ، فلم يهن ، وان حزن بل مضى فى طريقه ، وكان هو الغالب الأغلب ، والمشركون يتساقط من بين أيديهم لواؤهم حاملا بعد حامل ٠

قتل حامل اللواء ابن أبى طلحة ، فحمله أخوه عثمان بن أبى طلحة ، ثم حمله من بعده أخوه أبو سعد وقد طلب المبارزة من على متحديا ، فتصدى له على الذى لم يفر من مبارز ، ولم يبارز أحدا الا نال منه ، فبارز حامل لواء المشركين ، ومن آل اليه لواء المؤمنين بعد مصعب بن عمير ، فاختلفا ضربتين فنبت ضربة ابن أبى طلحة ، وضربه على فصرعه ، ثم انصرف عنه ،

ولم يجهز عليه ، ولعله لم يجهز عليه ، لأن فارس الاسلام لا يقتل مصروعا ، بل يقتل من يقف أمامه ، وقال على رضى الله تعالى عنه عندما قال له بعض أصحابه أفلا أجهزت عليه ، قال : انه استقبلنى بعورته ، فعطفنى عليه الرحم ، وعلمت أن الله قد قتله ٠

لا نقول قابلوا بين على ومن حرض العبد ، فان تلك بطولة على ، وهذه أخلاق العبيد ٠ توالى القتلى من حملة لواء المشركين ، حتى حملته امرأة ٠

وصناديد الجيش الاسلامى حتى بعد مقتل حمزة بالخيانة والغيلة والغدر مستمرون فى الضرب فى اهتداء ، وقد شقوا صفوفهم ، كما تشق السكين الكمثرى ، وأداروها رحى فى صفوفهم ، وهم يفرون تاركين أموالهم وعتادهم ومع كثير مما يغنم ٠

المغنائم القاتلة :

٤٢٣ ــ تفرق معسكر الشرك ، وفر من فر منهم ، ولم تغن عنهم كثرتهم شيئا ، ولم ينالوا خيرا ، ولكنهم لم يسحقوا ، ولم يثخنوا وكانوا يفرون فرارا ، والعدد لجب كبير ، وفيهم قوة الخيل قوة خالد بن الوليد ، وقوة عكرمة بن أبى جهل ، ومع كل منهم مائة فارس ، قد أعدوا العدة ، لينقضوا ان وجدوا الفرصة ، وكلاهما ذو بصر أريب يدفعه الثأر والحمية ٠

غر الأمر طلاب الغنائم ، وبينما على والزبير ، وسعد بن أبى وقاص ، وصناديد الأمصار يقصمون ظهور المشركين ، حتى حملوهم على أن يتركوا متاعهم ، أخذ هؤلاء من وراء أولئك يجمعون الغنائم ، ويأخذون الأسلاب ، ويتركون أبا دجانة يفلق الهام ، ولا يحمون ظهور المؤمنين ، والطمع يغرى بالطمع ، والمال يغوى ويضل ٠

ولقد وصف ابن اسحاق المعركة قبل التسابق على الغنائم فقال أنزل الله نصره على المسلمين وصدقهم وعده ، وحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر ، وكانت الهزيمة لا شك فيها ٠ ويقول البطل الزبير بن العوام « ولقد رأيتنى أنظر الى خدم هند وصواحبها مشمرات هوارب ما دون أخذهن قليل ولا كثير » ٠

أخذ ناس يجمعون الغنائم ، ورأى الرماة الغنائم تكثر ، ويتسابق اليها من يريدونها ، فتركوا حماية ظهور المؤمنين ، ونضح الخيل بالنبال ، وأمر

النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، بألا يتركوا أماكنهم سواء أكان القتل للمؤمنين أم كان على المؤمنين ، لأنه لا يريد أن يحيط جيش المشركين الكثير بجيش المؤمنين الذى لم يصل فى العدد الى ربعه ·

زايلوا أماكنهم ، وعين خالد وعكرمة تترقبهم ، ويريدون فرصة ينتهزونها لفعل الخيل ، فانقضوا على مواطن الرماة ، وأخذوا جيش الايمان من ظهره ·

والجزء الأكبر من جيش قريش يسير فى انكسار ، ولا يتوقع الا الهزيمة حتى أخذ ينادى خالد بن الوليد جيش قريش بأنه أخذ يضرب جيش محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من ظهورهم ، فعادوا كلبين على جيش المسلمين يريدون أن ينالوا منالا ، وأرادوا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ليقتلوه ، واذا كانوا قد أحاطوا بجيش الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فالله سبحانه وتعالى من ورائهم محيط ·

قال ابن اسحاق :

انكشف المسلمون فأصاب فيهم العدو ، وكان يوم بلاء وتمحيص ، أكرم الله سبحانه وتعالى من أكرم من المسلمين بالشهادة ، حتى خلص العدو الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فرمى رسول الله تعالى عليه وسلم بالحجارة ، حتى وقع ، فأصيبت رباعيته وشج فى وجهه ، وكلمت شفته ·

وهكذا وصل جيش المشركين الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ودخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته الطاهرة ، ووقع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حفرة من الحفر ، وكان أبو عامر الأوسى ، قد حفرها ليتردى فيها المسلمون عند هجومهم ، فأخذ على بن أبى طالب بيد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائما ·

وأخذ عليه الصحابة يزيلون وضر الجروح عن وجهه ، ونزع أبو عبيدة عامر بن الجراح احدى الحلقتين من وجهه ، نزعها بأسنانه ، فسقطت ثنية أبى عبيدة ، ثم نزع الأخرى ، فسقطت ثنية أخرى ·

كان جيش الشرك لايريد الا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ظانين أنهم ان قتلوه ، انتهى الأمر ، ولذلك أحاط به الصناديد من المؤمنين الذين كانوا فى صدر الجبهة ، وأخذوا يذودون عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والسيوف تعتورهم ، ومنهم كثيرون ذهبوا فداء لرسول الله صلى الله

تعالى عليه وسلم ، وذهب من جيش الشرك من يخصه بالضربة غير مبال بشىء ٠

وفى ذلك الوقت اشتدت الحماسة فى الدفاع عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان بجواره مصعب بن عمير حامل اللواء يذود فقتله من يريد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وظن أنه قتل رسول الله صلى تعالى عليه وسلم ، ونادى فى قريش أن محمدا قتل ، وقد أعطى اللواء لعلى ٠

وقد اتجهوا الى النبل يصوبونها على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واتخذ أبو دجانة من نفسه ترسا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقع النبل فى ظهره وهو منحن عليه ، حتى كثر النبل ، وبينما أبو دجانة يترس دون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان سعد يرمى المشركين بالنبل ليبعدهم عن الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، والرسول عليه الصلاة والسلام يناوله ما يرمى به ، ويقول له : ارم فداك أبى وأمى ٠

لنترك الذين حول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما أصاب الرسول ، ولنتجه الى ما جرى فى جيش الايمان بعد الاحاطة بهم ٠

لقد شاع فى المشركين أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد قتل ، فأيأس الخبر الجميع ، ويئس الضعفاء وتحمس الكثيرون ، وصاح فيهم أنس ابن النضر : « ماذا تصنعون بالحياة بعده ، قوموا وموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، واستجاب الناس لندائه ، وقاتل حتى قتل ٠

ثم جاء البشير من بعد فترة بأن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يقتل ، فنهضوا ، ونهض معهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من الشعب الذى كان به بجوار أحد ، ومعه أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وغيرهم من أقوياء المسلمين يستردون الموقف بعد المباغتة التى بلغ الاضطراب فيها أن قتل بعض بعضهم بعضا وقد صارت الأمور لأهل الايمان فوضى ٠

وكان أبوسفيان قد أشرف بمن معه على المسلمين ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو فى هذه الشدة لا يعلونا اللهم ان تقتل هذه العصابة لا تعبد فى هذه الأرض ، وندب من أصحابه من أنزلوهم ، واستقتل المسلمون فى ذلك حتى أزاحوهم عن الجبل ، وشقوا طريق قريش ، وان كان الجيش كليلا مكاوما ، ولكنها قوة الايمان المستيقظة فى قلوب رجال بدر

الكبرى ، وبقية سيوفها ، وبقية السيف أبقى عـددا ، كما قال على بطل بدر وأحـد ٠

نهنه ذلك من عزيمة قـريش ، اذ كانت الحجارة ترمى من الجبل على فرسان خالد الذى أخرجهم من الهزيمة الساحقة ، وان لم يأخذهم الى نصر حاسم ٠

وألقى اليأس فى قلوبهم من نصر حاسم حالق لقوى المسلمين ما جاء به البشير من أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم حى ، يدبر لهم ، ويكيد ٠

عادتالقيادة الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن اضطربت أمور الجيش ، وحمل الله اللواء على بن أبى طالب ، بعد أن سقط حامله مصعب ابن عمير ، وانه بعد أن حمل اللواء على ، وهو الذى يهجم ويضرب ، فلا يهمه أيقع الموت عليه أم يقع على عدوه ، وبعد أن استولى المسلمون على الهضبة أخـذوا يقاتلون ، ولم يغن المشركين ، اذ اســتمر خالد فى هجومه ، فقـام المسلمون ، وكانت الصفوة المختارة من أصحاب رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم ومن أمثال أبى دجانة والزبير ، وطلحة ، وحامل اللواء على فقابلوه بهجوم مضاد وصدوه ، بعنف الجبال ٠

ومض برق النصر لقريش عندما اضطرب جيش المسلمين ، وكثر الفتك فيه ، وليس عددا كثيرا بجوار عدد المشركين ، وعندما شاع بينهم أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم قد قتل وحسبوا أنهم منتصرون ســاحقون لجيش النبى عليه الصلاة والسلام ، جيش الايمان ، ولكن ذهب البرق الذى خطف أبصارهم عندما علا جيش المسلمين الى الهضبة ، وصـد هجمات خالد ومن معه ، وحمل اللواء على ، واللواء حامل النصر ، وان تخاذل خذل من وراءه ، وعلى لا يتخاذل ، وقد علموا سيفه فى بدر وأحد ، وكما قال أبو سفيان يؤتى الجيش من حامل لوائه ٠

ولا ننسى أن جيش قريش قد أصابته جراح الحرب ابتداء ، فالأمل هـو الذى داوى جرحه فهجم ، وسط اضطراب جيش الايمان ، فلمـا استقام لـه الأمر ، فغرت جراحهم ، وخافوا العقبى ، ويئسوا من النصر السـاحق ، اذ رأوهم وقفوا أمامهم ، وقد ذاقوا من قبل وبال الأمر من هجومهم ، وان كانوا قليـــلا ٠

عندئذ رأوا أن ينهوا القتال ، وقد فرحوا بهذا النصر المؤقت ، وخشـوا

أن يضيع منهم وانه لابد ضائع ، لقياسهم القابل على الماضى ، والحاضر لحظة ستصير ماضيا ٠

٤٢٤ — هذه غزوة أحد التى يقول فيها المؤرخون ان الهزيمة فيها كانت على جيش النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ،ولكنى أرى أن تسمية ما أصاب المسلمين هزيمة ليست تسمية تنطبق على الواقع تمام الانطباق ، انما تكون الهزيمة اذا كان جيش الايمان قد فر فرارا ، والآخر قد تبعه فى فراره ، حتى داهم المدينة المنورة ، وكان ما يكون بعد ذلك ٠

انما الذى أنهى القتال هم المهاجمون ، وكأنما اكتفوا بأن أصابوا مقتلة من المسلمين ، ورضوا بذلك لأنهم لا طاقة لهم فيما وراء ذلك ، وقد رأوا السيوف الاسلامية تبرق ، وذاقوها مرتين ، ولذا تتبعهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ .

واذا كان ما فى أحد لا يسمى هزيمة ، فانه لا يسمى نصرا أيضا لأحد الفريقين ٠ وقد يسمى جراحا للمسلمين ، كما سماها القرآن الكريم ، اذ سماها قرحا ، وسماها اصابة ، فقد قال الله سبحانه وتعالى : « **ان يمسسكم قرح ، فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ، ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، فقد رأيتموه ، وأنتم تنظرون ، وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين** » ٠

٤٢٥ — وقبل أن نترك الكلام فى الموقعة التى أنهاها المشركون ، ولم ينهها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يعترف بانتهائها بانهائهم ، بل سار وراءهم حتى فروا هم فرارا ٠ لابد أن نشير الى أمور ثلاثة :

أولها : أن النبى صلى الله تعالى وسلم قد قتل مشركا بيده فى هذه الغزوة ، ذلك أن أبى بن خلف قد أراد أن يقتل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد اعتزم ذلك الاثم وهو فى مكة المكرمة ، فلما كان يوم أحد أقبل أبى مقنعا بالحديد ، وهو يقول : لا نجوت ان نجا محمد ، فاستقبله مصعب بن عمير فقتله ولكن قيل مصعب بن عمير ، قتل غيره ، وكان على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرده بنفسه ، فأخذ الرمح وأبصر عليه الصلاة والسلام ترقوة أبى بن خلف من فرجة بين سابغة الدرع ، والبيضة الحديد ، فصوب

رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى الترقوة من بين الحديد ، فطعنه بالحربة ، فوقع الى الأرض عن فرسه ، ولم يخرج من طعنته دم ، كما يقول الرواة ، فأتاه أصحابه ، وهو يخور خوار الثور ، فقالوا له ما أجزعك !! انما هو خدش ، فقال والذى نفسى بيده لو كان الذى بى بأهل ذى المجاز لماتوا أجمعين فمات الى النار فسحقا لأصحاب السعير ٠

ويقول ابن اسحاق فى وصف قتل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم له وقد جاء اليه قال : دعوه فلما دنا منه تناول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، الحربة من الحارث بن الصمة ، فقال بعض القوم ، كما ذكر لى ، فلما أخذها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انتفض انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير اذا انتفض ، ثم استقبله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فطعنه فى عنقه طعنة تدأ دأبها عن فرسه مرارا ٠

وان هذا يدل على قوة بأس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وان كان لا يقتل بيده ٠

الأمر الثانى : أن النساء كن يخرجن فى جيش النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يحملن الماء للمجاهدين ويداوين الجرحى ان أمكن ذلك ، وقد يضربن بالسيف ، ان كانت ضرورة لذلك ، يروى أن أم عمارة نسيبة المازنية قد خرجت مع الجيش تحمل سقاء فيه ماء ، لتسقى الجيش ٠ وكانت تشد أزر المجاهدين ، فلما أحدق المشركون وأحست بأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرض للمشركين ، وقد جعلوه هدفا مقصودا ٠ استلت السيف ، وأخذت تذود عنه صلى الله تعالى عليه وسلم مع الذائدين ، وترمى بالقوس ، حتى نزلت بها جراح شديدة وأصاب عاتقها جرح أجوف له غور ٠

ولقد كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تغسل الدم عن وجه أبيها الكريم ، وتداوى جرحه ٠ روى البخارى عن سهل بن سعد أنه قال : « أما والله انى لا أعرف من كان يغسل جرح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومن كان يسكب الماء وبما دوى ، كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تغسله ، وعلى يسكب الماء بالمجن ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم الا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها وألصقتها ٠

والظاهر من هذا الخبر أن فاطمة الطاهرة بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد خرجت مع المجاهدين ، فداوت جرح أبيها عليه الصلاة والسلام أو أن يكون الدم استمر يسيل حتى عاد الى داره والله تعالى أعلم ٠

الأمر الثالث : ما فعله المشركون بالقتلى ، وخصوصا الجثمان الطاهر ، جثمان حمزة رضى الله عنه ، وأقرنه بما فعل على رضى الله عنه عندما صرع مبارزة ابن أبى طلحة ، فقد بدت عورته ، فرفع على سيفه وأخذته المروءة والرحم ، ولكن أنى تكون امرأة أبى سفيان وأبو سفيان ، وعلى البطل الذى يقرع الأقوام فى وجوههم ، ولا يقرعهم مدبرين ٠

سلط المشركون النساء على القتلى يمثلن بهم بقيادة هند بنت عتبة زوج أبى سفيان ، وأم معاوية ، وذكر ابن اسحاق أنه وقعت هند بنت عتبة ، والنسوة اللائى معها يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يجدعن الآذان والأنوف ، حتى اتخذت هند من آذان الرجال وأنفهم خلاخل ، وقلائد ، وقد أعطت قلائدها الحقيقية وخدمها وأقراطها وحشيا الذى اغتال حمزة غدرا وخيانة وجبنا ، وبقرت بطن حمزة ، وأخذت كبده فلاكتها ولم تسغها ، فلفظتها ثم علت على صخرة مشرفة ٠

وانشدت تقول :

نحن جزيناكم بيوم بدر	والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان عن عتبة لى من صبر	ولا أخى وعمه وبكرى
شفيت نفسى وقضيت نذرى	شفيت وحشى غليل صدرى
فشكر وحشى على عمرى	حتى ترم أعظمى فى قبرى

من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

٤٢٦ — « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ٠ وما بدلوا تبديلا ، ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم ان الله كان غفورا رحيما » ٠

وان النص السامى الكريم ينطبق على الذين ثبتوا من رجال المؤمنين فى أحد ، سواء أنزلت الآية فيهم أم كانت عامة ، تعم كل رجال الجهاد من المؤمنين ٠

فقد كان فى هذه الغزوة رجال كانوا صادقين فى حربهم ، وصادقين فى ايمانهم منهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب الذى كان يدق جيش الشرك دقا ، ومنهم أبو دجانة الذى كان يفلق الهام بسيف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأعطى السيف حقه ٠ ومنهم مصعب بن عمير ، ومنهم بطل الأبطال على بن أبى طالب الذى حمل اللواء فى الشديدة ، فكان اعطاء اللواء له ارهابا للشرك ، ومنهم طلحة بن عبيد الله ، الذى كان له الفضل الأول فى تحويل الحرب من هزيمة متوقعة للمؤمنين الى نصر متوقع للمؤمنين ، ومن بعده أنهى المشركون القتال خشية أن تكون العاقبة عليهم ، لا لهم ٠ وذلك عندما طلب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من صحابته الأبطال الذين يحوطونه أن يعلو الى الجبل ، حتى لا يكون أبو سفيان فى علو عليهم ٠

ولنترك البيهقى يتكلم فى دلائل النبوة « انهزم الناس عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبقى معه أحد عشر رجلا من الأنصار ، وطلحة ابن عبيد الله وهو يصعد فى الجبل فلحقهم المشركون ، فقال ألا أحد لهؤلاء ، فقال طلحة أنا يا رسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام كما أنت ، فقال رجل من الأنصار فأنا يا رسول الله فقاتل عنه ، وصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بقى معه ، ثم قتل الأنصارى فلحقوه ، فقال الا رجل لهؤلاء ، فقال طلحة مثل قوله ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مثل قوله ، فقال رجل من الأنصار فأنا يا رسول الله ، فقاتل ، وأصحابه يصعدون ، ثم قتل فلحقوه ، فلم يزل يقول مثل قوله الأول ، ويقول طلحة أنا يا رسول الله فيستأذنه رجل من الأنصار للقتال ، فيأذن له ، فيقاتل مثل من كان قبله ، حتى لم يبق معه أحد الا طلحة ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من لهؤلاء : فقال طلحة أنا يا رسول الله ، فقاتل مثل قتال من جميع من كان قبله ، وأصيبت أنامله ، ثم صعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى أصحابه وهم مجتمعون ، وقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك يوم كان لطلحة ٠

وان صعود جيش المسلمين الى الجبل بعد أن أبعدهم المشركون فيصل بين الاضطراب فى جيش المؤمنين ، وبين اعادة الخطة ، والسير على المنهاج من غير اضطراب وحامل اللواء على كرم الله وجهه ، ولذا أخذوا يضربون أقوى فى المشركين بقيادة خالد بن الوليد ، وينتصفون منهم ، وقد زال عنهم وعث الجروح ، وانتظم جيش النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك أنهوا القتال وشيكا ، ولم يستمروا خشية أن تدور عليهم الدائرة كما ابتدأ المسلمون يحسونهم باذنه ٠

فرحة أبى سفيان بالنصر القريب

٤٢٧ — أنهى أبو سفيان الحرب فرحا ، راضيا بما وصل اليه ، وان لم يكن نصرا لهم وسحقا للمسلمين ، ولكنه أدرك الثأر وكفى ، والوقائع أقنعته بأن يكتفى بذلك ، حتى لا يضيع من يده ما أخذ ، وهو أنه ثأر ، وأخذ ترته ، وكفاه ذلك ، ولم يقتلع المدينة المنورة ، ولم يستطع أن يمنع أسباب مصادرة ماله وغيره ولكن وقف يفاخر بما وصل اليه ، وينادى المؤمنين ، يقول :

أفى الجيش محمد ؟ أفى القوم محمد ؟ أفى القوم محمد ؟ نادى ثلاثا ، فنهاهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يجيبوه ، ثم قال أفى القوم ابن أبى قحافة أفى القوم ابن أبى قحافة ، ثم قال : أفى القوم ابن الخطاب ، ثم أقبل على أصحابه ، قال أما هؤلاء فقد قتلوا وقد كفيتموهم فما ملك عمر نفسه فقال : كذبت والله يا عدو الله ، ان هؤلاء لأحياء كلهم وقد بقى لك ما يسوءك · فقال : يوم بيوم بدر والحرب سجال ، انكم ستجدون فى القوم مثله لم آمر بها ، ولم تسؤنى ·

ثم أخذ يرتجز فرحا : اعل هبل ، اعل هبل ·

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ألا تجيبونه ؟ قالوا يا رسول الله وما نقول ؟ قال قولوا الله أعلى وأجل ، قال ان لنا العزى ، ولا عزى لكم · قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ألا تجيبونه ؟ ! قالوا يا رسول الله فما نقول ؟ قال قولوا الله مولانا ولا مولى لكم ·

وصف المعركة فى القرآن الكريم

٤٢٨ — وصف القرآن الكريم المعركة وصفا دقيقا ، ووصف نفوس جيش النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، خصوصا الذين كانوا يطلبون المال فى المعركة ، وآثارهم فيها ، فقال الله سبحانه وتعالى :

« هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله · وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ، ويمحق الكافرين ، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، ويعلم الصابرين ، ولقد

كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، فقد رأيتموه ، وأنتم تنظرون ، وما محمد الا رسول ، قد خلت من قبله الرسل ، افان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين ، وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين » ٠

هذه الآيات الكريمات تصور النتيجة التى انتهت اليها المعركة بالنسبة لما أصاب المسلمين من قرح ، وأنه كان اختبارا للمؤمنين ليتميز المجاهدون الصابرون من الضعفاء المترددين ، وفى هذا اشارة الى أنه كان فى جيش الاسلام مترددون ، كما أشرنا فى وصف الجيش ٠

وفى النص الكريم ما يشير الى حقائق ثابتة ، منها أن الاصابة مرة لا يصح أن تحدث الوهن والحزن ، فهما يولدان اليأس من رحمة الله ، وليس اليأس من شأن أهل الايمان ، فانه لا ييئس من روح الله الا القوم الكافرون ٠

ومنها أن القياس بالمماثلة بين ما أصابهم فى الماضى ، وما أصاب المؤمنين يريح النفس ، وقانون الحياة الذى سنه الله تعالى فى الوجود المداولة ، حتى يكون النصر النهائى ، وما النصر الا من عند الله العلى الحكيم ٠

ومنها بيان أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان كان صاحب الرسالة لا يصح أن يكون موته أو قتله منهيا لدعوته ، بل على المؤمنين من بعده ألا ينقلبوا خاسرين ، وعليهم أن يتحملوا الرسالة ويبلغوها الناس ويجاهدوا فى سبيلها غير وانين ولا مقصرين ٠

هذه حال المسلمين فى أعقاب المعركة ، والعبرة فيها ٠

ولقد وصف الله سبحانه وتعالى المعركة فى ابتدائها ، ووسطها وما أصاب النفس المحاربة ، ان كانت مترددة ، والنفس ان كانت مجاهدة ، وبين سبحانه وتعالى سبب العجز ، فقال تعالت كلماته : « **ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه ، حتى اذا فشلتم ، وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا الله عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين ، اذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم ، فأثابكم غما بغم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ، ولا ما أصابكم ، والله خبير بما تعملون ، ثم انزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم انفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل ان**

الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا ، قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ، وليبتلى الله ما فى صدوركم ، وليمحص ما فى قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور ، ان الذين تولوا منكم ، يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم ، ان الله غفور حليم » ٠

ونرى فى هذه الآيات الكريمات وصفا دقيقا للمعركة ، ووصفا للنفوس بينه العالم بما فى الصدور ٠

ونرى الآيات تبين ابتداء المعركة ، وقد كان فيها جيش الايمان يحس الشرك بأن يصيب حسه ، واصابة الحس قتل الأنفس ٠ وازالة عنصر الحياة فيها ، بازالة الحس الذى هو مظهر ٠

ويجىء من بعد ذلك الاختلاف حول الغنائم ، بسبب التردد بين أخذها وبين تركها ، وفى الأولى عصيان القائد الأعظم ، وفى الثانية عصيان النفس ، وطاعة القائد هو أولى بها ، وان كل تنازع عجز ، ولذا بين القرآن الكريم أن ذلك فشل ذريع ،، ثم غلب بعد ذلك العصيان ٠

وانبثق فى هذا الخلاف ما تكن النفوس ، فكان منها من يريد الدنيا ، وهم الذين تبعوا الغنائم ، وأخلوا بالصفوف ، وصرف الله تعالى جيشه الذى كان موحدا فى الظاهر ، لتكون تلك الجراح ، والمقتلة التى أصابت المسلمين ٠

وصور الله تعالى المعركة فى انتصارها وكبوتها ، اذ هم يصعدون ، والرسول عليه الصلاة والسلام يدعوهم فى أخراهم ٠

ثم من بعد ذلك كانت الحسرة ، فلم ينالوا مالا ، ولم يحفظوا نفسا ، وأصابهم غم شديد ، بل أصابهم غمين ٠ غم بسبب ضياع الأنفس وضياع المال اذ تعجلوا قبل ميقاته ، وغم اذ نالهم ، وأحسوا بما كان منهم ، فلا يحزنون على مال فاتهم ، ولا جروح أصابتهم ، انما هو الغم والغم انزال غمة بالنفس ، تكون منها فى ظلام لا يرى ما وراءه ، ويصيب النفس بالاعياء المرهق كدا وحسرة ٠

وان ذلك كان عاما لمن كان يريد الدنيا ، ومن كان يريد ما عند الله ، وقد خص الذين يريدون ما عند الله تعالى بأنه بعد الغم المتوالى ، غما بعد غم ، كان الاطمئنان والرضا بما كان مستفيدين من العبر ، وكان مظهر هذا الاطمئنان النعاس الذى لا يكون الا من قرار نفس ، واطمئنان حاضر ، ورضا بما قدر الله تعالى ، وقد بذلوا فى جهادهم كل الأسباب ، وقد فاتهم النصر

الحــاسم كمن كان الشيطان قد استزلهم بأن أوقعهم فى الزلل ، بمــا كسبت قلوبهم من طلب للمال ٠

والآخرون الذين لم ينلهم الاطمئنان ، لأنهم الذين باشروا سبب الفزع والاضطراب الذى أصــاب جيش قد أهمتهم أنفسهم ، فكانوا فى هم دائم ، لأنهم فقدوا المال الذى كانوا يريدونه ، وأصابتهم حسرة من الجراح التى نزلت بهم ، وبالمؤمنين ، ولأنهم لم يطيعوا ٠

ولقد حدث من بعضهم أنه بعد الانكسار المؤقت الذى أصــاب الجيش فكر بعضهم فى أن يكتب الى عبد الله بن أبى رأس المنافقين ، يؤمنون أنفسهم عنده ، ويظهرون له الطاعة بعد العصيان ٠

فقد جــاء فى تاريخ الحافظ ابن كثير أن بعض الذين كــانوا قد همــوا بالفشل أنهم قالوا « ليت لنــا رسولا الى عبد الله بن أبى فيــأخذ لنا أمنة من أبى ســفيان ، ياقوم ان محمدا قد قتل ، فارجعوا الى قومكم قبــل أن يأتوكم فيقتلوكم ، فقال أنس بن النضر ياقوم ان كان محمد قد قتل ، فان رب محمد لم يقتل ، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ، اللهم انى أعتذر اليك مما يقول هؤلاء ، وأبرأ اليك مما جاء به هؤلاء ، ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل » ٠

وقد أشرنا الى ذلك من قبل ، ونذكره هنا بيانا لمــا نشير اليه ، فهؤلاء هم الذين أهمتهم أنفسهم ، وقد جرهم الشيطــان الى الزلل بسبب ما كسبت نفوسهم من تردد ، ومرض نفسى ، فكان زللهم نكبة للجيش ، وان لم تؤد الى هزيمة وان هذا يزكى ما قلنا فى أول القول عندما وصفنــا جيش المسلمين ، بأن فيه بعض المترددين دعاة الهزيمة اذا وجدت أسبابها ، وأنهم ما جاءوا الا للغنائم ، وأنهم نفسوا على أهل بدر ما نالوا من أنفال ، فلم يريدوا القتال الا لينالوا مثل ما نال الذين سبقوا بالجهاد حقا وصدقا ٠

تمام المعركة

٤٢٩ ـــ قلنا ان غزوة أحد لم تكن فيها هزيمة على المؤمنين ، وانما الذين أنهوها هم المشركين ولم تكن قد انتهت من قبل المؤمنين ٠

نعم انه كانت جراحات من المؤمنين ، ولكن لم تثخنهم ، وكانت جراحات فى المشركين دون جراحات فى المؤمنين ، ولم يكن عمل المشركين الا أن جاءوا فأخذوا ببعض ثاراتهم ، ولم يأخذوا بها كاملة ، فهل نالوا من على نيلا ؟ وهل

نالوا من الزبير ؟ وهل نالوا من أبى دجانة ؟ وهل نالوا من طلحة بن عبيد الله ، فان كانوا قد نالوا من حمزة ، فان الذين وتروهم كانوا لهم بالمرصاد ٠

واذا كان المشركون قد أنهوا الحرب ، بما يشبه الفرار عندما استرد المسلمون جأشهم ، واستقاموا لجهادهم ، وأخذوا يكيلون لهم ، وخافوا على أنفسهم من عودة الوثبة ، وأن يحسوهم باذن الله تعالى كما ابتدءوا ،لم ينه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الحرب ، ولذا تبعهم بالجند المؤمنين ، ولا يجدد الجيش ، بل يذهب اليهم بمن كـانوا معه ، واذا كان قد فقد من جيشه نحو السبعين ، فانه بقى له فوق ستمائة ، واذا كانوا قد أصابتهم جراحهم ، ولكنها لم تثقلهم ، وهم بقية السيف وبقية السيف كما قال بطل الجهاد على ابن أبى طالب ، بقى عددا ٠

خروج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

٤٣٠ ـــ بعد أن عـاد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة المنورة من المعركة التى كانت يوم السبت ١٥ من شوال سنة ثلاث ، وكـان يوم الأحد فى الغداة يدعو جنده للذهاب الى تتبع المشركين ، ورأى صلى الله تعالى عليه وسلم ألا يخرج معه الا من كان من رجـاله فى أحد ، وقد عرض عليه عبد الله بن أبى ومن رجعوا أن يخرجوا معه ، فرفض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يخرجوا ، وقد فرح المؤمنون بخروجهم ، وقد قـال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « لا يخرجن معى الا من شهد القتال » فاستجاب الذين أخلصوا دينهم لله فرحتى على ما أصابهم من جروح وبلاء ، وقد روى أن الله سبحانه وتعالى قال فيهم : « **الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم** » ٠

هذا جـانب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم خرج ليتمم المعركة ، يطلب العدو الذى أنهى هو الحرب ، ورحاها دائرة ، ولم يتركوها رحمة ، بل لمجرد الرضا بما وصلوا اليه من ثارات غير كاملة ، فالأبطال الذين جندلوا مشايخهم بدر كأبى دجانة وعلى والزبير ما زالت سيوفهم مشهورة عليهم ٠

والمشركون من بعد أن أنهوا القتال شبه فارين من نهايته ، فـانه روى أنهم أخذوا يتلاومون ويقول بعضهم لبعض لم تصنعوا شيئا ، أصبتم شوكة القوم وحدهم ، ثم تركتموهم ، ولم تبتروهم بل منهم رءوس يجمعون لكم ٠

ذلك قولهم بأفواههم ، والحق أن رجالات محمد عليه الصلاة والسلام مازالت فيهم البقية المرهبة ، وما زال الايمان بنصر الله يملأ قلوبهم ٠

ولقد هم المشركون أن يرجعوا لولا أنهم علموا الوثبة الاسلامية بقيادة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد ابتدأت العودة اليهم عندما علا النبى عليه الصلاة والسلام بجيشه فوق الهزيمة ، وأخذ يذيقهم وبال أمرهم ، فانتهوا لما علموا ذلك ورجعوا عن عزمتهم ورضوا بما نالوا ٠

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى حمراء الأسد ، وهى تبعد عن المدينة المنورة بنحو ثمانية أميال ، وأقام على المدينة المنورة ابن أم مكتوم ، وقد لقيه بعض بنى خزاعة ، وكانوا يميلون الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مسلمهم وكافرهم فقال قائلهم للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ؟ ! يامحمد انا والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك ، ولو درنا أن الله تعالى عافاك فيهم ، وقائل هذا القول هو معبد بن أبى معبد الخزاعى ٠

ذهب من ذلك معبد الى الروحاء وفيها أبو سفيان بن حرب ، وقيل انهم كانوا أجمعوا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن من غير اقدام ، بل على خوف ووجل ، ولذلك جبنوا لما علموا بخروج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم للقائهم ٠

سأل أبو سفيان معبدا قائلا ما وراءك يامعبد ٠

قال معبد : محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقا ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم ، وندموا على ما صنعوا ، فيهم من الحنق عليكم شىء لم أر مثله قط ٠

قال أبو سفيان : ويلك ما تقول ؟ والله ما أراك ترتحل ، حتى ترى نواصى الخيل ، ووالله لقد اجتمعنا للكرة عليهم ، حتى تستأصل شأفتهم ٠

قال سعيد ، فانى أنهاك عن ذلك ٠

نهنه من عزمتهم ، وقل من شوكتهم كلام معبد ، وقد كانوا على رجل من اللقاء ، ولكنهم أرادوا أن يمنعوا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم من اللحوق بهم ، فكلفوا بعض عبد القيس بأن يفزعوا النبى كما فزعوهم فركب عبد القيس بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : وهو بحراء الأسد ، فأخبره بأن أبا سفيان قد أجمع على السير اليه ليستأصل بقيتهم ٠

فلم يفزع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كما فزع هو بل قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، وقد قال البخارى : انه نزل فى هذا قول الله سبحانه وتعالى :

« **الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم ، فاخشوهم فزادهم ايمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** » وأخيرا ارتد المشركون على أعقابهم خاسئين ، ورضوا بما لقوا ·

والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يتبعهم ، فهل كان المسلمون بعد ذلك فى واقعة أحد مهزومين ؟ لقد أصابهم قرح والجروح تصيب المقاتلين ولا تعد فى قانون الحرب هزيمة ، انما الهزيمة أن يولوا الأدبار ويفروا فرارا ·

رحمة النبى صلى الله عليه وسلم القائد

٤٣١ — ان القائد الذى يسير وراء الجيش ، ويقدم روحه بين يديه ، ويقدم معه على مواقع الردى غير هياب ولا وجل ، هو القائد الرحيم الذى يحمى الخبر من ورائه بأن يحنو عليهم كما يحنو الأب على أبنائه ، فاذا قدمهم للاستشهاد فلمقصد أسمى ، يقدم نفسه فيه أمامهم ·

وليس القائد المظفر هو الذى يقدم جيشه الى الميدان ، كما يقدم أدوات الحرب ، ومعدات القتال ، من غير قلب يرحم ، وينسى أن الجيوش قلوب تقدم ، وأرواح تتقدم فداء للمعنى الانسانى العالى الذى تقاتل من أجله ، وتخوض له مشتجر السيوف ، وتلقى بالحتوف نصرا له ، وتأييدا لكلمة الحق ، ان هذا النوع من القواد الجامدين الذين يحسبون الحرب تخطيطا وليست رحمة ، أو تلابسها رحمة لا ينتصر ، وان انتصر مرة ، لا يعاوده النصر مرة أخرى ، لأنه لا يجد جندا ينصرونه ، ولقد رأينا ممن يحسبون أنفسهم قواد الحرب من يرى صرعى جيشه فى الصحراء ، ولحومهم تنهشها ذئابها ، ويقول غير حزين : هكذا الحرب ، ولذلك توالت هزائمه ·

ولقد كان بونابرت قائدا مظفرا حتى عاد الى فرنسا ، وترك جنده فى روسيا يأكلهم الثلج ، وقد أذاقهم لباس الجوع ، فكان ذلك مفتاح هزيمته ، وما انتصر من بعد ذلك انتصارا حاسما ·

وان محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم كان المثل السامى لرحمة القائد بجنده ، كأنهم قطع من نفسه ، ولقد زكى الله سبحانه وتعالى هذه الرحمة المحمدية النبوية ، فقال الله سبحانه وتعالى : « **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب ، لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ، ان الله يحب المتوكلين** » ·

وقد بدت رحمة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بجنده فى أحد ، وعقب الجروح التى أصابت الجيش الاسلامى ، فماوجه لوما لأحد ، وما جال بخاطره أن يحاكم المقاتلين لأخطاء وقعت ، بل كل همه فى الميدان أن يسترد الموقف لأصحابه ، وأن يقفوا ، ولا يخروا صرعى أمام أعدائهم ، بل ارتقى بهم الى الهضبة وأعطى الراية من يحملها بحقها ، وناضل ، وقاوم ، حتى أيئس المشركين من أن يستأصلوا المؤمنين ، بل خافوا منهم ، وأنهوا القتال وان لم يكونوا مدحورين ، خشية أن يندحروا ، اذ رأوا جند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد اشتد بأسهم فى القتال مع هذه الجراح التى جرحوها ٠

وعفا عنهم ، ليستبقى نخوتهم ، وبأسهم لما يأتى ، وان لم يكن ما وقع لا يسر ، بل كان يضر ، ولم يكتف عليه الصلاة والسلام بالعفو ، بل استغفر لهم بأمر ربه ٠

ولعل شوراهم هى التى جعلتهم يواجهون المشركين ، وقد كانوا بمنجاة عن ذلك ، لو أخذوا برأى الرسول ، ولكن الشورى لم تكن سبب الجراح ، انما عصيان القائد ٠ والخروج عما رسم من نظام كان هو السبب المباشر ، ولذلك أمره الله سبحانه وتعالى أن يستمر فى الشورى فخطأ الشورى دائما الى صواب ، لأنه يقوى ارادة الأمة ، وصواب الاستبداد دائما الى خطأ ، لأنه يضعف ارادة الأمة ، وضعف الارادة يضعف العزيمة ويفسد النفس ، وذلك فى ذاته خطأ ٠

ولقد أخذت الرحمة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالشهداء من الصحابة ، فأمر بأن يدفنوا بدل أن يرسلوا الى أهليهم ، ومن أخذه أهله رده الى الموطن الذى استشهد فيه ، وذلك لكيلا تتبعثر أبدانهم الطاهرة ، ولكيلا تثير رؤية ذويهم ألما وحزنا ، ولكيلا يتصايح أهلوهم بالندب والنواح ، فكانت رحمة الله تعالى بهم أن يدفنوا حيث هم ، ليعرف الناس فضلهم ، ولقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من بعد يزور مصارعهم ، وسلك ذلك أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، رضى الله تعالى عنهم جميعا ، وعلى كان يكرم ذرية أهل بدر وأهل أحد ، فيزيد فى الصلاة عليهم تكبيرات فى صلاة جنازتهم ٠

ولقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يدفن الشهداء ، ويجمع فى القبر أكثر من واحد ، ويختار من كانوا ذوى صحبة بينهم ، فيدفنهم فى قبر واحد ، وكان يقدم فى الدفن الأقرأ فالأقرأ ، وكلهم شهداء ذوو فضل عظيم ومقام كريم فى الاسلام ٠

وقد كان عليه الصلاة والسلام لا يمنع أن يبكى أهل الشهيد من بكاء عليه حزنا ، وان كان قد فاز بالشهادة ، وكان يقول عليه الصلاة والسلام : « البكاء من الرحمن والصراخ من الشيطان » ٠

وكان يبكى بكاء شديدا على عمه حمزه أسد الله تعالى ، حتى انه رأى نساء الأنصار يبكين قتلاهم فقال صلى الله تعالى عليه وسلم حزينا باكيا ، وحمزة « لا بواكى لحمزة » ٠

ومن رحمته عليه الصلاة والسلام بأهل الميت انه منع السيدة العظيمة عمته صفية من أن ترى أخاها حمزة مقتولا ، وقد عبث العابثات من نساء المشركين بجثمانه الطاهر ، ومثلوا به ٠

قال ابن اسحاق : قد أقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر اليه (حمزة) وكان أخاها لأبيها وأمها ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم للزبير الحقها فارجعها ، لا ترى ما بأخيها ، فقال لها الزبير ، ارجعى يا أمه ، ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأمرك أن ترجعى ٠ قالت ، ولم وقد بلغنى انه قد مثل بأخى ، وذلك من الله فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبن ولأصبرن ان شاء الله ، فلما جاء الزبير الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأخبره بذلك قال خل سبيلها ، فأتته فنظرت اليه واسترجعت واستغفرت ٠

ولقد دفن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عمه سيد الشهداء حمزة مع ابن أخته عبد الله بن جحش ، وقد مثل به ، كما مثل بخاله حمزة ٠

وهكذا كان النبى عليه الصلاة والسلام القائد الرحيم يعيش بعد الجراح مع الأسر المجروحة يواسيها ، ولكن مواساة النبوة ، والحقيقة ، أن قتلاهم شهداء ، وأنهم أحياء يرزقون ، كما قال الله سبحانه وتعالى : **« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون »** وأنهم قد نالوا خير الحسنيين ، وأنهم يتمنون لو يعودون ليقتلوا فى سبيل الله شهداء كما قتلوا ، ولكن كتب الله أن الذين يموتون لا يرجعون ، ولكن يبعثون فى يوم الميقات المعلوم ٠

العدد والحساب

٤٣٢ ـــ وقف أبو سفيان بن حرب الذى كان قائد الشرك مفاخرا قائلا « يوم بيوم بدر ، والحرب سجال » زاعما أنهما يومان متقابلان تساويا فى الخسارة ، فخسارة المسلمين يوم أحد كخسارة المشركين يوم بدر ، فهل هما متساويان ·

العدد والحساب فيهما الحكم والاجابة ، لقد كان القتلى من المشركين فى بدر سبعين ، والأسرى مثلهم وفروا يومها منهزمين مدحورين ، والسيوف الاسلامية تعمل فى أقفيتهم ، فهل كانت هذه حال المسلمين : كان القتلى من المسلمين فى أحد سبعين ، أربعة من المهاجرين ، وأكثر من خمسة وستين من الأنصار ، ولم يكن من المسلمين أسير قط ، وكان القتلى من المشركين فى غزوة أحد اثنين وعشرين ، وأسير هو أبو عزة الجمحى الذى أسر يوم بدر ، وخان العهد الذى أعطاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على ألا يظاهر عليه ، فظاهر على المسلمين وجاء مقاتلا ، فأسر ، وطلب أن يمن عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لفقره ، ولبناته ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم الذى يجازى الاحسان بالاحسان ، والاساءة بعقابها · قال له لا أدعك تمسح عارضيك ، وتقول خدعت محمدا مرتين ، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين · وأمر به فقتل ·

ولم يكن من المؤمنين أسير ، ولم يفروا ولم ينهزموا مدحورين ، ولم تعمل السيوف فى أقفيتهم اذ لم يولوا مدبرين ، واذ كان قد أحيط بهم فى الدورة الثانية من أدوار القتال ، فقد شقوا طريقهم وارتفعوا عليهم ، واختاروا لأنفسهم المكان الملائم ، وأخذوا يسلبون نتائج المعركة من أيديهم حتى حسبوها ستفلت من أيديهم ، بهذا القتال ، وتتبعهم المسلمون فى اليوم التالى ، وان كانوا مجروحين لم ينهزموا لأنهم يقاتلون فى سبيل الله ، فهم ليسوا مع المؤمنين على سواء ، ونتيجة الحساب بالمعادلة تنتج أن عند المسلمين زيادة فى الغلب ·

وان الجروح التى أصابت جيش الاسلام لا تعد هزيمة · وكما قال صديقنا القائد العظيم اللواء ركن محمود شيت خطاب ، ان فقد عشرة فى المائة من الجيش مع بقائهم ثابتين ، ومع أنهم شقوا الطريق الى النصر ، لا يعد هزيمة بحال من الأحوال ·

انما هو جرح ، كما قال الله سبحانه وتعالى « **ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس** » ، فما كانت المداولة

بين الناس هنا فى الانتصار والانهزام ، بل كان فى القرح الذى مسهم مثله ، فكانت الهزيمة لهم ابتداء ، ولم يستطيعوا أن ينزلوا بالمسلمين هزيمة مثلها • بل فروا فى النتيجة فرارا •

العبرة فيما أصاب المسلمين :

٤٣٣ — ولكن مع ذلك دروس ، ففى أحد عبر وأغلاط ، هى التى جعلت المسلمين يمسسهم قرح ، كما مس المشركين قرح أولا — وقرحهم أشد ، لأنه صحبته هزيمة •

وأن الجرح الذى أصاب المسلمين له أسباب :

أولها : أن جيش المسلمين كان فيه من يطلب الغنيمة ، لأنه حسب أن النصر مفروغ منه بالقياس على ما كان فى بدر وقد ظهرت نيات هؤلاء قبل المعركة ، اذ همت طائفتان أن تفشلا والله وليهما ، وظهرت فى أثناء المعركة ، فقال سبحانه وتعالى « **منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة** » والذين يريدون الدنيا سارعوا الى الغنائم ، وعصوا أمر الرسول •

وظهر الذين يريدون الدنيا بعد المعركة ، فقد أهمتهم أنفسهم ، وندموا على الخروج لأنهم لم يصيبوا مالا وأصابتهم جراح ، ولم يعرفوا أن شأن القتال اتباع مناهجه ، فان خرجوا عنها وخالفوا أمر القائد ، ينلهم الثبور ، وانهم ان أطاعوا ، وسلكوا المنهج المستقيم نصرهم الله تعالى بتوفيقه •

ولقد كان هؤلاء يثيرون التردد فى الجهاد فى قلوب أهل الايمان ، وقال الله سبحانه وتعالى فيهم : « **أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم انى هذا ، قل هو من عند انفسكم ، ان الله على كل شىء قدير وما أصابكم يوم التقى الجمعان ، فباذن الله ، وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان ، يقولون بأفواهم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون** » •

وثانيها : ان بعض الجيش الاسلامى بتأثير الذين يريدون الدنيا قد شغلوا بالغنائم ، ولم يطاردوا المشركين بعد أن اضطربت صفوفهم بضربات المؤمنين الصادقين أولى البأس من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يتبعوا المشركين حتى يثخنوهم ، ويعجزوهم عن أن يحيطوا بهم ، ويضربوا فيهم •

وثالثها : عصيان القائد ، وذلك من الذين يريدون الدنيا ، وقد عارضهم الذين يريدون الآخرة ، ولكن الأولين كشفوا ظهر المسلمين ٠

ولقد كانت نتيجة هذه الجـراح عبرة ولم تكن هزيمة ، وهى أن الله تعالى محص الذين آمنوا بالله وطلبـوا الآخـرة من الذين يريدون الدنيا ، ولا يفكرون فيما عند الله تعالى فى الآخرة ٠

فانه فى الوقت الذى كان يجرى هؤلاء وراء الغنائم التى كانت وبالا ـ كان المخلصون الذين يريدون الآخرة قد أحاطوا بالرسول يتلقون عنه ضربات السيوف وينضحون النبل ، ويرمون ، ويأتمرون بأمر القـائد الأعظم بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام وقد باعوا أنفسهم لله تعالى يقاتلون ، فيقتلون ويقتلون حتى شقوا الطريق ، وعلوا الى الهضبة ، وأخذوا يكيلون الضربات ، حتى أيئسوهم من نصر ، وأن يلحقوا بالمسلمين هزيمة ، ولقد قال الله سبحانه وتعالى وقد تبين المجاهدون الذين أشرنا اليهم ، والذين استردوا الموقف ، بعد أن خرج بعمل الذين يريدون الحياة الدنيا « **وليمحص الله الذين آمنـوا ويمحق الكافرين أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** » ٠

وقد تبين المجاهدون الصابرون ، وكان منهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا ، وان غزوة أحد مهما تكن نتيجتها قرر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنها جرح أصيب به المسـلمون من الشرك ، فقد قـال صلى الله تعالى عليه وسلم : « لا يصيب المشركون منا مثلها ، حتى يفتح الله علينا » ٠

دعاء الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فى أحـد :

٤٣٤ ــ رأينا أن نتيمن بذكر دعاء الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فى أعقاب المعركة فى شدتها على أهل الايمان ، روى الامام أحمد رضى الله تعالى عنه فى سنده ، بالسند المتصل أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لما كان يوم أحد ، وانكفأ المشركون ، قال رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم « استووا حتى أثنى على ربى عز وجل ، فصاروا خلفه صفوفا ، فقال اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادى لما أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطى لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مبعد لما قربت ، اللهم ابسط علينا مـن بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك ، اللهم انى أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول ، اللهم انى أسألك النعيم يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف ، اللهم انى

عائذ بك من شر ما أعطيتنا ، وشر ما منعتنا ، اللهم حبب الينا الايمان ، وزينه فى قلوبنا ، وكره الينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ، اللهم توفنا مسلمين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ، ولا مفتونين ، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك ، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب ، انه الحق » ٠

هذا الدعاء الذى رواه الامام أحمد ، وقد رواه النسائى أيضا فى سننه ٠

وهكذا دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو وأصحابه الذين يريدون الحق متجهين الى الله تعالى لا يرضون الا رضاه فى جهادهم ، واستشهادهم ورغبتهم فيما عنده ، وخرج بهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، واتجاههم الى الله تعالى ، واستووا وراءه صفوفا حامدين شاكرين ، غير ناكصين ، زادتهم المحنة ايمانا وتسليما ، واذعانا وتفويضا ، فما ارتابوا ، بل ازدادوا ايمانا ويقينا ، رغبة فى حمية دينية ، وقوة ربانية ، وما ضعفوا ولا استكانوا ٠

وبذلك كان التمحيص بهذه الشدة ، فنفت الأخباث ، وبقى الجوهر ، وصقل ٠

وبينما المؤمنون يدعون مع النبى صلى الله عليه وسلم ذلك الدعاء كان الذين أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، « **يقولون هل لنا من الأمر من شيء ٠٠٠ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا** » ٠

ويقول لهم المنافقون الذين رأوا ضعفهم ، وضعضعة نفوسهم ، « **لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فادرءوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين** » ٠

أعقاب أحد

٤٣٥ — بينا أن الجيش الاسلامى لم يهزم فى أحد ، ولم ندع أنه انتصر ، لأنهم خرجوا من القتال ، ولم يمكنوا المسلمين من أن يضربوهم الضربة القاصمة ، بل انهم خرجوا راضين بالجراح فى شبه اختلاس لا لقاء ولما ركبوا ابلهم تأكد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنهم عائدون ، فعاد الى المدينة المنورة ، حتى يداوى الجيش جروحه ، ثم خرج اليهم فى حمراء الأسد ، عساه يدركهم لينال جيش الايمان منهم ٠

ولكن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يرى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نصره الله تعالى فى أحد ، فقد أثر عنه أنه قال : ما نصر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى موطن نصره فى يوم أحد ، فأنكر عليه ذلك ، فقال بينى وبينكم كتاب الله تعالى ، ان الله سبحانه وتعالى يقول : « **ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه** » والحس القتل ، ولقد كان لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولأصحابه أول النهار حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة ٠

واذا قتل أصحاب اللواء كان دليلا على عظم كفة المسلمين ٠ فان الكفة راجحة ، وكفتهم غير راجحة ، فقد قتل كل حملة لوائهم ، حتى رفعته امرأة ٠

أما المؤمنون ، فكان لواؤهم مع مصعب بن عمير ، وأخذ يقاتل منافحا عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقتل ، واستطاع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يشق الى الهضبة ويحمل اللواء على بن أبى طالب ، فانحسروا دون لواء المسلمين ، ولم ينالوا خيرا ٠

ومع أن المسلمين لم يهزموا ، وجيش الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لم يسقط لواؤه ، قد تشايع بين اليهود والمنافقين أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هزم جيشه ، وسموا الجراح التى أصابت المسلمين هزيمة وانتهزوها فرصة لاظهار الشماتة والتهكم ، حتى قال قائلهم لو كان نبيا ما هزم ، وأخذوا يعيرون اخوانهم أو من ليسوا لهم اخوانا ، بأنهم لو كانوا معهم ما قتلوا وما أصيبوا ؟

ولقد بلغ بهم التهكم أن كبير المنافقين عبد الله بن أبى صارح بالتهكم ، ووقف كعادته يظهر أنه يؤيد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو فى قوله يسخر ، كما كان يسخر من قبل ٠

قال ابن اسحاق فى سيرته « كان عبد الله بن أبى له مقام يقومه كل جمعة ، لا ينكر له شرف فى نفسه وفى قومه ، وكان فيهم شريفا ، اذا جلس رسول الله يوم الجمعة وهو يخطب قام فقال : « أيها الناس هذا رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) بين أظهركم ، أكرمكم الله تعالى به ، وأعزكم به ، فانصروه وعزروه واسمعوا له ، وأطيعوا » ثم يجلس ٠

وما كان ذلك منه الا نفاقا ، اذ كان يستر كفره بهذه الكلمات ، ويبث الكفر والنفاق والتردد فى نفوس المؤمنين ٠

وقد رآه المؤمنــون يبث روح التردد والهـزيمة فى جيش الايمان ، ثم ينسحب ليفت فى العضد ، ويبث روح التردد ، حتى همت طائفتان أن تفشلا ٠

ولكنه كان دائبا على اظهار مالا يخفيه ، فقــد وقف كذلك ، والجيش الاسلامى قد عاد جريحا ، ولم يكن مهزوما ، وقد وقف كما كان يقف كل جمعة ، فأدرك المؤمنون تهكمه ، وأخذوه بثيابه ، وقالوا اجلس أى عدو الله والله لست لذلك بأهل ، وقد صنعت ما صنعت ٠

فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : « والله لكأنما قلت يجرا أن قمت أشدد أمره ٠٠ فوثب الى رجال يجبذوننى » ٠

قال له رجال من الأنصار ارجع يستغفر لك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال : والله ما أبغى أن يستغفر لى ، انه يقول يريد الشماتة ، وكما قال سبحانه وتعالى فيه وفى أصحابه ، ومرضى القلــوب : « **أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ، ولو نشـــاء لأريناكهم فلعـرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم اعمالكم ولنبلونكم ، حتى نعـلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم** » ٠

أصابت المنافقين فرحة شديدة ، قد بدت البغضـــاء من أفواههم ، وكما قال سبحانه وتعالى : « **ان تمسسكم حسنة تسـؤهم ، وان تصـبكم سـيئة يفرحوا بها ، وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ، ان الله بما يعملون محيط** » ٠

هذا ما كان من أهل النفاق ٠

اليهـــود :

٤٣٦ ـــ كانت فرحة اليهود شديدة ، وأوجـدت فيهم طمعا ، انهم موتورون من المسـلمين بما كان لبنى قينقاع جـــزاء ما اقترفوا ، وكانوا يتوقعون أن ينزل بهم ما نزل بهم ، فلما كانت أحد طمعوا بدل أن يســـتمر خوفهم ، وظنوها فرصة سنحت ، وكانوا يتربصون بالمؤمنين الدوائر ٠

ولا شك أن فرحتهم كانت عظيمة ، وخصوصـــا أنه كان منهم من قاتل مع المشركين ، وهو أبو عمار الراهب ، وحسب أن مجيئه يخذل أهل يثرب عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ولقد بدت البغضاء من أقوالهم ، وأفعالهم ، حتى ليهمون أن يقتلوا النبى صلى الله عليه وسلم غيلة بأن يرموا عليه صلى الله تعالى عليه وسلم حجرا من سطح بعض بيوتهم ، ومعه أصحابه أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، رضى الله تعالى عنهم جميعا ، ولكن الله تعالى نجاه منهم ٠

وقد كان المسلمون يظنون بهم الظنون لفرط ما كان من عداوتهم سرا وجهرا ، وظاهرا وباطنا ٠

ويجب أن نقول هنا ما قاله الله سبحانه وتعالى فيهم « **ليسوا سواء ، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون** » ٠

وان أولئك هم الذين أسلموا من اليهود عند حضور النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة المنورة كعبد الله بن سلام ، وفريقه الذين آمنوا بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم فله جزاء ــ الحسنيان ٠

ومعهم عدد قليل أسلموا مخلصين فى شدة أحد ، ويذكر التاريخ منهم مخيرق ، قال فيه ابن اسحاق كان ممن قتل يوم أحد ، مخيرق ، وكان أحد بنى ثعلبة ، فلما كان يوم أحد قال : يا معشر يهود ، والله لقد علمتم أن قصد محمد عليكم لحق ، قالوا ان اليوم يوم السبت ، قال : لا سبت لكم ٠ فأخذ سيفه وعدته ، وقال ان أصبت فمالى الى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يصنع به ما شاء ثم غدا فقاتل مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى قتل ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مخيرق خير يهود ٠

وقد روى السهيلى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جعل أموال مخيرق وكانت سبع حوائط أى حدائق ــ أوقافا فى المدينة المنورة ٠

ويظهر أنها كانت أول أوقاف سنها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهى حجة للذين أجازوا الأحباس ولم يمنعوها ، فهى عمل نبوى ثابت الى يوم القيامة ٠

ولقد دخل بعض أهل يثرب ممن لم يكونوا دخلوا فى الاسلام حرب أحد ، فأسلموا وقتها ، ومن هؤلاء أصرم بن عبد الأشهل عمرو بن ثابت ابن وقش ٠

أخذته الحمية عندما جاءت قريش ، ومعها الأحابيش وغيرهم يغيرون على المدينة المنورة فى أحد ، فخرج مع المحاربين وقد دخل الايمان قلبه ،

وكان من قبل يأبى الاسلام على نفسه ويستنكره من قومه ، فلما كان يوم أحد حمل سيفه ، ودخل فى عرض الناس ، فقاتل ، حتى أثبتته الجراح ، وبينما رجال من بنى عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم فى المعركة اذا هم به ، فقالوا ان هذا للأصيرم ، وما جاء به ولقد تركناه وانه لمنكر ، فسألوه فقالوا ما جاء بك يا عمرو أحدب على قومك أم رغبة فى الاسلام ، فقال رغبة فى الاسـلام ، آمنت بالله ورسوله وأسلمت ، ثم أخذت سيفى ، وغزوت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقاتلت حتى أصابنى ما أصابنى ، فلم يلبث أن مات ٠

وقد أسلم وهو داخل المعركة ، وآمن بالله ورسوله ، ولم يكن وقت بين اسلامه وتقدمه ومقتله للصلاة ، وقد شهد له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالجنة ٠

روى أبو هريرة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : حدثونى عن رجل دخل الجنة لم يصل قط فسألوه من هو ؟ فقال أصيرم بن عبد الأشهل عمرو بن ثابت ٠

هذه أمور أحاطت أحدا ، وأعقبتها فى داخل المدينة المنورة ، وما حولها أما أثرها فى بلاد العرب ، والقبائل المصاقبة فى المدينة المنورة ، وما تحمله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنون فى أعقابها ، فنتركه الى الكلام فى سرايا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وغزواته من بعدها ٠

الأحكام المستفادة

مما اتبعه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى أحد

٤٣٧ ـ كانت غزوة بدر الكبرى ايذانا بشرعية القتال دفاعا عن النفس٠ ودفعا للاعتداء ٠ وحماية للدعوة ، كما صرح بذلك القرآن الكريم ، فى قوله تعالى : « **أذن للذين يقاتلـون بانهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقـدير** » وفى قوله تعالى : « **وقاتلوا فى سبيل الله الـذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين** » ، وفى قوله تعالى : « **وقاتلـوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله** » ، وقـوله تعالى : « **كتب عليكم القتال ، وهو كـره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون** » ٠

وهكذا نزلت آيات كثيرة فى اباحة القتال ، بل وجوبه دفعا للفسـاد ،

كما قال تعالى : « **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين** » ٠

كان هذا لمناسبة أول قتال ، أما فى أحد ، فقد شرعت أحكام تفصيلية فى الجهاد من عمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من تكوينه لجيشه ، ومن استقباله لعدوه :

(أ) ومن هذه الأحكام التى ثبتت فى هذه الغزوة أنه لا يخرج الى الجهاد من لم يبلغ الخامسة عشرة الا اذا كان قوى الجسم ، كقوة الشبان البالغين ، أو كانت له مهارة فنية فى الحروب ، كالرمى بالنبل ، فقد أجاز اثنين ممن دون الخامسة عشرة بقليل لمهارة أحدهما فى الرمى ، ولقوة الثانى فى المصارعة ٠

وقد أجاز صلى الله تعالى عليه وسلم خروج النساء فى الغزو ، يسقين الغزاة ، ويداوين الجرحى ، والقتال ان تعين القتال عليهن ، كتلك التى كانت تناضل مع المناضلين عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد أحاط به المشركون يحاولون قتله ، فردهم الله تعالى بغيظهم لم ينالوا منه عليه الصلاة والسلام شيئا ٠

ولذلك أجاز الفقهاء خروج المرأة مع الجيش مداوية ومقاتلة ، وقال بعضهم لا يحل لها ركوب الخيل الا أن تكون محاربة ٠

(ب) ومنها أنه اذا أخذت الأهبة للجهاد لا يجوز أن يترددوا ، فان التردد يلقى بالخذلان فى النفوس ، والاختلاف والتدابر ، ولذلك لما لبس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لامة الحرب ، وغير المجاهدون رأيهم ، قال صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما كان لنبى لبس لامة الحرب أن يخلعها ، وكذلك الأمر فى كل أمر ينتهى بالشورى لا يصح أن يكون موضع تردد حسما للأمور وفضا للنزاع ٠

(ج) ومنها أنه يجوز للمجاهدين مجتمعين أن يأخذوا طريقهم ، ولو فى أرض مملوكة ملكا خاصا ، كما اجتاز النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بجيشه بعض الحدائق ، ولم يلتفت الى اعتراض المعترضين ، لأن الملك الخاص له حق الصيانة ، الا اذا ترتب على الحقوق الخاصة ضرر عام ، فاذا لم يكن للجيش طريق الا الملك الخاص ، لم يمنع من سلوكه مهما يكن اعتراض صاحبه ، ولذلك لم يلتفت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى اعتراض الأعمى صاحب الحديقة ، وقال انه أعمى البصر والبصيرة ٠

(د) ومنها جواز أن يتمنى المجاهد فى سبيل الله الشهادة من غير موأناة ولا استسلام بل فى حزم وعزة وقوة وتمنى الموت منهى عنه فى غير هذا المقام كما قال عبد الله بن جحش عندما تقدم للجهاد « اللهم لقنى من المشركين رجلا عظيما كفره ، شديدا حرده ، فأقاتله ، فيقتلنى ويسلبنى ثم يجدع أنفى وأذنى فاذا لقيتك فقلت يا عبد الله بن جحش ، فيم جدعت !! قلت فيك يارب ٠

ويظهر أن ذلك الدعاء بعد أن رأى المشركين يمثلون بالقتلى ٠

(هـ) ومنها أن المسلم اذا قتل نفسه أثم ، ودخل النار ، ولو كان ذلك من جراح شديدة ، وذلك أن مسلما اسمه قزمان أبلى يوم أحد بلاء شديدا حتى أثخن بالجراح ، فلما اشتدت به نحر نفسه ، فأثمه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنه يئس من روح الله تعالى وبأنه : « **لا ييئس من روح الله الا القوم الكافرون** » ٠

(و) ومنها أن السنة فى الشهداء الا يغسلوا ولا يكفنوا فى غير ثيابهم التى كانوا يجاهدون بها ، بل يدفن فيه بدمه وكلومه الا أن يسلبها فيكفن فى غيرها ٠

(ز) ومنها أن السنة فى الشهداء أن يدفنوا فى مصارعهم ، ولا ينقلوا الى مكان آخر ، وذلك لتكون زيارة قبورهم فيها عبرتان : عبرة الاستشهاد والجهاد ، وعبرة رؤية المكان الذى صارعوا فيه وجاهدوا حتى نالوا أعلى الحسنيين ٠

وقد حصل فى أحد أن بعض الصحابة نقلوا قتلاهم الى المدينة ، فنادى منادى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم برد القتلى الى مصارعهم ، قال جابر بن عبد الله بينما أنا فى النظارة ، اذ جاءت عمتى بأبى وخالى ، كما دللتهما على ناضح فدخلت بهما المدينة لتدفنهما فى مقابرنا ، وجاء رجل ينادى : الا ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأمركم أن ترجعوا القتلى فتدفنوهم فى مصارعهم حيث قتلت ، فرجعنا بهما ، حيث دفناهما فى القتلى حيث قتلا ٠

وبعمل الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم صارت السنة فى الشهداء أن يدفنوا فى مصارعهم ٠

(ح) ومنها جواز أن يدفن الرجلان والثلاثة فى قبر واحد فان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان يدفن الرجلين والثلاثة فى القبر ،

ويقول أيهم أكثر أخذا فى القرآن ؟ فاذا أشاروا الى رجل قدمه فى اللحد واذا كان رجلان بينهما محبة فى الدنيا دفنهما معا فى قبر واحد لما كان بينهما من المحبة فدفن عبد الله بن عمرو بن حزم ، وعمرو بن الجموح فى قبر واحد لما كان بينهما من المحبة ٠

(ط) ولقد حدث عندما كان الاضطراب فى جيش المؤمنين بسبب المفجأة أن قتل بعض المؤمنين مؤمنا يحسبه كافرا ، فانه لا يذهب دم المقتول هدرا ، بل تكون ديته فى بيت المال ، كما فعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فودى الذين قتلوا خطأ من المؤمنين ، لأنه بقيادته صلى الله تعالى عليه وسلم وهو ولى أمر المؤمنين ٠

(ى) ومنها أن ذوى الأعذار يرفع واجب الجهاد ، ولكنهم ان خرجوا مجاهدين كان لهم ثواب الجهاد ، وان قتلوا كانوا شهداء ، فرخصة التخلف لعذرهم رخصة ترفيه ، لا تسقط الواجب ، ولكن تسوغ التخلف ، كمن يصوم وهو صاحب رخصة كمرض أو سفر ، فان الصوم يجزى عنه اذا صام ، وان أفطر فعدة من أيام أخر ٠

وقد خرج عمرو بن الجموح وهو أعرج ، وليس على الأعرج حرج ، فلم يمنعه النبى من أن يجاهد ، فجاهد حتى استشهد ، وتولى دفنه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع شهيد كان له معه صحبة ومحبة ٠

(ك) ومنها أن العدو اذا طرق الديار لا يجب على المؤمنين أن يخرجوا لقتاله ، ولا يجب عليهم أن ينتظروا حتى يدخل عليهم الديار ، بل ينظرون الى ما يكون المصلحة والمكيدة فى الحرب ، فان كان الأول أشد نكاية اتبع وان كان الآخر التزم كما فعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

(ل) ومنها وجوب الشورى ، كما استشار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم جند المؤمنين ، ليدخل الجند مطمئنين ، آمنين راضين ، غير مرهقين فى نفوسهم ، ولا فى تفكيرهم ، فيكون ذلك أرجى للنصر ٠

(م) ومنها ألا يصلى على الشهيد ، فانه ثبت أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يصل على شهداء أحد ، ولم يصل على شهيد مات فى المعركة فى أى غزوة من الغزوات ، لأن شهادته تغنيه عن دعاء الأحياء ، وصلاة الجنازة دعاء وتضرع واستغفار ٠

(ن) وقد قال ابن القيم انه يجوز للمجروح أن يصلى قاعدا ، ولو كان اماما ٠ ويقول فى ذلك ان الامام اذا أصابته جراحة صلى بهم قاعدا ، وصلوا

وراءه قعودا ، كما فعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذه الغزوة واستمرت على ذلك سنته الى حين وفاته ٠

ولكن هل يجوز أن يصلى المأموم واقفا وراء الامام الذى يصلى قاعدا ! ان ذلك موضع خلاف بين الفقهاء ، ليس هذا موضعه ٠

هذه الأمور التى ذكرناها كلها كانت من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذه الغزوة ، وما يعمله يكون بيانا لحكم شرعى يتبع ، ولا شك أن بعض هذه الأحكام تدخل تحت أنواع ثلاثة من الأحكام التكليفية ، فمنها ما يدخل تحت حكم الجـواز ، والمصـلحة ترجحه أو توجبه ، كما رأينا فى خروج النساء فى الحرب والجهاد ، فانه جائز أو مباح ، وقد يكون مستحبا اذا كان فى الرجال كفاية وفى النســاء عون ٠ وقد يكون واجبا اذا كان الجرحى يحتاجون الى عدد كبير من المداوين ٠

وكما رأينا فى الذى خرج وعنده عذر فان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أجازه ، فانه يكتفى بالجواز ، ابتداء ، ولكن ان كان ذا بأس وشـدة مع عذره ، فان الأولى الخروج مع رخصة القعود ٠

وهو فى الحالين شهيد ان استشهد ، له جزاء الشهداء ، ومجاهد ان نجا ، له جزاء المجاهدين ٠٠ والله أعلم ٠

صدى أحد

وسرايا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم

٤٣٨ ـــ تسايرت الركبان بموقعة أحد ، وقريش تدعى أنها هزمت محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتنشد بذلك شعرا والشعر فى البـلاد العربية كان أداة النشر ، وطريق الاعلام ، فان حدثا يذكر فى قصيدة جدير بأن تعلم به القبائل العربية فى قاصيها ودانيها ، ولما كانت النفوس مستشرقة لأن تعرف ما بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقريش أخرجوه من مكة ، أو خرج بأمر ربه ، وصارت بينه وبينهم مغالبة شديدة هم يغالبون بجاهليتهم وغطرستهم ، وهو يجاهد بالحق يدفع به الباطل ٠

وقد رأوا الحق يدفع الباطل يوم الفرقان ، وذاع فى البقاع أمر الهزيمة التى فروا فيها فرارا ، فذلت أنوفهم أو كادت ، وزلزلت هيبتهم ، وقد كانوا شرف العرب ومحتدهم ٠

فكان لابد أن يشيعوا أنهم أخذوا ثاراتهم ، ونالوا مآربهم ليستردوا هيبتهم ، ويستعيدوا شرفهم الذى مزق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم رايته.

اذا كانت بدر قد هزت مكانة قريش فى العرب ، وحركت عليهم من كانوا ينفسون عليهم مكانتهم ، فكان لابد أن يشيعوا مازعموه هزيمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى أحد ، وأن يملئوا بها الأجواء ، وأن يرددوها فى كل مكان ، وقد صارت المعركة بين مكة والطائف وما حولهما ، ومدينة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

تحركوا لمناواة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما انزل الله ، طمعت قبائل فى المسلمين بعد أن كبتهم الله ببدر ، وتحركت عوامل محرضة على أهل الايمان مجزئة عليهم ، ونشر الأخبار عما زعموه هزيمة يؤلب على المؤمنين ، ويثير الأضغان من عبدة الأوثان عليهم ، فكثر الغدر والخيانة من قبائل العرب ، وكثرت مداهنة قريش .

والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه يصابرون ويجاهدون .

وبمقدار ما كانت قريش تزدهى كان يعتريها أمران :

أحدهما : أنهم لم يشتفوا من أعدائهم رجال الايمان ، فما زال من عملوا سيوفهم فى رقاب المشركين فى بدر من صناديد المؤمنين أحياء وسيوفهم مشهورة ينتظرون الأمر لتضرب ، فاذا كانوا قد نالوا من حمزة ، فأمامهم على بن أبى طالب والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، وأمامهم وزيرا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبو بكر وعمر ، وأمامهم نور الله ورسوله يسطع فتغشى أبصارهم .

ثانيهما : أنهم يتوجسون خيفة من جولة لأهل الايمان تجنا لهم ، وخصوصا أنهم يتربصون بهم حتى يؤمنوا ، فما داموا على شركهم ، واعتدائهم فسيوف الحق من ورائهم .

لذلك كانوا يتبعون أخبار المؤمنين ، ويعملون على تحريض القبائل على أهل المدينة ، ويعطون العطايا لمن يأتونهم برجل من أهل الايمان أو رجال ، ويشترون منهم من يتمكنون منهم من رجال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والأعراب أشد كفرا ونفاقا يسايرونهم ، ويتمنون الأمانى منهم ، وانك لتراهم يعملون الغدر والخيانة لينالوا مآربهم .

ولذلك نرى سرايا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ينالونها بالغدر والخيانة عن طريق أولئك الأعراب ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يحترس ويعلم خبايا الأمور ، ويتعرف الأخبار ، ويحاول أن يقعد لهم فى كل مرصد ٠

ويرسل السرايا التى سماها صديقنا اللواء شيت خطاب دوريات ، تتعرف ما فى البلاد والقبائل ، ومنها من يعود بالغنائم ، ومنها من يترصده الأعراب ليقدموه قربانا للمشركين ، ومنهم من يظهر الميل الى الاسلام فيبعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من يهديهم ، فاذا بهم يخونون ويغدرون ، فيقتلونهم قربا للمشركين أو يبيعونهم لهم ليأخذوا منهم تراثهم ٠

سرية لبنى أسد

٤٣٩ ــ جمع طليحة الأسدى وأخوه سلمة ابنا خويلد عددا كبيرا من بنى أسد ليقصدوا حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رجاء أن ينالوا عند زعماء مكة منالا ، وقد ظنوا أن المدينة أصبحت ترام منهم ، وممن على شاكلتهم بعد أن أشاعت قريش خبر هزيمة مزعومة ٠

فعلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بما تمالئوا عليه ٠ وما أرادوا ، وما كان ليتركهم حتى ينفذوا مما يريدون ، وان كان فوق طاقتهم ٠

فأرسل أبا سلمة فى خمسين ومائة من المهاجرين والأنصار وأوصاه بتقوى الله ، وبمن معه من المسلمين خيرا ٠

سار حتى وصل الى قطن وهو ماء لبنى أسد ٠

ويظهر أنهم مع ما كانوا قد أزمعوه من حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فوجئوا ، فأذهلتهم المفاجأة ، فتفرقوا مذعورين ، وتركوا نعما كثيرة لهم من الابل والغنم ٠

غنم ذلك كله أبو سلمة ، وأسر منهم ثلاثة مماليك ، وقفل راجعا الى المدينة ومعه هذه الغنائم ، وقد أخذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خمس الغنائم ، وكان فيها عبد ، وقد وزع خمسه وقسم أبو سلمة خمسه بين أصحابه كما شرع الله تعالى فى الغنيمة ، فقد قال تعالى : « **واعلموا انما غنمتم من شىء فأن لله خمسه ، وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى والمساكين وابن السبيل ، ان كنتم آمنتم بالله واليوم الآخر** » ٠

وان أبا سلمة رضى الله تعالى عنه قد أخرجه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذه السرية فى المحرم من السنة الرابعة أى بعد خمسة وثلاثين شهرا من الهجرة ٠

ولقد مكث فيها نحو بضع عشرة ليلة ومات بعدها ، لجرح أصابه فى أحد ، ولقد قال ابنه عمرو « كان الذى جرح أبى أبو أسامة الجشمى ، فمكث شهرا يداويه فبرأ ، فلما برأ بعثه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى المحرم (يعنى من سنة أربع) فغاب بضع عشرة ليلة ، فلما دخل المدينة انتقض به جرحه فمات لثلاث بقين من جمادى الأولى » ٠

وهكذا أدى ذلك الشهيد واجبه مرتين احداهما فى أحد ، وقد جرح جرحا قاتلا ، وكرمه الله تعالى بأن أرسله فى سرية الى بنى أسد ، ثم تحرك الجرح فمات شهيدا ، ولكن بين أهله ٠

ولعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اختاره ليرسله الى بنى أسد ، لأنه منهم ، اذ هو أبو سلمة بن عبد الأسد أبى طلحة الأسدى ٠ فيرسل عليه السلام الرجل المؤمن على رأس المقاتلين من المؤمنين ليقاتل المشركين من قومه ٠ فتكون الفائدة من ناحيتين احداهما ـ تأديب المشرك لحمله على الايمان ٠ والثانية ـ التأكيد فى محو العصبية الجاهلية ، واحياء الوحدة الاسلامية ٠

يوم الرجيــع

٤٤٠ ــ الرجيع مكان عــلى ثمانية أميال من عســفات ، وقــد قال ابن كثير تابعا للواقدى غزوة الرجيع ، وما ارتضينا ذلك العنوان ، الا لأنه كان الأمر فيه أمــر خيانة ــ وغــدر من بعض المشركين بتحريض من قريش ، لينالوا بعض ما بقى من ثأرهم ، وانه لا يزال كثيرا كما ذكرنا ، فأكثر الذين وتروهم من شجعان المسلمين لا يزالون يحملون السيف ، ليخوضوا بها فى صفوف المشركين مرة أخرى أو مرات ·

وقصة الرجيع كما روتها السيرة وصحاح الســنة ، هى قصــة غدر ، ولؤم بتحريض من المشركين ·

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد غزوة أحد رهط من عضل والقارة ، وهما بطنان من الهون بن خزيمة بن مدركة ·

قالوا يا رســول الله ان فينــا اســلاما ، فابعث معنــا نفرا من أصحابك يفهموننا الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الاسلام · فبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نفرامن أصحابه · قال ابن اسحاق بسنده ان عدتهم ســتة ، وقال البخارى بســنده فى صحيحه ان عــدتهم عشرة ، وقال ابن اسحاق ان الذى أمره الرســول صــلى الله تعالى عليه وســلم على وفد الايمان والدعــوة هو مرثد بن أبى مرثد الغنوى الذى كان أخا لحمــزة ابن عبد المطلب سيد الشهداء فى المؤاخاة التى آخى بها النبى صلى الله تعـــالى عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ·

وفى رواية البخارى أن الذى أمره عليهم رسول الله صلى الله تعــالى عليه وسلم هو عاصم بن ثابت بن الأفلح ، وان رواة الحديث والأخبار يرجحون رواية البخارى ·

ويؤيد رواية البخارى الواقدى ·

انطلق ذلك الوفد المؤمن مغادرا المدينة متجها الى عضل والقارة دعاة هداية ، وليسوا محاربين ، وما كانوا يعلمون أن القــوم يأتمرون فى غــدر وخيانة وكذب لم يعرف فى أشراف العرب ·

حتى اذا كان فى الرجيع بين عسفان ومكة المكرمة ، وهو بالهذيل غدروا بهم ونادوا مستصرخين وفوجىء وفد الهداية الى الاسلام برجال بأيديهم السيوف قد غشوهم ٠

وأرادوا أن يأخذوهم بالغش والخديعة كما استنفروهم بها ٠ فقالوا لهم انا والله ما نريد قتلكم ولكن نريد أن نصيب شيئا من أهل مكة المكرمة ٠ وربما كانوا صادقين ، وان ذلك من انخداع العرب بما زعمه المشركون من نصر نالوه ، ولقد قالوا فى خديعتهم : « لكم علينا عهد وميثاق ألا نقتلكم » ٠

فترت بذلك عزيمة بعض المؤمنين بعد أن أخذوا سيوفهم ليقاتلوا ويموتوا مجاهدين ، ولا يموتوا مستسلمين ٠

قال عاصم بن ثابت ، ومرثد بن مرثد وخالد بن بكر يرمن العشرة الكرام أو الستة على اختلاف العدد ، لا نقبل من مشرك عهدا ولا عقدا أبدا ٠

وقد كانوا على حق ، لأنهم ابتدءوا بالغدر والخيانة أو تسليط الغادرين الخائنين ، وعلى فرض أنهم صادقون فيما يعاهدون عليه من أنهم لا يقاتلونهم فانهم سيسلمونهم لأهل مكة المكرمة ليصيبوا منهم شيئا ، ولا شك أن أهل مكة المكرمة سينزلون بهم أذى ، القتل أقله ٠

ولذلك قاتل أولئك الثلاثة ، وقتلوا ، فاختاروا أن يقتلوا مجاهدين من أن يقتلوا مستسلمين ، أما اخوانهم فلم يرتضوا ذلك الموقف الشجاع الذى كانت نهايته شهادة فى غير استسلام واستخذاء ، بل فى قوة وايمان وجهاد ٠

استسلم الباقون ظانين أن لهم عهودا ، وقد ذكر منهم ابن اسحاق ثلاثة وهم : زيد بن الدغنة ، خبيب بن عدى ، وعبد الله بن طارق ٠

ولنذكر بعض ما فعلوه بعاصم بن ثابت الذى أصاب من قريش فى ميدان القتال ، فقد أصاب فى أحد ابنى امرأة من قريش فنذرت ان تمكنت منه أن تحبل تشرب الخمر فى قحفة عاصم ، فلما قتل طلبت رأسه ، وقد قيل ، عندما أرادت ذلك ، نبه رجل أبا سفيان بن حرب كيف يصنع برأس ابن عمه فلم يستخف ولم يلم ، وماذا ينتظر من أبى سفيان زوج هند التى فعلت ما فعلت ، فلم ينكر ، ولكن الله تعالى حمى رأس المؤمن التقى من أن يمسها الأنجاس فحامت حولها الزنابير لتحميها ٠

ولنتجه من بعد الى الذين رضوا بمواثيق المشركين ، ولم يتنبهوا الى قول الله تعالى : « **لا يرقبون فيكم ألا ولا ذمة** » ٠

لقد أسروهم ، ثم خرجوا بهم الى مكة المكرمة ليبيعوهم بها ، حتى اذا كانوا بالظهران ، وهو واد قرب مكة المكرمة ، استطاع أن يفك أحد الثلاثة عبد الله بن طارق يده من رباطها ، وأخذ سيفه ، فاستأجر عنه القوم ، وباعدوه حينا من لقاء سيفه ، ولكن رموه بالحجارة حتى قتلوه ، فمات غير مستسلم ، وان كان قد وثق بعهدهم الذى عاهدوا عليه ٠

وأما الآخران حبيب بن عدى ، وزيد بن الدغنة فقد باعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة المكرمة ٠

فابتاع خبيبا بنو الحارث بن عمار بن نوفل ، وكان خبيب هو الذى قتل أباهم الحارث يوم بدر فمكث عندهم أسيرا ، يسومونه الخسف والهوان ، ولكنه كان فى سعة نفس من ايمانه ، ومهما يروموه من اهانة ، فنفس المؤمن لا تهون ، وكأنه وثق بعهدهم ليرى الله تعالى الناس المؤمن اذا خدع ، وصبره اذا أوذى ليرتفع الى درجات المجاهدين بالصبر ، كما هو مجاهد فى ميدان القتال ، قدموه ليقتلوه صلبا ، فاستأجرهم حتى يصلى ركعتين فصلاهما ، ثم أقبل عليهم مستبشرا يقول للجلادين : أما والله لولا أن تظنوا أنى انما طولت جزعا من الموت ، لاستكثرت من الصلاة ٠

ولقد علم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بصلاته عند القتل مستشهدا فأقره ، فكانت سنة نبوية باقراره عليه الصلاة والسلام ٠

رفعوه من بعد صلاته الى خشبة الصلب ، فلما أوثقوه قال : اللهم انا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع بنا ، اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر منهم أحدا ٠

وهكذا مات خبيب بطلا فى ميدان الجهاد النفسى ، كما مات أصحابه عاصم ومن معه فى جهاد مستشهدين ، ولم يلقوا سيوفهم ٠

وهكذا قتلوا خبيبا صلبا وهو يقول صابرا :

ولست أبالى حين أقتل مسلما ... على أى شق كان فى الله مصرعى

وذلك فى ذات الاله وان يشأ ... يبارك على أوصال شلوع ممزع

وفى اليوم الذى صلب فيه خبيب صلب فيه أيضا زيد بن الدثنة ٠ وكان صابرا راضيا مطمئنا ، فى سعة من الايمان ، قال له عند صلبه زعيم الشرك أبو سفيان بن حرب : انشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا صلى الله تعالى عليه

وسلم عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه ، وانك فى أهلك ، قال والله ما أحب أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شـــوكة تؤذيه ، وانى جالس فى أهلى ٠

وعندئذ قال زعيم الطاغوت ٠٠ ما رأيت من الناس أحدا يحب أحــدا كحب أصحاب محمد صــلى الله تعالى عليه وســلم محمدا ، ثم قتل الشــهيد الصابر ٠

وان يوم الرجيع يدل على أمور ثلاثة :

أولها : ما كان من تحريض قــريش من غدر وخيــانة واستخدام أخس أنواع الخيانة ٠

وثانيها : أن قريشا لم يشتفوا لثاراتهم من بدر ، وأنهم أنهوا الحــرب فى أحد غير مختارين ، والا لبقوا حتى يأخذوا بكل ثاراتهم ، وأنه قــد جـدت لهم فى أحد ثارات أخرى ٠

وثالثها : أن العرب بسبب الدعاية التى قامت بها قريش من اشــاعة أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم قد هزمت قد وجد فيهم من يعمل لحسابها ، ويرجو رضاها ، ولم يكن شىء من ذلك بين بدر واحد ، ولكنه كان بعد أحــد لاشاعة الهزيمة الكاذبة والله أعلم ٠

سرية عمر بن أمية ويوم بئر معونة

٤٤١ ـــ هذا يوم آخر بعد يوم الرجيع لا حق به ، ويتجلى فيه القدر ، كما يتجلى فيه العمل من القبائل لحساب قريش ، ويذهب فى هذا اليوم نتيجة الغدر نحو أربعين من المؤمنين لا ستة ولا عشرة ٠

وان هذا القدر كان يبيت فى مكة المكرمة ، ويدبر أمره فى قريش ، وقبل يوم بئر معونة نذكر ما نواه أبو سفيان من غدر بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومحاربته لــه ٠

وهذا الخبر هو كما قال الواقدى : كان أبو سفيان بن حرب قد قال لنفر من قريش بمكة المكرمة ، ما أحد يغتال محمدا صلى الله تعالى عليه وســلم ، فانه يمشى فى الأسواق ، فيدرك ثأرنا ، ومؤدى هذا أنهم الى الآن لم يدركوا ثأرهم ، وأنى يدركونه فأتاه رجــل ، وقال له ان أنت وفيتنى خرجت له حتى

أغتاله ، فانى هاديا لطـريق خريت معى خنجر مثــل خافيــه النسر ، قال أبو سفيان أنت صاحبنا وتفقه ، وقال له اطو أمرك ، فانى لا آمن أن يســمع أحد ، فينميه الى محمد لا يعلمه أحد ٠

سار الرجل خمس ليال حتى وصل الى المدينة فسأل عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فوجده فى جماعة من أصحابه يحدث فى مسجده ، فلما رآه رسول الله صــلى الله تعالى عليه وســلم أدرك بفراسة المؤمن وباعلام الله أن هذا الرجل يريد غدرا ، قال الرجل أيكم ابن عبد المطلب فقال الرسول صــلى الله تعالى عليه وسلم : أنا ابن عبد المطلب ٠

ذهب الرجل ينفذ ما دبر مع أبى سفيان ينحنى على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كأنه يساره ، فتنبه بعض الصحابة ، وجذبه أسيد بن حضير وقال له : تنح عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجذب داخل ازاره ، فاذا الخنجر ، فقال يا رسول الله هــذا غادر ، فسقط فى يد الأعرابى ، وقال دمى ، دمى يا محمد ، وأخذ أسيد بن حضير يلببه ٠

قال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أصدقنى ما أنت وما أقدمك ، فان صدقتنى نفعك الصدق وان كذبتنى فقد اطلعت على ما هممت به ٠

قال الأعرابى فأنا آمن ، قال عليه الصلاة والسلام وأنت آمن ، فأخبره بخبر أبى سفيان ، فوضعه النبى صــلى الله تعالى عليه وســلم عند أســيد ابن حضير فلما جاء الغد قال له قد أمنتك ، فاذهب حيث شئت ، أو خير لك من هذا قال وما هو ؟ قال أن تشهد أن لا اله الا الله ، وأنى رسول الله ، فشهد الرجل الشهادة ٠

علم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما يدبر له فى مكة ، وما يريدونه منه ، وقد انتقلوا من الحرب الى الاغتيال وبدا ذلك يوم الرجيع ، ثم تبين أنه يبيت لشخصه الكريم فى مكة ٠

فأرسل سرية لتعرف ما فى مكة ، وتفعل مع أبى سفيان ما كان سيفعله بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، « **والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله** » ٠

أرسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عمرو بن أمية الضمرى ، وكان فارسا فاتكا من فتاك العرب ، قد آمن وحسن اســلامه ، وسلمة بن أســلم ، ليتعرفا أحوال مكة المكرمة ، وليصيبا من أبى سفيان ٠

ذهبا الى مكة المكرمة وصليا وطافا بالبيت ٠

وقد علم أهل مكة المكرمة بهما ، وكان عمرو كما ذكرنا فاتكا فى الجاهلية يخشى بأسه ، فتجمعت الجموع لملاقاته ، ولكنه تركهم ، وقد عرف حالهم وما يدبرون ، ولم يتمكن من أحد ، وعاد وصاحبه ، وقد تمكن هو من قتل الذين كانوا يتبعونه فرادى ، فقتل بعضهم ، وأسر بعضهم ، وأتى بمن أسر للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان قد سبقه سلمة بن أسلم ٠

بئـــر معـــونة :

٤٤٢ ـــ فى نفس هذا الشهر وهو صفر فى السنة الرابعة من الهجرة وكان من أمر هذه السرية أن أبا براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة قدم المدينة ، فعرض عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الاسلام ودعاه اليه ، ويقول ابن اسحاق « فلم يسلم ولم يبعد عن الاسلام ، قال : لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لو بعثت رجالا من أصحابك الى أهل نجد فدعوهم الى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك ٠ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انى أخشى عليهم أهل نجد ٠ قال أبو براء : أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا الناس الى أمرك ٠

اطمأن النبى الكريم الحريص على تبليغ رسالة ربه ، حينما وجد موطنا من موطن التبليغ ، وخصوصا عندما أعلن أبو البراء أنهم فى جواره ٠

اختار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لامرتهم المنذر بن عمرو أخا بنى ساعده ، وكانوا كما روى ابن اسحاق أربعين ، وكما روى البخارى سبعين ٠ ولنترك الكلمة للبخارى :

قال : بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبعين رجلا لحاجة يقال لهم القراء ، فعرض لهم حيان من بنى سليم ، رعل وذكوان عند بئر يقال له بئر معونة فقالوا والله ما اياكم أردنا وانما نحن مجتازون فى حاجة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقتلوهم ٠

ويقول البخارى بروايته فى أوصافهم وبيان أنهم طلبوا من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يمدهم بمن يعلمهم وان رعلا وذكوان وعصية وبنى سليم استمدوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على عدد فأمدهم بسبعين من الأنصار ، كنا نسميهم القراء فى زمانهم ، كانوا يحتطبون بالنهار ، ويصلون بالليل ، حتى اذا كانوا ببئر معونة قتلوهم وغدروا بهم ، فبلغ ذلك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقنت شهرا يدعو فى الصباح على أحياء العرب من رعل وذكوان وعصية ٠

ولقد روى أنهم قالوا وقـد عملت السيوف فيهم « بلغـوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضـانا » كانوا يعلمون الناس الاسـلام ، وقد بعثهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لذلك ، ولذا نرجح أنهم ما كانوا مقاتلين ، ولم يستمدوا على عدو ، كما يفهم من الرواية الأولى للبخارى ٠

ولننظر من بعد ذلك الى تفصيل الرحلة التى انتهت بالغدر المقيت عند الله وعند كل كريم ٠

ذهبوا كما أمرهم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم هداة مرشدين كما طلب أبو البراء ، وأرسل النبى صـلى الله تعالى عليه وسـلم مع المنذر ابن عمرو كتابا الى عامر بن الطفيل يبين فيه أنهم مبلغون لا محاربون ، ولكنه ابان ذاك كان عدوا للمؤمنين ، فلم يرع جوارا ولا ذمة صـاحبه فى الشرك أبى براء الذى مازال بالنبى حتى أرسل من أرسل وكان كارها ابتداء ، ولكنه التبليغ الذى حمله سهل ارسال هؤلاء ، ولم يكن الغدر متوقعا ٠

ولذلك قتل من أعطاه الكتاب ٠

وقد ذكر البخارى فى أخبار عامر بن الطفيل ، أنه حسب النبوة ملكا ، فخير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بين ثلاث خصال بثلاث يكون للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أهل السهل ، وله أهل المدر ، أى يكون للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم الوبر فى الصحراء ، وله هو أهل القرى ، أو أن يكون خليفة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو أن يغزو والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بغطفان ٠

كانت هذه حال عامر بن الطفيل ابان ذاك ، وقد علم بالجوار ٠

ولم يكتف بذلك ، بل اسـتصرخ بنى عامـر على أولئك المؤمنين ، وقـد علموا بجوار أبى البراء ، فامتنعوا وقالوا لن نخفـر جوار أبى البراء وقد عقد لهم عقدا وجوارا ٠

فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم عصـية وذكوان ورعل فأجابوه الى ذلك الغـدر اللئيم ، فخـرجوا حتى غشـوا المؤمنين ، فأحاطوا بهم فى رحالهم ، فلما رأوهم حملوا سيوفهم ، وقاتلوا ، ولكنهم كانوا يقـاتلون من أحاطوا بهم حتى قتلوا عن آخرهم كما ذكر ٠

ولم ينج منهم الا كعب بن زيد أخو زيد بن النجـار ، فانهم تركوه وبه رمق ، فحسبوا أنه مات ، وكان عمرو بن أمية الضمرى فى سرح القـوم ورجل من الأنصار ٠

وفرغوا من القتلى ، فأخبروا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقنت ثلاثين يوما لما أصاب رسله ، صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

٤٤٣ ـــ تلك قصة بئر معونة فى صفر ، وبئر معونة بين مكة والمدينة المنورة ٠

ونلاحظ فى هذه القصة بعض أمور :

أولها : أن أبا براء ما كان مسلما ، وربما له ميل الى الاسلام ولكنه زعيم فى قومه ، ويريد أن يكون مع قومه ، فلا يكرههم حتى لا ينفروا ولكن يريد الدعوة اليهم ، حتى اذا استأنس باسلامهم أعلن اسلامه واكتفى بأن جعل الدعاة الى جواره ٠

ثانيها : أن الغادر عامر بن طفيل كان يعمل لحساب الشرك أو لحساب مكة ، وما كان ليفعل لولا أنه وجد فى قريش قوة ، وهى ما أشاعوها من هزيمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وثالثها : أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد أرسل اليهم مبلغين حفظة عبادا يحتطبون نهارا ، ويقومون ليلا ، ولم يرسل معهم أبطال حرب كالزبير وسعد بن أبى وقاص وعلى بن أبى طالب ، وان كان هؤلاء فى عبادتهم وزهادتهم لا يقلون عن الأولين ، لأنهم أسود فوارس بالنهار قوام بالليل ٠

رابعها : أن هذه ثانى غدرة برسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مبلغين ليغدر بهم ، وكانت الأولى فى يوم الرجيع ، وهذه فى بئر معونة ٠

فهل كان خدع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو قائد الأمة سهلا بهذا الشكل ، فنقول لم يكن الخدع بعيدا عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بشر كسائر البشر ، يحتاط ، وكفاه ، وقد فرض الله سبحانه أن يخدع ، والكريم المخلص يخدع ، والخب اللئيم الذى يفرض الشر لا يسهل خدعه كالكريم الطيب الذى يفرض فى الناس الخير ، وقد قال سبحانه وتعالى فى ذلك : « **وان يريدوا أن يخدعوك ، فان حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، انه عزيز حكيم ، يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** » ٠

ففرض أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد يخدع من الخب الغادر اللئيم ٠

وان الرجل المؤمن الحكيم ، وقد أوتى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الحكمة وعلمها الناس ، يخدع من ناحية ، ما يريد وما هيىء له ٠

وقد أحب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تبليغ رسالة ربه وهداية العرب الى الوحدانية ، وعبادة الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له وذلك عمله الذى بعثه الله تعالى له ، وما كان قتاله الا دفاعا ٠ فالقتال لحماية الدعوة من الاعتداء ، ولم يكن هدفا مقصودا لذاته ، فاذا جاء من يسهل له الدعوة استجاب ، والحر الأبى لا يفرض الغدر ابتداء ، ولكن يفرض الغدر حتما اذا كان الأمر من غادر ٠

وفى الحق ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خدع فى المرة الأولى لأنه رسول يريد تبليغ أمر ربه ، قال تعالى : « **يايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته** » فما كان له أن يتردد فى اجابة من دعوه ليعلمهم الاسلام ، وليقضى الله أمرا كان مفعولا ٠

هذا فى يوم الرجيع ، أما يوم بئر معونة ، فما كان مخدوعا ، بل كان يقظا ، وخشى على من أرسلهم من خشونة أهل نجد ، وجفوتهم ، وأنهم أعراب غلاظ ، وما وافق حتى عقد عهدا بالجوار ، وكان مكتوبا بدليل أنه قدمه رسول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى عامر بن الطفيل فمزقه بسيفه ، وبدليل أن بنى عامر رفضوا أن يصرخوا ابن الطفيل اذ استصرخهم حفظا للجوار ٠

ولكن الغدر والخيانة جعلاه يستصرخ بغيرهم ، كما أصرخوه ، وكان ما كان من قتل الأطهار العباد الزهاد الذين يحتطبون بالنهار ، ويقومون بالليل ٠

ولقد أدرك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم غدر الغادرين ، وربما ظن بقلبه الطاهر الربانى أنه لم يكن حريصا فى ارسالهم ، فقنت ثلاثين يوما استغفارا لربه ، فما كان غير حريص ، ولا مخدوعا فى هذا ٠

وانه مهما يكن الأمر فى هذا ، فانه من المؤكد أن مسارعة عامر ابن الطفيل لهذا الغدر ، ما كان الا لاشاعة أن المؤمنين هزموا فى أحد ، فتكشفت قلوب الغادرين والمدهنين لقريش ، الذين ظنوا فيهم القوة ، والله ولى المؤمنين ٠

غزوة بنى النضير

٤٤٤ ـــ اشرنا الى أن غزوة احد ، والظن بان المسلمين هزموا فيها اظهر حقدا دفينا ، فى المنافقين واليهود ، وما كانوا يترددون فى اعلانه رهبة وخوفا أظهروه حقدا وطمعا ٠

ولما توالى الغدر بالمؤمنين لم يكن ليكف اليهود والمنافقين عن ان يقوموا دورهم فى الغدر ، وهم على مقربة من المؤمنين ، فهم اقدر ، وغدرهم أنكى ، لذلك اخذ النبى صـــلى الله تعالى عليه وســلم حــذره منهم ، وكان يترصــد حركاتهم ، وغدر غيرهم كان ارهاصـــا بغدرهم ، واظهار ما تنطــوى عليه نفوسهم ، وبدا غيظهم فى أفواههم وغدرهم ظهر فى بعض أعمالهم ٠

قتل عمرو بن أمية الضمرى اثنين قد أعطاهما الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم جواره ، وكان القتــل خطأ ، فقال النبى صــلى الله عليه وســلم لأدينهما ، أى لأدفعن الى أهلهما الدية ٠

وكان الاتفاق الذى تم العهد عليه عندما قدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عند قدومه الى المدينة المنورة فيه يتعاونا فى أداء الديات ٠

ذهب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى يهود بنى النضير ، ومعه أبو بكر وعمر وعلى ليســـتأدى ما وجب عليهم من المعـــاونة فى دية هذين القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى خطأ ٠

فلانوا فى القول ، ولكنهم استخفوا غدرا ، قالوا له : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ٠

ولاحظ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه خلا بعضهم الى بعض ، وتســـاروا فى القـــول ، وفراســـة المؤمن مدركة يقظة ، وكان الذى تناجوا به غدرا ، وقال بعضهم لبعض لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحال ٠

وكان رســـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو ومن معه من كبـــار اصحابه ، قالوا فمن رجل يعلو على هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب ، وقال : انا لذلك وصعد ليلقى الصخرة ٠

رأى رســـول الله صـــلى الله تعالى عليه وســـلم خلوتهم بعضهم ببعض وحركاتهم المريبة فأدرك أن فى هذا شيئا يبيتونه ، وقد رأى الغـــدر فى يوم

الرجيع وبئر معونة ، فلابد أن يكون قد تسارع ظن الغدر اليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخصوصا أن حركاتهم كثرت ، وتأخروا عن الاجابة وقد أعلم الله تعالى نبيه بما أرادوا من غدر ، والله يكتب ما يبيتون ٠

والصحابة قد اسـتطالوا الزمن ، وركبتهم ظنون الغـــدر ، وكما قال ابن اسحاق استلبثوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، أى اعتقدوا أنه لبث زمنا طويلا ، فسألوا عنه رجلا مقبلا من المدينة المنورة داخلا المدينة ٠

أقبل أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى انتهوا اليه ، فأخبرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بحركاتهم ، وبما كانوا قـد أرادوا من الغدر ٠

اجــــلاؤهم :

٥٤٤ ـــ لم يجيبوا داعيه الى المعاونة التى يفرضها عليهم العهـد الذى عاهدوه عليه ، وأعطوه كلاما لينا ، ودبروا تدبيرا خبيثا ، وكان ذلك غدرا فى العهد ابتداء ، وما كان ليرضى أن يعيشوا معه ، وهم ينقضـــون الميثاق الذى وثقه عليهم ، ووفى به من جانبه صلى الله تعالى عليه وسـلم والمواثيق عهود فيها واجبات وحقوق متبادلة تلزم كل فريق ، بمقدار ما يلزم الآخر ، ولا يمكن أن يكون جوار حسن من غير عهود توفى ، ومواثيق تربط بالمودة ، أو بالوفاة ، فكان الجلاء أمرا لابد منه ، وفوق ما علمه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من ارادة الغـدر به ، والقضـاء عليه ، فلم يكن لبقاء الجـوار مكان ، وكان على أخفهم حملا ، وأقلهم عـــددا أن يرحل ، ويترك الأرض لأهلها ، يعيشون فى أمن واستقرار فلا يعيش الثعبان بين ظهورهم ٠

بعث رسول الله يأمرهم بالخروج من جواره لنقضهم العهد أولا ، اذ لم يعينوا فى دية الرجلين ولأنهم هموا بالغـدر ثانيا ، واذا كانوا يدعون أنهم لم يفعلوا مع علم النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم اليقينى بذلك فانهم يكفيهم نقض الميثاق فى المعاونة ، ولا سبيل لاقامتهم معه من غير وفاء بعهد وثقوه ٠

أرسل لهم محمد بن مسلمة أن يخرجوا وأرسل اليهم عبد الله بن أبى ابن سلول ينهاهم عن الخروج ، وأنهم معهم ، ولئن قوتلوا ليقاتلن معهم ٠

ويقـول ابن كثير فى تاريخــه : بعث اليهم أهـل النفـــاق يثبتونهم ، ويحرضونهم على المقام ، ويعدونهم النصر فقويت عند ذلك نفوسهم ، وحمى حيى بن أخطب ، وبعثوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ونابذوه بنقض العهود ٠

أعلنوا بهذا نقض الميثاق جملة لا الجزء الخاص بالاستعانة فى الديات فكان هذا اعلانا للحرب من جانبهم • وما كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليتركهم ينقضون العهد ، ويهمون بالغدر فى غير اكتراث بعهد ولا حسن جوار ويهمون بالقتال ولا يقاتلهم •

أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالخروج اليهم ، مهما يؤيدهم المنافقون سرا أو علنا ، فجعل على المدينة ابن أم مكتوم ، وكان ذلك فى شهر ربيع الأول •

سار بمن معه من المهاجرين والأنصار فنزل بساحتهم فحاصرهم وتحصنوا بحصونهم ، وقد أوهمهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه سيقطع نخيلهم ويحرقها فنادوه : أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب من صنعه ، فما بال قطع النخيل وتحريقها •

ويظهر أنهم توهموا ذلك ، أو أوهموا لتضعف نفوسهم ، ويهون عليهم الاستسلام ، ولم يقطع ولم يحرق كما تدل الآية الكريمة التى بينت مآلها فى سورة الحشر ، وهى سورة جلائهم •

وقد ذكرنا أن المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبى قد بعثوا اليهم ابتداء بأنهم معهم ليثبتوا ويتمنعوا ، فثبتوا وتمنعوا ، وكان الحصار ، وقد استمروا فى غيهم ، وقالوا لهم لن نسلمكم ، ان قوتلتم قاتلنا معكم ، وان أخرجتم خرجنا معكم •

تربص اليهود ذلك من المنافقين ، وصدقوهم ، وتوقعوا أن ينصروهم ، وهم بين المسلمين ، فما فعلوا شيئا ، فاضطرب أمر اليهود وانزعجوا ، وقذف الله تعالى فى قلوبهم الرعب •

عندئذ اضطروا لأن يعودوا ويقبلوا الجلاء الذى طلبه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من غير حرب ولا حصار ، واعنات ، ولكن لم يرضوا بسبب تحريض أهل النفاق •

عادوا وطلبوا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يجليهم ، ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الابل من أموالهم •

أجابهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الابل فكان الرجل منهم يأخذ من بيته ما يخلع به بابه ، فيضعه على ظهر بعيره ، فينطلق به •

خرجوا الى خيبر ، حيث تجمعوا فى حصونها مع بنى قينقاع ، ومنهم ذهب الى الشام ، فكان من اشرافهم الذين ذهبوا الى خيبر ابن أبى الحقيق ، وحيى بن أخطب ، فكانوا لهم سادة ، ودانوا لهم بالطاعة ٠

وقد نزل فى بنى النضير ، وما كان من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما أمر الله تعالى نزل أكثر سورة الحشر ، قال الله تعالى : « **سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض ، وهو العزيز الحكيم ، هو الذى أخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم ، لأول الحشر ، ما ظننتم ان يخرجوا وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا يا اولى الأبصار ، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب النار ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاق الله ، فان الله شديد العقاب ، ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ، وليخزى الفاسقين** » وقد حاصرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأجلاهم فى ست عشرة ليلة ٠

أحكام شرعية اقترنت بغزوة النضير

٤٤٦ — أحكام شرعية ثلاثة اقترنت بغزوة بنى النضير ، أو شرعت بعدها :

أولها : منع التخريب :

وذلك أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان منه ما توهموا أنه سيقطع نخلهم بعد أن استطال حصارهم ، فاحتجوا عليه صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه نهى عن التخريب وعيبه ، وكيف يقطع النخل مع هذا .

والحقيقة أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يقطعه وان هم بقطع النخل افزاعا لهم ، وتخويفا ليسارعوا بالاستسلام ، وقد كانوا تحصنوا بحصونهم ، ويرمون الحجارة من فوقها ، وكان لابد أن ينزلهم من صياصيهم ، وهى الحصون ، والآية الكريمة صريحة فى أنه أمر بقطع الثمار ، لا بقطع الأصول بل أبقى ما أبقى قائما على أصوله كصريح الآية ، ولو كان صلى الله تعالى عليه وسلم قد قطع الأصول ما بقى نخيل تقوم عليها ثمار .

ولبيان الموضوع كاملا نذكر الفقه فيه ، وأساسه هذه الآيات التى تلوناها فى واقعة الجلاء ، ان النهى عن قطع النخيل والتخريب بشكل عام قد جاء فى وصية أبى بكر الصديق لبعض جنده ، وما كان أبو بكر الا متبعا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما هى ذى .

روى الامام أحمد فى سنده أن أبا بكر بعث الجيوش ، وبعث يزيد بن أبى سفيان أميرا ، فقال وهو يمشى ويزيد راكب ، اما أن تركب ، واما أن أنزل ، فقال الصديق : ما أنا براكب ، وما أنت بنازل ، انى أحتسب خطاى هذه فى سبيل الله ، انك ستجد قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم فى الصوامع فدعهم ، وما زعموا ، وستجد قوما قد فحصوا أوساط رءوسهم من الشعر ، وتركوا منها أمثال العصائب ، فاضربوا ما فحصوا بالسيف ، وانى موصيك بعشر : لا تقتلن امرأة ، ولا صبيا ، ولا كبيرا هرما ، ولا تقطعن شجرا مثمرا ولا نخلا ولا تحرقها ، ولا تخربن عامرا ، ولا تعقرن شاة أو بقرة الا لمأكلة ، ولا تجبن ولا تغل » .

هذه وصية أبى بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولابد أن تكون بهدى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك ننفى أن يكون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد قطع نخيل بنى النضير ، فمحال أن يكون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أمر فى موضع ، وأبو بكر ينهى باطلاق ولأن القرآن الذى نزل فى واقعة الجلاء لم يذكر قطع النخيل ، وهى الأصول بل الذى فيه أنه قطعت ثمار ، وبقيت أخرى على أصولها قائمة ٠

ولكن مع ذلك لما اشتدت لجاجة الحروب بين المسلمين والمشركين أو الكفار بشكل عام اختلف الفقهاء فى جواز التخريب فى أرض العدو من قطع أشجار ، وتهديم بنيان ، وذبح الحيوان لغير مأكله ، أو اهلاكه بشكل عام ٠

فكثيرون من الفقهاء أجازوه ، لأن الحرب لا تبقى ولا تذر ، ولأنه اذا أبيحت الأنفس ، فكيف يصان ما عداها وهو دونها ، ويستندون فى ذلك الى أخبار نسبت للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى غزواته ٠

أولها : وهو فى قصة بنى النضير أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أمر بتخريب بنى النضير ، وقال الله تعالى فى ذلك « **يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا يا أولى الأبصار** » ٠

ثانيها : أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أمر بأن يحرق قصر مالك بن عوف ، وقد كان أميرا لجيش المشركين فى الطائف ، ورمى بالمنجنيق حصنا للطائف ٠

ثالثها : أنه عليه الصلاة والسلام أمر بقطع كروم العنب لثقيف فى الطائف ، وقد ذكر فى المغازى أنهم عجوا عند ارادة قطعها ، وقالوا : « كيف نعيش بعد قطعها » ٠

هذه حجج الأكثرين من الفقهاء الذين قالوا ما قالوا تحت سلطان لجاجة الحروب وشدتها ٠ وعدم تحرجها من قبل المشركين ٠

أما الفريق الآخر من الفقهاء وان لم يكونوا الأكثر قد تمسكوا بقول الصديق الذى لا يمكن أن يخرج عن قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولا عن عمله ، فمنعوا التخريب ، وعلى رأس هذا الفريق فقيه الشام الأوزاعى فقد قرر أنه لا يجوز التخريب الا اذ ألجأت اليه ضرورة حربية ، كأن يتحصن المحاربون بحصن ولا يمكن الوصول اليهم الا بهدمه ، أو تكون الأشجار غابة كثيفة ، قد اتخذوها مستترا يكمنون للمسلمين فيها ، وينقضون عليهم من مساترها ٠

وان الناظر الى ادلة الذين اباحوا التخريب فى غير ضرورة ، ملجئة ، لا يجدها منتجة لاباحته باطلاق فان تخريب النبى لبيوت بنى النضير ، لأنهم اتخذوها حصونا يقذفون منها الحجارة على المؤمنين ، فكان لابد أن تزال تلك الحصون دفعا للأذى ، فكانت الضرورة ملجئة لذلك ، وقد قرر الجميع أن الضرورة تقدر بقدرها ٠

وان قصر عوف بن مالك كان قد اتخذه حصنا ، وكذلك الحصون التى رميت بالمنجنيق ثقيف ، فما كان رميها الا لضرورة حربية ، لا للتخريب والافساد ٠

أما ما هم به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من قطع كروم العنب لثقيف ٠ فلأنهم كانوا يتخذون منها الخمر ، والخمر حرام ، ويظهر أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يقطع ، وانما أمر فقط بالقطع ، أو قطع قليلا لافزاعهم ، وذلك ليحملهم على التسليم بدل الاستمرار على القتال ، وبذلك تحقن الدماء ، ولذلك سلموا بمجرد أن رأوا المسلمين يعتزمون قطعها ٠

وانه بمراجعة الشريعة فى مصادرها من كتاب وسنة واثار للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وصحابته الكرام يجدانها لا تدل على جواز التخريب ، بل تمنعه ٠

ولنقف عند الآيات الكريمة التى تلوناها فى قصة اجلاء بنى النضير ، فنجد أن الآيات لا تبيح التخريب باطلاق وفى كل الأحوال ، وأن القطع الذى ذكره القرآن انما هو فى قطع الثمار لا فى قطع الأشجار ، وذلك فى قوله تعالى : « **ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على اصولها ، فباذن الله** » ٠ الى آخر الآيات الكريمات التى تلوناها ٠

وذلك لأن اللينة المراد بها الثمرة والمعاجم فى اللغة تؤيد ذلك ، لأن كلمة لينة جمعها لون وهو بالاتفاق نوع من ثمر النخل ، ولأن الآية تخير بين قطع اللينة أو بقائها على أصولها ٠ وذلك يقتضى أن تكون ثمرة قائمة على الأصول تبقى أو تقطع ، والأصول النخيل ، فلم يذكر فى القرآن اباحة قطعها ولأن الآثار الواردة فى غزوة بنى النضير التى هى موضوع الآيات الكريمات تفيد أن الصحابة ما كانوا يقطعون النخيل ، بل كانوا يقطعون الثمر ٠

فقد روى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم استعمل ابا ليلى المازنى وعبد الله بن سلام على نخيل بنى النضير قبل اجلائهم ، فكان ابو ليلى يقطع العجوة ، وهى تمر جيد ، وابن سلام يقطع اللون وهو تمر ردىء ، فقيل لأبى ليلى لم قطعت العجوة ؟ قال لأنها اغيظ لهم ، وقيل لابن سلام لم قطعت اللون ؟ قال لأنى علمت أن الله تعالى مظهر نبيه ومغنمه أموالهم ، فأحببت ابقاء

العجوة ، وهى خيار اموالهم ، وان قطع الثمار لا يعد تخريبا ، لأنــه سيكون ماكلة ٠

والذى ننهى اليه بالنسبة لما يكون فى الحرب من هدم وتحريق وتخريب انه يستفاد من مصادر الشريعة وأعمال النبى صلى الله تعالى عليــه وسلم ، فى حروبه ٠

اولا : أن الأصل هو عــدم قطــع الشــجر وعدم تخريب البنــاء ، لأن الهدف من الحــرب ليس ايذاء الرعيــة ، ولكن دفــع أذى الراعى الظــالم ، وبذلك وردت الآثار ٠

ثانيا : انه اذا تبين أن قطع الشجر وهدم البناء توجبه ضرورة حــربية لا مناص منها ، كأن يستتر العدو به ويتخذه وسيلة لايذاء جيش المؤمنين ، فانه لامناص من قطع الأشجار ، وهدم البناء ، على أنه ضرورة من ضرورات القتال ، كما فعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى حصن ثقيف ٠

ثالثا : أن كلام الفقهاء الذين أجازوا الهدم والقلع يجب أن يخــرج ، على أساس هذه الضرورات ، لا على أساس ايذاء العدو والافساد المجرد ، فالعدو ليس هو الشعب انما العدو هم الذين يحملون السلاح ليقاتلوا ٠

غنائم بنى النضير والحكم العام فى الغنائم كلها

٤٤٧ ــ كانت غنائم بنى النضير هى أول غنائم من أهل القرى من أرض ونخيل ، وحصون ، فهى التى سنت مــايتخذ من حكم الاستيــلاء على الأراضى أتوزع على المحــاربين أم تكون محبوسة على مصــالح المسلمين ، فيكون لهم غلاتها ، وتبقى تحت أيدى أصحابها ، على ألا تكون أيديهم أيدى ملاك رقبة ، بل ملاك منفعة على خراج يؤدونه ٠

ويقول الفقهاء ان ذلك الخراج هو بمثابة أجرة للأرض قد استأجروها به ، واليك النص الذى جاء فى هذه الأراضى ٠

قال الله تعــالى عقب اجلاء بنى النضير ، « **وما افاء الله على رسوله منهم ، فما أوجفتهم عليه من خيل ولا ركاب ، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير ٠ مــا افاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ، ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنــه فانتهــوا ،**

واتقوا الله ان الله شديد العقاب ، للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، اولئك هم الصادقون ، والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه ، فاولئك هم المفلحون ، والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رءوف رحيم » ٠

ونجد هذا النص الكريم قسم ما أفاء الله تعالى به على رسوله والمؤمنين معه قسمين : أحدهما مالا يعد شيئا نابتا أو أرضا ، بل هو مال غير ثابت فالأمر فيه الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوزعه كما شرع الله تعالى له ، وقد أشار الى ذلك بقوله سبحانه ، « **ولكن الله يسلط رسله على من يشاء** » ويوزعه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بمقتضى أمره فى قوله تعالى : « **واعلموا انما غنمتم من شىء ، فان لله خمسة** » الى آخر الآية الكريمة ٠

والقسم الثانى هو ما أفاء الله تعالى به من أهل القرى ، وهو الأموال الثابتة من نخيل قائم وأرض زراعية ٠

وهذه قد جعلها الله تعالى لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ٠

وهنا يجىء البحث فيه أتقسم الأرض بين الغانمين وتخمس كما تخمس الغنائم ، فيكون لله وللرسول وذى القربى واليتامى والمساكين الخمس ، وأربعة الأخماس للمجاهدين ٠

رأى بعض الصحابة ، وكان بلال أشدهم أن تقسم الأرض قسمة الغنائم ، ورأى عمر وعلى وجمع من الصحابة أن تكون محبوسة غلاتها على مصالح المسلمين ، وقد بدا ذلك الخلاف عند الاستيلاء على أرض سواء العراق ، وقد جمع عمر الصحابة خارج المدينة المنورة ، وأخذ يجادلهم ويجادلونه ثلاث ليال سويا ، هو يحتج بألا يكون المال دولة بين الأغنياء ، وقال ان الله سيفتح فارس ومصر والشام ، فلو قسمت فماذا يبقى لسد الثغور وماذا يبقى للذرية ٠

وهم يعارضون بأنها غنائمهم ، وأشد من يعارضه بلال وصحب له ، فكان عمر الفاروق يقول اللهم اكفنى بلالا وصحبه ٠

وبعد ثلاث ليال أراد أن يحكم بينه وبين مخالفيه طائفة من الانصار خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج ، فلما التقوا به ذكر لهم انه ماأزعجهم

الا ليحكموا بينه وبين مخالفيه ، وبعد أن عرض وجهة نظره من الوجهة المصلحية الاجتماعية ، ذكر لهم أنه وجد قوله تعالى : « **وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى** » الى آخر الآيات ، وفصل القول ووزع الأقسام التى تشتمل عليها الآية ، وذكر أن الغلات أولا للمهاجرين ، ثم للذين آووا ونصروا ثم للذين اتبعوهم ثم للذين جاءوا من بعدهم ، « **يقولون ربنا اغفر لنا ، ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان** » ·

ولما تلا عليهم الآيات انقطع الخلاف ، وصار الاجماع على أن تكون الأرض محبوسة لمنافع المسلمين بحكم هذه الآية ·· « **وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فلله وللرسول** ··· » ·

وان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعطى ثمرات أرض بنى النضير للمهاجرين ليرفع بذلك مئونتهم عن الأنصار ، اذ كانوا قد ساهموهم فى الأموال والديار ، ولم يعط مع المهاجرين من الأنصار الا أبا دجانة وسهل ابن حنيف لحاجتهما ·

ومؤدى ذلك أنه وزع الأموال والثمرات على ذوى الحاجة وذوى القربى واليتامى والمساكين وفعل ذلك مع الذين اتبعوا من مهاجرين وانصار ، ثم من جاءوا بعدهم ، والله سبحانه وتعالى أعلم ·

تحريم الخمر

٤٤٨ — جاء تحريم الخمر فى أعقاب غزوة بنى النضير ، كما جاء فى سيرة ابن اسحاق وصحاح السنة ، وظاهر القول أن ذلك التحريم هو البيان الشافى لحقيقة الخمر الذى طالما دعا ربه اليه الرجل الذى ينظر بنور الله تعالى عمر بن الخطاب رضى الله تبارك وتعالى عنه ، وهو قوله تعالى : **« يايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون »** وبذلك كان التحريم القاطع ٠

وان القرآن الكريم والنبى الأمين عليه الصلاة والسلام لم يكن منهما ما اقر الخمر أو اباحها ، انما كانت موضع عفو قبل اعلان التحريم القاطع ، فكل أمر يسكت القرآن الكريم عنه ، وهو يتنافى مع معانى الاسلام ، فانه يكون محل عفو الله تعالى ، ويقال انه عفو ، ولا يقال انه مباح ، فمرتبة العفو تقتضى أن يكون الأمر غير مستحسن فى ذاته ، ولا يرضى عنه الاسلام ، ولا الخلق الاسلامى ، ولكن لم يجىء النص بالتحريم فيكون موضع عفو حتى يجىء النص المحرم ٠

وتحريم الخمر قد جاء فى القرآن الكريم على أربع مراتب ٠

أولاها : بيان أنه أمر غير حسن فى ذاته ، وقد اشار سبحانه وتعالى الى ذلك فى قوله : **« ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا »** أى تتخذون منه مسكرا ، وفى مقابل المسكر رزق حسن ولا يمكن أن يكون مقابل الرزق الحسن حسنا مثله ، فهذا النص يشير الى استنكار الخمر ، وأنها ليست أمرا حسنا ٠

الثانية : بيان أنها اثم ضار ، واذا كان فيها نفع فاثمها أكبر من نفعها ٠

ولذلك جاء الاستنكار المؤيد بالسبب ، فقال تعالى : **« يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس ، واثمهما أكبر من نفعهما »** ٠

ومن المقررات فى الشرائع والعقول أن الأمر الذى يكون ضرره أكبر من نفعه يكون محرما ، اذ أن التحريم والاباحة والندب تناط بالضرر والنفع ، فما

يكون نفعه أكبر يكون مطلوبا ، وما يكون ضرره أكبر ، يكون ممنوعا ، وان الله سبحانه وتعالى خلق الأمور وقد اختلط نفعها وضررها ، فلا يوجد ما هو نافع نفعا محضا ، ولا يوجد ما هو ضار ضررا محضا ، والعبرة بالكثرة والقلة ، ويتفاوت الطلب بتفاوت المصلحة ، ويتفاوت النهى بتفاوت المضرة ٠

فكان هذا النص دالا على التحريم ، لكن بغير دلالة صريحة شافية ، ولذلك كان الفاروق رضى الله تعالى عنه يقول : « اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا » ٠

المرتبة الثالثة : التربية على الامتناع من الخمر ، بأن تتعود النفس التى مردت عليها التخلى عنها طول النهار وأطراف الليل ، فاذا جاء التحريم القاطع الحاسم الشافى تكون النفس المؤمنة قد تربت على أن تنفطم عنها ، فتنفطم بالأمر القاطع ٠

وذلك بقول الله تعالى : « **يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون** » ان الصلاة ركن الدين وعمود اليقين ، ولابد أن يقيموها ، وهى مفرقة فى أوقات النهار وزلفا من الليل ٠

فاذا كان الصباح لا يشربون حتى يقربوا صلاة الصبح وهم فى صحو كامل ، فيمرنون على ترك صبوح الخمر ٠

والنهار عمل لا لهو فيه ، ولا خمر ، بل أمر جد ، واذا جاء الزوال لا يقربون من الخمر ، لأنهم يقربون من الصلاة ، فلا يشربون حتى لا يقربوا صلاة الظهر ، وهم سكارى لا يعلمون ، وكذلك العصر ، وكذلك صلاة العشاءين ، وبذلك يفوت عليهم شرب الخمر مساء فيفوت عليهم الغبوق كما فات عليهم الصبوح ٠

ولا يكون لهم الا ما بعد العشاء ، وان بعد العشاء يكون النوم بعد الكد واللغوب ٠

المرتبة الرابعة : التحريم القاطع بعد أن أدركوا أنها شىء غير حسن ٠ وبعد أن أدركوا أن ضررها أكبر من نفعها ، وبعد أن مرنوا على الاستغناء عنها بعد أن ألفوها ، وصارت خلب أكبادهم ، ونبع نفوسهم ، ولذلك نزل قوله تعالى : « **يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون** » وقد كان التحريم مشددا ذاكرا سبحانه وتعالى حكمته بأنها توقع العداوة والبغضاء ، وقد ذكرنا ما كان بين على وعمه حمزة ، لولا أنهما من بيت النبوة وكنفها ، وأنها تصد عن ذكر الله

لأنها تضعف صوت الضمير ، وتجعله فى غفوة ، فلا يدرك الخير ، وهى تصد عن الصلاة ، وحسبها هذه الأمور شرا ٠

وهنا نلاحظ انه كان ذلك الاصلاح الاجتماعى بعد الحرب ، لأن المجتمع الفاضل يجب أن يحمى نفسه من العدو والمهاجم المردى ، ويحمى نفسه من المآثم الداخلية ، فكان جهاد النفس فى محاربة الخمر واجلاء شيطانها بعد محاربة اليهود ، واجلائهم ، فاجتمع الجهادان ٠

أثر غزو بنى النضير فى يهود

٤٤٩ ـــ ذكرنا بنى النضير ، وكيف أظهروا ما كمن فى نفوسهم من شر ، وهموا بقتل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى اضطر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لاجلائهم ، لأنه لا يعيش والحيات والأفاعى بجواره ، ينقضون العهود والمواثيق ، ويريدون فرصة للانقضاض عليه ، لينتهزوها ٠

وان اليهود فى ماضيهم وحاضرهم لا يؤمنون الا بالقوة ، فان رأوها خضعوا وذلوا ، ونافقوا ، وربما يكون منهم من تهديه صدمة القوة الى الحق ٠

ولم يكن بالمدينة المنورة من اليهود الا بنو قريظة ، فأرعدوا فى أنفسهم ، وكان منهم من يفكر فى الرجوع الى الذى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ٠

كان منهم رجل ديان باليهودية ، وهو عمرو بن سعدى القرظى ، فأقبل على أرض بنى النضير بعد جلائهم ، فلما طاف بمنازلهم ورأى خرابها ، وقد صارت يبابا ليس بها داع ولا مجيب ٠

فهداه ما رأى عليه حال اخوانه الى أن ينظر فى التوراة ، وما فيها من صفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومال قلبه لأن يعلن ما كتموه ، وأن يظهر ما أخفوه ، وقد بدت العبر ٠

التقى بقومه من بنى قريظة وقال لهم :

رأيت اليوم عبرا ، قد عبرنا بها ، ورأيت منازل اخواننا خالية بعد ذلك العز والمجد والشرف الفاضل ، والعقل البارع ، قد تركوا أموالهم ، وملكها غيرهم ، وخرجوا خروجا ذليلا ٠٠٠ وأوقع ببنى قينقاع ، فأجلاهم وهم أهل عدة وسلاح ، ونجدة ، فحصرهم ، فلم يخرج انسان منهم وأسر باقوهم ، حتى سباهم ، وكلهم فيهم فتركهم على أن أجلاهم من يثرب ٠

يا قوم : قد رأيتم ، ما رأيتم ، فأطيعونى ، وتعالوا نتبع محمدا ، والله انكم لتعلمون أنه نبى قد بشرنا به ٠٠ ٠فأسكت القوم ، ولم يتكلم أحد الا كعب ابن أسـد ٠

قال له ما يمنعـك يا أبا عبد الرحمـن من اتبـاعه ؟ قال أنت يا كعب ٠ قال فلم وما حلت بينك وبينه قط ٠

وقال بعض اليهود الحاضرين ٠ « بل أنت صاحب عهدنا وعقدنا ، فـان اتبعته اتبعناه ، وان أبيت أبينا ، كان ذلك التفاؤل من اليهود بعد أن رأوا ما كان لبنى النضير ، ثم ما كان من قبل لبنى قينقاع ، فهز ذلك اعصابهم ، وحملهم على التفكير فيما بين أيديهم ، وما عندهم من كتاب ، أصابتهم حيرة بلا شك فأمامهم حق عرفوه ، وان لم يذعنوا له ، وما عليهم من تعصب ينأى بهم عن الحق ، وما يحسـبون أو يرجون فى أعـدائه من أن يكون لهم غلب ، وبذلك يجـزىء عنهم ، ويأمنون جانبه ، ثم ما أفزعهم مما رأوا فى اخوانهم من بنى قينقاع وبنى النضير ٠

جعلهم حب الذات ، وهو ديدنهم أن يفكروا ويعتبروا بما كان ، وما من طمع بأن يكفيه أمـره غيـرهم فيكـونوا نظـارة يرون ما يسرهم من غير أن يضاروا ، وذلك شأنهم دائما ، يتقون الأذى بسيوف غيرهم ، ولا يحملون هم السيوف ما وجـدوا الى ذلك سبيلا ٠

ولقد انتهى ترددهم بأن أصروا على كفرهم ٠ وألقوا حبالهم مع المشركين من كفار قريش ٠ وكانت التدبيرات معهم ٠ وقد ظهر ذلك أشد ظهور فى معركة الخنـدق ٠ اذ تحالفـوا مع المنافقين والمشركين ، على أن يضربوا من الأمام بأيدى المشركين ومن الخلف بأيدى اليهود ٠ وفى الوسط اليهودى يوهنـون ويفسـدون ويدلون على عورات المؤمنين ، ولنترك القصص للحـوادث يتبع بعضها بعضا ٠

غزوة ذات الرقاع

٤٥٠ ـــ ذات الرقاع بقعة فيهـا نخـل ، وقيل سميت ذات الرقاع ، لأن الألـوية كان فيها رقاع ، وقيل غير ذلك ، فقيل انهم كانـوا يربطون على أرجلهم الخزف والرقاع من شدة الرياح ·

كانت هذه الغزوة فى آخر جمادى من السنة الثالثة ·

وكان الاتجاه فى هذه الغزوة الى بنى محارب ، وبنى ثعلبة من غطفان ، وخرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى أربعمائة مقاتل ·

وذلك لما كان من عامر بن الطفيل ، وقتل أكثر من سبعين والفرار من المؤمنين خديعة وغدرا مما يدل على الاستهانة بالرسول وجيشه بعد غزوة أحد التى ادعى فيها بغير الحق هزيمة المؤمنين واشاعة ذلك فى الصحراء ليستردوا هيبتهم ، ويحرضوا العرب على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه من المؤمنين ·

وكان لابد للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم من أن يعلن قوة الايمان ، وأن يقتص من الذين قتلوا الأبرار الأتقياء من أصحابه غدرا وخيانة ·

خرج اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى أربعمائة رجل كما ذكرنا ، فوجد جمعا عظيما من غطفان ، فلما تراءى الجمعان تهيب كل صاحبه ويقول إبن اسحاق خاف الناس بعضهم بعضا ، ولم يكن قتال ، فلم ينل محمد صلى الله تعالى عليه وسلم منهم ، ولم يقتص لأولئك الأبرار الذين قتلوا خيانة وغدرا ·

ولكنهم الا كانوا لم يقتصوا منهم لكثافة عـددهم وكانوا عـددا كبيرا وبعد الشقة بين موضع القتال والمدينة ، فان النبى عليه الصلاة والسلام قـد أرهبهم ، واسترد ما كان للجيش الاسلامى من هيبة ، وذهبت سورة ما أنشأته قريش لنفسها ·

وفوق ذلك ، ارتاد البلاد العربية ، وتعرف مسالكها ، ثم أشار لقريش الى أنه يرصدهم ، كل مرصد ، ويتتبع متاجرهم ان أراد ، وما كان الدخول فى معركة يشك فى نتيجتها خيرا من أن يصل الى الأمور من غير حرب ، وأما

القصاص لأولئك الأبرياء الذين ذهبوا فى غدر دنىء ، وخفر للعهد لا يرضى عنه عربى ، ولا يقبله من له مروءة ، فان أمر ذلك الى الله ، والمستقبل القريب ، وان وبك لبالمرصاد ، وما كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لينتقم اذا استجابوا لله وآمنوا بما أنزل على الرسول ٠

صلاة الخوف

٤٥١ ـــ كانت الأهبة للحرب من جانبهم عنيفة شديدة ، وان كان الله تعالى قد ألقى فى قلوبهم الرعب ، وكان على المؤمنين أن يحذروهم ، ولقد كان المشركون يتفاهمون فيما بينهم على أن ينقضوا على المسلمين اذا حان وقت صلاتهم ، وهم يعلمون وجرى على ألسنتهم أن الصلاة أحب اليهم من كل شىء ، فكانوا يطمعون أن يصيبوا منهم غرة وقت صلاتهم ، ولكن الله تعالى قد علم جنده الحذر ، فقال عز من قائل : « **يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم** » ٠

ولذلك شرعت صلاة الخوف لمثل هذه الحال ، ونزلت آية شرعيتها فى هذه الغزوة ، فقال تعالت كلماته : « **واذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح ان تقصروا من الصلاة ان خفتم ان يفتنكم الذين كفروا ، ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا ، واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ، فلتقم طائفة منهم معك ، وليأخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ، ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا ، فليصلوا معك ، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وامتعتكم ، فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم ، وخذوا حذركم ان الله أعد للكافرين عذابا مهينا ، فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا ، وعلى جنوبكم ، فاذا اطمأننتم ، فأقيموا الصلاة ، ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ، ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ، ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما** » ٠

ويظهر أن الآيات الكريمات قد نزلت فى وقت ذلك اللقاء بين المؤمنين والمشركين الذى كان فيه الحذر من الجانبين ، وهذه الآيات تدل على أحكام شرعية ٠

أولها : قصر الصلاة الرباعية لأجل السفر أو الخوف ودل على ذلك قوله تعالى : « **واذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح ان تقصروا من الصلاة** » ٠

وثانيها : أنها ثبتت صلاة الخوف بها ، وظاهرها الذى تدل عليه أنه يصلى ركعتين ، وليحرم الجميع بالصلاة معه ، ولكن تجىء طائفة منهم النبى

بأسلحتها ، ولتصل معهم ركعة ، والطائفة الأخرى تحرس المصلين مع تسلح المصلين أنفسهم ، فاذا أتم الركعة مع هذه الطائفة ، تأتى الطائفة الأخرى ، مع أسلحتها ، ولتأخذ حذرها ، ويصلى صلى الله تعالى عليه وسلم الركعة الثانية مع الطائفة الأخرى ، ويسلم صلى الله تعالى عليه وسلم عند كمال صلاته ٠

ومن بعد ذلك تصلى كل طائفة الركعة الباقية لها مع بقاء الأخرى حارسة ، فالطائفة التى ابتدأت الصلاة مع النبى تكون ركعتها لاحقة لأنها الثانية ، والطائفة الأخرى التى جاءت الأولى تصلى مسبوقة ، لأن مافاتها هو الركعة الأولى ٠

ونلاحظ فى صلاة الخوف ـ أولا ـ أنها ركعتان ، وروى أنها كانت الأربع فى حال الخوف من غير سفر ، وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكذلك كل امام يقسم المصلين فرقتين احداهما تحرس ، وقد أحرمت للصلاة ، ويصلى بالأخرى ـ وان ذلك يقتضى الحراسة الدائمة ، مع عدم الانقطاع عن الصلاة ٠

وثانيا : أن الصلاة تكون بامامة القائد ، أو من يقوم مقامه ليكون الجمع بين الصلاة والامامة أى تكون الصلاة جماعة ٠

وثالثا : أن ينتفع الجميع بفضل الجماعة فان فضل الجماعة ينالها اللاحق ، وهو الذى يقطع الصلاة بعد الدخول فيها ، ثم يتمها ، والمسبوق ، وهو يتأخر دخوله فيها ، ثم يعيد ما سبق به ٠ وله فضل الجماعة ٠

وقد روى ابن هشام عدة روايات فى صلاة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى الخوف وقد تعددت هذه الصلاة فى مواطن كثيرة ، ولبها واحد ٠

فقد روى عن جابر بن عبد الله قال : « صلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بطائفة ركعتين ثم سلم ، وطائفة مقبلون على العدو ، جاءوا فصلى بهم ركعتين أخريين » ٠

والآية تنطبق على هذه الرواية ولا تخرج عما قلنا ، بيد أن الرواية تدل على أن النبى صلى بهم أربعا ، وكل صلى ما فاته ٠ وروى عن جابر أيضا قال : صلى بنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فركع بنا جميعا ، ثم سجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسجد معه النصف الأول فلما رفعوا سجد الذين يلونهم بأنفسهم ، ثم تأخر الصف الأول ، وتقدم الصف الثانى حتى قاموا مقامهم ، ثم ركع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بهم جميعا ، ثم سجد

النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وسجد الذين يلونه معه ، فلما رفعوا رءوسهم سجد الآخرون بأنفسهم فركع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بهم جميعا ، وسجد كل واحد منهم بأنفسهم سجدتين ٠

واننا نرى فى عبارة هذه الرواية اضطرابا ، ولا نرى أن الآية تنطبق عليها ، والأولى أحق بالأخذ ، وعليها الفقهاء الأربعة ٠

وتدل الآيات السابقة على أن الصلاة لا تسقط فى سفر أو حضر ، ولا أمن ولا خوف ٠

وأنها فى الخوف والسفر قد تقصر ، أو تكون بالايماء ، ولكن لا تسقط ، لأنها ذكر الله ، ويجب أن يكون العبد قائما به فى كل حال ، ولو على الجنوب ٠

وانه اذا كان الأمن والاطمئنان يجب أن تقام الصلاة كاملة مقومة على وجهها بركوعها وسجودها ٠ والائتمام الكامل والجماعة الكاملة كما قال تعالى : « **فاذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ، ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا** » أى معينا فى مواقيته ، لا يجوز التخلف عنها فى أى حال ، ولا عذر فى تركها ، لأنها مخاطبة العبد لربه ، وذلك هو الدين القيم ٠

فى ذات الرقاع :

٤٥٣ ــ اذا كانوا قد غدروا بالسبعين قارئا ، وقد أمنوهم ، فقتلوهم وقد جاءوا بأمان مكتوب فمزقوه وفجروا بقتلهم ، ولم يرعوا الا ولا ذمة ، اذا كانوا قد فعلوا ذلك ، فقد كان منهم من أراد أن يرتكب ما هو أشد من ذلك غدرا ، وأبعد أثرا ، وأفجر فعلا ٠

فقد روى ابن اسحاق بسنده أن رجلا اسمه غورث بن الحارث من بنى محارب ، قال لقومه ألا أقتل لكم محمدا ، قالوا وكيف تقتله ؟ قال أفتك به ، فأقره الغادرون ، وأعادوا غدرهم جذعا ، وكانوا الغادرين فى العرب ، ولم يكونوا الشجعان الأبطال ٠

أقبل الرجل الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو جالس آمن وسيفه فى حجره ، فقال الرجل يا محمد انظر الى سيفك هذا ؟

فجعل الرجل يهز السيف ، ويهم به ، فكبته الله ٠ ثم قال يا محمد ، أما تخافنى ؟ قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما أخاف منك ، قال : أما تخافنى وفى يدى السيف ؟ قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : لا ، يمنعنى الله تعالى منك ٠

هذه رواية ابن اسحاق ، وفى الصحيحين عن جابر أنه غزا مع رسول الله غزوة نجد ، أى ذات الرقاع ، فلما قفـل راجعا أدركته القافلة فى واد كثير العضاة ، فتفرق الناس يستظلون ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تحت ظل شجرة ، فعلق بها سـيفه ، قال جابر فنمنا نومة ، فاذا رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يدعونا ، فأجبناه ، واذا عنده أعرابى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، : « ان هذا اخترط سيفى ، وأنا نائم ، فقال من يمنعك منى قلت الله ، فشام السيف وجلس ، ولم يعاقبـه ٠

وفى رواية مسلم زيادة ، وهى عن جابر : « أقبلنا مع رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى اذا كنا بذات الرقاع ، وكنا اذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فجاءه رجل من المشركين وسيف رسول الله معلق على شجرة ، فأخذ فاخترطه ، وقال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « تخافنى ؟ قال : لا ، قال فما يمنعك منى ؟ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : » الله يمنعنى منك ٠

ويروى أن السيف سقط من يد الرجل فأخذه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال من يمنعك منى فقال الرجل خاضعا : « كن خير آخذ ٠ قال تشهد أن لا اله الا الله ، قال لا ، ولكن أعاهدك على الا اقاتلك ، ولا اقاتل من يقاتلونك ، فخلى سبيله ، فأتى أصحابه ، وقال : جئتكم من عند خير الناس ٠

وتعدد الروايات لا يمنع صدقها ، وهى يتمم بعضها بعضا ، ولا اختلاف بينها ، وكلها يذكر أنها كانت فى ذات الرقاع :

واذا كانت قد ذكرت فى غيرها ، فان ذلك دليل على تكرارها ، ولا تنافى بين الروايات ٠

وقد ذكرنا هذه القصة لأمرين :

أولهما : ما انحـدر اليه بعض المشركين من الخـلاق تتنافى مع مراعاة الجـوار ، والمـروءة وفيها ارادة الغـدر والقتـل من غير مواجهة ، وكيف استباحوا ذلك بالنسـبة للنبى صـلى الله تعالى عليه وسـلم كفرا وفسـوقا وعنادا ٠

ثانيها : أن ذلك بلا ريب فيه أمر خارق للعادة ، لأن السيف تنقبض عليه اليد فى وقت ارادة الضرب ثم يسقط من يده على غير ارادة منه ، وقد اعتزم الشر وبيته ودبره ، فلما حانت ساعته ، خانته يده ، وقد كان ذلك من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى أمور كثيرة ، ولكن لم يجعلها دليل نبوته ، ولم يتحد بها العرب ، بل تحدى بالقرآن وحده ، لأنه ما جاء بالخوارق الحسية ، كعصا موسى وابراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من الحوادث التى تنقضى بمجرد وقوعها ، بل كانت معجزته باقية ، لأن رسالته باقية ، لا تنقضى بزمانها وهى القرآن الباقى الخالد الذى يتحدى الناس فى كل جيل وفى كل مكان ٠

« قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذ االقرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » ٠

النبى بين أصحابه

٤٥٣ ــ شغلتنا أخبار الغزوات والسرايا عن النواحى الأدبية التى كانت بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وصحابته والتى كانت تربط القلوب بالمودة الراحمة ، فقد كان رءوفا رحيما ، يعين المحتاج ويواسى الضعيف ، وما كان ليخرج بهم الى ميادين القتال ، الا وهم يشعرون برحمته ، ومودته فكان نبى المرحمة ونبى الملحمة ، ولابد قبل الملحمة من المرحمة ، فان النصر وسيلته الرحمة بالجند والرعية ، ورعاية العشير لعشرائه ٠

رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جابر بن عبد الله قد تأخر عن الرفاق ، اذ هم يمضون وهو متخلف عنهم ، وكان سبب تخلفه عن الركب أن جمله ضعيف ، فسأله مالك : قال يا رسول الله أبطأ بى جملى هذا ، فقال له محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنخه ، وقطع جابر عصا من شجرة بأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخذها ونخسه بها نخسات ثم قال لجابر اركب ، فركبه ، وقال جابر ، والذى بعثك بالحق يواهق ناقته مواهقة ، أى يسارعها ولا يبطؤ ٠

هكذا كانت مراعاة القائد لجنده ، يتتبع الضعيف فيقويه ، والمتخلف فلا يتركه حتى يسير معه ببركة الله ، وما سقنا الخبر لذلك فقط ، بل سقناه لهذا ، ولأنها بركة بأمر خارق للعادة ٠

وان حديث الجمل لا ينتهى بذلك ، بل ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يبتاع الجمل ، فيريد أن يهبه له جابر ، فيأبى الا الشراء ٠ ثم يساومه ، طلبه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بدرهم فأبى ، فزاده الى درهمين فأبى ، فما زال يزيده حتى جعل ثمنه ، أوقية من ذهب ، ولكنه يهبه للرسول ، بعد أن ساوم هذه المساومة ٠

واذا كان قد تعرف حال صاحبه وهو فى السفر ، فلابد أن يؤنسه ويعينه ، ويتعرف حاله ٠ فسأله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قائلا : يا جابر ، هل تزوجت ٠ قال نعم يا رسول الله ٠ قال عليه الصلاة والسلام أثيبا أم بكرا ، قال : لا بل ثيبا ٠ قال عليه الصلاة والسلام أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك ٠ قال جابر يا رسول الله ان أبى أصيب يوم أحد ، وترك بنات له سبعا ، فنكحت امرأة جامعة ، تجمع رءوسهن وتقوم عليهن ، قال له الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم العطوف الألوف ، أصبت ان شاء الله ٠

ولكن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لا يكتفى بذلك الود الراحم ، بل انه يقيم الوليمة لزواج صاحبه ، فاذا وصل الى مكان يبعد عن المدينة بنحو ثلاثة أميال اسمه صرار ، نحر جزورا ، يأكل هو وأهله · كان ذلك والجمل لا يزال فى يد جابر ·

فرأى ازاء تلك المحبة والمودة أن يرسل الجمل الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد وهبه له ، فرده النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اليه ، وأرسل معه ثمنه ، وهو الأوقية من الذهب التى ارتضاها ثمنا له ·

ولننقل كلام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لنرطب به أسماعنا ، ونملأ به قلوبنا · لما رأى الجمل قال ما هذا قالوا هذا جمل جابر ، فقال أين جابر ؟ فذهب اليه فقال الرسول الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم : « يابن أخى خذ برأس جملك فهو لك ، ودعا بلالا فقال له اذهب بجابر · وأعطه أوقية ذهب ·

ذكرنا هذه القصة لنعرف مودة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورأفته بهم ، وملاحظته وادخال السرور على نفوسهم ، واذهاب العنت عنهم ، لتكون منهم قوة فى الأرض ، فليست القوة ، بالفظاظة والتحكم ، انما القوة بالمحبة والتراحم والتودد ·

غزوة بدر الآخرة

٤٥٤ — فى نهاية غزوة أحد من قبل المشركين نادى أبو سفيان مهددا ، أو واعدا بأن موعدكم بدر من العام المقبل ، وما كان أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ليخافوا اللقاء ، وقد أدوه فى أعقاب قفول قريش ٠

ولذلك خرج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى بدر مى شهر شعبان من السنة الرابعة ليلقاهم بمنى ولينتصف لجرحى أحد وشهداء المسلمين ، وخصوصا سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب عمه وأخاه فى الرضاعة ٠ خرج فى ذلك الميقات ٠ وأقام على المدينة المنورة عبد الله بن عبد الله بن أبى ابن سلول ، أى ابن رئيس المنافقين ولم يكن كأبيه ، بل كان برا تقيا ، ومؤمنا صادقا ، حتى انه لما اشتد أمر النفاق ، قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم دعنى أقتل عبد الله بن أبى حتى لا يقتله مؤمن فيحنقنى ٠ اختاره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على المدينة ، لمكانته فى الايمان وأهله ، ولتبرأ نفسه من سقامها ٠ وفى الوقت الذى كان يقيم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عبد الله بن عبد الله بن أبى مقامه على المدينة ، كان أبوه عبد الله بن أبى يثبط المسلمين عن الخروج للقاء قريش ؛ فيروى عروة بن الزبير أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم استنفر الناس لموعد أبى سفيان ، وانبعث المنافقون يثبطونهم ، فسلم الله تعالى أولياءه ، وخرج المسلمون وصحبه الى بدر ٠ وأخذوا معهم بضائع ، وقالوا أن وجدنا أبا سفيان ، والا اشترينا من بضائع موسم بدر ٠ خرج المسلمون كما ترى يتمنون أن يكسروا أنف الشرك ٠

خرج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى بدر ومعه نحو خمسمائة وألف ، وقد خرج على نية لقاء العدو حتى نزل وانتظر ثمانى ليال ، عساه يلقى قريشا بقيادة أبى سفيان كما وعد أو توعد ، ولكنه لم يجىء فى الميقات ٠

وأبو سفيان كان قد أراد الخروج على تردد ، فخرج فى أهل مكة ، حتى نزل مجنة من ناحية الظهران ، ولكنه مع خروجه ووصوله الى ذلك المكان كان التردد لا يزال يسيطر عليه ، خشية العاقبة ، ولذا بدا له أن يعود من حيث نزح ، وقال فى سبب نكوصه لقومه ٠

« يا معشر قريش ٠ انه لا يصلحكم الا عام خصيب ترعون فيه الشجر ، وتشربون اللبن ، فان عامكم هذا عام جدب وانى راجع فارجعوا ٠٠٠ فكان

أهل مكة المكرمة يسمون الجيش الذى خرج بقيادة أبى سفيان ثم عاد جيش السويق يقولون انما خرجتم تشربون السويق ٠

ولعل هذه النظرة وذلك القول فيه لوم وتهكم ، لأنهم خرجوا للقتال وعادوا من غير لقاء أو قرب منه ؛ وان هذا يدل على أن أبا سفيان تخاذل عن اللقاء ، والسبب الذى استحله للعودة وهو الجدب كان قائما وقت الخروج فكان أولى أن يمنع الخروج ، لا أن يوجبه ، ولكنه فكر وقدر الهزيمة ، وقد ذاق مرارتها فى بدر ، فآثر العافية ، ورضى من الغنيمة بالاياب ٠

وأتى الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو بماء بدر بعض بنى ضمرة الذين كان قد وادهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى غزوة ودان التى غزاها وقال للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يا محمد أجئت للقاء قريش ، وقد يوهم سؤاله أنه مال مع المائلين لقريش بعد أحد ، واشاعة قريش أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم هزم ، وما كانت هزيمة ٠

قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « نعم يا أخا بنى ضمرة وان شئت رددنا – أى ما كان بيننا وبينك من موادعة – وجالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك » ٠

قال : لا ، والله يا محمد مالنا بذلك من حاجة ٠

رجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة ، ولم يلق حربا ، وكان النكوص من جانبهم وان ذلك بلا ريب يزيل ما كانوا يرجونه من اشاعة الهزيمة ليوهنوا شأن النبى والمؤمنين فى بلاد العرب ، ويعلو شأنهم ، فيتهيبهم الناس دونه ٠

ولقد قال الواقدى ان جيش المؤمنين فى مدة اقامته الليالى الثمانى ، اتجروا ، اذ لم يجدوا قتالا ، وكانت سوق تعقد فى ثمانية أيام ، فرجعوا فى وفر مالى ، وقد ربحوا من الدرهم درهمين أى أنهم باعوا واشتروا وكسبوا فزاد رأس مالهم ضعفين ، وهذا كما قال الله تعالى : « **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم** » ٠

غزوة دومة الجنـدل

٤٥٥ ـــ وهى مكان يبعد عن المدينة بمسيرة نحو خمس عشرة ليـلة من ناحية الشام ٠ وقد كانت سرايا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وغزواته ، أكثرها فى ناحية مكة المكرمة وما حولها ، ونجد وما يقاربها ٠ وفى هذه الغزوة اتجه ناحية الشام ، ليكون ذلك اعلاما لقيصر الروم الذى كان يحكم الشام ٠ بأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا الدين الجديد فيتعرف الحـال والمآل ، فيكون ذلك تنبيها له ما بعده ، كما سيجىء الأمر فى الغزوات التى اتجهت الى لقاء الرومان فى حياة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

لذلك اتجه صلى الله تعالى عليه وسلم الى دومة الجندل ليدنوا الى أدنى الشام من الصحراء العربية ، ولأن دومة الجندل كان بها جمع كبير ، وأنهم كانوا يشبهون قطاع الطريق ٠ فيسرقون من يمر بهم وينتهبونه ٠ ومع ذلك كان فيه سوق عظيمة ٠ فكان لابد أن يغزوها النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم ليؤمن طريق جيوشه عندما يريد الشام ، خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من المدينة المنورة فى شهر ربيع الأول من السنة الخامسة ، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى ٠

ونرى من هذا أنه ما كان يخص نوعا ، معينا من الرجال باستعماله فى المدينة وهو غائب عنها وفى ذلك اشعار للمؤمنين بأن الولاية حق لكل مؤمن من غير نظر الى قبيل أو نوع من الرجال ٠

ندب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الناس ، وخرج فى ألف من المسلمين ، وكان يسير بالليل ، ويكمن بالنهار ٠ ولعل الوقت كان صيفا ، فكان السير ليلا أخف وأيسر ، وعلى أى حال ، فهو كتمان للمسير ٠ والحرب خدعة، وكان يسير ومعه دليل من بنى عذرة ، وهو هاد خريت ٠

لـمـا دنا من دومة الجنـدل ، وقد وصـل الخبر اليهم ، تتفرقوا فنزل بساحتهم ، فلم يجد أحدا فأقام بها أياما ، وبث سراياه ، داعية الى الاسـلام بين الأقوام متعرفة فاحصة وقد أسلم على يديه من أسلم ، ثم عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد شهر من خروجه ٠

النبى فى المدينة :

٤٥٦ — كانت غزوة بدر الآخرة فى شعبان من السنة الرابعة ، ثم كانت من بعد غزوة دومة الجندل فى ربيع الأول من السنة الخامسة ؛ فمكث الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من غير غزو نحو ستة أشهر أو تزيد ، فماذا كان يعمل ؟

ونقول فى ذلك كان يقوم بحق التبليغ للرسالة ، فما بعث محمد صلى الله تعالى عليه وسلم للقتال ، ولكن بعث لتبليغ رسالة ربه ، وما كان القتال الا دفعا للذين يقفون فى سبيل الدعوة ، أو يكيدون للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وللمؤمنين ، أو يريدون أن يفتنوا الناس عن الاسلام ، فالقتال كان لحماية الدعوة ، وهى الأصل ، وبيان أحكام الله تعالى للعباد هى تبليغ الرسالة والله تعالى يقول فى كتابه العزيز : « **يأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس** » ·

كانت اقامة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى المدينة فى الفترات التى تكون بين الغزوات لبيان حقائق الرسالة المحمدية ، والأحكام الشرعية وتعليم المؤمنين ما يدعو اليه ربهم ، وتحفيظهم ما يتيسر لهم من حفظ القرآن بحيث يحفظه مجموعهم ، ويحفظ بعضهم كله كزيد بن ثابت · فكان عمله عليه السلام فى فترات السلم تبليغ ما أمره الله تعالى به ، وبيان الطريق لتنفيذه وتطبيقه ، وتعليم الناس مالا يمكن معرفته ألا بالتدريب عليه ·

لقد رأينا بعد غزوة بنى النضير نزول القرآن بتحريم الخمر ، فالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، يتولى تنفيذ ذلك التحريم ، ببيان العقوبات الزاجرة المانعة من الشرب ، فقد جئ له بشارب ، فضربه بالنعال أربعين بنعلين ، فكانت ثمانين ، فاعتبر كثيرون من الصحابة حد الخمر ثمانين ، وشدد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى المنع ، فقال فى شارب الخمر : اذا شرب ، فاضربوه ، فان عاد فاجلدوه ، فان عاد فاقتلوه ·

وجاء قوم يقولون انا بأرض برد نستدفئ بالخمر ، فنهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن شربها ، فقالوا انهم لا يمتنعون ، قال فقاتلوهم وبذلك بين لهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أحكام الشرع ، ودربهم على تنفيذ ما أمر الله به ، وما نهاهم عنه ، ويقيم الحدود التى شرعها الله تعالى ، ويحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه بما أنزل الله تعالى ·

وقد بين لهم صلى الله تعالى عليه وسلم أحكام الزواج ، وشرح لهم المحرمات ، وعلمهم الفرق بين ما هو سفاح ، وما هو نكاح ، وما للرجل على

امرأته . ومالها عليه من حقوق ، وبين أحكام الملكية الخاصة ، وبجوارها الملكية العامة ، وما على الآحاد من الناس من حقوق ، وما عليه من واجبات ، ويتلقى الذين جاءوا اليه ليتعلموا الاسلام · ويرسل الى كل عشيرة أو قبيلة من يعلمها أمر دينها ، ويتحقق بذلك قوله تعالى : « **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم** » · فهو يرشد ويهدى بنفسه من يجيئون اليه ، ومن هم قريبون منه ، ويرسل رجاله الى من يرشدونهم ويتلقى القرآن ، من لدن حكيم عليم ، ويأمر من بحضرته ممن يحسنون الكتابة أن يكتبوا ما ينزل به الروح الأمين ·

ويعلمهم صلى الله تعالى عليه وسلم أحكام البيوع والشروط ، والمعاملات والديون وما يتعلق بها وغير ذلك من الأحكام التى تنظم الجماعة الاسلامية ، وتكون منها المدينة الفاضلة ، وهو فى هذا يبلغ رسالة ربه ·

غــزوة الخنــدق

٤٥٧ ـــ كانت غزوة دومة الجندل فى ربيع الأول من السنة الخامسة ، وبعدها بستة أشهر كانت غزوة الخندق ، اذ كانت فى شوال من السنة الخامسة وفى هذه الأشهر الستة كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يبلغ الدعوة ، ويعلم المؤمنين مبادىء الاسلام فى المجتمع والفضيلة ، والمعاملات الماليــة ، وغير المالية ، ويبث دعاته فى البلاد العربية ، وأخبارها تتجاوزها الى ما وراء تلك البلاد ، تسرى فيها كما يسرى النور ، وهو آمن مطمئن ، لم يزعجه غــاز يغزو مدينته ، ولا غادر يغدر به فى دعوته الحق ، يجيئه المؤمنون به فرادى من كل القبــائل ، ينضــمون الى صــفوفه ، أو يعــودون دعاة الى أقوامهم ان وجــدوا فيهم ٠

وكان اليهــود من بنى خــزاعة بجــواره ، قد يكيدون له ، وان كــانوا لا يظهرون ، يمالئون الأعداء ، ويتضافرون مع المشركين ممن يرسلونهم مــن بنى النضير الذين أجلوا ، فهم جميعا ملة واحدة فى الكيد للمسلمين وارادة اقتلاعهم ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يسالمهم ، ويحذرهم ، يخادعونه ، والله خادعهم ٠

ونوجه الأنظار الى أن الغزوات المحمــدية ما كانت تتجــاوز شهرا فى سيرها ، وذلك قليل فى عمر الدعوة الاسلامية ٠ وهى كأمر يعرض فيدفع ، ثم ينصرف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى تبليغ رسالة ربه ٠ وبيــان شرعه والدفاع بالحجة والبرهان عن العقيدة والرسالة أمام اليهود ، وأمام المشركين لا يألو جاهدا ، فهو يجادل ويبلغ ويعلم ، ويحفظهم القرآن ويعلمهم الحكمة ، فيرددون أحاديثه ، وينقلون أعماله ، والرسالة يتكامل تبليغها ٠

كيف كانت غزوة الخندق وأسبابها :

٤٥٨ ـــ ان السيــاق التــاريخى للوقــائع يشير الى أن القرشيين تضعضعت نفوسهم ويظهر أنهم ما كانوا ليقدموا على حرب وحدهم ، خشية من محمد صلى الله تعــالى عليه وسلم ومن معه من جند أشداء فقــد مكثوا لا يقاتلونه ولا يذهبون سنتين كاملتين ، وان كانوا يشجعون عليه غيرهم من غطفان وغيرهم ، ممن غدروا وخانوا ، وهم هم كانوا يهابون لقاء المؤمنين الأشداء الذين يطلبون الحيــاة مــن وراء الموت ، ولا يضنون بنفوسهم على الاستشهاد ٠

كل قبيلة من الأعداء كـانت تخاف المؤمنين وحدها ، واذا كـانوا قد اجتمعوا على الشرك والكفر فانهم أرادوا أن يجتمعوا على القتال ، فينقضون على المؤمنين مجتمعين ، ويقتلعونهم من المدينة لتعود كمـا كـانت دار شرك ويهود كما كانت أولا ٠

واذا كانت الحاجة الى نصر الشرك تدعوهم الى الاجتماع ، فقد أخذ كبـار اليهود الذين طردوا من المدينـة يدبرون لهم ، ويدخلون فى صفهـم ، فاجتمع نـاس من بنى قينقاع ، وبنى النضير ، بالمشركين يحرضـونهم عـلى الاجتماع ، وأن يكونوا معهم ، والمنافقون يؤيدونهم ، وبنو قريظة من ورائهم ، فكان اليهود مدبرين . أو مشتركين فى التدبير ٠

قال ابن اسحاق بسنده « انه كان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود منهم سـلام بن أبى الحقيق النضرى ، وحى بن أخطب النضرى ، وكنـانة ابن الربيع بن أبى الحقيق ، وهوذة بن قيس الوائلى ، وأبو عمار الوائلى فى نفر من بنى النضير . وبنى وائـل ، ٠٠٠ وهم الذيـن حزبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة ، فدعوهم الى حرب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقالوا انا سنكون معكم عليه ، حتى نستأصله ٠

قالت لهم قريش يامعشر يهود : انكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بمـا أصبحنـا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ، قـال اليهود أهل الكتـاب الذين يدعون أنهم يتبعون التوراة : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق ، وهكذا نرى حقدهم وعنادهم دفعهم الى الكفر فى دينهم ، ولقد نزل فيهم قوله تعالى : « **ألم تر الى الذين أوتوا نصيبـا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطـاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهـدى من الذين آمنوا سبيلا ، أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا** » ٠

لم يكتف هؤلاء اليهود بتحريض قريش الذين لم يكونوا محتاجين الى تحريض ، ولكن يحتـاجون الى من يؤازرهم ، بل ان أولئك النفر من اليهود خرجوا الى غطفان من قيس بن غيلان فدعوهم الى حرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخبروهم أنهم يكونون معهم ، وأن قريشا قد تابعوهم اجتمعت الأرض كلها ، واجتمعت قريش ، وغطفان ، اجتمع هؤلاء ومعهم اليهود وغيرهم فخرجت قريش بقيادة أبى سفيان بن حرب ٠

وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن ، وكان فى بنى فزارة ٠

وبنو مرة وقائدهم الحارث بن عوف المرى ٠

وغير هؤلاء من القواد الذين كانوا يقودون جماعات ·

اجتمع هؤلاء ومعهم قبائل من العرب ، ليغزوا المدينة ، وقد أمر الله تعالى نبيه بأن يقاتلهم كافة ، وانه لناصرهم كما قال تعالى : « **وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين** » ·

سمع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بمسيرهم ، وجاءه الخبر بكثرة الجموع ، وما دبروا ، وما استحصدوا له ·

وروى أن أبا سفيان أرسل مرعدا مهددا بهذه الجموع التى جمعها ، وكتب الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا هذا نصه :

أما بعد فانك قد قتلت أبطالنا ، وأيتمت الأطفال ، وأرملت النساء والآن قد اجتمعت القبائل والعشائر يطلبون قتالك ، وقلع آثارك ، وقد جئنا اليك نريد نصف نخل المدينة ، فان أجبتنا الى ذلك ، والا أبشر بخراب الديار وقلع الآثار ·

تجاوبت القبائل من فزار لنصر اللات فى بيت الحرام

وأقبلت الضراغم من قريش على خيل مسومة من ضرام

وقد نقل هذا الكتاب فى كتاب السيرة لابن جرير الطبرى ·

وقد أكد هذا الكتاب ما وصل الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من أخبار ولم يجد تهديده لاعتماد النبى والمؤمنين على الله ·

ورد عليه الصلاة والسلام كتابه قائلا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل كتاب أهل الشرك والنفاق ، والكفر والشقاق وفهمت مقالتكم فوالله ، ما لكم عندى جواب الا أطراف الرماح وأشفار الصفاح ، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام ، وأبشروا بضرب الحسام وبفلق السهام وخراب الديار ، وقلع الآثار والسلام على من اتبع الهدى ·

ونشك فى نسبة هذا الكتاب الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما فيه من السجع ·

ومهما تكن قيمة الرواية ، فان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مضى فى الاستعداد ٠

فجمع النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم صحابته ، واستشارهم فيما يصنع مع هذه الجموع ، لقد كانوا أكثر من أن يخرجوا اليهم ، ولا أن يتركوهم يدخلون المدينة ، وخصوصا أن بنى قريظة على مقربة من المؤمنين يدلونهـم على عورات المسلمين لا هذا ولا ذاك يصلحان للعمل ، ولا بد من عمل يكون وقاية حتى يجىء نصر الله تعالى ، وقد وعد به ، فقال تعالى : « **وكان حقـا علينـا نصر المؤمنين** » ٠

استشار أصحابه ، فتقدم سلمان الفارسى ، وأشار بالخندق ، لأن ذلك كان يصنعه الفرس فى حروبهم ليحولوا بينهم وبين القوى المهاجمة ، وكان فى زمن موسى عليه السـلام ٠

اختار الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك الرأى ، وهو جديد فى العرب ، قد تروعهم فكرته ، ويفزعهم أمره ، فأخذ فى تنفيذه ٠

فجمع المسلمين ليحفروه ، حتى اذا جـاءت الأحزاب وجدوه حـائلا بينهم وبين مآربهم ٠

حفر الخندق :

٤٥٩ ــ كان على أهل المدينة أجمعين أن يشتركوا فى حفر الخندق ، والنكبة فى ذلك الهجوم العام تعم أهل المدينة أجمعين ولا تخص ، فان الشر اذا طم لا يفـرق ٠

ولكن المنافقين يستأذنون فى التخلف ، ويعتذرون بالضعف ، وما كان ضعف الأجسام ، فالعذر فيـه ، انما كان عذرهم فى ضعف الايمان ٠

ومنهم من استجابوا للدعوة ، ولكنهم عندما اشتدت الشـديدة ، أخـذوا يتسللون لواذا ، لأنهم لا يريدون أن يشتركوا فى نصرة محمد صلى الله تعـالى عليه وسلم ، ولو كان فى ذلك انقاذ للمدينة التى تؤويهم من أن تخرب بيـد المشركين ، ولقد قال سبحانه وتعالى فيهم :

« **انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ان الذين يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهـم ، واستغفر لهم الله ان الله**

غفور رحيم ، لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب أليم » ٠

ومع ذلك تخلفت طائفة من المنافقين ابتداء ، وذهبت أخرى ، ولكنها كانت أشد نكاية من الأولى لأنها كانت تخذل وتوهن قوة العاملين ، اذ كانت تتسلل لواذا غير عاملة تثير الاحساس بالشدة ، وليشجعوا من يمكن أن تخور عزائمهم ، والأمر صعب شديد ٠

تقدم المؤمنون الصادقون لحفر الخنق ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم معهم ، يحفر ويشتد فى الحفر ، حتى يستر التراب جلد جسمه صلى الله عليه وسلم ، وهو لاينى عن العمل بجد لاغب ، ولا يقبل أن يعفيه المؤمنون ، ولسان حاله يقول انه ليس أقل منهم فى طلب الجزاء ، ولا أضعفهم ٠

كان حفر الخندق فى ذاته عملا شاقا مجهدا ، وقد أقبل عليه المؤمنون ببشر وترحاب ، وكانوا ينشدون الرجز ؛ والنبى يشاركهم بأن يقول معهم آخر كلمات الرجز الذين ينشدونه وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول ما يناسبه مما يثير همة المؤمنين بالدعاء لهم ٠ فيروى أنه كان يقول : « اللهم ان العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة » وذلك تشجيع للعمل ، وترنم بما يرجوا المؤمنون ٠

وهم ينشدون :

نحن الذين بايعوا محمداً ... على الاسلام ما بقينا أبدا

وينشدون أيضا :

والله لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينته علينا ... وثبت الأقدام ان لاقينا

ان الألى قد بغوا علينا ... اذا أرادوا فتنة أبينا

كانوا ينشدون هذه الأشعار ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا ينشد الأشعار ، ولا ينبغى الشعر له ٠ فما كان يتابعهم فى البيت من الأبيات ، ولكنه كان يجهر بالقافية معهم مشاركة فى الوجدان والاحساس من غير أن يقول ما لا ينبغى له أن يقوله ٠

وهكذا كان شأنه صلى الله تعالى عليه وسلم فى كل ما كانوا ينشدونه يشاركهم فى النشيد بآخر القوافى ٠

٤٦٠ ـ ولقد اقترن حفر الخندق بمشقة شديدة اذ ابتدأ فى غداة يوم شديد البرودة ٠

وقد قسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما يحفر من الخندق بين صحابة من الأنصار والمهاجرين فكان يجعل لكل عشرة من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أربعين ذراعا ٠

وقد اختلف الصحابة فيمن يكون سلمان الفارسى منهم ٠ لأنه صاحب الفكرة التى هداه الله تعالى عليه ٠ ولقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : سلمان منا آل البيت ٠

ولقد كان العمل شاقا ، ولم يكن القوت كافيا ، لأن كثيرين من الصحابة قد انقطعوا عن موارد أرزاقهم ، فاجتمع لديهم شدة العمل وقسوته والجوع ٠ ولكن الايمان كان يخفف كل شدة ، والصبر يوجد قوة احتمال ، ورعاية الله تعالى فوق كل شدة ٠

وقد ذكر ابن اسحاق وغيره من الرواة انه قد حدثت خوارق كثيرة على يدى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى تلك الشدة التى اشترك فيها كل أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ وهو على رأسهم ٠

قال ابن اسحاق ٠ وكان فى حفر الخندق أحاديث بلغتنى فيها من الله عبرة فى تصديق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتحقيق نبوته ، عاين ذلك المسلمون ٠

منها ـ معجزة الكدية (وهى صخرة شديدة صلبة) فكان مما بلغنى أن جابر بن عبد الله كان يحدث أنه اشتدت عليهم فى بعض الخندق كدية ، فشكوها الى رسول الله صلى لله تعالى عليه وسلم فأتى باناء من ماء فتفل فيه ثم دعا بما شاء الله تعالى أن يدعو به ، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية فوالذى بعثه بالحق نبيا لانهالت حتى عادت كالكثيب » ٠

هذا كلام ابن اسحاق : وقد رويت مسألة الكدية بروايات أخرى ، ذكر الثانية ابن اسحاق كما ذكر الأولى ، وقد ذكرت الثانية فى كتب السنة الصحاح الأخرى ٠

قال ابن اسحاق فى الرواية الأخرى ، وحدث عن سلمان الفارسى أنه قال ضربت فى ناحية من الخندق ، فغلظت على صخرة ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قريب منى ، فلما رانى أضرب ، ورأى شدة المكان على نزل فأخذ المعول من يدى ، فضرب ضربة لمعت تحت المعول برقة ، قال ثم ضرب به أخرى ، فلمعت تحته برقة أخرى ، ثم ضرب به الثالثة ، فلمعت تحته برقة أخرى . قلت (أى سلمان) بأبى أنت وأمى ما هذا الذى رأيت لمع تحت المعول وانت تضرب ؟ قال : أوقد رأيت ذلك يا سلمان ، قلت نعم ، قال : أما الأولى فانه قد فتح علينا اليمن ، وأما الثانية فانه قد فتح علينا الشام والمغرب ، وأما الثالثة فان الله تعالى قد فتح علينا بها المشرق .

هذه رواية تخالف الأخرى ، ولا مانع من أن يكون الأمران قد وقعا ، وخصوصا أن الأولى رواها جابر والثانية رواها سلمان الفارسى ، ولكل رواية واقعة ، وفى كل واحدة منهما خارق للعادة ، ففى الأولى كانت نضحة الماء الذى فيه تفل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد أذابت الصخر فجعلته ككثيب الرمال .

والخارق فى الثانية أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد أجرى الله تعالى على يديه ما كشف له به أنه سيفتح الله تعالى أمة اليمن وما وراءها والشام وما وراءها الى المغرب ، والمشرق ، وهو يمتد الى الهند والصين .

ونحن لا ننكر خوارق العادات ، ولا يمكن أن ننكرها قط على نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن يجب أن نؤكد هنا ، ما أكدناه من قبل ، وهو أن هذه الخوارق التى أجراها الله تعالى على يد رسوله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ليست هى معجزته التى تحدى فيها الناس أن يأتوا بمثلها ، انما المعجزة الكبرى هى القرآن الذى تحدى العالمين أن يأتوا بمثله ، ولا يمكن أن يأتوا بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

الجوع والطعام :

٤٦١ — قلنا ان حفر الخندق اقترن بمشقة شديدة فى الحفر ذاته ، وبمشقة أشد فى الجوع للبعد عن قلب المدينة ، ولانقطاع المؤمنين عن العمل للرزق ، بالانصراف للحفر ، غير مدخرين أى جهد لغيره ، وحتى ما يقوم به الأود ، وان الجهاد فى سبيل الله غذاء النفوس يقبلون عليه ولو تعبت فى سبيله الأبدان ، وأرهقت الأجساد ؛ لأنهم يريدون ما عند الله ، وعنده الفوز العظيم .

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هو الأسوة الحسنة فى الصبر وضبط النفس ، والجلادة وتحمل الجوع ، حتى انه صلى الله تعالى عليه وسلم ليشد الحجر على بطنه حيث لا يجد ما يذوقه ٠

لقد عرض البخارى حديث جابر عن الكدية ، وجاء فيه « انا يوم الخندق نحفر حفرة ، فعرضت كديه شديدة ، فجاءوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا هذه كدية عرضت فى الخندق ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ أنا نازل ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة أيام ، لا نذوق ذواقا » ٠

تلك صورة للجوع الذين كانوا فيه ، وهم يجالدون ، ويبذولون ما لا يبذله الا أقوياء الرجال فىدينهم ونفوسهم ، وهنا نجد الخوارق تكون فى بركة الطعام القليل الذى يتغذى منه العدد الكثير ٠

ويذكر ابن اسحاق فى ذلك روايتين فى بركة الطعام ٠

أولاهما : البركة فى تمر ابنة بشير : ذكر ابن اسحاق بسنده « أن ابنة لبشير بن سعد أخت النعمان بن بشير حدثت فقالت : دعتنى أمى عمرة بنت رواحة أخت عبد الله بن رواحة الشاعر الأنصارى فأعطتنى حفنة من تمر فى ثوبى ، ثم قالت اى بنية اذهبى الى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغذائهما فأخذتها ، فانطلقت بها ، فمررت برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنا التمس أبى وخالى ، فقال عليه السلام : « تعالى يا بنية ما هذا الذى معك ، فقلت يا رسول الله هذا تمر بعثتنى به أمى الى أبى بشير بن سعد وخالى عبد الله ابن رواحة يتغذيانه ٠

. قال صلى الله تعالى عليه وسلم هاته : « فصببت فى كفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فما ملأهما ثم أمر بثوب فبسط له ، ثم دعا بالتمر عليه ، فتبدد فوق الثوب ، ثم قال لانسان عنده اصرخ فى أهل الخندق أنه هلم الى الغداء فاجتمع أهل الخندق ، فجعلوا يأكلون منه ، وجعل يزيد ، حتى صدر أهل الخندق عنه ، وانه ليسقط من أطراف الثوب ٠

الثانية : وهى تشبه هذه ، وان كان قد اختلف موضوعها ، ذكر ابن اسحق عن جابر بن عبد الله أنه قال عملنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الخندق ، وكانت عندى شويهة ليست جد سمينة ، فقلت لو صنعناها لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأمرت امراتى فطحنت لنا شيئا من الشعير ، صنعت لنا منه خبزا ، وذبحت تلك الشاة ، فشويناها لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما أمسينا وأراد رسول الله صلى الله

تعالى عليه وسلم الانصراف من الخندق ، قلت يا رسول الله انى قد صنعت لك شويهة كانت عندنا ، فأحب أن تنصرف معى الى منزلى ، وانما أريد أن ينصرف معى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وحده ، فلما قلت له ذلك قال نعم ، ثم أمر فصرخ صارخ أن انصرفوا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى بيت جابر بن عبد الله . قلت انا لله وانا اليه راجعون .

أقبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأقبل الناس معه ، فجلس وأخرجناها اليه فبرك وسمى ، ثم أكل ، وتواردها الناس ، وكلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس ، حتى صدر أهل الخندق عنها ، أى أن الشاة غير السمينة كفتهم جميعا .

ولا شك أن هذين الخبرين بهاتين المسألتين يدلان على خارق للعادة جرى على يدى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكم للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى ذلك من خوارق ، منه ما ذكرنا ، فى لقائه عليه السلام ، وغذائه فى بيت أم معبد وهو فى طريقه الى الهجرة .

وان الخبر يدل فوق ذلك على الجهد الشديد الذى أصاب الصحابة ومعهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من قلة الطعام .

ويدل على أمر سام ، وهو فضل التعاون ، وهو أنه كان لا ينفرد أحدهم بطعام عن الباقين بارادة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهديه وحكمته .

اللقــــاء

٤٦٢ ــــ اقبلت قريش ومن معها من كنانة وتهامة والأحباش وكانوا فى عدد كبير بلغ الاف منهم وممن معهم ونزلوا فى أسـيال رومة بين مكانين أحدهما اسمه الجرف ، والآخر اسمه زغابة ، واقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد ، ونزلوا عند أحد · وكان عدد قريش أربعة الاف ، وعدد من معهم ستة الاف وكانت لهم قيادات مختلفة ، فكان يقود قريشا أبو سفيان بن حـرب ، وكانت غطفـان بقيادة عيينة بن حصن وكان ثمة قواد يقودون أعدادا ليست بالكبيرة نسـبيا ، فكانت أشجع بقيادة مسعود بن رخيلة وعددهم أربعمائة ، وكانت سليم يقودهم سفيان بن عبد شمس ، وعددهم سبعمائة ·

لم تكن لهؤلاء قيادة موحدة ترسم الخطة ، ويتبعها الجميع ، وان جعـل كل قيادة على قومها يتولى القوم رجل منهم ، وقد يكون ذلك مفيدا فى ذاته ، ولكن يجب أن تكون ثمة قيادة عامة ترسم للجميع ·

ومهما يكن فهم لم يختلفوا لأنهم جاءوا الى المدينة ، فلم يجدوا ما يمكنهم من الهجوم جميعا أو متفرقين ، وما كان ذلك سبب الهزيمة التى منـوا بهـا بنصر الله للمؤمنين بالريح والرعب ·

لقد جاءوا الى المدينة يحسبون أنهم يغيرون عليها ، وليفرقوا أو يقضـوا عليهم ويسبوا نساءها ، لقد جاءوا بعد ما تم حفر الخندق ·

فوجئوا بأنهم لا قبل لهم بأن يدخلوا المدينة ، فوجئوا بالخنـدق يحـول بينهم ، وبين أن يقتحموا جند المؤمنين ، ولم يكن لهم عهد بمثله ، ورأوا كيدا لم يكن بتدبير عربى ، بل بعقل آخر ، وبذلك لم يروا أن مهمة القضـاء عـلى محمد واصحابه سهلة ، انها تحتاج الى تدبير آخر غير ما دبروا ، وأن يدخلوا الى المدينة من غير هذا المكان · فانه لا يمكن أن يدخل منه جند كثيف كعددهم ·

عندئذ تحرك حيى بن أخطب الذى جمع متفرقهم ، وان لم يكونوا مندمجين موحدين فى قيادتهم ، وانه اذ نجح فى تحريضهم ، لا يمكن أن يتخـاذل عـن أن يضم اليهم بنـو قريظة ، وقد كانوا يتمنـون الغـوائل للمؤمنين ، ويريدون الوبال لهم ، وربما كان لهم سعى فى الحركة ، وان لم يكن ظاهرا ، تسلل اليهم حيى ، ليكونوا وراء المؤمنين ، وقد يحيط الجميع بهم ، وليجـدوا منفذا الى المدينة عن طريقهم ، ويعملوا معهم ، ويكون المشركون من فوقهم ، وبنو قريظة من أسفلهم ·

لم يكن بنو قريظة ممن يغامرون ، وكانوا حريصين على الحياة ، كشأن اليهود ، كما قال تعالى فيهم ، « **ولتجدنهم أحرص الناس على حياة** » ٠

دخل حيى بن أخطب على كبيرهم كعب بن أسد القرظى ، الذى وادع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على قومه وعاهده وقد رده ابتداء ردا عنيفا ، وقال له انك امرؤ مشئوم ، وانى قد عاهدت محمدا ، فلست بناقض ما بينى وبينه ، ولم أر منه الا وفاء وصدقا ، وبعد أن عرض بشجاعته ٠ فتح له الباب ٠

ولننقل لك الحديث لتعرف ما كانت تجرى به الأمور ، وما كان يسرى فى النفوس ٠

قال حيى : ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر ، وببحر طام ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم على جانب أحد ، قد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه ٠

قال له كعب : جئتنى والله بذل الدهر ، وبجهام قد هراق ماؤه (أى بسحاب قد نزل ماؤها) فانى لم أر من محمد الا وفاء وصدقا ٠

فلم يزل حيى يتحايل بالقول ، ويفتل بالذروة والغارب حتى سمع له واستجاب لما يطلب ، وبذلك كشف طبع اليهودى ، فهو لا يفى بعهد شرفا وكرامة ولكن يفى مضطرا خوف الذل والمهانة ، ولذلك وافق عندما أقنعه بأن القوة مع قريش ، وأمنه على مستقبله ، فأعطاه عهدا وأعطاه ميثاقا قائلا له : لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك فى حصنك ، حتى يصيبنى ما أصابك ٠

اطمأن كعب ، فنقض العهد ٠ وهو من شيمته ، وما كان التمسك الا حرصا منه على نفسه ، وخوفا عليها ، فأتاه الشيطان من ناحية نفسه ، فاقتنع ، والعداوة فيه أصيلة ٠

ولذلك سرعان ما انضمت قريظة الى الأحزاب التى جاءت من المدينة ، وكان ذلك فيما بينهم وبين حيى ، وعمل على أن يبلغه لقريش ومن معهم ٠

ولكن وصل الخبر الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الحذر الحريص الذى لا يؤتى من غفلة صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

أراد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يستوثق ليكون الخبر كالعيان فأرسل الى بنى قريظة سيد الأوس سعد بن معاذ ، وسيد الخزرج سعد بن عبادة ومعهما عبد الله بن رواحة · وقال لهم انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ، فان كان حقا فالحنوا الى لحنا أعرفه ولا تفتوا فى أعضاد الناس ، وان كانوا على الوفاء فيما بيننا فاجهروا به أمام الناس ·

ذهبوا اليهم فوجدوهم على أخبث حال ، نالوا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنكروا العهد وقالوا لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ، وقالوا منكرين من رسول الله فلم يطق سعد بن معاذ صبرا فشاتمهم وشاتموه وقال له سعد بن عبادة : دع عنك مشاتمتهم ، فما بيننا وبينهم أدنى من المشاتمة ·

عاد السعدان الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذكرا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم غدرهم ، ولكن بلحن القول ، لا بصريحه حتى لا يفت ذلك فى أعضاد المسلمين ·

٤٦٣ ــ جاء المشركون من أعلى واليهود ومن أسفل ، والمنافقون فى داخل المسلمين يقولون ويوهنون العزائم ، ويضعون فى النفوس روح التردد والهزيمة والنفاق ، وزلزلت قلوب ضعفاء المؤمنين ، وظنوا بالله الظنونا ، حتى قال بعض ضعفاء الايمان قول غير المؤمنين : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب الى الغائط ، ووجد من يستأذن فى التخلف من أولئك الضعاف فى ايمانهم ، حتى قال بعضهم يا رسول الله ، ان بيوتنا عورة من العدو ، وذلك على ملأ من رجال قومه ، فأذن لنا أن نرجع الى دارنا ·

وان أبلغ التصوير للنفوس فى هذا الهول هو كلام الله تعالى عن الأحزاب وآثارهم ، فيصف ما فى الأنفس العليم بذات الصدور ، يقول سبحانه :

« يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها · وكان الله بما تعملون بصيرا · اذ جاءوكم من فوقكم ، ومن أسفل منكم ، واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، واذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا ، واذ قالت طائفة منهم ، يأهل يثرب ، لا مقام لكم ، فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبى ، يقولون ان بيوتنا عورة ، وما هى بعورة ، ان يريدون الا فرارا ، ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها ، وما تلبثوا بها الا يسيرا ، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار ، وكان عهد الله مسئولا ، قل لن ينفعكم الفرار ان

فررتم من الموت أو القتل ، واذا لا تمتعون الا قليلا ، قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ، ولا يجـدون لهم من دون الله وليـا ولا نصيرا ، قد يعلم الله المعوقين منكم ، والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا ياتون الباس الا قليلا ، اشحة عليكم فاذا جاء الخوف رايتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد ، اشحة على الخير ، اولئك لم يؤمنوا فاحبط الله أعمالهم • وكان ذلك على الله يسيرا ، يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وان يات الأحزاب يودوا لو انهم بادون فى الأعراب يسألون عن انبائكم ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا ، لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسـنة لمن كان يرجـو الله واليـوم الآخـر وذكر الله كثيرا ، ولمـا راى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسـوله وما زادهم الا ايمانا وتسليما ، من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليـه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا • ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم ، ان الله كان غفورا رحيما ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتـال وكان الله قويا عزيزا ، وأنزل الذين ظاهروهم من اهل الكتـاب من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتـلون وتاسرون فريقا ، واورثكم ارضـهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها ، وكان الله على كل شىء قديرا » •

هذا أدق وصف لحال النفوس فى ذلك الهول ، فهل وهنت ارادة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أو ضعفت عزيمته ، بل كان يؤمن بنصر الله تعالى ، ويدبر الأمر ، ويأخذ الأهبة بعزم الرسول ، وهو من أولى العزم من الرسل ، فضرب المثل لمن معه من المؤمنين •

٤٦٤ — تقـدم للميـدان بثـلاثة آلاف من المقاتلين ، وأمر بالذرارى والنساء أن تكون فى أطم ، أى مبان متينة تـكون كالحصول لكيلا يكونوا تحت عين بنى قريظة ، ولكيلا يكون المجاهدون فى فـزع على نسائهم وذريتهم ولكيلا يصيبوا منهم غرة •

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وضع حراسة على المدينة خشية أن ينقضوا عليها ، فأقام سلمة بن أسلم على مائة من الرجال ، وأقام زيد بن حارثة على ثلاثمائة أخرى لحراسة المؤمنين من اليهود •

وذلك كله حذرا من المشركين ، وكان لابد من اتخاذ المكيدة ، والحـرب مكيدة « **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** » ، فأراد عليه السلام أن يخـذل المشركين بعضهم عن بعض باثـارة الطمـع فى بعضهم ، فيتخلون عن باقيهم ، فأراد أن يطمع غطفان ومن معها من نجد ، فأرسل الى عيينة بن حصن والى

الحارث بن عوف بن أبى حارثة من قوادهم ، فطلب اليهما المصالحة على أن يأخذوا ثلث ثمار المدينة ، فقبلوا ذلك طمعا منهم ، وأن يعودوا ، وكتبوا الكتاب من جانبهم ولم يكن من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم شهادة ولا عزيمة صلح ، لأنه لا يمكنه أن يعزم ذلك من غير مشورة أهل الثمار ، فلما عرض عليهم من بعد أن جاء الكتاب ، وكان ذلك العرض أن بعث الى سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، فذكر لهما ذلك ، واستشارهما ٠

قالا له يارسول الله : أمرا تحبه فتصنعه أم شيء أمرك الله به لابد لنا من العمل به ، قال صلى الله عليه وسلم بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك ، الا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم الى أمر ما ٠

قال سعد بن معاذ : يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله ، وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة الا شراء أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله تعالى بالاسلام ، وهدانا اليه ، وأعزنا به وبك تعطيهم أموالنا ، والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لانعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ٠

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فأنت وذاك ٠ فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ، وبذلك انتهت ارادة الصلح ، ان كانت ٠

وقد أفاد عرض الصلح أمرين عظيمين ٠

أولهما : أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم علم عزمة أصحابه ، وأنهم يريدون لقاءهم ٠

ثانيهما : أن ذلك أطمع غطفان ومن معها من القبائل ، والطمع اذا سكن حل العزيمة وقد ترتب على ذلك الاطماع ، أنهم تململوا بطول الحصار وجرى بينهم وبين القرشيين خلاف وهموا أن يعودوا من حيث جاءوا من غير أن ينالوا شيئا ٠

٤٦٥ ــ بهذا العرض خذل النبى صلى الله عليه وسلم بين قريش ، وبين من جاءوا بهم من الأعراب ، وبقى أن يخذل بين اليهود وبين المشركين ، وساق الله تعالى اليه من رضى بأن يكون لسان ذلك التخذيل ٠

فقد أتى رجل من غطفان هو نعيم بن مسعود وقال يارسول الله انى قد أسلمت ، وان قومى لم يعلموا باسلامى فمرنى بما شئت فقال صلى الله تعالى

عليه وسلم انما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا ان استطعت ، فان الحــرب خــدعة ٠

خرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة وكان لهم نديما فى الجاهلية فقال : يا بنى قريظة قد عرفتم ودى اياكم وخاصة ما بينى وبينكم ، ان قريشــا وغطفان ليسوا كأنتم البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تحــلوا منــه الى غيره ، وان قريشا وغطفــان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فــان رأوا نهزة أصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل، ولا طاقة لكم به ان خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم ، حتى تأخــذوا منهم رهناء من اشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه ، قالوا لقد أشرت بالرأى ٠

كان هذا تنبيه صدق لبنى قريظة ، وان كان القصد تخذيلهم عن قريش ، ولم يكن كاذبا ٠

ذهب من بعد الى أبى سفيان بن حرب قائد قريش ، وقال عرفتم ودى لكم ، وفراقى محمدا ، وانه قد بلغنى أمر قد رأيت على حقا أن أبلغكموه نصحا لكم ، فاكتموا عنى ! فقالوا نفعل قال تعلموا أن معشر يهود قد ندموا عــلى ما صنعوا فيمــا بينهم وبين محمــد ، وأرســلوا اليه ، وانا قد ندمنــا عــلى ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا مــن أشرافهم فنعطيكهم ، فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على ما يبقى فنستأصلهم ، فأرسل اليهم أن نعم ، فان بعثت اليكم يهود يلتمسون منكم رهنا ، فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحدا ٠

ثم خرج الى غطفان فقال لهم مثل ما قال لقريش ٠

بعد هذا التحذير من ذلك المسلم التقى المدرك ، أرسل أبو سفيان عكرمة ابن ابى جهل يستنهض قريظة للقتال وقال لهم ، انا لسنا بدار مقام ، قد هلك منا الخف والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه ، وكان اليوم يوم سبت ، فاعتذروا ، وقالوا لا نعمل فيه شيئا ، وكان بعضــنا قد أحدث فيه حدثا ، فأصابه ما لم يخف عليكم ٠٠٠ ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا ، حتى تعطونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنــا ، حتى نناجز محمدا ، فانا نخشى ان ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال ، أن تتشمروا الى بلادكم وتتركونا ، والرجل فى بلدنا لا طاقة لنا به ، ولا طــاقة لنا بذلك منه ٠

هكذا أدرك قريش أن بنى قريظة تريد أن تأخذ لنفسها أمانا من الرجعة فيما تقول ، وهى تريد قتلهم ، وأدركت قريظة أنهم لا يريدون تأمينها ، وبذلك تم ما أريد من التخذيل بينهم وأشد التخذيل ما يكون بفقد الثقة وأن يتظنن كل فريق .

ولكن الفريقين مع ذلك استمروا فى غيهم ، فكانوا يبثون العيون على آطم المسلمين التى بها الذرارى والنساء ، لينقضوا عليهم ، وينالوا من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه .

فإذا كان للتخذيل أثر ، ففى فقد الثقة بين الفريقين ، ولكن عداوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مازالت تجمع بينهما ، فلم تنخلع قريظة عن الايذاء وارادة الانقضاض على بيوت المؤمنين .

عين من اليهود حول أطم آل النبى :

٤٦٦ ــ كانت صفية بنت عبد المطلب عمة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى أطم (حصن) لحسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه ، ولم يكن محاربا ، فكان مع الصبيان والنساء ، ولم يكن الحجاب قد نزل ، قالت صفية ، « فمر بنا رجل من يهود ، فجعل يطيف بالحصن ، وقد حاربت قريظة ، وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فعلمت ابنة عبد المطلب من أنه يطيف بمساكن الذرارى والنساء ، ومن أن قريظة قطعت ما بينها وبين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، أن هذا الرجل عين على المسلمين ، ويريد عورات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

قالت السيدة صفية لحسان الشاعر ، ليست بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والمسلمون فى نحور عدوهم ، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم الينا ، ان أتانا آت ، وأن هذا اليهودى يطيف بالحصن ، وانى والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأصحابه ، فانزل اليه فاقتله :
قال حسان : يغفر الله لك يابنة عبد المطلب ، والله لقد عرفت ما انا بصاحب هذا
ولما لم أر عنده شيئا احتجزت (أى شدت وسطها) ثم أخذت عمودا ، ثم نزلت من الحصن اليه فضربته بالعمود ، حتى قتلته ، فلما فرغت منه ورجعت الى الحصن ، فقلت : ياحسان انزل اليه فاسلبه ، فانه لم يمنعنى من سلبه الا انه رجل ، فقال مالى بسلبه من حاجة يابنة عبد المطلب .

وقد ذكرنا هذه القصة لا لنثبت شجاعة أخت حمزة أسد الله ، ولا لحـال حسان رضى الله عنه ، ولكن ذكرناها ، لنعلم منها كيف كان اليهود حريصين على أن يأتوا دور النبى والصحابة فى غيبتهم ·

الجيشـان :

٤٦٧ ـــ **تلاقى الجيشـان : يعتز** جيش الشرك بكثرة العـدد وكثرة العدة ، وأنه من جميع العرب ، ويعتز بأنه استطاع بمحالفته لبنى قريظـة أن يحيط بالمدينة ، وأنه يستطيع الانقضاض عليها من طريق حلفائه ، ولكن لم يتنبه بأن فيه ضعفا ، يتفرق كلمته ، اذ أن تعدد القواد ، لا يوجد كلمة قيادة موحدة تحسن الهجوم الموحدة ، وبذلك لا تغنى عنهم كثرتهم شيئا ، لأن الكثرة المتفرقة خير منها القلة المتحدة ، المتآلفة المتآزره ، وهذا عيب ذاتى فى أصل تكوين الجيش من أحزاب ·

وفوق ذلك ما كان من اطماع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لغطفـان وعدتهم سـتة آلاف فى صـلح يأخذون فيه ثلث ثمـار المدينة ، وان ذلك يثير طمعهم ، وتفت فى عضدهم ، وان كان أمر الصلح لم يبت فيه ، ولكن بابه مفتوح لم يغلق ·

ثم فوق هذا وذاك فقد الثقة بينهم وبين قريظة الذى لم يجعل ثمة فائدة فى التحالف معهم ، وان كانوا قد عملوا عملا فى ايجاد الذعر بين المؤمنين ، وربما كان منهم من حاول الهجوم على دور النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وآل بيته الكرام ، وقد رأينا عيونهم تنبث فى المدينة ·

هـذا جيش المشركين ومن معهم ، أمـا جيش أهل الايمان ، فقد خلصته الشدة من المنافقين فيه وضعفاء الايمان من الذين زلزلوا ، وكان خالصـا صافيا ، وليس فيه الا من قال فيهم : « **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا** » ·

اجتياز الخنـدق

٤٦٨ ـــ فوجىء المتجمعـون من المشركين بالخنـدق ، اذ لم يكونوا يعرفونه فلم يكونوا أهل حروب جماعية ، فعرفوا تدبيرها ومكايدها كما أشرنا من قبـل ، ورأوه سـدا يحـول بينهم وبين أن ينقضـوا جمعا متكاتفا عـلى المدينة ، فيقتلعوا الاسلام منها اقتلاعا ، وبذلك طاش أول هدف لهم ·

ولكن بعضهم وجـد ثغرة منـه فقـد استطاع بعض فرسانهم أن يقتحمها ومنهم عكرمة بن أبى جهل ، وبعض بنى مخزوم ، وعمرو بن عبد ود العامرى العربى المرهوب الذى حضر بدرا وأثخن بالجـراح ، ولم يحضر يـوم أحـد لجراحه ، وقد خرج يوم الخندق معلما ليرى مكانه ، ويعلم أنه جاء لشـفاء غيظـه ٠

وقد خرج مناديا للمبارزة ، وأراد على أن يخرج له فرده النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مرتين حتى عير المسلمين ، فعندئذ خرج على اليه ولم يمنعـه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

فلما التقيا قال له على داعيا الى الهدى : يا عمرو ، انك قد كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش الى احدى خلتين الا أخذت منه خيرهما ٠

قال عمرو : أجل ٠

قال على : فانى أدعوك الى الله ورسوله والى الاسلام ٠ قال لا حاجة لى بذلك ٠

قال على : فانى أدعوك الى النزال ، فقال له لم يابن أخى ، فوالله ما أحب أن أقتلك ، قال له على : لكنى والله أحب أن أقتلك ، فحمى عمرو عند ذلك واقتحم عن فرسه ، وعقره ٠ ونزل للقاء على ، ويظهر أن عليا كان راجـلا ، فأبى أن يقاتل عليا الا راجلا ٠

ثم أقبل على على ، فتجاولا وضرب ضربة تلقاها على بدرقته ، ولكنهـا اخترقتها وجرحت رأس على ، فضربه على ضربة فى ترقوته فقتلته ، وكانت ضربات على أبكارا عندئذ كبر المسلمون ، فعلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن عليا رضى عنه قد قتله ٠

أقبل على نحو رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ووجهه يتهلل ، فقال له عمر بن الخطاب : هل استلبته درعه ، فانه ليس للعـرب درع خـير منها ، قال على ضربته ، فاتقانى بسوءته ، فاستحييت ابن عمى أن أسلبه ٠

ويظهر أنه كان عظيمـا بين المشركين يعتزونه فأرسلوا يطلبون جثمـانه بمال يقدمونه ، فأعطاهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اياه ، وقال هو لكم لأننا لا نأكل ثمن الموتى ٠

كان أولئك الذين قد اجتازوا الخندق وفيهم عكرمة ، وغيره ، وفى بعض

الروايات فيهم خالد بن الوليد ، قد رأو ما كان بين على وعمرو بن عبدود الذى كان كما قيل لم يهزم فى مبارزة قط ، ولم يلبثوا من بعد مقتله الا أن يجتازوا الخنــدق كما بدءوا ، وما تقدم أحد منهم لعلى بعد أن قتل عمرو بن عبدود ٠

وقد ذكر ابن جرير فى تاريخه ان نوفل بن عبد الله بن المغيرة تورط فى الخندق ، ورماه المؤمنون بالحجارة وجعل يقول : قتلة أحسن من هــذه ، فنزل اليه على وقتله ، وروى أن الذى قتله الزبير بين العوام ، وطلبت قريش جثته بعد قتله فى نظير مال ، فأعطاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من غير مال ٠ وقال لا نأكل ثمن الموتى ٠

الهجــــوم على بيــوت المؤمنين

٤٦٩ ـــ استمر الحصار قائما بعد الهجمة التى هجمها الذين اجتازوا الخندق من مكان ضيق غير مرتفع ، وقد قتل اثنان من المشركين فيــه ، وهمــا نوفل المخزومى ، وعمر بن عبدود العامرى ، ثم الرهبة بعــد ذلك من اجتيازه ، وكان النبل من الجيش منهمرا كالسيل ، والمسلمون ينالونهم بالرمى أيضا ، وقد قتل منهم واحد بالنبل ، وقتــل من المسلمين خمســة ، أصيبوا فقتــلوا ، والسادس كان هو سعد بن معاذ الصحابى الجليل الذى كان ثانى اثنين ذهبا الى بنى قريظة ، ورأوا خيانتهم للعهد فى وقت الشديدة وسعد رضى الله عنــه كان قد خرج الى الميدان بدرع غير سابغة ، فذراعاه كانتا عاريتين ، وأصــابه سهم فى أكحله ، أثبته ، ولكنه دعا الله تعالى ألا يموت الا بعــد أن يرى فى بنى قريظة جزاء غدرهم فعاش رضى الله تعالى عنه ، حتى كان هو الحاكم فيهم ثم قبضه الله تعالى اليه راضيا مرضيا ٠

كانت المناوشة اذا بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والمشركين ، اذ عجزوا عن أن يصلوا الى المؤمنين والخندق أمامهم ، والمؤمنون الصادقون من على واخوانه من ورائه ، ومعهم سيوف تبرق ٠

فلم يكن لهم الا الهجوم على بيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مــن أسفل المدينة ، وان ذلك كما يظهر من جانب قريظة ، فهو الجانب الذى يمــكن أن يجىء الشرك الى المدينة من جانبه ، وان الظن أن بنى قريظة هم الذين قاموا به تأييدا لحلفائهم الذين نقضوا الميثاق من أجلهم ، وليشفوا غيظهم ، ولينالوا ثأر بنى النضير وبنى قينقاع من اخوانهم ، وان كان ما أصابهم انمــا هــو بالاعتداء ونقض العهد ، وغدرهم برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

بالواحد ، قتله فارس الاسلام على بن أبى طالب ولننقل ما ذكر الله تعالى فى بيان ختام الواقعة ، ونكرر التلاوة اذ تلوناه من قبل :

« ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا » ·

قال تعالى فى أثناء وصف القصة ، وبيان نتائجها : « **ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا** » ·

وبذلك انتهت معركة الأحزاب ، التى اهتزت لها الجزيرة العربية كلها ، ونادت بالويل والثبور وأنها مقتلعة الاسلام من موطنه ، فباءوا بخسران مبين ، منهزمين فى الميدان ، ومضطربين فى نفوسهم ، وقد رأوا من آيات ربهم الكبرى ما رأوا ·

فقد جاء فى كتاب مغازى الواقدى لما ملت قريش كتب أبو سفيان كتابا وبعثه مع أبى سلمة الحشنى ، جاء فيه :

باسمك اللهم ، فانى أحلف باللات والعزى وأساف ونائلة وهبل ، لقد سرت اليك فى جمعنا ، وانا لا نريد ألا نعود اليك أبدا ، حتى نستأصلكم ، فرأيناك قد كرهت لقاءنا ، فجعلت مضايق وخنادق ، فليت شعرى من علمك هذا ، فان نرجع عنكم ، فلكم منا يوم كيوم أحد تنتصر فيه النساء ·

فكتب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

من محمد رسول الله الى أبى سفيان بن حرب · أما بعد فقد أتانى كتابك ، وقد غرك بالله الغرور ·

وأما ما ذكرت أنك سرت الينا فى جمعكم ، وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا ، فذلك أمر الله يحول بينك وبينه ، ويجعله لنا حتى لا تذكر اللات والعزى ، وأما قولك من علمنا الذى صنعنا من ذلك ، فان الله الهمنى ذلك ، لما أراد من غيظك ، وغيظ أصحابك ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى ، وأساف ونائلة وهبل حتى أذكرك ذلك ·

نتائج غزوة الخندق

٤٧١ ــ كانت لهذه الغزوة نتائج طيبة :

(أ) اذ رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينـالوا خيرا ، وقد بذلوا أقصى ما يستطيعون فيها ، جمعوا العرب ليغزوا المدينة فما رجعوا الا بسـتة مـن القتـلى يقابلهم ثلاثة فيهم فارسـهم وقـد قتله فارس المسلمين على كرم الله وجهـه ٠

وان أثر هذا أن ألقى اليأس فى قلوبهم من أن ينالوا من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما كانوا ليستطيعوا أن يقوموا بمثل ما قاموا به ، فكان لسان حالهم يقول ، لا نستطيع لمحمد سبيلا ، ولقد قال النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم « لا تغـزوكم قريش بعد عامكم هذا ٠ ولكنكم تغزونهم » ، ولقـد أشار القرآن الكريم بذلك ، فقـال تعـالى وهو أصـدق القائلين : « **وكفى الله المؤمنين القتـال** » ٠

(ب) وان العرب الذين كانوا قد طمعوا فى المؤمنين بعد غزوة أحـد التى أشاع المشركون فيها أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم وصحبه قد هزموا ، قد استكانوا ، ولم يعودوا طامعين فى نصر ، بل نأى بهم الخوف عن أن ينالوا منالا ، أو يدبروا أمرا ، فلا يفكروا فى اعتداء أو غدر ، أو ممالأة ، وان ذلك اليأس قد يدفعهم الى التفكير فيما يدعو اليه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذلك كثر الذين يجيئون الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم داخلين فى الاسلام أفواجا وفرادى ، اذ أن الغواشى قد زالت ، ومن ذلك كانت وفود القبائل العربية يجيئون يتعرفون الاسلام ٠

(ج) وان الآيات المادية قد تؤثر فى أولئك الماديين الحسيين ، وخصوصا اذا كانت فى موطن الفزع ، فانها اذا جاءت من غير سبب يألفونه ويعرفونه ، فانها قد تأخذ عقولهم الى التفكير السليم وتخلعها من الوثنية ، اذ يدخـل اليها نور الحق شيئا فشيئا ، والنور كلما دخل أشرق ، واذا أشرق اتجهوا الى الحق وطلبوه ، **والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم** ٠

(د) وان اليهود قد ظهرت نياتهم لمرأى العين ، وانكشفت وصار ما تخفيه صدورهم أمرا معروفا ٠ فقد كانت هذه الشديدة ، التى ادلهمت مبينة ما يبيته اليهود للمؤمنين ، بل تكشفت الوجوه ولم تسترها همزة النفاق ، وصـاروا وجها لوجه امام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

(هـ) وقد بينت واقعة الخندق أن أهل الباطل جمعهم متفرق . فقد اجتمعوا ، ولكن سرعان ما اختلفت نوازعهم بين المشركين أنفسهم ، بما أبداه غطفان من الميل للصلح والعودة ، وبما كان بين المغيرين والقرظيين .

غزوة بني قريظة

٤٧٢ — ان هذه الغزوة احدى نتائج الفشل الذريع الذى منيت به غزوة قريش ومن معهم للمدينة ، وحيلولة الخندق بينهم وبين ان يدخلوها .

فان بنى قريظة قد ارتضوا نكث العهد ، أو نقض الميثاق الذى كان بينهم وبين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد حاولوا أن ينقضوا على عورات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

لقد حسبوها فرصة للقضاء على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن تكون المدينة لهم بدل أن يكونوا فى عهد معه وسلم وأمان ، ويكون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين .

فقد مالئوا وعاونوا ، واقدموا على مهاجمة بيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن معه من المؤمنين ولما رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال ، أدركوا أن الفرصة قد أفلتت من أيديهم وكانت عاقبة أمرهم خسرا .

أولئك المشركون رجعوا الى ديارهم ، ورضوا أن يثوبوا ، وعادوا الى ديارهم لا يغير عليهم مغير ، ولا يأخذ منهم أحد جزاء ما اقترفوا ، اما بنو قريظة ، فانهم سيؤدون الحساب على ما ظاهروا عليه المشركين ، وعلى نقضهم العهد الموثق .

لذلك كله امتلأت قلوبهم رعبا ، وكانت النتيجة كما قال الله تعالى : **« وانزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ، واورثكم أرضهم ، وديارهم ، وأموالهم ، وأرضا لم تطئوها ، وكان الله على كل شيء قديرا »** .

كان بين يدى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم احد أمور ثلاثة : اما أن يعفو عنهم ، ويتركهم آمنين فى ديارهم ، وهم بجوار المؤمنين الذين خانوهم ،

وان ذلك غير ممكن ؛ لأن العفو لا يكون الا لمن يرجى منه خير ، وكيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة ٠

واما أن يخرجهم من ديارهم كما أخرج بنى النضير من ديارهم ، ولكن لا تكون ثمة عدالة ؛ ولا مساواة بينهم وبين بنى النضير ، لأن بنى النضير نقضوا الميثاق بما دون ذلك ، ولأنهم لم يهاجموا بيوت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أوتيت من فوقها ومن أسفل منها ، وأحيطت بكتائبهم ، وكتائب الشرك ، فكانوا احدى الكوارث ، أو أشدها فاعلية بعد أن حال الخندق بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

هذان أمران ليس من المعقول تطبيق أحدهما أو هما ، وليس من العدل تطبيق الثانى ٠ لم يبق اذن الا القتال ، وعندئذ تقول الحقيقة ويل للخائن المغلوب ، وانه اذا كان قتال ، فان نتيجته معروفة من قبل وقوعه ، اذ أنهم سيبادون عن آخرهم ، ويكون ذلك شفاء لقلوب المؤمنين الذين زاغت منهم الحناجر بسبب انضمامهم للمشركين ٠

أرادوا أن يخرجوا كما خرج بنو النضير ، فلم يرض النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لعدم التساوى بين حالهم ، وحال بين النضير ، فاختار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم القتال بأمر ربه ولكنهم استسلموا ٠

أمر الله :

٤٧٣ ـــ جاء أمر الله تعالى بأن يخرج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لقتال بنى قريظة ، فروى أن جبريل أمين الوحى جاء يقول للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد وضعت السلاح يا محمد ؟ قال نعم ، فقال جبريل ، فما وضعت الملائكة السلاح ٠ ان الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير الى بنى قريظة ٠

سار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى بنى قريظة بأمر الله ، وان منطق الحرب يدعو الى ذلك ، والحذر الذى أمر الله به يوجب ذلك ٠

أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مستجيبا لأمر ربه فأذن فى الناس من كان سامعا مطيعا ، فلا يصلين الا فى بنى قريظة ٠

استعمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى المدينة ابن أم مكتوم ٠

أعطى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الراية لعلى بن أبى طالب ٠

سار على رضى الله تعالى عنه ، حتى اذا دنا من حصونهم سمع منهم مقالة قبيحة فى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكأنهم مستمرون على غيهم ٠

فرجع حتى لقى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وظن الرسول أنهم قالوا فيه وعلى لا يريد أن يسمع منهم أذى لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

دنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من حصونهم ، وقال لهم : « يا اخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ـ قالوا يا أبا القاسم ما كنت جهولا ٠

مضى اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن اجتمع جيشه ، والراية مع على حتى نزل على بئر من آبارهم ؟

وكان من بين أصحابه من لم يصل العصر الا فى وقت العشاء ، لأنهم انتظروه الى العشاء ، وقد قال لا يصلين احد العصر الا فى بنى قريظة فينتظرونه حتى يصلى بهم العصر ، فصلوا العصر بها فى وقت العشاء فما عابهم صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

حاصرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لقتالهم ، وهو ما أمر الله به ، وهو الأمر بالمعقول فى ذاته كما ذكرنا من قبل ، ولكنهم لم يخرجوا لقتال ٠

حاصرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ، وكان معهم فى حصن كعب بن أسد حيى بن أخطب الذى حرضهم على نقض العهد ووعد كعبا أن يكون فى حصنه يصيبه ما يصيبه اذا لم يصب المشركون من محمد شيئا ، فوفى بما وعد ٠

لما أيقنوا أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم غير تاركهم حتى يناجزهم القتال ، تقدم اليهم كعب بن أسد ، وقد رأوا أنه لابد من الحرب ، خيرهم بين ثلاثة : أحدها ـ الايمان بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال فى ذلك : نبايع الرجل ونصدقه فوالله لقد بين لكم أنه لنبى مرسل ، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون على أموالكم وأبنائكم ونسائكم ، قالوا لا نفارق حكم التوراة أبدا ، ولا نستبدل به غيره ٠

والثانية أن يقاتلوا منفردين عن الأولاد والنساء بعد فشلهم ، فرفضوا ٠

والثالثة أن يصيبوا غرة من محمد يوم السبت اذ ربما لا يكون مستعدا لقتالهم ، لأنه ليعلم أنهم لا يقاتلون يوم السبت ٠

رضوا أخيرا بالاستسلام ، ولكنهم لا يعرفون النتيجة ، فأرسلوا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرسل اليهم أبا لبابة ، فلما رأوه قام اليه الرجال وجهش اليه النساء والصبيان يشكون فى وجهه ، فرق لذلك ؛ ولما سألوه أترى أن ننزل عن حكم محمد ، قال نعم ، وأشار بيده الى حلقه بأنه الذبح ، قال أبو لبابة ، والله فما زالت قدماى عن مكانهما ، حتى عرفت انى قد خنت الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ، ولم يأت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى ارتبط فى المسجد الى عمود من عمده ، وقال لا أبرح مكانى هذا ، حتى يتوب الله على بما صنعت وذلك هو الضمير المؤمن القوى ، وقد استبطأه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم علم أمره ٠

ولنؤجل قصة أبى لبابة وتوبة الله تعالى عليه الى ما بعد ما آل اليه أمر بنى قريظة الذى استحقوه عدلا وصدقا ـ فقد غدروا ، ونقضوا الميثاق ، وحاولوا آثمين ازالة دولة الاسلام ، ولكن قضى الله أمرا كان مفعولا ٠

نزولهم على حكم سعد بن معاذ :

٤٧٤ ـ نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، وقد كان من الأوس من يطمع فى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سيجليهم عن المدينة ، كما فعل مع بنى قينقاع ، وبنى النضير ، مع تفاوت الجرائم التى وقعت من هؤلاء ، وأن الأولين لم يمالئوا على من جاءوا لاقتلاع الاسلام من المدينة كما فعل هؤلاء ، والأولون لم يكونوا مقاتلين ، بل كانوا غادرين ناقضين للميثاق فقط ، فكان المنطق الاكتفاء بجلائهم ، اذ لا يبقون من غير ميثاق محترم ٠

أما بنو قريظة فقد نقضوا وقاتلوا ، وهاجموا بيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فوجب أن يعاملوا معاملة مقاتلين ، وبمثل ما عاملوا به المؤمنين ، وبمثل ما كان ينتظر أن يعاملوا به المؤمنين ، لو كان الأمر قد تم للأحزاب كما يريدون ٠

نزلوا على حكم سعد بن معاذ الأوسى ، وقد جئ راكبا ، اذ لم يكن يستطيع المسير للجرح الذى أصابه من السهم وأثبته ، بل أثخنه ، وبعض

قومه من الأوس قالوا له مشفقين على بنى قريظة : يا أبا عمرو أحسن فى مواليك ، فان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، انما ولاك لتحسن فيهم ، فلما أكثروا عليه قال : « لقد آن بسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم ٠

عندما قابل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سعدا ، التفت الى أصحابه ، وقال : قوموا الى سيدكم ، فقاموا اليه ، وقال الأنصار : ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم ، فقال سعد عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ٠٠ ثم بعد كلام أصدر الحكم ، وهذا نصه :

انى أحكم فيكم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء ٠

هذا هو الحكم ، وقد أيده رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله : « ولقد حكمت بحكم الله من فوق سبع سماوات » ، نفذ فيهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حكم معاذ وأثبت قبل التنفيذ أنه حكم الله تعالى فيهم ، فقتل الرجال الا بعضا قليلا أعطاهم بعض الصحابة أمانا ليد سابقة قدموها لهم ٠

وقسم أموالهم غنيمة بين المسلمين ، وبها تبين تقسيم الغنائم ، وسبى النساء ٠

نظرة فى الحكم :

٤٧٥ ــ لا شك أن الحكم شديد ، ولكنه عادل ، والنظر لا من ناحية أنه عادل ، ولكن أما كان موضع للتخفيف ، ونقول فى ذلك ٠

انهم مقاتلون ، واستمرت لهم صفة المقاتلين الى آخر لحظة ، وعلى ابن أبى طالب ، عندما تقدم لهم خاطبهم على أنهم مقاتلون ، وقال رضى الله عنه ، وهو يهاجمهم : لأذوقن ما ذاق حمزة ، ولأفتحن حصنهم ، فلما رأوا العزيمة فى على ومعه الزبير ، وأنهم مغلوبون لا محالة ، وطلبوا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ منهم ارتضوا ما ينفذ فيهم قبل أن ينزل الحكم فيهم ، فهم الذين نفذوا الحكم فيهم اذ ارتضوا المحكم فيهم ، ومن المقررات القانونية أن من ارتضى محكمين ليحكموا فيه ، فقد فوض لهم ، ولهم بهذا التفويض أن يحكموا بما يرونه عدلا ولقد حكم ، وهو الذى ذهب اليهم ليحول بينهم وبين تنفيذ نقض الميثاق فردوه ردا نكرا ، وعرف أنهم يريدون اقتلاع الاسلام ، وقتل أهله ٠

ولقد خضع المدبرون منهم لحكمه ، وأدركوا أنه بما قدمت أيديهم ، حتى لقد روى أن حيى بن أخطب عندما قدم للقصاص : قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم • والله ما لمت نفسى فى عداوتك ، ولكن من يخذل الله يخذله ، ثم أقبل على الناس ، فقال : أيها الناس ، انه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر ، وملحمة كتبها ، ثم تقدم لضرب عنقه •

وهكذا كانوا يحسون بأن ما نزل بهم قصاص ، وما للناس يقولون كان على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، أن يشفق عليهم • ومع ذلك اذا لم يقتل رجالهم ، فماذا يصنع معهم ، أيعفو عنهم ، ولو تمكنوا لقتلوه وقتلوا الاسلام ، وشردوا أهل المدينة • ان العفو عن الجانى ظلم فى ذاته ، أم يخرجهم من أرضهم ويجردهم من أموالهم ، وذلك لا يخلو من عفو ، وقد قلنا انه فى هذا المقام ظلم ، ثم ماذا يكون اذا خرجوا ، وفيهم أكثر من سبعمائة مقاتل ، ألا يكونون حربا عليه ، ويتجمعوا يؤلبون يهود الجزيرة العربية ، ويكون قد أشفق عليهم لينقضوا عليه ان واتتهم الفرصة ، كمن يشفق على اللصوص ليجمعوا أمرهم ، ويستلبوه ما يعتز به ، ويأخذوا ما عنده •

انه لم يكن الا القتل ، كفاء ما صنعوا ، وهم الذين قتلوا أنفسهم بما دبروا وبما فعلوا ، قد يقال انهم قد صاروا أسرى ، والأسرى لا يقتلون ، ونقول فى الجواب عن ذلك :

ان المسلمين والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يشدوا الوثاق ، لأنهم منهيون عن ذلك بحكم آية الأسرى اذ يقول سبحانه وتعالى : « **ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم** » •

فما كان للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يشد الوثاق وهو لم يثخن فيهم جراحا ، ولم ينل منهم نيلا ، بل انهم هم الذين ارتضوا حكما معينا ، والقتال من جانب المسلمين قائم ، لم تعد السيوف الى أجفانها ولا القلوب الى جنوبها •

بل ان قتالهم امتداد لقتال الأحزاب الذين مالئوهم لم ينته ، واذا كان المشركون قد ألقى الله فى قلوبهم الرعب ، ففروا ، فأولئك قد بقوا ، وكان حقا عليهم أن يقاتلوا فما قاتلوا •

وقد يقول قائل ان النبيين رحماء ، ونقول لهم ان العدالة رحمة والقصاص حياة ، ورحمة الاسلام دفع الظلم ، واقلاعه من أساسه ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : أنا نبى المرحمة ، وأنا نبى الملحمة ، والله سبحانه وتعالى عزيز حكيم •

أحكام شرعية

٤٧٦ — قد كانت أحكام شرعية خاصة بالصلاة قد ثبتت عمليا فى غزوة الأحزاب وبنى قريظة ، كما كانت أحكام شرعية قد ثبتت فى توزيع الغنائم بالنسبة لتقسيم أموال بنى قريظة ، ولعلها أكبر أموال وزعت من الغنائم الى هذا الوقت من الغزوان ٠

وبالنسبة للصلاة فى غزوة الخندق عندما هوجمت بيوت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أخرت صلاة العصر ، الى ما بعد الغروب ، فجمع صلى الله تعالى عليه وسلم بين العصر والمغرب جمع تأخير ٠

وقد قال الذين اتبعوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ان عذر الحرب مسوغ للجمع ، وكثيرون من الفقهاء الذين اتبعوا ذلك جوزوا الجمع فى كل عذر ، وتكون الصلاة المؤخرة اداء لا قضاء ٠

وفى غزوة بنى قريظة ، كان الجمع بين العصر والمغرب ، ذلك أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى دعوتهم الى اللحاق ببنى قريظة قال ألا لاتصلوا العصر الا فى بنى قريظة ، فقال بعضهم عزم علينا ألا نصلى حتى نأتى بنى قريظة ، فانما نحن فى عزيمة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فليس علينا اثم ، وأخروا الى وقت المساء فجمعوا بين العصر والمغرب فى وقت المغرب ٠ وطائفة من الناس صلوا احتسابا ٠

ولم يلم أحدا من الطائفتين ، وهذا يدل على جواز الجمع جمع تأخير ، ويدل أيضا على أن الخطأ مرفوع عنه الاثم ، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ، وكان ذلك استجابة لدعاء المؤمنين الذى حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى : « **ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين** » ولا شك أن احدى الطائفتين مخطئة فيما عملت ، ولكنها اجتهدت ٠

توزيع الغنائم :

٤٧٧ — كان ما استولى عليه فى بنى النضير أموالا ثابتة ، وما غنم فى الوقائع السابقة ؛ لم يكن كثيرا ، أما ما كان فى غزوة بنى قريظة فكان

أموالا كثيرة بالنسبة لما سبقها ، وخصوصا فى الأموال المنقولة ، ولذلك كان التوزيع فيها تطبيقا للنص القـرآنى ، « **واعلمـوا انما غنمتم من شىء فان الله خمسه ، وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل** » ٠

وقد قـال ابن اسـحاق فى ذلك ما نصـه : قسم أمـوال بنى قريظـة ونساءهم ، وأبناءهم على المسلمين ، وأعلم فى ذلك سهمان الخيل وسـهمان الرجال ، وأخرج منها الخمس (أى خمس الله ورسوله وذى القربى) وكان (من بعد الخمس) فى أربعة الأخماس ، فكان للفارس ثلاثة أسهم للفرس سهمان ، ولفارسه سهم ، وللراجل من ليس له فرس سهم ، وكانت الخيل يوم بنى قريظة ستا وثلاثين ، وكان أول فىء وقع فيه السهمان ، وأخرج منهما الخمس ، فعلى سنتها وما مضى من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقعت المقاسـم ، ومضت السنة فى المغازى ٠

ونقول ان هذا التقسيم لم يكن أول تقسيم بالأسهم ، فقد سبق أن اخترنا ما قرره الحافظ ابن كثير فى تاريخه أن آية « **واعلموا انما غنمتم من شىء فان لله خمسه** » قد نزلت قبل تقسيم أنفال بدر ، وان على بن أبى طالب نالنى من خمسه راحلتين ٠

ولكن يظهر أن الجديد هو ما قرره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من أن يكون للفارس ثلاثة أسهم اثنان للفرس ، وواحد للفارس ، وأن لمن لا فرس له سهما ، ولم يكن ذلك التقسيم فى أنفـال بدر لأنه لم يكن فرسان غنمت ، بل كان هناك للمسلمين فرس واحد ، قيل انهـا للزبير بن العوام رضى الله تعالى عنه ، هذا ما يظهر لى ، والله سبحانه وتعالى أعلم ٠

تنبيهات :

٤٧٨ — **أولهما** : أن أبا رافع سلام بن أبى الحقيق اليهودى كان من أشد اليهود تحريضا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فهـو ممن جمع جموع قريش وغطفان ، وكان يحرضهم ، حتى كانت غزوة الأحزاب ، وكان ما كان من بنى قريظة ، ويظهر أنه لم يفعل ما فعل حيى بن أخطب من اقحـام نفسه مع بنى قريظة لعهد له مع كعب بن أسد من أن يكون معـه فى حصـنه ان انتصروا أو هزموا ٠

ولكن عين الحق لا تغفل عن ذلك الذى حرض العناصر المعادية للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى كل أرض العرب ، وانه على استعداد لمثلها ،

فكان الحذر الذى أمر الله به فى قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم** يوجب على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتولاه قبل أن يعيد افساده وتحريضه لما بدأه ، فأرسل اليه من المؤمنين من قتله فى حصنه الذى يقيم فيه بخيبر ٠

الثانى : أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يميز بين الرجال والصبيان فى بنى قريظة ، ليتبين من يستحق القتل ، ومن أعفى منه من الذرارى تنفيذا لحكم سعد بن معاذ رضى الله تبارك وتعالى عنه ، كان يميز بخروج شعر الفرج ، فمن نبت له ذلك الشعر قتل ، ومن لم ينبت له لا يقتل ، روى عن ابن عطية القرظى قال : كان رسول الله صلى الله تعالى وسلم قد أمر أن يقتل من بنى قريظة كل من أنبت منهم وكنت غلاما فوجدنى لم أنبت فخلوا سبيلى ٠

وروى مثله أهل السنن الأربعة عن طريق آخر ٠

الثالث : قوة الضمير فى أبى لبابة ، لقد سأله القرظيون أينزلون على حكم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأشار الى عنقه بأنه الذبح ، وما ان قالها ، حتى استيقظت النفس اللوامة ، وعلم أنه خان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ كشف أمرا لم يأذن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بكشفه ، وما كان له ذلك ، لذلك انطلق هائما على وجهه ، ولم يأت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وارتبط بعمود من عمد المسجد ، وقال : لا أبرح مكانى هذا ، حتى يتوب الله على مما صدمت ، وعاهد الله تعالى ألا أطأ أرض بنى قريظة أبدا ولا أرى فى بلد خنت فيه الله ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبدا ٠

ولما استبطأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعلم أمره قال الرسول الكريم : أما والله لو جاءنى لا ستغفرت له ، فأما اذ فعل ما فعل ، فما أنا بالذى أطلقه من مكانه ، حتى يتوب الله تعالى عليه وان التوبة النصوح تجب ما قبلها ، وعلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بوحى من ربه أنه تاب على أبى لبابة ، وأبلغ ذلك الى أم سلمة ، اذ كان فى بيتها وأذن لها أن تبشره به ، اذ قالت أفلا أبشره يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، بلى ان شئت ، فقامت على باب حجرتها ، ونادت أبا لبابة فى المسجد ٠ فقالت يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله تعالى عليك ، فثار الناس ليطلقوه ٠ فقال لا ، حتى يكون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذى يطلقنى ، فلما مر عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خارجا الى صلاة الصبح أطلقه ٠

وقد أقام أبو لبابة رابطا نفسه بالجزع ست ليال تأتيه امرأته فى وقت كل صلاة ، فتحله للصلاة ثم يعود فيرتبط بالجذع ، وقالوا انه نزل فيه قوله تعالى : « **وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا ، وآخر سيئا ، عسى الله آن يتوب عليهم ، ان الله غفور رحيم** » ٠

وهكذا حكم الضمير ، أو النفس اللوامة تحس بذنوبها لتتوب ، وترجو المغفرة فتذل لله سبحانه وتعالى ، ولقد قال الصوفية « ان معصية ، أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة ، أورثت دلا وافتخارا » وكذلك كانت نفس أبى لبابة الذى ما كذب ، ولكنه ظن أنه خان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ أخبر بالحكم قبل صدوره ، وبالأمر قبل ظهوره ٠

رابعهما : أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث بسبايا بنى قريظة الى نجد فابتاع بها خيلا وسلاحا ، وذلك ليكون منها قوة للمسلمين ، واعداد للعدة لقوله تعالى « **واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل** » ٠

وقد اختار صلى الله تعالى عليه وسلم من نسائهم ريحانة بنت عمرو احدى نساء بنى قريظة لنفسه وأراد لها الاسلام فتعصت عنه ، وأبت أن تدخل فى الاسلام ، زاعمة أنها تبقى على اليهودية ، ولكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكرهها ، ولم يصنع ما قد يكون اغراء مانعا من اختيار سليم حر ، ولكنها جاءت اليه من بعد ذلك طائعة فأسلمت ، فسر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من اسلامها ، وقد عرض عليها صلى الله تعالى عليه وسلم أن يعتقها ، ثم يتزوج منها زواج الحرة المختارة ، فاختارت أن تستمر على رقها ، ليكون أسهل عليها ، اذ لا تتحمل واجبات الزوجية ، فلم تزل عنده الى أن توفى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ ولم تذكر بين أزواجه صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

٤٧٩ — وان قصة سبى نساء بنى قريظة تدل على أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد أنشأ الرق على أعدائه فى ميدان القتال ، لتكون المعاملة بالمثل ، اذ لو اسروا من المسلمين لاسترقوا ، والله تعالى يقول : « **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله ، واعلموا أن الله مع المتقين** » وان المشركين كانوا يسترقون من غير قتال ، فقد ذكرنا أنهم أخذوا بعض المسلمين غدرا ، وباعوهم فى مكة المكرمة ، وسامهم أهل مكة المكرمة سوء العذاب ، فلا تثريب على النبى صلى الله تعالى وسلم اذا أخذ من بنى قريظة سبايا ، وباعهن بخيل من نجد ٠

وان هذا يدل على أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالنسبة للرق عامل بنى قريظة ، ومن وراءهم من المشركين بمثل ما كانوا يعاملون به المؤمنين ، حتى فى غير حرب ، ولكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عاملهم بالمثل فى حرب كان الاعتداء من جانبهم ، فهم اعتدوا مرتين ، الأولى بالخيانة وتتبع عورات المؤمنين ، والثانية بأنهم هم والمشركون كانوا يسترقون المؤمنين لو تمكنوا منهم ، وقد تمكن منهم القرشيون فباعوهم وعذبوهم ، كما ذكرنا فى يوم الرجيع ٠

الايماء بالصلاة للضرورة

٤٨٠ ــ أجيز الايماء بالصلاة للضرورة وفى حال المنازلة اذا خيف فوات الصلاة ، وقد أخرنا الكلام فى هذا عن الكلام فى جمع الصلاتين جمع تأخير ، لأن هذا يتعلق برجل أراد أن يجمع الناس من عرفه ليغزوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى المدينة ، وهو خالد بن سفيان بن نبيح الهذلى ، وكان ذلك عقب غزوة بنى قريظة ، وقد تأكد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قد اعتزم الشر ، وأراد القتال ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يعمل على حسم الشر قبل وقوعه ، فاذا كان رجل يجمع ويحرض ، وأخذ ينفذ ما شرع فيه يستأصله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قبل أن ينفذ شره ، لأن الحذر يوجب ذلك ، ولأنه ان يتركه جمع الجموع ، وكان القتل فى الجمع أكثر عددا من قتل واحد ، ولذلك كان يؤثر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قتل رجل على حرب مع رجال لحماية الأنفس من المحاربين ولو كانوا مشركين ، فعسى أن يخرج الله تعالى الكفر من قلوبهم ، ويستبدل به الايمان ٠

أرسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى خالد بن سفيان عبد الله ابن أنيس وقال له : انه بلغنى أن خالد بن سفيان بن نبيح الهذلى يجمع لى الناس ليغزونى ، وهو يعرفه ٠

خرج ابن أنيس متوشحا سيفه ، فأقبل نحوه ، وخشى أن يكون بينهما مجاوبة تشغله عن الصلاة ، والصلاة لا يسقط فرضها ، فصلى وهو يمشى ، يؤمىء بالركوع وبالسجود حتى لقيه ، فقال له خالد من الرجل ؟ قال رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل ، فجاءك لذلك ، قال أجل أنا فى ذلك ، وسار معه قليلا ، حتى استمكن منه فقتله ٠

ومن هذا نرى جواز الصلاة بالايماء فى الحرب للضرورة ، اذ أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد أقر ما صنع فى عبادته فى الصلاة ، وأقر بما قام به من جهاد ٠

وان ذلك لا يعد القتل فيه بطريق الغدر أو الغيلة ، لأنـه انتدب للقتال ، فيجب أن يتوقع أن ينزل به مثل ما يدبر ، ولأن قتله نجاة لكثيرين ، والضرر القليل يحتمل فى سبيل دفع ضرر أكبر ، وان هذا يـدل على أنه بعد غـزوة الخندق كانت نفوس تحاول التمرد على حكم الواقع تزعم أنها تستطيع القضاء على المسلمين ، وقد صارت الدولة بأيديهم يغزون ، ولا يغزوهم أحد ٠

مدة غزوة الخندق

٤٨١ ـــ وقد قطع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى غزوة الخندق ، وبنى قريظة بقية شوال ، وذى القعدة وبعضا من ذى الحجة ٠

وبعد الخندق وما تبعه تزوج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أم حبيبة بنت أبى سفيان قائد الشر ، ثم تزوج بنت جحش ٠

ولقد كان من قبل تزوج سودة بنت زمعة ، وعائشة بنت الصـــديق ، وتزوج بعد بدر حفصة بنت صاحبه ووزيره عمر بن الخطاب ، وتزوج بعـد أحد أم سلمة ، ثم تزوج بعد غزوة بنى المصطلق جويرية بنت الحـارث ، ثم من بعد خيبر صفية بنت حى بن أخطب ٠

ونترك الكلام فى أزواج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى الكلام فى باب خاص بذلك وأسبابه وحكمته ٠

زواج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم

بأم المؤمنين زينب

٤٨٢ ــ نزل فى السورة التى تسمت باسم غزوة الأحزاب أمران ، تحريم التبنى ، وتطبيق التحريم فى زواج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأم المؤمنين زينب بنت جحش ، ولذلك أوجبنا على أنفسنا الكلام فى زواجها فى هذا المقام ، لأن هذا الزواج كان تطبيقا لحكم شرعى ، وأعقب زواجها حكم شرعى ، فحق علينا بيان الأحوال التى أحاطت بزواجها .

نزل تحريم التبنى فى أول سورة الأحزاب ، اذ قال الله تبارك وتعالى : **« ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل ، ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله ، فان لم تعلموا اباءهم فاخوانكم فى الدين ، ومواليكم »** .

كان ذلك تحريما قاطعا ، لا ريب فيه ، ولذلك جاز للرجل ان يتزوج امرأة من يتبناه لأنه ليس ابنه ، ووصف زوجة الابن التى يحرم الزواج منها بأن يكون ابنه من صلبه ، لا أن يكون ابنا بالادعاء ، ولذلك قال الله تعالى فى ذلك فى باب المحرمات **« وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم »** .

ذلك لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، يقرر حكم الاسلام بأن تكون الأسرة مترابطة بالأرحام لتكون قوية ، ولا يكون فيها دخيل ليس من رحمها ، ولا من صلبها ، ولا من دمها ، لأنه يفسدها ، ويحرم ذا الحقوق من حقوقه ، وينافى القاعدة المقررة فى القرآن بقوله تعالى : **« وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله »** .

٤٨٣ ــ ولقد كان التبنى شائعا فى البلاد العربية مأخوذا من القانون الرومانى ، وقد ألحق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم زيد بن حارثة به بناء على ذلك العرف المأخوذ من قانون الرومان ، وذلك قبل البعث المحمدى ، وقبل نزول الوحى على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

ذلك أن زيدا هذا كان عبدا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فعثر عليه أهله عنده صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأرادوا أن يفتدوا رقه بثمنه ، فقال

محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو لكم ان اختاركم ، فأرادوا أخـذه ، فاختار أن يبقى مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأعتقـه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وألحقـه به قبل البعثة اكراما له ، كما كان العرف فى البـلاد العربية ، ولم يعد ابن حارثة فكان ينادى زيد بن محمد ٠

وقد تزوجته القرشية زينب بنت جحش ، وهى نسيبة بين العرب ، على أنه قرشى ، وأنه أعظم الحـرب وأوسطهم نسبا ، وهو من أنفسهم ، كما قـال الله تعالى « **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** » على قراءة فتح الفاء ٠

فلما نزلت الآيات التى تلوناها بتحريم التبنى ، ونفى الأدعياء ، تململت بحياتها مع زيد اذ أنـه لم يعـد ابن محمد ، بل أصبح الأمر الحقيقى فيه أنـه ابن حارثة ٠

شكا الزوج من تعـالى زينب عليه بنسبها ، فكان النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم يقول له أمسك عليك زوجك ٠ واتق الله ٠

وكان الله تعالى قد أمر نبيه محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم بالا يمنـع زيدا من طلاقها لأن الله تعالى قد قضى أمرا ، « **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** » ٠

قضى الله سبحانه أن يطلق زيد زينب ، واذا انتهت العدة تزوجها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر الله ، ليكون ذلك تطبيقـا عمليا لمنع التبنى ، وليضرب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك الأمثال على اهمال التبنى ونفيه نفيا مؤكدا بالعمـل ٠

تزوجها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تنفيذا لأمر ربه ولكيلا يكون حرج فى أزواج زوجـات أدعيائهم ٠

ولم يكن زواجه عليه الصلاة والسلام شهوة أو رغبة الا أن تكون استجابة لأمر الله تعالى ، وكذبت الاسرائيليات التى أدخلت عـلى كبار المؤرخين كابن جرير الطبرى الذى تولى كبر اذاعة هذا الكذب الاسرائيلى والنصرانى وكذب أولئـك الكتاب الأوربيون الذين راحـوا يروجونها آثمين ، وان كانوا لا يعرفون الاثم ، وكذب الذين يقلدونهم تقليدا أعمى ، ويحتذون حذوهم كحذوك النعـل بالنعـل ٠

٤٨٤ ـــ وان الآيات فى هذا المقام صريحة بأمر الله تعالى بالزواج ، وصريحة فى أن ذلك لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا

منهن وطرا ، وصريحة فى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليس أبا لأحد من رجالهم ، صريحة فى كل ذلك ، ومع ذلك كان التقليد وترويج الكذب لهما الاثر ، ففسد الفهم ، وكانت الآفة فى نفوسهم وفهمهم ، لا فى الوقائع ذاتها ٠

ولنتل الآية ، وهى توضح الحقيقة ٠ وتكذب الكذابين ، والذين ايف تفكيرهم بالكذب الرائج ، قال الله تعالى : « **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ، واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك ، واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه** » ، والذى أخفاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هو أمر الله تعالى له بالزواج منها بعد طلاقها ، وأن الله تعالى قدر له أن يطلقها ، وهذا هو الذى أبداه فلا حب ولا عشق ، والذى كان يخشاه من الناس أن يصدعهم بالزواج من امرأة دعيه ، وذلك أمر غير مألوف عندهم ، وكان يجب أن يخشى الله تعالى ولا يخشى الناس ، لأن ارضاء الناس بغير الحق لا يجوز من داعية الى الحق صادع به ٠

ثم يقول سبحانه وتعالت كلماته فى الأمر الذى أبداه « **فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا** » ٠ ولقد بين سبحانه من بعد ذلك أن الزواج بأمره سبحانه ، وانه ليس على النبى من حرج فى تنفيذ أمر الله تعالى ، همس الناس ، أوصمتوا ، فقال تعالت كلماته : « **ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ، الذين يبلغون رسالات الله ، ويخشونه ، ولا يخشون أحدا الا الله ، وكفى بالله حسيبا ، ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليما** » ٠

وبهذه النصوص ثبت تحريم التبنى ، وعدم الاعتراف به فى الاسلام ، وطبق ذلك على سيد الأنبياء والمرسلين والعف الكريم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلعن الله الأفاكين فى هذا الزمان الذين لا يفكرون ، ويقصدون الى الأمر المختلف ، ولا يحاولون أن يتعرفوا المعنى المؤتلف ٠

منع دخول بيوت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من غير استئذان :

كان منزل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بيتا للمؤمنين أجمعين ، وخصوصا أنه كان على مقربة من المسجد ، بل انه متصل به ، وكان أقرب البيوت اليه ، بيت عائشة رضى الله عنها ٠

٤٨٥ ـــ ويظهر أن المسلمين ما كانوا يجـدون حرجا فى الدخول الى منزله عليه الصلاة والسلام ، والمؤمنون الذين أشربوا آداب الاسلام ، وهـذب الاسلام طباعهم يستأذنون ، ولا يدخلون لغير موجب ، ولا يتخذون فيه مجلسا ، فلما كان ناس لم يتحلوا بهذا النوع من التهذيب الاسلامى ، كان لابد من بيـان ينهى ، وقد كان ، وسمى علماء الحديث أن الآيات التى بينت ذلك النهى آيـات نزول الحجاب ، بأن لا يدخـل أحد الا باذن ، وألا يدخـل بيت النبى صـلى الله تعالى عليه وسلم مستأنسا لحديث ٠

ونزل ذلك الحجاب فى ليلة زفاف زينب بنت جحش الصـالحة المعتصمة بدينها للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد روى عن أنس بن مالك أنه لمـا تزوج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم زينب بنت جحش ، دعا القوم فطعموا وجلسوا يتحدثون ، فاذا هو يتهيأ للقيـام فلم يتهيئوا ، فلما رأى ذلك قـام فقاموا ، وقعـد ثلاثة نفر ، وجاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليدخـل ، فاذا القوم جلوس ، ثم انهم قاموا ، فأخبرت النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم أنهم انطلقوا ٠

٤٨٦ ـــ روى الخبر ، البخـارى ومسلم ٠

وخلاصته كما ترى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أولم لهم بوليمة ، فلما طعموا لم ينتشروا ، فتهيأ للقيام فلم يقوموا ثم قام فعـلا ، فقام من قـام ، وبقى ثلاثة لم يشعروا بما ينبغى فبقوا ، فدخل صلى الله تعالى عليه وسلم الى أهله وهم جلوس ، ثم انطلقوا بعـد ٠

وروى البخارى حديثا آخر فى هذا المعنى عن أنس خادم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنه يثبت أن الدعـوة كانت عامة وواسعة ، يقـول أنس : بنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بزينب بنت جحش ، فأرسلت على الطعام داعيا ، فيجىء قوم ، فيأكلون ويخرجون ويجىء القـوم فيأكلون ويخرجون ، فدعوت حتى ما أجد أحدا ، أدعـوه ، فقلت يانبى الله ما أجـد أحدا أدعوه ، قال ارفعـوا طعامكم ، وبقى ثلاثة رهط يتحدثون فى البيت ، فخرج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فانطلق الى حجرة عائشة فقال السلام عليكم أهـل البيت ، ورحمـة الله وبركاته ، قالت وعليك السـلام ورحمـة الله وبركاته ، كيف وجدت أهلك ، بارك الله لك ، فتقرى حجر نسائه كلهن ، ويقول لهن ، كما يقول لعائشة ، ويقلن له ، كما قالت عائشة ، ثم رجـع فاذا رهط ثلاثة فى البيت يتحدثون وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم شديد الحياء ، والروايات متلاقية ، وان كان فى بعضها زيادة تفصيل ٠

٤٨٧ ــ كان هذا سببا مقاربا لنزول آية منع دخول بيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنزل قوله تعـالى : « **يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه ، ولكن اذا دعيتم فادخلوا ، فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم ، والله لا يستحى من الحق ، واذا سألتموهن متاعا فاسئلوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعـده أبدا ، ان ذلكم كان عند الله عظميا ، ان تبـدوا شيئا أو تخفوه فان الله كان بكل شيء عليما ، لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا اخوانهن ، ولا ابناء اخوانهن ، ولا أبناء أخواتهن ، ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن ، واتقين الله ، ان الله كان على كل شيء شهيدا** » ٠

هذا تعليم من الله تعالى لقوم يحتاجون الى هذا التعـليم وهو تهذيب وتأديب ، ليكون المجتمع مبنيـا على مودة ورحمة ، وألا يكون ايـذاء نفسى ، يكبتـه الحياء عند أهل الحياء ٠

وجوب الاستئذان عـامة :

أوجب الاسلام بنص القرآن ألا يدخل أحد بيتـا حتى يستأنس بأهـله ويسلم عليهم ويستأذن منهم ، لتربية النفوس ، ولتكون الثقة كاملة بين الناس فلا يرتاب مرتاب،ولايشك شاك،وقد قال الله فى ذلك «**يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم ، حتى تستأنسوا ، وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فان لم تجـدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وان قيـل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم ، ليس عليكم جناح أن تدخـلوا بيـوتا غير مسـكونة فيهـا متـاع لكم ، والله يعـلم ما تبـدون وما تكتمون** » ٠

٤٨٨ ــ وبين سبحانه حكم من يكونون فى داخل البيت من الخدم ، ومن ملكت ايمانهم ، فأوجب الاستئذان فى العشية ، وقبل صـلاة الفجر ، ومن بعد الظهيرة ، فقال تعالى : « **يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ، والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر ، وحين تضـعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعـد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ، ليس عليـكم ولا عليهم جناح بعدهن ، طوافون عليكم بعضكم عـلى بعض ، كذلك يبين لكم الآيات ، والله عليم حـكيم ٠ واذا بلغ الأطفال منكم الحلم ، فليستأذنوا كمـا أستأذن الذين من قبلهم ، كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم ، والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا ، فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ، وأن يستعففن خير لهن ٠ والله سميع عليم** » ٠

غزوة بنى لحيـان

٤٨٩ ـــ بنو لحيان هم الذين جاءوا الى النبى صلى الله تعالى عليـه وسلم يطلبون اليه أن يرسل اليهم من يعلمهم الاسلام ويحفظهم القرآن ، فأرسل اليهم ستة من أصحابه المؤمنين الفقهاء فى الاسلام ، وتبين أنهم أرادوا أن يقدموهم لقريش أسرى يسترقونهم ، فقتلوا بعضهم ، وباعوا الباقين بمكـة المكرمة فعذبهم المشركون ، ثم قتلوهم أفجر قتلة ، اذ قتلوهم صلبا ٠

كان لابد أن يؤدبهم رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم على سوء ما فعلوا ، وليس ذلك انتقاما كما يتوهم من لا يستطيعون تمحيص الحقائق ، انما هو قصاص أولا ، ولابـد أن يتولى القصـاص ولى الذين قتلوا ، ووليهم الله ورسوله والمؤمنون ٠ كما قال تعـالى : « **انما وليكم الله ورسوله والذين آمنـوا** » ٠

ثم لابد من تأديبهم ، بانزال أشد النكال بهم ، لأنهم خدعوا فى أمـر الدعوة ، فلابد أن ينزل بهم ما يكون فيـه عبرة لغيرهم ، حتى لا يرتكبـوا تلك الخديعـة باسم الهداية ٠

بعد بنى قريظة أقام النبى صلى الله تعـالى عليـه وسلم بالمدينة بقيـة ذى الحجة من سنة خمس ، والمحرم وصفر وشهرى ربيع ، يعلم الناس أمـر دينهم ، ويبلغ الدعوة ، ويتصل بالقبائل العربية داعيا مرشدا ، ويعـلم شـعار الاسلام ومبادئه لأصحابه الذين حملوا فقـه الاسلام لمن بعـده ٠

وفى جمادى الأولى خرج الى بنى لحيان يطالب بأصحاب الرجيع خبيب ابن عدى وأصحابه ، وكان ذلك فى سنة ست من الهجرة ٠

ولقد ذكر البيهقى أن ذلك كان فى سنة أربع ، ولكن ابن اسحاق ذكـر أنه كان فى سنة ست ، ونحن نختـار ما اختـاره ابن اسحاق ، فهو أوثق فى أخبار السيرة ، كما قال الشافعى رضى الله عنه : الناس فى السيرة عيال عـلى محمد بن اسحاق ٠

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى جمع من أصحابه ، وأراد أن يصيب من الغـادرين غرة ، فخـرج من المدينة الى طريق عـلى الشـام ، ليوهم أولئك أنه يقصد غيرهم ، والحرب خدعة ، وبعـد أن سـار أمدا عـرج

على اليسار متجها الى مكة ، وأغذ السير سريعا ، ليدركهم قبل أن ينتبهــوا الى مقصــده ٠

ولكنهم حذروا اخوفا ، وقد أدركوا أن القوة قد آلت الى أهل الايمــان بقيادة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتمنعــوا فى رءوس الجبال ٠ وعندئذ علم النبى صلى الله تعــالى عليه وسلم أنه أخطأ من غرتهم ما أراد ٠ فاتجه الى غسان فى مائتى راكب من أصحابه حتى نزلها ، وأرســل اثنين من الفرسان يتعرفان النواحى ٠

وان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن سار فى القبائل متعرفا داعيا ، مبينــا شرع الله تعالى لمن يلقــاه من أهل الصحراء قفــل راجعــا الى المدينة المنورة ٠ وانه فى هذه الرحلة المباركة ، وان لم يتمكن من تأديب الفجرة الغادرين على غدرهم وخيانتهم فقد تعرف البلاد على حالها والصحراء وقبائلها، وهو يدعو الى دينه ، حيثما وجد سبيلا للدعوة وأرهب مع ذلك أهــل الشر من القبــائل العــربية ، ونشر هيبــة الاســلام فيها مما جعلهم يفــكرون فى أمر هذا الدين الجديد الذى جاء بالحق والقسطاس ، ومعه القوة التى تحميهما ٠

فالنبى لم يرجع من الغنيمة بالاياب ، بل رجع بالغنيمة الكبرى ، وهى نشر الدعوة ، ومعرفة الذين يدعوهم وبسط سلطان الله فى الأرض العربية ، ليعمهــا الاســلام ، ثم يكون مــن بعــد ذلك لمن وراءهــا من أرض الشــام ، وغيرها ٠

غزوة ذى قرد

٤٩٠ ـــ خرجت غطفان بعد الخندق محنقة ، لأنهـا طمعت فى صلح ٠ ولم يعزمه النبى صـلى الله تعـالى عليه وسلم بل كان مراوضة لتخذيلهم عن قريش ، وقـد تم بعض ذلك ، عادت مع قريش مذءومة مدحورة ، ولكن ما لم تستطعه بحرب ارادت أن تأخذه بالسلب والنهب والاغارة الجزئية ، والغصب ، ثم الفرار ، فصاروا كشطار العرب ، بل كلصوصهم ، يستوى فى ذلك من كان قائدا ، ومن كان مقودا ٠

أغار عيينة بن حصن الفزارى فى خيل من غطفان على نوق لقاح للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالغابة ، وفيها رجل من بنى غفار وامرأته ٠ فقتلوا الرجل ، وساقوا المرأة مع اللقاح ، وكانوا بهذا كقطاع الطريق الذين يقومون بالسلب والنهب ورأوا أن ذلك أنكى للمسلمين من أن يلتقوا معهم فى حـرب تشتجر فيها السيوف ، وان كان ذلك أبعد عن المروءة ، والخلق العربى الكريم ٠

كان بعض فرسان المؤمنين قد علم بأمرهم ، منهم سلمة بن الأكوع ، ومعه غلام لطلحة بن عبيد الله معه فرس ، وقد أصبح يريد الغابة ، حتى اذا كانوا بثنية الوداع نظر الى بعض خيول المعتدين ، فصرخ واصباحاه ، ثم خـرج يشتد فى آثار القوم ، وكان رجلا قويا مثل السبع ، حتى لحق القـوم ، وأخذ يردهم بالنبل ، ويقول ، اذا رمى : خـذها وأنا ابن الأكوع اليوم يوم الرضع (أى اللئام) وكانوا من قوة الرمى يحاولون أن ينقضوا عليه ، فاذا وجهت خيلهم نحوه انطلق هاربا من لقائهم وجها لوجه ، ولكنـه يعارضهم ليتمـكن من الرمى ، فاذا رمى يقول : خذها وأنا ابن الأكوع ، ولما بلغ رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما كان من هؤلاء ، وسمع صياح ابن الأكوع ٠ دعا الفرسان من المهاجرين والأنصار ، فكان أول فارس تقدم المقداد بن الأسود ، وتوالى من بعد ذلك الفرسان الذين يتبعونهم فارسا بعد فارس ٠ وقـد رأى رجلا من زرين اسمه أبو عياش ، معـه فرس ، فقال رسـول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم لو أعطيت هذا الفرس رجلا هو أفرس منك ، فقال رضى الله عنه أنا أفرس الناس ، ولكنه ما جرى به خمسين ذراعا ، حتى طرحه أرضا ٠ فتولى الفرس غيره ، وهكذا تولى الفرسـان يلاحقـون الفارين السالبين ٠

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مع الفرسان ، وأقـام عـلى المدينة ابن أم مكتوم ، وسار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معـه

من أصحابه ، واستنقذوا بعض اللقاح ، ولم ينقذوها كلها ، ولكنهم قتلوا من أدركوه من القوم ، واستمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى سيره حتى نزل بالجبل من ذى قرد ، وتلاحق عليه الناس ، وأقام عليه يوما وليلة ٠

عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد قسم على كل مائة رجل جزورا ٠ وقد نجت امرأة الغفارى على ناقة من ابل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عندما شغل القوم بالفرار من فرسان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وكانت قد نذرت لله تعالى ان نجاها عليها أن تنحرها ، فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عندما علم عزمتها ، وقال بئسما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك بها ، ثم تنحرينها ، انه لا نذر فى معصية الله تعالى ، ولا فيما لا تملكين ، انما هى ناقة من ابلى ، فارجعى الى أهلك على بركة الله تعالى ٠

وقد روى حديث امرأة الغفار عن الحسن البصرى موقوفا ٠

وبذلك انتهت هذه الغزوة التى دفعت غارة من غارات الأعراب ٠

غزوة بنى المصطلق

٤٩١ — ذكر ابن اسحاق بسنده أنها كانت فى شعبان من سنة ست من الهجرة ، وروى أنها كانت فى شعبان سنة خمس ، وقال الواقدى فى تاريخه انها كانت بعد ليلتين من شعبان سنة خمس ٠

ولقد ذكر بعض الكاتبين في عصرنا انه يستحيل أن تكون فى سنة ست ، لأنه جاء فى عقبها حديث الافك ، وذكر كانت فيه مجاوبة بين سعد بن عبادة وسعد بن معاذ وملاحاة بينهما ، وسعد بن معاذ كان قد مات اثر جرح بعد قريظة سنة خمس ٠

وان هذه الملاحاة لم تكن بين ابن عبادة وسعد بن معاذ ، وانما كانت بين أسيد بن حضير ، وسعد بن عباده ، وعلى ذلك لا دليل من حديث الافك على أنها كانت فى الخامسة ٠

وفى الحقيقة انا لانجد فى الروايات ترجيحا بينها ، ونميل الى أنها كانت فى الخامسة ، وقبل الخندق غير ترجيح ولكن نأخذ بترتيب ابن اسحق ، ونضعها بعد الخندق ، لأننا نقبل أن نكون عيالا على ابن اسحاق ، كما قال الشافعى رضى الله تبارك وتعالى عنه : « الناس عيال فى السيرة على محمد ابن اسحق » ٠

علم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن بنى المصطلق يجمعون الجموع له ، وهم من خزاعة ، وعلى منهاج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه اذا تأكد أن قوما يريدون الاغارة عليهم بادرهم قبل أن يبادروه ، فانه ما غزى قوم فى عقر دارهم الا ذلوا ٠

أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على المدينة المنورة أباذر الغفارى وخرج اليهم كما يقول الواقدى فى سبعمائة من أصحابه ، حتى التقى فى ماء عندهم يسمى المريسيع ٠

وكان لواء المهاجرين مع أبى بكر الصديق ، ولواء الأنصار مع سعد ابن عبادة ، وقيل كان لواء المهاجرين مع عمار بن ياسر ٠

وأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن ينادى فيهم فنادى أن قولوا لا اله الا الله تمنعوا وأموالكم فأبوا الا القتال ٠

فقاتلهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بجيش المؤمنين فما أفلت منهم ، فقتل منهم عشرة ، وأسر سائرهم وسبى نساءهم ·

وقد حدث فى هذه الغزوة أن رجلا من المؤمنين اسمه هشام بن صبابة أصابه رجل من الأنصار وهو يظن أنه مباح الدم من الأعداء ·

كان ذلك القتل خطأ فكان له دية مسلمة الى أهله ، وقد وداه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم · فجاء أخوه مقيس بن صبابة من مكة المكرمة مظهـرا الاسلام ، فطالب بالدية فأعطاه الرسول الدية ، وأقام مع المؤمنين حتى تمكن من قتل قاتل أخيه ، مع أن القتل كان خطأ ، ثم عـاد مرتدا الى مكة المكرمة ، وبذلك ارتكب جريمتين : أما الجريمة الأولى فهى أنه قتل بعد أن أخذ الدية ، والقتل كان خطأ فلا قصاص وأخذ الثأر معتديا آثما ·

والجريمة الثانية أنه ارتد بعد اسلام أظهره ·

ولهاتين الجريمتين كان يستحق اباحة دمه واحداهما تسوغ قتـله ·

ولذلك أباح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم دمه ، ولذلك كان من الذين أهدر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم فتح مكة المكرمة دماءهم ، وان تعلقوا بأستار الكعبة ·

وان هذا يدل على أن الردة توجب القتل ، ويصدق عليه قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « من بدل دينه فاقتلوه » ·

ودلالة اباحة دم مقيس هذا لقتله قاتل أخيه أو لردته ، ولذلك كانت الدلالة احتمالية من حيث تعيين السبب ·

اثارة فتنة واطفاؤها :

٤٩٢ — فى هذه الغزوة ثارت فتنـة ، ولكن أطفأها النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم بحكمته ·

ذلك أن الناس كانوا يردون الماء ، وفيهم أجير لعمر بن الخطـاب يقـال جهجاه بن مسـعود يقود فرسه ، فازدحم أجير عمر هذا مع وسنان بن وبـر الجهى حليف بنى عوف من الخزرج فاقتتلا ، فصاح الجهنى يا معشر الأنصار وصاح أجير عمر يا معشر المهاجرين ·

ولم يجب الأنصار صرخة حليفهم ، ولا المهاجرون صرخة أجيرهم ، ولكن النفاق استغل ذلك لتكون تارة ثائرة ٠

غضب عبد الله بن أبى بن سلول زعيم المنافقين مع رهط من رجاله ، وكان فى مجلسهم زيد بن أرقم ولم يكن منافقا بل كان مؤمنا ٠

قال ابن أبى بن سلول ، قد نافرونا ، وكاثرونا فى بلادنا والله ما عدنا وجلابيب قريش (أى المهاجرين) الا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره من قومه ، فقال لهم هذا مافعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا الى غير دوركم ٠

سمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأبلغه الخبر بعد فراغه من غزوة عدوه وكان عنده عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال له عمر : مر به عباد بن بشر فليقتله ٠

قال ذلك عمر بحمية الايمان ، ولكن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو الحليم الذى يعالج النفوس والأمور قال : « فكيف ياعمر اذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه » ولكن أذن بالرحيل ، فارتحل الناس ٠

فالعلاج ان لم يكن حاسما للفتنة ، فهو مانع من أن تتأجج نيرانها ، ذلك أن الفتن اذا عرضت للنفوس ، وتبادلتها الأقوال ، ورددتها الألسنة يكثر القول الذى يلهبها ، واطفاؤها أو تخفيفها يمنع ترديدها ، وشغل الناس بغيرها٠

فكان الأمر بالرحيل شغلا للناس عنها ٠

جاء عبد الله بن أبى بن سلول الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينفى ما نسب اليه ، لأن المنافق يستتر دائما ، ويمنع أن ينكشف ، فاذا بدا بعض أمره حاول اعادة ستره ٠

قال ساترا كاذبا حالفا : ما قلت ما قال ، ولا تكلمت به ٠

وكان فى زعم قومه شريفا عظيما ، فقال بعض من حضر من الأنصار من أصحابه حدبا على ابن أبى ، أو تخفيفا لوقع الأمر ، قال عسى أن تكون الغلام قد أوهم فى حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل ٠

ومهما يكن من الأمر فقد عالج النبى الموقف بشغل الناس بالرحيل قبل ميقاته ، حتى لقد قال أسيد بن حضير للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : يانبى الله لقد رحت فى ساعة مبكرة ما كنت تروح فى مثلها ٠

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أو ما بلغك ما قاله صاحبكم ؟ قال وأى صاحب يا رسول الله قال عبد الله بن أبى بن سلول ٠ قال : وما قال قال زعم أنه ان رجع الى المدينة ليخرجن الاعز منها الأذل قال فأنت يارسول الله والله تخرجه ان شئت هو وهو الذليل وأنت العزيز ٠

ثم قال : يا رسول الله ، ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بذلك ، وان قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فانه ليرى أنك قد استلبت منه ملكا ٠

مشى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصار فى صدر ذلك اليوم الثانى حتى آذتهم الشمس ٠

ويقول فى تعليل ذلك ابن اسحاق : وانما فعل ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس ٠

انه عندما نزل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن آذتهم الشمس ، ومستهم جنوبهم الأرض حتى ناموا ٠

وفى النوم لم يذكروا ما كان من خلاف ، ولم يحسوا الا بالتعب ، فشغلهم التعب الجسمى عن القلق النفسى ، فانطفأت نار هذه الفتنة ، لتكون فتنة أشد ايذاء ، وأبلغ تأثيرا ، وكانت أيضا من النفاق والمنافقين ، وشاعت نيرانها ، حتى شملت بعض المؤمنين من الأنصار ، وبعض المهاجرين من ذى القربى ممن أشيعت حولها الفتنة ٠

ولقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عندما بلغه التنادى يا معشر المهاجرين ، ونادى الآخر يا معشر الأنصار ، قال النبى : دعوها فانها منتنة أى دعوى خبيثة جاهلية ، حتى نتنت بقدمها ٠

وعندما علم عبد الله بن عبد الله بن أبى ، وقد كان مؤمنا قوى الايمان بما قال أبوه ، وما حرض به مشى الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال يا رسول الله انه قد بلغنى أنك تزيد قبل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فان كنت لابد فاعلا فمرنى ، فأنا أحمل اليك رأسه ٠ فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده منى ؛ وانى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر الى قاتل أبى يمشى فى الناس ، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر ،

فأدخل النار ، فقال رســول الله صلى الله تعالى عليه وســلم ، بل ترفق به ، ونحس صحبته ما بقى معنا ٠

وكان لفعله أثر شديد فى نفس النبى وان كان قــد عالجه بما كان فيه الوقاية من تفاقمها ، فقد كان لها أثر فى نفوس المؤمنين ، فكان قوم ابن أبى حريصــين على منعه من أى فتنة ولومه على كل قول يكون منه بما يدل على قلبه ، فكانوا هم الذين يعاقبونه ، ويأخذونه فقال رســول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعمر بن الخطاب ، كيف ترى يا عمر ، أما والله لو قتلته يوم قلت لأرعدت أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ٠ فقال عمر رضى الله تعالى عنه ٠ مذعنا ، قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعظم بركة من أمرى ٠

هذا وقد أنزل الله تعالى جزءا من سورة المنافقين فى هذا الأمر ، فقــد قال الله تعالى : « **اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله ، والله يعــلم انك لرســوله ، والله يشــهد ان المنــافقين لكاذبون ، اتخــذوا أيمانهم جنــة فصدوا عن سبيل الله ، انهم ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ، فهم لا يفقهون ، واذا رأيتهم تعجبك اجسامهم ، وان يقولوا تســمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ، يحســبون كل صيحة عليهم هم العــدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ، واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ، ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ، سواء عليهم أســتغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم ، ان الله لا يهدى القوم الفاسقين ، هم الذين يقولون لا تنفقــوا على من عنــد رســول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ، ولكن المنافقين لا يفقهون ، يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منهــا الأذل ، ولله العزة ولرســوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** » ٠

هذا حكم الله تعالى على المنافقين ، وقد حكم الله تعالى بأنهم لا يفقهــون ولا يجزيهم استغفار الرسول لهم ، لأنهم عثوا فى كفرهم اذ الكفر من غير نفاق جهل وحمق وعناد ، ومنشئوه غالبا من عدم ادراكهم الحق ، فهم لا يذعنون ، وتوبتهم قريبة اذا زالت غواشى الضلال والجهالة ٠ أما النفاق فهو دركتــان فى الكفر هو عناد وحقــد من غير جهل ، ومحاولة لستر الحقائق وابعــادهم ذرائع الايمان عن نفوسهم ، ومحاولتهم طمس الحقائق فى قلوبهم ، فطبــع على قلوبهم ، ولذلك وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم لا يفقهون ، فلا يشق نور الحق قلوبهم المعتمة ٠

الأسرى والسبايا من بنى المصطلق :

٤٩٣ ـــ أثخن المسلمون فى بنى المصطلق ، اذ لم تبق فيهم قوة يستطيعون أن يغيروا بها على المؤمنين فانه قتل منهم من قتل ، وسيق الباقون أسرى وسبايا ، ولم يسترقهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نهائيا فقد شد الوثاق ابتداء ، وقيل انه وزعهم غنائم على المحاربين ، ولكنه أطلقهم فى النهاية ، ونرى أنه تدرج فى معاملة الأسرى ، ونرجح بهذا المعنى أن غزوة بنى المصطلق كانت بعد غزوة قريظة ، ذلك أنه فى غزوة قريظة قتل الرجال ، وسبى النساء ، وباعهن فى نجد فى خيل اشتراها فى مقابلهن قوة للمسلمين ٠

أما فى هذه وهى غزوة بنى المصطلق فقد تصرف صلى الله تعالى عليه وسلم تصرفا حكيما أدى الى ألا يباع منهم أحد ، حتى بعد تقسيمهم بين الغانمين ، وألا يسبى منهم امرأة بعد تقسيمهم ٠

فان كتب السيرة تروى ماثبت فى صحاح السنة ، وذلك أن الناس قسموا الرجال والنساء بينهم وأبقى رسول الله جويرية بنت الحارث التى صارت من بعد من أمهات المؤمنين ، ولنترك الكلمة لابن هشام الذى روى بعض الروايات ، فهو يقول :

يقال : لما انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من غزوة بنى المصطلق ومعه جويرية بنت الحارث ، دفعها الى رجل من الأنصار وديعة وأمره بالاحتفاظ بها ٠ وقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة ، فاقبل أبوها الحارث بن ضرار لفداء ابنته ، فلما كان بالعقيق نظر الى الابل التى جاء بها للفداء ، فرغب فى بعيرين منها ، فغيبهما فى شعب من شعاب العقيق ثم أتى الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال : « يا محمد ، أصبتم ابنتى ، وهذا فداؤها ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق فى شعب كذا وكذا ، فقال الحارث : أشهد أن لا اله الا الله وأنك يا محمد رسول الله ، فوالله ما اطلع على ذلك الا الله تعالى :

أسلم الحارث ، وأسلم معه ابنان له وناس من قومه ، وأرسل الى البعيرين ، فجاء بهما الرسول ؛ فدفع الابل الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودفعت اليه ابنته جويرية ، فأسلمت ، وحسن اسلامها ، فخطبها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أبيها ، فزوجه اياها ، واصدقها أربعمائة درهم ٠

وقد أعتق بعد ذلك كل من كان فى يده واحد منهم ، وقالوا أنسترق أصهار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

هذا ما قاله ابن هشام ، ولم يذكر الرواية التى اعتمد عليها ، وان كانت الصحاح تومىء الى ذلك ، وان لم تفصله ذلك التفصيل ، وهذا الخبر يدل على أن الرق لم يكتب على أم المؤمنين جويرية ٠

ولكن ابن اسحق روى عن أم المؤمنين ما يفيد أن رقا قد كتب عليها ، واليك ما روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها وعن أبيها ، واليك ما رواه عروة بن الزبير عن عائشة قالت : « لما قسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبايا بنى المصطلق ، وقعت جويرية بنت الحارث فى سهم ثابت بن قيس أو لابن عم له ، فكاتبت على نفسها ، وكانت امرأة حلوة ملاحة ، لا يراها أحد الا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مستعينة فى كتابتها ٠٠٠ قد خانت ؟ فقالت يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث ، سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت فى السهم لثابت ابن قيس أو لابن عم له ، فكاتبته على نفسى ، فجئتك أستعين على كتابتى قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « هل لك فى خير من ذلك ، قالت وما هو يا رسول الله ؟ قال اقضى عنك كتابتك وأتزوجك ، قالت نعم يا رسول الله ، قال قد فعلت » ٠

وان الفارق بين الروايتين أن ما ذكره ابن هشام ، أن أباها هو الذى زوجها من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه لم يجر الرق اذ افتداها أبوها بالابل ، وذكر فيها الصداق ، وهو أربعمائة درهم ، أما رواية ابن اسحق فكتبت أن الرق قد كتب عليها ، وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم دفع عنها ما كاتبته عليه ٠

ونحن نرى أن سياق ابن هشام أكثر انسجاما ، واتساقا مع أحكام الاسلام ، اذ أن وليها هو الذى زوجها ، وذلك مبدأ مقرر فى الاسلام ، ولم يجز للمرأة أن تعقد زواجها بنفسها الا أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه ، وخالفه جمهور الفقهاء ٠

وفوق ذلك فى رواية ابن اسحق ما قد يكون علة فى الحديث ، ففيه أنه نسب لعائشة رضى الله تعالى عنها وقد وصفتها بأنها امرأة حلوة مليحة : « فوالله ما ان رأيتها على باب حجرتى فكرهتها ، وعرفت أنه سيرى منها صلى الله تعالى عليه وسلم ما رأيت فدخلت ، وانا نرى أن هذه العبارة ، لا يليق أن تنسب لعائشة ، لمكانتها فى الاسلام ، ولا أن ينسب ما تضمنته للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وكتب السنة لم تذكر ما ذكرته رواية ابن اسحاق ٠

ومهما كلف الأمر فى هذه الروايات فان زواج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ترتب عليه عتق قومها جميعا ٠

وانا نقول ان زواجه صلى الله تعالى عليه وسلم منها كاف لأن يدع المسلمون ما بأيديهم من الأسرى والسبايا ، اذ عتق بزواجها رجال مائة دار من العرب ، وقد أسلم قومها ، ودخلوا فى ظل الاسلام ، وكانت تجمع منهم الزكاة ٠

خطأ فى الادراك :

٤٩٤ ـــ لما أسلموا صاروا فى ظل الدولة الاسلامية وتابعين لحكم المدينة ، فأرسل اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الوليد بن عقبة ابن أبى معيط ليجمع منهم الزكاة ٠

لما سمعوا به ركبوا اليه ، فظنهم مغيرين عليه فهابهم ، ويظهر أنهم كانوا يستقبلونه لا ليغيروا ولا ليثوروا ، ولا ليحاربوا ٠

عاد الى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره أن القوم قد هموا بقتله ، ومنعوه ما قبلهم من صدقتهم ، فأثار بذلك ثائرة بعض المسلمين ، وكان منهم من أكثر فى القول بغزوهم ٠

وما كان أساس الأمر الا سوء فهم للأمور ، فقد قدم وفدهم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

قالوا يا رسول الله : سمعنا رسولك حين بعثته الينا ، فخرجنا اليه لنكرمه ونؤدى اليه ما قبلنا من الصدقة ، فانشمر راجعا ، فبلغنا انه زعم لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أننا خرجنا لنقتله ، ووالله ماجئنا لذلك ٠

والظاهر ان اساءة الفهم كانت منه ، وفرض أنهم جاءوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خوفا من غزو جرى على السنة بعض المؤمنين بعيد ، لأنه من الضرورى حمل حال المؤمن على الصلاح ، ولذا قيل انه نزل فى هذا الموضع قوله تعالى : « **يايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** » والله أعلم بما تخفى الصدور ٠

حديث الأفـك

٤٩٥ ـــ اختصت غزوة بنى المصطلق بأن جاء فى أعقابها أمور تتبعها أحكام لسياسة الجماعة ، واصلاح النفوس ومداواة مرضى القلوب ٠

فكان فيها معاملة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لمن وقعــوا فى الأسر والسبى بعد أن أثخن رسول الله صلى الله تعالى وسلم فى محاربيه ، وقد كان عمله يتجه الى المن بدل الفداء وقتل الرجال وسبى النساء ، وعمل الرســول سنة متبعة ، فهو لا يفرض الرق الا اذا كان يتوقع أن تكون بينــه وبين أسر منهم حرب ، وقد كان يتوقـــع مع اليهــود حربا قد يأسرون من المســلمين فيهــا ، فيسترقون ويسبون فعاملهم بما يتوقع أن يعاملوا بمثله ، والحرب بينه وبينهم لم تنته بعد ، ولم يثخن فى قوتهم ، بل لا تزال لهم قوة مرهوبة ولم يكن يتوقع من بنى المصطلق من بعد ذلك حربا وكان فى أثنائها ، نفاق المنافقين الذين اتجهوا الى اشعال فتنه منتنة بين المهاجرين والأنصار وهم قوة الاســلام ، وقد عالج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالترفق بالمنافقين ، حتى ينكشف أمرهم ويلفظهم قومهم ، ويكون تأديبهم من أهليهم ، ثم لا يكون لنفاقهم قوة التأثير ، اذ لا يخدع بهم أحد من أهل الايمان ، وينالهم الضلال ، وبذلك بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كيف يعامل المنافقون بتركهم ، حتى يذوى عودهم من ذات نفســه مع التحذير منهم ٠

والأمر الخطير فى ذات نفسه ، وكان فيه ايذاء للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأهله ، وهو حديث الافك ، الذى كان فى ذاته اثما عظيما ، وفى آثاره خطيرا فى المجتمع ، اذ من شأنه أن يشيع الفاحشة فى المجتمع ، ويدنسه بظهور الرذيلة فيه ، وفوق ذلك فيه هجوم على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفيه استهانة بمقام صاحب الرسالة الذى كرمه الله تعالى فى السموات وفى الأرض، وقال الله تعالى فى شأنه « **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** » ٠

وقد اشترك فى هذا الحديث المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بى أبى الذى قالت فيه أم المؤمنين عائشة الطهور ، ان الذى تولى كبره عبد الله بن أبى ٠

وكان مع المنافقين زلل لبعض المهاجرين والأنصــار ، فلم تنزه فيه السنة أهل الايمان من قبيل الاستهانة بالأخبــار ، وقبولها من غير تمحيص ، ولا

التفات لمغزاها ومرماها بل كان تشهيا للحديث مجردا من كل اعتبار ، فكان هذا من بعد تنبها ، الى وجوب العمل على حماية المجتمع من مروجات الشر ، ومن الخرص بالظنون · والاحتفاظ بكرامات البيوتات ، ولقد قال تعالى فى ذلك : « **ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم** » ·

والخير فيما شرف الله به بيت النبوة ، وفيما أعقبه من تطهير نفوس الذين خاضوا فيه باقامة الحد عليهم بجلدهم ثمانين جلدة ، ثم ما بين الله سبحانه وتعالى ان الاثم الذى اكتسبه بعض المهاجرين لا يمنع معونتهم من خير يسدى ، فحسبهم عقوبة الحد الزاجر ·

٤٩٦ ــ ونذكر الآن حديث الافك ، كما جاء فى كتب السيرة وصحاح السنة ·

كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يختار من نسائه للسفر معه عندما يريد السفر بالقرعة ، فكانت القرعة فى غزوة بنى المصطلق على أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق ، فخرجت معه فى هذه الغزوة وفى عودتها نزلت لحاجتها ، فتخلفت عن الركب ، ولنترك لابنة الصديق ذكر القصة ، وقد وافق ما جاء فى الصحيحين عن هذا الأمر ·

قالت فى سفره عليه الصلاة والسلام لبنى المصطلق «فلما فرغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من سفره ذلك جاء قافلا حتى اذا كان قريبا من المدينة ، نزل منزلا فبات فيه بعض الليل ، ثم أذن مؤذن فى الناس بالرحيل ، فارتحل الناس فخرجت لبعض حاجتى ؛ وفى عنقى عقد ··· فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى ، فلما رجعت الى الرحل ألتمسه فى عنقى فلم أجده ، وقد أخذ الناس فى الرحيل فرجعت الى مكانى الذى ذهبت اليه ، فالتمسته ، حتى وجدته ·

وجاء القوم خلافى الذين كانوا يرحلون الى البعير (أى أنهم ساقوا البعير الذى كان يقلها) وقد كانوا قد فرغوا من رحلته فأخذوا الهودج ، وهم يظنون أنى فيه كما كنت أصنع ، فاحتملوه ، فشدوه على البعير ، ولم يشكوا أنى فيه ، ثم أخذوا برأس البعير ، فانطلقوا به ، فرجعت الى المعسكر ، وما فيه داع ولا مجيب ، قد انطلق الناس ، فتلففت بجلبابى ، ثم اضطجعت مكانى ، وعرفت أنى لو افتقدت لرجع الناس الى ، فوالله انى لمضطجعة ، اذ مر بى صفوان بن المعطل السلمى ، وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجاته ، فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادى فأقبل حتى وقف ، وكان يرانى قبل أن يضرب

الحجاب فلما رآني قال انا لله وانا اليه راجعون ، ظعينة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنا متلفلفة في ثيابي ، قال فما خلفك يرحمك الله فما كلمته ثم قرب الى البعير فقال اركبي ، واستأخر مني ، فركبت وأخذ برأس البعير وانطلق سريعا يطلب الناس ، فوالله ما أدركنا الناس ، وما افتقدت حتى أصبحت ونزل الناس ، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي فقال أهل الافك ما قالوا ، وارتج العسكر ، والله ما أعلم بشيء من ذلك ، ثم قدمنا المدينة » ·

هذه عبارة أم المؤمنين الصادقة بنت الصديق تبين الواقعة ، كما هي ؛ وكما عاينت وشاهدت ، ولنتركها تذكر ما شاع ومن أشاع ، فهي تحكي الوقائع، وتحكي خلجات نفسها المؤمنة الباكية وهي في غضارة الصبا ·

« فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة لا يبلغني من ذلك شيء ، وقد انتهى الحديث الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والى أبوي ، لا يذكرون منه قليلا ، ولا كثيرا ، الا أني قد أنكرت من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعض لطفه بي ، وكنت اذا اشتكيت رحمني ولطف بي ، فلم أزل في شكواي ، فأنكرت ذلك منه ، كان اذا دخل علي وعندي أمي تمرضني ، قال كيف بنتكم لا يزيد على ذلك ، حتى وجدت في نفسي فقلت يا رسول الله ، حين رأيت ما رأيت من جفائه لي : لو أذنت لي ، فانتقلت الى أمي فمرضتني ، قال : لا عليك فانقلبت الى أمي ، ولا علم لي بشيء ، مما كان حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة ··· فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي أم مسطح ابنة أبي رهرم بن عبد ، فوالله انها لتمشي اذ عثرت في مرطها ، فقالت تعس مسطح ، قلت بئس لعمر والله ما قلت لرجل من المهاجرين ، وقد شهد بدرا !! قالت أو ما بلغك الخبر ، فاخبرتني بالذي كان من قول أهل الافك ، قلت أو قد كان هذا ؟ قالت نعم والله قد كان ، فوالله ما قدرت على قضاء حاجتي ، ورجعت ، فوالله مازلت أبكي ، حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي وقلت لأمي يغفر الله لك !! تحدث الناس بما تحدثوا به ، ولا تذكري لي من ذلك شيئا !! قالت أي بنية خففي عليك الشأن ، فوالله لقل ما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر ، الا كثرن وكثر الناس عليها ·

قالت وقد قام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فخطبهم ، ولا أعلم بذلك فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي ، ويقولون عليهم غير الحق · والله ما علمت عليهم الا خيرا ويقولون ذلك لرجل ما علمت منه الا خيرا ، ولا يدخل بيتا من بيوتي الا وهو معي ·

قالت أم المؤمنين عائشة وكان كبر ذلك عند عبدالله بن أبي بن سلول في رجال من الخزرج مع الذي قال مسطح ، وحمنة بنت جحش ، وذلك أن أختها

زينب بنت جحش كانت عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم تكن امــرأة من نســانه يناصبنى فى المنزلة عنــده غيرها ، فأما زينب فعصمها الله بدينها ، فلم تقل الا خيرا ، وأما حمنة فأشاعت من ذلك ما أشاعت ، تضارنى لأختها فشقيت بذلك٠

فلما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وســلم تلك المقالة قال أســيد ابن حضير يارسول الله ان يكونوا من الأوس نكفيكهم ، وان يكونوا من اخواننا الخزرج ، فمرنا أمرك ، فوالله انهم لأهل أن تضرب أعناقهم ٠

فقام سعد بن عبادة ، وكان قبــل ذلك يرى رجلا صالحا ، فقــال كذبت لعمرو الله ، ما تضرب أعناقهم ، أما والله ما قلت هذه المقالة الا لأنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا ٠

فقال أسيد بن حضير ، كذبت لعمرو الله ، ولكنك منــافق تجادل عــن المنــافقين ، وتســاور النــاس ، حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر ٠

فدخل رسول الله على ، فدعا على بن أبى طالب ، وأســامة بن زيد ، فاستشارهما ، فأما أسامة فأثنى خيرا ثم قال يارسول الله أهلك ، وما نعلم عنهم الا خيرا ، وهذا الكذب والباطل ٠

وأما على فــانه قــال يا رســول الله ان النســاء لكثير ، وانك لقادر أن تستخلف وسل الجارية فانها ستصدقك ، فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بريرة يسألها ، فقام اليها على فضربها ضربا شديدا (١) ٠ ويقول أصدقى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فتقول (بريرة) والله ما أعلم الا خيرا ، وما كنت أعيب على عائشة الا أنى كنت أعجن عجينى ، فآمرها أن تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتى الشاة فتأكله ٠

ثم دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعندى أبواى ، وعندى امرأة من الأنصار ، وأنا أبكى وهى تبكى ، فجلس ، فحمد الله تعــالى ، وأثنى عليــه ، ثم قال : ياعائشة ، انه قد بلغك من قول الناس فاتقى الله ، ان كنت قد قارفت سوءا مما يقول الناس ، فتوبى الى الله ، فان الله يقبــل التوبة عن

---

(١) أكثر الروايات لم تذكر الضرب ، وما كان لعلى أن يضرب فى حضرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفسر السهيلى الضرب بالقول الشديد ٠

عباده ، فقلص الدمع ، حتى ما أحس منه شيئا • وانتظرت أبواى أن يجيبا عنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم يتكلما ، وأيم الله لأنا كنت أحقر فى نفسى وأصغر شأنا من أن ينزل فى قرآنا يقرأ ، ويصلى به الناس ، ولكنى كنت أرجو أن يرى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يكذب الله به عنى لما يعلم من براءتى ، ويخبر خبرا ، وأما قرآنا ينزل فى ، فوالله لنفسى كانت أحقر عندى من ذلك •

ولما لم أرى أبواى يتكلمان قلت لهما ألا تجيبان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالا فوالله لا ندرى بما نجيبه ، ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبى بكر فى تلك الأيام فلما استعجما على استعبرت فبكيت ، فقلت لا أتوب الى الله مما ذكرت أبدا ، والله انى لا أعلم ان أقررت بما يقول النـاس ، والله تعالى يعلم أنى منه بريئة لأقولن ما لم يكن ، ولئن أنا أنكرت يقولون لا تصدقونى ، ثم التمست اسم يعقوب أذكره ، ولكن سأقول كما قال أبو يوسف : « **فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون** » ، فوالله ما برح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مجلسه ، حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه ، فسجى بثوبه ، ووضعت وسادة من أدم تحت رأسه فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت ، فوالله ما فزعت ، وما باليت ، قد عرفت أنى بريئة ، وأن الله تعالى غير ظالمى ، وأما أبواى فوالذى نفس عائشة بيده ما سرى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى ظننت لتخرجن أنفسهما حزنا من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس ، ثم سرى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجلس ، وانه ليتحدر عن وجه مثل الجمان ــ فى يوم شات ــ فجعل يمسح العرق من وجهه ، ويقول أبشرى ياعائشة قد أنزل الله عز وجل براءتك •

قلت : الحمد لله •

ثم خرج على الناس فخطبهم « وتلا عليهم ما أنزل الله تعالى من القرآن الكريم ثم أمر بمسطح بن أثالة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم •

٤٩٧ ــ ذكرنا القصة مع طولها ، كما جاءت على لسان المجنى عليها ، وقد اخترنا تلك الرواية لما فيها من جمع لكل معانى الروايات ، لأنها تصور نفس تلك الصبية الكريمة التى لم تكن قد تجاوزت الرابعة عشرة من سنها •

امتحن الله تعالى تلك الصبية الطاهرة لزوج أعظم رجل فى الوجود الانسانى وابنة صاحبة فى الغار ، وهى فى سن قريب من الطفولة ، امتحنت

أولا ــ بأن تخلفت عن الركب ، وصارت فى أرض قفر وحدها ، فلم تصرخ ولم تولول ، بل فوضت مؤمنة أمرها لربها ، وتجلببت بجلبابها ، ونامت آمنة مطمئنة منتظرة أمر الله فيها عالمة أن الله لا يضيعها ، ويجيء رجل مكتمل عرف بالتقوى ، بل قيل انه حصور ليس له فى النساء أرب فاسترجع عندما رآها ، وعجب أن يرى فى الليل ، وفى هذا المكان الموحش ، وهو يسترجع ويقول : ظعينة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وينيخ لها البعير ، فتركبه من غير معونة أحد ، وليس معها مكان الرحيل بها وهو هودجها ، اذ أنه حمل على بعيرها ، زعم من رفعوه اليها أنها فيه ، لصغر ثقلها ٠

وانها من بعد ذلك تستقبل المدينة بصخبها وجلبها ، ونفاق بعضها ، وفضول الأكثرين الذين لا يتركون الظن أو التظنن ، وهو من الاثم ، كما قال الله تعالى : « **ان بعض الظن اثم** » ٠

واذا ظنوا أشاعوا غير ناظرين الى عاقبة ، ولا الى أثر القول ، ولا الى موضوع القول ، ومكانة صاحبته فى أهلها وبعلها ، ومكان من يناله السوء من اشاعة ، ويندفع فى ترداده غير عالم له بحقيقة ، ولكنها ظن السوء المجرد وشهوة قول الفتنة ، والفضول الذى يسود بعض الناس ، وما أصدق قول الله تعالى فى وصف الذين خاضوا ، وهم الجماعات الانسانية قلوا أو كثروا ، وهو يقدم لهم أحسن الأدب ، وما يجب التحلى به عندما يقال القول من أحمق مأفون ، أو من منافق مفتون ، يقول تعالت كلماته : « **اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ، ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين** » ٠

نعم انهم تلقوه بألسنتهم ، لا بعيونهم ، وأخذوه من الألسنة المرددة ، لا من مصادر العلم المتيقنة ، وأشاعوه بالأفواه لتزجية القول فى المجالس ، والسمر الماجن الفاسد ، ويحسبون ذلك أمرا سهلا ، معتادا ، وهو عند الله تعالى أعظم الفرية ، وان المؤمن لا يتلقاه بالترويج والاشاعة انما يرده ، أو يبعدوا الفضول عن أنفسهم ، وأنه لا ينبغى ترداده ، بل رده ، لأنه بهتان عظيم ٠

وهنا وقد شاعت قالة السوء ، ورددها المهاجر والأنصارى والمنافق والمخلص فى غير تحر ولا احتراس عن لغو القول ، وبهتانه ، هنا نجد عظمة الرسول ، وايمانه بأن الطيبين للطيبات وحسن ظنه بأهله ٠ وقوة ايمانه النبوى وضبط نفسه ، وصبره ، فيقول شاكيا الناس الى الناس ، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ، ويقولون عليهم غير الحق ، والله ما علمت عليهم

الا خيرا ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه الا خيرا ، ولا يدخل بيتا من بيوتى الا وهو معى ٠

لام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الرجال الذين أشاعوا القول الكاذب ، وتضمن قوله لوم الذين استمعوا اليهم ٠

ولقد كـان ذلك انهـاء لترداد القول ، لأن الذى نفى الخبر وكذبه هو صـاحب الشأن ، وهم من علموه لا ينطق عن الهوى ٠ فكـان ذلك اطفـاء للثائرة ٠

ولكن اذا كـان ذلك القول من أخـلاق النبوة فقد بقى حكم البشرية ، والبشرية لها سلطان لم تكذب ولم تصدق ، ولكن النفس ارتابت ، والارتياب ينساب فى النفوس اذا كانت له أسباب ولو بالظن الذى لا دليل على صدقه ٠

وهنا نجد التعليم العالى من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لمن يختبره الله تعالى بمثل تلك القالة الآثمة فهو لا يسـارع الى أهله يبادرهم بالاتهام أو الايذاء ، أو غير ذلك مما يرتكبه ابن الانسان فى غضبه أو ريبه ، بل انه يتلقى ذلك بالصبر الكظيم الهادىء الذى يميل الى التبرئة ، ولا يميل الى الاتهام ٠

ولكن أمرا لا يملكه وهو الا يبدو عنه أثر للألم المكين ، وان لم يظهر لعنا ولا سخطا ، بل انه لا يفكر فى أن يذكر لها الخبر ، حتى تتبرأ ، فتكون الزوبعة قد هدأت والسحابة العارضة قد تبددت ، ولكنها تعلم ، وقد كانت لا تعـلم ، وقد كانت غافلة عما يجـرى بين الناس من قول ، قد أطفأه النبى صـلى الله تعالى عليه وسلم باعلان كذبه وبهتانه ٠

ولكن الصبية الطاهرة المؤمنة تعلم ، والقول يجرى بشأنها من الآثمين الذين لعنهم الله تعـالى فى كتابه ، اذ قال : « **ان الـذين يرمون المحصـنات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم** » وأى ذنب أعظم اثما من رمى هذه المؤمنة الغافلة الوفية ابنة الصديق وزوج النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم ٠

كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بمنطق العقل والايمان لا يصدق ، وبمنطق النفس البشرية يرتاب فاستشار خواصه ، فكلهم كذب ، وشـدد فى التكذيب ، وهو يقـول انك طيب لا يختار الله تعالى لك الا طيبا ، ونسب ذلك لعمر بن الخطاب الفاروق ٠

وقد سأل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اثنين من القريبين من بيته ، وهما أسامة بن زيد ، وعلى بن أبى طالب ٠

سأل أسامة ، فأثنى خيرا ، وكلامه فى أم المؤمنين عائشة يترقرق يبشر الاطمئنان ٠ وسأل عليا القاضى الذى قال فيه « أقضاكم على فأجاب اجابة قوية لم يتهم ولم يكذب ، ولم يثن ، ولم يهاجم ، بل وقف كما يقولون موقفا محايدا ٠

وفى الحق ان ذلك هو السبيل لازالة الريب ، قال يا رسول الله ان النساء لكثير ، وانك لقادر على أن تستخلف ، وان هـذا لا شك ما كانت أم المؤمنين ترضاه من على بطبيعة المرأة المحبة المخلصة المثالية ، وهو مهما يكن أثره فى قلب أم المؤمنين يؤيد حياد على فى القضية ، وهو يجعله أقرب الى الاتباع ، يقول على القاضى المحقق : سـل الجارية فانها تصدقك أخذ التحقيق طريقه ، فسأل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بريرة ، فقالت ما أدخل الاطمئنان فى قلب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وابتدأ يزيح غشاء الشك ٠

قالت والله ما أعلم الا خيرا ، وما كنت أعيب على عائشة شيئا ، الا انى كنت أعجن عجينى ، فآمرها أن تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتى الشاة فتأكله ٠

كان الاطمئنان وان لم يكن كاملا ، وخصوصا أن الوصف الذى وصفتها به هو من أسباباشاعة قول السوء من الأفاكين الآثمين ، فاذا كانت غلبة النوم الا تسببت فى أن تأكل الشـاة عجين بريرة ، فقـد كانت غلبة النوم هى التى فتحت باب الاتهام الآثم للأفاكين ٠

بعد أن استأنس النبى بدليل البراءة بعـد أن برأها بايمانه ، وبعد أن علمت هى ، واجهها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهى حبه فى الدنيا والآخرة ، قال لها ما يدل على انه غير خاف ٠ ولا تارك له ، يا عائشة ، انه قد كان ما بلغك من قول الناس فاتقى الله ، وان كنت قد قارفت سـوءا مما يقول الناس ، فتوبى الى الله ٠ فان الله يقبل التوبة عن عباده ٠

لقد كانت تبكى ، فجف الدمع من قوله ، لأنها كانت ترجو فيه الرضـــا بعد الجفوة ، ترجوه رضا مطلقا لا رضا معلقا ، وترجو الا يكون منه ، وهو الحبيب الرسول النفى المطلق فى مواجهته ، وتلفتت الصبية المؤمنة المحصنة الطاهرة أن يجيب عنها أحد ، وقد قال أحب حبيب لها فى الوجود ما لا يقطع بالنفى المطلق ، المثبت لبراءتها ، فلم يجب أبواها ، وكانت فى حيرة البرىء الذى يجـرى حوله الاتهـام ، ويحيط بها من كل جانب ، رأت أنها ان كذبت لا تصدق ، وان أثبتت كذبت ٠

فتركت أمرها لله تعالى ، لا ترجو سواه ، وما كانت تظن أنها بلغت مبلغ أن ينزل قرآن يتلى ويصلى به فى براءتها ، وانها تزعم أنها أصغر من ذلك ولكن مقامها عند الله كبير لأنها صبرت مطمئنة الى حكم الله تعالى ، ورضيت بأن يكون وحـــده هو الذى يعلن براءتهـا ، فنزلت الآيات الكريمات المبرئات بالدليل ، اذ قال تعالى :

« ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ، لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بانفسهم خيرا ، وقالوا هذا افك مبين ، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمســكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم · اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بافواهكم ما ليس لكم به علم · وتحســبونه هينا ، وهو عند الله عظيم ، ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين ، ويبين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم ، ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون ، ولولا فضل‌الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم ، يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء ، والله سميع عليم ، ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين ، والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا الا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم · ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة · ولهم عذاب عظيم ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم ، وأيديهم ، وأرجلهم بما كانوا يعملون ، يؤمئذ يوفيهم الله دينهم الحق ، ويعلمــون أن الله هــو الحق المبين ، الخبيثـات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين ، والطيبــون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم ·

٤٩٨ ـــ هذه حادثة الافك والبهتان ، وننظر فيما تشير اليه الآيــات الكريمات التى نزلت ببراءة الطاهرة الصــادقة بنت الصـــديق أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ·

تشير الآية الكريمة أولا الى أن أكثر الشر فى الجماعة يجىء من أمور يحسبها الناس أمورا هينة وليست هينة فى ذاتها · بل هى اثم كبير ، كما أنها ليست هينة فى آثارها لأنها تحل المجتمع وتشيع الفاحشة فيه ، وتهون الرذائل ويكون فيه رأى عام غير فاضل ، بل رأى عام فاسد ، ولا تفرخ الرذائل الا فى

رأى عام فاسد ، ولذلك شدد القرآن الكريم فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ليكون رأى عام فاضل يحث على الفضيلة ، ويدفع الرذيلة ٠

وتدل الآية ثانيا على أن الشـهادة فى الفاحشـة ، لا تكون الا بأربعة شهداء والا كان القول كاذبا عند الله تعالى مهما تكن مكانة القائل الاجتماعية ، ولذلك اقترن بهذه القالة الفاسدة حد القذف ٠

وتدل ثالثا على أن الظالم لا يظلم ولا يمنع من الخير مادام قد اسـتوفى عقابه على ما ارتكب ، لقد كان أبو بكر رضى الله تبارك وتعالى عنه يمد مسطحا وهو ذو قرابة به ، فلما خاض فى حديث الافك ، قطع عنه فنزل نهى الله تعالى عن ذلك فى قوله تعالى فى الآيات التى تلوناها ، « **ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى** » الى آخر الآية الكريمة ٠

وتدل هذه على أمرين :

أولهما : أن الزكاة يجوز اعطاؤها للعصـاة وقـد أخطأ فى ذلك بعض الفقهاء ، فانها قد تمنعهم من كثير من الجرائم ، وقد تدنى قلوب العصـاة ، فان الجفوة تولد الجـرائم ، والعطاء يرطب النفوس فلا تجفو ، وتحس بأن عيشها مؤتلفة مع الجماعة أدنى الى الراحة ٠

ثانيهما : أن الاعطاء عند الجفوة يقـرب ويمنع البعد ، وأن الصـدقة تطفىء المعصـية وتجلب الغفران ألا ترى الى قوله تعالى : « **ألا تحبـون أن يغفر الله لكم** » ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم (ليس الواصل بالمكافىء ، انما الواصل من يصل رحمه عند القطيعة) ٠

وتدل رابعا على طهارة نساء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم طهارة مطلقة لأن الخبيثات للخبيثين والطيبات للطيبين ، فتلك سنة الله تعالى فى خلقه ولم تكن مخالفتها الا فى امرأة فرعون التى ذكرها القرآن بالخير ، وقد كانت مع شر خلق الله ، وكذلك فى امرأة نوح ولوط اللتين خانتا هذين الرسـولين الطاهرين ، وقـد قال تعالى فى ذلك : « **وضرب الله مثلا للذين آمنـوا امرأة فرعون ، اذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فـرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ، ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا ، وصدقت بكلمات ربها وكتبه ، وكانت من القانتين** » ٠

ويقول تعالى قبل هاتين الآيتين ، « **وضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين** » ٠

فكان نساء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من الطيبات ٠

الاثر النفسى من على كرم الله وجهه :

٤٩٩ ـــ يبدو من سياق القصة كما روتها أم المؤمنين عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها أن كلام على رضى الله تعالى عليه لم يقع من نفسها موقع الرضا ، كما وقع كلام أسامة ، وكما وقع كلام الصحابة الذين قالوا خيرا ٠

وذلك لأن عليا كرم الله وجهه لم يكن فى كلامه ما يرضى ، ولكن كان فى كلامه ما يكون سبيلا لانهاء الموضوع ، ولكيلا يشغل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر عارض ٠

وما كان يرضى كلام على عائشة ، لأنه لم يشهد بالبراءة كما شهد غيره ، ولعلها كانت ترى أنه أعلم ببراءتها أكثر من غيره من الصحابة ، ولأن له بالبيت الذى هى فيه صلة ، فشهادته تكون أقوى من شهادة غيره ٠

ولأنه قال كلاما لا يرضى من لها مكانة عائشة فى قلب النبى ، لأنه قال النساء غيرها كثيرات وأن له أن يستخلف غيرها ٠

واذا كان ذلك لم يرض البريئة الطاهرة ، فانه كان السبيل الى صرف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى التحقيق ، ووراء التحقيق كان الاطمئنان الابتدائى ، ثم كان وراءه الابراء لها من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثم الابراء لها من الله تعالى ٠

ولقد استرسل المؤرخون فى ذكر ما بينها وبين على كرم الله وجهه ، حتى جعلوه سبب الخروج عليه فى واقعة الجمل ، وقالوا ما قالوا فى ذلك ٠

ونحن نقـــول انه بلا ريب لم يرض على عاطفتهـا ، ولكنهـا فى ظنى ما أبغضته ، وان خالفته على كلام فى ذلك ، وان الدليل على أنها لم تبغضه أنه عندما نعى اليها ذهبت الى قبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقالت جئت أنعى اليك أحب أصحابك اليك ، جئت أنعى اليك صفيك المجتبى ، وحبيبك المرتضى ، على بن أبى طالب ٠

وما كان من شأنها أن تبغض احب أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليه ، فرضى الله عنها وكرم الله وجهه ٠

حد القذف

٥٠٠ — احسب أن حد القذف قد شرع لهذه المناسبة التى شاعت فيها قالة السوء ، وحديث الافك ، لأن الآيات جاءت متصلا بعضها ببعض اذ أنه ذكر فيها نصاب الشهادة بالزنى ، وهو اربعة شهداء وانه اذا لم يكن الشهداء الأربعة ، فان الرامى بالزنى يكون كاذبا ، وهذا الحد هو جزاء الكذب ، وقد ذكر الله تعالى ذلك الحد فى قوله تعالى :

« **والذين يرمون المحصنات ثم لم ياتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون ، الا الذين تابوا من بعد ذلك ، وأصلحوا ، فان الله غفور رحيم** » ٠ ونلاحظ أن الآية دلت على عقوبة أصلية مادية ، وهى ضربهم ثمانين جلدة ، وذكرت عقوبتين تابعتين معنويتين ٠

احداهما ألا تقبل لهم شهادة أبدا ، لأنهم كذبوا فى مقام يجب الاحتراس فيه ، ولأن الله تعالى وصفهم بأنهم الكاذبون ، وحصرهم فى وصف الكذب فقال تعالى : « **لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فاذا لم ياتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكاذبون** » ، وكيف تقبل شهادة من حصر فى الكذب بحكم الله تعالى ، ولذلك منع قبول شهادتهم أبديا ، فقال تعالى : « **ولا تقبلوا لهم شهادة ابدا** » ٠

الثانية من العقوبات التبعية وصفهم بالفسق ، وهذا الوصف يستمر اذا لم يتوبوا ، فالاستثناء بالتوبة انما هو من وصف الفسق ، فلا يكون التائب توبة نصوحا فاسقا ، بل لا يكون مذنبا ، لأن التوبة تجب الذنوب ، كما قال تعالى : « **وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى** » ٠

ولقد طبق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حد القذف على مسطح وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش ، اخت أم المؤمنين زينب بنت جحش التى منعها دينها من أن تخوض فى حديث الافك مع أنها الضرة التى كانت تناصى عائشة رضى الله عنهما المنزلة عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكان قد نزل حد القذف من قبل ٠

وهنا يرد سؤال : ان الذين تحدثوا حديث الافك كانوا أكثر من ثلاثة ، فقد تناول القول به غير الثلاثة ، بل ان أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت

أن الـذى تولى كبره عبد الله بن أبى ، فلماذا لم يقم الحـد ، الا على هؤلاء الثلاثة ٠

ونقول فى الجواب عن ذلك ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذكر أن هؤلاء قد صرحوا بالرمى ويظهر أنه قام الدليـل على أنهم تكلموا ، ولم يقم الدليل على غيرهم ٠

ولكن أم المؤمنين عائشة قالت ان الذى تولى كبره رأس المنافقين فكيف لا يحد ، وهو الآثم الأول ٠

ونقول فى الجواب عن ذلك انه بلا ريب هو الذى تولى كبر هذا ، بالتنبيه على ما يسهل على غيره الرمى ، من غير أن يصرح بالرمى ، ويدس الخبر فى الناس بلحن القول من غير تصريح ، فيحمل الناس على أن يتكلموا ، وهـو لا يظهر الكلام الا بين خاصته الذين يشيعون الافك بتوجيه الأذهان اليه مـن غير أن يصرحوا ، فهم يوعزون بالقـول ، ولا يظهـرون ، ويدفعون غيرهم ، ولا يتكلمون ، وتلك حال المنافقين يستترون ولا يتكلمون ، وبذلك تتحقق فى غيرهم شروط اقامة الحد ، ولا تتحقق فيهم ، والله أعلم ٠

والقذف الرمى بالزنى ، سواء أكان رميا للرجل أو المرأة ٠

حد اللعان

٥٠١ ـــ واللعان نزل عقب بيان حد القذف وقبل حديث الأفك ، وحد القذف سببه رمى الرجل أو المرأة بالزنى اذا لم يكن بينهما عقـد زواج ، أى يكون المقذوف ليس زوجا للقاذف ٠

أما اللعان فانه يكون عندما يرمى الزوج زوجته ، واللعـان أن يحلف الزوج الرامى أربع مرات أنه صادق فيما يرمى به زوجته من الزنى أو نفى الولد منه ، والخامسة أن لعنة الله تعالى عليه ان كان من الكاذبين ، فالحلف تضمن سـلبا وايجابا ، والايجاب كان بالحلف على وقوعه ، والسلب كان بالحلف باستحقاق لعنة الله ان كان كاذبا ٠

وقد ثبت بقوله تعالى بعد آية حد القذف : « **والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شـهداء الا أنفسهم ، فشـهادة أحـدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصـادقين ، والخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ، ويدرأ عنها**

العذاب أن تشهد أربع شهادات انه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين » .

وكان اللعان اذا كانت الزوجية قائمة وقت الرمى بالزنى بأن تكون قائمة حقيقة ، أو حكما بأن تكون فى عدة الطلاق الرجعى .

واختص رمى الزوج لزوجته بألا تكون شهادة أربعة ، لأنه لا سبيل لأن يحضر أربعة يشهدون واقعة زنى زوجته ، ولأن الغيظ الذى يكون عليه الزوج لابد أن يطفأ ولو بالقول فى حضرة الحاكم .

ولقد جاء رجل الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : يا رسـول الله ، ان الرجل يجد الرجل مع أهله ، وان قتله قتلتموه ، وان تكلم ضربتموه ، وان سكت ، سكت على غيظ ، اللهم بين ، فنزلت آية اللعان مبينة كاشفة .

وانه اذا تم اللعان فرق بين الزوجين ، فرقة أبدية عند جمهور الفقهاء ، وأجاز أبو حنيفة العودة اليها بعقد جديد ومهر جديد اذا كذب نفسه .

وقد قال بعض الناس فى أيامنا هذه هل يطبق حد اللعان اذا رمت المرأة زوجها بالزنى ، ولم يكن عندها شهداء أربعة .

ونقول فى الجواب عن ذلك ان اللعان ورد بالنص فى حال ما اذا رمى الزوج زوجته ، وكان تفصيله فى الحلف أربعة وهى ايجابية ، وواحد سلبى ، أما المرأة ، فكان اربعة سلبية وواحد ايجابى .

ولا يمكن ثبوت الحدود الا بالنص ، اذ انها تدرأ بالشبهات ، فان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : **« ادرءوا الحدود بالشبهات مااستطعتم »** .

ولا يمكن ان نثبته بالقياس ، لأن علة القياس غير ثابتة بقدر واحد فى المقيس والمقيس عليه ، اذ أن المرأة وعاء النسـل للرجل ، فمن حقه أن ينفى نسب الولد اذا كان من غيره ، ولأن زنى المرأة اشد خطرا على الأنساب من زنى الرجل ، فليسا مشتركين فى علة التخفيف من القذف الى اللعان ، ولأن المـرأة فى بيت الرجل ، فالحكم منه بالزنى عليها قد يكون من غير حضـور شهداء ، يشهدون .

أما الرجل فالزنى منه فى أكثر الأحوال يكون خارج المنزل ، فعلمها به ، اما أن يكون من غير بينة ، بل بالحدس والتخمين أو باخبار الناس من غير

تعيين للمخبرين ، وذلك هو الغالب ، واما أن يكون بمخبرين معينين ، وفى هذه الحال تثبت الرمى بالزنى ، ويكون حينئذ حد القذف ، وما يترتب عليه من عقوبات مادية وتبعية والله سبحانه وتعالى هو العليم بذات الصدور ٠

حد الزنى

٥٠٢ ـــ الآيات تتلى واليك اية حد الزنى ، وآية حد القذف ، وآيات الافك ، وهـذا التوالى الكافى ينبىء عن أن يكون النزول فى وقت واحـد أو متقارب ، ومناسبة واحدة ٠

ونشير فى هذا المقام الى أن الزنى وردت فيه آيات يبين بعضها بعضا ،

اولها : قوله تعالى : « **واللاتى ياتين الفاحشة من نسـائكم فاستشهدوا عليهن اربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت ، أو يجعل الله لهن سـبيلا ، واللـذان ياتيانها منكم فآذوهما فان تابا واصـلحا فاعرضوا عنهما ان الله كان توابا رحيما** » ٠

فهاتان الآيتان تفيدان أن ثمة عقوبة تخص المرأة ، وأخرى تعم الرجـل والمرأة ، فأما التى تخص المرأة ، فامساكها فى البيوت حتى تموت أو يجعل الله تعالى لها سبيلا بالزواج ، كما هو الظاهر الواضح ٠

وأما التى تعم الرجل والمرأة ، فهو الايذاء ، وقد جاءت السنة بعقـوبة للرجل تقابل عقـوبة المرأة التى تخصـها ، وهو التغريب سنة ، وهذا يقـابل الامساك فى البيوت ٠

والايذاء لهما تبينته اية النور ، ولم تكن ناسخة ، كما جـاء على اقـلام كثيرين من الكتـاب ، لأن النسـخ لا يصـار اليه الا اذا تعـذر التوفيق بين النصين ، والجمع هنا ممكن ، وهو واجب ، لأن كل آية تتمم الأخرى أو تبينها ، كما فى الآيات الواردة فى عقوبة الزنى ٠

والايذاء المبين فى سـورة النـور هو قوله تعالى : « **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تاخذكم بهما رافة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليـوم الآخر ، وليشـهد عـذابهما طائفة من المؤمنين ، الزانى لا ينكح الا زانية او مشركة ، والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك ، وحـرم ذلك على المؤمنين** » ٠

وجاءت بعد ذلك آيات حد القذف ، ثم آيات اللعان ثم حديث الافك والبهتان الذى يصور جريمة الرمى بالزنى ، وأنها تشيع الفاحشة فى الدين ، وتفسد الجماعة ، وتجعلها تعيش فى مجتمع معتم بالرذيلة ، والاستهانة بها ٠

ويجب التنبيه هنا الى أمرين — أحدهما — أننا لا نقول جازمين ان هذه الآيات المتعلقة بهذه الحدود ، قد نزلت كلها عقب غزوة بنى المصطلق أو فى أثنائها ، أو عند حديث الافك ، والذى يغلب علينا أن حد القذف والزنى قد نزل قبلها بقليل أو بكثير كما أشرنا ، ولذلك طبق حد القذف على الذين ارتكبوا ذلك الاثم ، ولا يقال انه قد طبقت عليهم عقوبة ، لم تكن ثابتة وقت ارتكابهم ما حقت عليهم بسببها ، وان العقوبات تطبق على الحوادث اللاحقة ولا تطبق على الحوادث السابقة ، كما يقرر علماء القانون الوضعى ، وان كان فى ذلك القول نظر يوجب تمحيصه ٠

التنبيه الثانى : أن العقوبات فى الاسلام تسير سيرا ضروريا مع منازل المرتكبين ، فتكبر العقوبة مع كبر المجرم ، وتصغر مع صغره ، لأن الجريمة مهانة ، والمهانة تهون على الصغير ، لأن نفسه مهينة فى نظره ، والمهانة من ذى المنزلة أمر كبير ٠

ولذلك جعل الاسلام العقوبة المقدرة على العبد نصفها اذا وقعت الجريمة من الحر ، وقد قال تعالى فى شأن الاماء ، **فاذا احصن ، فان اتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب** ، فاذا كانت الحرة اذا زنت تجلد مائة ، فانه اذا زنت الأمة تجلد خمسين ٠

وكذلك الأمر بالنسبة للعبد ، وكذلك الأمر بالنسبة لكل الحدود ، لا فرق بين حد وحد ، وكل ذلك فى العقوبات القابلة للتنصيف ٠

ولقد أجمع الفقهاء على أنه يجب تخفيف ما على العبد بعد تنصيفه ، فيكون السوط الذى يجلد به العبد أخف من سوط الحر ٠

الحديبية

٥٠٣ — انتشر الاسلام فى الصحراء العربية ، تبعه من تبعه ، وعلم بأمره الكثيرون ، وكان من الأعراب مؤمنون كما كان منهم مسلمون ، أعلنوا اسلامهم ، وان لم تؤمن قلوبهم ، وكان منهم من استمر على شركه ، ولكن صار فى المسلمين قوة ولهم هيبة تجعل الذين بقوا على شركهم ينظرون الى الدعوة للتوحيد ، والايمان بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم على أنها ذات

مكانة جعلتهم يفكرون ويقدرون ، ولا يكتفـون بالرد بادى الرأى ، والانكار المطلق من غير تفكير ولا تدبير ٠

والقول الجملى أن الريب دخل قلوبهم من ناحية عبادة الأوثان ، وهم يعلمون الله تعالى بذاته وصفاته ، ولا شك أن ريبهم فى أوثانهم هو الطـريق لأن يدخلوا فى دين الفطرة مؤمنين آمنين ، صارت الدعـوة الاسلامية تمـلأ الآفاق ، ولم يعد أحد من الأعراب أو من لف لفهم يفـكر فى غـزو المدينة فهى محروسة بحراسة الله تعالى ، مصونة بكلاءة الله تعالى ٠

فاذا كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد أمن غزو الأعراب ، او ان يدخلوا فى أحلاف مع أعدائه ، فقد آن له ان يتجه الى قريش الذين يناصبونه العداوة ، لا ليقاتلهم ، فهو لا يقاتل الا دفاعا ، كما رأينا فى سراياه وغزواته السابقة ٠

ولكن قريشا تعاديه والحرم المكى الشريف تحت سلطانها ، فلابد أن يفرغ من عداوتها ، تمكينا للدعوة ، وتعبيدا للسبيل الى الحج ، الذى هو نسك من نسك الاسلام ، ولأنه صـلى الله تعـالى عليه وسلم يريد التفرغ لليهود الذين تجمعوا فى خيبر ، وهم وحدهم الذين يريدون الانقضاض على المدينة ، زاعمين انها ديارهم أخرجهم منها ، وقتل من قتل منهم ٠

فكان لابد أن يعرف أمر قريش ، وأن يعرف أهم يسهلون له أداء فريضة الحج ، بقية ديانة ابراهيم فى أرض العرب ، أم أنهم يقفون فى سبيله كما وقفوا دائما لابد أن يقرن النية بالعمل ، فذهب ليحج ، وكانت موقعة الحديبية التى سماها الله تعالى فتحا مبينا ، لأنها أزالت الحواجز النفسية التى كانت تحاجز بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وبين قريش ، والتقى بهم الأمين الحبيب الذى عرفوه فى صباه ، وشبابه ، وزالت المحاجزات بسبب الخـلاف والنفور ، والحرب ٠

غزوة الحديبية :

٥٠٤ ـــ فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة النبوية ، كما تطابقت كل الروايات ، وهى من أشهر الحج اعتزم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسـلم ومن معه من أصحابه الحج ، وكان معه سبعمائة ، ولكن قال جابر بن عبد الله ، كان معه أربع عشرة مائة أى نحو ١٤٠٠ وهذا معقول ، فقد كان جيشـه صلى الله تعالى عليه وسلم مرهبا لقريش ، وما كان يرهبها ما دون الألف ، ولقد ذكر

ذلك العدد ، وهو ١٤٠٠ (أربعمائة وألف) البخارى وغيره ، ورقم السبعمائة لابن اسحاق ·

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهم لا يريدون حـربا ، بل يريدون حجا جامعا ، ولكنه ما ان وصل الى عسفان حتى لقيـة بشر بن سفيان الكعبى ، ويظهر أن قريشا قد علمت أو ظنت خروج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهى الحذرة المتحفزة ·

قال بشر بن سـفيان : يارسـول الله ، هـذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور · وقد نزلوا بذى طوى ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدا ، وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموا الى كراع النميم ·

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الرحيم بقومه راجيا الاسلام فيهم ، وان حاربوه ، ياويح قريش قد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خـلوا بينى وبين سائر العرب ، فان أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وان أظهرنى الله تعالى عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين ، وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش ، فوالله لا أزال أجاهد ، على هذا الذى بعثنى الله به ، حتى يظهره ، أو تنفرد هذه السالفة ·

بعد هذا لم يرد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يلقى مقاتليهم ، حتى لا يسبق السيف الرأى ، وهو يريد أن يحج ، ولا يريد أن يرغمهم ، بل يريدهم مختارين ، لأن الاختيـار يؤلف ، والقتـال ينفـر ، والاجبار بالسيف يرمض النفس ، ويكلمها ، ولا يريد عليه السـلام كلما ، بل يريد شـفاء للقـلوب من غيظها ·

ندب رجلا يخرج بالمسلمين الى طريق غير طريقهم فسار فى طريق وعث ، حتى وصل ثنية المراد مهبط الحديبية من أسفل مكة ·

ولما رأت خيل قريش كروا راجعين ليكونوا بمكة المكرمة والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالجيش الى ثنية المراد · بركت ناقته ، وكأن الله تعالى قـد اختار له هذا المكان ، فلما بركت الناقة قال النـاس خلأت فقال عليه السـلام « (ما خـلأت) وما هو لهـا بخـلق ، ولكن حبسـها حابس الفيـل عن مكة ، لا تدعونى قريش اليوم الى خطة يسألونى فيها صلة الرحم الا أعطيتهم اياها » قال ذلك لأنه جاء وهو الهادى الداعى الى الحق ليقرب نفوسهم بعـد الحرب التى شنوها ، ومكنه الله تعالى منهم ·

قال لجيشه انزلوا ، فقالوا ما بالوادى مـاء ، ولم يكن به ماء ، ولكن قلب مرطومة ، فأعطى النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم سهمه رجـلا مـن رجاله ، فنزل بـه فى قليب من تلك القلب وغرز فيـه السـهم ، فجاس النبى للرواء حتى شرب الناس ٠

المراسلة بين الفريقين :

٥٠٥ ـــ كان مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم جيش قـوى ، ولم تكن مكة على استعداد للحرب ، ولو أراد أن يدكها بجيشه دكا لفعل ، ولكنـه اتى للحج ، وليطفىء حـربا ، ويبر رحمـا ، ويزيل نفـرة ، وليذهب بوحشة الحروب التى خلفتها ٠

ولذلك أعلن المسالمة وارادة الحج من غير أن يقهرهم أو يذلهم ٠

جاء اليه بديل بن ورقاء مع رجال من خزاعة فكلموه صلى الله تعـالى عليه وسلم ، وسالوه ما الذى جاء به ، فأخبرهم رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم انه ما جاء يريد حربا ، وانما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته ٠ وقال ما قاله من قبل لغيره ٠

رجعوا الى قريش ، فقالوا لهم : يا معشر قريش ، انكم تعجلون على محمد وان محمدا لم يأت لقتال ، انما جـاء زائرا لهذا البيت ، فاتهموهم وجابهـوهم وقـالوا وان جـاء لا يريد قتالا ، فوالله لا يدخلهـا علينـا عنـوة ولا تحدث بذلك العرب ، ولكنهم مع هذه العنجهية لم يزيلوا ما بينهم وبين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأرسلوا له مكرز بن حفص بن الأخيف أخا بنى عامـر ابن لؤى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لما رآه مقبلا ، هذا رجل غادر ، وقد كلمه رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم بأنه ما جاء للقتال ، ولكن لزيارة البيت ٠

ومع أن قريشا لا تريد حتى زيارة البيت أرسلت بحليس بن علقمة ، وكان يومئذ سيد الأحباش الذى كانوا يعينونهم فى القتـال فلما رآه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال عليه السلام : انه من قوم يتألهون ـ أى يذعنون ـ لظاهر العبادة) فابعثـوا الهدى فى وجهـه حتى يراه ، فلما رأى بسيل عليـه من عرض الوادى من قلائد أشعرت بأنه هدى للحج ، قد أكل أوباره من طـول الحبس عن محله ٠

اكتفى حليس بالنظر الى الهدى عن الحـادثة ، فرجع الى قريش ولم يصل الى رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسـلم ، اعظاما لمـا رأى حديثهم بما رأى فقالوا له اجلس فانما أنت أعرابى لا علم لك ٠

غضب الحليس عند ذلك ، وقال :

يا معشر قريش ، والله ما على هذا خالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، أقصد عن بيت الله تعالى من بعد ما جاء معظما له ، والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد ٠

فقالوا لحليس مه ، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به ٠

مازالوا طامعين فى أن يكون لهم من النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم ما يرضيهم من غير أن يقاتلوه ، فأرسلوا اليه عروة بن مسعود الثقفى ، وقد ذكر لقريش أنه منهم بمنزلة الولد ، لأن أمه كانت من بنت عبد شمس ، وقـد ذكر من جاء اليهم بعد لقائه النبى صلى الله تعـالى عليه وسـلم ، وأنهم لقوه بالتعنيف وسوء الحظ كما قالوا لبديل الخزاعى ، وكما قالوا للحليس سـيد الأحباش ، تبين أن صلتهم به وثيقة ، وأنه سيكون أمينا فى رسـالته مع رغبته فى نصرتهم ، وقال فى ذلك « قد سمعت بالذى نابكم ، فجمعت من أطاعنى من قومى ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسى ، قالوا صدقت ما أنت عندنا بمتهم ٠

خرج مسعود هذا ، وقد اطمأن الى ثقتهم به ، حتى أتى رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثم قال جمعت أوشاب الناس ، ثم جئت بهم الى بيضتك لنقضها (أى يكسرها لهم) ، انها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل (١) قد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا ، والله الكافى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا ٠

وكان أبو بكر رضى الله عنه خلف النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم ، فقال له أنحن ننكشف عنه ٠

ثم جعل يتناول لحية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يكلمه مما يدل على جرأته وصلفه وخشونته وعبثه ٠

---

(١) العوذ المطافيل ، النوق التى معها أولادها ، والعوذ جمع عائذ ، وهى هنا الناقة أى الناقة ذات الأطفال ٠

وكان المغيرة بن شعبة واقفا على رأس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بالحديد ، فكلما مد يده الى لحية النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقرع يده ، ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل الا تصل اليك اى تقطع فلا تصل اليك ٠

قال عروة الغليظ الجافى للمغيرة بن شعبة ما أفظك ، وما أغلظك ؟ فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

رد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بنحو مما كلم به من سبقوه الا تصل اليك — اى تقطع — فلا تصل اليك ٠

قام عروة بن مسعود الثقفى من عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد رأى ما يصنع به أصحابه ، وعاد الى قريش يقول لهم ٠

« يا معشر قريش ، انى قد جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وانى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط ، مثل محمد فى أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء ابدا فروا رأيكم ٠

كان كل الرسل الذين يرسلونهم يؤكدون لهم أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ما جاء لقتال ، بل جاء حاجا ، ويريد أن يصل الرحم التى قطعوها ٠

غدر وعفو :

٥٠٦ — غدر من جانب قريش ، وعفو من جانب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فانه فى الوقت الذى تأكد لهم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما جاء مقاتلا ، لأنه جاء محرما وساق الهدى ، ولأنه فى الشهر الحرام ، ولأنه جاء يطلب المودة ، ولا مودة فى قتال ، فى هذا الوقت فكرت قريش فى الاعتداء ، فانه روى عن ابن عباس أنهم بعثوا أربعين أو خمسين رجلا منهم ، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليصيبوا من أصحابه أحدا ٠

فأخذ أولئك أخذا ، وسيقوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانوا قد رموا المعسكر بالحجارة والنبل ، وكان للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يأخذهم رهائن أو نحو ذلك ، ولكن الرسول الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم قد عفا عنهم ٠

رسول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

٥٠٧ ـــ كانت الرسل يجيئون الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من قبلهم ، ومنهم من ينقل الأمر كما هو ، وربما كان منهم من يحرف فى القول ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يريد أن يوجه الخطاب اليهم برسول يرسله اليهم ، يتعرف أحوالهم وما تطويه نفوسهم ، وما يقدر عليه ويفعله من بعد ذلك يكون عن بينة ٠

اتجه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى الفاروق عمر بن الخطاب ، وهو نعم الرسول ، وقد كان فى الجاهلية يقوم ببعض أعمال السفارة بين القبائل ، وبين العرب وغيرهم ، ولكن عمر ببطشه وقوته على الشرك ، كان يعمل حساب لقائه معهم ، وقد يحبسونه ، فلا يؤدى حق السفارة التى اختاره لها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذا قال غير راد لأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن يعرض الأمر عليه ، قال : يارسول الله ، انى أخاف قريشا على نفسى ، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى ، وقد عرفت قريش عداواتى اياها ، وغلظتى عليها ولكن أدلك على رجل أعز بها منى ، عثمان بن عفان ، فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عثمان ابن عفان ، فبعثه الى أشراف قريش ، وأبى سفيان ، يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وانما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمته ٠

ذهب عثمان الى مكة المكرمة للقيام بهذه السفارة ، وهو الرجل الذى لا عنف فيه ، وهو أموى له عصبة من بنى أمية تمنعه وتجيره ٠

وقد التقى أول ما التقى بابان بن سعيد بن العاص الأموى حين دخل مكة المكرمة أو قبل أن يدخلها ، وهو فى طريقه اليها ، فلقيه لقاء المحبة بسبب الرحم ، ولأن عثمان رضى الله عنه كان رفيقا ودودا ، وحمله بين يديه ، وأجاره ، بأن جعله فى جواره ، وذلك يوجب عليه حمايته ، واستمر فى جواره حتى بلغ رسالة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

انطلق عثمان ، حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلغهم رسالة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وسلمها اليهم ، وأنه ما جاء للقتال ، وانما جاء زائرا للبيت معظما لحرمته ٠

وقد قبلوا كلامه من غير استنكار ولا رد ، ورحبوا بعثمان رضى الله عنه ، وعرضوا عليه أن يطوف بالبيت آمنا مطمئنا ٠

ولكن عثمان أبى أن يطوف ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم غير ممكن من الطواف ، فقال ذو النورين التقى عثمان : ما كنت لأطوف حتى يطوف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وبذلك أدى عثمان رسالة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنهم استبقوه ، لا ليؤذوه ، ولعل ذلك لاستشارته أو الاستفسار منه ، أو ودا ومحبة ، أو حفاوة وتكريما ٠

وعندئذ راجت الأقوال بين المسلمين بأن عثمان قتل ، وتبلبلت الأفكار واضطربت النفوس ووجدت عزمة القتال ، ولم يكن مرادا ابتداء ولا مقصودا ٠

بيعة الرضوان

٥٠٨ — خرج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه من المدينة يريدون الحج ولم يريدوا قتالا ، ولما غاب عثمان رضى الله عنه فى مكة المكرمة ، وشاعت القالة بأنه رضى الله تعالى عنه قد قتل ، ولم يكن ذلك بعيد الاحتمال ، أخذ أهبته للقتال لأن الاعتداء وقع بقتل الرسول ، وهو رسول سلام أمر منكر وقبيح فى ذاته ، وفوق ذلك يتضمن فى ذاته رفض للسلام واعتداء على من أرسله ، اذ الرسول لا يقتل ، ولكن يرد الى مأمنه ، سواء أرفضوا الرسالة أم قبلوها ٠

لابد اذن من الأهبة ، وما خرجوا للقتال ، فلابد من أخذ البيعة به ، لأن القتال برضا الجند ، وتلك سنة نبوية فى كل حروبه عليه الصلاة والسلام فانه يريد جندا مختارا يقدم بنفسه برضا واختيار ، محتسبا النية لله تعالى ٠ طالبا ما عند الله ٠

لذلك أخذ البيعة على من معه ، وكان يبايعهم على الموت ، وعلى ألا يفروا من الميدان ، لأن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم قرر القتال ، وقال : لا نبرح حتى نناجز القوم ، لأنهم بقتلهم ذا النورين عثمان يكونون قد رفضوا السلام ٠

كانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فبايع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كل من معه ، ولم يتخلف عن البيعة أحد الا واحد ، وما كان ليلتفت اليه ٠

ولقد رضى الله عن أولئك الذين قبلوا أن يغيروا ملابس الاحـرام ويلبسوا ملابس القتال ، وقال الله تعالى فيهم : « **لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما فى قلوبهم ، فانزل السكينة عليهم ، واثابهم فتحـا قريبا ، ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزا حكيما · وعـدكم الله مغانم كثيرة تأخـذونها ، فعجـل لكم هـذه ، وكف ايدى النـاس عنكم ، ولتـكون آية للمؤمنين ويهـديكم صراطا مسـتقيما ، واخـرى لم تقدروا عليها قد احاط الله بهـا ، وكان الله عـلى كل شىء قـديرا ، ولو قاتلكم الذين كفـروا لولوا الأدبار ، ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا ، سنة الله التى قد خلت من قبـل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وهو الذى كف ايديهم عنكم ، وايديكم عنهم ببطن مكة ، من بعد أن اظفركم عليهم ، وكان الله بما تعملون بصيرا** » ·

وهكذا رضى الله تعالى عن أهل بيعة الرضوان ، ووهبهم سبحانه وتعالى من بعد ذلك مغانم كثيرة ، وبين سبحانه وتعالى أن أول هذه الغنائم أن كف أيديهم عنكم ، فكانت هذه غنيمة عاجلة ، وكان هذا فتحا مبينا ، كما سـنذكر ذلك ان شاء الله تعالى ·

عقد صلح على هدنة

٥٠٩ ـــ اقتنعت قريش بأن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما جاء لقتال ، وقد عادت القضب الى أجفانها بعد أن عاد عثمان رضى الله عنـه ، واطمأنت القلوب ، وعادت رغبة السلام وعزمته الى محمد صلى الله تعـالى عليه وسلم ، وهو يريد خطة تمنع القتال ، وتحفظ الحرمات ·

بعثت قريش سهيل بن عمرو من بنى عامر بن لؤى ، وقالوا له ائت محمدا نصالحه ولا يكن فى صلحه ، الا أن يرجـع عنا عامه هذا ، فوالله لا تحـدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا ·

ولا شك أن هذا شرط ، (كما يقول علماء القانون) تعسفى وتحكمى ، ولكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الرءوف الرحيم ، كما وصفه رب العزة ، لم يمانع فى قبول ذلك ، وان ضج أصحابه بالرفض ، وهم لا يعلمون ما يعلم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما توجبه الرسالة ، وتحتمه الدعوة الى الاسلام ، فما كانت دعوة الاسلام رهبا ، بل كانت رغبا ، وما كانت بالسيف بل كانت بالموعظة الحسنة ·

اجتمع سهيل مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتم الاتفاق المبدئى على ما اشتمل عليه من التزامات ، خلاصتها :

اولا : لا يزور المسلمون البيت حاجين هذا العام ·

ثانيا : وضع الحرب عشر سنين ·

ثالثا : أن من خرج من مكة الى المدينة المنورة يرده النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن عاد الى مكة المكرمة مرتدا لا ترده مكة المكرمة الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ·

رابعا : من أراد أن يدخل فى عهد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم دخل والتزم بالتزامه ، ومن أراد أن يدخل مع قريش دخل ، والتزم بالتزامهم ·

لما تم الاتفاق الشفوى وقف عمر رضى الله عنه غضبان أسفا ، وقال لأبى بكر : « يا أبا بكر اليس حقا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : قال أبو بكر : بلى ، قال أولسنا بالمسلمين ، قال بلى · قال أوليسوا بالمشركين قال بلى · قال فعلام نعطى الدنية فى ديننا ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا عمر ، الزم عزراء أى أمره فانى أشهد أنه رسول الله ، فقال عمر وأنا أشهد أنه رسول الله ·

ثم أتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، الست رسول الله !! قال بلى ، قال أولسنا بالمسلمين !! قال بلى ، قال أوليسوا بالمشركين ، ! قال بلى · قال الفاروق : عـلام نعطى الدنية فى ديننا ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم الرفيق الأمين : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى ·

عندئذ سكن عمر رضى الله عنه ، وعلم أنه أمر الله تعالى ، فسكت عنه الغضب ، وكان ذا نفس لوامة ، فندم على ما كان منه من قول ، وكان يقول : مازلت أتصدق وأصوم وأصلى ، وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى ·

كتابة الصلح :

٥١٠ ــ تم الاتفاق على ما تشتمل عليه الوثيقة ، ثم دعا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، فقال : اكتب · بسم الله الرحمن الرحيم ، فاعترض سهيل بن عمرو ممثل المشركين عند كتابة

العهد ، وقال : لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اكتب باسمك اللهم ، فكتبها ، ثم قال اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو ، فاعترض أيضا سهيل ، وقال لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك · فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل ابن عمرو :

(أ) اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن القتال ، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه ·

(ب) وان بيننا عيبة مكفوفة أى (لا عداوة) وأنه لا اسلال ولا اغلال أى (لا سرقة ولا خيانة) ·

(جـ) وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ·

وقد شهد على العقد بعض المشركين ، ومن المسلمين أبو بكر وعمر ، وعلى بن أبى طالب ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ·

وبعد تمام العهد تواثبت خزاعة ، فقالوا نحن فى عقد محمد وعهده ، وتواثبت ، بنو بكر ، فقالوا نحن فى عقد قريش وعهدهم ·

هذا ما كتب فى العقد ، وكان هناك أمر عملى توجب قريش تنفيذه ، وقد رضيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم · فقد قالوا تتميما للعهد ، وانك ترجع عنا عامك هذا لا تدخل علينا مكة ، وأنه اذا كان عام قابل خرجنا عنك ، فدخلها بأصحابه ، فاقمت فيها ثلاثا ، ومعك سلاح الراكب : السيوف فى القرب لا تدخلها بغيرها ·

قبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وآثرها ، مع ما فيها من شطط المشركين ، لأنه يريد سلاما ، وأن معه جيشا لا قبل لقريش به ، وكان يستطيع أن يقاتل ، والحجة قائمة عليهم ، ولكنه النبى عليه الصلاة والسلام المسالم الذى يعظ بالحكمة ويدعو بالرفق ، وليس غليظ القلب ·

أبو جندل :

٥١١ — وبينما هم فى مجلس الصلح لم يفارقوه ، بل لم يتموا كتابته اذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو الذى يمثل المشركين عند كتابة العقد ، جاء

وهو يرسف فى الحديد ، فلما رأى سهيل أبا جندل ، قام اليه ، فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه ، ثم قال يا محمد قد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا ، وهذا أول من أقاضيك عليه ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم انا لم نقض الكتاب بعد ، قال سهيل فوالله اذن لم أصالحك على شىء ، وقد جاء فى البخارى مع هذا الكلام أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : فأجزه لى ، قال ما أنا بمجيزه لك ، قال بلى فافعل ، قال ما أنا بفاعل ، وقال بعض الحاضرين المشركين قد أجزناه لك ، ولكن سهيلا هو وليه ٠

قال أبو جندل أى معشر المسلمين أرد الى المشركين وقد جئت مسلما ألا ترون الى ما قد لقيت ، وقد جاء فى رواية ابن اسحاق أنه وثب عمر ابن الخطاب مع أبى جندل يمشى الى جانبه ، ويقول اصبر يا أبا جندل ، فانما هم المشركون ، وانما دم أحدهم دم كلب ، ويدنى قائم السيف منه ، ويقول عمر رجوت أن يأخذ السيف ، فيضرب به أباه ، فضن الرجل بأبيه ، وذهبت القضية ٠

والنبى يمضى فى عقده ، مع ما أثاره فى نفسه ونفوس المؤمنين مجىء أبى جندل يرسف فى قيوده ، وقال لأبى جندل اصبر واحتسب ، فان الله جاعل لك ، ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وانا لا نغدر بهم ٠

مع تلك الكلمات التى تلقى بروح الصبر والاطمئنان فى قلب أبى جندل كانت الثائرة تغل فى قلوب المسلمين ، ولكن لا يتكلمون احتراما لمقام العهد ، ولأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال انه لا يخالف أمر ربه ، ولكن عمر الفاروق ثار بالقول مرة أخرى ، يقول : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ، قال : بلى قال فلم نعطى الدنية فى ديننا اذن ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : أعطيها وهو ناصرى ٠

قال عمر : أولست كنت تحدثنا أننا سنأتى البيت فنطوف به ، قال : بلى : أفأخبرتك أنا نأتيه هذا العام فانك آتيه ومطوف به ، وهذه رواية البخارى ، وقد جمعنا بينها وبين رواية ابن اسحاق ، فقدرنا أن عمر قالها مرتين وهو مظهر غضب المؤمنين مع طاعتهم ورضاهم بما حكم صلى الله تعالى عليه وسلم استجابة لأمر ربه ٠

التحلل من الاحرام :

٥١٢ ـــ كان لابد أن يتحلل المسلمون من احرامهم ، على أن يؤدوا عمرة فى عام آخر ، وذلك بأن يقصروا شعرهم أو يحلقوه ، وقد دعاهم النبى

صلى الله تعالى عليه وسلم أن يحلقوا رءوسهم وينحروا ، وابتدأ هو فحلق ، وحلقوا وقصروا من بعده ، وهذه رواية ابن اسحاق بسنده ٠

ولكن روى فى البخاري أنه قال لأصحابه رضى الله عنهم لأنهم جميعا أهل بيعة الرضوان ، قال لهم قوموا فانحروا ثم احلقوا ، فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات ٠

فلما لم يقم منهم دخل على أم سلمة ، وكانت معه فى هذه الغزوة فذكر مالقى من الناس ، فقالت أم سلمة بعاطفة المحبة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والعاطفة الشريفة تنطق بالحق أحيانا قالت أم سلمة : يانبى الله ، أتحب ذلك ، اخرج ، ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة ، حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك ، فيحلقك ، فخرج ، فلم يكلم أحدا منهم ، حتى فعل ذلك ، ثم نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه ٠

فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما ، لعصيانهم ابتداء ، وهذه رواية البخارى ، وقد كان فيها خبر الحلق وخبر النحر معا ، وقصة النبى عليه الصلاة والسلام مع أم سلمة رضى الله عنها ، وان هذا التفصيل زاد به البخارى عن ابن اسحاق ، وزيادة الثقة مقبولة فى ذاتها ٠

احكام ثبتت فى الحديبية

٥١٣ ـــ بعد صلح الحديبية جاء نسوة الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مؤمنات مهاجرات ، ولم يردهن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنهن لم يشملهن العهد ، الذى يوجب رد من يجىء مسلما من غير ولى أمره ، وفى هذا جاء النص الذى يحرم بقاء المسلمة فى عصمة كافر سواء أكان كتابيا أم كان من المشركين ، ولذا قال الله سبحانه وتعالى : « **يايها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ، فامتحنوهن الله اعلم بايمانهن ، فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار ، لا هن حل لهم ، ولاهم يحلون لهن ، وآتوهم ما انفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن اذا آتيتموهن أجورهن ، ولا تمسكوا بعصم الكوافر ، واسالوا ما انفقتم وليسالوا ما انفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم ، والله عليم حكيم ، وان فاتكم شىء من ازواجكم الى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت ازواجهم مثل ما انفقوا واتقوا الله الذى انتم به مؤمنون** » ٠

وقد قال الحافظ ابن كثير ، جاءت نسوة مؤمنات ٠ فأنزل الله سبحانه وتعالى : « **يأيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ــ حتى بلغ ــ بعصم الكوافر** ٠٠ » فطلق عمر بن الخطاب امرأتين كانتا فى الشرك ، فتزوج احداهما معاوية بن أبى سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية ، ثم رجع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة المنورة ٠

قال ذلك ابن كثير فى سرد ما كان فى الحديبية ، ولذلك قلنا ان تحريم زواج المسلمة بغير المسلم ، وزواج المسلم بالمشركة جاء فى الحديبية بعد امضاء الصلح ٠

وهذه الآية تدل على ثلاثة أمور :

أولها ــ أن المسلمة لا تجوز للكافر سواء أكان كتابيا أم كان مشركا ، والكتابى كافر لا كما أوهمت كتابة المحدثين ممن لا يمحصون الحقائق ، ويقولون ما يقولون مجاملة ، أو موادة للنصارى الذين لا يوادون المسلمين فالنصرانى كافر بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم وبما نزل على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبالوحدانية ، واليهودى كافر بالقرآن الكريم وبمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ووصف الله فى القرآن الكريم اليهود والنصارى بأوصاف الكفر فقال الله سبحانه وتعالى : « **لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة** » وقال الله سبحانه وتعالى : « **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين** » ٠

والذين يجيزون زواج المسلمة بغير المسلم قد خرجوا عن اطار الاسلام ، لأنهم أنكروا القرآن الكريم وأنكروا أمرا معروفا من الدين بالضرورة ، وأجمع عليه المسلمون ٠

وتدل ثانيا على أن المسلم لا يجوز أن يتزوج مشركة ، ومن كان عنده مشركة فليفارقها ، وقد فهم ذلك الامام عمر رضى الله تبارك وتعالى ففارق أمرأتين كانتا تحته ٠ وهما مشركتان ، وأخذ ذلك من النهى فى قوله تعالى : « **ولا تمسكوا بعصم الكوافر** » أى لا تتمسكوا بزواج الكافرين ان كان بينكم وبينهن زواج ، لأن الكوافر جمع كافرة ، لا جمع كافر ، اذ لا يجمع وصف العاقل الذى يكون على وزن فاعل على فواعل ، ولكن تجمع فاعلة على فواعل ، كفاطمة وفواطم ، وقافلة وقوافل ، وأريد المشركات ، لأنه الذى يتفق مع اباحة الكتابيات بقوله تعالى : « **والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم** » ٠

وتدل ثالثا ـ على أن العدالة توجب عند فسخ الزواج بهـذا الحـكم الشرعى ، أن يـرد الى الأزواج المشركين ما أنفقـوا عـلى أزواجهن اللائى انفسخ زواجهن بالاسلام ، فيرد اليهم الصداق ، لأن الفسخ كان بحكم الاسلام يعـد من قبل الزوجة ٠

وفى مقابل ذلك من ينفسخ زواجها من المشركات بحكم اسلام أزواجهم عليهم أن يردوا الى المؤمنين ما انفقوا من أموال ، فى هذه الزيجة ، وذلك لأن امتناعهن عن الدخول فى الاسلام ، وقد دخل الزوج فى الاسـلام يعـد تفويتا لحقه فوجب التعويض عما انفق ، لأن سبب الفرقة من جانبها ٠

وان المسلمين يستجيبون لحكم الاسـلام ، فيردون ما وجب من اعطاء ما انفق هؤلاء ، لأنه مما يؤدى اليه عقد المسالمة وما تؤدى اليه العـدالة التى هى خاصة الاسلام مع العدو والولى على سواء ، لقوله تعالى : « **ولا يجرمنـكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى** » ٠

ولكن لا يضـمن اهل الايمـان أن يؤدى المشركون ما يجب عليهم اذا انفسـخ الزواج بين المشركة والمسـلم ، ولذلك فـرض القـرآن الكريم انهم لا يدفعون ، والحكم فى هذه الحال أن يؤخذ مما يجب اعطاؤه للمشركين ممـا انفقوا ، ويسدد للمؤمنين الذين استحقوا ما أنفقوا ، ولم يؤد اليهم حقهم ٠

ويفهم من أن بيت مال المؤمنين هو الـذى يؤدى ما أنفق المشركون فى الزيجة التى فسخت بحكم اسلام الزوج ، لأن ذلك تنفيذ لحـكم شرعى عام ، ولأنه ما يوجبه روح العهد الذى عقد فى الحديبية ٠

وان المشركين يجب عليهم مجتمعين أن يـؤدى للمؤمنين ما انفقـوا فى الزواج الذى فسخ للاصرار على الشرك ، فاذا لم يؤد أخـذ حق المؤمن مـن مجموع ما كان يجب على المؤمنين ، هذا تفسير قوله تعالى » : « **وان فاتكم شىء من ازواجكم الى الكفار فعاقبتم ، فآتوا الذين ذهبت ازواجهم مثل ما انفقوا** » ، وقد أخـذنا المعنى فى تفسير هذه الآية من تفسـير الحافظ ابن كثير لهـذه الآيـات ٠

وان هذا الحكم يفيد بطريق الاشارة الى أن سبب التفريق ان كان من جانب الزوجة يجب عليها أن ترد ما أنفق الزوج بالمعروف ، وتقدير المعروف للقاضى ، كما كان تقدير ذلك فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم لأمر المؤمنين ، وبمقتضى تلك الاشارة : اذا أسلم زوج من لا دين لهـا ، ولم ترض

الدخول فى دين كتابى او الاسلام ، فانه يجب عليها أن ترد ما أنفق زوجها ، أو ما خسر بسبب امتناعها عن الدخول فى دين سماوى ٠

تنبيهات :

٥١٤ ـــ الأول : أن هذه الأحكام الفقهية أخذت من نص الآية ، وتفسيرها الذى يعد من التفسير بالآثار وهو تفسير الحافظ ابن كثير ، ولم نرجع الى كتب الفقه التى اختلفت فيها ، ولا نقول ان هذه الأحكام منسوخة فانا لانعلم لها ناسخا ولأنا نقول ان القرآن الكريم ليس فيه منسوخ وخصوصا فى الأحكام الفقهية ٠

الثانى : أن اكثر المحدثين ذكر أن هذه الآيات نزلت والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يغادر الحديبية ، فقد قال أبو ثور : أنزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ وهو بأسفل الحديبية حين صالحهم على أنه من أتاه منهم رده اليهم ، فلما جاءه النساء نزلت هذه الآية ، وأمره سبحانه وتعالى أن يرد الصداق الى أزواجهن ، وحكم على المشركين اذا جاءتهم امرأة من المسلمين (أى كانت تحت مسلم) وبقيت على شركها أن يردوا الصداق الى أزواجهن ٠

التنبيه الثالث : انه لم يكن ذلك الحكم هو الوحيد الذى كان فى غزوة الحديبية ، وان كان ثبوت هذا الحكم بالنفى ، بل هناك أحكام اخرى ثبتت بعمل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد كانت ثمة أحكام فقهية كثيرة ثبتت من عمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، قد عقد لها ابن القيم فى كتابه « زاد المعاد فى هدى خير العباد » فصلا قائما بذاته فلنتبعه فى ذلك ٠

احكام فقهية اخرى :

٥١٥ ـــ نشير هنا الى بعض ما ذكره ابن القيم ٠

(أ) منها أن الاحرام بالعمرة فى اشهر الحج يجوز ويصح ، ويلزم الاستمرار فيه ، وأن الاحرام بالعمرة وان كان يجوز من غير مواقيت الاحرام ، وهى الأماكن التى خصها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأن المسافر عليه أن يحرم بالحج قبل اجتيازها ، غير أن الاحرام من الميقات للعمرة أفضل ، فانه صلى الله تعالى عليه وسلم أحرم بها من ذى الحليفة ، كما أحرم بالحج ٠

(ب) ومنها أن اشعار الهدى سنة وأنه لا مثلة فيه ، وذلك بأن يحدث فى جسمه عند سوقه ما يدل على أنه مخصص للذبح فى مكة المكرمة ، وبالتالى فان سوق الهدى للعمرة سنة فى ذاته عند الاحرام ، وان النبى صلى الله عليه وسلم ساق الهدى وأشعره ، وكان فى جملة ما ساق من هدى جمل لأبى جهل كان من أنفال بدر ، وان ذلك كان مغايظة للمشركين ، وهذا يدل على أن غيظ المشركين ليفل من حدة سلطانهم ، ولاثبات أن كلمة الله هى العليا ، وأن العاقبة للمتقين ، وأنه سبحانه وتعالى · قال : « **ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ، ان الله لا يضيع أجر المحسنين** » ومنها جواز الاستعانة بالمخلص من غير المسلمين اذا كان فى الاستعانة به فائدة ولا ريب فيه ، ولا مظنة لأن يترتب على الاستعانة ايذاء ، من أى نوع كان ، والا يمنع سدا للذريعة وذلك لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم استعان بعيينه الخزاعى ، وكان كافرا ، وجعله عينا على المشركين وكان اقرب الى أن يعرف أحوالهم ، لاختلاطه بهم ، والمصلحة فى ذلك ، ولا ضرر · والحق فى هذه القضية أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يستعن به ابتداء ، بل انه هو الذى قدم معلوماته وان خزاعة مسلمهم ، وكافرهم كانوا على مودة بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم · ولذلك عندما تم العهد بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وبين قريش دخلوا فى عهده ولم يدخلوا فى عهد قريش كبنى بكر ، ورد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم للمشركين عهدهم عندما عاونوا بنى بكر على خزاعة واستعد لفتح مكة المكرمة ·

وذكر ابن القيم أن من الأحكام الفقهية التى ظهرت فى الحديبية استحباب مشورة الامام رعيته وجيشه استخراجا لوجه الرأى وأمنا لطاعتهم ، وتعرفا لمصلحة يختص بها بعضهم دون بعض ، واستجابة لأمر الله فى قوله تعالى : « **وشاورهم فى الأمر** » وقد مدح سبحانه وتعالى عباده المؤمنين ، بقوله تعالى : « **وأمرهم شورى بينهم** » ·

ونحن نرى أن النصوص توجب أن يستشير الامام الرعية فى ادارة شئونهم ، وقد نرى استحباب ذلك فى القتال ، لا فى شئون الكافة ·

ومنها أن المشركين والفجار والفسقة وأهل البدع اذا طلبوا أمرا يعظمون به حرمة من حرمات الله تعالى ، أو أمرا هو حق فى ذاته أجيبوا اليه ، فكل من يطلب أمرا هو حق فى ذاته ، أو محبوب لا اثم فيه ، أجيب الطلب ، ولو كان فاسقا مبتدعا ، أو باغيا على الحق ، أو مشركا ، الا أن يكون فى ذلك ما يؤدى الى التجرؤ على أهل الحق أو معاونة اثم لذات الاثم وان ذلك موقف

دقيق ، اذ التعرف على حق لا يجر الى باطل أمر دقيق لا يدركه الا أهل الايمان وأهل الادراك السليم ٠

ومنها أن الحرم ليس مقصورا على المسجد الذى هو مكان الطواف ؛ بل الحرم يشمل ذلك ، وما حول مكة المكرمة ، وأن كلمة الحرم تشمل كل ما حول مكة المكرمة ٠

ومنها أن المحصر بالحج أو العمرة وهو الذى يمنع من الوصول الى البيت الحرام ، وقد أحرم لزيارته معتمرا أو حاجا ينحر الهدى حيث أحصر ومنها أن المصالحة مع الكفار جائز ، ولو كان فيه ضيم ظاهر اذا ترتب على ذلك مصلحة للمسلمين ، والضيم ظاهر ، والعبرة بالنتيجة ، وان كان الضيم فى ذاته ضرر ، فانه يقدم بدفع أقل الضررين ، وان الصلح بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وكفار قريش فى هذا الوقت كان خيرا فى عواقبه ، وان لم يكن ظاهرا لكل المؤمنين أو لكثرتهم ٠

وهكذا كانت أعمال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تفيد أحكاما شرعية، سواء أكانت تتعلق بتدبير مصلحى ، أو عبادة مقررة ثابتة ٠

وانه اذا كان الأمر مصلحة ، وجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يبدى ما يراه مصلحة ، أو يعين على الواجب ، لأن ذلك من قبيل النصيحة فى الدين الذى تجب المبادرة بها ، فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم ، الدين النصيحة لله ولرسوله ، ولكتاب الله ، ولخاصة المسلمين وعامتهم ٠

ولذلك تقدمت السيدة أم المؤمنين أم سلمة تطلب الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يبادر هو بالعمل ، فاذا حلق ونحر تبعوه ، لأن العمل يؤثر فى الاتباع أكثر من القول ، ولم يجد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم غضاضة فى أن يتبع ما أشارت به غير متردد ، لأن الحق أحق أن يتبع ، ولأن الحق واجب الاتباع فى ذاته ، من غير نظر الى مكانة الداعى بالنسبة للمشير ، ولا الى مقامه بالنسبة لمقامه ، ولنتعلم أن هدى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن نتبع حيثما كان وممن يكون ، ولنجعل للمرأة الكريمة الطاهرة العاقلة مكانتها وحق التقدير والاعتبار ٠

كانت الحديبية فتحا

٥١٦ — عند قفول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة المكرمة الى المدينة المنورة بعد صلح الحديبية نزلت سورة الفتح ، فقد قال تعالى فى ذلك :

« انا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تاخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما » ٠

فسمى الله تعالى ذلك الصلح ، وما وفق الله تعالى النبى عليه الصلاة والسلام للقيام ، فتحا وليس دنية فى الدين كما خطر على عقول بعض المتقين من كبار المؤمنين ، وكان فتحا لأنه أنهى القتال بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وبين قريش ، وذلك فى ذاته فتح ، ولأنه فتح قلوبا كانت مغلقة وعقولا كانت عليها غشاوة حتى انه أحصى عدد المؤمنين قبل الحديبية فى مدى تسع عشرة سنة ، ومن أسلم فى سنتين بعد الحديبية ، فكان مثل الأول أو يزيد ، لذلك كله كانت الحديبية فتحا ، ولم تكن دنية ، وفوق ذلك كانت تمهيدا لدخول مكة المكرمة بالفتح الأعظم الذى لم يجر فيه دم ، ولم يكن قتال الا فى بعض المتمردين ، وكانوا قليلين ، وكان فتحا ، لأن المؤمنين استطاعوا تنفيذا لأحكام الصلح أن يدخلوا معتمرين ، ثم متحللين محلقين ومقصرين ٠

وغفران ذنب الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ليس على حقيقته معنى الغفران ، انما هو متضمن الرضا والقبول لكل مايفعله الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، سواء أكان فى الماضى أو الحاضر أو القابل ، فكل ما يفعله الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم مغفور ، وتسميته ذنبا من قبل المجاز ٠ فهو ليس الا خطأ لأن ما يعتب به عليه ، خطأ كما أخطأ فى الأسرى ، وكما كان يقع منه ، ليكون أسوة للناس ، فيقروا بأن الانسان اذا خضع لفكره وعقله ربما يخطىء ولو كان نبيا مرسلا ، ولو كان خاتم النبيين محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ، والصراط المستقيم الذى هداه الله تعالى هو طريق الدعوة فقد صار معبدا لا عوج فيه بعد هذا الفتح المبين وانه كان من الفتح المبين تضافر أهل الايمان بالبيعة ، فقد قال الله سبحانه وتعالى : **« ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ، يد الله فوق ايديهم ، فمن نكث ، فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه اجرا عظيما » ٠**

ولقد كان من الفتح المبين أن نقيت الجماعة الاسلام ممن لم تستقم قلوبهم وتكون خالصة للحق لا تبتغى سواه ، ولذلك لم يخرج مع النبى صلى الله عليه

وسلم فى الحديبية الا من أراد الله سبحانه وتعالى ، وأراد الحج ، لا المغـانم وما وراءها . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى فيهم فى سورة الفتح : « **سَيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتاخذوها ذرونا نتبعكم ، يريدون أن يبـدلوا كلام الله ، قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل ، فسيقول بل تحسدوننا بـل كانوا لا يفقهون الا قليلا** » .

ولقد أشار سبحانه وتعالى الى الذين يستقبلهم المسلمون من أولى البأس والشدة ، ولقد كان الذين خرجوا للاعتمار تعرضوا لاحتمال الحرب فتضافروا وبايعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على أن يبيعوا أنفسهم لله تعالى ، ولا يفروا وقال سبحانه وتعالى ما تلونا من قبل : « **لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما فى قلوبهم ، فانزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحا قريبا ، ومغانم كثيرة ياخذونها وكان الله عزيزا حكيما ، وعدكم الله مغانم كثيرة تاخذونها ، فعجـل لكم هـذه ، وكف أيـدى الناس عنكم ، ولتكون آيـة للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما** » .

وانه كانت الحديبية التى سماها الله تعالى الفتح المبين سبيلا لأن يتجـه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى اليهود وينفرد لهم ، ثم بعد ذلك يكون الاتجاه الى الرومان ، كما قال الله سبحانه وتعالى : « **ستدعون الى قوم أولى باس شديد ، تقاتلونهم أو يسلمون** » .

وأولئك هم الرومان ، والدخول الى أرض الشام .

وان الغاية توجب تحمل الوسائل ، ولو كانت قاسية على النفس ، وما كان للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتجه الى اليهود ، وخضد شوكتهم فى البلاد وقد اتخذوها للأذى والايقاع ولم ينفع عهد ولا ذمة ما كان أن يتجـه الى أولئك ، وشوكة قريش تجرح من ورائه ، فلابد أن يؤمن ظهره بعهد ، ولو كان فيه ما توهمه بعض المؤمنين غبنا فاحشا ، ولكنه الطريق المستقيم لتوجيه الدعوة الاسلامية الى مواطنها .

وان ذلك تصديق رؤيا النبى عليه الصلاة والسلام التى رآها ، بأنـه سيدخل المسجد الحرام ، ولكنها لا تتحقق واقعة الا فى عام قابل ، وكان ذلك الصلح ، فقد قال الله سبحانه وتعالى :

« **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شـاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين ، لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحا قريبا ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا** » .

وهكذا كان ذلك الصلح فتحا وطريقا للفتح ، ودخل به الناس فى دين الله أفواجا ، أفواجا ·

يقول ابن شهاب الزهرى التابعى بحر العلم كما قال الامام مالك ، قال فى الحديبية « فما فتح فى الاسلام فتح قبله كان أعظم منه ، انما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها ، وأمن الناس بعضهم بعضا ، والتقوا فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، فلم يتكلم أحد فى الاسلام ليقول شيئا ، الا دخل فيه ، ولقد دخل فى تلك السنين (أى التى كانت قبل فتح مكة المكرمة) قدر ما كان فى الاسلام قبل ذلك أو أكثر » ·

ونضيف ، وقضى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على نفوذ اليهود قضاء كاملا ، واتجه الى خارج الجزيرة العربية ينشر الاسلام فيها ·

تنفيذ الصلح

٥١٧ ـــ كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا كل الحرص على الوفاء بالعهد ، لأن الوفاء بالعهد فى ذاته قوة ، ولأن الله تعالى يقول : « **وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا** » ·

ولقد شك بعض المؤمنين فى وفاء المشركين فى عهدهم هذا ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفوا لهم ، واستعينوا الله تعالى عليهم ·

ولذلك اتجه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى الوفاء ·

ولقد كان بعض المؤمنين ينظر الى الأمر فى هذا الاتفاق غير مطمئنين الا طاعة الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فقد شق عليهم أمران :

أحدهما : الا يتمكنوا من دخول البيت الحرام وقد أحرموا ، ومعهم القوة التى يستطيعون أن يدخلوا بها وليس عند قريش القوة الكافية لردهم ، ولذلك تباطئوا فى الاستجابة للتحلل من الاحرام بالحلق أو التقصير ، على ما قصصنا من قبل ·

الأمر الثانى : الشطط فى شروط قريش ، وفى املاء العقد ، وأشد شطط وغبن أن من خرج مسلما لا يقبله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل يرده

الى وليه ، ومن عاد الى مكة المكرمة مرتدا لا يردونه ، فقد كان ظاهر الشرط أن فيه غبنا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ فيه عدم مساواة ، ولكن ان نظرنا الى الشطر الثانى وهو عدم رد من يخرج من الاسلام الى الشرك ، فانه عند التأمل لا نجد فيه ضررا على المسلمين ، فما حاجة الاسلام الى مرتد حائر ، فليذهب الى حيث شاء ، بدلا من أن يكون شوكة فى المسلمين ، وقد يرضى أن يبقى منافقا ، وينضم الى صفوف أهل النفاق ، فيكون عينا على المسلمين وعلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وأما بالنسبة للجزء الأول من الشرط ، وهو أن من خرج من مكة المكرمة مسلما يرد الى وليه ، فقد كان بلا شك شاقا فى ذاته ، وخصوصا عندما دخل عليهم أبو جندل يرسف فى قيوده ٠

وان هذا الجزء من الشرط وان كان شاقا فى مظهره صعب التحمل الا لمن كان قوى الايمان ، فان تطبيقه أدى فى نتائجه الى الضرر على المشركين ، ولم يضار به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنون ، حتى ان المشركين الذين كان الشرط من جانبهم ولمصلحتهم هم الذين طلبوا الغاءه ٠

ولنذكر تطبيقه كما أوضحت كتب السيرة وصحاح السنة ٠

كان أول من طبق عليه الشرط أبو بصير عتبة بن شيد بن جارية وكان ممن أسلم وحبس بمكة المكرمة ، وقد استطاع أن يخرج من محبسه ، وأراد الذهاب الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكتب اليه بعض المشركين يطلبون تسليمه بمقتضى الشرط وبعثوا رسولين يتسلمانه ، وهما رجل من بنى عامر ابن لؤى ومولى له ، فقدما على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعنده أبو بصير فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « يا أبا بصير ، انا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر وان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، قال يا رسول الله أتردنى الى المشركين يقتلوننى فى دينى ٠ قال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : « يا أبا بصير انطلق ، فان الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ٠

انطلق معهما ، واندمج معهما فى الحديث ، وأظهر الاستسلام ، حتى اطمأن اليه العامرى ، فقال يا أخا بنى عامر أصارم سيفك هذا قال نعم قال انظر ان شئت فاستله أبو بصير ، وأراد أن يختبر صرامته ثم علاه به حتى قتله ، فولى المولى مسرعا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو جالس فى المسجد ، فقال ان هذا الرجل قد رأى فزعا ، ثم قال له ويحك مالك ؟

قال ان صاحبكم قد قتل صاحبى ، وبينا هو يشرح حاله ، وكيف قتل العامرى طلع أبو بصير متوشحا بالسيف حتى وقف على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقال يا رسول الله قد وفيت ذمتك ، وأدى الله عنك عندما أسلمتنى ليد القوم ، وقد امتنعت بدينى أن أفتن أو يعبث بى ، قال النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم ويل أمه انه محش حرب ان كان معــه رجال ، وفى رواية البخارى انــه قال : ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد ٠

وقع فى نفسه أنه سيرد اليهم بعد أن قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وانه تفيد بلحنها أن له أن يعتمد على نفسه ، وهو قادر عــلى أن يعتمد ٠

خرج من حضرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسار حتى وصــل الى سيف البحر ، وقد علم المستضعفون بخبر أبى بصير ، وقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه محش حرب ان كان معه رجال ، فكل مستضعف يعمل على تخليص نفسه ويكون من رجال أبى بصير ، فانفلت أبو جندل الذى جاء الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يرسف فى قيوده ، ورده صلى الله تعالى عليه وسلم والتحق بأبى بصير ٠

وصار كل مستضعف لا يذهب الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنه سيرده بل يذهب الى رجال أبى بصير على سيف البحر ٠

وكونوا منهم عصابة تقطع طريق تجارة قريش ؛ فما كانوا يسمعون بعير خرجت لقريش الا تعرضوا لها ، يقتلون رجالها ، ويأخذون مالها ، فلم يكن من مصلحتهم التمسك بشرطهم ٠ بل انهم تركوا الأخذ بالشرط ، وأنهم اذ كانوا لا مأوى لهم الحق بأن يفعلوا بهم جزاء ما آذوه ، ولا حلف معهم الا الأذى الذى قدموه لهم ، وخوف الفتنة دفعهم لأن يقفوا ذلك الموقف منجاة لأنفسهم ٠

أرسلت قريش الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تناشده الرحمة الا آواهم ، وضمهم اليه ، ولا يردهم ٠ كان هذا الشرط الذى أزعج النفس المؤمنة مآله أن يكون خيرا للمؤمنين ، وهو شرط عليهم ، انها النبوة التى أدركت مالا يدركه عمر ، ولا غيره ، وانها الهام الله الذى جرى على لسان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « سيجعل للمستضعفين فرجا ومخرجا » ٠

وانه لما توسلت قريش الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى الغـاء العمل بهذا الشرط ، أرسل الى أبى بصير أن يجىء الى المدينة المنورة هو ومن معــه ، ليكونوا قوة للمؤمنين ، فكتب اليه بالمجىء الى المدينة المنورة ، ولكن الكتاب لم يصله الا وهو على فراش الموت ، فتوفى ولكن رجع أصحابه الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

هجرة المستضعفين :

٥١٨ — وبعد أن فتح لمن يسلم بدار الشرك الباب للذهاب الى المسلمين والغى ذلك الشرط كان يحث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الذين يسلمون الا يبقوا مستضعفين فى أرض الشرك ، بل عليهم أن يهاجروا وان ذلك مبدأ الاسلام أن يتجمع المسلمون ، ولا يستمروا متفرقين فى الأرض ٠

ومنع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من اقامة المسلم بين المشركين ما دامت عنده قدرة على الخروج من بين ظهرانيهم ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم لا تراءى نارهما ٠ وقال من حارب مع مشرك وسكن معه فهو مثله ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تخرج الشمس من مغربها ٠ وقال ستكون هجرة بعد هجره فخيار أهل الأرض ألزمهم بها ٠

وبذلك طلب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من كل مستضعف أن يهاجر الى حيث يتجمع المسلمون ما دام قادرا على ذلك ، لأنه بهجرته الى المسلمين يتحقق أمران ٠

أحدهما : انه يخرج من حال استضعاف ، وذلك بالخروج من ولاية الكفر أو الشرك الى حيث العزة والمنعة وولاية المؤمنين فهم أهل ولاية الله وولاية الحق ، وهى القوة وهى الأمن والقرار ٠ ولقد أوجب القرآن الكريم ذلك فقال : **« ان الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ٠ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ٠ وكان الله عفوا غفورا ٠ ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ٠ ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت ، فقد وقع أجره على الله ٠ وكان الله غفورا رحيما » ٠**

وان نصوص النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عامة ، ونص القرآن الكريم ملزم لا مناص من تنفيذه ٠

الأمر الثانى : أن فى الهجرة تجميع المسلمين ، وفى الجماعة قوة ليست فى الفرد ٠ وان ذلك امكن للوحدة ، وأحفظ لهيبة أهل الاسلام ٠

وانه قد يعترض على جعل الهجرة بالانتقال من أرض الاستضعاف الى

حيث القوة الاسلامية مبدأ دائما ومطلوبا مستمرا · قد يعترض على ذلك بقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « لا هجرة بعد الفتح » ·

ونقول فى الجواب ان الحديث مخصوص بالهجرة من مكة المكرمة الى المدينة المنورة ، أو بالهجرة من مكة المكرمة الى غيرها ، وأن الهجرة مطلوبة قبل الفتح ، لأن المسلمين فيها كانوا يفتتنون عن دينهم « وكانوا فى ذلة ، ولا يستطيعون القيام بشعائر دينهم ، فلما فتح الله تعالى على المسلمين مكة المكرمة ، وصارت فيها الأحكام الاسلامية وصارت ولاية من ولايات الاسلام ، لم يعد للهجرة سبب يوجبها ، بل انها أصبحت غير مطلوبة ، وربما تضر ولا تنفع لأنها لو استمرت لخلا البيت الحرام من سكان حوله يقومون بسدانته ، وهى أحب أرض الله الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والى ربه ، وهى التى جعلها أرضا مباركة ·

سرايا وبعوث

٥١٩ ــ كانت سنة ست من الهجرة ، خصبة بالدعوات الاسلامية وبث السرايا والبعوث لأجل تعرف الناس ، والدعوة الاسلامية ، وبيان حقائق الاسلام ·

وقد كان أبرز ما فيها غزوتان : غزوة بنى المصطلق على الرواية التى تقرر أنها كانت فى هذه السنة ، وغزوة الحديبية أو صلحها ، وكانت وحدها فتحا مبينا وتمهيدا للفتح الأكبر فى سنة ثمان من الهجرة ·

وكانت ثمة سرايا قبل الحديبية سنة ست ، لأنها كانت عقب غزوة الأحزاب للمدينة المنورة ، وقد رأى النبى عليه الصلاة والسلام ما رأى من قوة الاسلام برهانا وعقيدة ، وقوته مادية بحيث تبين أنه لا يغلب لأنه مؤيد من الله تعالى ، ففيها كان بعث أبى عبيدة عامر بن الجراح الى ذى القصة فى أربعين رجلا مشاة حتى أتوها فهربوا منه فى رءوس الجبال ، وأسر منهم رجلا حضر به لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ذلك فى ربيع من سنة ست ·

وفيها بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم زيد بن حارثة الى بنى سليم فدلتهم امرأة من مزينة على محلة من محال بنى سليم ، فأصابوا منها نعما وشاة وأسروا رجالا كان فيهم زوج هذه المرأة التى دلتهم واسمها حليمة فوهبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لها وأطلقهما ·

وفى سنة ست هذه قبل صلح الحديبية أخذت أموال لقريش ، وكان فيها أموال كانت مع العاص بن الربيع الذى كان زوجا لزينب بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأطلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير فداء على أن يعيد زينب لأبيها فبر بما وعد ٠

لما أخذ المال الذى كان معه ، وقتل من كان معه ، وفر هو الى المدينة المنورة ، فلما جاءها استجار بزينب بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأكرمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأجاز جوار زينب وأمر برد الناس ما أخذوا من العير ، فرد كل واحد ما أخذ من هذه العير ، حتى لم يفقد منها شيئا ، حمل أبو العاص بن الربيع المال الى مكة المكرمة ، ورده الى أهله ، ورد ما كان لهم من الودائع ، فلما تم ذلك أعلن اسلامه ، وخرج مهاجرا الى المدينة المنورة ٠

وان هذه الرواية التى رواها ابن اسحاق تدل على أن اسلامه كان سنة ست ، وكان قبل نزول آية : « **يأيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن** » ٠٠٠ الآيات الكريمات ٠

وهذه رواية الواقدى أيضا ، ولكن الحافظ ابن كثير يقول أن اسلامه كان سنة ثمان ، وأن اسلامه تأخر عن تحريم بقاء المسلمات أى زواج الكفار منهن ، وأنهم لا يحلون لهن ، وانى أميل الى رواية الواقدى ، ورواية ابن اسحاق ، وهى أكثر اتساقا مع الآية ٠

فى شعبان سنة ست أيضا كانت سرية عبد الرحمن بن عوف الى دومة الجندل يدعوهم الى الاسلام ، ولم يكن لقتال ، وقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ان هم أطاعوا فتزوج بنت ملكهم فأسلم القوم ، وتزوج عبد الرحمن بن عوف ، بنت ملكهم تماضر بنت الأصبع الكلبية ، وهى أم أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف وكانت هذه السرية فى شعبان ٠

وفى هذه السنة سنة ست أيضا أرسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فى مائة رجل الى حى من بنى أسد ابن بكر ، وذلك أنه بلغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه جمع لهم جمع يريدون به أن يمدوا يهود خيبر يعاونونهم على المسلمين ، وهذا يدل على أنهم كانوا يستعدون لحرب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبعث عليا اليهم ، فسار اليهم ليلا نهارا ، حتى أصاب منهم عينا لهم ، فأقر أنهم بعثوا الى خيبر ، وأنه هو الذى يعرض عليهم أن تعطى خيبر لهم تمر خيبر ٠

وبذلك علم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنهم يجمعون الجموع له ، ولذلك لم يكن غريبا أن يتجه اليهم بعد الحديبية ، لأنه تفرغ لهم ٠

سرية عكل وعرينة

٥٢٠ — يقول ابن كثير ان هذه سرية كانت فى سنة ست قبل الحديبية وقد نقلها عن الواقدى ، وقال كانت فى شوال سنة ست ، اى قبل الحديبية بشهر ، اذ الحديبية كانت فى ذى القعدة الذى ولى شوالا ٠

وقالوا ان السرية كانت بقيادة كرز بن جابر الفهرى الى العرنيين الذين قتلوا راعى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم واستاقوا النعم ، فبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى آثارهم كرز بن جابر فى عشرين فارسا فردوهم ، هذه قصة هذه السرية ، خرج ناس استولوا على ابل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقتلوا راعيها ، فبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هذه السرية ، فردت الابل ٠

وفى القصة أخبار نجد من الواجب أن نذكرها ، ونبين مقدار الاطمئنان فى الرواية ونسبتها الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

جاء فى البخارى ومسلم عن أبى قلابة عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه أنه قدم رهط من عكل ورعينة فأسلموا ، واجتووا المدينة المنورة فأتوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فذكروا ذلك ، فقال عليه الصلاة والسلام الحقوا بالابل فاشربوا من أبوالها وألبانها ، فذهبوا وكانوا فيها ماشاء الله تعالى ثم قتلوا الراعى وساقوا الابل ، فجاء الصريخ الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم ترتفع الشمس حتى أتى بهم ، فأمر بمسامير فأحميت فكواهم بها ، وقطع أيديهم وأرجلهم وألقاهم فى الحرة يستقون فلا يسقون حتى ماتوا ، وفى رواية عن أنس أنه قال : فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه من العطش ، وفى رواية للبخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمر فسمل أعينهم ٠

ولقد قال كمال الدين بن الهمام من كبار فقهاء الحنفية رواه جماعة المحدثين ٠

ولكن مهما تكن عدد المصادر التى روته ٠ فانه حديث آحاد ٠ وان أهل الخبرة فى علم الحديث يقولون ان رواته ثقات ، وان سنده متصل ، وانه

لا انكار فى سنده ، وان كان آحادا ، ولكنا ننظـر فى متنــه ، فان الحديث يضعف باحدى طريقين اما بضعف سنده ، أو بضعف متنه بأن يكون مخالفا للمقررات الشرعية ٠

وانا نرى أن متنه يخالف المبادىء التى قررها النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم لوجوه :

أولها : أن فيه مثلة ، بسمل الأعين ، وان المثلة منهى عنها ، وان قالوا ان المثلة لم يكن قد نهى عنها ، فاننا أولا نقرر أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يمثل بأحد من قتلى احد ، ولا من قتلى الخندق ، فـدل هذا على أنها كان منهيا عنها من قبل ٠ وان قيل ان الصحابة فعلوا معهم ذلك ، لأنهم ارتكبوا ما يوجب حدا ، واذا كان الحد ، فهو حد الحرابة الذى بينه الله تعالى بقوله : « **انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا** » ٠٠٠ الى آخر الآيات ٠ وليس فيها سمل الأعين ٠ ولا يقال ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يأمر به ، لأنه علمه فى الرواية ولم ينكر ٠

ثانيها : أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن القتل عطشا ، ولقد قالت الرواية انه تركهم يموتون عطشا ــ حتى انهم كانوا يكدمون الأرض من شدة العطش حتى ماتوا ، ولا يقال ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما أمر بذلك ، ولكن مفهوم هذه الرواية أنه علم ، ولم ينكر ٠

ثالثها : أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « اذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وان القتل قصاصا لا يبرر ذلك ، والنبى صلى الله تعـالى عليه وسلم لم يكن ليبيح ذلك فى الحرب على أنهم ربما يعتبرون مقاتلين ٠

والخلاصة أننا لا نرى أن ذلك الخبر تصح نسبته للنبى صلى الله تعـالى عليه وسلم ، لمخالفته للمقررات الاسلامية التى قررها النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم ، ولذلك لا نقول انه صحيح النسبة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

حـد الحرابة

٥٢١ ــ الفقهاء يسوقون قصة العرنيين وما نسب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبب فى حد الحرابة أو قطع الطريق ، ويرون أن ما نسب الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فعله ينطبق على ما نص الله تعالى فى كتابه من حد قطاع الطريق ، ولكن ذكرنا أن ما ينسب الى النبى صلى الله تعالى

عليه وسلم فعله ، لا ينطبق كله على ما فى حد الحرابة فليس فى نص القرآن الكريم سمل الأعين ، كما أنه ليس فى نص القرآن الكريم القتل بالعطش ، حتى يكدمون الأرض من شدة العطش ، فلا يستسقون ، وقد كذبنا نسبته للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لذلك ٠

ومهما يكن فاننا نذكر النص القرآنى فى هذا المقام ، ومدى ما ينطبق من قصة العرنيين عليه ٠

يقول الله تعالى فى بيان هذا الحد : « **انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع ايديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ، الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ، فاعلموا أن الله غفور رحيم** » ٠

ولا شك ان وصف الحرابة ينطبق على هؤلاء العرنيين ، وقد نزلت بهم بعض عقوباتها ، وهو قطع الأرجل والأيدى ٠

وما دمنا قد تعرضنا للحرابة أو لقطع الطريق ، فانه يجب أن نشير لبعض أحكامه ، على قدر ما يتسع له المقام فى سيرة النبى عليه الصلاة والسلام الطاهرة ، ويترك تفصيله لكتب الفقه ، ولموضعه من بحوثنا فى كتاب الجريمة وكتاب العقوبة فى الفقه الاسلامى (١) ٠

المحاربون أو قطاع الطريق ناس يخرجون متفقين على القتل أو السرقة ، وتكون لهم قوة يقاومون بها الدولة افسادا من غير تأويل يتأولونه ، بل سعيا بالشر والافساد ، ونرى ما يراه المالكية انه لا تقتصر جرائم الحرابة على القتل والسرقة ، بل تشمل كل المعاصى ، كالزنى وشرب الخمر ، ويدخل فيها كل المخدرات سواء أكانت سائلة أم جامدة ، وسواء أكانت تتناول بالشرب أم بالتدخين ٠

وسواء أكانت هذه القوة التى يكونها المحاربون فى مدينة أم غير مدينة ماداموا يستطيعون أن يقوموا بجرائمهم بعيدين عن أن يجاب المستغيث اذا استغاث ، وللفقهاء كلام وخلاف فى هذا المقام ٠

---

(١) الناشر دار الفكر العربى ٠

ويعد من المحاربين الجماعة التى تنفق على ارتكاب جرائمها بطريق الغيلة وذلك فى رأى مالك ، والنص القرآنى يحتمل ذلك كله ٠

والعقوبات المقررة ، هى القتل ، والصلب ، وتقطيع الأيدى والأرجل من خلاف والنفى من الأرض بالابعاد فى مكان ناء لا يستطيعون فيه ارتكاب جرائمهم ، وعد الامام أبو حنيفة أن من النفى السجن ، لأن المقصود منع اجتماعهم ٠

وأكثر الفقهاء أن الامام العادل يضع العقوبة على قدر الجريمة : فان تولوا القتل قتلوا ولا فرق بين من باشره ، ومن لم يباشره ، لأن من لم يباشره كان معينا مع من باشره ٠

واذا سرقوا وقتلوا ، قتلوا وصلبوا ، ويستوى فى العقوبة المباشر وغير المباشر ٠

واذا سرقوا وانتهبوا الأموال ولم يقتلوا فانه تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، فاذا قطعت اليد اليمنى ، يقطع معها الرجل اليسرى ٠

واذا كانوا قد اتفقوا وهموا بالشر ، ولكن لم يمكنوا فان العقوبة تكون النفى ، بتفريقهم بعيدا عن مكان تجمعهم ٠

هذا ما اختاره جمهور الفقهاء تابعين للتابعين فى أقوالهم ، ومن الصحابة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ٠

ويرى الامام مالك رضى الله عنه أن الامام مخير فى هذه العقوبة أيا كانت الجريمة التى ارتكبوها ، لأن الجريمة الأصلية هى الاتفاق على ارتكاب هذه المعاصى ، ولو لم يمكنوا من تنفيذ احداها ، والامام ينظر الى ما هو الأنجع فى ردعهم ٠

(تم بعون الله الجزء الثانى ، ويليه الجزء الثالث)

الجــزء الثــالث

فى المجـلد الثانى

رسائله صلى الله تعالى عليه وسلم ـ طـرد اليهـود من البـلاد العربية ـ تعميم الدعوة الاسلامية فى البلاد العـربية ـ اسلام العـرب ـ حال الاعراب ـ خروج الدعوة الى أطراف الشـام ـ حجـة الوداع ـ زوجاته صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الجزء الثالث

بحمد الله وتوفيقه ، والصلاة والسلام على رســول الله وآله وأصحابه والذين اتبعوهم باحسان الى يوم الدين ، وبعد :

فانا نقدم الجزء الثالث من السيرة الطاهرة المطهرة ، سيرة خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وفى هذا الجزء تكلمنــا فى نشره للدعــوة الاســلامية فى ربوع البلاد العربية ، ومجــاوزة حــدودها الى الشام والرومــان ومصر ، والى فارس ، والعــراق ٠

ففيه الكتب التى أرسلها النبى صلى الله تعــالى عليه وسلم الى أمــراء العرب ، والى قيصر الرومان ، ومقوقس مصر ، والنجاشى فى الحبشة ٠

وفيه كان اجلاء اليهود عن البلاد العربية والاتجاه الى الشام بالفتح المبين فكانت مؤتة ، ومساورة الشام فى تبوك ٠

ثم كانت الدعوة المحمدية مبثوثة فى كل البقاع والأصقاع العــربية حتى دانت بالطاعة للاسلام خاضعين ، وبيان حال الأعراب ، ثم كان كمال الدين بيانا للأحكام ، وتوجيها للعمل ٠

ثم بيان انتقال النبى الى الرفيق الأعلى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن أشرق نوره فى الأرض ، وبلغ رسالة ربه ، اللهم املأ قلوبنا ايمانا بهــا ، واعمالنا طاعة لها ، وأبعد الزيغ عن عقولنا ، واغفر لنا ذنوبنا ما نعلم منهــا وما لا نعلم ، انك سميع الدعاء ٠

محمد ابو زهرة

رسائله صلى الله تعـالى عليه وسلم

٥٣٢ ـــ وفى هذه السنة بعد الحديبية فرض الحج ٠ وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن معه من جيش الايمان كانوا قد احرموا للحج ٠

وشرع الحج فريضة من بعد الحديبية مباشرة ، وقالوا انه كان قد شرع ، وفرضه الله تعالى فى هذا الوقت مع أن النبى صـلى الله تعالى عليه وسلم لم يحج الا فى السنة العاشرة ٠

وهذا رأى أكثر الفقهاء ، فالحج لا يجب فور القدرة عليه ، ولـكن يجب أداؤه فى مدى العمر ، وقال بعض الفقهاء يجب قدر الاستطاعة على أدائـه ، وقالوا ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أخره الى العاشرة لأنه لم يكن مستطيعا ذلك قبل العاشرة ، لأن الأصنام لم تزل قبل التاسعة ، وكان مشغولا بالدعوة ، وبيان الشرع ، حتى نزلت الآية : **اليوم أكملت لكم دينـكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا** » وسرد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الفرائض الشرعية بايجاز ، وأشهد المؤمنين على التبليغ ٠

وانه بعد الحديبية تفرغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم للدعـوة ، فلم يرسل سرايا للقتـال ٠ ولكن أرسـل رسلا للدعوة الى الاسـلام ، وتبـليغ الدعـوة ٠

قال الواقدى فى ذى الحجة من سنة ست بعث رسـول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم ستة نفر مصطحبين حاطب بن أبى بلتعه الى المقوقس صاحب الاسكندرية ٠

وبعث شـجاع بن وهب الى الحـارث بن شـمر الغسانى ملك عـرب النصارى ٠

ورهينة بن خليفة الكلبى الى قيصر ، هرقل ملك الروم ٠

وبعث عبد الله بن حذافة السهمى الى كسرى ملك الفرس ٠

وبعث سليط بن عمرو العامرى الى هوزة بن على الحنفى ٠

وعمرو بن أمية الضمرى الى النجاشى ملك النصارى بالحبشة ، وهـو أصحمة بن أبحر ٠

وسنتكلم عن الرسائل التى كانت مع هؤلاء الرسل عند الكلام على مكاتبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والذى نقوله هنا هو أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد تفرغ للتبليغ ، ولم يعد مقصورا على الجزيرة العربية وما حولها بل تجاوزها الى الأقاليم الأخرى ٠

الى خيبر

٥٢٣ — أنهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما بينه وبين قريش بصلح مدته عشر سنين ، ليكون للدعوة والتبليغ وان لم يترك ذلك التبليغ أبدا ، فلم تشغله الحرب عن التبليغ بل كان التبليغ فى أثناء الحروب وليتجه الى اليهود أولا ، والى حرب الشام ثانيا ، لأن الروم فى الشام قتلوا بعض من آمنوا من أهل الشام ، ففعلوا مثل ما فعلت قريش ، فحق قتالهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ٠

ولذلك كان سيره من الحديبية الى خيبر ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما كان يقاتل الا فى ميدان واحد ، فبعد أن انتهى من قريش انفرد لليهود الذين نقضوا معه كل العهود وكانوا البا عليه ، يحرضون ويفسدون ويدسون وكانت خيبر فى ذى الحجة على رواية عبد الرحمن بن أبى ليلى ، فقد فسر قوله تعالى : « **وأثابهم فتحا قريبا** » قال يعنى خيبر فقال انها كانت فى ذى الحجة من السنة السادسة بعد عشرين يوما من صلح الحديبية ، والواقدى يروى بسنده عن شيوخه أنها كانت فى السنة السابعة من الهجرة ٠

وقد عين الوقت ابن اسحاق فقال أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالمدينة المنورة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم ثم خرج فى بقية المحرم الى خيبر ٠

وبعض الروايات قالت ان غزوة خيبر كانت فى صفر سنة سبع ٠

ومهما يكن تعيين الزمن ، فان غزو خيبر كان أمرا لابد منه ، لأنه اجتمع أعداؤه من اليهود ، وما كانوا يألون المؤمنين الا خبالا ؛ وينتهزون الفرصة لينقضوا ٠

وقد رأينا أنهم يمالئون غطفان ، ويستخدمون قوة منهم ، وقد بعث النبى صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب ليتعرف أمرهم والتقى بعين لهم ، وأسر من أسر منهم ٠

فكانوا بلا شك يريدون أن ينتهزوا معاونة ليغيروا عليه أو يعـاونوا من يحاربونه ، وكان فيهم غلظة وشدة ٠

فلما اتجه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لغزو بنى النضير لكيلا يكون لليهود سلطان فى بلاد العرب كان لابد أن تنضم اليهم غطفان ، ولشدة عداوتهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، ولقربهم من منازلهم ، ولسبق تحالفهم مع الأحزاب لغزو المدينة ، ولكن الله ردهم بغيظهم لم ينالوا خيرا ، « **وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا** » ٠

وقد احتاط صلى الله عليه وسلم لذلك ، فنزل موقعا يفصل بين غطفـان وخيبر ، ولنسرد قصة هذه الغزوة من وقت ابتدائها ٠

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قاصدا خيبر ، فلما أشرف عليها أخذ يضرع الى الله تعالى طالبا النصر والمعونة ، فقال لأصحابه قفوا ؛ وأخذ يدعو ، وهم يرددون معه ٠

اللهم رب السـموات ، وما أظللن ، ورب الأرضـين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، فانا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شر أهلها وشر ما فيها ، أقدموا باسم الله تعالى ٠

خرج رسول الله الى خيبر ، سلك على عصر ، وهو جبل قريب من المدينة المنورة ، فبنى به مسجدا ، ثم مر على الصهباء ، ثم أقبل بجيشه ونزل بـواد يقال له الرجيع ، وهو فاصل بين خيبر وغطفان ، لكيـلا يمكنهم من مظـاهرة اليهود عليه ٠ فحال بينهم ، ولكنهم كانوا قد خرجوا لليهود لينفذوا ما أرادوا من معاونتهم ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل الى ديارهم جمـاعة من مقاتليه ، ليزعجوهم ، فلما سمعوا من ورائهم حس أولئك الذين ذهبـوا خلفهم فى أموالهم وأهليهم ظنوا أن المؤمنين خالفوهم اليهم ، فرجعوا عـلى أعقابهم ، فأقاموا فى أهليهم وأموالهم ٠

وبذلك أمن رسول الله عليه الصلاة والسلام شرهم ، وخلواهم بينه وبين اليهود ، واختاروا لأنفسهم السلامة ٠

القائد حامل الراية :

٥٢٤ ـــ دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أرض خيبر ، وكانت أرض زرع وحرث ، وقد خرجوا يحملون أدوات من مساحى يحملونها

لحرث الأرض ومكاتل يجمعون فيها الثمار ، أو ينقلون السماد الطبيعى من مكان الى مكان بها ، فلما رأوا جيش النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذعروا ، وقالوا محمد والخميس ·

تقدم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لفتح قريتهم بحصونها ، وقد قال ابن القيم ، وصاحب معجم البلدان كانت لهم حصون ، هى حصن ناعم ، وحصن القموص ، وقلعة الزبير ، وحصن النطاة ، والكتيبة والوطيح ، والسلام ، وهما حصنا أبى الحقيق ، وحصن الزبير ، وحصن الصعب ابن معاذ ·

كانت القيادة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه ستمائة وألف مقاتل ، فيهم مائتا فارس ، وكان قائد اليهود سلام بن شكم ومعه أربعمائة وألف مقاتل ، ولما قتل تولى القيادة أبو زينب بن الحارث ، وكان حامل راية المؤمنين بطل الجهاد على بن أبى طالب ، فانه ليلة أراد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم غزو خيبر قال لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، واليك الرواية كما رواها البخارى ·

قال البخارى بسنده « ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، فبات الناس يذكرون ليلتهم أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس غدوا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، كلهم يرجو أن يعطاها فقال عليه الصلاة والسلام أين على بن أبى طالب ، فقالوا يا رسول الله يشتكى عينيه فارسل اليه فأتى فبصق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال يا رسول الله أقاتلهم ، حتى يكونوا مثلنا · فقال صلى الله تعالى عليه وسلم انفذ على رسلك ، حتى تنزل ساحتهم ثم ادعهم الى الاسلام ، وأخبرهم بما يجب عليه من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير من أن يكون لك حمر النعم ·

ابتدأ القتال حول الحصون ، ويقول ابن اسحاق تقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الأموال يأخذ الأقرب فالأقرب منها ، وفى هذه الأثناء خرج المرحب فارسهم فقصده على بن أبى طالب فقتله ·

ثم تدانى جيش المؤمنين ، يأخذ الأدنى فالأدنى ، وأول حصن فتحوه والراية فى يد على كرم الله وجهه حصن ناعم ، ثم القموص حصن أبى الحقيق ، وكلما فتح حصن فر من كانوا فيه الى الحصن الذى يليه ، فيجتمع فيه مع من آلوا اليه فارين من حر السيف وقوة الايمان ، وكانت المبارزات أحيانا ؛

ولقد فتح القموص بعد حصار دام عشرين ليلة كما جاء فى سيرة ابن اسحاق ، وكان فى أرض وخمة شديدة الحر ، فجهد أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جهدا شديداً لوخم الأرض وحرارتها ٠

ولقد تحركت اليهود من بعد ذلك كما قال الواقدى الى قلعة الزبير ، وهى حصن منيع ، فأقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى حصاره ثلاثة أيـام ٠

وقد جاء رجل يهودى يظهر من أمره أنه مال الى الاسلام ، كما يدل قوله وعمله ، فقال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : يا أبا القاسم انك لو أقمت شهرا ما بالوا ، ان لهم سردابا وعيونا تحت الأرض ٠ يخرجون بالليل فيشربون منها ، ثم يرجعون الى قلعتهم ، فيمتنعون منك ، فان قطعت مشربهم عليهم خرجوا لك ، فسار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى مائهم ، فلما قطع عليهم خرجوا فقاتلوا أشد القتال وقتل من المسلمين يومئذ نفر وأصيب من اليهود عشرة ، وافتتحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان آخر حصون النطـاة ٠

وقد أحس المسلمون بقلة الزاد ، وقالوا والله يا رسول الله قد جهدنا وما بأيدينا شىء ، فلم يجدوا عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شيئا يعطيهم اياه ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم ضارعا الى ربه : « اللهم انك عرفت حالهم ، وأن ليست بهم قوة ، وأن ليس بيدى شىء ما أعطيهم اياه فافتح عليهم أعظم حصونها غناء ، وأكثرها طعاما وودكا ، فغدا الناس » ٠ ففتح الله عز وجل حصن الصعب بن معاذ ، وما بخيبر حصن كان أكثر طعاما وودكا منـه ٠

وانه بعد أن فتحت حصون النطاة قبل حصن الصعب بن معاذ تحول الى الشق ، وكانت به حصون ذوات عدد ، فكان أول حصن بدأ بـه حصن أبى ، فقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على قلعة يقال لها سموان ، فقاتل عليها أشد القتال ، فخرج منهم رجل يقال له عزول ، فدعا الى البراز ، فبرز له الحباب بن المنذر ، فقطع الحباب يده اليمنى ، فاتبعه الحباب فقطع عرقوبه ، وبرز رجل آخر فقام اليه رجل من المسلمين ، فقتله اليهودى ، فنهض اليه أبو دجانة فقتله وأخذ سلبه ، وأحجموا عن البراز ٠

بعد أن أحجم اليهود عن البراز كبر المسلمون وتحاملوا على الحصن فدخلوه ، وأمامهم أبو دجانة فوجدوا فيه أثاثا ومتاعا وغنما وطعاما ، وهرب من كان فيه من المقاتلة وتقحموا الحصن كأنهم الضبات ، ثم تحولوا الى حصن

آخر من حصون الشق ، وهو حصن البزاة وامتنعوا به أشد الامتناع ، فزحف اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ، وتراموا بالنبـل ، ورمى معهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بيده الكريمة ، حتى أصـاب نبلهم بناته عليه الصلاة والسلام ، فأخذ عليه الصلاة والسلام من الحصى ، فرمى حصنهم بها ، فرجف بهم حتى ساخ فى الأرض ، وأخذهم المسلمون أخذا باليد هذا ما ذكره الواقدى فى تاريخه ٠

ويقول الواقدى مسترسلا فى بيان فتح الحصون :

ثم تحول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى أهل الأظبية والوطيح والسلام حصنى أبى الحقيق ، وتحصنوا أشد التحصين ، وجاء اليهم كل من انهزم من النطاة الى الشق ، فتحصنوا معهم فى حصن وكان حصنا منيعا وفى الوطيح والسلام ، وجعلوا لا يطلعون من حصونهم ، حتى هم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينصب المنجنيق عليهم ، فلما أيقنوا بالهلكة ، وقد حصرهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أربعة عشرة يوما (أى فى هـذه الحصون الأخيرة ، نزل الى رسول الله صلى الله تعالىعليه وسلم حصون ابن أبى الحقيق وطلب الصلح بعد أن تأكد أن النبى صلى الله تعالى عليـه وسلم نصب المنجنيق ليقضى على البنيـان اذ تحصنوا بها ولا سبيل الى الوصول اليهم الا بهدمها ، لأنها حصون لا مساكن ٠

ويتبين من هذا البيان أمران :

أحدهما : أن الحصون التى أحصيناها كان كل واحد منها عنوانا لمجموعة حصون ، وقد توالى سقوطها مجموعة مجموعة ، بلا تخريب ، ولكن يقـاتل من فيها حتى يفروا الى حصن آخر وراءها ، ولذلك يقول ابن اسـحاق كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يتدنى ، أى يحارب الأدنى ، فالذى يليه ، حتى اذا تجمعوا فى الحصون الأخيرة ، التقت فيها جموعهم الفـارة ، وتقـاتلوا مستميتين ، وبذلك طال الحصار ، واشتد من خارجها ٠ كما اشتدوا هم فى الدفاع من داخلها ٠ فهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعمل المنجنيق ، اذ لا يمكن الوصول الى المقاتلين الا بالهدم ، ولا يلجأ اليه بمقتضى قانون الاسلام فى الحرب الا عند الضرورة ، اذا تتراس به العدو ولا سبيل للوصول اليـه الا بهدمه ٠

فلما رأوا أنهم مقتولون لا محالة سلموا ٠

الأمر الثانى : ان أشد قتال لقيه المسلمون كان فى خيبر ، لأنهم قاتلوا قوما فى حصون ، ولم يكن القتال فى العراء ، والأعداء لا يواجهون المؤمنين ،

بل يقاتلون من وراء حصونهم : « **وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون** » ٠

وقد انتصر المسلمون فى هذه الموقعة ، فكان آخر انتصار على معقل اليهود فى البلاد العربية ، ولم يستطيعوا فيها تدميرا من بعد ، ولكن كان خبثهم فيما وراءها « **ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين** » وكان قتلى المسلمين ٢١ شهيدا وسبى وقتل كثيرون من اليهود ٠

الصلح والغنائم

٥٢٥ ــ لما هم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بنصب المنجنيق ، وأيقنوا بالهلكة نزل اليه ابن الحصين مستسلما طالبا الصلح على النجاة بأنفسهم وتسليم ما بأيديهم ، فصالحه بالاجمال على حقن دمائهم ، وسيرهم ، ويخلون بين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبين ما كان لهم من الأرض والأموال ، الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة ، وعلى أنه ليس لهم الا ما كان على ظهر الناس يعنى لباسهم ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قابلا عرضهم : « وبرئت منكم ذمة الله ، وذمة رسوله ، ان كتمتم شيئا » ، فصالحوه على ذلك ٠

قال ابن كثير « ولما كذبوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخفوا المسك (الجلد) الذى كان فيه أموال كثيرة لحيى بن أخطب ، فتبين أنه لا عهد لهم فقتل ابن أبى الحقيق وطائفة من أهله بسبب نقض العهود والمواثيق ٠

هذا اجمال يجب أن نذكره بشىء من التفصيل معتمدين على السنة الصحيحة خصوصا فى التفرقة بين الأرض والنخيل والأموال المنقولة من صفراء وبيضاء وسبايا فان لذلك موضعا فى الأحكام الشرعية ٠

انه كان الاتفاق على أن يجلوا على أن يحملوا معهم ما تحمله الركائب ويتركوا الأموال المنقولة والنخيل وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أحصى أموالهم المنقولة من النقود والمتاع والجواهر ، وقسمها بين القائمين على أساس أن الفارس له سهم ولفرسه سهمان ، ومن لا فرس له وهو راجل فى الحرب سهم واحد ، ولم يسهم للنساء بل رضخ لهن ، والعبيد ، فقد رضخ لهم بأن أعطاهم قدرا من الغنائم غير معين بتعيين ولا سهم ٠

روى أبو داود والامام أحمد عن عمير مولى أبى اللحم قال شهدت مع سادتى ، فكلموا فى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقلدنى سيفا ، فاذا أنا أجره ، فأخبر أنى أنا مملوك لى شىء من المتاع ، وهذا الخبر يدل بظاهره على أن العبد يجوز له أن يملك ، ولا يقال العبد وما ملكت يداه لسيده ، وهذا رأى الظاهرية ٠

وذكر محمد بن اسحق أنه حضر فى غزوة خيبر بعض النساء يحملن الماء ، ويداوين الجراح فرضخ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لهن ، وقد روى عن امرأة من غفار ، قالت اتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى نسوة من بنى غفار ، فقلنا يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك الى وجهك فنداوى الجرحى ، ونعين المسلمين بما استطعنا ، قال على بركة الله تعالى ، فخرجنا معه ٠ فلما فتح الله تعالى خيبر رضخ لنا من الفىء ٠٠٠

وروى الأمام أحمد عن بعض النساء أنها قالت : خرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى غزوة خيبر وأنا سادسة ست نسوة ، فبلغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأرسل الينا فدعانا ، فقال ورأينا فى وجهه الغضب ، فقال : « ما أخرجكن ؟ وبامر من خرجتن ؟ قلنا خرجنا ، نناول السهام ، ونسقى السويق ومعنا دواء للجرحى ٠ ونغزل الشعر ، فنعين به فى سبيل الله ، فأمرنا فانصرفنا ، فلما فتح الله خيبر أخرج لنا سهاما كسهام النساء ، ولعل المراد أنه أعطاهن ، كما أسهم للرجال ، لا أن سهامهن مساوية لسهام الرجال ٠

. هذا التقسيم كان فى الأموال المنقولة ، من صفراء وبيضاء وتمر ومتاع وغير ذلك من الأموال التى تنقل ، أو الأموال السائلة ، كما يعبر علماء المال فى عصرنا هذا ٠

حياته فيها :

٥٢٦ — وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد عاهدهم على أن يقدموا كل صفراء وبيضاء ، وكل طعام ومتاع على الا يكثر منه ، وان العهد كان على ذلك ، فاذا كشف شىء كان مكتوما ، فان العهد ينقض ، فلما تبين أنهم كتموا مالا نقض العهد ، وقتل ابنا أبى الحقيق بسبب هذا النقض ، وقد اشرنا الى ذلك من قبل ، والآن نفصل كيف كان اكتشاف الاخفاء وكيف أظهر ٠

حدث البيهقى عن عبد الله بن عمر ٠٠٠ أنهم غيبوا مسكافيه مال وحلى لحيى بن أخطب ، وكان احتمله معه الى خيبر حين أجليت النضير ، فقال

رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما فعل مسك حيى بن أخطب الذى جاء به من النضير ؟ فقالوا أذهبته النفقات والحروب ، فقال عليه الصلاة والسلام : العهد قريب ، والمال أكثر من ذلك ··· وكان حيى قبل ذلك دخل خربة يطوف بها ، فذهبوا فطافوا فى هذه الخربة فوجدوا المسك فى الخربة ·

وبذلك كان نقض العهد ، ويظهر أن الذين كانوا يتسترون على هذا المسك هما ابنا أبى الحقيق فقتلهما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم ينقض العهد برمته ، بل نقضه بالنسبة للذين كتموه ، وكانوا يعلمون بموضعه وان الله تعالى قسم الأموال المنقولة بالأسهم ، وكان سهم لله ولرسوله ولذى القربى واليتامى والسائلين وابن السبيل ·

ووزع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سهم ذى القربى على بنى هاشم ، وبنى المطلب ولم يوزع على بنى عبد شمس ولا بنى نوفل ، فمشى عثمان بن عفان من بنى عبد شمس ، وهم الأمويون ، وجبير بن مطعم من بنى نوفل ، وقالا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أعطيت بنى المطلب من خمس خيبر وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة منك ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ان بنى هاشم وبنى المطلب شىء واحد ، لم يفارقونا فى جاهلية ولا اسلام ·

وانه لم يناصب أحد من بنى المطلب النبى صلى الله عليه وسلم عداوة ، والمطلب هو الذى ربى عبد المطلب ، وعندما ضربت قريش حصارا على بنى هاشم فى شعب أبى طالب انضم اليهم فى الحصار بنو المطلب ، ورضوا أن يكون ما ينزل بالهاشميين ينزل بهم ، فكانوا قائمين بحق القربى ، بينما أبو لهب الهاشمى أخو أبى طالب لم يرض الدخول مع اخوته ·

الأرض والنخيل :

٥٢٧ ـــ هذا هو الأمر فى تقسيم البيضاء والصفراء والمتاع وسائر المنقولات ، أما الأرض ، فانها لم تقسم كما قسمت الأموال ، بل الأمر فيها كان على غير ذلك ·

ذلك أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عندما أراد اجلاءهم بمقتضى الشرط الذى أخذه عليهم ، قالوا يا محمد ، دعنا نكون فى هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها ، ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا لأصحابه غلال يقومون عليها ، وكانوا لا يفرغون أن يقوموا عليها ، فأعطاهم رسول الله

صلى الله تعالى عليه وسلم خيبر ، على أن لهم الشطر من كل زرع ونخيل وشىء ما بدا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ·

ويستفاد من هذا أمران (أحدهما) أن الأرض تبقى فى أيدى المغلوبين ، على أنهم غير مالكين لرقبتها ، بل يعملون فى زراعتها ومراعاة أشجارها ، ومساقاتها ، ولهم شطر ما يخرج من زرع وثمر ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يأخذ الشطر وكان يوزعه فى مصارف الغنائم ·

الأمر الثانى أن ذلك غير ملزم للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل له أن ينزع الأرض من أيديهم اذا أراد ، ولا يريد الا ما يكون فيه مصلحة للمسلمين ·

وقال فى ذلك الامام مالك رضى الله عنه ، ان الامام مخير فى الأراضى المفتوحة ان شاء قسمها ، وان شاء أرصدها لمصالح المسلمين وان شاء قسم بعضها ، وان شاء أرصد بعضها لما ينوبه فى الحاجات والمصالح ·

وشطر الغلات الذى يتولى للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم روى أنه كان يوزعه توزيع الغنائم ، فيكون خمسه لله ، وللرسول عليه الصلاة والسلام ، ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وأربعة الأخماس للغانمين وكانوا أهل بيعة الرضوان ، وغيرهم نحو أربعمائة وألف ، ومن انضم اليهم من مجاهدى خيبر ، فبلغ الجميع خمسمائة وألف فكان يقسم الريع مقسم الغنيمة بينهم ·

وروى أبو داود أن النصف الذى كان يخص المسلمين ما كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقسمه قسمة الغنائم ، بل كان يبقيه لمن نزل به من الوقود ، والأمور ونوائب الناس ، أى يجعله لمصالح المؤمنين من غير تخصيص ، ويقول الحافظ ابن كثير ، قد تفرد بهذه الرواية أبو داود ·

ومهما يكن من الأمر بالنسبة لغلة النصف فانه يتبين من هذا أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم جعل الأرض فى أيدى أهلها على أن يكونوا زارعين حارثين مصلحين فى الأرض غير مالكين لرقبتها ، بل رقبتها لجماعة المسلمين ، ولذلك كان للامام أن يخرجهم منها حيثما كان فى ذلك مصلحة المسلمين ·

وان ما فعله عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه فى ارض سواد العراق الذى أشرنا اليه عند الكلام فى أموال بنى النضير ، يشبه هذا ، وكان للامام عمر رضى الله تعالى عنه أن يحتج به عندما خالفه جمع من الصحابة كان على رأسهم بلال رضى الله عنه ·

وان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقام عبد الله بن رواحة على المقاسمة بينهم وبين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكان يأتيهم كل عام ، فيخرجها عليهم ، ويضمنهم الشطر ، وكان عادلا لا يظلمهم ، ولا يطفف شيئا من نصيب المسلمين ، فشكوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شدة حرصه ٠

ولقد أرادوا أن يرشوه فقال يا أعداء الله تطعموننى السحت ، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس الى ، ولأنتم أبغض الى من عدتكم من القردة والخنازير ، ولا يحملنى بغضى اياكم ، وحبى اياه على ألا أعدل اياكم ٠

فهو لا يظلم لعداوة ، ولا لمحبة ، ولذلك قالوا بهذا قامت السموات والأرض ولما قتل عبد الله بن رواحة ، فى مؤتة ، ولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعده جبار بن صخر رضى الله تعالى عنه وكان من أهل الخبرة ، فى خرس الزروع والثمار ٠

٥٢٨ ـــ وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوزع الزرع والثمار فى النصف الذى يخص المسلمين على تقسيم الغنائم وخصص أراضى لاخراج سهم من السهمان ، فجعل ما ينتجه حصن الشق ونطاة فى سهمان المسلمين ما ينتج منهما يكون نصفه قسمة على حسب سهام الفاتحين ٠

وكان ما ينتجه حصن الكتيبة مخصصا لخمس الله ورسوله عليه الصلاة والسلام وذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وطعم رجال سواء بالصلح بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى أهل فدك ٠

وكان لنطاة والشق ثمانية عشرة سهما ، لنطاة خمسة والباقى للشق يأخذ الفاتحون هذه الأسهم الثمانية عشرة ٠

وقسمت الثمانية عشرة على ١٨٠٠ سهم ، أى أن كل سهم فى النطاة والشق كان مقسما على مائة ٠

ويقول ابن اسحاق « قسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الكتيبة وهى واد خاص بين قرابته وبين نسائه ، وبين رجال مسلمين ، ونساء أعطاهم » وقد ذكر المقادير التى كان يعطيها لذوى قرابته ونسائه ، ولبعض رجال المسلمين ، فكان يقسم على الضعفاء وذوى الصلة كل على مقدار حاجته٠

وهكذا كان التقسيم للغلات ، ولم يقسم الأرضين ، ولكن كان لكل طائفة سهام فى حصن معين من حصون خيبر ، ولقد كان بعض المؤمنين يشرفون

علـى الأرض مـن حيث انتاجها وصلاحها ، وكان يتولى مقاسـمة اليهـود عبد الله بن رواحة أولا ، فلما استشهد رضى الله تعالى عنه ، تولاها ، جبـار ابن صخر ، واستمر طول حياة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

فلما انتقل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرفيق الأعلى نفذ أبو بكر ما كان يفعله رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسـلم ، ثم لـما توفى الصديق نفذ عمر شطرا من امارته ما كان يفعـله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثم بدا له أن يخرج الأرض من أيـدى اليهود ، ويعطيها ذوى السـهام فيها ٠ وذلك لأمرين : أولهما انهما قتلوا فى عهد النبى صلى الله تعالى عليـه وسلم رجلا أنصاريا ، وهو عبد الله بن سهل وكان قد خرج فى أصحاب لـه يمتارون تمرا ٠ فانفرد عنهم ، ووجد فى عين قد دقت عنقه ثم طرح فيهـا فأخذوه وأخفوه ، ثم قدموا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم القسامة ، واتهمهم من بعد ذلك عمر فى عهده بأنهم قتلوه ٠

واعتدوا ثانية فى عهد عمر على عبد الله بن عمر فقد خرج هو والزبير ابن العوام والمقداد بن الأسود الى أموال المسلمين بخيبر يتعهدونها ، وتفرقوا فى الأموال فقدعوا يديه (أى خلعوا أى أزيلت عن مفاصلها ، وأصلح زملاؤه يده) ٠

فلما حضر الى أمير المؤمنين فقال هذا عمل يهود ، ثم قام فى النـاس خطيبا ، فقال :

« أيها الناس ، ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان قد عامل يهود خيبر على أنا نخرجهم اذا شئنا ، وقد عدوا على عبد الله بن عمر فقدعوا يديه ، كما بلغكم مع عدوهم على الأنصارى قبله ، لا شك أنهم أصحابه ليس هناك عدو غيرهم ٠ فمن كان له مال بخيبر فليلحق به ، فانى مخرج يهود » ٠ وهذا مؤداه أنهم أصبحوا غير أمناء على المؤمنين ، وقد ارتبطوا معهم بعلاقة المزارعة فكانوا يعاملونهم معاملة عدو ، لا معاملة معاون ٠

الأمر الثـانى الذى أوجب على عمر أن يخرجهم وخصوصا بعد مـا أظهروا عداوتهم وحقدهم ، أنه علم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال « لا يصبحن بجزيرة العرب دينان » ، فكان لابد من اجـلائهم ، فـدعاهم الى الجلاء ، وقال من كان عنده عهد من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسـلم فليأتنى به أنفذه ، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم ، فليتجهز للجلاء واذا كان بقاؤهم فى الأرض فقد كان بالمشيئة وليس

عهدا دائما • وقد خصص النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لكل ذى سهم دائم جزءا من الأرض يجمع شطر ثماره ، فلما أجلى سيدنا عمر رضى الله عنه اليهود ، قال لأصحاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « أيها الناس ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عامل يهود خيبر على أن يخرجهم اذا شاء ، فمن كان له مال فليلحق به • فانى مخرج يهود » •

وجعل لكل مستحق من أسهم ثمراتها ، على ما يخرجه سهمه يديره حيثما يريد •

وبالنسبة لأزواج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فخيرهن رضى الله عنهن وعنه فقال لهن : من أحب منكن أن أقسم فانى أقسم مائة وسق على أن يكون لها أصلها وأرضها وماؤها ومن الزرع عشرين وسقا من شعير فعلنا ، ومن أحب أن يعزل الذى لها فى الخمس ، كما هو فعلنا •

ويستفاد من هذا أن سيدنا عمر ما أخذ من نصيب فى سهم ذوى القربى على أنه لهن ليس بالوراثة ، بل أخذه حقا لهن من الخمس الذى لله وللرسول عليه الصلاة والسلام ، ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فقد جعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لكل واحد مائة وسق أو مائتى وسق على اختلاف الراوية فى ذلك • وعشرين وسقا من شعير من غير اختلاف فى ذلك ، فكان هذا استحقاقا ابتداء لا وراثة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فخيرهن عمر رضى الله تعالى عنه بين أن يجرى غليهن ما كان يجريه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أوساق ، وبين أن يعزل لهن ما ينتج ذلك ، كما فعل مع كل المستحقين فى خيبر •

فـــدك

٥٢٩ ــ لما رأى يهود فدك ما نزل بيهود خيبر ، وهم أهل الحصون المنوعة أصابهم الرعب ، ورأوا أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد أبقى الأرض فى أهل خيبر يرعونها ويغرسونها ، ويصلحون شجرها على أن يكون لهم نصف ما ينتج ، أى يعاملون كما عامل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أهل خيبر ، وفدك أرض من أرض خيبر يسكنها يهود ، لم يكن لهم حصون ، ولم يقاتلهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن ألقى الرعب فى قلوبهم ، فاستسلموا •

وقال رواة سيرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم • انها كانت كلها خالصة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كالشأن فى أموال بنى النضير ، فلم

تقسم سهاما كما قسم انتاج خيبر ، بل كانت كلها للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ويقول ابن كثير كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يعزل منها نفقة أهله لسنة ، ثم يجعل ما بقى كمال الله تعالى يصرف فى الكراع والسلاح ومصالح المسلمين ٠

ويجب علينا فى هذا المقام أن نعيد تلاوة ما نزل فى أموال بنى النضير التى عدها العلماء بأنها كفدك فقد قال تعالى فى أموال بنى النضير « **وما افاء الله على رسوله منهم ، فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ، والله على كل شىء قدير ، ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ٠ ولذى القربى ، واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ، ان الله شديد العقاب ، للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ، والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على انفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون ، والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا انك رءوف رحيم** » ٠

وانه اذا كانت المقايسة ثابتة بين أموال بنى النضير ، وفدك ، فان التعبير بأنها خالصة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم مؤداه انها لا تقسم مقسم الغنائم فلا يكون للفاتحين المجاهدين أربعة الأخماس كما هو الشأن فى الغنائم ، وانما يكون مصرفها مصرف خمس الغنائم الخمس لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولذى القربى واليتامى والمساكين ، ولذلك يصرفه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى مصالح المسلمين ، ويبقى له ما يكفيه وأهله منه بالمعروف ٠.

وعلى ذلك نقرر أنه لم يكن مملوك الرقبة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم حتى يورث ، ويجرى فيه النزاع على الملكية كما توهم كتب السيرة ، وكتب التاريخ ٠

والذى أحسبه أن الاختلاف فى ادارتها ٠ وتولى صرفها فى مصارفها ، باعتبار انها ليست فى ظل الولاية العامة ، بل لها ولاية خاصة ، هى ولاية النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومن يخلفه من اهله ، وبذلك انتهى امرها فى

عهد عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه ، ولنترك الكلمة بعد ذلك للحافظ ابن كثير فى تاريخه ٠

كانت هذه الأموال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خاصة ، وكان يعزل منها نفقة أهله لسنة ، ثم يجعل ما بقى مجعل مال الله تعالى يصرفه فى الكراع والسلاح ومصالح المسلمين ، فلما مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، اعتقدت فاطمة وأزواج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو اكثرهن أن هذه الأراضى تكون موروثة عنه ولم يبلغهن ما ثبت عنه من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم نحن معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه يكون صدقة ٠

ولما طلبت فاطمة وأزواج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نصيبهن من ذلك ، وسألوا الصديق أن يسلمه اليهم وذكر لهم قول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « لا نورث ما تركناه صدقة » وقال أنا أعول من كان يعول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والله لقرابة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحب الى أن أصل من قرابتى ، وصدق رضى الله عنه وأرضاه ، فانه البار الراشد ، فى ذلك التابع للحق ٠

نحن لا نظن أن السيدة الزهراء التى هى قطعة من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكون طلبها للميراث ، وانما طلبها أن تتولى هى الصدقة ٠

وقد صرح ابن كثير بأن فاطمة طلبت بلسان العباس وعلى أن ينظرا فى هذه الصدقة وأن يصرفا ذلك فى المصارف التى كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يصرفها فيها ، فأبى عليهم الصديق ذلك ، ونحن لا نفرض أنهم طلبوا ميراثا ، فعلى كرم الله وجهه ما كان يجهل أن الأنبياء لا يورثون ، وهو فقيه الصحابة ، وكما قال صلى الله تعالى عليه وسلم أقضى الصحابة ٠

ويقول الحافظ ابن كثير ان فاطمة رضى الله تبارك وتعالى عنها ، والصلاة والسلام على أبيها غضبت عليه فى ذلك ووجدت فى نفسها بعض الموجدة ، ولم يكن لها ذلك ، والصديق من قد عرفت هى والمسلمون محله من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقيامه فى نصرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتوفيت فاطمة بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠٠٠ « فلما كانت أيام عمر بن الخطاب سألوه أن يفوض أمر هذه الصدقة الى على والعباس ، وثقلوا عليه بجماعات من سادات الصحابة ففعل عمر ذلك لكثرة أشغاله ، واتساع مملكته ، وامتداد رعيته » ٠

هذه عبارات الحافظ ابن كثير ، وله مقامه فى علم السنة ، والأخذ بمنهاج السلف ، ولكن نلاحظ أن عباراته فى حق فاطمة التى تنتهى عترة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اليها لم تكن لائقة بمقامها من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاذا كان للصديق مكانته ، فلفاطمة مكانتها من المحبة لأنها قطعة منه صلى الله عليه وسلم ، فقوله عنها ما كان لها ذلك فيه تعد للحدود ، بدليل أن عمر بن الخطاب من بعده نفذ ما طلبت ، فلم تكن متجنية عندما وجدت موجدة على الصديق صديق أبيها ٠

وهناك عبارة لا نوافقه عليها ، لأنه يقول انهم ثقلوا على عمر رضى الله عنه بجماعة من سادات الصحابة ، فان هذه العبارة لا يصح أن تقال فى على ولا فى عمر ، فمقام على أجل من أن يعبر عنه فى طلبه واحتكامه الى الصحابة بكلمة ثقلوا ، وما كان عمر بن الخطاب فاروق الاسلام من صفاته أن يخضع لاثقال أحد من الصحابة ، فهو القوى فى الحق الذى لا يخشى فيه لومة لائم ، وما كنا نود أن يقع هذا من الحافظ ابن كثير العالم السلفى الامام ، انما الأمر الذى يتصور أن يكون من العباس وعلى أنهما احتكما الى جمع من الصحابة فنزل عمر عند رأيهم ، لأنه رآه أنه الحق ، ولنذكر بقية ما قصه الحافظ ابن كثير ٠

فهو يقول ان الصدقة أعطيت لعلى والعباس رضى الله عنهما ، فتغلب على على عمه العباس فيها ، ثم تساوقا يختصمان الى عمر ، وقدما بين أيديهما جماعة من الصحابة ، وسألا عمر أن يقسمها بينهما ، فينظر كل واحد فيما لا ينظر فيه الآخر ، فامتنع عمر عن ذلك أشد الامتناع ، وخشى أن تكون هذه القسمة تشبه قسمة المواريث وقال : انظرا فيها ، وأنتما جميع ، فان عجزتما عنها ، فادفعاها الى ، والذى تقوم السماء والأرض بأمره ، لا أقضى فيها قضاء الا هذا ، فاستمرا فيه ، ومن بعد الى ولدهما الى أيام بنى العباس تصرف فى المصارف التى كان يصرف فيها أموال بنى النضير وفدك ، وسهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من خيبر ٠

حوادث ذات مغزى فى خيبر

٥٣٠ — فى أثناء خيبر ، وفى أعقابها وجدت حوادث تدل على قوة ايمان بعض المؤمنين ، وصدق ما وعدوا الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحوادث فيها غدر من اليهود ، وسماحة من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو الغالب ٠

منها أمر الأســــود الراعى :

قصته تدل كيف يدخل الاســــلام الى القلوب المخلصة المتفتحة التى لم يرنقها هوى وما غلبت عليها شهوات كان مع اليهود عبد أســود أجير عندهم يرعى غنما لهم وقد سمع اليهود يقولون انه يدعى أنه نبى مرسل ، فساقه هذا لأن يذهب الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يسأله عما يدعو اليه ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذى نصر بالضعفاء والمساكين لا يحقر أحدا أن يدعوه الى الاسلام ، ولذا عرضه عليه رسول الله صلى الله تعــالى عليه وسلم ، فأسلم ، وجمع قلبه الطيب بين الايمان والأمانة ٠

فدعته الأمانة بعد الايمان أن يقول لرســول الله صــلى الله تعالى عليه وسلم : انى كنت أجيرا لصاحب هذه الغنم ، وهى أمانة عندى ، فكيف أصنع بها ، لم يقل له النبى صــلى الله تعالى عليه وســلم انها للمؤمنين بحكم أنها غنيمة للغالب ، ولكنه أجرى أمانة الرجل على رسلها ، بل قال له اضرب فى وجوهها ، فانها ســترجع الى ربهــا ، فأخــذ حفنة من الحصا ، فرمى بها فى وجوهها ، وقال : ارجعى الى صاحبك فوالله لا أصحبك أبدا ، فخرجت مجتمعة كأن سائقا يسوقها ، حتى دخلت الحصن ، ثم تقدم الى ذلك الحصن ليقــاتل مع المسلمين ، فأصابه حجر قتله ٠

قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم انه شهيد وانه دخل الجنة ٠

ومنها قصة اعرابى يجاهد ويرد المغنم :

٥٣١ ـــ روى البيهقى بسنده ، أن رجلا من الأعراب جاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فامن به واتبعه فقال أهاجــر معك ٠ فأوصى به بعض أصحابه ، وغزا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وغنم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقسم المغنم ، وقسم لهذا الأعرابى المؤمن ، فأعطى ما قسم له ، فقال : ما هذا ؟ قالوا قسم قسمه لك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : مــا على هذا اتبعتك ، ولكن اتبعتــك على أن أرمى هاهنا ــ وأشار الى حلقه بسهم ـ فأموت فأدخل الجنة ، فقال الرسول الأمين صـــلى الله عليه وســلم ان تصــدق الله يصدقك ٠ رفض المال ولو أنــه حق وحلال ، ومنحــة الغنيمة أخذها بحقها ، وذلك فى سبيل أن يكون عمله خالصا لوجه الله تعالى ، فهو لا يرد الحلال ، ولكن لا يريد عوضا للجهاد ٠

ولما نهضوا للقتال كان معهم ، فقتل بسهم أصابه حيث أشار الى حلقه ، فحمل الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقدمه لله شهيدا ، وقال : « اللهم هذا عبدك خرج مهاجرا فى سبيلك ، قتل شهيدا ، وأنا عليه شهيد » .

وقد ضرب هذا الأعرابى المؤمن أعلى مثل للايمان ، وطلب ما عند الله وحده لا شىء سواه ، فطلب رضوانه ولا يريد مغنما ، فرضى الله تبارك وتعالى عنـه .

مؤمن يتحايل لما له بمكة المكرمة :

٥٣٢ ــ وان الاسلام فتح الطريق أمامه ، لا تحول بينه وبين انتشاره قوة الطغاة ، ولا صد عن سبيل الله أخذ يطوف فى البلاد العربية فيعشـو اليه من يريد الهداية ، ومن يصفى قلبه للحق والنور والهداية .

وكان من ذلك اسلام الحجاج بن علاط السلمى ، فانه لما فتحت خيبـر وزال كل ما كان يصد عن الاسلام جاء الحجاج هذا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال يا رسول الله ان لى مالا عند صاحبتى أم شيبة بنت أبى طلحة وكانت زوجه ، وله منها ولد وأموال متفرقة فى تجارة مكة المكرمة والمؤمن يكون حريصـا غير مستهين ولا يكون بخيـلا ، وفـرق بين البخل والحرص ، لأن الحرص معناه ألا يفرط فى حق اكتسبه بحله ، ولا يكون هملا فرطا لا يعطى كل ذى حق حقه ، ولا يفرط فى حقه مع التسامح فى موضعه أما البخيل فانه يشح بالمال ولا يضعه فى مواضعه .

فالمؤمن حريص غير مفرط ، ولا بخيل ، أراد الحجاج أن يصل الى ماله وهو بمكة المكرمة ، ولو أعلن اسلامه منع ماله ، فاستأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يخفى أمره ، ويقول ما يسهل الوصول الى ماله من غير تعمد للكذب ، ولا خدع لمؤمن ، فأذن له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

خـرج الحجاج الى مكة المكـرمة ، حتى اذا التقى برجال من قـريش يتسمعون الأخبار ، ويسألون عن أمر الرسول صلى الله تعالى عليه وسـلم ، وقد بلغهم أنه سار الى خيبر ، وهم يعلمون أنها قـرية الحجاز ، ريفا ومنعة ورجالا ، فهم يتحسسون الأخبار ، ويسألون الركبان .

فلما قابلوا الحجاج ، ولم يكونوا علموا باسـلامه ، ولم يظهره لهم ، فسألوه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وعن أمر خيبر ، وقالوا له قـد

بلغنا أن القاطع (أى محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم) قد سار الى خيبر ، (وهى بلد يهود وريف الحجاز) •

قال قد بلغنى ذلك ، وعندى من الخبر ما يسركم ، هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط ، وقتل أصحابه قتلا لم نسمع أبدا بمثله قط ، وأسر محمدا أسرا ، وقالوا لا نقتله ، حتى نبعث به الى أهل مكة ، فيقتلوه بين أظهرهم •

أعينونى على جمع مالى بمكة المكرمة ، وعلى غرمائى ، فانى أريد أن أقدم خيبر ، فأصيب من فل محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار الى هنالك •

فقاموا فجمعوا له ماله يحثون الغرماء على ذلك •

وكان له عند امرأته مال موضوع ، وأراد أن يأخذه ، فطلب منها لعله يصيب من فرص البيع قبل أن يسبقه التجار •

تسامع الناس بخبر هزيمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، والناس يصغون دائما الى ما يحبون ، ويذيعونه وينشرونه فرحين مستبشرين ، ويعميهم حبهم عن فحص الخبر ووزنه أو الشك فيه ، بل يطمئنون الى ما يحبون من غير تمحيص •

وفى مكة المكرمة محبون للنبى من ذوى قرباه ، وعلى رأسهم العباس عم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهاله الخبر ، فذهب الى الحجاج فسأله ما الخبر الذى جئت به ، فأشار الى العباس أن عنده أخبارا وطلب اليه أن يسافر حتى يفرغ من جمع ماله ، ويلقاه فى خلاء •

حتى اذا فرغ من جمع كل شىء كان له بمكة المكرمة ، وأجمع الخروج لقى العباس رضى الله عنه ، وقال احفظ عنى حديثى يا أبا الفضل ثلاثا ، فانى أخشى الطلب ، ثم قل ما شئت ، قال : أفعل ، فانى والله لقد تركت ابن أخيك عروسا على بنت ملكهم صفية بنت حيى ، ولقد افتتح خيبر ، وصارت له ولأصحابه ولقد أسلمت وما جئت الا لآخذ أموالى فرقا من أن أغلب عليه ، فاذا مضت ثلاث ليال ، فأظهر أمرك فهو والله على ما نحب •

مكث العباس ثلاث ليال لا يلتقى بالناس ، حتى اذا خرج لبس حلة ، وتطيب ، وأخذ عصاه وخرج حتى أتى الكعبة المشرفة ، فلما رأوه قالوا والله هذا التجلد لحر المصيبة •

قال : كلا والله الذى حلفتم به ، لقد افتتح محمد صلى الله تعالى عليه وسلم خيبر ، ونزل عروسا على بنت ملكهم ، وأحرز أموالهم وما فيها ، فأصبحت له ، ولأصحابه · قالوا من جاءك بهذا الخبر ؟ قال الذى جاءكم بما جاءكم به ، ولقد دخل عليكم مسلما ، فأخذ ماله ، وانطلق ليلحق بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فيكون معه ، قالوا : ياالعباد الله انفلت عدو الله ، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن . ولم ينشبوا أن جاءهم الخبر ·

ونقف وقفة قصيرة فى هذا ، أيعد الرجل قد كذب ، وهل يعد هذا الكذب اثما ، ونقول قبل الاجابة ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يأذن له بالكذب ، بل أذن بالقول ، بأن يورى ولا يكذب ، وأن يحاول من غير أن يتورط فى قول غير صحيح فى ذاته ولا فى موضوعه ·.

ولكن هل يعتبر كذبا أن يوهم بالقول ، ثم يوضح هو الحقيقة ، وهو بين قوم ظالمين ، ولا يمكن أن يصل الى حقه المشروع الا اذا أوهمهم ، ثم أزال وهمهم بقول الحق الصريح ، وهو قد ترك للعباس أن يصحح القول ، ويبين مقصده من ايهامهم ·

وانى أحسب أنه لم يكذب ويصر على ما أدخله فى نفوسهم ، والله سبحانه وتعالى أعلم ·

زواج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم

بأم المؤمنين صفية

٥٣٣ ــ كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم شفيقا رفيقا رءوفا فى ذات نفسه وبالناس ٠ وقد رأى صفية وأختها ٠ يمر بهما بلال رضى الله عنه فى وسط قتلى اليهود ، فنادى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بلالا لائما له قائلا : « أليس فى قلبك رحمة تمر بالفتاتين فى وسط القتلى من أهلهما » وكانت احداهما مذعورة نافرة وكانت صفية ساكنة مستسلمة تاركة نفسها للمقادير ٠

والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقرب القلوب ، ولا ينفرها ، وييسر ولا يعسر ، وكما كان عليه الصلاة والسلام يقول « يسروا ولا تعسروا ، واكفوا ولا تنفلوا » ٠

وقد كانت صفية فى قسمه ، فلم يرد أن يبقيها على الرق أو أن يفرض عليها رقا تأليفا ورفقا ، وكان يمكن أن ينال ما ينال بملك اليمين ، ولم يكن حراما ، ولكنه يبغض الرق ولا يريد أن ينشىء رقا على أحد قط ، وخصوصا اذا كانت ابنة رئيس القوم ، فهو لا يحب الذلة ينزلها بانسان بعد عزة ٠ ولذلك أعتقها وتزوجها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وجعل صداقها عتقها ، وكان زوجها ابن عمها فى جملة القتلى ٠

ولقد دخل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد استبراء رحمها بحيضة تحيضها ، ولم يكن لها عدة ، لأنه لا عدة من كافر ، وخصوصا أن عدتها تكون عدة وفاة ، وهى تكون للاحداد على الزوج السابق ، ولا احداد على كافر ، ولكن لا يصح أن يدخل بحامل ، فتركها صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى تستبرىء ٠

ولقد نظر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى وجهها ، فوجد أثر كدمة فى وجهها فسألها عنها فقصت خبر رؤيا لها رأتها ، بعد بضع ليال من زواجها بابن عمها ، وتلك أنها رأت فى منامها كأن قمر السماء وقع فى حجرها ، فقصت رؤياها على ابن عمها ، فلطم وجهها ، وقال : أتتمنين ملك يثرب أن يصير بعلك ، وقد تحققت رؤياها وكانت صادقة ، فجاء النبى صلى

الله تعالى عليه وسلم وفتح حصونها وكانت فى السبايا · فكرمها بأن أعتقها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وتزوجها ·

ولقد أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وليمة لزواجها ، وقال أنس أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وليمة بين خيبر والمدينة المنورة ثلاث ليال فدعوت المسلمين الى وليمته ، وما كان فيها من خبز ولحم ، وما كان فيها الا أن أمر بلالا بالأنطاع فبسطت فألقى فيها التمر والسمن ، فقال المسلمون أجدى أمهات المسلمين ·

ولقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رفيقا فى معاملته لها ، وقد اعتذر لها عن قتل أبيها وزوجها ، اذ كان أبوها يحرض عليه القبائل ، ويؤلب عليه الناس وما كان يستطيع أن يتركه · يؤلب العرب عليه ، وقتل زوجها ، لأنه خان العهد وأخفى مال أبيه ، ونقض الذمة ، وكان يتألف قلبها بسماحته ورفقه ؛ حتى صار أحب الناس الى قلبها ·

وان زواج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من السيدة صفية فيه فوائد اجتماعية ، فهو أولا يطفىء ما فى قلوب المؤمنين بالنسبة لليهود ، وضرب المثل السامى فى معاملة السبايا ، فهى كانت منهن ، فاختارها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم زوجا بدل أن يتخذ منها أمة يدخل عليها بملك اليمين ، وهو يضرب الأمثال فى حسن العشرة الزوجية ، فيكون خير الناس لأهله ، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى » · وان هذا الزواج فيه مداواة للجروح المكلومة ، لقد امرها بلال على القتلى من قومها ، فأكرمها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورفعها الى أعلى درجات النساء وهو أن تكون من أمهات المؤمنين ·

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يصلح بينه وبين اليهود فجعلهم شركاء للمؤمنين ، فكان من الحق أن يتألفهم ، وأن يرأف بهم ، وان ذلك الزواج تأليف وتقريب ، وابعاد للنفور ولكنهم جاحدون دائما ·

غـدر وسماحة

٥٣٤ ـــ كان سلام بن شكم الحامل الأول للواء اليهـود ، ولما قتـل حمل غيره اللواء وقد بقيت امرأته من بعـده بحقدها وضغنها على من قتـلوا زوجها عامة ، وخاصة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأرادت قتل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأداة القتـل عند النساء ، وهو السم ، وتظـاهرت بالمودة ، واتجهت الى اهداء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم شاة ، وضع السم فى أجزائها ، وتعرفت ما يحبه النبى عليه الصلاة والسلام من أجزاء الشاة ، فقيل لها الذراع فزادتها سما ، وأكثرته فيها ٠

أهدت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الشاة ، فجاءت بها ووضعتها بين يديه ، تناول النبى صـلى الله تعالى عليه وسـلم ذراع الشاة التى هى أحب أجزائها اليه ، فلاك منها مضغة فلم يسغها ، لعـل ذلك لأنها أسرفت فى وضـع السم فيها ، فكان غريب المذاق ، ولذلك رماها من يده ولم يأكلها ولفظها ، وكان معـه على الطعام صاحب له هو بشير بن البراء بن معرور ، فأكل هو الآخر ، فأساغها ولعل ذلك لعدم ظهور السم ، وان كان كامنا ، ومـات بشر من أكلته هذه ، ولكن ذلك لم يكن فور تناولها ٠

ولقد قال عليه الصلاة والسلام عندما لفظها : « ان هذا العظم ليخبرنى بأنه مسموم ودعا المرأة وسألها فاعترفت ، وصرحت بالعداوة قائلة : بلغت من قـومى ما لم يخف عليـك ، ثم أردفت ذلك بقـولها ، فقلت ان كان ملكا استرحت منه ، وان كان نبيـا فسيخبر » ٠

وقد تجاوز عنها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويظهر أن بشيرا لم يكن قد مات بأثر السم ، والا ما تجاوز النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عنها ، لأنها قتلت نفسا غدرا وعامدة ٠

وان عمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان السماحة كلها ، والسماحة دائما تقرب ، ولا تنفر ، وان العلماء يقولون ان هذا الفعل الذى لاك به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مضغة اللحم ، ولم يسغها كان له أثر فى جسـمه صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى يقال انه عندما ضعف جسـمه الكريم بمرض الموت أحس به يسرى فى بدنه ٠

يروى انه قال فى مرضه الذى توفى فيه ، لأم بشر بنت البراء بن البراء ابن معرور ، وقد جاءت اليه تعـوده قال لها : « يا أم بشر ان هذا الأوان وجدت انقطاع ابهرى التى أكلت مع أخيك بخيبر » ٠

ويبنى العلماء على ذلك أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد مـات شهيدا ٠

وهكذا نجد غدرا واضحا ، وسماحة غالية لمداواة جروح النفـوس ، واذا كان اليهود ابتداء قد حاولوا رمى الحجر عليه ، وهو جالس بجـوار جدارهم ، فقد حاولته امرأة حقود بالسم تقتله به ، وظهر أثره عندما ضعف بالمرض فمات شهيدا وهو أعظم الشهداء ٠

قدوم جعفر بن أبى طالب ومن معه

من المهاجرين

٥٣٥ ـــ انتصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى خيبر انتصـــارا مؤزرا ، أزال سلطان اليهود فى جزيرة العــرب فقوض قوتهم العسكرية ، وفل من شوكتهم ، وجعل العدو يسير وراء الاسلام ، ولا يواجهه ، وبقى أن يعــود الغرباء الى عزة الاسلام ، وقد خرجوا فرارا من اذلال المشركين ؛ عــادوا ليتحملوا عبء الجهاد أعزاء ، بدل أن يبقوا مستضعفين ، ولو كانوا ضيوفا بين قوم كرماء وملك كريم ٠

عاد جعفر بن أبى طالب ؛ ومعه المهاجرون الذين هاجروا الى الحبشة ، ونالوا فضل الهجرتين ، لقى النبى صلى الله عليه وسلم الرفيق ابن عمه الحبيب جعفر بن أبى طالب ، فقبله بين عينيه والتزمه ، وقال ما أدرى بأيهما أنا أسر بفتح خيبر أم بقــدوم جعفر ٠

عندما اطمأن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعزة الاسلام التى أعزها الله تعالى العلى القدير بها ، بعــد غزوة الأحزاب ، وقد صار الاســلام يغزو أعداءه ، ويخضد شوكته ، ويدعو الناس بدعوة الحق ، وهــو فى أمن ، وخصوصا بعد الحديبية عندئذ أرسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى أتبــاعه بعد الحديبية : يدعوهم الى أن يحضروا ليجاهدوا مع اخوانهم ، فهم فى غربتهم وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا عليهم ، يشــعرهم بأنهم منه وهو منهم ٠

بعث الى النجاشى الكريم ــ عمرو بن أمية الضمرى ، ليسهل لهم عودتهم ، بعد أن أكرم ضيافتهم ، فحملهم فى سفينتين ، فقدم على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو بخيبر ٠

عاد المهــاجرون الى الحبشـــة ، وكانوا من بطــون مختلفة ، ومــن أسر قرشية ، وغير قرشية ٠ مختلفة ، جمعهم الحق والايمان والهجرة ٠ وان فرقت البطون والأسر ٠

فكان من الهاشميين جعفر بن أبى طالب ، ومعه امرأته أسماء بنت عميس الخثعمية وولد له فى الحبشة عبد الله بن جعفر ٠

ومن بني أمية خالد بن سعيد بن العاص ، وامرأته وابنه سعيد بن خالد ٠

ومن بني عبد الدارين قصي الأسود بن نوفل بن خويلد ٠

ومن بني تيم بن مرة بن كعب الحارث بن صخر وامرأته ٠

وهكذا من بطون قريش وقد أحصاهم ابن اسحاق عدا فكان عددهم ستة عشر رجلا ، ومعهم أولادهم الصغار الذين صحبوهم أو ولدوا فى الحبشة ٠

وكان ممن حضر أبو موسى الأشعرى ، وعدد من الأشعريين ، كانوا هم عم أبى موسى الأشعرى وأخاه أبا بردة ٠

وقد كان مع مهاجرى الحبشة فى السفينتين نساء من هلك من المسلمين هنالك ٠

وقد روى البخارى أن أبا موسى الأشعرى لم يكن من مهاجرى الحبشة ، بل كان ممن آمن بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو باليمن ، ولما علم بهجرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هاجر اليه ، فالتقى فى الحبشة بجعفر بن أبى طالب ، ولنترك الكلمة للبخارى عن أبى موسى الأشعرى قال « بلغنا مخرج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فخرجنا مهاجرين اليه ٠٠٠ فى ثلاث وخمسين رجل من قومى ، فركبنا سفينة فالقتنا سفينتنا الى النجاشى بالحبشة ، فرافقنا جعفر بن أبى طالب ، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعا ، فرافقنا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حين افتتح خيبر ، فكان أناس من الناس يقولون لنا سبقناكم بالهجرة » ٠

ويروى البخارى مناقشة كانت بين أسماء بنت عميس امرأة جعفر ابن أبى طالب وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما ٠ ذلك أن أسماء زارت أم المؤمنين حفصة رضى الله عنها ٠ فدخل عمر أبو حفصة وعندها أسماء ٠

فقال عمر : الحبشية هذه البحرية هذه ٠

قالت أسماء نعم ٠

قال عمر رضى الله عنه : « سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فغضبت أسماء وقالت ، كلا والله كنت مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم وكنا فى دار البيداء والبغضاء بالحبشة ، وذلك فى الله ، وفى رسول الله صلى الله تعالى عليه

وسلم ، وأيم الله لا أطعم طعاما ، ولا أشرب شرابا ، حتى أذكر ما قلت للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأسأله ، لا أكذب ولا أزيغ ، ولا أزيد عليه » ٠

ذهبت فى هذه الحماسة الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقالت : يا نبى الله : ان عمر قال كذا وكذا وقلت كذا وكذا ٠

قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حاكما بين هذين المؤمنين المخلصين : « ليس بأحق منكم ، وله ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان » ٠

هذا حديث كان يجرى بين الصحابة أيهما أسبق للهجرة أأولئك الذين هاجروا من مكة المكرمة اذ هاجر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من مكة المكرمة ، أم أولئك الذين هاجروا فرارا من فتنة المشركين ، وبسبب بعدهم وغربتهم لم يهاجروا مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة المنورة ، بل حبسهم البعد والغربة عن أن يهاجروا مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وفى ذلك الشرف والاخلاص فليتنافس المتنافسون ، وفى كل فضل ، فالذين هاجروا مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نالوا نعمة الجهاد فى غزوات وسرايا ، فجاهدوا فى بدر وأحد ، وبنى قينقاع ، وبنى النضير ، ثم تحملوا البلاء فى حفر الخندق ، وزلزال غزوة الأحزاب فى الخندق ، ثم كان لهم فضل الصبر فى الحديبية ، وليس صبر القتال ، ولكنه صبر النفس ، وضبطها ، ثم بيعة الرضوان ٠

وفضل مهاجرى الحبشة أنهم كانوا فى غربة معزولة ، وكانوا مستضعفين فى الأرض يبغون الجهاد ولا يدركونه ، حتى أنقذهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فجاءوا اليه ليحملوا عبء الجهاد كاخوانهم ، ويزول عنهم بلاء الاغتراب الى بلاء الجهاد ، وعزته ٠

وادى القرى

٥٣٦ ــ كان حول خيبر أو على مقربة جيوب لليهود ، لم يقدعها هزائم أهل الحصون فكانوا يعلون برءوسهم حاسبين أنهم ينالون من المسلمين نيلا ٠

فكان اليهود بوادى القرى ينهدون برءوسهم ، ولم يعتبروا بما كان فى

خيبر ، وبينما النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بوادى القرى أصيب رجل من المؤمنين بسهم فقتل ٠

وأخذ يهود وادى القرى ، يجمعون أنفسهم ، وانضم اليهم ناس من العرب ، فلم يكن بد من القتال وهم أهون فى أنفسهم وعند الله من خيبر ومن كان وراءهم ٠

هيأ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أصحابه للقتال وصفهم ، وأعطى اللواء سعد بن عبادة ، وأعطى راية الى الحباب بن المنذر ، وراية الى سهل ابن حنيف ، وراية الى عباد بن بشر ، تقدم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يدعوهم الى الاسلام ، وأخبرهم انهم ان أسلموا احرزوا أموالهم ، وحقنوا دماءهم وحسابهم على الله ٠

فلم يجيبوا داعى الله ، واثروا القتال فخرج رجل منهم يطلب المبارزة ، فبرز اليه الزبير بن العوام فقتله ، ثم برز آخر فبرز اليه على فقتله ، حتى قتل منهم أحد عشر ، وكلما قتل رجل منهم كرر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الدعوة الى الاسلام ، والى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم ٠

ولكنهم عموا وصموا عن دعوة الحق ، فكان القتال الذى ابتدءوه بالسهم القاتل لرجل من المؤمنين ولم تجدهم الدعوة الى الاسلام ، وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يصلى كلما حضر وقت الصلاة ، ثم يدعوهم لم يجد ذلك كله فقاتلهم ، حتى أمسى ، وعدا عليهم ، فلم ترفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم من مال وسلاح وبذلك فتحت أرض وادى القرى عنوة ، ولم تكن بصلح كفدك ، وقد أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أربعة أيام ، ذهب بعدها الى تيماء ٠

ولقد قسم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أموال وادى القرى ، كما قسم خيبر ، فكانت الأموال ابتداء مخمسة أربعة أخماس للفاتحين وخمسها لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولذى القربى واليتامى والمساكين ، وابن السبل ، والأرض والنخيل بقيت فى أيديهم على أن يكون لهم نصف ما تنتج ، وللنبى صلى الله تعالى عليه وسلم النصف ، وتكون الثمار والزروع موزعة توزيع الغنائم ٠

ولقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقوم بهذه القسمة على اعتبار أن كل أموال خيبر ، ومن سار مسارها ، وهم أهل وادى القرى ، غنائم تخمس ، وقد خمس الأموال المنقولة وخمس نتاج الأرض والنخيل ، وبقية الأموال الثابتة ٠

وذلك لأن الفاتحين من أهل المدينة المنورة كانوا عددا قليلا ، ولم يكونوا كثرة كبيرة وكان جميع أهل المدينة المنورة مجاهدين ، وكان نصيب الفقراء والمساكين واليتامى ثابتا ، غير موزع على غيرهم ، والكراع والسلاح وما يحتاج اليه النبى صلى الله عليه وسلم كان يؤخذ من حصة الله والرسول صلى الله عليه وسلم ، اذ يستبقى لنفسه من هذا الخمس نفقة سنة ، وينفق الباقى على المصالح العامة للمسلمين ٠

ولما جاء عهد عمر رضى الله عنه نفذ الأمر فى خيبر ، وما يشابهها كما قسم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يتضمن المعانى التى ذكرناها ، وهو بقاء الأرض تحت أيدى أهلها ، وكان يقول رضى الله تبارك وتعالى عنه « أما والذى نفسى بيده لولا أن أترك آخر الناس ليس لهم شىء ما فتحت قرية الا قسمتها كما قسم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خيبر ولكنى أتركها خزانة لهم يقتسمونها » ٠

ولذلك ترك أرض سواد العراق فى أهلها ، وجعل خراجها لمصالح المسلمين مستندا الى ما قرره القرآن الكريم بالنسبة لأرض بنى النضير ، ونعتقد أنه هو ما قرره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى أرض خيبر ، فمعناه لا يخرج عنه ، لأن جماعة المؤمنين كانوا جميعا مجاهدين أو يتامى أو أبناء سبيل أو مساكين ، ولكل حظ ، وكان أولئك معروفين فى المدينة المنورة ٠ فلما اتسعت رقعة الدولة كان الخراج موزعا على مصالح المسلمين ، وسد حاجة المحتاجين بشكل عام ٠

صلح تيماء

٥٣٧ — بما كان فى خيبر ووادى القرى انتهت قوة اليهود العسكرية فى بلاد العرب ، ولكن بقى فيها ناس لم يخضعوا لحكم الاسلام وسلطانه ، ويكونون تابعين له من غير أن يضاروا فى دينهم ، ولا يرهقوا فى عقائدهم وهم يهود تيماء ، وكانت على مقربة من الشماء ولم يعتبر الامام عمر رضى الله عنه أرضهم من أرض العرب التى لا يجتمع فيها دينان ٠

وأهل تيماء من اليهود عندما علموا ما نزل بخيبر ووادى القرى ، وما سامحهم فيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من معاملة عندما علموا ذلك لم يريدوا قتالا ، وجاءوا ودفعوا الجزية ، وصالحوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عليها وجزيتهم كانت جزية على الأرض وهو الخراج ، وجزية على الرءوس على ما هو مبين فى كتب الفقه ، واعطاء الجزية اقرار بخضوعهم

لحكم الاسلام على أن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم من أحكام القصاص والحدود ، وسنتكلم بعد ذلك فى الأحكام الشرعية التى أخذت من أقوال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى غزوة خيبر ، وما جاء بعدها ، فانا لا نترك ذلك ، ولكن أخرناه حتى ننتهى من القتال والحرب والتسليم وشروطه ٠

اجلاء عمر لليهود

٥٣٨ — أجلى عمر بن الخطاب اليهود ، يهود خيبر ووادى القرى الذين يسكنون فى الجزيرة العربية عملا بقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان » ٠

ولكنه لم يجل أهل تيماء ، لأن أرضهم لم تكن فى داخل الجزيرة ، بل كانت فى أطراف الشام ، وهم قد قبلوا أن يكونوا ذميين لهم ذمة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولم ينقض أحد منهم ذمة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم لم تفتح أرضهم عنوة ، بل كانت صلحا ، فلم تكن ثمة مشابهة بينهم وبين خيبر ووادى القرى ، والحديث النبوى لا ينطبق عليهم ، لأنهم كانوا فى طرف الشام الذى يصاقب جزيرة العرب ، وبذلك جمع عمر رضى الله عنه بين المحافظة على عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومصلحة المسلمين جزاه الله تعالى عن الاسلام خيرا ٠

الأحكام الشرعية التى تقررت فى خيبر

٥٣٩ — كثرت الأحكام التى شرعت فى أثناء غزوة خيبر لطولها ، ولتنوع أحداثها ، وهى جزء من تبليغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رسالة ربه فما كان نبيا للقتال ، بل كان نبيا مبلغا رسالة ربه ؛ فهى المطلوب فى السلم وفى الحرب ، وهى مطلوبة بالذات والقصد الأول ، وما كانت الحرب الا دفاعا ومنعا للفتنة ، وتعبيد الطريق لكى تسير فى مسارها لا يحول حائل بينها وبين القلوب ؛ ولا اكراه فى الدين من بعد أن تصل الدعوة « **فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ؛ وما ربك بظلام للعبيد** » ٠ فالدعوة هى لب الرسالة والحرب لدفع ما يعترض طريقها ٠

ومن أظهر الأحكام الشرعية التى ثبتت فى خيبر ٠

اباحة المزارعة والمساقاة :

٥٤٠ — وأظهر الأحكام هو ما صنعه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع اهل من دفع الأرض اليهم على نصف غلاتها والأرض مملوكة للمسلمين ٠ فدفعها اليهم على نصف الغلات مزارعة ومساقاة ٠ لأن دفع الأرض لزراعتها على سهم معلوم للمالك مزارعة ٠ ودفع الشجر لاصلاحه على سهم معلوم للمالك مساقاة ٠ والاتفاق بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وبين يهود خيبر ٠ يتضمن الزرع واصلاح الشجر فهو يتضمن مزارعة ومساقاة معا ٠

ومن قال ان عقد المزارعة فاسد ، فقد رد السنة وذلك غير جائز ٠

وان المزارعة والمساقاة اجارة ابتداء ، وقد تكون اجارة فاسدة ٠ وهى مشاركة انتهاء وان ذلك وصف فقهى ؛ وليس حكما شرعيا والحكم الشرعى ؛ قد ثبت بفعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فانه صحيح فلا مشاحة فيه ، وللفقهاء أن يطبقوا أقيستهم الفقهية كما يرون ما يكون منها صالحا للتطبيق وما لا يكون صالحا يردونه وعمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ وما يؤدى اليه من اباحة فوق ما يقررون من أقيسة قد تخطىء وقد تصيب ولا قياس مع النص ٠

وان هذه المزارعة كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا يقدم البذر ، بل كان البذر والعمل من العامل وعمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يجيز ذلك النوع من الزراعة كما يجيز أن يكون البذر والأرض من صاحب الأرض ، وكما يجوز أن يكون البذر منهما ٠

ويشبه ابن القيم الأرض برأس المال فى المضاربة ، وقد يضيف اليه المالك البذر وربما لا يضيفه كما فعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ومهما يكن الوصف الشرعى عند الفقهاء فان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد فتح باب الاستغلال لمن له ارض ولا يستطيع زراعتها بنفسه ، لمشاغل تشغله كأولئك المجاهدين أو المرضى ٠ أو لعدم خبرة أو غير ذلك من الأسباب المعوقة له عن الزراعة بنفسه ٠

وقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقسم الثمرات قسمة الغنائم ، والله سبحانه وتعالى هو الحكيم العليم ٠

تحريم اكل لحم الحمر الأنسية :

٥٤١ — ثبت نهى رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم عن أكل لحم الحمر الانسية ، وأباح عليه الصلاة والسلام أكل لحم الخيل ، فقد رأى صلى الله تعالى عليه وسلم ، بعض أصحابه يأكلون لحم الحمر الانسية ، فى خيبر فنهاهم عنها ، روى ابن اسحاق بسنده عـن بعض من شهد خيبر قـال أتانا نهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن أكل لحوم الحمر الانسية ، والقدور تفور بها ، فكفأناها على وجوهها ٠

وقد روى الحافظ بن كثير أنه نادى منادى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ان الله ورسـوله ينهيانكم عن لحـوم الحمر فانها رجس فأكفئوها ، والقدور تفور بها » ٠

وان هذه النصوص الواردة فى تحريم لحوم الحمر الانسية صحيحة تضافرت رواياتها من عدة جهات ، وهنا يسأل الباحث لماذا كان تحريمها ، وهى تأكل العشب ولا تأكل اللحم وليست ذات ناب ، ولا تعد من السباع المنهى عنها بأى صورة من الصور ٠

يقول بعض الباحثين ، ومنهم بعض التابعين ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عنها فى خيبر ، لأنها كانت تحمل الأمتعـة ، وكانت ضرورية للناس فى استعمالها ، ولذلك قال ابن عباس انها ليست حراما لذاتها ولـكن كانت فى خيبر ممنوعة الأكل لهذا ٠

ولكن يرد ذلك التأويل أمران :

أولهما : أن الخيل كانت الزم للجهاد من الحمر ٠ ومع ذلك أبيحت لحومها مع أن الحاجة اليها أشد والزم — الأمر الثانى — أن صريح الحديث الذى رواه ابن اسحاق أنها رجس فهى محرمة لذاتها أى لحمها وأن فيه ما يمنع أكلها ٠

ولقد قيل فى سبب تحريمها فى خيبر بالذات أن الحمير فى خيبر كانت قذرة لأنها جلالة وكانت تأكل العذرة ٠

وقيل أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم منع أكلها ؛ لأنهم كانوا يأكلونها قبل قسمتها من الغنائم ؛ وقد يقال انه ينافى ذلك وصف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : بأنها رجس ٠ ولكن يجاب عن هذا بأنها كانت رجسا أى مالا خبيثا ، لأنها لم تكن قد قسمت ، فمعنى رجسها أنها لم تكن كسبا حلالا طيبا بل كانت كسبا خبيثا غير طيب ٠

ويقول الحافظ بن كثير فى تاريخه : ان تحريمها هو مذهب جمهور العلماء سلفا ، وخلفا ، وهو مذهب الأئمة الأربعة ، ولعل من المفارق فى مذهب مالك أن يحرم لحم الحمر الانسية ، ويبيح أكل لحم الكلب ، وله فى اباحة لحم الكلب اجتهاد يتصل بنص قرانى ، اذ أن القرآن الكريم أباح أكل صيده فى قوله تعالى : « **يسألونك ماذا أحل لكم ، قل أحل لكم الطيبات ، وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله ، فكلوا مما أمسكن عليكم ، واذكروا اسم الله عليه ، واتقوا الله ، ان الله سريع الحساب** » · ويقول الامام مالك فى ذلك ، كيف يؤكل صيده ، ويحرم لحمه ·

وبعض العلماء لهذه التأويلات المختلفة · قال ان أكل لحمها مكروه ، لأن التحريم يثبت بدليل يقبل التأويل ففيه شبهة ! ومآل ذلك الكراهة لاالتحريم القاطع ·

تحريم سباع البهائم :

٥٣٢ ــ ثبت فى غزوة خيبر تحريم أكل سباع البهائم ، وهى الحيوانات التى تعيش على أكل اللحوم ، أو كل ذى ناب ، كما يعبر الحديث النبوى ، فقد روى ابن اسحاق بسنده أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نهى يومئذ ــ أى يوم خيبر ــ عن أربع : عن اتيان الحبالى من السبايا ، وعن أكل الحمار الأهلى ، وعن أكل كل ذى ناب من السباع ، وعن بيع المغانم حتى تقسم ·

وقد تكلمنا فى النهى عن أكل لحوم الحمير الأهلية ·

ونتكلم الآن عن أكل كل ذى ناب من السباع ، وهو ما يسمى فى عرف الفقهاء بسباع البهائم ، وهى محرمة لذاتها ، لهذا النص ، ولحمها نجس ، ولعابها وهو تبع للحمها نجس أيضا ·

هذا وان لحم سباع البهائم ، أو كل ذى ناب كما عبر القرآن الكريم يكون حراما بالنص ، ويحرم سباع الطير ، كالنسر والحدأة والغراب وغيرها من أكلة اللحوم بالقياس على ذى الناب من سباع البهائم ·

تحريم وطء الحبالى من السبايا وغيرهن :

٥٤٣ ــ ثبت تحريم الدخول بالحبالى من السبايا ، وقد ورد ذلك فى الحديث السابق المروى بسند ابن اسحاق رضى الله تبارك وتعالى عنه ·

وقد روى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره » (يعنى الحبالى من السبايا) ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنما ، حتى يقسم ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر ان يركب دابة من فىء المسلمين حتى اذا اعجفها ردها ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس من فىء المسلمين ، حتى اذا أخلقه رده ·

ونرى أن الحديث منع أمورا تتعلق بالمغانم ، ومنع الدخول بالحبالى من السبايا ، ونريد أن نتكلم فى هذا الجزء الأخير ، لأنه موضوع قولنا ، ونؤخر الباقى ·

والكلام فى الدخول بالحبالى ، وقد نهى عنه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولم ينه عن سببه فيما يتعلق بالسبايا · ذلك أن سبب الدخول بالسبايا هو ملك اليمين ، فلم يكن ثمة نهى عنه ، بل الملكية تثبت ، ولكن لا يترتب عليها أثرها وهو الدخول ، لأنه اذا كان السبب قد وجد ، فقد كان المانع ، وهو كونه حاملا ، وأن دخوله يسقى به ماءه زرع غيره ، وهو المنهى عنه · فلابد قبل أن يدخل بالمسبية من استبراء رحمها بالولادة ان كانت حاملا ، وأن تحيض مرة اذا كانت حائلا ، لأن الحيض أمارة أنه لا حمل ، فيحل الدخول وان السبب هنا ، وهو الملكية حكم شرعى ، ثبت بحكم تقسيم الغنائم ، فهو سبب شرعى ، وليس بسبب جعلى يقوم به المكلف ·

ونثير هنا بحثا هل السبب الجعلى ، وهو عقد الزواج يكون كالسبب الشرعى ، بأن يحل عقد الزواج على الحامل ، كما يثبت سبب الملكية ·

لقد فصل الفقهاء الأمر فى ذلك بالاستناد الى ما قرره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من وجوب العدة من كل دخول كان بسبب أمر ليس حراما عند الشارع ، أو عقا عنه · فان العقد على الحامل حرام وذلك لأن لها عدة ، ولا عقد فى حال العدة ، فاذا كان من زواج صحيح أو دخول بشبهة تسقط الحد ، وتمحو وصف الزنى ، فان العقد لا يصح ، لأنها ذات عدة ، والعقد على معتدة باطل ، ولذلك يكون السبب باطلا ، والدخول يكون زنى ·

واذا كانت حاملا من زنى ، فهل يجوز الدخول وهل يصح العقد ، اتفق الفقهاء على أن الدخول لا يجوز ، لأنه ينطبق عليه الحديث لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره ولكن أيصح انشاء العقد على الزانية ·

قالوا انه اذا انتهت عدتها يصح العقد بالاجماع اذا تابت ، واذا كانت

العدة لم تنته ، فانه من المقررات الشرعية أنه لا عدة للزانية ، ولو كانت حاملا بيد أنه يصح الزواج من غير الحامل · أما الحامل فينعقد زواجها من صاحب الحمل ، لأنه لا يسقى ماءه زرع غيره ، وكره بعض الفقهاء أن يدخل بغير الحامل قبل استبراء الرحم ·

أما اذا كان العاقد غير صاحب الحمل ، فقد قال بعض الفقهاء يصح الزواج ولا يدخل بها كما بينا ، أما صحة الزواج فلأنه لا عدة لها تمنع صحته ، لأنها ليست فى عصمة أحد ، والزانى لا عصمة له ·

وأما الدخول بها فممنوع بنص الحديث الذى ينص عليه فى غزوة خيبر ، وهو عام فى منع أن يسقى ماءه زرع غيره ، ونسب هذا القول الى أبى حنيفة والشافعى ومحمد من أصحاب أبى حنيفة ·

وقالت طائفة أخرى من الفقهاء منهم مالك وأبو يوسف من أصحاب أبى حنيفة وأحمد فى رواية عنه وزفر من أصحاب أبى حنيفة رضى الله عنهما أن الزواج لا يصح ، لأنه اذ كان الدخول لا يجوز وهو غاية العقد ، لأن القصد الأول المتعة ، ولا فائدة من عقد لا تترتب عليه لوازمه ، ومادام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد نهى عن الدخول بالحامل ، بالنهى عن أن يسقى ماءه زرع غيره فقد نهى عن الزواج ، لأن النهى عن الأمر اللازم نهى عن الملزوم ·

ولأن النهى لأجل حق الحمل ، وحق الحمل يراعى ، لأنه لا جناية منه · واذا عقد على المرأة وتبين أنها كانت حاملا وقت الزواج فان العقد لا يكون صحيحا ، لأنه لا يفرض أنها كانت حاملا من زنى ، اذ يجب حمل حال المؤمن على الصلاح ، بل يفرض أنه كان من زواج وشبهة تسقط الحد وتمحو وصف الزنى ·

قسمة الغنائم ومالا تقسم منها ودقتها :

٥٤٤ ـــ ثبت أن المال الذى يقسم غنيمة الأموال المنقولة وثمرات الأموال غير المنقولة ويكون للرسول صلى الله عليه وسلم ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل الخمس ، وأربعة الأخماس للغانمين ، وأنه يعطى للراجل سهم ، وللفارس ثلاثة أسهم سهمان للفرس ، وسهم لصاحبه ، وذلك لأن نفقات الفرس كبيرة ، ويريد الرسول صلى الله عليه وسلم أن تكون ذات قوة دائما لأنها عدة القتال ، ولتشجيع المجاهدين على اتخاذها للجهاد ، وفى بعض الروايات أنه جعل للفرس سهما ، ولصاحبها سهم ، ولكنه غير الرواية المشهورة ·

وانه يلاحظ أمران بالنسبة للغنائم :

أولهما : أنها لا تملك قبل القسمة ، ولذلك صرح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى غزوة خيبر انه لا يجوز بيع من له فيها قبل أن يقسم له قسم ويدخل فى حوزته ، ولذا قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيما روينا من قبل ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنما قبل أن يقسم ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فىء المسلمين ، حتى اذا أعجفها ردها فيه ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس يوما من فىء المسلمين ، حتى اذا أخلقه رده • وهذا الحديث يدل على أنه لا يملك • ولا يصح أن ينتفع به قبل القسمة •

الأمر الثانى : الذى يجب التنبيه عليه أن الطعام الذى لا يدخر ، لا يخمس ، لأنه لا يعد غنيمة ، ولأنه يدفع غائلة الجوع الذى يصيب المجاهدين ، وحال مغبة الجوع ، وكان الجوع يصيب المسلمين فعلا فى غزوة خيبر ، وانه اذا لم يتناول قبل القسمة كان الناس فى مخمصة ، والطعام بين أيديهم ، وان ذلك ابتلاء فوق الابتلاء بالجهاد والصبر على شدائده •

يروى ابن اسحاق بسنده عن عبد الله بن مغفل ، المدنى انه قال • « أصبت من خيبر جراب شحم فاحتملته على عنقى الى رحلى وأصحابى ، فلقينى صاحب المغانم الذى جعل عليها ، فأخذه بناحيته ، وقال هلم ، حتى تقسمه بين المسلمين ، قلت لا والله لا أعطيه وجعل يجاذبنى الجراب ، فرآنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فتبسم ضاحكا ، ثم قال لصاحب المغانم خل بينه وبينه ، فأرسله ، فانطلقت الى رحلى وأصحابى فأكلناه » •

وهناك أمر يجب التنبيه عنه ، وهو غلول الغنيمة ، فهو محرم تحريما قاطعا ، لأنه سرقة فى مال الله تعالى : **« وما كان لنبى أن يغل ، ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ، ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون »** •

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا يمكن أن يغل ، ، وليس من شأنه وكماله أن يغل هو ، أو يقر غلول أحد ، أو يسكت عنه ، والغلول الأخذ من الغنيمة خفية ، واذا كان لا ينطبق عليه حد السرقة ، لأن مال الغنائم ليس فى حرز مثله ، ولأن المحارب له شبه حق فيه ، والحدود تدرأ بالشبهات ، فانه شدد الله تعالى فى عقوبته فى الآخرة ، وفى غزوة خيبر ؛ بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم شدة العقوبة فى الآخرة •

وقد كان بين المحاربين رجل اسمه مدعم ، وقد أخذ من الغنائم شملة ،

وفتش متاعه بعد مقتله فوجد فيه مع الشملة خرزا من حرز يهودى يساوى درهمين ، وهو غلول مهما تكن قيمته ٠

وقد جاء سهم فقتله وهو بوادى القرى ، فقال الناس هنيئا له بالشهادة فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « كلا والذى نفسى بيده ان الشملة التى أخذها يوم خيبر ، لم يصبها المقاسم لتشتعل عليه نارا » فأخرجه النبى صلى الله تعالى وسلم من صفوف الشهداء بفعلته التى فعلها ٠

الأمانة واجبة مع الأعداء :

٥٤٥ ــ ان الامانة عدالة ، بل ان العدالة ذاتها تدخل فى ضمن الأمانات ولذلك قرنها سبحانه وتعالى بها فى قوله تعالى : « **ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى اهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، ان الله نعما يعظكم به** » ٠

وفى غزوة خيبر بين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن الأمانة فى مال الأعداء واجبة ، لا تبرر العداوة اهمالها ، واذا كانت أموال الأعداء تغنم فى القتال ويأخذها المسلمون ، ويقسمونها بينهم ، فان ذلك قانون الحروب ، وليس من قانون الاسلام خيانة الأمانة ولو لعدو يحارب ٠

روى موسى بن عقبة عن عروة بن الزبير أنه جاء عبد حبشى أسود من أهل خيبر ، كان فى غنم لسيده ، فلما رأى أهل خيبر قد حملوا السلاح سألهم ماذا تريدون ؟ قالوا نقاتل هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ، فوقع فى نفسه ذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاقبل بغنمه ، حتى عمد الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له الى من تدعو ؟ قال أدعوك الى الاسلام ، أن تشهد أن لا اله الا الله وأنى رسول الله وألا تعبد الا الله ، فقال العبد : فماذا يكون لى ان شهدت بذلك ، وآمنت بالله ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الجنة ان مت على ذلك ، قال الرجل المؤمن يا رسول الله ان هذه الغنم عندى أمانة ، اذ كان يرعاها وهنا أمره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يؤدى أمانته ، ولم يقل انها غنيمة للمسلمين ، ولم يضمها الى أموال الله ، لأن الأمانة يجب أن تراعى لذاتها ، لا فرق فيها بين عدو محارب ، وولى مناصر ، بل قال الرسول الأمين : أخرجها من عسكرنا ، وارمها بالحصا ، فان الله سيؤدى عنك أمانتك ففعل ، فرجعت الغنم الى سيدها فعرف اليهودى أن غلامه قد أسلم ٠

ولقد قتل ذلك العبد الأمين بأمانة الله تعالى فى خيبر شهيدا ، فادخل فى قماط الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ·

وان هذا درس حكيم للذين يخونون أموال الناس ، ويبررونها بعداوة لهم ، وقد يكونون ظالمين فى العداوة كما هم ظالمون بالخيانة ، والله عليم بذات الصدور ·

النبى صلى الله عليه وسلم تفوته الصلاة :

٥٤٦ — ان الأعذار تكون على الناس أجمعين ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم من أصل البشرية ، فيجرى عليه ما يجرى على الانسان ، ويرهقه ما يرهق الانسان ·

ولقد كان فى خيبر أن نام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حتى أشرقت الشمس ، وقد وقف حارسه ينبهه اذا نام ، ويوقظه اذا استغرق الناس ، فضرب الله تعالى على اذانه أيضا فنام ولم يوقظ حتى أشرقت الشمس ، ومع أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم تنام عيونهم ولا تنام قلوبهم ، ففى خيبر استغرق صلى الله تعالى عليه وسلم فى النوم بعينه · وان كان قلبه يقظا لم ينم ، وذلك ليعلن الله تعالى انسانيته ، وليكون عمله أسوة للناس فى تدارك ما فاته ، لأن المؤمنين يتخذونه أسوة حسنة ، ولأنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال صلوا كما رأيتمونى أصلى ، فهو يبين لهم الصلاة فى حال الأداء وحال القضاء معا ·

ولنذكر قصة ذلك ، كما جاءت فى صحاح السنة وفى كتب السيرة — فى غزوة خيبر · روى أبو داوود بسنده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حين قفل راجعا من خيبر ، سار ليلا حتى أدركنا الكرى ، وقال لبلال كلأ الليل ، وبلال يحرسه ، وغلبت بلالا أيضا عيناه ، وهو مستند الى راحلته فلم يستيقظ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا بلال ، ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أولهم استيقاظا ، ففزع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال يا بلال فقال أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك بأبى أنت وأمى يا رسول الله · فاقتادوا رواحلهم شيئا ، ثم توضأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأمر بلالا ، فأقام الصلاة ، وصلى بهم الصبح ، فلما أن قضى الصلاة قال من نسى صلاة فليصلها اذا ذكرها ، فان الله تعالى يقول : « **واقم الصلاة لذكرى** » وان هذا الحكم يستفاد منه أمران :

أولهما : وجوب قضاء الصلاة اذا فاتته بنوم أو نسيان مما لا قبل له بدفعه ، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم « من نام عن صلاة أو نسيها ، فليصلها اذا ذكرها » ٠

ثانيهما : أن قضاء الصلاة كما يكون بالانفراد يكون بأدائها جماعة مع اقامة الصلاة ، وذلك بلا ريب هو الأفضل ، لأن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة ، فالجماعة لا تسقط عند القضاء ، كما يتوهم بعض الناس ٠

ويجب أن نبين هنا أن بعض الفقهاء يقرر أن القضاء يغنى غناء الأداء فى حال فوات الصلاة بالنوم والنسيان ، ولا يغنى القضاء غناء الأداء اذا كان فوات الأداء من غير هذين العذرين ٠ ويكون القضاء واجبا فى هذين العذرين ولا يكون واجبا فى غيرهما ٠

بل ان التوبة تكون هى الرافعة للاثم ، والقضاء لا يغنى عنها ، وذلك لأن فوات الوقت وترك الصلاة من غير عذر لا يسقط وجوب أدائها ، فلا يغنيه فتيلا القضاء بعد ذلك ، لأن الصلاة ليست نقدا يكون فى مقابل نقد ، انما الصلاة شرعت تهذيبا للنفوس فى مواقيتها ، فهى عبادة مقصودة فى أوقاتها لتجلو صدأ القلوب فى الصباح ، وصدأها فى الظهيرة ، وفى الأصيل وفى العشية ، كما قال الله سبحانه وتعالى : « **فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السموات الأرض ، وعشيا ، وحين تظهرون** » فالصلاة فى أوقاتها مطلوبة فى ذاتها وفى الوقت تطهيرا للنفس ، وازالة لصدئها ، ولا تترك حتى يعلوها الصدأ ويتراكم فلا يزال ، ولا يصلح ذلك الاثم الا التوبة ٠

ونحن نرى أنه لابد من التوبة وقد يجدى القضاء مع التوبة ، والله تعالى غفار لمن تاب وآمن ، ثم اهتدى ٠

تحريم المتعة فى خيبر

٥٤٧ — جاء فى تاريخ الحافظ بن كثير ، وقد تكلم الناس فى الحديث الوارد فى الصحيحين عن طريق الزهرى عن عبد الله والحسن ابنى محمد ابن الحنفية عن أبيهما عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن نكاح المتعة يوم خيبر ، وعن لحوم الحمر الأهلية هذا لفظ الصحيحين عن طريق مالك وغيره عن الزهرى ، وهو

يقتضى تحريم نكاح المتعة يوم خيبر ، وهو مشكل فى وجهين : **أحدهما : أن يوم** خيبر لم يكن ثم نساء يستمتعون بهن ، اذ قد حصل الاستغناء ، بالسبايا عن نكاح المتعة · **الثانى** : أنه قد ثبت فى صحيح مسلم عن الربيع بن مسيرة عن معبد عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لهم فى المتعة زمن الفتح ، ثم لم يخرج من مكة المكرمة حتى نهى عنها ، وقال : « ان الله تعالى حرمها الى يوم القيامة » ، فعلى هذا يكون قد نهى عنها ، ثم أذن فيها ثم حرمت فيلزم النسخ مرتين ، وهو بعيد ، ومع هذا فقد نص الشافعى على أنه لا يعلم شيئا أبيح ثم حرم ، غير نكاح المتعة ، وما حداه الى هذا الا الاعتماد على هذين الحديثين ·

ان هذا الذى ساقه الحافظ ابن كثير يدل على ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن المتعة فى خيبر ، وما أقامه من اشكال لا يرد الحديث الصحيح الذى أجمع عليه الشيخان ·

فالاشكال الذى ساقه بتوافر السبايا فى خيبر يدل على النهى ويؤكده ، ولا ينقضه ، لأنه حيث توافرت السبايا لا يكون شكوى من العزوبة ، فلا يكون للمتعة موضع ، فلا يكون اذن ، فهو موثق للتحريم وليس بناقض له ·

أما الاشكال الثانية : فقد رده هو بتكرار الاذن ، ثم تكرار النهى ، وكونه بعيدا فى نظره يرد كلام الشافعى رضى الله تعالى عنه ، واذا كان بعيدا ، فانا نرجح حديثا أجمع عليه الشيخان على حديث انفرد به أحدهما ·

ومهما يكن ما ارتآه الحافظ ابن كثير من مشاكل حول حديث الشيخين ، فانه من المؤكد أنه كان ثمة نهى عن المتعة فى خيبر ، سواء أجاء اذن بعد ذلك ، ثم نهى أم لم يجىء ·

حقيقة المتعة :

٥٤٨ — وجد فى هذه الأيام ناس فى مصر لا حريجة تدفعهم ولا دراسة تمنعهم ، يدعون الى المتعة ، فعلينا ان نذكر حقيقتها · كما هى عند الذين يدعون اليها ، ومن حقيقتها يتبين أهى متفقة مع المبادىء الشرعية المقررة فى الزواج ، وهى مبادىء علمت من الدين بالضرورة ·

وقد عرفها العلماء بأنها اتفاق بين رجل وامرأة بحضرة شهود على أن يعاشرها مدة معلومة ، على مهر ، أو أجرة معلومة ، وقال صديق خان فى

كتابه سبيل السلام لا تتجاوز مدتها خمسة وأربعين يوما ، ولكن المشـهور أنها تصح بأكثر من هذه المدة ٠

واذا أخلت المـرأة بتسـليم نفسها جـزءا من المدة نقص مـن الأجـرة ما يقابلها ، فهى اجارة لبضع المرأة كاجارتها للرضاعة ٠

وتختص بالأحكام الآتية :

١ ـ لا توارث فيها ، فـاذا مـات أحـد الطرفين لا يرثه الآخـر ، لأن الميراث ثبت بين الزوجين وهما ليسا زوجين باتفاق الفقهاء ٠

٢ ـ لا يقع فيها طلاق ولا ظهار ولا ايلاء ولا غير ذلك ممـا هـو مـن أحكام انهاء الزواج ، ولكن ينتهى الأمر فيها بانتهاء المدة ٠

٣ ـ أن العدة فيها حيضتان لا تزيدان عن خمسة وأربعين يوما ، أو باقل الأجلين ٠

٤ ـ أنه ليس فيهـا عدة وفاة ، لأنهـا خاصة بالأزواج ، بل العدة هى حيضتان ، وأخيرا هى عند الذين أباحوها من الشيعة ليست من الزواج فى شيء مطلقا ، فتلك الأحكام التى ذكرناها منقـولة من كتبهم ، منها أخذناها ، وفيها نردها ٠

وان الأحكام التى يقررها لها الشيعة الامامية التى أجازوها تنبـه لامحالة الى أنها ليست زواجا ، وليس لها أحكام ، وهى من قبـل اتخاذ الخلائل كما يعبر الأوربيون ، وكما هى لغة الفساق فى هذا العصر ، أو بتعبير هى مـن قبيل اتخاذ الأخدان المنهى عنه فى القرآن الكريم نهيا أبديا قاطعا ، اذ لايحـل فى العلاقة بين الرجل والمرأة الا الزواج ، الذى يكون ما عـداه امتهانا للمرأة اذ تتخذ متاعا ، لقضاء لبانة الرجل يذوقها ، ثم يرميها ، ويستأجرها مستمتعا بأجر ، ولقد قال الله سبحانه وتعالى مبينا أن الفروج لا تحل الا بالزواج ، أو بملك الايمان ، فقال الله سبحانه وتعالى فى وصف المؤمنين : « **قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فانهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** » ٠

فهذا النص قاطع فى أنه لا تباح الفروج الا بالزواج ، أو ملك اليمين ، وأن من ابتغى وراء الزواج أو ملك اليمين فهو عاد أثيم ، فالذى يتخـذ المتعة فى الفروج عاد أثيم ٠

ولقد نهى القرآن الكريم نهيا قاطعا عن اتخاذ الأخدان ، وليست المتعة الا من قبيل اتخاذ الأخدان أو اتخاذ الخلائل ، كما ذكرنا فتحريمها ثابت بنص قرآنى ، اذ يقول الله سبحانه وتعالى · « **واحل لكم ما وراء ذلكم** » أى أحل لكم الزواج غير تلكم المحرمات السابقات « **أن تبتغوا باموالكم محصنين غير مسافحين ، ولا متخذى اخدان** » فاتخاذ الأخدان حرام بهذا النص ، ويقول الله سبحانه وتعالى فى شأن زواج الاماء ، « **ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنات · والله اعلم بايمانكم ، فانكحوهن باذن أهلهن وآتوهن اجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ، ولا متخذات اخدان** » ·

وينهى عن اتخاذ الأخدان عند بيان حل النساء الكتابيات · فيقول سبحانه : « **اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ، اذ اتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان** » ·

واتخاذ الأخذان أو اتخاذ الخلائل ، الذى هو اتفاق مع امرأة على أن يتعاشرا من غير زواج مدة معلومة بأجر ، فاذا انتهت المدة افترقا ، وهو والمتعة شىء واحد ·

نهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن المتعة :

٥٤٩ — لم يرد عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اذن بالمتعة صريح قط ، انما الذى ورد فيها نهى صريح عنها وفهم الذين فهموا الاذن بها من النهى عنها ، لأن النهى يجب أن يكون له موضوع ، ولا موضوع للنهى فى المتعة الا اذا كان اذن بها ·

ولقد اتفق العلماء على أن أول نهى عنها كان فى خيبر ، ثم تتابع النهى بعد ذلك فى خمسة مواضع اخرى فنهى عنها فى عمرة القضاء ، وفى غزوة تبوك وغزوة فتح مكة المكرمة ، وعام الفتح ، وفى حجة الوداع ، ولولا تضافر الأخبار بأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد اذن بها لقلنا ان ذلك التكرار كان لتأكيد المنع ، اذ كانت عادة عميقة فى الجاهلية ، فكان التأكيد لقلع جذورها من نفوسهم · ولكن تكاثرت الأخبار بالفعل قبل الاذن ، فتقبل الأمرين الاذن من غير اباحة مطلقة ، بل بضرورة الفردية الشديدة فى الحرب ، والأمر الثانى النهى القاطع فى تحريمها الى يوم القيامة · ويصح أن نقول ان النهى فى أوله كان لمن اذن قبله · والنهى من بعد ذلك كان نهيا ناسخا الى يوم القيامة ·

وفوق ذلك بيان التحريم القاطع فى القرآن الكريم الذى لا اذن فيه قط ، وهو العزيمة التى لا رخصة فيها ، ولا مظنة لرخصة قط ٠

٥٥٠ ـــ فلننظر بعد ذلك فى أمرها ، لقد أجمع فقهاء السنة جميعا انها محرمة تحريما أبديا الى يوم القيامة ، وقد روى أن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما كان يترخص فيها للضرورة فى حال الحرب ، وهى التى قيل ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أذن بها لشدة العزوبة فى بعض حروبه ، واذ كان لم يعرف أنه أذن بذلك فى حرب معينة ، ولقد نهاه على كرم الله وجهه عن أن يفتى بهذه الرخصة ، وبين له أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد نهى عنها ، وقال مخاطبا ابن عباس : « انك امرؤ تائه ــ لقد نسخها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ــ ووالله لا أوتى بمستمتعين الا رجمتهما » ٠

ويروى أن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما قد رجع عن ترخصه ، وأفتى بالمنع ٠

ولم يقل أحد قط من علماء الجماعة انها مباحة لضرورة الشباب الذى يتعذر عليهم الزواج ، فتلك فرية من رجل لا يتحرج فى قول ، ولا يتعمق فى علم ، ولا يهتم بحرام ولا حلال ٠

بقى أن ننظر فى الشيعة الامامية فنقول اننا نرى المتأخرين منهم يفتون بها ، ولا نرى الأئمة أو الأوصياء قالوها ، وان وجد من ادعاها لهم ٠

وتنقل لك المصادر الفقهية الشيعية التى تنفى عن أئمة الشيعة المهديين وعلى رأسهم الامام أبو عبد الله جعفر الصادق ، وأبوه العظيم أبو جعفر محمد الباقر بن على زين العابدين ٠

فقد روى أن بساما الصيرفى سأل أبا عبد الله جعفر الصادق عن المتعة ، فقال رضى الله تبارك وتعالى عنه : انها الزنى ٠

ولقد جاء فى الكافى عن يحيى بن زيد فقيه العراق أنه قال أجمع آل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على كراهة المتعة والنهى عنها ٠

ولقد روى البيهقى عن ابن شهاب الزهرى أنه قال أن ابن عباس رضى الله عنهما مامات حتى رجع عن هذه الفتيا ، ولقد قال سعيد بن جبير لا بن عباس ما تقول فى المتعة ، فقد أكثر الناس فيها ، وأنه نقل عنك الفتوى بجوازها ، فقال ابن عباس ، والله ما أفتيت بهذا ، والا فهى كالميتة لا تحل

الا للضرورة ونحن لا نجد أى ضرورة تبيحها حتى يكون أقرها عند الاضطرار كالميتة ، وأن النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم قد صرح بأنه لا ضرورة عند الشباب تلجئهم الى ذلك كما يدعى من لا جريحة للدين فى قلبه ، فقد قـال : « يامعشر الشبـاب من استطاع منكم البـاءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فانه له وجاء » وما دام باب الصوم مفتوحا فانه لا ضرورة تسوغ المتعة ، أو ترخص فيها ٠

وان فقهاء الشيعة الامامية الذين جاءوا بعد عصر أئمة الشيعة ادعـوا انه لا نسخ فيها واستدلوا على بقائها بما يأتى :

أولا : أنه ثبت الاذن بها بالاجماع ، فقد أجمع المسلمون على أن النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم قد أذن بهـا ، وان الأدلة التى ثبت فيها النسخ أخبـار آحاد ، وهى لا تنقض الأمر المجمع عليه ، وقد روى عن ابن مسعود أنه أفتى بها ، وفى الصحيحين أنه قـال رخص رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لنا أن ننكح المرأة الى أجل بالشيء ، ثم قرأ قوله تعالى : « **يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم** » ٠

وأن عبارات النسخ التى وردت فى أقوال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم انما هى منصبة على الميراث والطلاق ٠

ثانيا : قالوا ان قوله تعالى : « **فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن** » تدل على اباحتها ، وقوله تعالى : « **يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم** » ٠

وان هذا الكلام غير صحيح فى جملته وتفصيله ، وهو جـاء بعد عهد الأئمة والأوصياء ، وهو باطل من وجوه :

أولها : أن الآية التى ساقوها هى فى بيـان أحكـام النكاح الصحيح المرتب لآثاره ، ولم يكن موضوعها المتعة ، انما موضوعها النكاح ، لأنها بيـان لنهاية المحرمات ، اذ يقول سبحانه وتعالى : « **حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم** ٠٠٠ » الى قوله تعالى « **وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين** » ، فالاستمتاع هو استمتاع الزوجين ، يعـرف هـذا المدلول من له أدنى المام بالعربية ، وفوق ذلك فـانه سبحانه قال بعـد ذلك : « **ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات** » ، وبدليل قوله تعـالى فى النص الكريم ، « **محصنين غير مسافحين** » ولا شك أن المتعة لا توجب احصانا يوجب الرجم ٠

وثانيا : أن الاجماع لم ينعقد على اباحتها ، والتعبير باباحتها خطأ ، فلم يقل المحققون بأنها كانت مباحة انما أذن فيها ، كما أذن بأكل الميتة ، فان الاباحة تكون لأمر ذاتى فى الفعل ، أما الاذن فانه يكون لضرورة سوغت الاذن ، واذا عبر بعض الأئمة بالاباحة فمن قبيل التسامح فى التعبير ٠

وان العلماء من بعد نهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد أجمعوا على نسخها فلا موضع للقول بالاجماع ، واذا كان قد أثر عن ابن عباس أنه أذن بها فى حال الضرورة الحربية فقط ، فقد روى أنه رجع عن رأيه ، والله سبحانه وتعالى أعلم ٠

ولقد قالوا (أى بعد عصر الأئمة والأوصياء عندهم) ان الاجماع انعقد على اباحتها بين الشيعة والسنة وانفرد أهل السنة بالنسخ ، ونقول لهم ان الأدلة التى أذنت بها هى التى نسختها ، فلا يقال اجماع على الاذن ، وعدم اجماع على النسخ ، فالأدلة ملزمة فى الأمرين ٠

وثالثها : أن ثبوت النسخ لم يكن بخبر آحاد ، بل لأنها فى ذاتها محرمة كالميتة والخنزير والدم المسفوح ، وما أهل لغير الله به ، وذلك ثابت بالقرآن الكريم ، فى قوله تعالى : « **والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت ايمانهم** » قاطعة فى اثبات التحريم ، لأنه من الموكد المتفق عليه أن علاقة المتعة ليست علاقة زوجية ، فهى لا تعد زوجة بدليل أنه لا يجرى فيها طلاق ولا ميراث ، ولا عدة زوجية ، لا فى حال الموت ولا فى حال الانفصال ٠

والنهى عن اتخاذ الأخدان المتكرر يدل على تحريمها لأنها ليست الا كذلك ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم عندما أذن بها كان لضرورة ٠ فى مخالفة المحرم تحريما قاطعا كمبدأ عام ، وقد قال العلماء فى ذلك قاعدة الضرورات تبيح المحظورات ٠

وقد نسخ الاذن فى حال الضرورة فى حال الحرب ضرورة لما استأنس الناس بالاسلام ٠ وأشربوا حبه وعودوا الصبر وضبط النفس بالايمان ٠

وفى الحق أن المتعة من بقايا الجاهلية وهى كما قررنا من نوع اتخاذ الأخدان فلما كان المؤمنون قريبى عهد بالجاهلية عد النبى صلى الله عليه وسلم ذلك ضرورة لهم فى الحرب ، فأذن بها للذين لا يزالون فى نفوسهم بعض العادات الجاهلية ، ولذلك لم يؤثر عن أحد من المؤمنين الراسخين أنه استساغها كأبى بكر وعمر وعلى وأحد من المهاجرين الأولين والأنصار والسابقين وهم كانوا يحضرون كل حروب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم

مجاهدين ، وكان فيهم شباب اقوياء فى ابدانهم كعلى بن ابى طالب والجميع كانوا أقويـاء ولعل الذين شكوا العزوبة من الأعراب أو ممن لا قدم لهم فى الاسلام فالنهى عنها ثابت بالقرآن الكريم ونسخ الاذن للضرورة ثابت بالسنة ، ونقول متحدين أأباحها أحد فى حال السلم والاقامة حتى تبيحوها معشر الشيعة فى الحل والترحال والسلم والحرب فى السفر والحضر ويجىء من لا حرمة للحقائق عنده لتبليغ ، كلامهم لأنه يبيح المحرمات ، ولا حول ولا قوة الا بالله ٠

ورابعها : أن ادعاء أن الحديث الناسخ خبر آحاد ، ادعاء باطل ، وذلك لأمرين :

(أ) أنه قاله فى جيش فتلقاه أكثر من خمسة وألف ، فمستحيل أن يكون ناقله واحدا ، بل الذى نقله يؤمن تواطؤه على الكذب ، ونقله هذا الجمـع الى الأمة كلها ، ففرض الآحادية باطل لا شك فى ذلك ٠

(ب) أن الأمة كلهـا اجمعت على ذلك ورمى على كرم الله وجهـه وهو الوصى الأول عندهم ابن عباس فقال له انك امرؤ تائه ، ولقد كان ابن عباس فى وقت قول هذا الاذن غلامـا ، وكان فى مكة المكرمة ، لم يهـاجر أبوه الى المدينة المنورة ، ولذلك كان الوصف بأنه تائه ، وصف صحيح من امام الهدى على ٠

ونكرر القول هنا بأن ائمة الشيعة ، او الأوصياء فى لغتهم لم ينقل عن أحد منهم ٠

ولنختم الكلام فى المتعة التى هى أمر فاسد فى ذاته بكلمتين :

أولهما : أن المتعة بحكم القرآن الكريم حرام ، واذا لم نلتفت الى النص القرآنى (ولا يصح ذلك) لا تكون مباحة ، لأن ما يكون معمولا به فى الجاهلية ويحرمه الاسلام ، لا يقال انه كان مباحا ، ثم حرم ، لأن الاباحة تقتضى أنه لم يكن ذاته قبيحا ، وهو كذلك ، بل يقال انه قبل التحريم كان محل عفو ، وكذلك كان التعبير فيما يحرمه ، وقد كان أهل الجاهلية يستبيحونه « **عفا الله عمـا سلف** » ٠

الثـانية : نذكر ما يشترطه الشيعة فى شروط صحة المتعة مما ينأى بها عن معنى الزواج من كل الوجوه ، لقد ذكروا لها شروطا وركنا ٠

أما الركن فهو الايجاب والقبول ، وأما الشروط فهى ثلاثة :

أولها : ذكر المهر ، وهو الأجرة ، فاذا لم يذكر الأجر تفسد المتعـــة ، كالاجارة اذا لم تذكر الأجرة لا تنعقد الاجارة ، فهى فى حقيقتها اجارة المرأة للمتعة كاجارتها للخدمة على سواء ٠

والشرط الثانى : ذكر الأجل أو المدة ، وذلك لابد منه فى الاجارة الخاصة بالأجير الوحد أو الأجير الخاص ، بيـــد أن ذلك شرط فى الأجير الوحد اذا كانت الاجارة لمدة معلومة ولم تطلق من غير زمان كأن يستأجره لغير مـدة على أن تكون الأجرة كل يوم ، أو كل أسبوع كذا ، أو كل شهر ، والاجارة فى المتعة أخص من ذلك ، لأن الأجرة فيها على مجموع المدة ٠

ثالثها : ويشترط لكى تستحق المرأة الأجرة كاملة أن تمكنه منهـا طول المدة ، فاذا لم تقدم نفسها فترة من المدة المتفق عليها ، فانه ينقص من الأجرة بمقدارها ، ومثلها فى ذلك من استأجر دارا ليسكنها ، فتعذر الانتفاع بالسكن فيها مدة ، فانه ينقص من الأجرة ما يقابل الفترة التى تعذر الانتفاع ٠

وقالوا فى أحكامها أن الولد الذى يجىء ثمرتها يثبت نسبه ، ولكنه يقبل النفى ، فاذا نفى النسب انتفى من غير لعـــان ، وبذلك يكثـر الأولاد الذين لا آباء لهم ، اذ لا يوجد من يلحق نسبهم به ، ولا حاجة الى لعان فى نفى نسب اذ اللعان فى حال قيـام الزوجية ولا زوجية ٠

وقد ذكرنا أن الانفصال فيها يتم بانتهاء المدة ، كما تنتهى المدة بانتهـاء مدة الاجارة تماما اذا كانت الاجارة الخاصة مقدرة بمدة معلومة ، فهى اجارة لبضـع المرأة ، فحكمها كسائر الاجارات وأيضـا لا توارث بينهما ، وعدتها استبراء الرحم بحيضتين بحيث لا تزيد عن خمسة وأربعين يوما ٠

أيها الناس هذه هى المتعة ، أو بعبارة أدق اجارة بضع المرأة لمدة معلومة فهل هى صالحة للتطبيق فى عصرنا ان فرضنا صحتها ، وهو مستحيل ، انها لا تليق بكرامة المرأة ، بل فيها أشد الامتهان لهـا ، والنزول بهـا الى مرتبـة الخادم التى تستأجر فى شرفها وهى دون المرضع ، ثم هى تكثر الأولاد غير الشرعيين ٠

فكروا أيها الناس ان كان ثمة موضع للتفكير ٠

انهـا الزنى كما قال الامام محمد الباقر ، وابنـه أبو عبد الله جعفـر الصادق ٠

فهل مع هذه الأضرار الاجتماعية الخطيرة ، نبيحها بغير اباحة الشرع لشبابنا ، الذين لم يتزوجوا ، ونقضى على الأسرة ، ولا نقول لشبابنا ما قاله الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم الذى يدعو الى الفضيلة ، اذ قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « يامعشر الشباب من استطاع منكم البـاءة فليتزوج فانه أحصن للفــرج ، وأغض للبصر ومن لم يستطع فعليـــه بالصوم فانه له وجاء » ٠

أيها الناس أطيعوا الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ولا تستمعوا الى المتفيهقين المتعالين فى هذا الزمان ، والله سبحانه وتعـالى هو الهـادى الى سواء السبيل « **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة** » ٠

تحريم ربا البيوع

٥٥١ ـــ ثبت أن تحريم ربا البيـــوع كان فى غزوة خيبر ، أو أن تطبيقه كان واضحا فى غزوة خيبر ، وربما كان تحريمه قبل ذلك ، ولكنا نرى أول تطبيق كان فى غزوة خيبر او مقترنا فى الزمان بها ، فحق علينا أن نذكره ونحن نتكلم فيها ، كما تكلمنا فيما تنبهنا له ، من الأحكام العملية التكليفية التى ظهرت فى أثناء الغزوات التى ذكرناها من قبـل ٠

وقبل أن نخوض فى بيان ما ذكر فى تحريم ربا البيوع فى غزوة خيبر ، نقـــول :

ان كلمة ربا فى الأحكام الشرعية تطلق باطلاقين ، أحـدهما لغـوى ، والثانى عرفى اسلامى اصطلاحى فقهى والقسمان متمايزان مختلفان ٠

فالقسم الأول : اللغوى هو ربا الجاهلية وهو ربا الديون بأن يقـرض دينا ، ويزيد فى الدين كلما زاد الأجل فالزيادة تكون فى نظير الأجل ، وهذه الزيادة هى الربا ٠ وهو الذى نزلت الآيات القرآنية بتحريمه فى مثـل قوله تعالى « **الذين ياكلون الربا ، لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشـيطان من المس ، ذلك بانهم قالوا انما البيع مثـل الربا** » الى قوله تعالى « **وان تبتم فلكم رءوس اموالكم لا تظلمون ، ولا تظلمون وان كـان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة** » ٠

والتحريم فى هذا النوع من الربا عام ، سواء أكان القرض للاستهلاك أو الاستغلال ، ومن يفرق بينهم يفسر الأحكام القرآنية كما يهوى ، لا كما تدل عليه ٠

القسم الثانى : ربا البيوع ، وهو ربا لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سماه ربا ، فهو حقيقة عرفية ، وقد جاء فيه الحديث الشريف ، « الذهب بالذهب مثلا بمثل يدا بيد ، والفضة بالفضة مثــلا بمثل يدا بيد والبر بالبر مثلا بمثل يدا بيد ، والشعير بالشعير مثلا بمثل يدا بيد ، والملح بالملح مثــلا بمثل يدا بيد فمن زاد أو استزاد ، فقد أربى » ٠

ونرى من هذا أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سماه ربا فهو ربا ، وقد طبق النبى صلى الله تعــالى عليه وسلم ذلك النوع من الربــا فى غزوة خيبر ، فحق لنا أن نتكلم ببعض القول فيه ٠

فقد جاء فى السيرة النبوية لابن هشام : قال ابن اسحاق حدثنى يزيد ابن عبد الله بن قسيط أنه حدثه ابن الصامت قال نهانــا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم خيبر عن أن نبيع أو نبتاع تبر الذهب بالذهب العين ٠ وتبر الفضــة بالورق العين وقــال ابتــاعوا تبر الذهب بالورق العين ، وتبر الفضة بالذهب العين ٠

وان معنى الحديث أن يباع الذهب بالذهب مثلا بمثل ، والفضة بالفضة مثلا بمثل فان تعذرت المماثلة بين التبر والذهب العين ، فانه لا يصح البيع ، بل يجب أن يتخالف الجنس فيباع تبر الذهب بالفضة ، وتبر الفضة بالذهب لأن المماثلة فى هذه الحال غير واجبة ٠

ولقد جاء بعد ذلك الحديث السابق وهو أعم من الذهب والفضة وجاء بعد ذلك فى أحاديث أخرى التمر بالتمر مثلا بمثل يدا بيد أى اشتراط القبض فى الحال ثابت ، ولا يصح التأجيل وان الردىء لا يضاعف فى سبيل الجيد من هذه الأصنــاف ، وقد ثبت فى غزوة خيبر ، فقد جــاء فى تاريخ الحافظ ابن كثير أن البخارى روى عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم استعمل رجلا على خيبر ، فجاء بتمر جنيب ، فقال عليه الصلاة والسلام ، أكل تمر خيبر هكذا ؟ فقال ، لا والله يارسول الله انا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين والصاعين بالثلاثة ، فقــال النبى صلى الله عليه وسلم لا تفعل هذا بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيبا ٠

وان هذا الحديث الصحيح يدل على أمور ثلاثة :

أولا : أن تطبيق ربا البيوع كان فى خيبر ، ولعله كان ابتداء تحريمها ٠

وثانيها : أن الجنيب بلح جيد ، وأن غيره دونه ، ولذلك كانوا يلاحظون هذه التفرقة عند المبايعة ، فالجنيب يبــادل بضعفه ، أو الاثنين بثلاثة ، وان

النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن البيع بغير المماثله فى التمر والبر والشعير والذهب والفضة ، والملح ، والزيت فى بعض الروايات ، وغيرهــا من المطعومات ٠

ثالثها : الطريق فى التعامل بهذه الأشياء التى لا يصح البيع فيها الا بالتماثل فى الكيل أو الوزن عند اختلافها فى الجودة ، قد بينه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يبيع الردىء ، ويشترى بثمنه جيدا وهذا الحديث الذى جاء فى خيبر روى فى معناه أن رجلا جاء الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقال : عندى بسر وأريد رطبا ، فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بع البسر ، واشتر رطبــا ٠

وهذه الفتوى النبوية فيها فائدة لمن عنده بسر ، وفائدة لغيره ، ففائدة صاحب البسر أنه استبدل به رطبا ، وهو ما يشبهه ، وفائدة المشترى أنه أخذ البسر ، وربما يبتغيه ، وهناك فائدة لثالث ، وهو أن يأكل من ليس عنده بسر ، ولا رطب ، فلا يحرم من البلح حرمانا كاملا ٠

وقبــل أن نترك هذا الخبر الذى جاء تطبيقــه فى غزوة خيبــر لابد من التعرض بالاجمال لموضوعين : أحدهما حكمة التحريم ، والثانى العلة القياسية التى يمكن أن يطبق فيه النص على غير هذه الأنواع من المبيعات ٠

الحكمة فى تحريم البيوع فيها الا بالمثل :

٥٥٢ ــــ ان هذه الأشياء التى ذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا يصح بيعها الا بمــا يماثلها كيلا أو وزنا ، كالقمح والشــــعير ، والملح ، والذهب والفضة ، هى من الضروريات للحياة ، ومنع بيعها الا بمثلها ، وأن تكون مقبوضة يدا بيد ، انما المنع لكيلا يكون التبادل محصورا فى المالكين لها فقط ، فانه اذا ساغ بيع البر بالبر ملاحظا فيه أن الجيد يكون فى مقابل ضعف الردىء وكذلك الشعير والتمر والملح ، فان التبادل فيها يكون مقصورا على الذين يملكونها دون غيرها ، وقد يؤدى ذلك الى أن يحرم منها من لا ينتجونها ولا يملكونهــا ، وان ذلك قد يؤدى الى احتجازها ، عمن لا يملـــكون وهم مضطرون اليها ، فيكون توزيع الانتـــاج بين النــاس بالعــدل والقسطاس المســـتقيم ٠

وان ذلك يمنع الاحتكار أو يسد ذرائعه ، وتكون الاقوات متوافرة لدى النــاس ، اذ أن ملاكها يكونون مضطرين لأن يبيعوها ، ولا يختزنوها طلبــا لحاجاتهم ٠

وان النقدين الذهب والفضة ، كانا ولا يزال الذهب مقياس قيمَ الأشياء ، وبهما تقوم المنافع فى الثمرات والأثواب والأقوات ، واذا اتخذ المقياس النقدى موضعا للاتجار اضطربت الموازين ، واختلت المقاييس ، وكانت الاضطرابات الاقتصادية ، وحسبك ما تراه الآن وقت أن تحلل الناس من الذهب ، واستبدلوا بها النقد الورقى ، وقد اضطربت فيه العلاقات الاقتصادية ، وصعب التعامل من ضعف بعض الأوراق وقوتها مما صعب الاتجار ، وتعذر جلب الأرزاق فى أرض من أرض الله ، وتكدسها فى أرض أخرى ولقد أدعى بعض الكتاب من الأوربيين أن حديث الذهب بالذهب مثلا بمثل يدا بيد ، والفضة والبر والشعير ، وغيرها من المطعومات قد وضعه اليهود على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليبعدوا العرب عن الاتجار ، وتبقى التجارة فى أيديهم ٠

وذلك كلام لا تبرره الحقائق ، للوجوه الآتية :

أولها : أن حديث بيوع الربا روته كل الصحاح ، حتى كاد يخرج عن حد أحاديث الأحاديث الى ما يقرب من المتواتر ، ومن المؤكد أنه مستفيض مشهور تلقته الأمة كلها بالقبول ، والأحاديث المكذوبة لا يمكن أن يكون لها ذلك الوصف من الاستفاضة والشهرة ٠

ثانيها : أن هذا الحديث ثبت أنه طبق فى خيبر ، وروى البخارى وغيره تطبيقه فى خيبر ، وذلك فى الوقت الذى دكت فيه حصون اليهود دكا ولم يكن لهم قوة ، ولم يكن لهم أمل الا أن يكونوا زارعين يحرثون ويغرسون ، ويصلحون النخيل ، وسائر الأشجار ، ولم يكن لهم قوة يستطيعون بها الاتجار بل كانوا نتيجة الحرب أذلاء مستضعفين ، وقد كانوا يريدون غير ذلك ، فحيل بينهم وبين ما يشتهون ٠

ثالثها : أن اليهود المقيمين فى ظل الدولة الاسلامية فى أحكام العقود وشروط صحتها كالمسلمين ، فلا يمكن أن يخالفوها ، وهى مطبقة عليهم ، وعلى المؤمنين على سواء ، عملا بالقاعدة الاسلامية العادلة ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا ٠

علة القياس فى الأموال الربوية :

٥٥٣ ــ هذه هى الحكمة ، وهى المصلحة الاجتماعية والانسانية فى بطلان البيع الا مثلا بمثل يدا بيد وان هذه الأموال التى ذكرت تحريم الفاضل فيها معلولة ، أى أن الحكم يشتمل على هذه الأشياء المذكورة ، وعلى غيرها

مما يكون فى معناها ، كالزيوت ، والذرة ، وغيرها مما يتحقق فيه معناها الذى اعتبر سببا للتحريم ، أو علة له ٠

والفرق بين العلة والحكمة أن الحكمة هى المصلحة الثابتة التى تكون وصفا مناسبا للحكم ، وغاية له يتعرفها المكلف مما احتوى عليه الأمر التكليفى ٠

والعلة هى الوصف المنضبط الذى يتحقق فى الأمر الذى جاء به التكليف وكانت الحكمة متحققة فيه غالبا ، فالفرق بينهما هو الانضباط ، وأن العلة تكون وعاء للمصلحة التى هى العلة ٠

وقد اتفق الفقهاء الذين يقيسون الأمور غير المنصوص على حكمها على الأمور المنصوص على حكمها ، اتفقوا على الحديث الشريف الوارد فى تحريم الأصناف المذكورة ، والمروية بروايات مختلفة معلل المعنى وليس نصا تعبديا مقصورا على موضعه ، وكذلك كل الأمور المتعلقة بمعاملات الناس ، فالنصوص معللة أى تثبت فى كل موضع تثبت فيه العلة وقد اتفق الفقهاء على أن علة التحريم فى النقدين الذهب والفضة بأن لا بيع فيها الا بالمثل يدا بيد هو الثمنية ، وكونها ميزانا لقياس قيم الأشياء ، ومقدار ما فيها من نفع يشبع حاجات الناس ، فكل ما يتحقق فيه الثمنية يجرى فيه حكم الذهب والفضة ٠

وكان الاختلاف بين فقهاء القياس فى علة التحريم فى غيرهما ، فقال أبو حنيفة وأصحابه علة التحريم اتحاد التقدير بالكيل أو الوزن واتحاد الجنس ، فالذرة بالذرة مثلا بمثل يدا بيد ، لاتحاد الكيل واتحاد الجنس ، وكذلك الزيت بالزيت ، وحينئذ يحرم التفاضل ، ويحرم تأجيل أحد العوضين ، وكل ذلك فى الأمور التى يقر العرف التفاوت فيه ، أما ما لا يقر العرف التفاوت كالحديد ونحوه ، فان التفاضل والتأجيل يجوز ٠

فأبو حنيفة رأى أن تكون العلة أمرا ماديا ظاهريا يصلح أن يكون جامعا بين الأمرين ، والشافعى نظر فى غير الأثمان الى كونه مطعوما ، فجعل العلة فى منع التفاضل كونه مطعوما ، اذ التفاضل فيه يؤدى الى أن تحتكر الأطعمة فى يد منتجيها أو المستولين عليها ، لأنه اذا جرى فيه التفاضل فى التعامل بها ، بأن يبيع البر الردىء بضعف البر الجيد ، كان التعامل بين المالكين للبر ولا يأخذه من ليس عنده بر قط ، وانه اذا امتنع التفاضل فى مبادلة الجيد بالردىء ، كان لابد أن يأكل من ليس عنده جيد من البر ولا ردىء ، فانه يلزم حينئذ أن يبيع الردىء ليشترى جيدا أو العكس ، فيقع الطعام فى يد المحروم ٠

وانه ان اتحد الجنس منع التأجيل ، ومنعت الزيادة ، ويسمى التأجيل ربا النساء ، ويسمى التفاضل ربا الفضل ، هذا ما قاله الشافعى ، وهو يتحد مع الحنفية فى أن سبب منع التفاضل والتأجيل فى النقدين الذهب والفضة هو الثمنية ، وأنها مقاييس القيم والمالية فى الأموال ، فلا يصح أن تكون سلعة تباع وتشترى ويجرى فيها الاتجار ، والا اضطرب الميزان ، كما نرى الآن فى الأوراق النقدية ، وما يترتب على علوها وانخفاضها من اضطراب اقتصادى ٠

وقالت طائفة من حذاق المالكية ، ان العلة فى التحريم فى الأمور المنصوص على تحريم التفاضل والتأجيل فيها هى الطعم والادخار ، بأن تكون من المطعومات ، وأن تكون قابلة للادخار ، فتكون من الأطعمة التى لا يفسدها الادخار كالبر والشعير والتمر ، والملح ، وما يشبهها من الأطعمة ، والفواكه المجففة التى تدخر ، كالزبيب ونحوه ٠

وذلك لأن كونها من الأطعمة ، وقابلة للتخزين يؤدى للاحتكار الأثيم ، والاحتكار من أسباب الأزمات ويزيدها حد ٠

تنبيهات :

قبل أن نترك الكلام فى الربا الذى اقترن تحريمه بغزوة خيبر ، فنزل فى ابانها ، وهو ربا البيوع ، لابد أن نذكر أمورا ثلاثة هى توجيه الأنظار الى الوقائع ، وما يقترن بها ، وما يجرى حولها ٠

أول هذه التنبيهات : هو الاجابة عما يجول فى النفس لماذا كان تحريم ربا البيوع فى خيبر ، وتلك الاجابة ٠٠ أن فتح خيبر كان فتحا جديدا بالنسبة للعلاقات المالية التى يجرى فى ظلها التبادل المالى ، فكانت فيها شرعية المزارعة والمساقاة ولم تكن تجرى كثيرا فى يثرب ٠

وثانيها : تحريم البيوع التى تؤدى الى الاحتكار فى الأطعمة ، وقد حرمه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تحريما قاطعا ، فجعل أموالا معينة غير خاضعة للاتجار المطلق ، لأن باب التجارة انفتح بغزوة خيبر ، فكان لابد من جعله فى اطار لا يؤدى الى الاحتكار ٠

الأمر الثانى : أن الربا القوى وهو ربا الديون أو ربا الجاهلية حرام لا شك فيه لا يسع مسلما أن ينكره ، أما ربا البيوع فلم يثبت الا بالأحاديث الواردة فيه ، وهى أحاديث لا تثبت قطعيا ويقينا ، ولكن تثبت العمل ٠

ولقد كان ابن عباس رضى الله تعالى عنه ينكر ربا البيوع ، ويقول انه لم يثبت ، وكان يقول مسندا لقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ! « انما الربا ربا النسيئة ، وهو ربا الجاهلية» ، ولقد سئل الامام احمد بن حنبل : ما الربا الذى لا يسع مسلما أن يجهله ، فقال أن يعطى الرجل دينا ويزيده فى الأجل فى نظير الزيادة فى الدين ، وان من ينكر أمرا علم من الدين بالضرورة يكون خارجا عن الاسلام .

الأمر الثالث : أنه مع الأسف أن كثيرين ممن كتبوا فى الربا ، وحللوا وحرموا بغير ما أنزل الله ، ومنهم من بلغوا مناصب تجعلهم مسئولين عن اقوالهم أمام الله وأمام الناس ، من خلطوا بين ربا البيوع ، وربا الجاهلية الذى ثبت بالقرآن الكريم ، فضل عنهم فهم الربا ، وضلوا فى أنفسهم ، وأضلوا الناس ضلالا بعيدا ، ولم يكن جهلهم لضرورة يعذرون فيها ، بل كانت بين أيديهم اسباب العلم ، فتركوها ليتعلقوا بما يرضى الناس ولا يرضى الله .

شرعية الجزية

٥٥٤ ــ كان اول تطبيق للجزية فى تيماء التى كان فتحها بعد خيبر ، فقد جاء فى الصحيح أنها فرضت فيها الجزية على أهلها ، فكان على أهلها جزية الرءوس ، وعلى أرضها الخراج وهى جزية الأرض ، والجزية فرضت بنص القرآن الكريم اذ يقول الله سبحانه وتعالى : « **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق حتى يعطوا الجزية عن يد ، وهم صاغرون** » أى خاضعون للحكم الاسلامى غير متمردين بل مندمجون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، وان قتال خيبر ووادى القرى ، واستسلام تيماء ، كان من قتال أهل الكتاب ، وقد بين الغاية وهى أن يسلموا أو يستسلموا ، وفى الحال الأخيرة يدفعون الجزية عن يد ، وهم خاضعون طائعون ، وانه يظهر أول جزية فرضت كانت فى تيماء .

وقبل أن نذكر ما عمله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى الجزية ، نقول انها ليست للاذلال ، كما أخذ بعض الناس من ظاهر لفظ وهم صاغرون ، انما هى لأمرين .

أولهما : اظهار الطاعة للحاكم المسلم ، وامام المسلمين غير مضارين فى دينهم ، ولا مغيرين لعقائدهم ومبادئهم الدينية ، ولا مرهقين فى امرها .

ثانيهما : أنها تكون فى مقابل ما يفرض على المسلمين من فرائض مالية ليسهموا بها فى بناء المجتمع الاسلامى ، فالمسلم يفرض عليه بحكم الاسلام

اداء الزكاة ، والدولة هى التى تجمعها ، وتفرقها على الفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، وفى سبيل الله تعالى يشمل الجهاد ، وكل المصالح والمرافق العامة للدولة ٠

وعلى المسلم كذلك زكاة الفطر ، وكفارات النذور والايمان والقتل الخطأ ، والظهار ، وفدية الصيام وكفارته ، وكل هذه مغارم تصرف لعلاج افات الفقر فى المجتمع ٠

فكان العدل يوجب أن يفرض على غير المسلم الذى يعيش فى ظل الاسلام فرائض تقابل ذلك ، فكانت الجزية ٠ وكان الخراج ، يصرف منها على المصارف العامة للدولة الاسلامية التى تظل المسلم والكتابى على سواء ، ولذلك كانت حاجات اهل الذمة تسد من بيت مال الجزية والخراج من أجل هذين الأمرين فرضت الجزية ، وانها أمر عادل لا اذلال فيه ، ولا شبه اذلال ، ولكن طاعة وتسليم وخضوع للدولة ونظامها مع حرية التدين ٠

٥٥٥ — ولننظر فى نظام الجزية كما طبقه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان أول تطبيقه فى تيماء عقب خيبر ، فنجد الحافظ ابن كثير فى تاريخه الكبير يذكر أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حمل أهل تيماء على الجزية وقال فى ذلك نقلا عن الواقدى « لما بلغ يهود تيماء ما وطىء به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خيبر وفدك ووادى القرى صالحوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الجزية ، وقدموا بايديهم أموالهم » ٠

وهذا الخبر من الواقدى فى تاريخه ، وزكاه أن الحافظ ابن كثير نقله واعتمده ، وهو يدل على أن الجزية فرضت عقب خيبر أو فورها ، ولم تطبق عليها لأنها فتحت عنوة ، ولم تفتح صلحا ، وكان المفروض أن يجلوهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنه أبقاهم كما طلبوا ، واحتفظ لنفسه بحق الاجلاء فى أى وقت شاء ، وأجلاهم عمر من بعد ذلك عملا بما احتفظ به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم يكن تطبيق الجزية عليهم لأنها لم تكن قد نزلت اية الجزية ، وانما كان ذلك ، لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رأى تأجيل الجلاء فى حقهم ، لأنهم كانوا أقوياء ، ولو أبقوا بالجزيرة العربية لاستطاعوا بكثرتهم أن يكون لهم سلطان ، ولكيلا يجتمع فى جزيرة العرب دينان ٠

أما أهل تيماء فقد انتهوا مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صلحا ، ولم يقرر اجلاءهم ، وكانوا فى أطراف الشام والجزيرة العربية ، ولذلك لم

يخرجهم الامام عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه ، اذ هم ليسوا فى داخل الجزيرة ، ولم يحتفظ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بحق اخلائهم ٠

وننتهى من هذا الجزء الى أن الجزية فرضت قبل الفتح ، ولم تكن شرعيتها بعد الفتح ، ولكن الامام ابن القيم يقرر أن الجزية لم تقرر الا بعد الفتح ، « وأما هديه فى أخذ الجزية فما أخذ من الكفار جزية الا بعد نزول سورة براءة فى السنة الثامنة من الهجرة ، فلما نزلت اية الجزية أخذها من المجوس ، وأخذها من أهل الكتاب ، كما نصت اية سورة براءة التى تلوناها من قبل ، وذكرنا معنى قوله تعالى : « **حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** » ٠

ونميل الى المثبت ، ولا نميل الى النافى ، نميل الى رواية أبى الفداء التى ذكرت أنه عقد عقد الجزية على أهل تيماء ، وان كنا نرى أن ما ذكره ابن القيم له وجه ٠

وفى الحق ان أهل خيبر ، لم يعقدوا عقد جزية قط ، الا ما كان فى تيماء وأنه أوجب الجلاء عليهم أى أهل خيبر ، فلما حاولوا أن يبقوا فى الأرض زارعين غارسين وكان هو ورجاله مسئولين عن زراعة الأرض تركها مزارعة على أن حق الاجلاء ثابت ، وهو الأصل ، وكذلك فعل فى فدك ٠

صحيفة مكذوبة :

ولكن الباعث عند ابن القيم على نفى عقد الجزية لخيبر وجيه كل الوجاهة ، ذلك أنه فى عبر التاريخ الاسلامى من بعد ذلك ادعوا ــ أى يهود ــ أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عقد معهم عقد جزية وقدموه وثيقة لهم ، وهو مكذوب من كل الوجوه ، ويحمل فى نفسه دليل كذبه ٠

وقد أثبت كذبه ابن تيمية من عشرة وجوه ، ذلك أنه فى عصر ابن تيمية فى آخر القرن السابع ، وأول القرن الثامن أنه راجت تلك الوثيقة المكذوبة عند من جهل بالسنة والمغازى ، حتى ان بعض العلماء أو الأمراء طلب من شيخ الاسلام ابن تيمية أن يقرر ما اشتملت عليه تلك الوثيقة المكذوبة ويطلب العمل على تنفيذها لليهود والعمل بها فيسكن اليهود فى الجزيرة العربية فى مكانهم القديم ، ولعلهم يريدون أن يختاروا فى وسط الجزيرة العربية مقاما لهم ٠

ولذلك تحرك الامام ابن تيمية لبيان كذبها يكشف ما فيها ، لأن ما فيها دليل التكذيب ٠

ومما بين كذبها أن فيها كما يدعون شهادة جمع من الصحابة ذكر منهم على بن أبى طالب وسعد بن معاذ ، وسعد بن معاذ كان قد مات متأثرا بسهم عاثر فى الخندق وقريظة ، وهما كانتا قبل خيبر بسنتين ٠

ومنها أنه أسقط عنهم الكلف والسخرة ، ولم يكن للمكس والسخرة موضوع فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فالنص عليها على أنها مكتوبة فيما بعد ذلك فى القرون المتخلفة بعد عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان الله تعالى قد أعاذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه من السلف الصالح والرعيل الأول من فرض المكس والسخر ، فان ذلك من وضع الملوك الظالمين الفاسقين ٠

ومنها أنه لم يذكر قط فى سيرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا سيرة أحد من أصحابه سيرة ٠

ومنها أن هذه الوثيقة لم يذكرها قط أحد من علماء الحديث ، لا فى الصحاح ولا فى السنن ولا غيرها ، بل لم تذكر حتى فى الأخبار الموضوعة ، فمن أين جاءوا بها الا أن يكون ذلك من افترائهم البهات ، كما لم يذكر أحد من أهل الفقه والافتاء ، فهى كلام دخيل على الاسلام والمسلمين وهو افتراء من اليهود ، فى عهد الحكام الغاشمين الجاهلين ، ولم يذكروه الى القرن الخامس حيث العلم الاسلامى يدون ويجمع ، ويقول فى ذلك ابن تيمية رضى الله تبارك وتعالى عنه « ما أظهروه فى زمن السلف لعلمهم أنهم ان زوروا مثل ذلك ظهر بطلانه ، فلما كان بعض الدول فى وقت فتنة وخفاء بعض السنة زوروا ذلك وأظهروه وساعدهم على ذلك طمع بعض الخائنين لله وللرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يستر لهم ذلك حتى كشف الله تعالى أمرهم ٠

وانه بذلك يتبين أن اليهود ادعوا أن أهل خيبر لهم عقد جزية ليتخذوا منه سبيلا ليقيموا فى أرض خيبر بالحجاز ، ولكن الله كشف أمرهم ، وخيب رجاءهم ٠

ومهما يكن الأمر فانه لم يكن من اليهود أهل عهد بجزية الا أهل تيماء فى رواية الواقدى والله تعالى أعلم ، وقد تبين كذبهم من قولهم ، وقد أعلنوا هذه الوثيقة المكذوبة بعد ثلثمائة من الهجرة ، ثم زوروا مثلها سنة سبعمائة ٠

الجزية التى كان ياخذها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

٥٥٦ ــ نذكر بالاجمال الجزية التى كان يأمر بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويقول الواقدى انه أخذها من أهل تيماء بعقدها وشروطه ٠

لقد قالوا ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يعين من تؤخذ منهم ، وان عين مقاديرها من مختلف الأجناس ، وذكر بعض شروط عقدها والتزاماتها على ولى أمر المؤمنين والتزاماتها عليهم ٠

ولم يظهر لدى أهل السيرة والمغازى ، والآثار مقدارها إلا فى نصارى نجران الذين عقد معهم فى مرجعه من تبوك ، وكان الاتفاق كما سنبين بالتفصيل من بعد ، عندما نتكلم فى سياقنا على وفود نجران وغيرهم ٠

وخلاصة عقد الذمة انه تضمن :

أولا : أنه لا يهدم لهم بيعة ، ولا يمنع منهم قس من اداء شعائرهم الدينية ، ولا يفتنون فى دينهم ما لم يحدثوا أحداثا يكون من شانها نقض التزامهم ٠

وثانيا : أن يلتزموا أحكام المعاملات المالية الاسلامية ، بحيث لو ثبت انهم يأكلون ربا الجاهلية ترد عليهم ذمتهم لأنهم نقضوها ٠

ثالثا : أن يلتزموا بأحكام الحدود والقصاص ، بحيث يجرى عليهم ما يجرى على المسلمين فيها على سواء ، وقد أخذ من نصارى نجران الجزية من الثياب ، اخذها منهم مجتمعين على قسطين الأول فى صفر ، وكان الف حلة ، وفى رجب ألف مثلها الى آخر العام أو الى نهاية المحرم ٠

وللمسلمين أن يأخذوا على وجه العارية ثلاثين درعا يدرعون بها ، وثلاثين فرسا ، يحاربون عليها ، أو بعبارة عامة ثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزو بها المسلمون ، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليهم ٠

ولم تكن الجزية مقيدة بجنس ، بل تصح بالدنانير والدراهم ، كما تصح بالثياب ، على حسب ما يقدرون عليه ، وعلى حسب حاجة المسلمين اليه ٠

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما ارسل معاذ بن جبل ليجمع الجزية أمره أن يأخذ من كل رجل بلغ الحلم دينارا ٠

ولم يفرضها على النساء والعبيد والمرضى ، بل فرضها على القادرين دون المؤمنين والعاجزين ، وان الجزية كانت تؤخذ من نصارى العرب ، الى أن أجلى عمر بن الخطاب النصارى عن الجزيرة العربية نفسها ، وان بقى بعضهم فى أطرافها كاليمن ، فكانت تؤخذ منهم الجزية كما تؤخذ من اليهود المقيمين بها ، ولم يغادروها الى داخل الجزيرة ٠

ونلاحظ فى الجزية التى امر بها الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم امور ثلاثة :

أولها : انها لم تكن معينة فى جنس ، بل كان يعين على اساس التيسير عليهم ، فان كانوا تتيسر عليهم الدنانير فهى الأصل فى التقدير ، وان لم تتيسر الدنانير وتيسرت الثياب او غيرها اخذ مما يتيسر عليهم اداؤه ٠

ثانيها : انها ليست معينة المقدار فى الجماعة ٠ بل تنقص وتزيد على حسب حاجة المسلمين ، وقدرة من يعطونها ٠

وثالثها : انها تسقط او تدفع جملة على حسب طاقة الدافعين من غير افراط ولا تفريط ٠

سرايا بعد خيبر

٥٥٧ ـــ بعد غزوة خيبر ، وما تبعها من وادى القرى وتيماء ، ما كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من حرب غير تعرف لاختبارها ، وما يجرى فيها بعد الحديبية ، ولقد تم كسره الشوكة اليهودية ، والقضاء على القوة العسكرية لليهودية فى البلاد العربية ، ومنعهم من ان يعملوا على بث العداوة والبغضاء بين العرب ، وتحريض اعداء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولابد ان يكون بث سراياه حول مكة المكرمة ، او على مقربة منها ، ليتعرف اخبارها واحوالها فى مدة العقد ، ولكى ينبذ اليهم عهدهم ان ثبت لديه منهم خيانة ، او استعداد لها ، فانه عليه الصلاة والسلام كان ياخذ للأمر اهبته قبل ان يقع عند توقعه ، ولكنه لا يغدر ، ولا يخيس فى عهوده مبتدئا ٠

ولذلك اخذ يبعث السرايا فى داخل الصحراء ، وعلى مقربة من مكة المكرمة ٠

سرية أبى بكر الصديق الى فزارة

٥٥٨ ـــ يروى الامام احمد فى مسنده انه بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ابا بكر الصديق فى سرية الى بنى فزارة ، ولم يكن ابو بكر رضى الله تعالى عنه رجل الحرب ، وان كان من المجاهدين فى الصف الأول ٠ ولكنه رجل راى وتدبير ، ومعرفة بحال العرب ، وهو المدرك عند تعرف احوال العرب ، فما كان خروجه للحرب فقط ، بل كان لتعرف احوال العرب ، فيما يحيط بما يقرب من مكة المكرمة وما حولها ٠

وقد سار الصديق رضى الله تبارك وتعالى عنه بمن معه ، حتى كان ببنى فزار ، فنزل عند الماء ، وكان ذلك ليلا ، ليباغتهم ، فلما صلى الصبح بالمؤمنين معه شن الغارة بأصحابه ، فقتلوا من بالماء وحالوا بينهم من النساء والرجال والذرية من فزارة ، وبين الجبل الذى يكتنفهم ، ورموا بالسهام بينهم وبينه لكيلا يجتازوا مكانهم ٠

وتتبعوهم حتى ساقوهم الى أبى بكر عند الماء ، وفيهم امرأة وابنتها ، فنقل أبو بكر الابنة ، وكانت ذات جمال ، ولم ينل من هذا النقل شيئا حتى وصل الى المدينة المنورة حيث يوزع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم يكشف ثوبا للفتاة ٠

ذهب الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالجارية ، فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : هب المرأة لى ، فقال له يا رسول الله : لقد أعجبتنى ، وما كشفت لها ثوبا ، فسكت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وتركنى ، حتى اذا كان من الغد قال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما قال ، ورد هو بما كان ، وتكرر ذلك مرة أخرى من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومنه ، حتى انتهى الأمر بأن قال له هى لك يا رسول الله ٠ وما كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يريدها لنفسه ، ولكن يريدها لفداء المستضعفين من المؤمنين بمكة المكرمة ، ولذلك بعث بها الى مكة المكرمة ليفدى بها مستضعفين بمكة المكرمة ، ففداهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بهذه المرأة ٠

وقد روى مثل هذا مسلم فى صحيحه والبيهقى فى دلائل النبوة ٠

سرية عمر بن الخطاب

٥٥٩ — أورد الواقدى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ثلاثين رجلا الى بعض أرض هوازن وراء مكة المكرمة بأربعة أميال ، أى أنها على مقربة من مكة المكرمة ، ولقد كان عمر رضى الله عنه من أعرف الناس بالعرب طبعا وخلقا ، وهو ذو الفراسة القوية ، والبصيرة النافذة المدركة ٠

ويظهر أنه كان ذاهبا الى هذه الجهة ليتعرف ويتخبر ، لا ليقاتل فقط ٠

ومهما يكن فقد سار الفاروق ومعه دليل من بنى هلال ، وكان يسير ليلا

ويكمن نهارا ، وهو يتعرف ما أمامه ، وما وراءه حتى وصل الى بعض هوازن فهربوا من لقائه ومن معه ٠

عاد عمر أدراجه من غير قتال ، ولكنه عاد بزاد من المعـــرفة عن مكة المكرمة وما حولها ، وقد أشار عليه أصحابه أن يذهب الى خثعم ، ولكنه أبى ، لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يأمره بالذهاب اليهم ، وهو يصـــدر عن أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

سرية عبد الله بن رواحة الى يسير اليهودى

٥٦٠ ـــ كان اليهود وان فقدوا القوة العســكرية فى أرض العرب ، لا تزال فلول منها مبعثرين فى أرضهم ويخشى أن يكون منهم تجمع فى جــزء منها ، ويكون قوة تؤلب على الاسلام ، ولذلك كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يتتبع أخبارهم ومن يظهر منهم ، فيقضى عليهم أجزاء حتى يجعلهم جذاذا بدل أن يتجمعوا حوله ٠

روى الواقدى بسنده عن الزهرى أن رسول الله صــلى الله تعالى عليه وسلم بعث عبد الله بن رواحة فى ثلاثين راكبا ، اذ بلغه أن يســـير بن رزام اليهودى يجمع بنى غطفان ليغزو بهم ، وبنو غطفان قد كانوا يمالئون اليهود فى خيبر ، قبل أن يغزو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اليهود ، وأنه حـــال بينهم وبين نصرتهم ، حتى تمكن من دك حصون اليهود وفتحها ٠

ويظهر أن يسير بن رزام هذا أراد أن يحيى ذلك التعاون القديم ، فبلغ ذلك محمدا صـــلى الله تعالى عليه وســـلم وهو الحـــذر الذى يمنع الشر قبل وقوعه ٠

ذهب اليه عبد الله بن رواحة ، وأوهمه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعث اليه ليستعمله على أرض خيبر ، فيظهـــر هو ومن معه ، فتبعهم بثلاثين رجـــلا من رجـــاله اليهـــود ومع كل منهم رديف من المؤمنين ، ولـــا بلغـــوا مكانا معينا ندم يسير بن رزام على مسايرته ابن رواحة فيما قال ، فأراد أن ينزع سيف عبد الله بن رواحة ، ويهوى به عليه ، ففطن له ابن رواحة ، فزجر بعيره ، وتمكن من يسير ، فضربه ضربة قطعت رجله ٠

ولقد ضرب اليهود عبد الله بن رواحة فى وجهه فشجه شجة عميقة ٠

واتكفأ كل رجل من المسلمين على رديفه من اليهود فقتله ، ولم ينج منهم غير رجل واحد ، ولم يصب من المسلمين أحد الا شجة ابن رواحة ٠

ولقد قالوا ان رسـول الله صـلى الله تعالى عليه وسـلم تفل على شجة ابن رواحة فلم تتقيح ولم تؤذه حتى مات ٠

ونرى من هذا حذر النبى صـلى الله تعالى عليه وسـلم من اليهـود ، وتتبعهم ، حتى لا تقوم لهم قائمة فى أرض العرب ٠

سرية بشير بن سعد الى بنى مرة من فدك

٥٦١ ـــ بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى بنى مرة من فدك بشير بن سعد فى ثلاثين راكبا ، فاستاق نعم بنى مرة ، فقاتلوه ، وقتلوا كل من معه ، واستمر هو على القتال فقاتل وحده قتالا شديدا ، ثم آوى الى فدك ، ونزل عند رجل يهودى ، وكان غريبا أنه لم يغدر به ، ثم كر راجعا الى المدينة المنورة ٠

وقد بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لبنى مرة هؤلاء غالب ابن عبد الله ليقتص للذين قتلوهم من المؤمنين ، وليفلوا شوكتهم ٠

وكان معه عدد من الصحابة فيهم أسامة بن زيد رضى الله تعـالى عنه وغيرهم ، وقد اقتصوا لمن قتلوا من المسلمين ، وكان مما حدث أن قتل اسامة ابن زيد رجلا قال لا اله الا الله محمد رسول الله ، فقـد قالوا انه قتل مرداس ابن نهيك حليف بنى مـرة ، وقال عنـدما علاه بالسيف : لا اله الا الله فلامه الصحابة على ذلك ، حتى سقط فى يده وندم على ما فعل ٠

ولما قدموا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال له يا اسامة من لك بلا اله الا الله فقال يا رسول الله انما قالها تعوذ بها من القتل ٠ قال فمن لك يا أسـامة بلا اله الا الله ، فوالذى بعثـه بالحـق مازال يرددها حتى أن ما مضى من اسلامى ، لم يكن ، وانى قد أسلمت يومئـذ ولم اقتله ، وقال انى أعطى الله عهدا الا أقتل رجلا ، يقول لا اله الا الله ابدا ٠

مضى غالب بن عبد الله بما معه يقتص من الذين قتلوا المؤمنين ، وتتبعهم حتى خضد شوكتهم ، وولوا الأدبار ولم يعد لهم قوة فى الأرض يستطيعون أن يعبثوا بها فى الأرض فسادا ٠

وكان مع رحلة غالب هذا فى البلاد يتتبع جيوب اليهود ، حتى صار على مقـربة من مكة المكرمة وقد طهـر كل جيوب اليهـود ، وأدب الأغراب حتى استقامت أمورهم ٠

سرية أبى حدود

٥٦٢ ـــ كان لا يزال فى الجزيرة العربية من بقايا خيثم وغيرها من يحاول محاربة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن ظهر نور الاسلام فى البلاد العربية ، وبدا قويا يحملهم على التفكير السليم فى العقيدة ، وأن لم يكن لتطهير العقول من رجس الوثنية ، فاتقاء لسوء المغبة ٠

بلغه عليه الصلاة والسلام أن رجلا له مكانة فى قومه من خيثم يريد أن يجمع قيسا على محاربة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبعث أبا الحدود ، ورجلين من المسلمين ، وقال لهم عليه الصلاة والسلام : « اخرجوا الى هذا الرجل ، حتى تأتوا منه بخبر وعلم » ٠

وأركبهم على ناقة عجفاء ، وقال تبلغوا على هذه ٠

خرج الرجال الثلاثة ومعهم سلاحهم ، وتحسسوا أمر ذلك الرجل ، فوجدوه يجمع من يجمع من الناس ، أو على استعداد لأن يجمع ، فقتلوه بسهم أصاب فؤاده ، وانتهى أمره ٠

واستمر أبو الحدود فى سريته حتى بعثه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى أضم ، ونزلوا بطنه وقد مر رجل اسمه عامر بن الأضبط النخعى ، فألقى السلام ، فقتله رجل من المؤمنين اسمه مجشم بن جثامة لعداوة كانت بينهما مع أنه ألقى السلام ، اذ جاء غير مقاتل ، ولا مريد للقتال ٠

وقد حدثت أمور فى هذه السرية الصغيرة دلت على مبادىء سامية فى الاسلام ٠

أولها : أن أبا الحدود الذى بعثه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذه السرية كان قد ذهب لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يطلب مهر زواجه ، وأن ذلك يدل على مدى قوة التعاون بين المؤمنين فى تلك الفترة من تاريخ الاسلام التى تعد نورا لكل الأزمان ان اتبع المسلمون مبادىء الاسلام ٠

فقد روى أن أبا الحدود هذا الذى بعث بهذه السرية ذهب الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد تزوج امرأة من قومه فأصدقها مائتى درهم ، ذهب اليه عليه الصلاة والسلام يستعين به على زواجه منها ، فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كم أصدقتها ؟ قال مائتى درهم ، فقال النبى صلى

الله تعالى عليه وسلم ، سبحان الله ، والله لو كنتم تأخذونها من واد مازدتم ، والله ما عندى ما أعينك به ٠

وقد ارسله على رأس هذه السرية لعله يصيب ما يصدق به امرأته ٠.

وثانيها : أنه لا يصح قتل من ألقى السلام ؟ لأن الاسلام يدافع ، ولا يقتل من يسالم فقد نزل قوله تعالى « **يأيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا ، تبتغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة ، كذلك كنتم من قبل ، فمن الله عليكم فتبينوا ان الله كان بما تعملون خبيرا** » ، وذلك عند قتل مجشم بن جثامة عامر بن الأضبط وقد أسف ذلك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم لا يغفر لمجشم » وكان دعاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك ، لأنه قتل نفسا بغير حق ، وان الله لا يغفر ذنوب من يعتدى على حقوق العباد ، الا بعفو ممن اعتدى عليه ٠

وقد طالب عيينة بن بدر بدم عامر بن الأضبط ، وهو سيد قومه بنى عامر ٠

وقد كان الطلب تأخر الى غزوة حنين فيما يظهر من السياق ، فطلب اليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يقبل خمسين بعيرا ، حتى يرجع الى المدينة المنورة فيعطيه خمسين فرد ، ثم قبل من بعد ٠

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد دفع الدية من بيت مال المسلمين وان ذلك أكمل تعاون ، وأكمل حرص على الدماء ، مع أنه ثبت أن المقتول لم يكن قد أسلم ٠

وقد قال علماء السنة والسيرة ان السرايا والبعوث التى جاءت بعد خيبر ووادى القرى ـ لم تكن سرايا ذات خطر فى توجيه الحروب ، ولكنها كانت لحوادث صغيرة ، أو لبث روح الاجلال للاسلام ، وفل شوكة من يريدون للاسلام نكاية ، أو للتعرف بأحوال العرب ، أو هى أشبه بالدوريات التى تمر بالبلاد احتياطا ، وتأديبا لكل من تحدثه نفسه بالاعتداء على المسلمين بأى نوع من الاعتداء ٠

عمــــرة القضـــاء

٥٦٣ ـــ كان اتفاق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى عقد صلح الحديبية على أن يبعد عن مكة المكرمة هذا العام ، وحتى لا يتحدث الناس أنه دخلها على الرغم من أهلها ، ثم يدخلها فى العام المقبل معتمرا ، من غير سلاح الا ما يحمل باليد ويمكث ثلاثة أيام يسعى ويطوف ، ثم يتحلل ٠

فلما جاء ذو القعدة اتجه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى العمرة التى سميت عمرة القضاء ، كما سميت عمرة القصاص ، لأنها كانت قصاصا من صد المشركين للمؤمنين عن العمرة ، وقالوا انه نزل فى ذلك قوله تعــالى « **والحرمات قصاص** » ٠

ونرى أن النص السامى « والحرمات » انما نزل فى القتــال فى شــهر الحرام ، فقد قال تعالى « **الشهر الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاص** » أى اذا انتهكوا حرمة البيت وصدوا عنه ، وانتهكوا حرمات الشــهر الحرام ، فعليهم أن يتوقعوا مثل ما فعلوا ، فالحرمات قصاص ٠

اتجه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى الغمرة ، ودعا الذين حضروا الحديبية اليها ، ومن أراد من غيرهم الاعتمار ، فما عليه من حرج فى ذلك ، ولكن العمرة واجبة بالنسبة لمن أحرموا لها فى الحديبية ، ولم يتموها ، كمن يشرع فى صوم فعلا ، ثم يفطر بعد النية ، فانه عليه قضاء ذلك اليوم ، وقــد ابتدأ فعلا بالأداء ، فلما لم يتمه صار واجبا عليه القضاء ٠

خرج مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم معتمرون من المدينة المنورة ، وساقوا الهدى ، وقالوا ان الهدى فى عمرة القضاء هذه كان بعضه من البقر ورخص لهم ذلك ٠

وقد نوى رسول الله صــلى الله تعالى عليه وسلم الاحــرام من ميقاته ، وكان يلبى عليه الصلاة والسلام ، والمسلمون يلبون معه ، وكان محمد بن سلمة على الخيل والســلاح ، وســار بها الى مر الظهران ، فالتقى بنفر من قريش ويظهر أن ذلك أرهب قريشا وأفزعهم ٠

سالوا محمد بن سلمة فقال هذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يصبح غدا فى هذا المنزل ان شاء الله تعالى ورأوا ســـلاحا كثيرا مع بشــير ابن سعد ومحمد بن سلمة ٠

خرج النفر من قريش الى مكة المكرمة فاخبروهم بالذى رأوا من السلاح ففزعت قريش ، وقالوا ما أحدثنا حدثا ، وانا على كتابنا وهو عهدنا ، ففيم يغزونا ٠

وبعثوا اليه مكرز بن حفص فى نفر منهم ، حتى لقوه ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى أصحابه ، والهدى والسلاح قد تلاحقوا ٠

قالوا يا محمد ، ما عرفت صغيرا ولا كبيرا بالغدر ، تدخل بالسلاح فى الحرم على قومك ، وقد شرطت لهم الا تدخل الا بسلاح المسافر ، السيوف فى القرب ٠

فقال لهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، انى لا ادخل عليهم بالسلاح ، حينئذ اطمأنت قريش ٠

ساق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، الهدى يرعى فى الزرع والشمر وهو يلبى كما ذكرنا والمسلمون من ورائه يرجعون تلبيته ، وحبس الهدى بذى طوى ٠

وقد خرجت قريش من مكة المكرمة الى رءوس الجبال ، وأخلوا مكة المكرمة ، وقالوا لا ننظر اليه ولا الى أصحابه ، غضبا من هذه الزيارة المباركة ولخشية أن يكون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه يميلون قلوبهم للوحدانية واتباع الهدى ، فان النظر الى الفعال يؤثر بأكثر مما تؤثر الأقوال ٠

ومنهم من كان يذهب به الفضول الى تعرف ما يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ، فقد روى ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : صفوا اليه عند دار الندوة لينظروا اليه والى أصحابه ، ولقد طاف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهرول فى ثلاثة أطواف ، وسعى بين الصفا والمروة ، وأرسل فى بعضها ، مظهرا أنه وأهل الايمان عندهم القوة ، والقدرة اذا كانت ساعة الجد ، وذلك لأن قريشا قالوا عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : انه يقدم عليكم ، وقد وهنتهم حمى يثرب ٠

فلما دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اضطجع بردائه ، فجعل بعضه تحت عضده اليمنى ، وجعل طرفه على منكبه الأيسر ، وقال : « رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة » ثم استلم الركن ، وخرج يهرول ، ويهرول أصحابه حتى استلم الركن اليمانى مشى حتى يستلم الحجر الأسود ، ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف ٠

وظن كثيرون أن هذه الهرولة ، وهى المشية التى تظهر فيها القوة خاصة بالحال التى كان فيها المسلمون وهى ظن المشركين أنه قد وهنت قوتهم ، وأضعفتهم الحمى ·

ولكن لما كانت حجة الوداع ، هرول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى الطواف ثلاث مرات ، فكانت سنة مشروعة واجبة الاتباع ·

وقد روى الشيخان البخارى ومسلم من حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « قد قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صبيحة رابعة ذى القعدة سنة سبع ، فقال المشركون ، انه يقدم عليكم ، وقد وهنتهم حمى يثرب ، فأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة ، وأن يمشوا بين الركنين ، ولم يمنعه أن يرسلوا الأشواط كلها الا الابقاء عليهم » ·

وهكذا نجد كل المشقات التى يكلفها الاسلام تكون فى الطاقة ، ولا تكون ارهاقا ·

وقد ظنوا كما أشرنا أن هذه الهرولة لقول المشركين ما قالوا ، ولكن ثبت أنها سنة ـ كما قلنا ـ بحجة الوداع ·

جاء فى الواقدى : لما قضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نسكه ، دخل البيت ، فلم يزل فيه ، حتى أذن بلال الظهر فوق ظهر الكعبة الشريفة ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أمره بذلك وكان من بين من حول دار الندوة بعض رجال من قريش ، كما أشرنا فكان منهم عكرمة بن أبى جهل فذكر أباه ، وقال لقد أكرم الله أبا الحكم ، ان لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول وقال صفوان بن أمية فقد أكرم الله أبى قبل أن يرى هذا ، وقال خالد بن أسيد الحمد لله الذى أمات أبى ولم يشهد هذا اليوم ، حتى يقوم بلال ينهق فوق البيت ·

ورجال غير هؤلاء من قريش لما رأوا ذلك غطوا وجوههم ، وهكذا انتصر النبى عليه الصلاة والسلام والمسلمون من بعد ما ظلموا ، وغاظوا بالايمان أهل الشرك ·

أقام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى مكة المكرمة ثلاثة أيام أدى شعائر العمرة ونال أجر مجاورة البيت هو وأصحابه ، وقريش فى غيظ وكمد لأن دعوة التوحيد وشعار التوحيد دخل مكة المكرمة ، وهم يرون ، ولايستطيعون حولا ·

وفى اليـــوم الثالث ، كانت هناك رغبتان : رغبته الود ، والرحمة من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه وهى اقامة وليمة يتناولون معــا طعاما ما يكون عربون السلام الدائم من بعد ذلك ، ورغبة أخرى مناقضـة ، هى النعرة الشديدة وابداء العداوة والبغضاء ٠

فى اليوم الثالث جاءه حويطب بن عبد العزى فى نفر من قريش ليخرجوا الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، قد وكلتهم قريش لاخراج الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالوا له قد انقضى أجلك فاخرج عنا ٠

فقــال النبى صــلى الله تعالى عليه وســلم : وما عليكم لو تركتمونى فاعرست (أقست) بين أظهركم ، وصــنعنا لكم طعاما فحضرتموه ، فقــالوا لا حاجة لنا فى طعامك ، فاخرج عنا ٠

لم يكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم محاربا ، بل داعيا الى الله ، حيثما وجد الى الدعوة سبيلا ، فهو لابد أن يقرب بالمودة داعيا هاديا مرشدا مهمــا تكن نفــرتهم ، فهو مطالب بادناء القاصى ، وايناس النافر ، مهما تـكن الأحوال ، فانتهز هذه الفرصة ليلتقى بهم ، ويدعو بالحق فيهم ٠

ولقــد لقى فعــلا بعضهم ، ودعاهم الى الحق ، وان لم يكن فى داخل المسجد الحرام ٠

وقد تزوج صــلى الله تعــالى عليه وســلم ميمونة بنت الحارث ، تأليفا للقلوب وادناء لها ، باشارة عمه العباس بن عبد المطلب ، وهى أخت امرأته ، ولذلك تولى هو صيغة الزواج مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ جعلت أمرها الى أختها أم الفضــل ، وكانت هــذه مع العباس رضى الله تعالى عنه فوكلت أم الفضل زوجها العظيم الذى شارك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى صيغة العقد ، ولم يكتف بذلك ٠ بل دفع العباس صداق زواجهــا من ابن أخيه أربعمائة درهم ، أثابه الله تعالى على محبته لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحدبه العظيم عليه فى هدنته بين قريش ، وفى تصرفه ، بعد أن أدال الله من دولة الأوثان ٠

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وســلم وفاء بالعهد ، واستجابة لقريش الذين رفضــوا مودته ، ولكنه خلف مولاه أبا رافــع ، ليكون مع زوجــه أم المؤمنين ميمونة ، حتى أتاه بسرف قرب التنعيم فوافى فيها زوجه ، وبنى بها ، ثم عاد الى المدينة المنورة فى ذى الحجة ٠

ولقد كانت هذه العمرة تأليفا وتقريبا ، وان حاول المشركون أن يبعدوا ولا يقربوا ، وأن ينفروا ولا يتوادوا ، ولكن كان منهم من لانوا للاسلام ، واتخذوا سبيلهم للايمان ، وحسبك أن تعلم أنه كان عقب هذه العمرة اسلام خالد بن الوليد ، الذى سمى سيف الاسلام ، فكان سيفا مشهورا فى كل الحروب فى عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ذلك ، وفى عهد أبى بكر وأكثر عهد عمر رضى الله عنهم أجمعين ٠

عمرة القضاء فى القرآن الكريم

٥٦٤ ـــ كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد رأى رؤيا صادقة أنه سيدخل المسجد الحرام مع أصحابه محلقين رءوسهم ومقصرين ، وقد كان بعد هذه الرؤيا صلح الحديبية ، وما كان فيه ، وتحلل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال عمر غضبان أسفا ألم تعدنا بأن نطوف ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما وعدتك هذا العام ، ولقد بين الله أن صدق الرؤيا كان فى عمرة القضاء ، لا فى الحديبية ، وان كانت الحديبية أول الفتح ، أو التمهيد له ، فقال تعالى :

« **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين ، لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحا قريبا ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا ، محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوارة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما** » ٠

حكم شرعى فى عمرة القضاء

٥٦٥ ـــ كانت عمارة بنت سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب تقيم فى مكة المكرمة مع أمها سلمى بنت عميس ٠ وذلك أن بعض القرشيين مع ارسالهم حويطبا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، يطلبون منه الخروج ، أتوا عليا ، فقالوا قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل ٠

ولما خرج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومعه على رضى الله عنه ـ تبغته عمارة هـذه ابنة سيد الشـهداء تنادى ياعم ، ياعم ، فتناولها على ، فاخذها بيده ، وقال لفاطمة الزهراء ، دونك ابنة عمك لحمايتها ٠

ثم قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « علام نترك ابنـة عمنا يتيمة بين ظهرانى المشركين » فلم ينه النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم عن اخراجها معهم ٠

ثم تنازع فيها اليه ثلاثة ، ولكل واحد منهم صـلة خاصـة بها ٠ وكل يدعى انه احق بها من غيره تنازعها زيد بن حـارثة ، وعلى بن ابى طالب ، وجعفر بن أبى طالب ٠

وحجة زيد التى يدلى بها ان حمـزة كان اخاه فى المؤاخـاة ، فقد آخى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بين زيد وحمزة ، فطالب بها على انه اولى الناس بها ، لأنه وصيها ، وابنة أخيه فى الاخاء ٠

وطالب بها على لأنها ابنة عمه ، فهو اولى بها ، وهو الذى أخرجها من المشركين فله ولاؤها وولايتها ٠

وطالب بها جعفر ، لأنها ابنة عمه ، ولأن خالتها زوجه ، وهى اسـماء بنت عميس ٠

وتحاكم الثلاثة الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فحكم لجعفر ، وقال : أما أنت يا زيد فمولى الله تعالى ومولى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأما انت يا على فتشبه خلقى وخلقى ، وانت يا جعفر أولى بها تحتك خالتها ، ولا تنكح المراة على خالتها ، ولا على عمتها ، فقضى بها لجعفر ٠

فلما قضى بها لجعفر ، قام فحجل حول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال ما هذا يا جعفر ، فقال يا رسول الله كان النجاشى اذا ارضى احدا ، قام فحجل حوله ٠

وقال جعفر للنبى صـلى الله تعالى عليه وسـلم : انها ابنة اخى من الرضاعة ٠

فزوجها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سلمة بن ابى سلمة ، فهو صلى الله تعالى عليه وسلم لم يتركها حتى زوجها ٠

وإن هذه القصة أفادت أحكاما فى الحضانة وفى الولاية على النفس ، وفى ولاية التزويج فى الحضانة فقد أثبت أن الحضانة لابد فى أن تمسك الحاضنة عند ذى رحم محرم ، وجعفر كان ذا رحم ، وكان محرما لها ، لأنها ابنة أخيه رضاعا وامرأته خالتها ، ولا يتزوجها على خالتها وأفادت أن الولى على النفس بالنسبة للزواج لا يشترط أن يكون ذا رحم محرم ، فإن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم زوجها ، وهو عاصب ليس ذا رحم محرم منها ٠

وأثبت أن الأولياء اذا كانوا فى مرتبة واحدة زوج أفضلهم ، فكان جعفر وعلى ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أولاد عم ، فزوج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ودل الخبر على أن الولى العاصب الأقرب اذا غاب قام فى الولاية من يليه فى القرب ، والولى الأقرب هو العباس رضى الله تبارك وتعالى عنه ، وكان قد أسلم ، وهو عمها ، والباقى أولاد عمها ، فهو أقرب منهم جميعا ، ولكنه كان غائبا ، فيتولى التزويج من يليه ، فتولى أفضل من يليه ٠

سرية ابن أبى العوجاء السلمى

٥٦٦ — كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا ينى عن الدعوة الى الاسلام ، لأنه رسالته ، وهو يستمع دائما الى قوله تعالى « **يأيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك** » ٠

فكان يدعو الى الاسلام ، ويقرب القلوب وهو فى مكة المكرمة ، وقد أثمر ثمراته فى أهل مكة المكرمة بعد ذلك فكانوا يدخلون فى الاسلام طالبين الرفعة عن طريقه ٠

فلما انتهت عمرة القضاء ، فى ذى الحجة فى السنة السابعة أخذ يوجه الدعوات الى الجزيرة العربية فأرسل بعدها أبا العوجاء الى بعض القبائل على قرب من ثلة فى خمسين فارسا يدعو الى الاسلام أو العهد ، أو القتال ٠

وقد كان لهم عين بالمدينة المنورة فذهب وأخبرهم بسرية الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وحذرهم فجمعوا جموعا كثيرة ٠

فجاء ابن أبى العوجاء وهم مستعدون ، فلما رآهم أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وتجمعهم دعوهم الى الاسلام ، فلم يجيبوهم بالقول

الرافض ، ولكن أجابوهم بالعمل المقاوم ، فرموهم بالنبل ، وقالوا لا حاجة لنا الى ما دعوتم اليه ·

وجعلت الامدادات تجيء اليهم ، حتى أحدقوا بالخمسين فارسا من المؤمنين من كل جانب ، وقاتل المؤمنون قتالا شديدا ، حتى قتل أكثرهم ، وأصيب ابن العوجاء بجراحات كثيرة ، فتحامل حتى رجع بمن بقى من أصحابه ·

وهكذا كانت التضحيات فى سبيل الدعوة من أهل الغدر والنفاق ·

اسلام خالد بن الوليد

٥٦٧ ـ قلنا ان عمرة القضاء كانت فرصة لتقريب البعيد ، وايناس الغريب عن الاسلام بمبادئه ، والربط بالمودة ، واذا كانت نفوس جافية لم تستجب لداعى المودة والرحم ، فان العقلاء قد سرت الى نفوسهم دعوة الحق ، وأخذوا يرون الاسلام فى علاء ، وعرفوا ذلك من منطق القوة ، ومنطق الهداية ومنطق العقل ، وقد زالت الغمة ، وكشفت الحقائق ، وكان من هؤلاء وعلى رأسهم خالد بن الوليد ، الذى سمى بحق من بعد سيف الاسلام ، وان لم ينل مرتبة المجاهدين الأولين والبلاء بلاء ، والقوى كلها تكاتفت على المسلمين ·

لقد كانت نفس خالد المدركة التى تحس مائلة عن الشرك الى دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان يرى أنه يخوض فى الدفاع عن الشرك الى غير غاية ·

ولنترك الكلمة ، لما روى عن خالد بن الوليد فى حديثه عن اسلامه ·

قال : لما أراد الله تعالى بى ما أراد من الخير قذف فى قلبى الاسلام ، وحضرنى رشدى فقلت ، قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فليس لى موطن أشهده ـ أو أنصرف وأنا أرى أنى موضع فى غير شىء ، وأن محمدا سيظهر ، فلما خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى الحديبية خرجت فى خيل المشركين ، فلقيت رسول الله بأصحابه بعسفان ، فقمت بازائه ، وتعرضت له ، فصلى الظهر أمامنا فهممنا أن نغير عليهم ، ثم لم يعزم لنا ، وكانت فيه خير · فاطلع على ما فى أنفسنا مما ألهم به ، فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف فوقع ذلك منا موقعا فقلت الرجل ممنوع فاعتزلنا ، وعدل عن سير خطنا وأخذ ذات اليمين ·

فلما صالح قريشا بالحديبية ودافعته قلت فى نفسى اى شىء بقى أأذهب الى النجاشى فقد ، اتبع محمدا واصحــابه عنده امنون ، أفأخرج الى هرقل فأخرج من دينى الى نصرانية أو يهودية أفاقيم فى عجم ، أفاقيم فى دارى ٠

فأنا فى ذلك اذ دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وســلم فى عمرة القضاء ، فتغيبت ، ولم أشهد حضوره ٠

وكان أخى الوليد بن الوليـد قد دخل مع النبى صـلى الله تعالى عليه وسلم فى عمرة القضاء فطلبنى ، فلم يجدنى ، فكتب الى كتابا فاذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فانى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الاسلام ، وعقلك عقلك ، ومثل الاسلام ما جهله أحد ، وقد سألنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنك ، وقال أين خالد ، فقلت يأتى الله تعالى به ، فقال : ما مثله يجهل الاسلام ؟ ! ، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين كان خيرا له ، ولقدمناه على غيره ، فاستدرك يا أخى ما قد فاتك من مواطن صالحة » ٠

فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج ، وزادنى رغبة فى الاسلام ، سؤال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنى ، وأرانى فى المنام كأنى فى بلاد ضيقة مجدبة ، فخرجت فى بلاد خضراء واسعة ، فقلت ان هذه لرؤيا ، فلما أن قدمت المدينة المنورة قلت لأذكرنها لأبى بكر ، فقال مخرجك الذى هداك الله تعالى للاسلام ، والضيق الذى كنت فيه من الشرك ٠

فلما أجمعت الخروج الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قلت من أصاحب الى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم !! ، فلقيت صفوان بن أمية ، فقلت يا أبا وهب ، أما ترى ما نحن فيه ، انما نحن كأضراس ، وقد ظهر محمد صـلى الله تعالى عليه وسـلم على العـرب والعجم ، فلو قدمنا على محمد واتبعناه ، فان شرف محمد شرف لنا ، فأبى أشد الاباء ، وقال لو لم يبق غيرى ما اتبعته أبدا ، فافترقنا وقلت هذا رجل قتل أخوه وأبوه ببدر قلت فاكتم على فلقيت عكرمة بن أبى جهل ، فقــال مثل ما قال صــفوان بن أمية فخرجت الى منزلى فأمرت براحلتى ، فخرجت بها الى أن لقيت عثمان بن أبى طلحة ، فقلت ان هذا لى صديق فلو ذكرت له ما أرجوه ، ثم ذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره ، فقلت وما على ، وأنا راحل من ساعتى ، فذكرت له ما آل الأمــر اليه ، فقلت انما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر لو صب عليه ذنوب من ماء لخرج وقلت له نحوا مما قلت لصاحبى ، فأسرع الاجابة وقلت له انى غدوت اليهم ،

وانى أريد أن أغدو ، وهذه راحلتى ... فادلجنا سرا ، فلم يطلع علينا الفجر ، حتى التقينا فغدونا حتى انتهينا الى الهدة . فوجدنا عمرو بن العاص ، بها ، فقال : مرحبا بالقوم ، فقلنا وبك ، فقال الى أين مسيركم ؟ فقلنا وما أخرجك ؟ فقال وما أخرجكم ؟ قلنا الدخول فى الاسلام ، واتباع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال وذلك الذى أقـدمنى ، فاصطحبنا جميعا حتى دخلنا المدينة المنورة ، فأنخنا بظهر الحرة ركابنا فأخبر بنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسر بنا فلبست من صالح ثيابى ، ثم عمدت الى رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلقينى أخى فقال : أسرع ، فان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد أخبر بك فسر لقدومك ، وهو ينتظركم ، فأسرعنا المشى ، فاطلعت عليه ، فما زال يبتسم لى حتى وقعت عليه ، فسلمت عليه بالنبوة ، فرد على السلام بوجه طلق ، فقلت انى أشهد ان لا اله الا الله ، وانك رسول الله صلى الله تعالى عليك وسلم ، فقال تعال ، ثم قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . « الحمد لله الذى هداك ، قد كنت أرى لك عقلا ، ورجوت ألا يسلمك الا الى خير قلت يا رسول الله ، انى قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك مما أبـرأ منه فادع الله أن يغفر لى ذلك ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « الاسلام يجب ما كان قبله ، قلت يا رسول الله على ذلك فقال صلى الله تعالى عليه وسلم « اللهم اغفر لخالد بن الوليد ، كل ما أوضع فيه من صد عن الله ورسوله » .

هذا ما نقله الواقدى بالرواية عن اسلام خالد بن الوليد .

وذكرناه بطوله ، لأنه حكاية نفسه ، وبيان خواطره ، وبيان ما وجهه الى الاسلام توجيها نفسيا ، أهو الاعتقاد الجازم الذى ينبعث من النفس ، أم هو المصلحة ، ولا يمنـع أن يكون الباعث هو المصـلحة ، ثم يشرب قلبه حب الايمان ، ويكون من الصادقين فى ايمانهم ، ثم يكون من بعد ذلك من المحاربين فى الاسلام ، وربما يكون من المجاهدين ، ان صح التعبير .

كان خالد ممن لم يدخلوا مكة المكرمة من قريش غيظا من الاسلام وأهله وكراهية – عندما دخل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مكة المكرمة معتمرا حاجا . فدل هذا على النفرة الشديدة من الاسلام وأهله ، ولكنه جاء بعد ذلك وأراد أن يكون مع المسـلمين ، ولم يكن كعمر الفاروق الـذى كان ألبا على المسلمين ثم رق قلبه للاسلام وقذف الله فى قلبه بنوره ، فكان قوة فى الاسلام ، وفارقا بين الضعف والاختفـاء والقوة ، والاستعلان ، فى وقت ضنت فيه الألسنة عن الحق ، والقلوب عن الايمان ، ولا كحمزة أسد الله ، فانه لم يقف قط ضد الاسلام ، وأسلم ابتداء حمية لابن أخيه ، ثم صار بطل الجهاد ، لا بطل الحرب ، فقد يكون بطل الحرب غير مجاهد ، وقد يكون بطل الجهاد لم تعرف

له فى الحــرب مكيدة ، كبــلال وعمار ، وغيرهما من المؤمنين الأولين الذين كانوا اللبنة الأولى فى بناء الاسلام ، وعلى بلائهم وأذاهم قام الاسلام ٠

كان خالد فى اسلامه ليس واحدا من هؤلاء ولا كواحد منهم ، ولكنه فكر وقدر فى البقاء على وثنية مكة المكرمة ، أتكون مصلحته ، أم المصلحة فى أن يسير فى الركب لتحفظ له مكانة المحارب الفذ والقائد النادر المثال ٠

وجد مكة المكرمة قد سدت ولم تكن مكان العزة ، ورأى محمدا صـلى الله تعالى عليه وسلم هو ومن معه يعلون ولا ينخفضون ، فهو الى علاء ، وهو فى مكة المكرمة الىّ غيره أو استسلام له ٠

ونفذ ادراكه الى سر فى علو محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو أنه ممنوع بمنع الله تعــالى كالذى تسرب الى نفســه وهو فى خيل المشركين يرقبون صلاة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بأصحابه ٠

ولكن كأن ومضة نفسية ، لا نقول انها انطفأت ، ولكن نقــول ان ســياق تاريخ نفسه بنفسه يدل على أن ذلك لم يكن هو المسير الموجه الى ايمانه ٠

بل كان الموجه أولا ـــ أنه رأى أن لا مقام له بمكة المكرمة حيث ســـدت أبواب مظاهر النبوغ ٠

ثم كان الموجــه ثانيا ـــ أنه لم يكن له ملجــأ فى الحبشة ، لأن أصــحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم سبقوه ، والنجاشى يؤمن بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ويحبه ، وفكر فى أن يلجأ الى الروم ، وينتقل من دين قومه الى اليهودية أو النصرانية وربما كان ذلك فاتحا له باب النور ، ليخرج من دين قومه الى دين رجل من قومه ٠ شرفه شرفهم ، كما عبر هو ٠

ثم كان الموجه ثانيا ـــ أنه لم يكن له ملجأ فى الحبشة ، لأن أصحاب عليه وسلم ذكره ، وذكر عقله ، وذكر أن له موضعا فى حروب المسلمين تعرف فيها مكانته ، وتتميز فيها قيادته ٠

اتجه الى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لهذه الأمور ، ولم يكن منها ايمانه بالعقيدة ايمانا دافعا مؤمنا مطمئنا مهديا ، الا أن يكون ما لاحظه من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حول الصــلاة القائمة الى صــلاة خوفا ؛ عندما حدثته نفسه ابان ذلك الى الانقضاض على المؤمنين فى صلاتهم ٠

ولما ذهب الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتطلق البشير النذير فى وجهه ، رضى بالاسلام دينا ، وغفــر الله تعالى له لدعوة النبى صـــلى الله تعالى عليه وسلم له بالغفران ·

وانا لاننقص من مقــام خالد بن الوليــد القائد المحارب ذى الدربة فى القتال ، اذا قلنا انه ابتدأ دخوله فى الاسلام بأنه رأى فى دخوله فيه المصلحة بعد أن صارت القوة الوحيدة فى البلاد العربية للاسلام ــ لأنه اذا رأى فى ذلك مصلحة شخصية دنيوية ، فانها كانت باب النور اليه ، ودخل الاســـلام قلبه ، وصار مؤمنا بالله واليوم الآخر ، والملائكة والنبيين ·

ولعل ما قلناه هو السر فى أن عمر بن الخطاب فاروق الاسلام الذى لم يفر أحد فرية فى الاسلام لم يكن يعامله معاملة المطمئن اليه ، وان كان يقدر مقدرته الحربية ·

اسلام عمرو بن العـــاص

٥٦٨ ــ يتشابه اسلام عمرو بن العاص مع اسلام خالد بن الوليد ، وان كان فى اسلام خالد معان تومىء الى أنه أدرك بعض معانى الوحى ، بدليل مالاحظه فى صلاة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وادراكه أن الله تعـــالى مانع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه غير مسلمه وادراكه مكانة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بين العرب والعجم ، وأن شرفه هو شرف قريش ، بل كانت المصلحة الدافعة أوضح فى عمرو بن العاص ·

ولنذكر كيف دخل الاسلام قلبه بما حكاه الواقدى عنه ·

يقول عمرو بن العاص : « كنت للاسلام مجانبا معاديا ، حضرت بدرا مع المشركين فنجوت ، ثم حضرت أحدا فنجوت ، ثم حضرت الخندق فنجوت ، فقلت فى نفسى والله ليظهــرن محمــد على قريش فلحقت بمــالى ، وأقللت من الناس (أى من لقائهم) ، فلما حضر الحديبية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وانصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الصلح ، ورجعت قريش الى مكة المكرمة ، جعلت أقول يدخل محمد قابلا مكة المكرمة ، ما مكة المكرمة بمنزل ولا الطائف ، ولا شىء خير من الخـــروج ، وأنا بعــد ناء عن الاسلام ، وأرى لو أسلمت قريش كلها لم أسلم ، فقدمت مكة المكرمة ، وجمعت رجالا من قومى ، وكانوا يرون رأيى ، ويسمعون منى ، ويقدموننى فيما نابهم فقلت لهم كيف أنا فيكم ، فقالوا ذو رأيا ، ومدرهنا فى يمن نفس ، وبركة أمر · قلت تعلمون أنى والله لأرى أمر محمد أمرا يعلو الأمور علوا منكرا وانى قــد

رأيت رأيا قالوا وما هو ؟ قلت نلحق بالنجاشى فنكون معه ، فان يظهر محمد ، كنا عند النجاشى ، ونكون تحت يد النجاشى أحب الينا من أن نكون تحت يد محمد ، وان تظهر قريش فنحن من قد عرفوا قالوا : هذا الرأى ــ قلت فاجمعوا ما نهديه له » ٠

جمعوا أحب ما يهدى اليه وهو الأدم ، وذهبوا الى النجاشى ٠

ثم يقول عمرو بن العاص فى لقائه مع النجاشى ، فوالله انا لعنده اذ جاء عمرو بن أمية الضمرى وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد بعثه بكتاب كتبه يزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فدخل عليه ، ثم خرج من عنده ، فقلت لأصحابى هذا عمرو بن أمية الضمرى ، ولو دخلت على النجاشى فسألته اياه ، فأعطانيه فضربت عنقه ، فاذا فعلت ذلك سرت قريش وكنت قد أجزأت عنها حتى قتلت رسول محمد ٠

فدخلت على النجاشى ، فسجدت له ، كما كنت أصنع ، فقال مرحبا بصديقى أهديت لى من بلادك شيئا !! قلت نعم أيها الملك أهديت لك أدما كثيرة ثم قدمته فأعجبه ، وفرق منه شيئا بين بطارقته ، وأمر بسائره فأدخل فى موضع وأمر أن يكتب ويحتفظ به ، فلما رأيت طيب نفسه قلت أيها الملك انى رأيت رجلا خرج من عندك ، وهو رسول عدو لنا قد وترنا ، وقتل أشرافنا وخيارنا فأعطنيه فأقتله ٠

فغضب من ذلك ورفع يده ، فضرب بها أنفى ضربة ، ظننت أنه كسره ، فجعلت أتلقى الدم بثيابى ، فأصابنى من الذل ما لو انشقت بى الأرض لدخلت فيها فرقا منه ٠

ثم قلت أيها الملك لو ظننت أنك تكره ما قلت ما سألتك ، فاستحيا وقال : « يا عمرو تسألنى أن أعطيك رسول من يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، والذى كان يأتى عيسى ــ لتقتله » ٠

قال عمرو فغير الله قلبى عما كنت عليه ، وقلت فى نفسى : عرف هذا الحق العرب والعجم ، وتخالف أنت ، ثم قلت : أتشهد أيها الملك بذلك ؟

قال الملك : نعم أشهد عند الله يا عمرو ، فأطعنى واتبعه ، فوالله انه لعلى الحق ، وليظهرن على من خالفه ٠ كما ظهر موسى على فرعون وجنوده ٠ قلت أتبايعنى له على الاسلام ، قال نعم ٠ فبسط يده ، فبايعنى على الاسلام ، ثم دعا بطست ، فغسل عنى الدم ، وكسانى ثيابا ، وكانت ثيابى قد امتلأت بالدم فألقيتها ٠

ثم خرجت على اصحابى ، فلما راوا كسوة النجاشى سروا بذلك ، وقالوا هل ادركت من صاحبك ما أردت ؟ قلت كرهت أن أكلمه فى أول مرة ، وقلت أعود اليه ، فقالوا الرأى ما رأيت ففارقتهم ، وكأنى أعمد الى حاجة ، فعمدت الى موضع السفن ، فأجد سفينة قد شحنت وتدفع فركبت معهم ، ودفعوها ، حتى انتهوا الى الشعبة ٠

وخرجت من السفينة ، ومعى نفقة ، وابتعت بعيرا ، وخرجت اريد المدينة المنورة مررت على الظهران ومضيت حتى اذا كنت بالهدة ، فاذا رجلان قد سبقانى بغير كثير يريدان منزلا ، وأحدهما داخل فى الخيمة ، والآخر يمسك الراحتين ، فنظرت فاذا خالد بن الوليد ، فقلت أين تريد قال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ دخل الناس فى الاسلام ، فلم يبق احد ، والله لو اقسمت لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع فى مغارتها ، قال عمرو وانا والله أردت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم او اردت الاسلام ، فخرج عثمان ابن ابى طلحة فرحب بى فنزلنا جميعا فى المنزل ، ثم اتفقنا حتى اتينا المدينة المنورة فما انسى قول رجل لقيناه ببئر ابى عنبة يصيح يارباح يارباح فتفاءلنا ، بقوله وسرنا ، ثم نظر الينا ، فاسمعه يقول : قد أعطت مكة المكرمة القادة بعد هذين فظننت أنه يعنينى ، ويعنى خالد بن الوليد ، وولى الى المسجد سريعا ، فظننت انه بشر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقدومنا ، فكان كما ظننت وانخنا بالحرة ، فلبسنا من صالح ثيابنا ، ثم نودى بالعصر فانطلقنا على محمد (صلى الله تعالى عليه وسلم) ، وان لوجهه تهللا والمسلمون حوله قد سروا باسلامنا فتقدم خالد بن الوليد فبايع ، ثم تقدم عثمان بن ابى طلحة فبايع ، ثم تقدمت ، فوالله ما هو الا ان جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طرفى حياء منه ، فبايعته على أن يدعو الله سبحانه وتعالى أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى ، فقال ان الاسلام يجب ما قبله والهجرة تجب ما قبلها ، فوالله ما عدل بى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحدا من اصحابه فى أمر حزبه منذ أسلمنا » ٠

نقلنا الحديث بطوله ، وكنا نود أن نحذف الجزء الأخير ، وهو ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم يعدل احدا من اصحابه ٠ فانا لا نحسب يمينه فى هذا برة ان كانت صحيحة النسبة اليه ، لقد كانت بعد ذلك غزوة مؤته وتبوك وفتح مكة المكرمة وهوزان وحنين فلم يعدل بهما على بن ابى طالب والزبير بن العوام وابو عبيدة عامر بن الجراح ، وسعد بن أبى وقاص ان هذه اليمين غير البرة فرية عليه او غير ذلك ، ولماذا كان اللواء لعبد الله ابن رواحة ثم لزيد بن حارثة ، ثم لجعفر بن ابى طالب ، ولم يتولها خالد الا حيث لم يكن وال يحملها ٠

ومهما يكن من أمر هذه اليمين ، فان ما جاء على لسانه يدل كما دل كلام صاحبه على أن اسلامهم ابتداء كان لمصلحة ، وقد أشرب قلوبهم الايمان من بعد ٠

هذا عمرو كان يقول لو أسلمت قريش كلها ما أسلم ، ثم يخرج ببعض قومه ليحرض النجاشى على المؤمنين ، ويحاول أن يتمكن من قتل رسول من عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيلطمه النجاشى لطمة جدعت أنفه هذه اللطمة هى التى نبهته الى الحق ، أم نبهه غضب النجاشى ، وارادة ارضائه ليس فى الوقائع التى ذكرها ما يدل على أنه رأى فى النبى صلى الله عليه وسلم أن الله مانعه ، فهو لم ير شيئا من ذلك ، ولذلك نقول ان اسلامه كان لمصلحته الشخصية الدنيوية ولعل الاسلام قد دخل قلبه من بعد ذلك حتى صار ايمانا ، وهذا ما رجحناه ٠

وفى قصة عمرو بن العاص عن نفسه ما يدل على انه رجل لا يظهر فى الهيجاء ، ويبغى لنفسه الانحياز عن مواطن الردى ، فهو يحضر بدرا ، وينجو وأحدا ، وينجو ، والخندق ، وينجو ، ويظهر انه لم يقتل ولم يقاتل بل كان من النظارة أو المدبرين ، كما كان شأنه فى القتال بين امام الهدى على ابن ابى طالب ومعاوية يدبر فى حرب البغاة ٠

وسيأتى من الأنباء مقامه وهو وخالد بجوار صحابة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الذين رضى الله تعالى عنهم ، ورضوا عنه فى بيعة الرضوان٠

سرايا للتعرف فى البلاد

٥٦٩ ــ أخذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، يرسل سرايا لمعرفة البلاد وحال القبائل ، وخصوصا التى لا يأمن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم جانبها ٠

فقد بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شجاع بن وهب فى أربعة وعشرين الى جمع من هوازن وأمرهم أن يغيروا عليهم ، وكان بعثه يسير الليل ويكمن النهار ، جاءوهم على غرة ، وأوعز شجاع الى أصحابه الى الا يمعنوا فى الطلب ، فأصابوا نعما كثيرا ، وشاء فاستاقوا ذلك ، حتى قدموا المدينة المنورة ، فكانت سهامهم خمسة عشر بعيرا لكل رجل ٠

ثم قدم أهلوهم مسلمين ، فشاور النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أميرهم فى رد السبايا اليه ، فردهن ، ويقول الحافظ ابن كثير فى تاريخه قد تكون

هذه السرية هى المذكورة فيما رواه الشافعى عن مالك عن نافع أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث سرية قبل نجد ٠ فكان فيهم عبد الله بن عمر ، فأصابت ابلا كثيرة ٠ فبلغت سهامنا اثنى عشر بعيرا ٠ ونقلنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعيرا بعيرا وأنا نحسب انهما سريتان ٠ احداهما قبل نجد والأخرى أرسلت الى هوازن ٠

الى بنى قضاعة

٥٧٠ ــ اخذت سرايا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تتجه الى أرض الشام ليرتادوا الأراضى التى تتاخم أرض الشام ، فيتعرف حالها تمهيدا ، او كشفا للغزوة التى تتجه الى الشام من بعد ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب بن عمير الغفارى الى بنى قضاعة من أرض الشام فى خمسة عشر رجلا ، فوجدوا جمعا منهم كبيرا فدعوهم الى الاسلام ، فلم يستجيبوا لهم ، ورشقوهم بالنبل ٠ فلما رأى ذلك أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قاتلوهم أشد قتال وكانوا قلة فكاثرهم المشركون بكثرتهم حتى قتل المؤمنون فى سبيل الدعوة الى الاسلام ، وكان فى القتلى جريح اشتدت جراحه ، حتى ظن أنه بين الموتى ، فما ان اقبل الليل حتى تحامل حتى وصل الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهم بأن يبعث اليهم ، فبلغه انهم انسابوا فى الصحراء الى موضع آخر ٠

وقد يسأل سائل لماذا يرسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سرايا قليلة العدد يتغلب عليهم المشركون بالكثرة التى لا قبل لهم بها ، فيقتلون جميعا أو كثرتهم ٠

ونقول فى الجواب عن ذلك ، ان سرايا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كانت ابتداء للتبليغ والدعوة ، ولكنهم كانوا يلتقون بقوم غلاظ لا يجيبون ، وان أمكنتهم الفرصة يقتلون ، وقد رأينا فى هذه السرية الأخيرة ، كيف كانت الدعوة الى الاسلام : ابتدءوا ، فردوا ثم رشقوهم بالنبال ، ثم قتلوهم ، فما ذهبوا مقاتلين ، ولكن ذهبوا داعين الى الحق مبلغين رسالة النبى صلى الله عليه وسلم الأمين ٠

غــزوة مؤتة

٥٧١ ـــ كان الاسلام يسرى سريان النور ، والشام لم يكن بعيدا عن البلاد العربية ، بل كانت به قبائل من العرب ، فالغساسنة منهم ، واذا كان الاسلام يسرى نوره فيعم الآفاق القريبة فقد كان من عرب الشــام من دخـل فى الاسلام ، أو كان من العرب من سافر الى الشام ٠

وأولئك المسلمون ، وان كانوا عددا قليلا ضاقت بهم صــدور النصارى حرجا ، فقتل والى الشام من قبل الرومان من أسلم من عرب الشــام ، ولابـد أن يحمى محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه أولئك الذين يفتنون عن دينهم لتمنع الفتنة عنهم ، ويقول فى ذلك ابن تيمية فى رسالة القتال ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما بعث الى حرب الروم فى مؤتة الا بعـد أن قتل الوالى الرومانى من أسلم فى الشام ٠

هذه كانت بعض السبب فى سرية مؤته وقد كان هناك سبب مباشر قوى ، وهو أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث الحارث بن عمير الأزدى بكتابه الى الشام ، ثم الى ملك الروم فعرض له شرحبيل بن عمرو الغســانى ، فأوثقه رباطا ، ثم قدمه فضرب عنقه ، ولم يقتل من رسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم غيره الى ذلك الوقت ، فاشتد ذلك عليه حين بلغــه الخبر ، وكان لابد أن يقف أمام هذا الغــدر بقوة ، ولو كانت مقابل قوة الرومان ٠

وذلك لأنهم فتنــوا المؤمنين ، بقتــل بعضــهم فكان ذلك ارهــابا لمن يهم بالدخول فى الاسلام ولأنهم قتلوا رسول النبى الأمين صلى الله عليه وسلم فى وقت قد صارت عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم القوة الفاضلة العــليا فى البلاد العربية ، فكان لابد لذلك من أن يقاوم ذلك الغــدر ، لأن السكوت يكون ذلة لأهل الايمان ، وذلة للعرب أجمعين ، وهم بصدد أن يقوموا بدعوة الحق ، وحماية الشعوب من طغاتها ٠

فى جمادى الأولى من السنة الثامنة بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى البلقاء من الشام ، وكانت عدتها ثلاثة الاف رجل ، ولعلها أكبر الغزوات الى الآن عــددا ٠

وجعل الأمير على هذه البعثة زيد بن حارثة ، فان قتل زيد كان الأمير جعفر بن أبى طالب ، فان قتل جعفر كان الأمير عبد الله بن رواحة ، فان قتل ،

فليرتض المسلمون رجلا يكون أميرا عليهم ، فلما فصلوا عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى الشام ، ومضوا حتى أرض الشام ، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل فى مآب من أرض البلقاء فى مائة الف من الروم وانضم اليهم عدد من نصارى العرب ، وبلغ عدد من انضم مائة الف أخرى ·

عندما رأى جيش الاسلام ذلك كان منه من راعه العدد والسلاح ، وقالوا نكتب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نخبره بعدد عدونا ، فاما أن يمدنا بالرجال ، واما أن يأمرنا ، لنمضى اليه ، عندما سمع عبد الله بن رواحه ذلك الكلام المتردد وقف وقال :

ياقوم ، والله ، ان التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ، ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فانما هى احدى الحسنيين ، اما ظهور واما شهادة ·

قال الناس بعد هذا الكلام المؤمن القوى قد والله صدق ابن رواحة ، تقدم جيش الرومان ، وان كانوا يبلغون مائتى ألف ، وتقدم جيش الاسلام وهو يؤمن بقوله تعالى : « **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله** » تقدم المؤمنون فى غير وجل من كثرة عدد العدو ، وقلتهم ·

وتقدم الصفوف زيد بن حارثة ، وهو يحمل راية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان على ميمنة الجيش رجل من بنى عذرة اسمه قطبة ابن قناده ، وعلى الميسرة رجل من الأنصار اسمه عباية بن مالك وانتحى المسلمون قرية من قرى البلقاء ، فالتقوا بالرومان عندها ·

واذا كان المؤمنون قد أخذتهم ابتداء رهبة العدد والسلاح ، فقد أخذت الرومان رهبة الايمان ، واذا كان قد استطاع المؤمنون أنيتغلبوا على ما أصاب نفوسهم من فزع العدد ، فان مائتى الألف لم يستطيعوا أن يتغلبوا على فزعهم من أنهم يلقون قوما مؤمنين احب اللقاء اليهم لقاء ربهم ·

وقد التقى الفريقان ، الفريق المؤمن ، وهو يهاجم دفاعا عن أهل الايمان الذين قتلهم والى الرومان ، ودفاعا عن كرامة الاسلام التى أهينت بقتل رسول الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكرامة العرب وهم مزودون بمعان دافعة ، وكان جيش الرومان الكثيف فى عدده وعدته ، لا غاية له الا أن يرد هؤلاء المزودين بالقوة المعنوية ، وبنصرهم السابق ، ولذلك كان اتجاههم الى قتل حملة الراية التى هى رمز التقدم ان تقدم حاملها ، اذ كلما تقدم زاد الهجوم قوة واحتداما وهم خائفون من هذا الهجوم ، وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ألهم ، « **وما كان ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى** » ، ألهم ، أن حملة

الراية سيكونون المقصودين ، فرتب الولاية بينهم فجعلها لزيد بن حارثة لقوة ايمانه ، وليعلم الناس انه لا شرف الا بالايمان والعمل الصالح ، ثم تكون لجعفر بن أبى طالب الذى هاجر مرتين ، لكى يعلم الناس انه لا يضن بأهله عن مواطن الردى ، ثم لعبد الله بن رواحة ولم يجعلها من بعد لأحد ، ولم يكن خالد من بين الأمراء الذين ذكرهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم واصطفاهم لأنه كان قريب عهد بالاسلام ٠

كان هم جيش الروم أن يرد المهاجمين ، ولذلك اتجه الى القواد ، وجعلهم غايته ، فقتلهم واحدا بعد واحد ، وكان هم جيش المؤمنين أن ينتصفوا لاخوانهم الذين فتنوا فى دينهم فقتلوا من الرومان مقتلة عظيمة ، حتى قال خالد بن الوليد انه أبدل فى يده ستة سيوف ، ولم يبق الا صفحة يمنية ، فسل نفسك لم كان يخشى السيف فى يد خالد من هؤلاء ، الذين سارت فيهم قوة الايمان ، كما تسير السكين فى قطعة الزبد ٠

وأولئك القواد العظام الذين عينهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما كان ليقتل الا بعد أن عبروا ، ولا يلقى الراية من يده الا بعد رقاب عدد من الكافرين من النصارى واليهود فزيد حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وحامل رايته قتل عددا حتى قتل ٠

وجعفر بن أبى طالب حامى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قاتل حتى أحس بأن فرسه لا تسعفه ، فنزل عنها ، وأخذ يقاتل راجلا ، وراية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحملها على يمينه ، فلما قطعوها حملها على شماله ، فلما قطعوها حملها بين يديه ، حتى قتل ، فكان فى الجنة الطيار ذا الجناحين ٠

وهكذا كان عبد الله بن رواحة كصاحبيه اقدم عليها من غير تردد ، فكان كالصاعقة على الكافرين ، حتى استشهد ، وهو حامل الراية ٠

ولا يصح أن تسقط راية المؤمنين ، وانتهى أمرها الى ثابت بن أقرم ابن العجلان ، ولكنه احس بأنه دونها ، فقال يامعشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ، قالوا أنت ! قال ما أنا بفاعل ، فاصطلحوا على خالد بن الوليد ، فلما حملها أخذ يقاتل ، وسيفه البتار يقطع الرقاب ٠

ولكنه وهو القائد المدرك علم انه وان كانت الجولة الى الآن للمؤمنين ، ولو قتل حاملو الراية لابد أن يزحمهم الروم ونصارى العرب ويهودهم بكثرة العدد ، لأنها تطيل القتال ، ولا تتحمل القلة الطول مهما يكن ما عندهم من معنويات صابرة مؤمنة ٠

اتجه خالد الى الانحياز تمهيدا لانسحاب منظم ، وفى هذا الوقت ابتـدأ قوات الروم يتخاذل بعضها من العرب ، وبعضهم انضم الى خالد عند انسحابه يحكى ابن اسحاق أنه كان من حدس كاهنة ، حين سمعت بجيش النبى صـلى الله تعالى عليه وسلم مقبـلا ، قالت لقومها من حـدس ، قالت لهم أنذركم قوما خرزا (أى مبصرون مدركون) ينظرون شزرا ، ويقـودون الخيـل تترى ، ويهريقوا دما عكرا ، فأخذوا بقولها واعتزلوا من بنى لخم ، وكان من الذين صلوا الحرب يومئذ بنو ثعلبة ، فلما انصرف خالد بالناس انصرفوا معـه ، وعـادوا قافلين الى أرضهم ٠

فالجيش الرومانى ، لم يكن متماسكا ، وان كان كثير العـدد ، لتعـدد الأجناس فيه ، فلم تغن كثرتهم عنهم شيئا ، ونجا المسلمون منهم ، ونجوا هم بأنفسهم ، وان جرحوا جرحا شديدا ٠

عندما رأى خالد كثرة الكافرين ، كما ذكرنا ، أخذ يبـدل فى مواقف جيشه ، فجعـل الميمنة ميسرة ، والميسرة ميمنة ، والصدر خلفا والخلف صدرا فظنوا أنه قد جاءه المدد ، فلهذا أنزل الله تعالى فى قلوبهم الرعب من لقـاء المسلمين فآثروا النجاة بأنفسهم ، ولم يتبعوا جيش المسلمين فى تراجعهم ، ورضوا من الغنيمة بالاياب ، وأخذ خالد بجيش الايمان ، حتى عاد الى المدينة المنورة سالما به ، لم يفقد فى هذه المعركة الا اثنى عشر قتيلا منهم الأمراء الثلاثة زيد بن حارثة ، وجعفر ، وعبد الله بن رواحة رضى الله تعالى عنهم جميعا ، وتسعة معهم ، فكان عدد القتلى اثنى عشر قتيلا ٠

ولكن لم يتعود أهل المدينة المنورة أن تعود اليهم جنودهم من المعركة ، حتى فى أحد بقيادة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وقد نال المشركون منهم نيلا وجراحا فلم يعد الجنود من المعركة فارين أو شبه فارين ، بل كان الجمع الذى أصيب بالجراح قد أخذ يكر وراء المشركين كرا ، وتبعهم الى حمراء الأسد راجعين فارين من تجـدد اللقاء ، ورضـوا بالاياب ٠

لم يعجب أهل المدينة المنـورة صـنيع الجيش الـذى قاده القائد المدرك بالانحياز ثم الانسحاب ، لأنهم لم يتعودوه ، وسموهم الفرارين ، وأخذ الصبيان يحثون التراب على وجوههم ، وقد خرج اليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مستقبلا فأمر بتنحية الصبيان الا أولاد جعفر بن أبى طالب فضمهم اليه ، وقال انهم الكرارون ، أو العكارون ، كما جاء فى بعض الصحاح والسنن ، وسماهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم متحيزين الى فئة ، فهو فئة المسلمين ،

وكان ذلك تطبيقا لقوله تعـالى : « يايها الذين امنوا اذا لقيتم الذين كفـروا زحفا فلا تولوهم الادبار ، ومن يولهم يومئذ دبره ، الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » ٠

لم يولوا الأدبار . بل كانوا منسحبين . لا مدبرين ، وتحيزوا الى فئـة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فدخلوا فى استثناء الآية ، ولم يدخلوا فى موضع نهيها ٠

نتيجـة الغزوة

٥٧٢ ـــ انتهت هذه الغزوة بنجاة الجيش الاسلامى من أن يقع فريسة لجيش الكفر ، المتكاثف ، وحسب ذلك نصرا مبينـا ، وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أدرك قبلها نتيجة المعركة ، فانه عندما علم أن خالدا تولى القيادة ، وحمـل الراية قال تـولى الراية سيف من سـيوف الله يفتح الله تعالى عليه ، وما كانت لتسمى النتيجة فتحا لو كانت النهاية أن يرضى الجيش من الغنيمة بالايـاب ٠

ولقد قال بعض كتـاب السيرة ان النتيجـة كانت السلامة ، ولم تـكن نصرا ٠

ولكنا نقول انها كانت نصرا لأسباب :

منها أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سماها فتحا ، وسمى الذين عادوا الى المدينة المنورة كرارا ٠

ومنها أن المسلمين ساقوا غنائم ولم يؤخذ منهم شيء ٠

ومنها أن قتلى المؤمنين كانوا اثنى عشر ، وقتلاهم لا تحصى عددا ، فقتلى المسلمين كانوا اقل عددا ، وفيها كان النصر المؤزر ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله تعالى هى العليا ٠

ولقـد قال فى ذلك الحـافظ بن كثير فى تاريخـه : « هـذا عظيم جدا ، أن يتقاتل جيشان متعاديان فى الدين أحـدهما وهو القلة التى تقاتل فى سبيل الله وعـدتها ثلاثة آلاف ، وأخـرى كافرة ، وعدتها مائتا ألف مقاتل من الروم مائة ألف ، ومن نصارى العـرب مائة ألف ، يتبارزون ويتصالون ، ثم مع هذا كله لا يقتل من المسلمين الا اثنا عشر ، وقد قتل من المشركين خلق كثير ، هذا

خالد وحده يقول لقد اندقت فى يدى تسعة أسياف وما بقيت فى يدى الا صفحة يمانية ، فماذا ترى قد قتـل بهذه الأسياف كلها ٠

دع غيره من الأبطال الشجعان من حملة القرآن الكريم وقد تحكموا فى عبدة الصلبان ، عليهم لعنة الرحمن ذلك الزمان وفى كل أوان ، وهذا مما يدخل فى قول الله تعالى : « **قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئـة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشـاء ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار** » ٠

واننا نرى أن هـذا يشـبه ما قـرره الله تعـالى من أن عشرين صابرين يغلبوا مائتين ، وأن مائة صابرة تغلب ألفـا ، وأنه عند قـوة الايمان وقـوة الصبر يكون المؤمن الصابر يغلب مائة ٠

وقد كان ثلاثة آلاف قد غلبوا مائتى ألف ، وصـدق قول الله تعـالى : « **يأيها النبى حرض المؤمنين عـلى القتـال ، ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفـا من الذين كفروا ، بأنهم قـوم لا يفقهون** » هذا هو الحق ٠

ان غزوة مؤتة أول غزوة تخرج عن دائرة الجزيرة العربية الى دائـرة أراض تحت سلطان الرومان ، فاذا كانت النتائج تكون على هذه الشاكلة ، فان النصر سيكون لجيش الحق باذن الله تعالى ، وقد كان ، فكانت اليرموك وما بعـدها فى عهد الراشدين ، فكانوا يفرون كما تفر الشاه أمام الأسود ٠

واذا كانت بـدر أول انتصـار فى الأرض العربيـة ، فمؤتـة أول انتصـار مؤزر خارج الجزيرة العربية ، وهو ابتداء ليس له انتهاء أو مبتدأ له خبر ٠

سرية ذات السلاسل

٥٧٣ ـــ عندما أرسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى بلاد الشام سرية من ثلاثة آلاف لمنع فتنة الرومان للمسلمين ، ولتأديب الغساسنة الذين قتلوا رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأقبل الرومان فى جيش بلغ تعداده مائة ألف ، وانضم من أعراب الشام مثلهم عددا ، فكان أمام المؤمنين مائتا ألف نصفهم من أعراب الشمال من لخم وجذام وطيىء وعـذرهم مما ضاعف

البلاء على المسلمين ، ولكن كانت الغالبة ، فكانت الفئة التى تقاتل فى سـبيل الله هى الغالبة ، وقد ذكرنا ذلك ·

ما كان للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معـه أن يتركوا هؤلاء الأعراب من غير تأديب ، وكما قال الله تعالى : « **الأعراب اشد كفرا ونفاقا ، وأجدر الا يعلموا حدود ما انزل الله** » فكان لابد أن يمنعهم من أن يسترسلوا فى الشر ·

أرسل عمرو بن العاص يستنفر العرب ليستميلهم اليه بذرابة لسـانه ، وقد رأى عمرو رجلا ألكن لم يستطع بيانا ، فقال رضى الله عنه : سبحان الله خالق لسان هذا هو خالق لسان عمرو بن العاص ، ولأنه كما قيل كانت له صلة ببعض هؤلاء الأعراب ، ومعه عدد قليل من المسلمين ·

سار حتى وصل الى جذام ، ونزل ماء السلاسل ·

ولكن لم يفلح لسانه فى استمالة أحد ، ولم يكن كعبد الله بن رواحة يطلب من جيشه احدى الحسنيين ، ولذلك أرهبته كثرة عدوه ، فلم يصنع شيئا ، وأرسل الى الرسول عليه الصـلاة والسـلام ليبعث اليه الرجال وبقى ينتظر المـدد ·

عندئذ بعث النبى صـلى الله تعـالى عليـه وسـلم جيشـا من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر ، والقائد أبو عبيـدة عامر بن الجراح أمين هذه الأمـة ·

ولقد تحرك فى عمرو حب الرياسة التى ظهرت من بعـد فى عهد عثمان عندما عزله ، وفى عهد على التى تفرق بها وبغيرها أمر المسلمين ·

قال لأبى عبيدة انمـا جئت مـددا لى ، وهو ما أرسـل فى جيش مـن المهاجرين والأنصار ، ولكن أرسل طليعة للتعرف والاستمالة ·

وما كان من شأن أبى عبيدة أن يعطى رياسـة الجند الا بأمر الرسـول لعمرو بن العاص الذى هو حديث عهد بالاسلام ، ولكن أبا عبيـدة لم يجابهه بأن الأمر له بل قال اجابة له لا ، ولكنى على ما أنا عليه ، وأنت على ما أنت ·

ولكن عمروا أصر على قوله ، وقال : أنت مددى ·

وهنا بدت تقوى التقى المؤمن ، فقال له يا عمرو ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لا تختلفا ، وانك ان عصيتنى أطعتك ·

هذه صورة عمرو فى أول اسلامه ، وهى صورته عند تولى الامرة على مصر عندما عزله ذو النورين عثمان بن عفان ، لقد قال : كنت القى الراعى فأحرضه عليه ، وهى صورته عندما اجتمع مع معاوية ضد امام الهدى على لأنه يعلم أن عليا لن يعطيه امرة فى شىء ٠

أخذ الجيش الاسلامى يطارد القبائل التى ظاهرت الروم ، فتوغل الجيش الاسلامى ، وكلما انتهى الى قبيلة ولت الأدبار ، ولم يصطدم الا مرة واحدة ، وانتهت بفرارهم ٠

وبذلك كان تاديب هذه القبائل الأعرابية ، وبدت كلمة الاسلام عالية كما هى ، وبذلك انتهى المراد من هذه السرية ٠

سرية أبى عبيدة

٥٧٤ — فى رجب من السنة الثامنة أرسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبا عبيدة فى ثلاثمائة رجل الى القبلية ، على ساحل البحر الأحمر ، داعيا الى الاسلام ، ومتعرفا أمر القبائل هناك ، وكان فى السرية عمر ابن الخطاب ٠

ولقد أصاب أولئك الصحابة جوع فى الطريق ، فلم يجدوا ما ياكلونه حتى اكلوا ورق الشجر ٠

واشترى قيس بن سعد ابلا ونحرها لهم ، وانصرفوا ، ولم يلقوا حربا وما جاءوا للحرب ، بل للدعوة الى الاسلام ، والعمل على نشره والتعريف به فى وسط القبائل ٠

سرية أبى قتادة

٥٧٥ — بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى شعبان من السنة الثامنة أبا قتادة الأنصارى الى غطفان فى نحو خمسة عشر رجلا ٠

وغطفان هى القبيلة العنيفة التى عاونت قريشا فى غزوة الخندق ، وهى التى همت بأن تعاون اليهود فى خيبر ، وكان منها من ناصر جيش الرومان فى مؤتة فسار اليهم فى هذا العدد القليل ٠ وأمره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم

بأن يشن الغارة عليهم ، فكان يسير بالليل ويكمن بالنهار ، حتى لقيهم فهجم على جمع عظيم منهم ، وأحاط بهم ، وقـاتلهم قتالا شديدا فقتـلوا بعضهم ، واستاقوا النعم والشاة ، وعادوا الى المدينة المنورة بعد خمس عشرة ليلة ، ولا شك أن الغرض من هذه السرية هو تعــرف أطـراف الجـزيرة العربية ، والدعوة الى الاسلام حيثما ساروا ، وأينما اتجهوا ٠

فما كانت هذه السرايا للقتال ، ولكن لمعرفة الأراضى الدانية والقاصية والاعلام بالاسلام للدخول فيه طوعا لا كرها ٠

وقد بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أبا قتادة الأنصارى أيضا الى أختم على بعد ثلاثة برد من المدينة المنورة ، بعثه فى رمضان وكان الغرض من ارسـالها تعميـة قريش عنـه حتى لا تصـده اذ كان بعدها فتح مـكة المكرمة بليال ، أو كانت فى ليلة الثانى عشرة من رمضان ٠

انتشار الاسلام فى البلاد العربية

٥٧٦ — كان الاسلام ينتشر فى البلاد العربية قاصيها ودانيها ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يرسل الدعاة ، والناس منهم من يستجيب مؤمنا صادقا · فيهاجر الى المدينة المنورة ليكون قوة مع قوة المؤمنين ، ومنهم من يسلم ، ويذعن مستسلما من أن يسكن الايمان قلبه · وان ذلك كان فى الأعراب الذين لم يخالطوا أهل الايمان ولم يجاوروهم ، ولم يلتقوا بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليطلبوا منه ، ولم يقرءوا القرآن الكريم مستمتعين بتلاوته ، ولذلك قال الله تعالى فيهم : « **قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الايمان فى قلوبكم** » ·

وكان من الأعراب من ينتظر أيكون الغلب للمشركين أم لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فهم كانوا مذبذبين بين هؤلاء وهؤلاء ، ومنهم من يبلغ به العناد فى الكفر أن يجيئوا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مظهرين أنهم يطلبون الهداية فيرسل اليهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من يحفظهم القرآن الكريم · ويعلمهم الاسلام فيغدرون بهم ، ويقتلونهم · كما قتلوا طائفة من القراء بلغوا سبعين ومنهم من كانوا يأخذون المؤمنين ويبيعونهم للمشركين ، كما فعل مع خبيب وأصحابه الذين باعوهم لأهل مكة المكرمة · وقتلوهم قتلة فاجرة · فكان الحق أن يقول الله تعالى : « **الأعراب اشد كفرا ونفاقا واجدر الا يعلموا حدود ما أنزل الله** » وكان هذا النوع من النفاق الأعرابى متغلغلا فى الصحراء وحول مكة المكرمة · وحول المدينة المنورة ذاتها ، فقد قال تعالى : « **وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمونهم نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ، ثم يردون الى عذاب عظيم** » ·

ولقد قسم الله تعالى الأعراب قسمين متعادلين أولهما منافق جلى النفاق يحسب الزكاة مغرما ومنهم من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات ، ولقد ذكر سبحانه وتعالى القسمين فقال تعالت كلماته « **ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ، ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء ، والله سميع عليهم ، ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ، الا انها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته ان الله غفور رحيم** » وهكذا كان فى الأعراب المؤمن الطاهر ، والمنافق ·

ومن هؤلاء المنافقين كانت الردة التى أعقبت وفاة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان انتشار الاسلام بين الأعراب على هذا النحو الذى بينه الله تعالى فى كتـابه ٠

كان الأعراب بين منـافق كافر غادر ، وبين مسلم يتربص الدوائـر ، وبين مؤمن تقى طاهر ، ومهما يكن أمرهم فقد كان الاسـلام ينتشر مع هـذا الدخل ، وان دخل الاسلام قلبا ، ولو على تردد فانه بتوفيق الله تعالى ، ومن بعـد ذلك يشرق اشراقا ، ثم يكون من ذلك ايمانا ٠

وان الحروب التى وقعت بين المشركين ومحمد صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين كانت قوارع تقرع النفوس العربية ، فيهتز صداها فى النفوس، اذ خلاصتها أنها قتال بين التوحيد ديانة ابراهيم أبى العرب عليه السـلام ، وبـانى البيت الحرام ، وبين الشرك فيـدعوهم الى التفكير بين الوحدانيـة والشرك ، وبين ملة ابراهيم محطم الأوثان ، وبين عبادة الأصنام ، فان ذلك يدفع نفس العرب والأعراب الى التفكير فى الأمر تفكيرا من غير ارهاق ٠

وفوق ذلك فان الحرب بين الايمـان الذى ينصره الله تعـالى ويؤيده ، والشرك الذى يتوالى خذلانه يدفع الى تعرف السر فى النصر مع قلة العدد ، والخذلان مع كثرته ، وان واقعة الخندق وحدها داعية الى التفكير فى القوة الخفية التى نصرت محمدا صلى الله تعـالى عليه وسلم ، اذ أرسل الله تعالى ريحا عاتية قلبت أوعيتهم ، وخلعت أخبيتهم ، وخلعت مع ذلك قلوبهم ، ففروا من اللقاء فرارا ، ان هذه وحدها قارعة تلفت العقول عن عبادة غير الله تعالى ، لأنها تدرك أن الله مؤيد دعاة التوحيد بغير ما يقدرون ، وما يقتدرون ٠

وان الغزوات الكبار كان بجانبها سرايا تنبث فى أنحاء البلاد العربية داعية كاشفة هادية أو مقاتلة ان رأت غدرا وخيانة ٠

وان كل هذا يدفع الى التفكير فى الدين ، والموازنة بينه وبين عبـادة الأوثان ، وان الجمود على اتباع الآباء ولو كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون هو الذى يصم الآذان والقلوب عن ادراك الحق ، فقوارع الحرب تسمع الذين فى آذانهم وقر ، وعلى أبصارهم غشاوة ٠

واذا فتحت المدارك اتجهت الى الطريق المستقيم ، والذى لا عوج فيه ، ولا أمت ٠

وفى الحق ان دعوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم صغت اليها قلوب

الضعفاء ابتداء ، ثم كانوا من بعد قوة الاسلام التى أزعجت الكفر فى مكامنه ، وهدته الى مواطن الهداية ٠

لا نقول ان الحرب اكرهت أحدا على الايمان ، ولكن نقول ان قوة الحق أخذت غير المحاربين الى محراب الايمان فجاءوا اليه طائعين مختارين ، لأن الحرب العادلة تجعل المنصفين يميلون الى الحق ، ولأن انتصار المؤمنين لايمانهم يجعل النفوس ترمقهم ، والقلوب تصغى اليهم ٠

ولذا كانت الوفود من بعد ذلك تجيء من القرى والقبائل تعلن ايمانها ، وتتعلم الاسلام ، وتسمع تلاوة القرآن الكريم كما سنتكلم ان شاء الله تعالى على الوفود التى جاءت تترى والتى جاءت بنور الحق لتسمع الحق من الداعى الى الحق ، وان ذلك كله جاء من تسامع العرب بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانت الحروب من أسباب ذلك ٠

وان انتهاء القتال بصلح ابتداء ، ثم بمواجهة بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين من يعاديه هى الأخرى دعوة الى الاسلام فى هدأة النفوس ، وقرار القلوب ، وقد صار صوت الحق هو وحده الذى يتكلم ، وسكتت صلصلة الأسلحة ، وفى هذه الهدأة وقد خبت العداوة ، واطمأن الجامح ، ولم تكن العداوة التى تأجج النفوس بل السلم العزيزة هى التى ترطب النفوس والأفئدة ٠ وحينئذ دخل بعض العرب ، ومال الذين كانوا يحاربون النبى صلى الله عليه وسلم الى الاسلام ، وبدءوا يفكرون بقلب سليم من الأضغان ، قد استلت منه الأحقاد وسخائم النفوس وما كان المشركون لينفروا من الايمان الا جحودا وعنادا ٠ فاذا اختفى العناد كان التفكير السليم ، وهو سبيل الاسلام ، وكان كل أمر بعد ذلك يوجه الى الايمان ، ولا يرنقه حقد ، ولا محنة ، ولا احنة ، وتوالت الأمور التى تقرب الأرحام ، وتوصل من كانوا قد قطعوه من رحم متوادة رحيمة ٠

وان عمرة القضاء التى كانت فى العام السابع دنت بها قلوب كانت متباعدة ، وأذن المؤذن تكبيرا لله تعالى وحمده على الكعبة الكريمة المشرفة زادها الله تعظيما ، عندئذ مالت قلوب أعتى الكافرين عداوة ٠ وان لم يتقدموا بالايمان ، حسبك أن يكون منهم عكرمة بن أبى جهل فقد مال الى الاسلام ، وأن يعمل على اعلان ايمانه كما فعل صاحبه خالد بن الوليد ، وعثمان بن طلحة ، وعمرو بن العاص ٠

فقد رأت قريش محمدا صلى الله عليه وسلم يعظم البيت الحرام ٠ ويقيم شعائره ، وينحر الهدى عند المروة ويقيم المودة بدل القطيعة ، ويحاول أن يقيم

وليمة يتناولون فيها الطعام على مائدة الرحمن دخل الى مكة المكرمة راضيا ، وخرج عنها وهم راضون ٠

وبعد أن خرج أخذت النفوس تفكر فى الاسلام ، لقد وقف خالد بن الوليد يدعوهم الى التفكير فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، « لقد استبان لكل ذى عقل ان محمدا ليس بساحر ، ولا شاعر ، وان كلامه من كلام رب العالمين ، فحق على كل ذى لب أن يتبعه » ٠

بلغ أبا سفيان ما قاله خالد ، فسأله عن صحة ما سمع ، فأكده ، فاندفع أبو سفيان غاضبا ، وقد باعد بينهما عكرمة بن أبى جهل وكان يميل فى هذه القضية الى خالد ، فقال مهلا يا أبا سفيان أتقتلون خالدا على رأى رآه ، وهذه قريش كلها عليه ، والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة المكرمة ٠

وما حال الحول حتى كان فتح مكة المكرمة ، وكان أهل مكة المكرمة على ما كان خالد ، وكان أبو سفيان من المسلمين ٠ وأخذ الاسلام يدخل مدائن العرب ، وأخبيتهم ما بين مؤمن مذعن ومسلم ، وكافر يعرفه ويكرهه ولم يبق الا أن يخرج نوره من أرض العرب الى غير العرب ٠

وكأن التدرج تقتضى ذلك بأن يكون فى أم القرى ، وما حولها ، ثم يكون فى يثرب مجتمع القوى ، ثم يكون فى العرب أجمعين ، ويخرج من مشرق العرب الى حيث النار والصليب ، فيطفىء النار ويحطم الصليب ، وتكون الكلمة لله وحده رب المشارق والمغارب ٠

بعث الرسائل الى الملوك

٥٧٧ — اتفق علماء السيرة والصحاح على أن الارسال الى الملوك والأمراء كان بعد الحديبية وقبل الفتح ، ولكن اختلفوا أكان بعد صلح الحديبية أم كان بعد عمرة القضاء أم كان بعد مؤتة ٠

وان الذى نختاره أنه كان بعد عمرة القضاء ، وقبل مؤتة ، وذلك لأن عمرو بن العاص خرج من مكة المكرمة مريدا الهجرة الى الحبشة بعد عمرة القضاء وقد التقى فى الحبشة بمن بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى النجاشى ، كما أنه التقى فى أثناء ذهابه الى المدينة المنورة بخالد بن الوليد ، وقد كانت ارادة خالد بن الوليد ، الذهاب الى مكة المكرمة وكلماته فى الدعوة الى اتباع محمد صلى الله عليه وسلم عقب عمرة القضاء مباشرة ٠

وان السياق التاريخى يثبت أن الكتاب الى ملك الروم ، وأمير الغساسنة فى الشام كان قبل مؤتة لأن غزوة مؤتة كانت بسبب قتل بعض من أسـلم من الشام ، وبسبب قتل الرسول الذى بعثه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى أمير الغساسنة ، والسبب مقدم على المسبب ، فكان الكتاب بلا ريب سـابقا على مسببه وهو غزوة مؤتة ٠

وفوق هذا كله ، فان السنة الصحيحة تصرح بأن الارسال الى الملـوك قبل مؤتة ، فقد روى مسلم بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم كتب قبل مؤتة الى كسرى وقيصر ، والى النجاشى ، والى كل جبار يدعوهم الى الاسلام ٠

كتـابة الىٰ هرقل وأثره

٥٧٨ ــ بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى هرقل دحية ابن خليفة بكتاب هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله ورسوله الىٰ هرقل عظيم الروم ، سـلام على من اتبع الهدى ٠

أما بعد ٠ فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، وان توليت ، فانما عليك اثم البريسين ٠٠ « **ياهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون** » ٠

وقد كان هذا الكتاب الكريم له أثره فى أوساط الرومان ، وأهل الشام ومشركى قريش ، لم يأخـذ هرقل الكتاب كما يأخـذ ملك من رجل يخشى على ملكه منه ، بل أخذه كما يأخذ عالم يلقى خبرا له صلة بعمله ، فقد كان هرقل حزاء له علم بالملاحم والنجوم وأخبار النبيين ، فكان عالما من علماء النصرانية الذين يريدون أن ينتشر الحق فى ذاته ، لولا الملك وسورته ٠

عندما وصل الكتاب اليه ، أرسل يبحث عن بعض قوم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى البلاد الشامية فعلم بركب تجار من مكة المكرمة ، على رأسـهم أبو سـفيان قائد الشرك ، قد دعاهم الى مجلسه ، وحول (هرقل)

عظماء الروم ، ثم دعا أبا سفيان ومن معه ودعا الترجمان ، واليك الحديث كما جاء فى البخارى ٠

قال هرقل بلسان الترجمان أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ٠

فقال أبو سفيان أنا أقربهم نسبا ، فقال هرقل أدنوه منى وقربوا أصحابه عند ظهره ، ثم قال لترجمانه قل لهم انى سائل هذا عن هذا الرجل ، فان كذبنى فكذبوه ، قال أبو سفيان ، فوالله لولا أن يؤثروا غنى كذبة فى العرب لكذبت عنه ، ولنترك الحكاية كلها لأبى سفيان ٠

يقول أول ما سألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ٠ قلت هو فينا ذونسب قال فهل قال هذا القول منكم أحد قبله ؟ قلت لا ٠ قال : فهل كان من آبائه من ملك ٠ قلت لا ، قال فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت بل ضعفاؤهم ، قال أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت بل يزيدون ، قال فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ! قلت لا ٠ قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ٠ قلت لا ، قال : فهل يغدر ؟ قلت لا ونحن منه فى مدة ، لاندرى ما هو فاعل فيها ، ولم يمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة ، قال فهل قاتلتموه ؟ قلت نعم ، قال فكيف قتالكم اياه ؟ قلت الحرب بيننا وبينه سجال ينالمنا ، وننال منه ٠ قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة ، والصدق والعفاف والصلة ٠

قال للترجمان بعد ذلك قل له : سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذونسب وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله ، فذكرت أن لا ، فقلت : لو كانَ أحد قال هذا القول لقلت : رجل يتأسى بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا ، فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه ٠ وسألتك ، هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه ما كان ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله ، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك أهم يزيدون أم ينقصون ؟ فقلت انهم يزيدون ، وكذلك أمر الايمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن لا ، وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا يغدرون ، وسألتك بم يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ٠

فان كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أعلم أنى أخلص اليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغلت عن قدميه ٠

كان لهذا الكلام أثره فى نفس أبى سفيان العدو المشرك ، فقال : « لقد أمر ابن أبى كبشة (زوج المرضع التى أرضعت النبى صلى الله عليه وسلم) انه يخافه ملك الأصفر ، وهذه بلا ريب كلمة الشرك ، ولكن كان الكلام من هرقل له أثر أعمق من ذلك فى نفس أبى سفيان ، فقد قال : مازلت موقنا أنه سيظهرْ ، حتى أدخل الله تعالى على الاسلام ولكن أن فتحت له مغاليق كانت متكافئة فى نفسه ، حتى لا تكشف فيه قلب المسلم ٠

٥٧٩ ـــ هذا أثر الكتاب فى قلب هرقل ، ونراه يصدق كل ما فيه ، ويميل الى الاسلام ، وقبول ما جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن هل أذعن للحق ، وقبل الاسلام دينا !! يظهر أنه حاول ذلك ولكن قومه لم يقبلوه ، وتخير بين الاسلام والاذعان ، وبين البقاء على الملك ، فاختار الملك ، وبذلك اشترى الضلالة بالهدى ، فبارت تجارته عند الله ٠

ولنذكر الأمر كما وقع ، وما كان ينبغى أن يقع ، ولكنه الابتلاء ٠

لقد كان هرقل كما قلنا عالما ، وكان حزاء أوتى علم النجوم ، وعلم الملاحم ، وكان حين قدم من أيلياء ، وهى الأرض التى التقى فيها مع أبى سفيان ومن معه من التجار ـ خبيث النفس ، فقال بعض بطارقته قد استنكرنا هيئتك ، فقال لهم أنى نظرت أنى رأيت حين نظرت فى النجوم ملك الختان قد ظهر ، وعلم من تحريه أن العرب يختتنون ، فقال هرقل هذا ملك هذه الأمة قد ظهر ٠

وقد أرسل الى صاحب له برومية على مثل منزلته من العلم ٠

وسار الى حمص ، فلم يتركها حتى جاءه كتاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ونرى من هذا أنه كانت عنده أمارات قد علم بها بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانت الصور التى تتراءى له أنه ملك ، ولكن الله تعالى قد أتاه ما هو أعظم من ذلك ، وهو النبوة التى تأتى بخير الدنيا والآخرة ٠

وكانت هذه المعلومات سواء أكانت منتجة فى ذاتها ، أم غير منتجة

فانها اثرت فى نفسه ، وجعلته على استعداد لقبول الحق اذ جاء اليه ، وان المقدمات هنا ، وان كانت ظنية فى ذاتها قد مهدت لقبول الحق ٠

اقتنع هرقل كما قلنا بانه الحق ، واراد ان يعرضه على الملأ من قومه داعيا اليه ، فاذن هرقل لعظماء الروم ان يحضروا فى دسكرة له بحمص ، ثم امر بابوابها فغلقت ثم اطلع عليهم فقال :

يا معشر الروم ، هل لكم فى الفلاح والرشد ، وان يثبت لكم ملككم ، فاتبعوا هذا النبى ، فحاصوا حيصة حمر الوحش الى الابواب فوجدوها قد غلقت ٠

فلما رأى هرقل نفرتهم ، وايس من ايمانهم ، قال ردوهم على ، وغير وبدل من قوله ونيته ، وقال : « انى انما قلت مقالتى آنفا اختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه » ٠

وهكذا غلبت عليه الشقوة على الهداية ، لقد برق له نور الحق واضاء له ، فلما هم ان يمشي فيه ، وقف الملك وسلطانه ، فكان الظلام بعد النور ، والضلالة بعد الهداية ، وأمر بقتل من قتل من المسلمين وجيش الجيوش لحرب المسلمين فى مؤتة ، وفى تبوك ، ومن بعد ذلك فى اليرموك ومهما يكن من أمر نهاية الكتاب بالنسبة لهرقل والملأ من قومه ، فان الاسلام قد عرف فى وسط الرومان ، وعرف فى الشام ، وتذاكر به الناس ، وعرف ما كان من هرقل لعظماء ملته والنور دائما يخترق الظلام مهما تكن الحجب ، والغياهب والظلمات ، فالكتاب اثمر ثمراته ، وان لم يكن الايمان عاجلا ، فانه آجل والأجل قريب ٠

ومنهم من آمن ، وان لم يعرف ايمانه ٠

يروى أن هرقل عندما جاءه كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اعطاه لكبير الاساقفة الذى كان صاحب امرهم يصدرون عن رأيه وعن قوله ، فلما قرأ الكتاب قال : هو والله الذى بشرنا به موسى وعيسى الذى كنا ننتظره ، قال هرقل فما تأمرنى ، قال الأسقف أما أنا فمصدقه ومتبعه ، فقال قيصر انه كذلك ، ولكنى لا أستطيع ، ان فعلت ذهب ملكى وقتلنى الروم ، لم يذهب اذن الكتاب صرخة فى واد ، بل كان له صدى ، وظهر فيما بعد ٠

كتابة الى كسرى ملك الفرس

٥٨٠ ــ عندما أراد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرسل الى الملوك وقف فى الصحابة خطيبا وبعد أن حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله قال :

أما بعد فانى أريد أن أبعث بعضكم الى ملوك الأعاجم ، فلا تختلفوا على كما اختلف بنو اسرائيل على عيسى ابن مريم ٠

فقال المهاجرون انا لا نختلف عليك فى شىء أبدا ، فمرنا وابعثنا ٠

فبعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شجاع بن وهب الى كسرى ٠

وظاهر هذا الكتاب أنه أرسل الى كسرى عقب هذا البيان النبوى ، وربما يومىء الى أن الكتاب الى كسرى كان قبل الارسال الى ملك الروم ، ولكنا نرجح أن الارسال للملوك جميعا كان فى وقت واحد ، وربما كان وصول الرسول الى هرقل قبل وصوله الى كسرى ٠

ومهما يكن الأمر من ناحية السابق واللاحق ، فانه ثبت أنه أرسل للملكين ولغيرهما من الملوك والرؤساء ٠

بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم شجاع بن وهب الى كسرى فمضى بالكتاب اليه ، ووقف أمام بابه مستأذنا مع عظماء الفرس ، وقد أذن لعظماء الفرس ، ثم اذن له من بعدهم ، فلما دخل أراد أن يدفعه لغيره ، فأبى الا أن يدفعه اليه بشخصه ، وقال له لا حتى أدفعه أنا اليك كما أمرنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال كسرى ادن ، فدنا منه وناوله الكتاب ثم دعا كاتبا من أهل الحيرة فقرأه ، فاذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله ورسوله الى كسرى عظيم الفرس ٠

« سلام على من اتبع الهدى ، وشهد أن لا اله الا الله وحده ، لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأدعوك بدعاء الله تعالى ، فانى أنا رسول الله الى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ، ويحق القول على الكافرين ، وان تسلم تسلم ، والا فان عليك اثم المجوس ٠

فلما قرأه مزقه فدعا عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يمزق ملكه ٠

ولم يكتف بأن مزق الكتاب ، بل أراد قتل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأرسل الى بازام ، وهو نائبه على اليمن ، أن ابعث الى هذا الرجل بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به ، وحسب أن الاتيان بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم مكبلا بالحديد ، أمر سهل ، ونسى أن العرب فى واقعة (ذى قار) قد أذاقوه من الحرب أبؤسا ، ومحمد عليه الصلاة والسلام فى جنده لا يقل عن قوة العرب فى ذى قار ، ولكنه غرور السطوة الذى يدلى بصاحبه حتى يجعله عبرة للمعتبرين ٠

استجاب نائبه الى طلبه غير المعقول فى غايته ، فبعث بأزام قهرمانه ، وكان كاتبا حاسبا ، وبعث معه رجلا من الفرس يقال له حرحورة ، وكتب معهما الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأمره أن ينصرف معهما الى كسرى ٠

ويظهر أن نائبه باليمن لم يكن يريد ايذاء ، ولكن يريد أن يتعرف خبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكتب الكتاب اطاعة لكسرى ، وأراد أن يتصرف لنفسه ، فأراد التعرف ، وهكذا يغتر الطغاة ، فيحسبون أن الناس قلوبهم طوع أيديهم ، مع أن قلوبهم لأنفسهم لا لالههم ٠

قال نائب كسرى لمن أرسله بالكتاب ايت بلاد هذا الرجل وكلمه وائتنى بخبره ، وهذا يدل على أنه لن يجيب كسرى ، فغاية كسرى ليست غايته ، وانه هو يريد أن يعرف الاسلام ٠

خرج الرجلان الى المدينة المنورة حتى قدما عليها ، فقال : فسألاه عنه ، فقال هو بالمدينة المنورة ، واستبشر أهل الطائف بها ، وقال بعضهم لبعض أبشروا ، فقد نصب له كسرى ملك الملوك كفيتم الرجل ٠

خرج الرجلان الى المدينة المنورة حتى قدما على المدينة المنورة ، فقال : شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب الى الملك بازام (نائبه باليمن) يأمره بأن يبعث اليك من يأتيه بك ، وقد بعثنا اليك لتنطلق معى ، فان فعلت كتب (نائب اليمن) الى ملك الملوك يمنعك ويكفه عنك ، وان أبيت فهو من قد علمت فهو مهلكك ومهلك قومك ، ومخرب بلادك ، وظنا أن ذلك يرهب الرسل ، اذ مثله يرهبهما ، ولكن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لم يلتفت الى كلامهما ، لأن الله يعصمه ، بل اتجه اليهما ، وقد حلقا لحاهما ، وأعفيا

شاربهما ، فكرر النظر اليهما · وقال لهما : ويلكما من أمركما بهذا ؟ قـالا أمرنا ربنا ، يعنيان كسرى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن ربى أمرنى باعفاء لحيتى وقص شاربى ·

ثم قال لهما : ارجعا حتى تأتيانى غدا ، وقد أعلم الله رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم بأن كسرى قد قتله ابنه شيرويه ، وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، عنده ذلك العلم من الله تعالى ، دعاهما فأخبرهما ·

فقالا هل تدرى ما تقـــول ؟ انا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا ، فنكتب عنك بهذا ، ونخبر الملك بازام (نائب كسرى) ·

قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : أخبراه ذلك عنى وقولا له ، ان دينى سيبلغ ما بلغ كسرى ، وينتهى الى الخف والحافر ، وقولا ان أسـلمت أعطيتك ما تحت يديك ، وملكتك على قـومك من الأنباء ثم أعطى خـــرخره الفارسى أحد الرسولين منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملك ·

خرجا من عنده حتى قدما على بازام (نائب كسرى) فى اليمن ·

فقال هذا الملك النائب عن ملك الملوك · كسرى : ما هذا بكلام ملك ، وانى لأرى الرجل نبيا ، كما يقول : وليكونن ما قد قال ، فلئن كان هذا حقا فهو نبى مرسل ، وان لم يكن فسنرى فيه رأيا ·

علم الجميع أن كسرى قد قتل بيد ابنه · وقد أعلمهم النبى صـــلى الله تعالى عليه وسلم بذلك ، والرسولان عنده ، والأخبـــار عنه منقطعة عن طريق البرد وغيرها ·

وبينا نائب كسرى باليمن على الأمر الذى لم يصل اليه نبؤه ، وهو فى تردد فى قبوله ، جاءه كتاب شيرويه الابن ، وجاء فى هذا الكتاب ·

أما بعد : فانى قد قتلت كسرى ، ولم اقتله الا غضبا لفارس ، لما كان قد استحل دم من قتل من أشرافهم ، ونحرهم فى ثغورهم ، فاذا جاءك كتابى هذا فخذ لى الطاعة ممن قبلك وانطلق الى الرجل الذى كان كسرى قد كتب اليه ، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه ·

انه بلا شك لم يكن الابن على عزيمة أبيه فيما يتعلق بالنبى صـــلى الله تعالى عليه وسلم ، بل تردد ، وكل ما أمر به ألا يهجه فلا يطلب اليه الحضور حتى يكون أمر جديد ·

تلك امارات متتالية تدل على صدق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيما يدعو اليه من وحدانية وصدقه فى دعوى الرسالة الالهية ·

وان أحد الرسولين الذى كان يتكلم باسمهما فى حضرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم · قال : ما كلمت أحدا كان أهيب عندى منه ·

فكر أمير اليمن وقدر ما بين يديه من علم ، وانتهى تفكيره الى الاسلام والتسليم ، وقال ان هذا الرجل لرسول ، فأسلم ، وأسلمت الأبناء من فارس الذين كانوا باليمن ·

وبذلك دخل الاسلام أرض اليمن ، ووجد له فيه دعاة ·

وقد روى البيهقى أن شيرويه هذا الذى قتل أباه ، قد استخلف من بعده ابنته ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لن يفلح قوم ولوا أنفسهم امرأة ·

هذا كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأثره ، واذا كان لم يؤثر فى كسرى الا سلبا ، فقد أثر فى غيره ايجابا واستجابة ، لقد أثر فى نائبه فى اليمن ، فأسلم وهو فارسى ، وأسلم من معه من الأبناء من فارس ، وهم باليمن بما وصل اليه الاسلام فى شعب اليمن العربى الأصيل ·

ولم يكن كتاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صرخة فى واد ، بل كان لها استجابة ، واذا كان العدد قليلا فانه سيكون كثيرا فى اليمن وما وراءها وقد كان ·

كتابه الى النجاشى

٥٨١ — كتب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى النجاشى ملك الحبشة أصحمة ، وقد رجا فيه الخير ، لأنه أكرم أصحابه عند الهجرة الى الحبشة ، فهو يدعوه فى هذا الكتاب ، وقومه ، وكان قد أسلم من قبل فيما يروى الرواة ، وفيما يدل عليه ما اقترن بالكتاب من قول ، وهذا نص الكتاب وما دار حوله ·

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى النجاشى ملك الحبشة · « فانى أحمد الله تعالى اليك الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس

السلام المؤمن المهيمن ، وأشــهد أن عيسى ابن مريم روح من الله وكلمته القاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة ، حملت بعيسى فخلقه الله تعالى من روحه ، ونفخه كما خلق ادم بيده ، وانى ادعوك الى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى ، فانى رســـول الله ، وانى ادعوك وجنودك الى الله عز وجل ، وقــد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتى ، والسلام على من اتبع الهدى » ٠

هذا كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسـلم ، ورفق الدعـوة ، وحكمة النبوة ظاهران فيه ولقد بعثه مع عمرو بن أمية الضمرى الذى جاء بهذا الكتاب ، ولأنه رفيقا وكان يميل للاسلام ، كان لرسول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم شرح وتوضيح وتأكيد لمعنى الرسالة ٠

قال له عمرو : يا أصحمة ، ان على القــول ، وعليك الاســتماع ، انك كأنك فى الرقة علينا ، وكأنا فى الثقة بك منك ، لأنا لم نظن بك خيرا قط ، الا نلناه ولم نخفك على شىء الا أمناه ، وقد أخذنا الحجة عليك من فيك ، الانجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد ، وقاض لا يجور ، وفى ذلك الموقع الحز ، واصـــابة المفصل ، والا فانت فى هذا النبى الأمى كاليهود فى عيسى ابن مريم ، وقد فرق النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم رســله فى الناس فرجاك لما لم يرجهم ، وأمنك على ما خافهم عليه ، بخير سالف ، وأجر ينتظر ٠

أجابه النجاشى اجـابة المؤمن فقــال : « أشهد أنه النبى الأمى الذى ينتظره أهل الكتاب ، وأن بشارة موسى براكب الحمار ، كبشارة عيسى براكب الجمل ، وأن العيان ليس أشفى من الخبر ٠ وأردف ذلك بأن حمل عمرو ابن أمية كتابا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وهذا نص الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم

الى محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ـ من النجاشى أصحمة سلام عليك يا نبى الله من الله ، ورحمة الله وبركاته ، الله لا اله الا هو ٠

أما بعد فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض ان عيسى لا يزيد على ما ذكرت ، انه كما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به الينا ، وقد عرفنا ابن عمك (أى جعفر بن أبى طالب) وأصحابك فأشهد أنك رسول صادقا مصدقا ، وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك وأسـلمت على يديه لله رب العالمين » ٠

كانت اجابة النجاشى صريحة واضحة ، وقد كان الكتاب اليه ، والى جنوده والملأ من قومه ، وقد أسلم هو ، ودعا من معه ، ولم يكرههم على الايمان ، ولكن اكتفى بالدعوة من غير اكراه ، لأن الله تعالى يقول : « **لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** » فبين هذا الرشد ، وكان ملكا عادلا أمن الناس وآمن بالله تعالى واستجاب لكلمة الحق من غير تلكؤ ولا تردد ٠

ولم يؤمن قومه ٠

كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى المقوقس

٥٨٢ — استمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الارسال الى الملوك والرؤساء لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، فكان يرسل الى الرؤساء والملوك ، كما رأيناه أرسل الى هرقل وكسرى والنجاشى ، فمنهم من اهتدى ، ومنهم من ضل ، وممن أرسل اليهم المقوقس عظيم القبط الذين كانوا يرزحون فى حكم الرومان ، ويضطهدون فى دينهم اضطهدوا من وثنية الرومان ثم اضطهدوا من مذهبهم عندما التقوا فى دين واحد ٠

بعث اليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع حاطب بن أبى بلتعة هذا الكتاب ٠

بسم الله الرحمن الرحيم ٠ من محمد عبد الله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط ٠

سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فان عليك اثم أهل القبط « **ياهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون** » ٠

ولقد ذكر حاطب بن أبى بلتعة أنه أكرمه ، وأنزله فى منزله ، وأقام عنده ٠

جمع بطارقته مع حاطب ووجه اليه أسئلة تتعلق بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقومه ، وسأله حاطب عما يتعلق بعيسى مع بنى اسرائيل ٠

قال المقوقس ، هلم أخبرنى عن صاحبك ، أليس هو نبيا ٠ قلت بل هو رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

قال فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده الى غيرها ٠

قال حاطب : عيسى ابن مريم ألست تشهد انه رسول الله ؟ قال بلى ، قلت فما له حيث أخذه قومه ، فأرادوا أن يصلبوه الا يكون دعا عليهم ٠

قال المقوقس : أنت حكيم قد جاء من عند حكيم ٠

أخذ بعد ذلك يتكلم حاطب بن أبى بلتعة فى معنى الكتاب الذى يحمله من الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ٠ قال :

انه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ، فأخذه الله تعالى نكال الآخرة والأولى فانتقم الله تعالى به ، ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولايعتبر غيرك بك ٠

قال المقوقس ان لنا دينا لن ندعه الا لما هو خير منه ٠

قال حاطب ندعوك الى الاسلام الكافى به الله عما سواه ، ان هذا النبى صلى الله عليه وسلم دعا الناس فكان أشدهم قريش وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى ، ولعمرى مابشارة موسى بعيسى الا كبشارة عيسى بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وما دعاؤنا اياك الى القرآن الكريم الا كدعائك أهل التوارة الى الانجيل ، وكل نبى أدرك قوما فهم أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدركه هذا النبى صلى الله عليه وسلم ٠

قال المقوقس انى قد نظرت فى أمر هذا النبى فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آيات النبوة باخراج الجن ، والاخبار بالنجوى ، وسأنظر ٠

واخذ كتاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجعله فى خف من عاج ، وختم عليه ، ودفعه الى جارية ومن بعد ذلك دعا كاتبا له يحسن العربية ، فكتب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

بسم الله الرحمن الرحيم ٠ لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ٠

سلام عليك ، أما بعد فقد قرأت كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وما تدعو اليه ، وقد علمت أن نبيا بقى ، وكنت أظن أنه يخرج من الشام ، وقد أكرمت رسولك ، وبعثت اليك بجاريتين ، لهما مكان فى القبط عظيم ، وبكسوة وأهديت اليك بغلة لتركبها ، والسلام عليك » ٠

هذا ما كتبه المقوقس : وهو يدل على أنه كصاحبه هرقل قد اقتنع بالقرآن الكريم والاسلام ، ولكن تردد فى القبول ، وتلطف فى الرد ، وبنى تردده على أنه كان يظن أنه سيخرج من الشام ٠

وكانت احدى الجاريتين مارية القبطية التى كان ابراهيم ابن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم منها ، وأشهر الروايات أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أعتقها وتزوجها ٠

كتابه الى المنذر بن ساوى

٥٨٣ — ذكر الواقدى فى تاريخه باسناده عن عكرمة مولى عبد الله ابن عباس أنه وجد كتابا فى كتب عبد الله بن عباس بعد موته فنسخه ، فتبين فيه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعث العلاء الحضرمى الى المنذر ابن ساوى وكتب اليه كتابا يدعوه فيه الى الاسلام ، ولم يذكر أنه عثر على نص كتاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن وجد رد ابن ساوى ، ثم رد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، واليك كتاب المنذر :

الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أما بعد يا رسول الله فانى قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الاسلام وأعجبه ، ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضى يهود ومجوس فأحدث الى فى ذلك أمرك ٠

فكتب اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى ٠

سلام عليك ، فانى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، وأشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ٠ أما بعد فانى أذكرك الله عز وجل ، فانه من ينصح انما ينصح لنفسه ، وأنه من يطع رسلى ، ويتبع أمرهم ، فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد ينصح لى ، وان رسلى قد أثنوا عليك خيرا ، وانى قد شفعتك فى قومك ، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن

أهل الذنوب فاقبل ، وانك مهما تصلح لا نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهودية أو مجوسية ، فعليه الجزية ٠

وقد دل خبر هذا الكتاب على أن عبد الله بن عباس كان حريصا على أن يكتب كتب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ويحفظها فى خزانة كتبه ، وأنه يعلن للناس ما يعلن وهو الأكثر ، وقد يبقى مالا يعلن ودل الكتاب على أنه مرسل لأهل البحرين ، وأن المنذر بن ساوى كان واليها ، ويدل على استجابة الوالى لدعوة الاسلام ، وأن الجزية تفرض على اليهود والمجوس ، وتدل على أمر آخر هو الحكمة وهو أن أبقى الوالى الذى سارع الى الاسلام فى امرته ، ليكون أميرهم ، ولم يرسل واليا من كبار الصحابة أو غيره ، وذلك ليشعروا أنه ليس أجنبيا مسيطرا ، ولكنه من أنفسهم ، وما دام مستقيما فانه أجدر لعلمه بنفوسهم ، وخبرته بأحوالهم ، وأن يأتيهم من حيث يألفون ويعرفون ٠

وفى الخبر ما يدل على فرض الجزية على الذين لا يؤمنون ، اذا كانوا فى ولاية مسلم وهم هنا اليهود والنصارى والمجوس ، وقد أجمع الفقهاء على فرض الجزية عليهم ، وأجاز أبو حنيفة فرض الجزية على الوثنيين غير العرب قياسا على المجوس ٠

الكتاب الى ملك عمان

٥٨٤ — لم يكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ينى عن الدعوة الى الاسلام فى الحواضر والبوادى ، وأهل الوبر ، وأهل المدر ، كما رأيت فى كتابته للملوك ٠

لقد أرسل الى عمان باليمن ، وكان عليها أميران هما جيفر ، وعبد ابنا الجلندى وقد أرسل لهما كتابا حمله عمرو بن العاص ؛ وهذا نص الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ٠

من محمد بن عبد الله الى جيفر وعبد ابنى الجلندى ٠

سلام على من اتبع الهدى ٠ أما بعد ، فانى أدعوكم بدعاية الاسلام ، أسلما تسلما فانى رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ، ويحق القول على الكافرين ، فانكما أن أسلمتما ، وليتكما ، وان أبيتما أن تقرا بالاسلام ، فان ملككما زائل عنكما وخيلى يحل بساحتكم وتظهر نبوتى على ملككما ٠

كتب الكتاب أبى بن كعب ، وختم الكتاب ٠

يقول عمـرو بن العاص ، خرجت حتى انتهيت الى عمان ، فلما قدمنا عمد الى عبد أحد الأخوين وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقا ، فقلت انى رسول من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليك ، والى أخيك ٠ فقال أخى المقدم على بالسن والملك ، وأنا أوصلك اليه ، حتى يقرأ كتابك ٠ ثم قال وما تدعو اليه ، قلت أدعوك الى الله وحده ، لا شريك له ، وتخلع ما عبد من دونه ، وتشهد أن محمدا عبده ورسوله ٠

قال عبد : انك ابن سيد قومك ، فكيف صنع أبوك ، فان لنا فيه قدوة ، قلت مات ولـم يؤمن بمحمد صـلى الله تعـالى عليه وسـلم ، ووددت أنه لو كان أسلم ، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هدانى الله تعالى الى الاسلام ٠

فسألنى فمتى تبعته ؟ قلت قريبا ، عند النجاشى ، وأخبرته أن النجاشى قد أسلم ، قال فكيف صـنع بملكه ، فقلت أقـروه واتبعوه ٠ قال والأسـاقفة والرهبان تبعوه ، قلت نعم ٠

قال : يا عمرو انه ليس من خصلة فى الرجل ، أفضح له من الكـذب ، قلت ما كذبت ، وما نستحله فى ديننا ٠

قال : هل علم هرقل باسلام النجاشى ٠ قلت : بلى ، قال بأى شىء علمت ذلك ؟ قلت كان النجاشى يخرج خرجا له ، فلما أسلم وصدق بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم منعه وقال : والله لو سألنى درهما واحدا ما أعطيته ، فبلغ هرقل قوله ، فقال له أخوه (أى هرقل) : أتدع عبدك لا يخرج لك خرجا ويدين بذين غيرك ، دينا محدثا ٠

قال هرقل : رجل رغب فى دين ، فاختار لنفسه ماذا أصـنع به ، والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع ٠

قال : انظر ما تقول يا عمرو ، قال عمرو والله صدقتك ٠

قال عبد فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى عنه ٠

قلت : يأمر بطاعة الله عز وجل ، وينهى عن معصـيته ، ويأمر بالبر ، وصلة الرحم ، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنى ، وعن الخمـر ، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب ٠

قال : ما أحسن هذا الذى يدعو اليه ، لو كان أخى يتابعنى عليه ، ركبنا حتى تؤمن بمحمد ونصدق به ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ، ويصـــير ذنبا ٠

قلت : انه ان أسلم ملكه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم ، فيردها على فقيرهم ٠ فقال ان هذا لخلق حسن ٠ ما الصدقة ، فأخبرته بما فرض رسول الله صــلى الله تعالى عليه وســلم فى الصدقات فى الأموال ، حتى الى الابل ، قال وتؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى الشجر ، وترد على المياه فقلت نعم ٠ فقال : والله ما أرى قومى فى بعد دارهم ، وكثرة عددهم يطيعون لهذا ٠

وبعد هذه المناظرة والتحريات التى قام بها الأخ الأصغر ، ودلت على ميله للدخول فى الاسلام اتجه عمرو بن العاص الى مقابلة الأخ الأكبر ، وهو الأمير على هذه الديار ، ولنترك القول لعمرو فانه حسن الحكاية لما حصل ٠

مكثت ببابه أياما ، وهو يصـــل الى أخيه فيخبره بكل خبرى ، ثم انه دعانى (أى الأمير وهو الأخ الأكبر) دعانى ، فدخلت عليه ، فأخذ أعــوانه بضبعى ، فقــال دعوه ، فأرسلت فذهبت ، فذهبت لأجلس ، فأبوا أن يدعونى أجلس ، فنظــرت اليه فقــال تكلم ، فدفعت اليه الكتاب مختوما ففض خاتمه وقرأه حتى انتهى الى آخره ، ثم دفعه الى أخيه ، فقرأه مثل قراءته ، الا أنى رأيت أخاه أرق منه ٠

قال الأمير ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت ، فقلت اتبعوه ، اما راغب فى الدين ، واما مقهور بالسيف ٠ قال ومن معه ، قلت الناس قد رغبوا فى الاســلام ، واختاروا على غيره ، وعرفوا بعقولهم مع هــدى الله تعالى اياهم أنهم كانوا فى ضلال ، فما أحدا منهم بقى غيرك فى هذه الخرجة ، وانك ان لم تسلم اليوم وتتبعه توطئك الخيل وتبيد خضراءك ، فأسلم تسلم ويستعملك على قومك ، ولا تدخل عليك الخيل والرجال ٠

قال الأمير دعنى يومى هذا وارجع الى غدا ٠

فرجعت الى أخيه فقال يا عمرو انى لأرجو أن يسلم ان لم يضن بملكه ٠

حتى اذا كان الغد أتيت اليه فأبى أن يأذن لى ٠

فانصرفت الى أخيه : فأخبرته أنى لم أصل اليه ، فأوصلنى اليه ٠

قال الأمير : انى فكرت فيما دعوتنى اليه ، فأنا أضعف العـــرب ، ان ملكت رجلا ما فى يدى ، وهو لا يبلغ خيله هاهنا ، وان بلغت خيله لقيت قتالا ليس كقتال من لاقى ٠

قلت : وأنا خارج غدا ٠

فلما أيقن بمخرجى ، خلا به أخوه ، فقال ما نحن فيما ظهر عليه ، وكل من أرسل اليه قد أجابه فأصـبح فأرسـل الى ، فأجاب الى الاســلام هو وأخوه جميعا ، وصدقا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وخليا بينى وبين الحكم فيما بينهم ، وكانا لى عونا ٠

وقـد نقلنا المحـاورات التى كانت بين عمـرو بن العاص ، والأميرين ، اللذين مال أحدهما الى الاسلام ابتداء ، ومال الثانى اليه انتهاء ، وأسـلما وحسن اسلامهما ٠

وان هذه المحاورة والاستجابة لما فى الكتاب تدل على أن الاســلام قد تغلغل فى نفس العربى ما بين مؤمن به وناظر اليه ، ومخادع فيه ، وأنه كان موضع تفكير المفكرين ٠

وان هذه المحاورة تدل على أنهم كانوا من النصارى ، وأن هرقل لأنه ملك أكبر دولة مسيحية كان له هيمنة على نصارى الشرق ، فمصر تابعة له ، والحبشة له خرج على النجاشى ملكها ٠

ويدل أيضا على ايمان النجاشى بأنه لا ولاية لغير المسلم على المســلم ، ولذلك رفض أن يرسل الذى كان عليه أن يؤديه ، وقال له فى قوة وحـــزم لا أدفع درهما ٠

ويدل أيضا على سعة تفكير هرقل ، ورفضه أن يثير حربا لأجل الخرج الذى كان يقدمه تابع له ، لأنه اتبع دينا آخر وظهر ميله للاسلام واعتقاده بأنه صدق ، وكان يعلن ذلك لوصيه بملكه ، ومهما يكن أمر اسلامه ، فانه يظهـــر بمظهر رجل حر الفكر والرأى يقدر حرية التدين فى غيره ، كما يقدرها فى نفسه ٠

وفى الكلام ما يومىء الى أن هـذا الكتاب كان بعد فتح مكة المكرمة ، لأنه سأله عن قريش اتبعوا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم أم لم يتبعوه ، فأجاب عمـرو بأنهم اتبعوه ، اما رغبا واما قهرا ، وان ذلك كان بعـد الفتح لا ريب فى ذلك ٠

وأنه يبدو بلا ريب أن عمرو بن العاص كان ذا فراسة قوية عندما اختار أحد الأمرين وهو الأصغر ، عندما ابتدأه فى تقديم الكتاب ، فعن طريقه أقنع أخاه ذا الصلف والكبرياء ٠

ويلاحظ أن عمروا كان شديدا فى قوله عندما خاطب الأمير الأكبر ، ولعل ذلك من أنفة العــربى اذ منعه الملك من الجلوس ،وأبى الا أن يقدم كتاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو واقف ، فلم يرد أن يكون ذليلا ٠

ولم يضر ذلك بقضية الاسلام لأنه كان يستعين بأخى الأمير الذى أبدى لينــا غير منتظر ، وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم ين عن الدعوة ، وسط الحروب وفى تدبير الدولة ٠

كتابه عليه الصــلاة والســـلام
الى صاحب اليمامة

٥٨٥ ـــ أرسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مع سليط ابن عمرو العامرى كتابا الى صاحب اليمامة هوذة بن على ، وكان نص الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى هوذة بن على

سلام على من اتبع الهدى

اعلم أن دينى سيظهر الى منتهى الخف والحافر ، فاسلم تسلم ، وأجعل لك ما تحت يدك » ٠

فلما قدم عليه سليط حامل الكتاب وكان مختوما أنزله وحياه وبعد أن قرأ الكتاب ودعاه رد على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بكتاب جاء فيه « ما أحسن ما تدعو اليه ، وأجمله ، والعرب تهاب مكانى ، فاجعل لى بعض الأمر أتبعك » ٠

وأجاز سليطا الرسول بجائزة ، وكساه أثوابا من نسيج هجر ٠

قدم الرسول على النبى صلى الله تعــالى عليه وسلم ومعــه الكتــاب والهدايا ، فلما قرأ النبى صلى الله تعــالى عليه وسلم ، امتنع عن أن يعطيه جزءا من الأرض ٠

وبعد فتح مكة المكرمة ، علم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحى أن هوذة صاحب هذا الكتاب الطامع قد مات وقد ذم رجال اليمامة ، وقال اما انه سيخرج بها كذاب سينتهى بقتله · قال بعض الصحابة ، ومن يقتله ؟ قال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : أنت وأصحابك ·

وان نبوءة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كانت صادقة ، فانّ الأعراب كانت فيهم ردة ، وكانت اليمامة ذات ضلع فيها ، وقام الصديق خليفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعزمة كان عز الاسلام وبها صار قارا ثابتا ، وقد حفظ الله تعالى بأبى بكر قوة الاسلام ، وعزته وقالها قولة حازمة جازمة : « اما سلم مخزية ، واما حرب مجلية » ·

٥٨٦ — وقد أرسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم غب الحديبية الى أمير الغساسنة بكتاب فيه هذا المعنى · وهو الدعوة الى الاسلام ، ولم يذكر كتاب السيرة أأجاب الى الهدى أم لم يجب ·

ونحن ذكرنا كتابته الى الملوك ، والأمراء والرؤساء وردهم عليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، ما بين مستجيبين ومترددين مجاملين فى الرد وان لم يؤمنوا وجاحدين كافرين معاندين مريدين انزال الأذى بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم قاصدين الكيد ، فرد الله تعالى كيدهم فى نحورهم ·

وتركنا مؤقتا الكلام فى المغازى لأسباب ثلاثة :

أولها : أن المقصود من الرسالة المحمدية هو تبليغ الدعوة الى الاسلام وما كانت الحروب الا لحماية الدعوة ولمنع الكافرين من أن يفتنوا المؤمنين فى دينهم ، كما فعل مشركو مكة المكرمة ونصارى الشام · فما كانت الحرب مشروعة لذاتها ، ولكن كانت دفاعا وحماية للدعوة ، وهى المقصود أولا وبالذات ·

ثانيها : أن هذه المكاتبات والرد عليها تبين مدى انتشار الدعوة ، وايمان الناس واستجابتهم ، فقد رأيت بعضهم يستجيب فورا ، وبعضهم يستجيب ويسأل حكم الشريعة فى أمر من تحت يده من اليهود والمجوس كابن ساوى ، ومنهم من كان يتردد فى الاتباع ، ثم ينتهى بالاذعان هو وقومه ، ورأينا صاحب اليمامة يساوم ، وكانت موضع الردة هى وبنى حنيفة ، وقد تنبأ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك ، فكان منهم رأس الفتنة فى الردة ·

ثالثها : اننا رأينا أمراء العرب ، أو جلهم كانوا اكثر استعدادا للاجابة من غيرهم ، وأن النصارى منهم كانوا أميل الى الاجابة ، وأبعد عن التعنت ، وخصوصا الذين كانوا يعلمون علم الكتاب ، ويدرسون المسيحية فى أصـــلها الأول ، وان لم يكونوا غير مذكورين فى التاريخ ٠

وانه فى الجملة قد أخذت الدعوة الاسلامية تعم بلاد العرب كلها ، واذا كان قد أرسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ذلك مجاهدين ، فقد كان عملهم تعليم الاسلام ، كما ســنتكلم عن غزوات النبى صــلى الله تعالى عليه وسلم فى اليمن بقيادة على بن أبى طالب ، ومعاذ بن جبل رضى الله تعــالى عنهما ٠

لقد كانت الاستجابة سريعة ، والاجابة صادقة ، اذ لم يكن منهم من بعد ذلك ردة كأهل اليمامة ، وكان فيهم علم ٠

الـــــذمى

٥٨٧ ـــ جاء فى رد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على المنــذر ابن ســاوى عنــدما سأله عن اليهــود والمجوس ، الذين يريدون الاقامة تحت سلطانه ، ماذا يصنع بهم ٠

فذكر له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يبقيهم مع الاحتفاظ بشعائر دينهم ، والا يضاروا فى تدينهم ، على أن يدفعوا الجزية ٠

وقد تكلمنا فى الجزية بكلمات مجملة ، تليق بكتاب مكتوب فى ســيرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وان الذى يبقى فى ظل المسلمين مقدما للأمير المسلم حق الطاعة ، يسمى ذميا ٠

ذلك أن العهود التى يعقدها المسلمون اقسام ثلاثة :

أولها : العهد مع دولة غير اسلامية بهدنة ، أو عدم اعتداء ، كالعهــد الذى كان بين المشركين والمسلمين فى صلح الحديبية ، ويمكن عقده مع أى دولة أخرى غير دولة الشرك فى قريش ٠

وثانيها : عهد ســلم مع المسلمين ، بأن يجيبوا النبى صــلى الله عليه وسلم فى دعوته الى الاسلام او الحرب بان يرضوا العهد بدل القتال ، على أن يبقوا آمنين ، لا يعتدون على المسلمين ، ولا يظاهرون عليهم ٠

وثالثها : عهد يعطى للآحاد حق أن يقيموا مع المسلمين يكون لهم مالهم وعليهم ما عليهم ، وتطلق لهم حـــرية التدين ، واقامة شـــعائر دينهم غير مضارين ولا محاربين ، ويكونون فى الرعوية الاسلامية ، كما يعبر الكتـاب فى القوانين الدولية الآن ٠

وسمى هؤلاء ذميين ، لأن لهم ذمة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والنبى صـلى الله تعالى عليه وســلم يقول « من آذى ذميا ، فأنا خصمه يوم القيامة ومن خاصمته خصمته » ٠

ولقد كانت لهؤلاء الذميين رعاية خاصة احتفاظا بحرمات الأديان ٠

وقد قرر الفقهاء جواز عقد الذمة لليهود والنصـارى والمجوس ، وقـد عقد الذمة لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، بنص القرآن الكريم ، فقد قال تعالى فى ذلك : « **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حـرم الله ورسـوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد ، وهم صاغرون** » ٠

فثبت بهـذا أن أخذ الجـزية يعفيهم من القتال ، وقد شرحنا ذلك عنـد الكلام فى أخذ الجزية ٠

أما أخذ الجـزية من المجـوس ، وغيرهم كأهل الكتاب ، فى أن يكونوا ذميين وتؤخذ الجزية منهم فانه ثبت ذلك عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى كتابه للمنذر بن ساوى ، وفى غيره من الأخبار والأحاديث ٠

ومشركو العرب يقتلون أو يسلمون حتى لا يكون فى الأرض العربية دينان وتكون خالصة للاسلام والمؤمنين ، لأنها أرض الاسلام ، منها انبعث ، واليها يعـود ٠

بقى حكم الوثنيين غير العرب كالهنود وعبدة النجوم وكالبوذيين الذين يعبدون بوذا وتمثال بوذا الى غير هؤلاء ، فقد قرر أبو حنيفة وأصحابه أن الجزية تؤخذ منهم ، ويكونون ذميين ، وذلك بالقيـاس على المجوس ، لأنهم ليسوا أسوأ حالا من عبدة النار ، فليس عبدة الشمس بأسوأ من عبدة النار ، وكذلك غيرهم ، والى هذا الرأى نميل ٠

وان الذمة عقـد يثبت بالأمان والاقامة ، وهو يوجد التزاما على ولى الأمر من المؤمنين بأن يتركهم وما يدينون ، لا يضطهدون فى شـــعائرهم بل

يقيمونها ، وأن يعاملوا معاملة المؤمنين فى التمكين من الحياة وحمايتهم فى أنفسهم وأموالهم وحرماتهم ، وأنكحتهم ، وكل شـــئون أسرتهم فيما بينهم ، ولا يحرمون من حق وعليهم أن يلتزموا أولا بكل الأحـكام الاسلامية ، فتطبق عليهم العقوبات الاسلامية كاملة ، يطبق عليهم القصـــاص ، وتطبق عليهم الحدود كلها : حد السرقة ، وحد الزنى ، وحد القذف ، فيقام عليهم ان قذفوا محصنة أو محصنا من المسلمين ، ويحدون حد قطاع الطريق ٠

وتطبق عليهم الأحكـام الاسلامية فى المعاملات من بيوع واجـارة ، ومداينات ، ولا يأكلون الربا ، ويخضعون معاملاتهم لأحكام ربا البيوع ٠

وألا يظهروا مخالفة الشريعة الاســلامية معلنين ذلك بألا يقيموا بيوتا للأوثان أو النيران بين المسلمين ، وفى الجملة لا يظهرون بما قد يفتن المسلمين فى دينهم ٠

ولا يكون منهم أى خيانة للمسلمين ، فلا ينتموا لدولة غير اســـلامية تحارب الاسلام ، ولا يناصروها وان ذلك محادة للاســلام وأهله ، ويجب أن يكون ولاؤهم للدولة الاسلامية ، كولاء المسلمين لتحقق القاعدة الاســـلامية لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا ٠

ويلتزمون بألا يكون منهم سب للاســلام ٠ ولا للرســول صلى الله عليه وسلم ، ولا لأى أحد من صحابته ، فان كانوا فهم على عهدهم وأمنهم ، والا ينبذ اليهم ، ولا يقيموا فى ظل الاسلام ، أو ينالهم العقاب ٠

ويلتزمون بألا يلحقوا بدار الحرب ، والا كانوا أهل حرب ، ولا يكونوا أهل ذمة ٠

وفى الجملة يجب عليهم ما يجب على المســـلم على ســواء ، وقد قال أبو حنيفة لهم أن يشربوا الخمر ، وتكون مالا متقوما بالنسبة لهم ، بحيث اذا أراقه مسلم وجب عليه دفع قيمته ، والخنزير لهم أن يأكلوه ، وهو مال متقوم بالنسبة لهم ، واذا اعتدى مسلم وقتل حنزيرا عليه قيمته ، كما لو قتل شـاة لمســـلم ٠

وقال أبو حنيفة نكاح بعض المحرمات فى الاسلام صحيح اذا كانــوا يعتقدون صحته ، واذا ترافعوا الى القاضى المسلم فى نفقة زوجية بناء عــلى هذا النوع من النكاح حكم بها ، واذا ترافعوا بنسب كذلك حكم به ، وذلك تطبيق للقاعدة الفقهية أمرنا بتركهم وما يدينون ، ويجوز لولى الأمر المســلم أن يعين قاضيا من بينهم يقضى بينهم ٠

وإذا اتفقوا على أن يتحاكموا لدى القاضى المسلم حكم بينهم لقوله تعالى « **فان جاءوك فاحكم بينهم أو اعرض عنهم ، وان تعرض عنهم ، فلن يضروك شيئا** » ٠

وإذا كانوا يخاصمون مسلما ، لا يحكم بينهم الا القاضى المسلم ، حفظا لحق المسلم ، ولكمال الولاية عليه ٠ ولأنه لا ولاية لغير المسلم على المسلم ٠

وإذا كان خصمان من الذميين وطالب أحدهما أمام القاضى المسلم الزم الآخر عند بعض الفقهاء ، لأنه يكون كما اذا كان الخصم مسلما ٠ وقال آخر لا يلزم ٠ لأن له قاضيا يقضى بينهم ٠

وأحسب أن تعيين قاض لهم انما هو فى شئون الأسرة ، وأمور دينهم ٠

وأما ما يتعلق بالمعـــاملات العـامة كالبيوع والاجارات وغيرها فان القضاء فيها لا يكون الا للقاضى المسلم لتحقق المســـاواة الكاملة بينهم وبين المسلمين ٠

ومسألة جواز أن يشربوا الخمر ويأكلوا الخنزير ، هى رأى أبى حنيفة وحده ، لأنا أمرنا بأن نتركهم وما يدينون ، ولأن عمر بن عبد العزيز الحـاكم العـادل سأل الحســن البصرى : ما بالنا تركنا أهل الذمة يأكلون الخنـزير ويشربون الخمر ، وينكحون بناتهم ؟ قال الحسن البصرى ، على هذا اخـذنا الجزية انما أنت متبع لا مبتدع ٠

ولكن الجمهور الأعظم من الفقهـــاء منعوا ذلك ـ وذلك لأن لهم مالنا وعليهم ما علينا ٠ والحمد لله ٠

الفتح المبين

٥٨٨ ـــ هو فتح مكة المكرمة فى شهر رمضان حيث ابتدأ السير اليها فى العاشر منه ، ووصل اليها فى الليلة الثالثة عشرة منه ، وهو لم يكن فتح قتال ، بل كان فتح قلوب ، وأوسع فتح للدعوة الى الاسلام فما كان قتل وقتال الا خطأ ، ومن غير تدبير وتعمد من الصحابة الأولين ، بل كان أمنا وسلاما ، وتلاقى قلوب قد فرق بينها الجحود ، واستضعاف الضعفاء ، ومقاومة الايمان فلما دخل محمد صلى الله عليه وسلم مكة المكرمة ، وهو يقول أنا نبى المرحمة وأنا نبى الملحمة ألقى اليهم السلام والاكرام ، وتلاقت العشائر التى تخاصمت

ثم تهادنت ، ثم سالمت ثم آمنت وان هذا بلا شك كان نهـاية الفتح ، ولم يكن فى الظاهر ابتداءه ، بل كان الظاهر هو ارادة القتال ، اذ جاء النبى صـلى الله تعالى عليه وسلم عشرة آلاف من المجاهدين ، وما كانوا هازلين ، بل كانوا جادين ، ولكن عند التلاقى غمدت السيوف عن القتل ، وفتحت القلوب للدخول فى دين الله أفواجا أفواجا ٠

ولذا كان السؤال لم كان القتال ، وقد كان عهد لا ينقض الا بسبب من التزامات هذا العقد ، وما كان لرسول الله صـلى الله تعالى عليه وسـلم أن ينقض الا بأسباب منه لأن الله تعالى يقول « **فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم** » ولم يستقيموا ، فكان هذا خيانة ، فكان عليه أن يعمل بقول الله تعالى ، « **واما تخافن من قوم خيانة ، فانبذ اليهم على سواء** » ، ولم يكن ثمة خوف خيانة ، بل خيانة بالفعل فى جزاء من العقد ٠

والعقد كل يكمل بعضه بعضا ، فاذا دخل الغـدر جزءا منه ، فقد دخل النقض كله ، وفقد الالتزام من الجانب الآخـر كل الزام به ، اذ نقض الأول جزءا منه يبطله ، ولو كان العهد يبقى ملزما ، مع نقض جزئه ، لتوالى النقض على كل أجزائه ، فلا يبقى للعقد معنى ولا صـــورة ، ويذهب هباء منثورا ، وتتبدد أوراقه فى أدراج الرياح ٠

نقض قريش لصلح الحديبية :

٥٨٩ — هذا هو السبب الجوهرى ، لقد نقضـوا فقرة من فقراته ، فنقضوه كله ، على النحو الذى بيناه من أن كل عهد كل لا يتجزأ ، نقض بعضه نقض لكله ٠

ذلك أنه كان فى العقد أن من أراد أن يدخل فى عقد قريش وعهـــدهم دخل ، ومن أحب أن يدخل فى عقد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم دخل ، فيكون من يدخل فى عقد أحد الفريقين له حقوق العقـد ، وعليه التزاماته ، فدخلت خزاعة فى عهد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودخل بنو بكر فى عقد قريش ٠

وكان بهذا حقا على قريش الا تعتدى على خزاعة ، وكذلك على الرسول صلى الله عليه وسلم وكان ثمة بين بنى بكر وخزاعة احن جاهلية ، عدت فيها خزاعة على بنى بكر فقتلت ، وعدت مثلها على خزاعة فقتلت ، ثم كانت من بعد ذلك معركة ، كان الغلب فيها لخزاعة ٠

وكانت العداوة قائمة ، فلما جاء الاسلام وحاربت قريش النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والذين آمنوا ، شغلوا بحربه ، وكانوا على ضغن ٠

فلما كانت الهدنة ، كانت خزاعة تحس من قريش نفرة ومعاونة لعدوها ، فدخلت فى عقد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان بهذا العهد عليه حمايتها فى دائرة العقد ، وكان بنو بكر على وداد مع قريش فدخلوا فى عقدها ٠

كان صلح الحديبية مغريا بالانتقام اتخذه بنو بكر فرصة انتهزوها ، ولم يعلموه عهدا عليهم يلتزمون بمبادئه ٠

اعتدى بنو بكر على خزاعة ، ورفدتهم قريش بالسلاح ، ثم قاتلوا معهم مستخفين ليلا ، منهم صفوان بن أمية ، وحويطب بن عبد العزى ٠ ومكرز ابن حفص ٠

وما زالوا يقاتلون حتى انحازوا الى البيت ، وكان حقا عليهم أن يمنعوا القتال فى البيت الحرام الذى جعله الله حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ولكن قائدهم نوفل بن معاوية قاتل مع اعتراض بنى بكر ، اذ قالوا له يا نوفل انا دخلنا الحرم الهك ٠

فقال كلمة كبيرة ، بل فاجرة ، قال لااله اليوم ، يابنى بكر أصيبوا ثأركم فلعمرى انكم لتشرقون فى الحرم ، فلا تصيبون ثأركم فيه ٠

ولجأ بنو خزاعة الى داخل دار بديل بن ورقاء الخزاعى ودار مولى لهم كانت هذه مقتلة فاجرة ٠

وخرج رجل من بنى خزاعة اسمه عمرو بن سالم الخزاعى حتى قدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وبذلك حدثت أمور استوجبت أن يقف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع الذين فى عهده ضد بنى بكر ابتداء ، ومن أعانوهم ٠

لقد ارتكب بنو بكر خيانة العهد ٠ والقتال فى البيت الحرام ٠ وعاونتهم قريش فيما ارتكبوا من خيانة عهد واصابة للحرمات ٠

فما كان للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يسكت على هذا الضيم الذى ينزل بأهل عهده من أعدائهم ، وبمعاونة قريش ٠

خرج بديل بن ورقاء الخزاعى الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذى لجئوا الى داره فى نفر من خزاعة بعد عمرو بن سالم ، فأخبروه كما أخبره من قبل عمرو بن سالم بما أصيبوا به من بكر ، ومظاهرة قريش لهم ٠

وعاد بديل ، فالتقى بأبى سفيان وقد جاء يجس النبض ، ويطلب شد العقد ، ومد المدة ٠ وظن أبو سفيان أنه جاء للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

جاء أبو سفيان ، وقد أدرك كبر ما فعلت قريش ، وما كان قد تحرك لمنع هذا ، ولكن قد وقعت الواقعة ، ولعله لم يكن لما حدث كارها ٠

استمر أبو سفيان فى مسيره حتى التقى بابنته أم حبيب قادما للقاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

أراد أن يجلس على فراش رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فطوته ــ فقال يابنية ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ، فقالت : هو فراش رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنت مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس على فراشه ، فقال يابنية ، والله لقد أصابك بعدى شر ٠

ظن أن ابنته وهى زوج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد تكون شفيعا عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنها بادرته بما ألقى فى نفسه اليأس ، فالتمس الشفاعة عند غيرها ذهب الى أبى بكر ، فكلمه فى أن يكلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : ما أنا بفاعل ، ذهب الى عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فكلمه ، فقال عمر رضى الله عنه : أنا أشفع الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فوالله لو لم أجد لكم الا الذر لجاهدتكم به ، ترك عمر يائسا ، كما يئس من أبى بكر ٠

فذهب الى على بن أبى طالب ، وله به رحم ، فدخل على على وعنده الزهراء فاطمة بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعنده حسن ابنها غلام يدب بينهما ٠

قال أبو سفيان يا على انك أمس القوم بى رحما ، وأقربهم منى قرابة ، وقد جئت فى حاجة فلا أرجعن ، كما جئت خائبا فاشفع لى الى رسول الله ٠

قال على : ويحك أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ٠

التفت أبو سفيان الى الزهراء فاطمة فقال لها : يا بنت محمد هل لك أن تأمرى ابنك هـذا فيجير بين النـاس ، فيـكون سـيد العـرب الى آخـر الدهر ٠

قالت الزهراء فاطمـة : والله ما بلغ بابنى ذلك أن يجير بين النـاس ، وما يجير أحد على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

اتجه أبو سفيان مرة ثانية ، وقال له : يا أبا الحسن انى أرى الأمـور قد اشتدت على ، فانصحنى ، فقال على والله ما أعلم شيئا يغنى عنك ، ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك ٠

قال أبو سفيان أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئا ، قال على ، لا والله ما أظن ، ولكن لا أجد عملا غير ذلك ٠

قام أبو سفيان فى المسجد ، فقال : أيها الناس انى قد أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيره فانطلق حتى قدم على قريش ، وقد أحسـوا كبر ما فعلـوا ، وحمق ما صنعوا سألوه ، فأخبرهم بأن أحدا لم يردوا عليه شيئا ، لا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا أبو بكر ولا عمر ، ثم ما أشار به على من أنه أجير بين يدى الناس ، فسألوه هل أجاره النبى صلى الله عليه وسلم ٠ قال : لا ٠

ذل الغـــدر

٥٩٠ ـــ غدرت قريش فى عهـدها ، وما كان لهـا ذلك ، وجـاء أبو سفيان كبيرها يستغفر للخيانة التى لم يمنعها وأراد عجبا ، أن يمنع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أن يحمى من دخلوا فى عهده ، وأن يتركهم من غير أن يحميهم عهدهم ، وتشفع بابنته ، فما شفعت وتشفع بأبى بكر فامتنع امتناعا قاطعـا ، وان كان هادئا كطبعـه رضى الله تبارك وتعـالى عنه الا فى الشديدة ، وتشفع بعمر فرده ردا عنيفا ، وتشفع متوسلا بالرحم لعلى فما شفع هو ولا الزهراء فاطمة ، وقالت كلمة حاسمة لا يجار على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وكأن عجبا أن يجير على قريش كلها ، ليكون لها أمان من الغزو ، لأنـه شعر بالجريمة وقعت منها كلها ، واذا كانت حرب فعليها كلها ٠

ونقول انه قد جاء لتوثيق العهد وزيادة المدة ، وأن ذلك يتضـمن بلا ريب

الغـاء العهد السابق وما اشتمل عليه ، وربما توهم أن ذلك ربمـا يسـقط الغدر الأول ، ولعله ظن أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يعلم غـدرة قريش التى تعـد فسخا للعقد ، فلما رأى أن الخزاعى سبقه وأخبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن بد من أن يطلب الأمـان لقريش · ولكن لم يجب ·

وروى موسى بن عقبة أن أبا سفيان دخل على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قبل أن يدخل على أبى بكر وعمر وعلى · وقال له : « يا محمـد شـدد العقد وزدنا فى المدة ، فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولذلك قدمت ، هل من حدث قبلكم ؟ قال معاذ الله ، نحن على عهدنا ، لا نغير ولا نبدل » ·

ثم ذهب على الصحابة أبى بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، الى أن وصل الى على ، فلان معه المجاهد الأول بعض اللين ·

وقد صرحت هذه الرواية بأنه ذهب الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليأخذ منه اقرارا على ما قال فى المسجد ، فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم بعـد أن قال أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة – ردا على قوله ما أظن أن تخفرنى – أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة ·

وقد عاد الى قومه فاستخفوه اذ قص عليهم خبر الرحلة ، وقالوا له : رضيت بغير رضا ، وجئتنا بما لا يغنى عنا ولا عنك شيئا ، وانما لعب بك على لعمرو الله ما جوارك بجائر ، وان اخفارك عليهم لهين وحدث امرأته بحـديث الرحلة ، فقالت له : « قبحك الله من وافد قوم فما جئت بخير » ·

الاستعداد للفتح

٥٩١ ـــ كان لابد اذن من اللقاء ، وروى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن صنعت ما صنعت قريش بمن فى عهده اعتزم أن يذهب الى مكة المكرمة بالفتح المبين ، وقال صـلى الله تعالى عليه وسلم : والله لأغـزون قريشا ، قالها ثلاث مرات ، على ما روى ·

آذن أصحابه بأن يتجهزوا للذهاب الى مكة المكـرمة ، وأمرهم بالجـد والتهيؤ وقال : « اللهم خـذ العيـون والأخبار عن قـريش ، حتى نبغتها فى بلادها » ·

ولقد أخطأ بعض الصحابة ممن حضروا بدرا ، وله فى الجهاد مقام خطأ

يعد فى نظر الحرب والجهاد خيانة أو خطيئة ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم الحكيم الواسع العقل والصدر عفا عنه ، بعد أن أبطل عمله ·

بينما النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يضرع الى ربه أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش ، أراد بعض الصحابة أن يكون عينا لقريش يخبرها ·

كتب حاطب بن أبى بلتعة كتابا الى قريش يخبرهم بالذى أجمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الأمر بالسير اليهم · وأعطى كتابه امرأة وأوصاها باخفائه ، وجعل لها جعلا حتى تبلغه قرشياً ، فجعلته فى رأسها وفتلت عليه ضفائرها فى قرونها ، ثم خرجت به ·

وأوحى الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بما فعل حاطب ، وفعلت المرأة فبعث اثنين من أخلص حوارييه شابين نشأ فى طاعة الله والجهاد فى سبيله ، وهما على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ·

فخرجا حتى أدركاها بالخليفة ، فاستنزلاها من فوق البعير الذى تركبه ، فالتمسا الكتاب فى رحلها فلم يجداه ، فقال على فى حزم انى أحلف بالله ما كذب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا كذبنا ؛ ولنخرجن هذا الكتاب ، أو لنكشفنك ، فلما رأت منه الجد قالت لعلى أعرض فأعرض ، فحلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته اليه ·

فذهبا بالكتاب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهنا نجد الرسول صلى الله عليه وسلم القوى يسأل عن مسوغ لهذه الخيانة ، فيقول فى رفق القوى ، ورحمة الحليم ·

يا حاطب ما حملك على هذا ـ لم يجابهه بالخيانة ، ولكن طلب اليه مسوغا ، ان كان لمثل هذا مسوغ ، ولكن الكريم الحليم القوى أراد أن يقدم اعتذارا عما فعل من غير أن يبادره باللوم والتعنيف ·

أجاب حاطب عن هذا السؤال وقد أحس بالضمير يؤنبه : يارسول الله أنا والله مؤمن بالله ورسوله ما غيرت ، ولا بدلت · ولكنى كنت امرأ ليس لى فى القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم وفود وأهل فصانعتهم عليه ·

لا شك أن الجواب لا يبرر العمل ، ودل على شىء غير قليل من الضعف النفسى ، فوفوده وأهله بينهم من قبل الحديبية ، ولعلهم وصلوا الى مكة المكرمة فى مدتها ، وفى كلتا الحالين ، ما كانت البواعث الشخصية مسوغة مخالفة

النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو القائد الأعلى ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولا تعريض الجيش للأذى ، والاستعداد له ومواجهته ، وقد تدول الدولة لأعدائه ·

ولذلك لم يستسغ عمر رضى الله عنه ذلك ، بعد أن لم يستسفه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولذلك قال عمر رضى الله تعالى عنه : يارسول الله دعنى فلأضرب عنقه ، فان الرجل قد نافق ، ولكن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الذى لم يستسغ ذلك العذر ، خالف عمر ، وقال معتذرا عن حاضره بماضيه فى بدر ما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع على أصحاب يوم بدر ، فقال اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم ·

ما يرد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن فعلته التى فعلها ، ولكنه يلومه فى عبارات رقيقة عاطفة أن ماضيه ينهاه عن حاضره ، وأظن أن ذلك القول ، أروع من قول الفاروق عمر ·

ولقد قالوا انه نزل فيه قوله تعالى : « **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول واياكم ، أن تؤمنوا بالله ربكم ، ان كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى ، وابتغاء مرضاتى ، تسرون اليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم ، فقد ضل سواء السبيل ، ان يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ، ويبسطوا اليكم ايديهم والسنتهم بالسوء ، وودوا لو تكفرون ، لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم ، والله بما تعملون بصير ، قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه ، اذ قالوا لقومهم انا براء منكم ، ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده ، الا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك ، وما أملك لك من الله من شىء ، ربنا عليك توكلنا ، واليك أنبنا ، واليك المصير** » ·

واذا كان ثمة أمر يسهل أن يرتكب الصحابى البدرى ذلك ، فليس هو النفاق ، ولكن المدة التى سهلت الالتقاء أحيت ما كان من مودة قديمة ، فسال سيله فى طريقها حتى وقع فى هذا الخطأ ، بل الخطيئة ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قد جعل ماضى أمره مسقطا لذنب حاضره وهو الرسول صلى الله عليه وسلم المؤلف بين القلوب ، الجامع لها ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم ·

خـــروج الرســول صلى الله عليه وسلم

٥٩٢ ـــ خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ماضيا لسفره ، واستخلف عـلى المدينة المنورة أبـارهم كلثوم بن حصـين بن عتبة بن خلف الغفارى ، وذلك ليعلم الناس أنه لا تفاوت فى الولاية بالنسب ، فقد ولى من الأنصار والمهاجرين من بطون قريش وغيرهم ٠

خرج صلى الله تعالى عليه وسلم لعشر ليال من رمضان ، وصام وصام النـاس ، حتى اذا كـان بالكديد أفطر ـ لأنه صـار على سفر ، ولأنه رخص للمسافر أن يفطر ، وقد قال الله تعالى : « **وان كنتم مرضى أو على سفر فعدة من أيام أخر** » ٠

وان الله يحب أن تؤتى رخصه ، كمـا تؤتى عزائمه ، والسفر قطعة من العذاب فى الصحراء العربية وحال الجهاد تجعل الفطر قوة فيه ، وكل مـا يؤدى الى القوة فيه يكون مطلوبـا على قـدر هذه القوة ، ويظهر أن بعض المؤمنين تحرجوا من أن يفطروا فى رمضان ، فدعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بانـاء فشرب نهارا ليرى الناس ، فأفطر حتى قـدم مكة المكرمة مفطرا ٠

سار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى لقيه فى الجحفة عمه العباس بن عبد المطلب ، مهاجرا هو وأهله ، وقد كان اسلامه سابقا على ذلك ، وبقى على السقاية فى الكعبة الشريفة ٠

ولقيه عليه الصلاة والسلام فى الطريق بعض ذوى قرابته ، أبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة ، فالتمسا الدخول عليه فكلمته أم سلمة ، وكـان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا مودة وخير دائما ، فقالت له ابن عمك وابن عمتك وصهرك يارسول الله ، قال : « لا حاجة لى بهما ، أمـا ابن عمى ، فهتك عرضى ، وأما ابن عمتى وصهرى فهو الذى قال لى ما قال بمكة » ذلك أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما دعا الى ربه قال له : « والله لاآمنت لك حتى تتخذ سلما الى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر ، ثم تأتى بصك وأربعة من الملائكة يشهدون بأن الله تعالى أرسلك » ٠

وأصر رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم على عدم الاذن لهمـا ، فلما خرج اليهما الخبر ، قال أبو سفيان ابن عم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه ابن صغير له فقال والله ليأذنن لى أو لآخـذن بيد بنى هـذا ، ثم لنذهبن فى الأرض ، ثم نموت عطشا وجوعا ، فرق لهما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لرحمهما ، ولأنهما قد رقا للاسلام ، والاسلام يجب ما قبله ٠

قريش تتحسس الأخبار

٥٩٣ ـــ مضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى نزل مر الظهران في عشرة آلاف من المسلمين ، وفي رواية في اثني عشر ألفـا ، وقد عميت الأخبار عن قريش ، ولكنهم يظنون الظنون لنقضهم العهد الذي كان بينهم وبين الرسول صلوات الله وسلامه عليه ٠

لم يحسوا بأمر ، ولكنهم يتوقعون أمرا ، فخرج في تلك الليالي أبوسفيان ابن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء الخزاعي ، يتحسسون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبرا ٠

ويلاحظ من ذلك أن الثلاثة يختلف اثنان فيهم عن الثالث ، لأن بديلا هو الذي ذهب الى النبي صلى الله تعـالى عليه وسلم يستنصر بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم لخزاعة ، اذ عاونت قريش بني بكر في قتالهم لخزاعة ، حتى جاوزوهم الى البيت الحرام فما امتنعوا ، فلعل الجميع كانوا يتحسســون ، ولكن اختلفت الغاية عندهم ٠

وفي الوقت الذي كانت قريش تتحسس أخبار النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان العباس بن عبد المطلب الودود المسالم يريد أن يرسل الى قريش من يعرفهم مكان النبي صلى الله تعـالى عليه وسلم ليجيئوا اليه مستأمنين لكيلا يكون قتـال بل يكون أمن وسلام ويقول رضي الله عنه من جراء محبتـه لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : والله لئن دخل رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم مكة المكرمة عنوة قبل أن يأتوه ، فيستأمنوه ، انه لهلاك قريش الى آخر الدهر ٠

ركب بغلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم البيضاء وأخذ يتلمس الحطابين ، أو ذوي الحاجات الذين يسيرون في الصحراء ليجد من يخبر أهل مكة المكرمة ٠

وبينا هو في سيره متحسسا سمع صوت أبي سفيان ، ولنترك له رضي الله عنه ، يحكي كيف كان لقاؤه مع صديقه المشرك أبي سفيان ، وهو المؤمن فهو يقول :

واني لأسير عليها (بغلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم) ، اذ سمعت كلام أبي سفيـان ، وبديل ابن ورقاء وهما يتراجعان ، وأبو سفيـان يقول مـا رأيت كالليلة نيرانا قط ، ولا عسكرا ٠ قـال بديل هذه والله خزاعة

حمستها (أى ألهبتها) ٠ قال أبو سفيــان خزاعة أذل من ذلك وأقل أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ، فعرفت صوته فقلت يا أبا حنظلة فعرف صوتى فقال أبو الفضل ، قلت نعم ، قال مالك فداك أبى وأمى : قلت ويحك يا أبا سفيان ، هذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الناس ، واصباح قريش ، والله قال فمــا الحيلة ، فــداك أبى وأمى ، قلت والله لئن ظفر بك ليضربن عنقــك : فــاركب فى عجز هذه البغلة ، حتى اتى بك رسول الله فأستــأمنه لك ، فركب خلفى ، ورجع صاحبه ، فجئت به ، كلمــا مررنا بنــار من نيران المسلمين ، قالوا من هذا فاذا بغلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنا عليها ، قالوا هذا عم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على بغلته ، حتى مررت على عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال من هذا ، وقام الى ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة ، قال : أبو سفيان عدو الله ، الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتــد نحو رسول الله صلى الله تعــالى عليه وسلم ، وركضت ، فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطىء فاقتحمت عن البغــلة فدخلت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودخل عليه عمر ، فقــال يا رسول الله هذا أبو سفيان ، قد أمكن الله تعالى منه بغير عقد ولا عهــد ، فدعنى فلأضرب عنقه ، قلت يارسول الله ، قد أجرته ، ثم جلست الى رسول الله صــلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخذت برأسه فقلت والله لا يناجيك الليلة ، دونى رجل ، فلما أكثر عمر فى شأنه (أى أبى سفيان) قلت مهلا يا عمر ، فوالله لو كان من بنى عدى بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف ٠ فقال مهلا يا عبــاس ، فوالله لاســلامك يوم أســلمت كان أحب الى من اســلام الخطاب لو أسلم ، وما بى الا أنى قد عرفت أن اسلامك كان أحب الى رســول الله من اسلام الخطاب ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذهب بــه يا عباس الى رحلك ، فاذا أصبحت فأتنى به ، فذهبت به الى رحلى ، فلما أصبح غــدوت به الى رســول الله صــلى الله تعالى عليه وســلم فلما رآه ، قال ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا اله الا الله ٠ قال أبو سفيان بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ؛ والله لو قد علمت أن معه الها غيره لقد أغنى عنى شيئا بعد ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ، قال أبو سفيان ، أما هذه والله فان فى النفس منها حتى الآن شيئا ، فقال العباس ويحك أسلم واشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رســول الله قبل أن تضرب عنقك فشهد شهادة الحق ، فأسلم ٠

قلت يارسول الله ان أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا قــال نعم :

قال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الذى يحب حقن الدماء ٠

من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ٠

فلما ذهب أبو سفيان لينصرف قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم احتبسه عند خطم الجبل (أنف الجبل) حتى تمر به جنود الله تعالى فيراها ٠

فحبسه ، حتى مرت به الرايات كل قبيلة على رايتها ، وكلما مرت قبيلة ، قال يا عباس ما هذه القبيلة ، وأخذ يسأل عنهم قبيلة قبيلة ، حتى مرت قبيلة رسول الله صلى الله تعالى على وسلم برايته الخضراء ، فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم الا الحدق من الحديد ، فقال سبحان الله من هؤلاء ؟ قلت رسول الله فى المهاجرين والأنصار ، قال أبو سفيان مالأحد بهؤلاء ، والله يا أبا الفضل قبل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما ، قال العباس يا أبا سفيان انها النبوة ، فقال نعم اذن ٠

٥٩٤ ــ ذكرنا هذا الحديث بطوله ، لأنه التقاء صديقين كلاهما يتحسس الأخبار لحماية مكة المكرمة من الحرب ، فالعباس رضى الله عنه يتحسس ، ليرسل لقريش يحرضهم على أن يستأمنوا لأنفسهم من جيش الايمان لكيلا تكون حرب فى الحرم ، ولتحمى قريش نفسها لا بالحرب ، ولكن بالايمان ، أو الأمان ٠

وأبو سفيان يتحسس الأخبار ، لأنه توجس خيفة بعد الغدر ، وتوقع من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم عملا لحماية من دخلوا فى عهده ، ولأنه أصبح فى حل من الصلح الذى صالحوه عليه ، اذ نقضوه من جانبهم ، فهو عليهم رد ولا سبيل لأن يدفعوا بعهد نقضوه ٠

التقى الصديقان ، وكان لقاء فيه خير ، اذ انتهى باسلام ابى سفيان ، وضمه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، بعد أن أرضى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وقد بذل العباس فى ذلك جهدا ، خصوصا عندما اشتد عمر رضى الله تعالى عنه ، وما كنا لنقر العباس رضى الله عنه فى قوله لعمر لو كان من عدى ما وقف فى هذا ، فعمر لا يمكن أن يؤثر قرابة فى قول الحق ، وهو الذى قال فيه صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان الله كتب الحق على لسان عمر وقلبه » ٠

ومهما يكن من تلك الكلمة ، فان العباس رضى الله تعالى عنه ، قد

كانت سياسته حكيمة فى ضم أبى سفيان ، فانه كان له اثر فى حقن الدماء ، ومنع الحرب •

لقد قال من بعد ذلك العباس لأبى سفيان يحرضه على السرعة فى الذهاب الى قريش يسكنها قال له النجاء الى قومك ، أى السرعة المنجية •

فلما جاءهم صرخ باعلى صوته : يا معشر قريش قد جاءكم فيما لا قبل لكم به . فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، قالوا له قاتلك الله ، وما تغنى عنا دارك . قال ناقلا عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن اغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد ، فهو آمن •

وبهذا تهيأت النفوس للاسلام الا بعض الذين أكل الحقد قلوبهم ، وسيطر عليهم النزع الجاهلى ، ولم ينظروا الى ما هو امامهم ، بل التفتوا الى ما وراءهم ، ولكنهم مع ذلك لم يجعلوها حربا ، لأن الله تعالى • اراد السلام وقصد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يدخل البيت معظما مشرفا ، زاده الله شرفا وتعظيما •

اللقـــاء

٥٩٥ ـــ لم نقل المعركة ، ولكن قلنا اللقاء ، لأنه لقاء التصفية وتنقية القلوب من ضغائنها ، وتلاقى النفوس على المرحمة بعد الملاحم ، ومن يقدر على ذلك الا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذى أرسله رب العالمين الذى الف بين قلوبهم القائل تعالت كلماته : « **واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم ، فاصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار ، فانقذكم منها** » •

دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا دخول المقاتل ، ولكن دخول المسالم الذى يريد أن يفتح القلوب للايمان ، فكان على احد جانبى الجيش الزبير بن العوام ، وعلى الجانب الآخر خالد بن الوليد ، وعلى المهاجرين ابو عبيدة عامر بن الجراح ، والجميع متجهون صوب مكة المكرمة ، من شمالها الزبير بن العوام بمن يقودهم ، ومن جنوبها خالد بن الوليد بمن يقودهم ، ومن الشمال الغربى ابو عبيدة بالمهاجرين ومن الغرب سعد بن عبادة يقود الأنصار •

وكانت أوامر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الا يقتلوا ولا يقاتلوا ، فما دخلوا لحرب ولكن لأجل اقرار السلم ٠

ولكن علم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو فى كتبته أن أوشاب قريش أو بعضهم ليسوا من كبرائهم ، ورأى أن هؤلاء قد يشوهون وجه الملقاء ، فنادى أبا هريرة اهتف بالأنصار ، ولا يأتين الا أنصارى ، فأمر الأنصار بأن يحصدوهم حصدا اذا وجدوا منهم أمرا يخرج المجاهدين السالمين عن سلمهم ٠

ركزت راية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عند الحجون ٠

لقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حريصا على أن يبعد كل نزعة الى الحرب ، ويبعد صاحبها ولو كان عنده من المقربين الذين أيدوه بنصرهم ، والناس عنه معرضون ٠

قال سعد بن عبادة حامل راية الأنصار عندما مر على أبى سفيان ، أو جعل شعاره : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمات » فقال عمر ابن الخطاب : أتسمع ٠ وقال عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف يا رسول الله ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة ، وقال صلى الله تعالى عليه وسلم : بل اليوم يوم تعظم فيه وتعز فيه الكعبة الشريفة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشا ، ثم أرسل على بن أبى طالب لينزع منه الراية ، وفى رواية أنه أعطاها عليا ، وفى رواية أعطاها الزبير بن العوام ، والرواية المشهورة أنه أعطاها قيس بن سعد ابن عبادة ، لكيلا يكون فى نفس سعد بن عبادة شىء من نزعها ، اذ أنها أعطيت لابنه فأخذت منه اليه ، ولأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يريد الا يحمل راية الأنصار الا أنصارى لتكون حمية الأنصار وليكون لهم مقام الفتح برجالهم وبقيادتهم ، والرواية التى تقول انه عليه الصلاة والسلام أعطاها عليا ، قامت على أن عليا هو الذى نزعها منه ، ولعل الزبير هو الذى أعطاها قيسا ، بأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبذلك تتلاقى الروايات الثلاث : وتكون الراية انتهت الى ابن سعد ٠

دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة المكرمة :

٥٩٦ — دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة المكرمة ، ومعه لواء أبيض ، وعليه عمامة سوداء وهو يقرأ سورة الفتح وهو راكب على ناقته ، وكان يرجع فيها ، فهو يترنم بها ، ويرجع كلماتها مستطيبا ألفاظها ومعانيها ، وقد خفض رأسه متواضعا لله تعالى ، ولما انتهى الى ذى طوى المتجر

بشقة بردة حبرة حمراء ، وان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليضع رأسه تواضعا لله تعالى ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى غثنـونه لتكاد يمس الرجل ٠

ويروى أن رجلا كلم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم الفتـح فأخذته الرعدة ، فقال الرسول الذى يزيده التواضع عزا ، أو كما قال : « هون عليك ، فانما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » ٠

وان العزيز الكريم لا تزيده القوة الا تواضعا ، يقول فى ذلك ابن كثير « وهذا التواضع فى هذا الموطن عند دخوله مكة المكرمة فى مثل هذا الجيش الكثيف العرمرم بخلاف ما اعتمده سفهاء بنى اسرائيل حين أمروا أن يدخـلوا باب بيت المقدس ، وهم سجود أى ركع يقولون حطة ، فدخلوا يزحفون عـلى أستاههم وهم يقولون حنطة » ٠

وأنى يكون بنو اسرائيل الذين تطغيهم النعمة من محمد الكريم صلى الله عليه وسلم ، الذى تدفعه النعمة الى التواضع ، فيقوم بحقها وشكرها ، فشكر كل نعمة ، نعمة من نوعها ، فشكر القوة الرفق والعدل ، وشكر الرفعة التواضع ، وقد رفع الله تعـالى نبيـه ، بمـا لم يرفـع به رجـل فى العـرب ، وبما لم يرفع به نبى فى أمته ، فكان هذا التواضع الكريم الذى زاده عزا ٠

وقد دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أعلى مكة المكرمة من كداء ، وهو أصح الروايات ، كما جاء فى البخارى ٠

اســلام أبى قحافة :

٥٩٧ -- وقف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذى طوى ، ولم يكن أبو بكر قد التقى بأبيه أبى قحافة منذ هاجر الا أن يكون قد زاره فى عمرة القضـاء ٠

وكان قد أصيب فى عينيه ، فكف بصره ، فكان يرى الرؤية الكاملة بابنتـه أصغر أولاده ، فلما وقف عند ذى طوى ، وقف أبو قحافة على جبل أبى قبيس ، فقال : أى بنية ماذا ترين ؟ قالت أرى سوادا مجتمعا قال : تلك الخيل ، قالت وأرى رجلا يسعى بين ذلك السواد مقبلا مدبرا ، قال أى بنية من ذلك الوازع (الذى يأمر الخيل ويتقدم اليها) ثم قالت قد والله انتشر السواد ، فقال قـد والله اذن دفعت الخيل ، فأسرعى بى الى بيتى ، فانحطت به ، وتلقاه الخيل قبل

أن يصل الى بيته ، وفى عنق الجارية طوق من ورقة (فضة) فيلقاها رجل ، فيقتطعه من عنقها ٠

فلما دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة المكرمة ودخل المسجد اتى أبو بكر بأبيه (أبى قحافة) يقوده ، فلما رآه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « هلا تركت الشيخ فى بيته ، حتى اكون انا اتيه ، قال يا رسول الله هو أحق أن يمشى اليك من أن تمشى انت اليه ٠

أجلس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أبا الصديق ، ثم مسح على صدره ، ثم قال : أسلم ، فأسلم ، ثم قام أبو بكر ، فأخذ بيد أخته الصغيرة يسألها عن طوقها ، ولما علم أنه خطف منها ، أنشد المسلمين بالله والاسلام طوق أخته ٠

فقال الصديق معزيا أخته الصغيرة فى قرطها ، ان الأمانة اليوم قليل ، فاحتسبى طوقك هذا هو الرفق ، ان الطوق الفضى أحب اليها فى سنها ، فواساها الصديق فيه رفقا ومحبة ، ولقد هنأ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أبا بكر صاحبه فى الغار باسلام أبيه ٠

قتال فى جوانب من مكة المكرمة :

٥٩٨ ـــ نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن القتال ، ولكنه لم ينه عن الدفاع ، وقد ذكر أن أهل مكة المكرمة قد رضوا بالمسالمة والسلام ، واطمأنوا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الا الذين بقوا على جاهليتهم ولم يذوقوا حب الايمان أو أن فيهم الحقد الدفين ، والرغبة فى الثأر ـ لا يريدون سلاما ، ولكن يريدون حربا وخصاما ، ولم يؤخذوا بالقوة ، بل جحدوا بها ، كما جحدوا هم وآباؤهم بالحق اذ جاءهم ٠

فهؤلاء المتطرفون فى عداوتهم قد تجمعوا مع بنى بكر الذين كانت مناصرتهم سببا لخرق العهد ، وقد تجمعوا فى منطقة الخندمة ، فلما وصلها خالد ومن معه أمطروها وابلا من النبل ، فاضطر خالد ان يقاتلهم حتى فرق جمعهم ، وكانوا عددا قليلا يسهل تفريقه ٠

وأسلست قريش القياد ، ولم تنفر ، ورضيت بالبقاء ، ولم يقتل من أصحاب خالد الا اثنان قد ضلا وشذا بالانفراد ، فيظهر أنهما قد تمكن الأعداء منهما ، وكان فى الذين هاجموا خالد بن الوليد بالنبل ، صفوان بن أمية

وعكرمة بن ابى جهل فانطلقا خارجين الى البحر ، ولم يقبلا ان يقيما مع محمد صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة أو تحت سلطانه ٠

بعد أن انهزم صفوان ، اتجه الى جدة ، فقد روى ابن اسحاق خـــرج صفوان بن امية يريد جدة ليركب منهـا الى اليمن ، فقـال عمير بن وهب : يا نبى الله ، ان صفوان بن أمية سيد قومه ، وقد خرج هاربا ، ليقذف نفسـه فى البحر ، فأمنه صلى الله عليه وسلم ، قال هو آمن ، قال يا رســـول الله ، فأعطنى اية يعرف بها أمانك ، فأعطاه رسول الله صلى الله تعالى عليه وســلم عمامته التى دخل بها مكة المكرمة ، فخرج بها عمير حتى أدركه ، وهو يريد أن يركب فى البحر، فقال يا صفوان فداك ابى وامى ، الله الله فى نفسك أن تهلكها ، فهذا أمان من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد جئتك به ، قال : ويلك اغرب عنى فلا تكلمنى : قال ٠ أى صفوان ، فداك ابى وامى ، افضل النـــاس وابر الناس ، وأحلم الناس وخير الناس ابن عمك ، عزه عزك ، وشرفه شرفك ، وملكه ملكك ، قال : انى اخافه على نفسى ؟ قال هو احلم من ذلك وأكرم ، فرجع معه حتى وقف به على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال صفوان : ان هذا يزعم انك قد امنتنى ، قال : رسول الله صلى الله تعالى عليه وســلم ، صدق قال : فاجعلنى فيه بالخيار شهرين قال : اربعة اشهر ، هذا هو محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى خلقه ، الرفيق اللين فى قوته المتواضع فى عزته يرجو العربى العنيف ، ليستأمنه فيؤمنه ، ولكنه يشترط لقبول الأمان الخيار شهرين ٠

ولقد جاءت الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أم حكيم زوج عكرمة ابن ابى جهل فأسلمت ، فاستأمنت لزوجهـا عكـرمة فأمنه ، وكان قد سـبق صفوان ، الى اليمن وتخلف صفوان كما ذكرنا ، فلحقت به الى اليمن ، فجاءت به فلما أسلم عكرمة بقيت معه زوجه أم حكيم ، وكذلك كانت فاطمة بنت الوليد زوجا لصفوان بن امية ، فلما أسلم بقيت زوجه ٠

وقد بقيتا بالزواج الأول ، وذلك أن من تسلم زوجه ، وهو كافر يعرض عليه الاسلام ، فان أسلم بقيت الزوجية كما هى من غير عقد جديد ، وذلك لأن الفرقة لا تكون بسبب الاسلام ، وانما تكون بسبب اباء الزوج الاســلام بعد العرض عليه ٠

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عندما بلغه القتال الذى كان بين خالد بن الوليد أرسل اليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ينهاه عن القتال ، فانتهى ، وروى أنه لم يقتل من المشركين الا بضعة عشر من الرجال ٠ وان مبدأ من دخل داره فهو آمن قد طبقه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم يقتل

رجلا أغلق عليه داره ، وانه يذكر فى ذلك أن اثنين من أحماء أم هانىء بنت أبى طالب أخت على بن أبى طالب رضى الله عنهما لجأ فتبعهما على لأنهما لم يغلقا دارهما ، عليهما ، وفرا الى أم هانىء ، ليقتلهما ، ولكنها أغلقت عليهما باب بيتها ، وعلى يريد قتلهما فى دارها ، وأمام اصرار على رضى الله تعالى عنه ذهبت أم هانىء الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأعلى مكة المكرمة فوجدته يغتسل ، وفاطمة ابنته تستره بثوبه ، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به ، ثم صلى ثمانى ركعات ، ثم انصرف الى أم هانىء فقال : مرحبا وأهلا ، يا أم هانىء ، ما جاء بك ، فأخبرته خبر الرجلين ، وخبر على ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : أجرنا من أجرت ، وأمنا من أمنت ، فلا يقتلهما ٠

دخول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المسجد الحرام :

٥٩٩ ــ دخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم البيت الحرام بعد أن ركز رايته بالحجون ثم نهض والمهاجرون والأنصار يحيطون به بين يديه ومن خلفه وحوله ، فأقبل الى الحجر الأسود ، فاستلمه ، ثم طاف بالبيت وعليه قوس ، وحول البيت ستون وثلاثمائة صنم ، وهى متماسكة ، فجعل يطعنها بالقوس ، ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا ، وما يبدى الباطل وما يعيد ، والأصنام تتساقط على وجوهها بمجرد اصابتها بقوسه ، حتى أتى عليها جميعا تنكيسا ٠

وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يطوف على راحلته ، ولم يكن ذلك محرما ، واقتصر فى دخوله على الطواف ٠

ولقد جاءه على كرم الله وجهه ومعه مفتاح الكعبة الشريفة ، وأعطاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وطلب أن يعطيهم الحجابة ، والسقاية معهم فى يد العباس رضى الله تبارك وتعالى عنه فدعا عثمان بن طلحة ، فأعطاه المفتاح ، وعثمان هذا هو ثالث الثلاثة الذين أسلموا فى رحلة واحدة ، هم عثمان بن طلحة هذا وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ٠

وأمر بالكعبة الشريفة ففتحت ودخلها ، ورأى فيها جملة من الصخور منحوتة فى الصخر ، ورأى فيها صورة ابراهيم ، واسماعيل يستقسمان بالأزلام وهى منحوتة أيضا ، فقال قاتلهم الله ، والله ان استقسما بها قط (أى ما استقسما) ورأى فى داخل الكعبة الشريفة حمامة من عيدان فكسرها ، وأمر بالصور فمحيت كلها ، ثم أغلق الباب على نفسه ، وعلى أسامة وبلال فاستقبل الجدار الذى يقابل الباب ، حتى اذا كان بينه وبينه قدر ثلاثة أذرع ، وقف وصلى ٠

ثم دار فى البيت وكبر فى نواحيه ، وفتح الباب ٠

وقد خرج من باب الكعبة الشريفة ، وكانت قريش قد ملأت المسجد ينتظرونه ، فخرج اليهم من محراب الله وكانه مقبل عليهم من عند رب البيت ، الذى جعله حرما امنا ، والناس يتخطفون من حولهم ٠

وقد دهشوا ، يتعرفون ماذا يصنع ٠

فاخذ بعضادتى الباب وقال : لا اله الا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، الا كل ماثرة أو مال أو دم فهى تحت قدمى هاتين الا سدانة البيت ٠ وسقاية الحاج ٠ قال وقتل العمد ٠ وشبه السوط والعصا ، فيه الدية مغلظة ، فانه من الابل اربعون منها فى بطونها أولادها ٠

يا معشر قريش ان الله تعالى اذهب عنكم نخوة الجاهلية ٠ وتعظمها بالآباء الناس من ادم وادم من تراب ، ثم تلا الآية « **يايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير** » ٠

العفو الكريم الشامل :

٦٠٠ ـــ « **خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين** » بهذا الأمر الربانى اخذ نبى الرحمة وأعظم عفو راه الوجود الانسانى هو عفو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن أهل مكة المكرمة ، لقد اضطهدوه منذ البعثة وهو فى الأربعين واستمر أذاهم غير مقطوع ، حتى ذرف فى الستين ، لا ينون عن ايذائه ، ثم قتاله ، ثم الدس الخبيث له ولرجاله فلما غلب وتغلب بعد اكثر من عشرين سنة ، لم يقل ويل للمغلوب ، كما يقول ساسة هذا الزمان بل قال : مرحبا بالأخوة : وعفوا عما مضى ، وان تنتهوا يغفر لكم ماقد سلف ٠

قال صلى الله تعالى عليه وسلم لقريش وهم صفوف ينتظرون كلمته فيهم فقال لهم : يا معشر قريش ما تظنون انى فاعل بكم ٠

قالوا اخ كريم وابن اخ كريم ٠

قال فانى أقول لكم كما قال يوسف لاخوته لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ، اذهبوا فانتم الطلقاء ٠

وكان عثمان بن طلحة فى يده مفتاح الكعبة الشريفة قبل أن يسلم
أراده على مع السقاية ، فرده النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لعثمان بن
وقال له : اليوم يوم بر ووفاء ٠

وذكر ابن سعد فى طبقاته عن عثمان بن طلحة ٠ قال كنا نفتح ا
الشريفة فى الجاهلية يوم الاثنين والخميس ، فأقبل رسول الله صلى الله :
عليه وسلم يوما (أى قبل الفتح) يريد أن يدخل الكعبة الشريفة ، مع النا
فأغلظت له فنلت منه فحلم عنى ، ثم قال يا عثمان لعلك ترى هذا المفتاح
بيدى أضعه حيث شئت ٠

ولعل ذلك أيام الأذى الذى كان ينزل بالمؤمنين من قريش قبل الهـ
حتى أن النبى صلى الله تعـالى عليه وسـلم يؤذى فيما يستحقه كل النا
والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، مستبشر لا يرجو الا ما عند الله ، مط
ما عند الناس ٠

قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لعثمان ابان ذاك ان المفتاح سـ
بيده يضعه حيث يشاء ، فقال : متطاولا فى الأذى بالقول : لقد هلكت ق
يومئذ وذلت ٠

فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : بل عمرت وعزت يوم

يقول عثمان فوقعت كلمته منى موقعا أى أنه توقع صـــدقها وهم
الجاهلية الغافلة ، وظن أن الأمر سيصير الى ما قال الرسول صلىالله تـ
عليه وسلم ٠

وقد تحقق ما توقع ، وصدق قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، فق
اليه المفتاح يضعه حيث يشاء ، فوضعه فى يد عثمان بن طلحة ، الذى ا
له فى القول من قبل ، ونال منه ٠

ويقول عثمان فى حكايته : قال لى النبى صلى الله تعالى عليه وســ
ياعثمان ائتنى بالمفتاح ، فأتيته فأخذ منى المفتاح ، ثم دفعه الى ، وقال : خذ
خالدة تالدة ، لاينزعها منكم الاظالم يا عثمان ٠ ان الله تعالى استامنكم
بيته ، فكلوا مما يصل اليكم من هذا البيت بالمعروف ٠

فلما وليت نادانى ، فرجعت اليه ٠ فقال الم يكن الــذى قلت لك ،
فذكرت قوله صلى الله تعالى عليه وسلم لى قبل الهجرة ، سترى هذا المف
بيدى أضعه حيث شئت ٠ قلت بلى : أشهد انك رسول الله صلى الله تعالى عـ
وسلم ٠

ومع السماحة التى تدنى اشد القلوب جفاء ، ومع هذا العفو الكريم الذى يجمع الشارد ، ويدنى القاصى ، كانت قلوب بعض القرشيين مازال يسكنها الضعف فى الايمان والبغض الجاهلى ٠

يروى سعيد بن المسيب يقول تطاول لأخذ المفتاح رجال من بنى هاشم فرده رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعثمان بن طلحة ٠

وامر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بلالا ان يصعد الى الكعبة الشريفة ، فيؤذن ، وابوسفيان بن حرب ، وعتاب بن اسيد ، والحارث ابن هشام واشراف قريش جلوس بفناء الكعبة الشريفة ، فقال عتاب : لقد اكرم الله اسيدا ، الا يكون سمع هذا فيسمع ما يغيظه ، فقال الحارث اما لو اعلم انه على حق لاتبعته ٠

وقال ابو سفيان لا اقول شيئا ، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصباء .

قالوا ما قالوا ، والنبى ليس بينهم ، وهم يقولونه مسرين هامسين ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال قد علمت الذى قلتم ، ثم ذكر لهم ما قالوا ٠

فقال عتاب انك رسول الله ، والله ما اطلع على هذا احد كان معك ، فنقول اخبرك ٠

الامان العام :

٦٠١ — كان هذا العفو الشامل لقريش امانا لكل اهل مكة المكرمة ، ودعا الى الا يقتل الا تسعة ، اهدر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم دمهم ، وأباح قتلهم ، ولو تعلقوا باستار الكعبة الشريفة وهم عبد الله بن سعد ابن ابى السرح ، وعكرمة بن ابى جهل قبل اسلامه ، وعبد العزيز بن خطل ، والحارث بن نفيل بن وهب ومقبس بن صبابة ، وهبار بن الأسود وقينتان لابن خطل كانتا تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب ٠

وهؤلاء كادوا كيدا شديدا للاسلام ، وبعضهم مع ارتداده قتل مسلما عامدا بعد اخذ الدية اما عبد الله بن سعد بن ابى السرح فكان قد آمن أو أسلم ، وكان يكتب للوحى ، ثم ارتد بعد اسلام ، وكذب كذبة خطيرة ، فادعى انه كان يغير فيما يملى عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يأمره بكتابة عزيز حكيم ، فيكتب غفور رحيم ٠

فكانت اباحة دمه حماية للاسلام من المرتدين ، فلما ابيح دمه فر الى عثمان بن عفان ، وكان اخاه فى الرضاعة ، مع صلة النسب ، فذهب به عثمان الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يستأمن له فصمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه صمتا طويلا ، رجاء أن يتقدم أحد الحاضرين لقتله ، ثم قال بعد الصمت الطويل نعم ـ فأخذ الأمان اكراما لعثمان وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال فى عثمان انه تستحى منه الملائكة .

وقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لمن حضره بعد انصراف عثمان به « أما كان فيكم رجل رشيد ، يقوم الى هذا حين رآنى قد صمت فيقتله ، فقالوا يا رسول الله هلا أومأت الينا ، فقال ان النبى لا يقتل بالاشارة . وفى رواية أنه قال : « لا ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين » .

ولقد كان من المقربين الى عثمان فى خلافته ، ولاه مصر بعد عمرو ابن العاص ، وكان ممن لهج به دعاة الفتنة فى آخر عهد عثمان آخذين على عثمان توليته وقربه ، وأنه لم يكن عدلا ، ولعل ذلك كان من أشد ما لهجوا به وأقواه .

وعبد الله بن اخطل ، فقد أسلم ، وبعثه الله تعالى ليجمع الصدقات ، وبعث له رجلا من الأنصار ، وكان معه مولى له ، فغضب عليه فقتله ، ثم ارتد مشركا . وكانت له قينتان فكانتا تغنيان بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فلهذا أهدر دمه ودم القينتين ، فأما هو فقد قتل متعلقا بأستار الكعبة الشريفة وقتلت احدى القينتين واستؤمن للأخرى ، وأما الحويرث بن نفيل بن وهب فقد كان يؤذى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمكة المكرمة ، ولما تحمل العباس رضى الله عنه بفاطمة وأم كلثوم ليذهب بهما الى المدينة المنورة يلحقهما برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى المدينة المنورة أول الهجرة نخس بهما الحويرث هذا الجمل الذى هما عليه ، فسقطتا على الأرض .

فلما أهدر دمه قتله على بن أبى طالب زوج فاطمة الزهراء .

وأما مقيس بن صبابه ، فقد آمن ثم ارتد ، ثم أخذ دية ، ثم قتل قاتل أخيه غدرا ، وذلك أن أخاه كان مسلما فقتل خطأ فى أعقاب غزوة بنى المصطلق فجاء هو وأعلن اسلامه ، وأخذ دية أخيه من بيت المال ، وقد بينا ذلك ، ولكنه ما ان أخذ الدية حتى عدا على قاتل أخيه خطأ ثم ارتد عائدا الى مكة المكرمة ، فكان من الحق أن يقتل لردته ، ولقتله مؤمنا عمدا وقد أخذ الدية .

وقد قتله رجل من قومه .

وسارة مولاة لبنى عبد المطلب ، ثم لعكرمة بن أبى جهل ، وكانت تؤذى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو بمكة المكرمة ، وروى عن بعضهم

انها هى التى حملت الكتاب الذي ارسله حاطب بن ابى بلتعه ، وكأنها عفى عنه ، ثم اهدر دمها فهربت حتى استؤمن لها من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأمنها فعاشت الى خلافة الامام عمر فوطئها رجل فرسا فماتت ·

وأما عكرمة ، فكان اهدار دمه قبل أن يسلم وقد هرب الى اليمن ، فلما أسلمت امرأته استأمنت له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فأمنه فذهبت الى اليمن ، فتقدم للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حريصاعلى الا يؤذيه ،فعندما جاء مسلما قال لأصحابه، لقد جاءكم عكرمة بن ابى جهل مسلما فلا تسبوا اباه لأن ذلك يؤذى الحى ، ولا يصيب الميت ، وهكذا يكون كرم النبى صلى الله عليه وسلم العطوف الألوف ·

ويروى أن الايمان دخل قلبه قبل أن تجىء اليه امرأته ، وذلك أنه وهو فى السفينة عصفت بها عاصفة وقال بعض أهل السفينة لبعضهم · ان آلهتكم لا تغنى عنكم شيئا هنا ، فاثر ذلك فى نفس عكرمة وعقله ، ورب لفتة تحول القلب من الكفر الى الايمان ، وقال · « والله لم ينج فى البحر الا الاخلاص وانه لا ينجى فى البر غيره ، اللهم ان لك على عهدا ان أنت عافيتنى مما أنا فيه اتى محمدا حتى أضع يدى فى يده فلأجدنه عفوا كريما » ·

ثم جاءته امرأته ، وقد طاب نفسا بالاسلام ·

وأما هبار بن الأسود فهو الذى عرض لزينب بنت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عندما هاجرت ومكن لها زوجها من الهجرة ، فنخس هبار هذا راحلتها حتى سقطت على صخرة ، وكانت حاملا ، فسقط جنينها ·

الانصار يتوهمون ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يعود الى مكة المكرمة :

٦٠٢ ـــ كانت اقامة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رابطة بالود بينه وبين قوم كانوا له أعداء آذوه حتى خرج من عندهم يائسا من أن تتحقق الدعوة الى الرسالة الالهية فيهم ، وانه لا سبيل الا أن يهاجر ، ثم كانت الحروب المفرقة ·

ولما فتح مكة المكرمة كان لابد أن يزيل الاحن من النفوس فلان ورفق ، وعفا وصفح الصفح الجميل ، كما أمره ربه اذ قال له : « **فاصفح الصفح الجميل** » فظن الأنصار الذين آووا ونصروا أن مهمتهم قد انتهت ·

لقد قالوا فتح الله مكة المكرمة على يد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهى بلده ، وموطنه ، جال ذلك فى نفوسهم وتحدثوا به فيما بينهم ، ثم قالوا : أترون رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا فتح الله تعالى عليه أرضه وبلده أن يقيم بها ·

وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهم يحدثون أنفسهم بذلك يدعو على الصفا والمروة رافعا يده ، فلما فرغ من دعائه اتجه الى أنصاره فقال لهم : ماذا قلتم ، قالوا : لا شىء يا رسول الله ، فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : معاذ الله ، المحيا محياكم ، والممات مماتكم ، أى أنه يعيش فيهم حتى يموت بينهم ، لقد نصره الله تعالى بهم ، وخذله غيرهم فهو منهم ، وهو كما قال فى موضع سيجىء : انه لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا ، وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ·

حرمة مكة المكرمة

٦٠٣ ـــ قال الله تعالى : « أو لم يروا انا جعلنا حرما آمنا ، ويتخطف الناس من حولهم ، افبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون » ٠

والقتال فى البيت الحرام على ذلك حرام ، وان الرجل كان يلقى قـاتل أخيه أو أبيه ، فلا يمسه ، والمنازعات تكون خارجة لكى يتوافر للناس الأمن فى أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا ، وهدى للعالمين ٠

ومن أجل ذلك نهى النبى صـلى الله تعالى عليه وسـلم نهيا مؤكدا عن القتل والقتال ، وأمن الناس حتى لا يضطروا الى المدافعة ، فقال : من كان فى البيت الحرام فهو آمن ، ومن أغلق بابه عليه فهو آمن ، وصار يعطى الأمان لكل من يطلبه ، الا أولئك الذين كان لهم اجرام واضح ، وبعضهم ممن أسـلم ثم ارتد ، ومن كان مثل هذا فيه ، وقتل عمدا مؤمنا بعد أخذ دية أخيه ٠

وذلك كله ليحفظ حرمة البيت الحرام ، وشرف مكة المكرمة وحرمتها ٠

ولكن مع هذا الاحتياط الشديد فى حرمة البيت ومنعها من أن تمس ، مع ذلك كان من المشركين الذين لم يدركوا معنى السلام من هاجموا قوات خالد ابن الوليد ، واضطر جيشه أن ينضح عنه النبل القاتل بالقتال فقاتل ، وقتـل من جيشه اثنان وقتل من المشركين بضعة عشر رجلا ٠

ولا شك أنه فى هذه الحال انما اباح حرمة البيت الحرام أولئك الـذين هاجموا ، وهم المشركون ، لا الذين دافعوا ، وهم من كانوا فى جيش خالد ٠

ولكن النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم اباح دم الذين أهدر دماءهم ، ولو تعلقوا بأستار الكعبة الشريفة وقتل فعلا أحدهم ، وهو متعلق بأسـتار الكعبة الشريفة ٠

وان حرمة مكة المكرمة باقية ، وان امتهان حرمتها كان لحالة استثنائية لا يوجد مثلها قط ، ولذلك خطب بذلك مؤكدا حـرمتها ، التى اختصها الله تعالى ، فخطب قائلا بعد أن حمد الله تعالى ، واثنى عليه ، ومجده بما هـو أهله :

« أيها الناس ، ان الله تعالى حرم مكة المكـرمة يوم خـلق السموات والأرض ، فهى حرام كحرمة الله تعـالى الى يوم القيامة ، فلا يحـل لامرىء

يؤمن بالله واليوم الآخر ، أن يسفك فيها دما ، أو يعضد بها شجرة ، فان أحد ترخص لقتال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقولوا له : ان الله اذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وانما حلت لى ساعة من زمان ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليعلم الشاهد فيكم الغائب » .

وكلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليبين للناس حرمة مكة المكرمة الدائمة وانه ليعرف الناس فجور الأمويين ، وأتباعهم الذين رموا الكعبة الشريفة بالمنجنيق ، فارتكبوا ما كان الجاهليون يتعففون عنه ، فهم أشد جرما ولا حول ولا قوة الا بالله تعالى .

محطم الأوثان

٦٠٤ ـ اتجه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من بعد أن خضعت قريش راضية أو راهبة الى تجديد بعض اجزاء البيت . فأمر ابا اسيد الخزاعى بذلك .

ولم ينغص على أحد نفسه ، بل أخذ منهم الظاهر ، وترك لهم ما بطن ، ويروى البيهقى أن أبا سفيان كانت تحدثه نفسه أن يثير القتال بينه وبين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو حديث لم يتكلم به ولم يطلع عليه أحدا واذا بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول له : « ايخزينك الله » وكان كأنه يحدث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث بينهما ، فقال أبو سفيان :

لا يعلم هذا أحد وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يمر على الأصنام فيغمزها بقوسه ، فتتساقط ، وهو يقول : « **جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا** » وقد ذكرنا ذلك .

ولكنه لم يكتف بما صنع هو ، فقد أرسل رجاله سرايا الى اماكن الأوثان ، فحطموا ما حول الكعبة الشريفة ، ثم حطموا ما هو خارجها ، فكسرت اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونادى مناديه فى أهل مكة المكرمة : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يدع فى بيته صنما الا كسره » وصار الذين دخلوا فى الاسلام يتسابقون فى كسر ما تحت أيديهم من الأوثان ، وبعث خالد بن الوليد الى العزى لخمس بقين من شهر رمضان ليهدمها ، فخرج اليها فى ثلاثين رجلا حتى لا يكون من يستطيع مقاومتهم فهدمها .

ويقول الرواة انه رجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال هل رأيت شيئا قال : لا . قال فارجع اليها ، فانك لم تهدمها ،

فرجع خالد وهو متغيظ ، فجــرد سيفه فخرجت اليه امرأة عارية ســوداء ناشرة شعر رأســها ، فجعـل السادن يصــيح بها ، فضربها خــالد فقتلها ، وجاء الى الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبره ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم نعم تلك العزى وقد أيست أن تعبد فى بلادكم ويظهر أن هذه المــرأة كانت تختفى وخالد لم يكن يراها ، فلما رفع سيفه واعتقدت أنها لا محــالة ظاهرة ، ظهرت ، فقتلها ٠

وكانت بنخلة ، وكانت قريش ، وبنو كنانة ، وكانت أعظم أصـنامهم ، وكان سدنتها من بنى شيبان ٠

ثم بعث عمرو بن العاص ، الى سواع ، وهو صنم لهذيل ليهدمه ، فانتهى اليه ، وعنده السادن ، قال ما تريد ؟ ٠

قال : أمرنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن أهدمه ٠

قال لا تقدر على ذلك ، قال ولم ـ قال تمنع ٠ قال عمرو حتى الآن أنت على الباطل ويحك فهل يسمع أو يبصر ، فدنا منه فكسره ، وأمر عمرو أصحابه أن يهدموه ثم قال عمرو للسادن : كيف رأيت ؟ قال أسلمت لله تعالى ٠

وهذا يثبت أن ايمانهم بهذه الأصنام مبنى على وهم توهموه فيها ، فلما انكشف لهم كفروا بها ٠

وبعث سعد بن زيد الأسهلى ، الى مناة عند القديد ، وكانت صنما للأوس والخزرج وغسان وغيرهم ممن يجاورون الشام أو فى طريقه ٠

فخرج سعد فى عشرين فارسا ، حتى انتهى اليها وعندها سادن ٠

فقال السادن ماذا تريد ؟ قال سعد هدم مناة ، فقال أنت وذاك ، وكأنه يتحداه ، فأقبل سعد يمشى اليها ، فخرجت اليه امرأة عارية ســوداء وثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها فضربها سعد ، فقتلها ، وأقبل الى الصنم فهدمه وكسره ، ولم يجدوا فى خزائنه شيئا ٠

هذه عزمة قوية من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، أزال بها ما كانوا يعبدونه من أحجار لا تضر ولا تنفع ، وفعل ما فعله جده ابراهيم الخليل عليه السلام ، فجعلهم جذاذا ، ولم يبق كبيرا لهم ، لأنه لا كبير يبقى أمــام معول محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد جعلها جذاذا بعد أن فقدت الأوهــام التى كانت تحيط بالنفس العربية حولها ٠

وبذلك انتهت دولة الأوثان فى البلاد العربية ، ولقد رآها الذين كانوا يعبدونها ، لا تدفع محطمها ، ولا تمنعه ، اذ هى لا تملك لنفسها نفعا ، ولا ضرا وقد يئس الشيطان من بعدها أن يعبد فى بلاد العرب ·

بعثة خالد بن الوليد الى جذيمة

٦٠٥ — عقب تحطيم خالد بن الوليد العزى أرسله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى جذيمة من كنانة داعيا الى الاسلام ، ولم يبعثه مقاتلا ، لأنه لا قتال فىمكة المكرمة وما حولها من القرى والبوادى بعد أن دخلت مكة المكرمة فى طاعة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يكن ثمة حاجة الى القتال ولم يكن منهم غدر أو خيانة ، حتى يعاقبوا على غدرهم وخيانتهم ·

أرسله صلى الله تعالى عليه وسلم ومعه قبائل من العرب من سليم ابن منصور ، ومدلج بن مرة ، ومعهم بعض المهاجرين والأنصار كعبد اللهبن عمر وسالم مولى حذيفة ·

وكانت عدة من خرج فيهم خمسين وثلاثمائة من بنى سليم والمهاجرين والأنصار ·

قال لهم خالد ، ما أنتم · قالوا : مسلمون قد صلينا وصدقنا بمحمد ، وبنينا المساجد فى ساحتنا ، وأذنا فيها ·

وكان حقا على خالد بن الوليد أن يكف عند هذا ، لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما أرسله مقاتلا ، بل أرسله داعيا وهاديا ، ولكنه تخلى عن هذه الصفة العالية ، وأبى الا أن يكون مقاتلا ، وبرر ذلك بأنهم يحملون السلاح ·

قال لهم فما بال السلاح عليكم ·

قالوا ان بيننا وبين قوم من العرب عداوة ، فخفنا أن تكونوا هم ، كان عليه بعد أن يكتفى بذلك ، أو أن يتحرى عن صدق كلامهم ، أو أن ينزع السلاح من أيديهم ·

ولكنه لم يفعل ، بل استأسرهم ، بعد أن وضعوا السلاح كما أمر ، وما كان له ذلك ، فأوثقهم وفرقهم فى أصحابه ·

وكان حقا عليه ان يأخذهم أسارى الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليفعل فيهم ما يحكم الله تعالى ، ولكنه فى السحر ، نادى خالد بن الوليد ، من كان معه أسير ، فليضرب عنقه ، فأما من كان معه من بنى سليم فقتلوا من فى أيديهم من الأسرى المنكوبين بخالد ٠

وأما المهاجرون والانصار أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حقا وصدقا ، فانهم أرسلوا أسراهم ، ولم يقتلوهم ، لأن الأسرى لا يجوز قتلهم لأنهم مسلمون ٠

ويلاحظ انه كان فيهم رجل أدرك نية خالد يقال له جحدم ، ولم يعتقد انها نية اسلامية ، قال لقومه ، لما أمرهم خالد بأن يضعوا أسلحتهم : يا بنى جذيمة انه خالد ، انه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح الا اسار ، وما بعد الاسار الا ضرب الأعناق ٠ انتقل رجل من القوم ، وذهب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال رسول الله صلى لله تعالى عليه وسلم : هل أنكر عليه أحد ؟ قال نعم : قد أنكر عليه رجل أبيض ربعة ، وأنكر عليه رجل آخر طويل مضطرب ، فاشتدت مراجعتهما فقال عمر بن الخطاب ، أما الأول فابنى عبد الله يا رسول الله ، وأما الآخر ٠ فسالم مولى أبى حذيفة ٠

عندما بلغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فعل خالد هذا رفع يده الى السماء ضارعا : اللهم انى أبرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد ٠

ولقد رأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن فعل خالد لم يكن من الاسلام . ولعله رأى انه بقية من بقايا الجاهلية ٠

أول ما فكر صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرأب الصدع ، ويداوى القلوب بالديات يرسلها ، فدعا على بن أبى طالب ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ « يا على اخرج الى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » ٠ هذا أمر فى موضعه وفى وقته ، فان الجاهلية فى هذا الأمر قد بدت نائبة ظاهرة ٠

فخرج على ، ومعه مال كثير قد بعث به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فودى لهم الدماء ، وما أصيب لهم من الأموال ، حتى اذا لم يبق شىء من دم أو مال الا وداه بقيت معه بقية من المال ، فقال لهم على حين فرغ منهم ، هل بقى لكم دم أو مال لم يودلكم ؟ قالوا لا ، قال أعطيتكم هذه البقية احتياطا لرسول مما لا يعلم ولا تعلمون ٠

جاء على الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقص عليه ما صنع فقال أحسنت وأصبت ، ولكن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يزال على الم واسى ، ولذا استقبل القبلة قائما شــاهرا يديه ، حتى انه ليرى ما تحت منكبيه • « اللهم انى أبرا مما صنع خالد بن الوليد ثلاث مرات ، لقد أصاب فعل خالد قلب النبى صلى الله تعالىعليه وسلم ، لأنه قتل وهو مبعوثه أبرياء •

وقد ورد ما يدل على الاعتذار عن فعل خالد الذى لا يقبـل الاعتذار ، ولو كان عذر لأبداه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : قالوا انهم قالوا صبأنا صبأنا ، يريدون أسلمنا ، فظنهم قد كفروا فقتلهم ، وهذا كلام غير مقبـول فى ذاته لأن سنده ضعيف ، وما كان له أن يقاتلهم على ذلك ، وقد تبين أنهم لا قدرة لهم على القتال ، فكيف يقتلهم انه ان صـح ذلك لا يكون قتالا محمديا ، فقـد اسرهم ، فلماذا يقتلهم فى السحر •

ان الأمر مهما يؤت من جوانبه لا يبرر فيه الا العمـل الجاهلى ، وقد صرح بذلك خالد بن الوليد فى مجـادلة مع عبد الرحمن بن عوف الذى كان يلومه •

قال ابن اسحاق قد كان بين خالد بن الوليد ، وعبد الرحمن بن عوف (الصحابى المهاجـر أحـد العشرة المبشرين بالجنة) كلام فى ذلك ، قال له عبد الرحمن بن عوف عملت بأمر الجاهلية فى الاسلام ، فقال خالد : « انمـا ثأرت بأبيك ، فقـال عبد الرحمن ، كذبت ، قد قتلت قاتل ابى ، ولكنـك ثأرت لعمك الفاكه بن المغيرة حتى كان بينهما شر » •

عبد الرحمن بن عوف يقول قولة الاسلام ، وخالد يقول الثارات ، وقد بلغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما قال خالد لعبد الرحمن بن عوف فقال لائما لخالد ، مبينا له مكانه من أصحابه •

« مهلا يا خالد ، دع عنك أصحابى ، فوالله لو كان لك أحـد ذهبا ، ثم أنفقته فى سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابى ولا روحته » •

نعم هم الأصحاب الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه فى بيعة الرضوان تحت الشجرة •

ومهما يكن حكم التاريخ فى عمل خالد جاهلية واسلاما ، فانه سـيحكم لا محالة فى هذه الواقعة ، بأن فيها جاهليته ان لم يكن كلها جاهليا ، ورحم الله عمر بن الخطاب عندما عزله فقد قال : « ان فى سيف خالد لرهقا » ولعل كان أشده مما كان واضحا فى أمر جذيمة •

وانا اذ ننقد فعل خالد فى هذا نتابع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونراه ينطق بالحق ، واذا كان من النـاس من كان ينقـد عليا وعثمان ومن يماثلهما ، فان لنا أن ننقد عمل خالد فى هـذا ، وما كنا مبتدعين فى نقـده ، لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم برىء من صنيعه ، ووضح له فعله مع المؤمن المهاجر أحد العشرة المبشرين بالجنة واستنكره ٠

مدة اقـامة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة

٦٠٦ ـــ اقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقية شهر رمضان يقصر من الصلاة فيصلى الأربع اثنتين ، ويفطر ، لأنه كان لا يزال مسافرا ، ولم يعد نفسه فى مكة المكرمة وطنه الأصلى وهو مكة المكرمة ، لأنه لم يبق له دار تعد بيته الأصلى ، وقال ما أبقى لنا عقيل من دار ، وقد استمر يترخص رخصة المسافر ، لأنه لم ينو نية الاقامة ، فكان على سفره يترخص فى الصلاة والصيام معا ٠

وان رمضان قد انتهى وهو بمكة المكرمة ، فلم يكن محل رخصة الافطار انما كانت رخصة القصر قائمة وكان هو يؤم المصلين المقيمين ٠ يقول بعد تمام الركعتين : « يأهل البلد صلوا أربعا فانا سفر » ، وقد اختلف فى مدة اقـامة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فروى أنها خمس عشرة ليلة ، وروى أنها اثـانى عشرة ليـلة ، وروى أنهـا تسع عشرة ليلة ، والله أعلم بأصـح الروايات ٠

احكام فقهية شرعت فى الفتح

٦٠٧ ـ اول حكم يتجه الفقهاء الى الكلام فيه أمكة المكـرمة فتحت عنوة أم فتحت صلحا ، فكثيرون من العلماء يقولون انها فتحت عنوة ، فتكون أرضها خراجية ولا تكون عشرية ، لأن الجيوش الاسـلامية دخلتها فاتحة ، وقتل فيها قتلى ، فقتل نحو عشرين منهم نحو اثنى عشر من المشركين ، وبعض المؤمنين ، وكان يؤمن بعضهم بأمان خاص من النبى صـلى الله تعـالى عليه وسلم ، والأمان العام الذى قرره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان ملاحظا معنى خاصا ، وهو أن من دخل بيت أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسـجد فهو آمن ، ومن أغلق بيته فهو آمن ، وبالمفهوم أن من رؤى فى غير بيته ، وفى غير واحد من هذه البيوت ، فانه مباح الدم الا بأمن خاص ، وهذا يدل على أنهم حربيون ، والحـربيون حتى يصـدر الأمان لا يقال انهم فتحت أرضهم صلحا ٠

ولأنه لم يكن ثمة عقد صلح كان الأمان نتيجة له ، ولأنه لم تفرض جزية على أحد من أهل مكة المكرمة ، حتى يقال انهم أعطوا الجـزية ، وان أرض مكة المكرمة لم تكن خراجية ، هذه وجهة نظر من قالوا ان مكة المكرمة فتحت عنوة ٠

ويرى الامام الشافعى مع كثيرين من الفقهاء أن مكة المكرمة لم تفتح عنوة ، بل فتحت صلحا مما سبق به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من أنه أعطى الأمان لأهلها بقـوله « من دخل دار أبى سـفيان فهو آمن ، ومن دخل المسـجد فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن » فكان ذلك تأمينا عاما ، ثم صرح عند أمن الجميع ، وأباح دم التسعة الذين ذكرهم وأجاز قتلهم ، ولو كانـوا متعلقين بأستار الكعبة الشريفة وانه لم يقسم أرض مكة المكرمة بين الغانمين ولم يعتبر أموال أحد من أهلها غنيمة ولا نفلا من الأنفال ، والنبى صـلى الله تعالى عليه وسـلم نهى عن القتل والقتال ، فكيف يقال بعـد ذلك انها فتحت عنوة ، ان المقياس الضابط بين العنوة والصلح هو أن يكون تسليم أهل البلدة فى العنوة بقوة السيف والغزو ، وأما الصلح فهو التسليم من غير قتال ولا أهل ، ولقد سلم أهل مكة المكرمة من غير قتال ، وكان الأمن الكامل من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هو فى قوله « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ٠

وانا نميل الى أن مكة المكرمة لم تفتح لا عنوة ولا صـلحا ، فلم يتحقق أصل الفتح ، وانما تحقق اللقاء بالمودة والرحمة من غير عقـد ، بل بما هو أعلى من العقد ، وهو صـلة الرحم بعـد قطعها من قريش ، ولو اننا اخترنا الموازنة بين الرأيين ، وكان لابد نختار أحدهما ، لاخترنا أنها لم تفتح عنوة ٠

مكة المكرمة وما يحـرم فيها :

٦٠٨ ــ قلنا ان الله تعالى حرم القتال فى مكة المكرمة ، ونقلنا لك قول الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فى ذلك ، والآن سنذكر بعض الأحكام المتعلقة بمكة المكرمة فنقول ٠

ان الله تعالى حرم الصيد فى الحرم الشريف مكة المكرمة وما حولها لمن أحرم بالحج ، ولقد قال تعالى فى ذلك : « **أحل لكم صيد البحر ، وطعامه متاعا لكم وللسيارة ، وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرما ، واتقوا الله الذى اليه تحشرون** » ٠

ولقد ذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم تحـريم القتل والقتال فى مكة المكرمة ، وذكر بعده محرمات أخرى فقال صلى الله تعالى عليه وسـلم ٠

« ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام بتحريم الله سبحانه وتعالى ، لا تحل لأحد قبلى ، ولا تحل لأحد بعدى ، ولم تحل لى الا ساعة من الدهر ، لا ينفـر صـيدها ، ولا يعضد شوكها ، ولا يختلى خلاؤها ، ولا تحل لقطتها الا لمنشد ، فقال العباس الا الاذخـر · فانه لابد منه للدفن والبيوت ، فسكت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قال الا الاذخر ·

هذا مارواه البخارى ، وقد انفرد بروايته ، وحسب البخارى صـدقا ، لأنه صادق فى جملة ما رواه · وان أخذت عليه بعض الأحاديث لمتنها ·

وبذلك ننتهى من بيان هذا الحديث : (أ) بانه يحرم الصيد فى الحـرم كما قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « لاينفر صيدها وكلها حرم آمن من كل نواحيه » ·

(ب) وبأنه لا تقطع أشجارها ، لتوجد جوا صـالحا من جوها ، وان شوكها لا يعضد ، ولا يحتجز خلاء لأحد فلا اقطاع فيها لأحد ، ولا تحل لقطتها الا بعد التعريف بها ، وذلك حكم عام لا تختص به مكة المكرمة ، فان اللقطة لا تحل الا بعد تعريف صاحبها ، ويكون حلها أن يتصدق بها ، فان كان اللاقط مستحقا للصدقة تصدق بها على نفسه ·

وقد لوحظ أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، حرم على المقيم فى مكة المكرمة ما لا يكون ضروريا للاقامة ، فنبه العباس أن الاذخر محتاج اليه فى البيوت ، ومحتاج اليه فى دفن الموتى ، فذكر للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فتفكر عليه الصلاة السلام ، ثم وافق ، ولعل الوحى قد نزل عليه بذلك ، فمـا كان كلامه اتباعا للعباس ، ولكن كان اتباعا لأمر ربه ·

ومهما يكن من ذلك ، فان العباس بادراكه الاسـلامى ، فهم أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اباح من زرع مكة المكرمة ما لا يمكن الاسـتغناء عنه فقال مقاله ، فنزل الوحى بما قال ، فكان الوحى قد وافق نظره كما يذكر أنه وافق رأى عمر فى بعض الأمور التى كان يؤخذ الرأى فيها ·

فما كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تابعا للعباس ، بل جاء الوحى بموافقته ، كما جاء الوحى بموافقة عمر كما ادعى فى بعض المواضع ·

لقد حرم الله تعالى القتل فى مكة المكرمة افلا يمسح القتل قصاصا ، أو لاقامة الحد أو نحو ذلك ، قرر العلماء أن ذلك جائز ، فيجوز فيها القصاص ، وتتبع العصاة وعقابهم ، ولذلك قال عمرو بن سعيد اجابته لأبى شريح · قال

أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح ، ان الحرم لا يفيد عاصيا (أى لايحمى عاصيا) ولا فارا بدم • ولا فارا بجزية •

وهكذا فالمحرم القتل بغير حكم شرعى ، أما القصاص بحكم القصاص ، فانه يجوز ، ولقد استباحت خزاعة أن تأخذ بثأرها من بعض بنى بكر ، فقتلت واجدا ، فنهاها نهيا قاطعا ، ودفع دية المقتول •

ولقد خاطب خزاعة عند ودى قتيلها ، « يا معشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم عن القتل ، لقد قتلتم قتيلا فوديته فمن قتل بعد مقامى هذا ، فأهله بخير النظرين ، ان شاءوا قدموا قاتله ، وان شاءوا نعقله لأى وثبة » •

ولقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان أعدى الناس من قتل فى الحرم أو قتل غير قاتله ، أو قتل بذحول الجاهلية » صدق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا يقتل بالكبير فى زعمهم عدد من قبيل القاتل •

دية شبه العمد

٦٠٩ — أعلن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم دية القتل شبه العمد ، ذلك أن القرآن الكريم بين حكم القتل العمد ، فقال تعالى : « **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف ، وأداء اليه باحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون** » •

بهذا النص الكريم ثبت أن عقوبة القتل العمد القصاص ، ولكن رخص لولى المقتول أن يختار الدية بعد القصاص ، ويسمى الفقهاء الدية فى هذه الحال قصاصا معنويا ، وكان ذلك تخفيفا من الله ورحمة لأنه قد يكون من مصلحة ولى الدم أن يرضى بالدية أو العفو كأخ يقتل أخاه ، ولى الدم — وهو الأب ، فاذا كان القصاص من غير فرصة الدية أو العفو ، خسر المكلوم ولديه ، فكان هذا الترخيص بالدية أو العفو تخفيفا ورحمة •

والقتل الخطأ شرع القرآن الكريم عقوبته فثبت بالنص ، فقد قال تعالى : « **وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ ، ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا ، فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ، وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة**

الى اهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ، وكان الله عليما حكيما ، ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما » • وهكذا ذكر الله تعالى عقوبات القتل • وخلاصة ما نصت عليه الآية :

أولا : أن تعمد القتل لا كفراة له عن عقوبة الآخرة •

ثانيا : أن الدية فى القتل تكون لأهله المسلمين أو من كان بيننا وبينهم عهد أما العدو فلا دية لأهله لأنهم يقوون بها ، ويستعينون بها فى حرب المسلمين •

ثالثا : أن تحرير الرقبة ضرورى أو بدله ، وهو صيام ستين يوما ، وذلك لتكفير اثم الخطأ ، لأنه مهما يكن ففيه اثم ترك الاحتراز ، ولأن القاتل خطأ افقد المسلمين نفسا ، فحق عليه أن يحيى نفسا بدل من تسبب فى فقدها ، واحياؤها بحريتها ، فالحرية لفاقدها احياء •

هذه اشارات الى احكام القتل فى القران الكريم ذكرناها ليميز ما جاء به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو القتل شبه العمد ، ولم يذكر فى القرآن الكريم حكم للقتل الشبيه بالعمد •

وذكره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى فتح مكة المكرمة فى المدة التى اقامها بها فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم • « الحمد لله الذى صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » الا ان قتيل العمد الخطأ بالصوت أو العصا فيه مائة من الابل — وفى مرة قال — مغلظة فيها أربعون خلفة فى بطونها أولادها ، وهذا النوع من القتل يسمى فى عرف الفقهاء شبه العمد . وسماه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم العمد الخطأ ، وهو كما عرف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم القتل المقصود الذى يقع بغير آلة محدة للقتل ، كالقتل بالسوط أو العصا ، أو الحجر ، الذى لا يقتل عادة ، وهو الذى يسمى فى عرف القانون فى هذه الأيام الضرب المفضى الى الموت ، وقد ذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن ديته دية مغلظة ، وذلك لأن الدية فى القتل نوعان ، فالدية المغلظة التى تناسب الجريمة وهى التى ذكرها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهى مائة من الابل فيها اربعون خلفة حوامل فى بطونها أولادها ، أما الدية غير المغلظة فمائة من الابل فقط من غير اشتراط أن يكون فيها هذه الأربعون الحوامل •

والقتل شبه العمد الضرب مقصود فيه ، فلم يكن خطأ جاء من غير قصد انما القصد ثابت لأنه أراد الضرب ، ولكن الآلة غير قاتلة فى ذاتها ، فهو

لا يعد قاصدا النتيجة ، وجاءت النتيجة غير مقصودة ، فشابه الخطأ من حيث لم يقصد هذه النتيجة ، وشابه العمد ، لأنه قصـد الضرب ، وباشره عامدا ، ولذلك سماه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « العمد الخطأ » فهو عمد فى ابتدائه وليست نهايته متعمدة ٠

الميراث بين المسلم والكافر

٦١٠ ــ عندما دخل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مكة المكرمة ، لم يجـد دارا من دور بنى هاشم تعـد بيتا ، ولم يجـد بيته الذى كان له قبل هجرته ، وقال عليه الصلاة والسلام هل ابقى لنا عقيل من دار ، وعد نفسـه مسافرا ودل هذا على أنه اذا عاد الشخص الى موطنه الأصلى لا ينقطع عنه وصف المسافر الا اذا عاد الى بيته الذى كان يقيم فيه ، فان لم يجد بيته الذى كان يقيم فيه لا يعد مقيما ، بل يعد مسافرا وذلك لأن مكة المكرمة بلده ، ولكنه لم يجد فيها راحة المقيم فكان مسافرا ٠

ولذلك افطر فى رمضان برخصة السفر ، وقصر الصلاة بهذه الرخصة ٠

ولقد أخذ الخارجون على سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه انه لم يقصر الصلاة فى مكة المكـرمة ، فبين أنه كان فى بيته وبين أهله ، فلم يعـد نفسـه مسافرا ، فلم تكن الرخصة التى تسوغ له القصر ، ولعله وجده بيته الذى كان يقيم فيه قبل الهجرة ، وذلك كله على اساس ان القصر رخصة ، وليس عزيمة ٠

وقد ذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد قوله ٠ ما ترك لنا عقيل من دار ، لا ميراث بين مسلم وكافر ، فكان هذا شرعا يمنع ميراث الكافـــر من المسلم ، وميراث المسلم من الكافر ، وذلك صريح قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « لا يتوارث أهل ملتين شىء » ٠

ولقد كان اجماع الفقهاء على ذلك الا الشيعة الامامية ، فقد قرروا منع ميراث الكافر من المسلم ، ولم يمنعوا ميراث المسلم من الكافر ٠

وكذلك كان يعمل بذلك معاوية بن ابى سـفيان الذى ملك أمر المؤمنين باسم الخلافة واسم امرة المؤمنين ، ولذلك كان القاضى شريح رضى الله تعالى عنه يصدر أحكامه ذاكرا فيها أنه قضاء الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، الا اذا قضى فى توريث مسلم من كافر ، قال : هذا قضاء أمير المؤمنين معاوية ٠

والحق ما قرر الفقهاء لأنه صريح قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . ولأن الميراث سببه النصرة بين الوارث والمورث ، وهى لا تتحقق اذا كان احدهما غير مسلم ، ولأن الميراث ولاء ، ولا ولاء بينهما ، ولأن الوارث امتداد لشخصية المورث ، ولا يمكن ان يعد المسلم امتدادا لشخصية الكافر .

الولد للفراش

٦١١ — جاء هذا الحديث الصحيح فى وقائع فى مكة المكرمة عند فتحها . ذلك أن عتبة بن أبى وقاص عهد الى اخيه سعد ان يطالب بنسب ابن عبد بن زمعة على انه ابن عتبة ، وابن أخى ، ولكنه جاء من فراش ابن زمعة فتنازعه عبد بن زمعة على أنه اخوه ولد فى فراش أبيه ، وسعد على انه ابن اخيه بوصية عتبة أخيه ، فوجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ان صفاته الجسمية تشبه صفات عتبة ، ولكنه عليه الصلاة والسلام لا يحكم بالقيافة بل يحكم بالشرع ، فحكم لعبد بن زمعة على انه أخوه ، وأخو أم المؤمنين سودة بنت زمعة ، وبذلك تبين معنى الحديث الولد للفراش وللعاهر الحجر .

ولكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أمرها بأن تحتجب عنه ، ولو كان أخاها حقيقة ، ومن كل الوجوه ما احتجبت ، ولكن لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يحتاط للتحريم ما أمكن التحريم فقد أمر أم المؤمنين سودة بأن تحتجب عنه احتياطا لما رأى من شبه بينه وبين عتبة مما يومىء الى انه ابنه . فاحتاط فى التحريم ، وحكم بحكم الله فى النسب ، والله تعالى أعلم .

قطع اليد

٦١٢ — روى البخارى بسنده عن عروة بن الزبير أن امرأة سرقت فى عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى غزوة الفتح ، فأهم قريشا أن تقطع يد امرأة منهم فى سرقة ، وكانت مخزومية اسمها فاطمة ، ففزع قومها الى أسامة بن زيد ، وكان حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يستشفعونه ، فغضب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقال لأسامة أتشفع فى حد من حدود الله ، فقال أسامة أستغفر الله يا رسول الله ، فلما كان العشى قام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

أما بعد ، ما بال أقوام يشفعون فى حد من حدود الله ، فانما أهلك الذين

من قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ٠

وهكذا كانت الأحكام الاسلامية تطبق على القوى والضعيف ، ومن له نسب ، ومن ليس نسبه يحميه ، وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أشار الى معنى اجتماعى فى قيام الأمم وقوتها ، فبين عليه الصلاة والسلام ان العدالة والمساواة أمام القانون هى التى تبنى الأمم ، ولا ملك يقوم من غير عدالة ، بل انه ان بدا قويا ، فان الظلم الذى يكون فيه يهدم أركانه ويقوض بنيانه فلا قوة لأمة بظلم ، ولا علو لجماعة بغير العدل ٠

ولقد أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بقطع يدها ، ليعلموا أن قريشا العزيزة المتفاخرة بأنسابها هى والجميع على سواء ، وذلك ضرب فى جنب العصبية الجاهلية ، ولقد حسن اسلامها بعد قطع يدها ، وعلمت أن يدها طهرتها ، وسبقتها الى الجنة ، كما قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

المتعة وتحريمها

٦١٣ — يذكر البخارى وغيره أن المتعة حرمت نهائيا فى غزوة الفتح ، وكان فيها التحريم قاطعا ، ناسخا للترخص فيها الى يوم القيامة ٠

وقد تكلمنا عن المتعة عند الكلام فى الأحكام التى ثبتت فى غزوة خيبر ، ونذكر هنا بأننا قلنا انها لم تبح ساعة من زمان ، وانما هى من اتخاذ الأخدان سكت عنه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكانت موطن عقد حتى أعلن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم زوال العقود فيها بقوله عليه الصلاة والسلام وبالقرآن الكريم القاطع المانع ، ولقد شرحناها فى موضعها من القول ٠

ولا مانع من أن نذكر ما قاله علماء الفقه والحديث هنا ، وان كنا قد أشرنا اليه فيما مضى من قولنا ٠

يقول الحافظ ابن كثير فى تاريخه : « من أثبت أن النهى عنها فى غزوة خيبر ، قال انها أبيحت مرتين ، وحرمت مرتين وقد نص على ذلك الشافعى ، وقيل انها حرمت مرة واحدة ، وهى هذه المرة فى غزوة الفتح ، وقيل انها أبيحت وحرمت أكثر من مرتين ٠

وقيل انها ابيحت للضرورة ، فعلى هذا اذا وجدت ضرورة ابيحت وهذه رواية عن أحمد ، وهذا قول جاف عن الشريعة ، فما هى الضرورة ، وقد نسب هذا القول الى الامام ابن عباس ٠

المبايعة على الاسلام

٦١٤ ـــ قلنا ان الفتح لم يكن لقاء معــركة ، وانما كان لقاء مودة ومحبة ، ومع المحبة والمودة كانت الدعوة الى الاسلام ، وقد دخل الناس فى دين الله أفواجا أفواجا ، اذ جاء نصر الله العزيز الحكيم ٠

وروى البيهقى أن الناس كانوا يبايعون على الاســـلام رجالا كبارا ، وغلمانا صـــغارا اذا كانوا قــد بلغوا حد الادراك ، وكانت تلك المبايعة على الدخول فى طاعة الاسلام ، وشهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وكانت بيعة النساء على ذلك ، وكانت على أخذ العهد ، بألا يفعلن شــيئا من المحرمات :

وقال ابن جرير الطبرى :

اجتمع الناس بمكة المكرمة لبيعة رســـول الله صـــلى الله تعالى عليه وسلم ، فجلس لهم على الصفا ، وعمر بن الخطاب أسفل من مجلسه ، فأخذ على الناس السمع والطاعة لله ورسوله فيما استطاعوا ، فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة ، لحدثها من صنيعها بحمزة رضى الله عنه ، فهى تخاف أن يأخذها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بحدثها (أو تستحيى من رسول الله صـــلى الله تعالى عليه وســلم فيما صنعت بعمه الحبيب) ٠

فلما دنين من رسول الله صلى الله تعالى عليه وســلم ليبايعهن ، قال : بايعننى على الا تشركن بالله شيئا ، فقالت هند ، والله انك لتأخــذ علينا مالا تأخذه من الرجال ، ولا تسرقن ، فقالت والله ان كنت لأصيب مال أبى ســفيان الهنة بعد الهنة ، وما كنت ادرى اكان ذلك علينا حلالا أم لا ، فقال أبو ســفيان وكان شاهدا لما تقول : أما ما أصبت فيما مضى ، فأنت منه فى حل ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وســلم : « وانك لهند بنت عتبة ، قالت نعم ، فاعف عما سلف ، عفا الله عنك ، ثم قال عليه الصلاة والســلام : « ولايزنين ، قالت : يارســـول الله وهل تزنى الحـرة ، ثم قال عليه الصـلاة

والسلام : « ولا يقتلن أولادهن ، قالت : قد ربيناهم صغارا حتى قتلتهم أنت وأصحابك ببدر كبارا ، فضحك عمر بن الخطاب ، حتى استغرق ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، فقالت ، والله ان اتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز أمثل ، ثم قال ، ولا يعصيننى ، قالت فى معروف ٠

فقال لعمر رضى الله عنهن بايعهن ، واستغفر لهن الله ، ان الله غفور رحيم ، فبايعهن عمر ٠ وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لا يمس الا امرأة أحلها الله تعالى له ، أو ذات محرم منه ٠ وما كان يبايعهن الا بالكلام ، ويقول ٠ انما قولى لامرأة واحدة ، كقولى لمائة امرأة ٠

نفقة الزوجة

٦١٥ — ان نفقة الزوجة واجبة على الرجل ، ويقسمها الفقهاء الى قسمين نفقة تمكين ، ونفقة تمليك ٠ والأصل نفقة التمكين ، ونفقة التمليك ٠ وهى أن يقدر لها ما يكفيها بالمعروف ، ويملكه اياها نقدا ، أو طعاما ، أو أنواعا ، وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى غزوة الفتح قرر نفقة التمكين فقد سألته هند قائلة : يا رسول الله ، ان سفيان رجل شحيح لا يعطينى من النفقة ما يكفينى وبنى ، فهل على من حرج اذا أخذت من ماله بغير علمه ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : خذى من مال أبى سفيان ما يكفيك وولدك بالمعروف ٠ وروى البيهقى بسنده عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : ان هندا بنت عتبة قالت يا رسول الله ما كان على وجه الأرض أخباء أو خباء أحب الىمن أن يذلوا من أهل أخبائك أو خبائك ، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أخباء أو خباء أحب الى من أن يعدوا من أهل أخبائك أو خبائك ، وأيضا والذى نفسى بيده ، يا رسول الله ، ان أبا سفيان رجل شحيح ، فهل على حرج أن أطعم من المال الذى له ، قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالمعروف ٠

وهذا الحديث مهما تختلف صيغة رواياته يدل على ثلاثة أمور :

أولها : أن نفقة الزوجة واجبة على الزوج سواء أكانت غنية أم كانت فقيرة ، وسواء أكانت قادرة على الكسب أم عاجزة عنه ، لأنها جزاء قيامها بحقوق الزوج ورعاية بيته وأولاده وهى تقسيم فى نظام الحياة الزوجية المرأة تقوم بادارة مملكة البيت ، والرجل يكدح ويعمل للحصول على الرزق ، ولذلك يقول صلى الله تعالى عليه وسلم فى حجة الوداع لهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ٠

والثانى : الأمور التى تدل عليه الأحاديث الواردة عن هند واجابة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن على الزوج أن يمكنها من ماله الذى تتمكن به من أن تطعم وأولادها بالمعروف فى أمانة من غير خيانة ٠

ثالثها : أن نفقة الزوجية تثبت حقا لها ولأولادها من غير حكم من القضاء ، أو أمر من ولى الأمر ، بل تثبت بحكم الشرع على أنها حق من حقوقها بمقتضى الأحكام الشرعية لا بسبب الرضا ، أو القضاء ، وقد يكون تقديرها بالتراضى ، ولكن أصل الوجوب يكون بحكم الشرع هذا ما اقتضى الحديث بيانه ، وربما عاودنا القول فى حجة الوداع ٠

حكم الهجرة بعد الفتح

٦١٦ روى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قام بعد تمام فتح مكة المكرمة ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « لا هجرة بعد فتح مكة ، ولكن جهاد ونية ، واذا استنفرتم فانفروا » ، وان ذلك المعنى مستقيم بمنطق الوقائع ، فقد كانت الهجرة قبل الفتح من مكة المكرمة الى الحبشة ، أو الى المدينة النبوية فكانت فرارا من الاستضعاف فى مكة المكرمة ، الى حيث الأمن والاطمئنان وخصوصا الى يثرب ، حيث تتجمع القوى الاسلامية فى المدينة المنورة مجاهدة داعية ٠

وان الهجرة بعد أن صارت مكة المكرمة دار اسلام ، وبها البيت الحرام ، فان الهجرة منها لتقتضى خلوها من السكان ٠ وهم أهل البيت الحرام ٠

ولكن معنى ذلك أن تمنع الهجرة من أى بلد الى أخرى ، ولكن لا يكون له ثواب المهاجر ، اذا كان الخروج لمجرد طلب الرزق ، والثواب ان كان فلا يكون ثواب هجرة ، ولكن يكون ثواب طلب الرزق استجابة لقوله تعالى : **« ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرة وسعة »** ٠

ولكن يكون بعد ذلك هجرة يكون فيها ثواب الهجرة وهى مطلوبة غير منهى عنها ، بل يحاسب فيها المؤمن ان كان قادرا على الهجرة ، ولم يهاجر ، وذلك فى حال أن يعيش مستضعفا بين الكفار ، يسومونه الذل والهوان ، وان خرج الى أرض الاسلام كان التجمع القوى والوحدة الشاملة الكاملة ٠

ومن ذلك قول الله تعالى : **« ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا الم تكن أرض الله واسعة**

فتهاجروا فيها ، فأولئك ماواهم جهنم ، وساءت مصيرا ، الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا » ٠

فان هذه الآية توجب الهجرة على كل مستضعف فى الأرض لتكون الجماعة الاسلامية له قوة ، ويكون من انضمامه لجماعة المسلمين قوة بتضام كل بعيد عنها اليها ، فان التجمع قوة فى ذاته ، وقوة عامة للمسلمين ، والانفراد مع الاستضعاف ذل لبعض المسلمين ٠ وحرمان للمجموع من قوة التجميع ٠

ولذلك ورد أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال « الهجرة دائمة » وقال عن اجتماع الكافر بالمسلم « لا تتراءى من مازت » ٠

فالهجرة التى انتهت هى الهجرة من مكة المكرمة ٠

أما الهجرة فلم تنته باطلاق ، ويقول فى ذلك الحافظ ابن كثير : انه يعرض حالة تقتضى الهجرة بسبب مجاورة أهل الحرب ، وعدم القدرة على اظهار الدين فتجب الهجرة الى دار الاسلام ، وهذا مالا خلاف فيه بين العلماء ٠ ولكن هذه الهجرة ليست كالهجرة قبل الفتح ، كما أن كلا من الجهاد والانفاق فى سبيل الله مشروع ، ورغب فيه يوم القيامة ، وليس كالانفاق ، ولا الجهاد قبل الفتح فتح مكة المكرمة ، كما قال تعالى : « لا يستوى منكم من انفق من قبل الفتح ، وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا » وانه بلا ريب الجهاد قبل الفتح ، لانشاء قوة للمسلمين ، الجهاد بعد ذلك لبقاء الاسلام ، والابقاء أسهل من الانشاء فكانت لذلك أفضل والله سبحانه وتعالى أعلم بموضع الفضل والخير ٠

ملكية أرض مكة المكرمة

٦١٧ — ملكية أرض مكة المكرمة أتجوز أم لا تجوز ؟ فى هذا الأمر نظر السلف الصالح ، واختلفوا فى اتجاههم الى اتجاهين :

أولهما : أنها لا تملك ، وحجته أولا أنها دار النسك ، ومتعبد الخلق ، وحرم الله تعالى الذى جعله للناس سواء العاكف فيه والباد ، وان الله تعالى يقول : « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ، ويتخطف الناس من حولهم » وان أرض مكة المكرمة كلها حرم آمن ، واذا كانت مكة المكرمة نسكا وحرما ، فهى معبد ، والمعابد لا تملك ، انما هى وقف على العباد لا تباع ولا توهب ولاتورث ٠

ثانيا : كل تعبير بالحرم او نحو ذلك فهو تعبير عن مكة المكرمة ـ يقول الله تعالى : « ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله ، والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب اليم » ٠

وترى ان مكة المكرمة كلها بظاهر النص واشاراته هى موطن العاكف ومزار البادى فكلها نسك ، لا يورث ولا يملك وحجة هذا الرأى ايضا : انه قد وردت الآثار صريحة بالنهى عن بيعها ، وعن اجارتها ، وعن وراثتها ، ولقد قال عبد الله بن عمر من أكل أجور بيوت مكة المكرمة ، فانما يأكل فى بطونه نار جهنم ٠

وثالثا : ان عمر بن الخطاب نهى عن اتخاذ الأبواب فى دور مكة ، المكرمة وأمر بفتح الأبواب لمن كان لداره باب ، فلا يغلقه ، ليسهل أن يبيت العاكف فيه والباد ، كما صرح الله سبحانه وتعالى ٠

ورابعا : كتب عمر بن عبد العزيز على مشهد من التابعين الا تؤجر دور مكة المكرمة ٠

هذه حجج الذين قالوا انها لا تملك ارضها ، ولا تؤجر ، ولا تباع ولا تورث ٠

وحجة الذين اباحوا امتلاكها ـ أن الله سبحانه وتعالى اضاف ملكيتها الى اصحابها فقال تعالى : « للفقراء والمهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم » وقال تعالى : « والذين هاجروا ، واخرجوا من ديارهم » ٠

وقال تعالى : « انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين واخرجوكم من دياركم » ٠

وفى هذه النصوص كلها اضاف الديار اضافة اختصاص الى المهاجرين :

وقد سأل سائل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أين تنزل غدا بدارك ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « وهل ترك عقيل من دار » وفى رواية من رباع ، فلم يقل انه لم يكن له من دار ولقد آلت ديار ابى طالب عم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى عقيل ابنه ، ولم يأخذ منها أخوة على شيئا ، لأن عليا كان مسلما ، فلا يرث من أبى طالب ، ولا يرثه الا عقيل ، ومن بقى على الشرك ٠

واخبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن عقيلا اخذها ، ولم ينزعها من يده ، فدل ذلك على سلامة ملكيته بالميراث ، بل أقرها وسكت ·

وقد كانت الدور تنسب لأصحابها ، فيقال دار أم هانى ، ودار خديجة ، وغيرها ، وكانوا يتوارثونها كما يتوارث المنقول ·

وقد باع صفوان بن أمية دارا لعمر بن الخطاب بوصف انه أمير المؤمنين فاتخذها سجنا ، يسجن بعض ذوى المعاصى ليمنع شرهم ·

وهكذا كان يجرى البيع والشراء فى الدور ، والتوارث فيها ·

ولقد وفق ابن القيم وغيره بين أدلة الفريقين ، بأن الأدلة المثبتة لجواز البيع والاجارة والميراث ، موضوعها البناء ، وأما الأرض فانه لا يجرى عليها البيع ولا الميراث ، وبذلك ينتهى الحكم المقرر بالنسبة لمكة المكرمة أن الأرض موقوفة على مصالح المسلمين ، والبناء مملوك لمن اقاموه ، وينتقل بالوراثة ، والله سبحانه وتعالى أعلم ·

سب النبى صلى الله عليه وسلم

٦١٨ ــ ثبت حكم سب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذه الغزوة ، لأن جارية سبت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقتلها سيدها ، ولأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أباح دم جاريتين كانتا تتغنيان بسبب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأمر بقتلهما فى ضمن من أهدر دمهم ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة الشريفة ، وعندما كان كعب بن الأشرف يسب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بقتله ·

ولذلك كان الذمى اذا سب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اعتبر نابذا للعهد ·

وان سب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم افساد فى الأرض ، وخروج عن حكمه ، والمفروض فى كل من يكون تحت طاعة دولة أن يطيع منشىء هذه الدولة ، ومنشىء دولة الاسلام هو سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فسبه خروج عليها ·

وقد عرض سؤال غريب ، اننا قبلنا أن يبقى الذمى ، وهو يعبد النار ،

ويؤمن بالتثليث ، وغير ذلك مما هو خطأ فى جنب الله تعالى ، فكيف لا نقبـل عهد الذمى اذا سب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ان هذا فى القياس غريب !!

ونقول فى الجواب عن ذلك : ان ذلك اعتقادهم ، وقد قبلنا ان يبقـوا تحت ظلنا مع استنكار ما هم عليه وأمرنا بتركهم وما يدينـون ، ولم يكن فى ذلك البقاء افساد للنظام ، ولا هدم للعهد ، أما سب النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم فهو متضمن امورا اخرى عظيمة ، فهو يتضمن مهاجمة الاسـلام ، والا يترك المسلمون وما يدينون ، بينما المسلمون تركوهم وما يدينـون ، وفوق ذلك يكون اعلانا للخروج على الطاعة والنظام ٠

غزوة هوازن

٦١٩ ــ أخذت القوى العربية المشركة تتخاذل شيئا فشيئا ، وبعد أن فتحت أم القرى ، وتلاقت فيها القلوب على مودة ورحمة ، وعادت الأخوة بين ذوى الأرحام ، لم يبق من أهل القوة من العرب الا هوازن وثقيف بالطائف ، وكانوا ذوى بأس شديد فى البلاد العربية ٠

ولقد قال الصديق وهو ينطق بالحكمة : « لن نغلب بعد اليوم من مكة » وقد صدق فى ذلك ، فانهم قد صاروا كثيرا وقد توافر العدد ، وتوافرت العدة ، ولكن تكون الهزيمة من غرور أو ضعف فى النفوس ، أو عدم التنظيم الجامع ٠ وقد صدقه ربه فى ذلك ٠ فقال تعالى :

« لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين ، ثم انزل الله سكينته على رسوله ، وعلى المؤمنين وانزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين ، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم » ٠

وان الجيش الاسلامى كان اثنى عشر الفا ، وذهب الى هوازن ، والتقى بهم فى أوطاس فى العاشر من شوال من السنة الثامنة من الهجرة ٠

ونحب هنا أن نشير الى جيش الاسلام فى هذه الموقعة ، أهو جيش المؤمنين ، أم كان فيه من دخل الاسلام ، ولم يدخل الايمان فى قلبه ، كما قال تعالى : « **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الايمان فى قلوبكم** » ٠

كذلك كان الجيش فيه الطلقاء ، الذين قال لهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « اذهبو فأنتم الطلقاء » ، وفيه ضعاف فى الايمان الذين كانت تحدثهم نفوسهم بأن ينقلبوا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما قال أبو سفيان فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « اذن ليخزينك الله » وفيهم من هم باغتيال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكشف الله تعالى سره ، وفيهم والمعركة دائرة بين الجيشين فى حنين من هم بأن يقتل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وفيه كثيرون من الأعراب الذين أسلموا ولم يؤمنوا ، فكان جيش الاسلام ولم يكن جيش الايمان ، ألم تر أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد أعطى من غنائم حنين طائفة من كبار قريش أموالا كثيرة ، ليتألف قلوبهم كأبى سفيان ابن حرب ، وابنه معاوية ، وان التأليف الى الاسلام دليل على ضعف الايمان ، لأنه يتألف قلوبا للايمان ٠

وان الهزيمة لم تكن من أهل الايمان الأولين الذين بايعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوم الحديبية ، بل نادى النبى صلى الله عليه وسلم والمعركة عنيفة بينه وبين هوازن المهاجرين والأنصار ، فجاء منهم مائة حولوا الهزيمة الى نصر ، ولم يثبت مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الا عشرة هم أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وعلى بن أبى طالب ، والعباس الذى أسلم عقب بدر ، وأبو سفيان بن الحارث ابن عم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والفضل بن العباس ، وجعفر بن الحارث ، وربيعة بن الحارث ، وأسامة ابن زيد ، وأيمن بن أم أيمن ٠ فأين خالد وعمرو بن العاص ؟ ٠

والاية صريحة فى أن الله ألقى السكينة والثبات على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين ، فهم الذين ثبتوا بعد ان اضطربت الصفوف بين الذين لم تكنْ لهم خبرة بلقاء أهل الايمان وأهله ، ولقد دعا الله المؤمنين من المهاجرين والأنصار ، فلبوا النداء ٠ وسارع منهم مائة ، فقلبوا الهزيمة لقاء ، ثم نصرا بتأييد الله تعالى ٠

ابتداء المعركة :

٦٢٠ ـ قلنا انه لم يكن من بين القوى العربية فى البلاد من له قوة وشوكة بعد مكة المكرمة وقريش الا هوازن فاعتزم أن يعمل لاسلامهم ، بينما هوازن يفكرون فى حرب النبى عليه الصلاة والسلام اتقاء لأنفسهم ، ومنعا من دخول الاسلام اليهم ، أو هجوم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عليهم ، وما كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يهاجم الآمنين ولكن يرد كيد من يدبرون له حربا ، أو يريدون كيدا ٠

ولقد جاء مالك بن عوف النضرى ، فجمع الجموع ٠ فاجتمع اليه من هوازن ثقيف كلها ، واجتمعت نضر وجشم كلها وعدد قليل من قيس بن عيلا ٠

وكان فى جشم شيخ له تجربة ودراية فى الحروب ، وان لم تكن له قوة على المنازلة لشيخوخته وهو دريد بن الصمة ، ولما أراد النفير مالك بن عوف ،

أخذ مع الجيش النساء والمال ليستثير حميتهم بنسائهم وأموالهم فيندفعوا مقاتلين ليحموا نساءهم وأموالهم وذراريهم ٠

وقد ساروا بدريد بن الصمة فى شبه هودج ، فسمع أصوات الأموال من النوق والحمير والنساء والصبيان ، فقال ٠ مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاة ، قالوا ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فقال أين مالك ؟ فجىء اليه فقال له :

يا مالك انك قد أصبحت رئيس قومك ، وان هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام ، مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاة ، قال سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم ٠ قال ولم ذاك ؟ قال أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم ، فانقض به (أى زجره) وقال راعى ضأن ، أى لست بمقاتل ٠ وهل يرد المنهزم شىء ، انها ان كانت لك ، لم ينفعك الا رجل بسيفه ورمحه ، وان كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك ٠

ولكنه لم يطعه عوف بن مالك ، ولكن هوازن أطاعوه ٠

وقد ترامى الى سمع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم همس بما دبروا ، فأرسل اليه من يأتيه بجملة أمرهم وأمره أن يدخل فى الناس ليعرف حالهم ويأتيه بأخبارهم ، فأقام فيهم ، حتى سمعوا ما أجمعوا عليه من حرب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسمع من مالك بن عوف وهوازن فجاء وأخبر الرسول ٠

فاخذ الرسول الكريم المدافع عن الحق يستعد لهم ويلقاهم ٠ وذكر له أن عند صفوان بن أمية دروعا وسلاحا فأرسل اليه وهو يومئذ مشرك ، ولعله كان فى المدة التى جعل لنفسه الخيار فيها ، بين البقاء على ما هو عليه والاسلام ، فقال له يا أبا أمية أعرنا سلاحك نلق به عدونا غدا ، فقال صفوان : أغصبا يا محمد قال عليه الصلاة والسلام ، بل عارية مضمونة نردها اليك ، قال ليس بهذا من بأس ، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من سلاح ٠

خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم معه اثنا عشر ألفا ، منهم عشرة آلاف دخل بهم ، وهو جيشه الأول ، ولم يكن كله من المهاجرين والأنصار ، وألفان من أهل مكة المكرمة الذين أسلموا بعد الفتح ، أو لم يظهر اسلامهم الا فى الفتح ، وفيهم أبو سفيان بن حرب ٠ وكثير من أمثاله وخلف فى مكة

المكرمة عتاب بن أسيد من بنى عبد شمس ، ثم مضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على وجهه وهو ـ هوازن ، أو حنين أو أوطاس ، وكلهـا أسـماء لهذه المعركة ·

ولا شك أن الجيش كان فيه ألفان قريبا عهد بالجاهلية ، كمـا أشرنا من قبل ، ولقد روى ابن اسحق بسنده عن الحارث بن مالك ، أن الحارث هذا قـال خرجنا مع رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى حنين ونحن حديثو عهد بالجاهلية ·

ولقد رأى الجيش شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنـواط كانت قريش ومن حولهم يقدسونها ويأتون كل سنة يذبحـون عندها تقديسا لهـا ·

فراعهم منظـرها ، ورأوها سدرة عظيمـة · ويقول الحارث بن مالك تنادينا من جنبات الطـريق : يا رسـول الله : اجعـل لنا ذات أنـواط (أى شجرة عظيمة نقدسها ، وننحر عندها) ·

قال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الله أكبر قلتم والذى نفس محمد بيده كما قال قوم موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة ؛ قال انكم قوم تجهلون انها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم ·

كان من الألفين اللذين ضمهما النبى صلى الله عليه وسلم الى الجيش الذى غزا به مكة المكرمة ، من فيهم هذه العقلية وكلهم أو جلهم حديث عهـد بالجاهلية لما يدخل الايمان فى قلوبهم ·

الانهزام ثم الانتصار :

٦٢١ ـــ تقدم جيش الاسلام الى وادى حنين ، وكان ذا أوديـة وطرق مختلفة ، فتقـدم المسلمون فى واد من أودية تهامة ، وانحـدر فيه انحـدارا حتى أوغروا فى باطن الوادى ، وكان جيش هوازن قد سبقهم الى الوادى وادى حنين ، وكمنوا فى شعابه ، وأحنائه ومضايقه ·

وكانوا محميين مهيئين ، وكان فى المتقدمين من جيش المسلمين على رأس بنى سليم خالد بن الوليد ، وما أن تقدم المسلمون وسط هذا الكمين المتعـدد النواحى ، وهم فى عماية الصبح ، وهو الظلام الذى يسبقه ؟ ·

وفى هذه الحال راع جيش المسلمين انقضاض هوازن عليهم كتائب قد

تعددت ، فشدوا شدة رجل واحد ، فكانت المفاجأة مروعة عنيفة ، وانتثر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحـد ٠

وقد انحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين ، ثم قال أيها الناس هلم الى أنا رسول الله محمد بن عبد الله ٠

ولكن الناس يفرون ، وحمل بعضها على بعض ، وكان الفرار من غير المؤمنين الأولين قد أفسد نظام الجيش واضطرب الأمر ، واختلط الحابل بالنابل ٠

ولقد ثبت مع النبى صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر ، وثمانية من بنى هاشم صدقوا وآمنوا ، وعلى رأسهم على بن أبى طالب ، والعباس ابن عبد المطلب ، ولا نعد ثبات على للقرابة ، بل لأن الثبات من شيمته أولا اذ هو فارس الاسلام كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ، ولايمانه ثانيا ، وقد يكون لقرابته ثالثا ، فهى فى المرتبة الأخيرة من الأسباب ٠

وأما السبعة الباقون فانا قد نقول للرحم دخل فيها ، ولكن لا نحرمهم من الايمان ، خصوصا العباس فقد آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فى أعقاب بدر وخرج مكرها فى بدر ، فرضى الله تعالى عنه ، وفى الوقت الذى كانت فيه الكفة راجحة لهوازن ، وقبل أن يلبى نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرون الأولون والأنصار جرت أمور تدل على سبب الهزيمة ٠

أولها : وحدتهم فى الفكرة ، وان كانوا على ضلال ، فالوحدة مع الشرك تثمر فى الحرب أكثر من العقيدة السليمة عند تفرق الأهواء والمنازع ، ووجود ضعاف الايمان مع أقويائه ٠

لقد كان فيهم رجل على جمل أحمر معه رمح طويل ، فان وجد هدفا لرمحه ضرب ، وان لم يجد هدفا رفع رمحه أمام جيش هوازن ، والناس من خلفه يتبعونه ٠

ثانيها : أن التردد وروح الهزيمة ظهر من رجال من الألفين ، فتكلم ناس من جفاة أهل مكة المكرمة ٠ قال ابن اسحاق ، لما انهزم الناس ، ورأى من كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من جفاة أهل مكة المكرمة الهزيمة تكلم رجال بما فى نفوسهم من الضغن ، فقال أبو سفيان بن حرب : « لا تنتهى هزيمتهم دون البحر » وتلك أمانيه ، وأخذ ينزل الطالع فى الأزلام رجاء أن تنبئه فى زعمه بأنها هزيمة ساحقة ٠

ولقد صرخ كلدة بن الحنبل ، وهو مع صفوان بن أمية الذى كان لا يزال مشركا ، اذ لم تمض المدة التى أخذ الخيار لنفسه فيها ، صرخ كلدة هذا ألا بطل السحر اليوم ، فقال صفوان الذى لم يعلن بعد اسلامه لهذا الذى ظهر فى الجيش مسلما ، وقال : ما قال ، : قال صفوان : اسكت فض الله فاك ، فوالله لأن يربنى رجل من قريش أحب الى من أن يربنى رجل من هوازن ٠

ثالثها : انه وجد من بين هذين الألفين من كان يحاول فى زحمة الاضطراب أن يغتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقد قال شيبة بن عثمان بن أبى طلحة أخو بنى عبد الدار قال ذلك الحاقد ، اليوم أدرك ثأرى من محمد ، وكان أبوه من حملة اللواء الذين قتلوا فى أحد ، وهو غير عثمان بن طلحة الذى أسلم مع خالد ، وأعطاه النبى صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة الشريفة ، ولم يعطه على بن أبى طالب مهلة ، اذ طلبه ٠

٦٢٢ ــ هذه ظواهر بدت بعد الانهزام وهى تعلن سبب الانهزام ، وهو أن الجيش الاسلامى الكبير كان فيه دعاة التردد والهزيمة من بين الألفين الذين كان الكثيرون حديثى عهد بالجاهلية ، ولما يدخل الايمان قلوبهم ٠

ونعود الى الانتصار بعد الهزيمة ، لم يزلزل قلب مؤمن ، والرسول عليه الصلاة والسلام لم تؤثر فيه هذه الحال ، بل اشتد بأسه ، وقال : لقد حمى الوطيس ، وأخذ يدعو المهاجرين الأولين ليعلموا مكانه ، ويقول : منـاديا لهم : أين أيها الناس ، ثم قال : يا عباس اصرخ ، وكان جهير الصوت : يا معشر أصحاب الشجرة ، يا معشر أنصار الله وأنصار رسوله ، يا معشر الخزرج ، فأجابوه لبيك لبيك ، فكان الرجل يذهب ليعطف بعيره ، فلا يقدر على ذلك ، فيقذف درعه فى عنقه ثم يأخذ سيفه وترسه ، ويؤم الصوت ، حتى اجتمع عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو مائة ولكنهم بقية من بقايا بدر ، وكما قال على بطل بدر وأحد ، والخندق : بقية السيف أبقى عددا وأكثر ولدا ، والنبى صلى الله عليه وسلم راكب بغلته ، وأخذ بزمامها العباس ، وهو يقول ومعه هذا الجمع المؤمن :

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

اللهم أنزل نصرك ٠ ثم تجمعت الجموع المؤمنة حول النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول الآن حمى الوطيس ، عادت الجولة لجيش المؤمنين ، بعد أن مازت الهزيمة الخبيث من الطيب ٠

رأى على كرم الله وجهه الرجل الذى يحمل الرمح الطويل الذى يضرب به الهدف ، ان وجده ، ووراءه جيش هوازن ، رأى على الرجل ، وهوى

اليه مع أنصارى ، فضرب على عرقوبى الجمل فوقع على عجزه ، ووثب الأنصارى على الرجل ، فضربه ضربة أطن بها قدمه ٠

واذا كان كما يبدو الرجل حامل لوائهم فهذا لواؤهم قد سقط ٠

والنبى صلى الله عليه وسلم يحث المؤمنين على القتال ، ويقول : من قتل قتيلا فله سلبه ، وقد قتل بعض المؤمنين عشرين قتيلا من هوازن ، فكانت له اسلابهم ٠

وكان يتناول زمام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس عمه ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان ممن صبر فى تلك المعركة ٠

وكان فى المقاتلين فى جيش النبى صلى الله عليه وسلم نساء مؤمنات ، ومنهن أم سليم ، وكانت حازمة وسطها ببرد لها وهى حامل ، وكانت راكبة جملا ، فكانت تخشى أن ينفر ، فكانت تأخذ حزامها مع خطامه ٠

وكانت ترى أن الذين انهزموا كانوا من دعاة التردد والهزيمة ، رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لها أم سليم ، فقالت نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك ، كما تقتل الذين يقاتلونك ، فانهم لذلك أهل ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو يكفى الله تعالى يا أم سليم ، وكان معها خنجر ، فقال لها زوجها ما هذا الخنجر الذى معك يا أم سليم ؟ قالت خنجر أخذته ان دنا منى أحد من المشركين بعجته فقال زوجها ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم !! ٠

تحارب الناس ، واجتلدوا ، وكانت هوازن رماة ، ولكن رمى الله بالمؤمنين فى أوساطهم وهم يسلبون القتلى ، ويكتفون الأسارى ٠

يروى ابن اسحاق عن جابر بن عبد الله أنه قال والله ما رجعت راجعة ، حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

الانتهاء بالهزيمة الساحقة :

٦٢٣ ــ انتهت المعركة بالهزيمة الساحقة فى حنين ، بأن لجأ المنهزمون الى أوطاس ، وذلك بعد أن دعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وجمع المؤمنين حوله ، وكان دعاؤه هكذا : « اللهم انى أنشدك ما وعدتنى ، اللهم لا ينبغى لهم أن يظهروا علينا » ، ونادى أصحابه « يا أصحاب البيعة ،

يا اصحاب الحديبية الله الله الكرة على نبيكم ، يا انصار الله ، وانصار رسوله ، يا بنى الخزرج يا اصحاب سورة البقرة » وأمر من ينادى بذلك ، وقبض قبضة من الحصباء فحصب بها وجوه المشركين ، وقال شاهت الوجوه ، فهزم الله اعداءه ، وأعداء الحق من كل من حصبهم فيها ، واتبعهم المؤمنون يقتلونهم، وغنمهم الله تعالى أموالهم ونساءهم ، وذراريهم ٠

وفر فى هذه الهزيمة كبيرهم وقائدهم الذى كان يحثهم على أن يضربوا ضربة رجل واحد ، وهو مالك بن عوف ، فروا فرارا حتى دخلوا حصن الطائف، وفريق آخر منهم فروا الى أوطاس ، فأرسل النبى صلى الله عليه وسلم سرية لهم ، سنذكر أمرها ان شاء الله ٠

واخذ الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه يجمعون الغنائم من السبايا والأموال ، وغيرها مما افاء الله تعالى به عليهم ولقد حدث ابن اسحاق بسنده أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يبحث بقايا المعركة من غنائم ، واثار انهزام رأى امرأة مقتولة ، قالوا ان خالد بن الوليد قتلها ، ويظهر أنها ممن كن خلف المقاتلين ، ليدفعوهم للقتال ، كما دبر مالك بن عوف ، وحذره منه دريد بن الصمة لما رأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك قال مستنكرا ، ماكانت هذه لتقاتل وقال لبعض من حوله : الحق خالدا فقل له لا تقتلن ذرية وعسيفا ٠

ولم يذكر خالد فى هذه المعركة الا فى هذا الموضع منها ٠ ورضى الله عن عمر اذ قال عندما عزله عن قيادة الجيش فى الشام : « ان فى سيف خالد لرهقا » ٠

اوطاس :

٦٢٤ انهزمت هوازن هزيمة ساحقة ، ففروا الى الطائف ، وتجمعوا للقاء النبى صلى الله عليه وسلم هنالك متجمعين ٠

وتوجه فريق آخر نحو أوطاس ، وعسكر بها ، وتوجه بعضهم نحو نخلة ، وكانوا عددا ، فتبعت الجميع خيل المسلمين ، وكان ممن ادركوه دريد ابن الصمة صاحب رأيهم ، ومن يصدرون عنه ، ولما خالف مالك بن عوف رأيه كانت الفضيحة التى قدرها ونبه اليها دريد بن الصمة ٠ اذ سبيت النساء ، ولم يكن فى اخراجهن فائدة بل فضيحة ، اضطرتهم صاغرين للاستماع عند محمد صلى الله عليه وسلم ٠

ولقد قال ابن اسحاق : بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى آثارهم ابا عامر الأشعرى فأدرك هو ومن معه بعض من انهزم ، فناوشوه القتال ، فرمى أبو عامر الأشعرى فقتل ، وقد كانوا يحسنون الرمى ، وهو الذى حمل الراية فى أول يوم حنين ·

وقد حمل الراية من بعده ابن عمه أبو موسى الأشعرى فقاتلهم ، ففتح الله تعالى عليه أوطاس وانتصر عليهم ·

وقد جاهد من قبله ابن عمه جهادا قويا شديدا ، اذ لقى عشرة أخوة فبرزوا واحدا بعد واحد ، حتى قتل تسعة ، واسلم العاشر رغبا لا رهبا وحسن اسلامه والتقى برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكان اذا لقيه يقول شريد أبى عامر ·

وقد سبى فى حرب أوطاس كثيرات كما سبى اكثر من فى حنين ·

ويروى فى ذلك أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اصابوا يوم أوطاس سبايا لهن أزواج من اهل الشرك ، فكان اناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم تأثموا من غشيانهن فنزل قوله تعالى : « **والمحصنات من النساء الا ماملكت ايمانكم** » وان فى هذه الآية التى نزلت فى بيان المحرمات دلالة على جواز غشيان الاماء المشركات بملك اليمين ولا يمسك أحد بعصمة الكوافر ، ولكن يستبرىء أرحامهن بحيضة يحضنها ·

هذا وسميت هذه الغزوة الكبرى بغزوة هوازن وحنين وأوطاس ، الا أنها كانت فى هوازن وفى يوم حنين ، واستمرت حتى كانت أوطاس ·

ثمرات المعركة

٦٢٥ ـــ جمع النبى صلى الله عليه وسلم غنائم هوازن ، وأرسلها الى الجعرانة حتى يتتبع فلولها ثم ضم اليها ما غنمه من أوطاس من اموال وسبايا ، وكان مجموع ذلك كثيرا ، لأن هوازن برأى مالك بن عوف قربت السبايا والأموال من موطن الجهاد ، فكان مؤدى هزيمته ·

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسبى والغنائم ان تجمع ، فجمع ذلك كله ، ووجه الى الجعرانة ، وكان السبى ستة آلاف راس ما بين نساء وذرية ، وعدد الابل اربعة وعشرون ألفا ، وعدد الغنم اكثر من أربعين الف شاة وأربعة آلاف أوقية من الفضة ·

وهذا على أن أكثر معاملتهم النقدية كانت بالفضة ، ولم يكن استعمالهم للدينار الرومانى كثيرا ٠

ولم يوزع هذه الغنائم بين الفاتحين بمجـــرد انهزامهم ، وجمعها ، بل استأنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رجاء أن يأتوا مسلمين ، ولو بظاهر من القول ، تقريبا للنفوس ، فما كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الا هاديا يدعو الى الاسـلام ، وخصوصا ان مـا اخـذ منهم ان لم يكن كل أموالهم ، فهو أكثرها ٠

ولكن مضى بضع عشرة ليـلة ، ولم يجىء احد ٠

فقسمها بين الفاتحين ، وصرف منها للمؤلفة قلوبهم ، فأعطى أبا سفيان ابن حرب تأليفا لقلبه ، وليدخله الايمان أربعين أوقية من فضة ، ومائة من الابل ، ولكنه لم يكتف بما أخذ بل طلب لابنـه يزيد ، فقال ابنى يزيد ، فقـال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اربعين أوقيـة ، ومائة من الابل ، ولكنـه الطمع ، فقال ابنى معاوية فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أعطوه أربعين أوقية ومائة من الابل ، فمعـاوية كان من المؤلفـة قلوبهم ليدخلها الايمـان ، فليذكر ذلك من يضعونه أمام على أويناصرونه ٠

وأعطى حكيم بن حزام مائة من الابل ، ثم سأله مائة أخرى فأعطـاه ، وأعطى النضر بن الحارث ابن كلدة ، وأعطى العلاء بن حارثة الثقفى خمسين ، وأعطى العباس بن مرداس أربعين ، فقال فى ذلك شعرا ، فكمل له مائة ٠

واختص من بعـد ذلك زيد بن ثابت باحضار الغنائم والناس ، ثم فرقها على الناس ، فكانت سهامهم لكل رجـل اربعا من الابل واربعين شاة ، فـان كان فارسا اخذ اثنى عشر بعيرا ، وعشرين ومائة شاة وانه مما يلاحظ أن المؤلفة قلوبهم الذين كانوا فى المعركة نظارة ينظرون ، اخذوا أكثر نسبيا من المجاهدين ، فبينما كان نصيب المجاهد فى الغنيمة التى استولى عليه بسيفه اربع نوق كان نصيب أبى سفيان المترقب مائة له ولكل واحد من أولاده بمائة ، وله أربعون أوقية ، ولكل واحد مثلها ٠

ولكن المؤمنين الصادقين فى ايمانهم ما كانوا ليعترضوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو الهادى وهو المرشد ، وهو الداعى الى الحق ، والمؤلفة القلوب التى تتجه اليه ، ولكيلا تنحـرف عنـه ، وأولئك الذين ألفت قلوبهم ماديون ، تجذبهم المادة اكثر مما يجـذبهم الحق المجرد ٠

ولا يصح أن يفهم أحد أن ذلك شراء للايمان ، فان الايمـان لا يشـترى بالمال ، ولكن يشترى بالاذعان للحق ، ولكن أولئك أخذت منهم رياسة ، وأخذ منهم سلطان ، وهم كما عرف من ماضيهم لا يذعنون للحق المجرد ، ولا للدليل ، وفى دخولهم للاسلام ، لابـد من تأليف قلوبهم للاسهام ، وما يكتسبه الايمان بدخول الايمان قلوبهم أكثر ما تخسر من مال ، ولقد قال رسـول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم لامام الهدى على بن أبى طالب « لأن يهدى الله تعـالى بك رجلا واحدا ، خير من حمر النعم » ٠

ويجب التنبيه هنا الى أن كثيرين من أهل مكة المكـرمة الذين يترددون فى الدخول فى الاسـلام دخلوا فيه أفواجـا أفواجا لما رأوا النصر المبين ، والتأييد البين من الله سبحانه وتعالى ٠

موجدة الأنصار

٦٢٦ ــ روى ابن اسحاق بسنده عن أبى سعيد الخـدرى قال : لما أعطى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما أعطى من العطايا الكبار فى قريش ، وفى قبائل العرب ، ولم يكن فى الأنصار منها شىء ، وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم ، حتى قال قائلهم ، لقى رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم قومه ، فدخل عليه سعد بن عبادة ٠ فقال يا رسول الله ، ان هـذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم ، لما صنعت فى هذا الذى أصبت قسمت فى قومك وأعطيت عطايا عظيمة فى قبائل العرب ، ولم يكن فى هـذا الحى من الأنصار منها شىء ٠ قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : فأين أنت من ذلك يا سعد ٠ قال يا رسول الله ما أنا الا من قومى ٠ قال رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة ٠

فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا ، وجاء آخرون فردوا ، فلما اجتمعوا أتى سعد فقال قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار ٠

فأتاهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ووقف فيهم خطيبا ، فحمد الله تعـالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : « يا معشر الأنصـار ، ما قالة بلغتنى ، وموجدة وجدتموها فى أنفسكم ، ألم آتكم ضلالا ، فهداكم الله بى ٠ وعالة فأغناكم الله بى ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم !! قالوا لله ورسوله المن والفضل ، ثم قـال صلى الله تعالى عليه وسلم ألا تجيبونى معشر الأنصـار ، قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أما والله لو قلتم ، لصـدقتم ولصـدقتم ، أتيتنامكذبا فصـدقناك ،ومخذولا

فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فواسيناك ، أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم من لعاعة من الدنيا ، تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم الى اسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) الى رحالكم ، فوالذى نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون ، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وواديا ، وسلك الأنصار شعبا وواديا لسلكت شعب الأنصار وواديها ، الأنصار شعار ، والناس دثارلهم ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ، قال أبو سعيد الخدرى ، فبكوا حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا رضينا برسول الله قسما وحظا » ٠

وان الموجدة التى وجدوها ، ربما كان من أسبابها وجدوا أبا سفيان الذى قاتلوه أخذ العطايا العظيمة هو وأبناه ، وهم الذين قاتلوهم مجاهدين فى سبيل الله ٠

ولقد دعا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالرحمة لأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار فحقت عليهم الرحمة والرضا من الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم وكان من أبناء المؤلفة قلوبهم من سبوا نساء الأنصار وأبناء الأنصار فى واقعة الحرة ، فلعنه الله تعالى ، ولعن من مكنه ٠

الشفاعة فى الغنائم بعد توزيعها

٦٢٧ ـ مكث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بضع عشرة ليلة لا يوزع الغنائم ، رجاء أن يسلموا ، أو رجاء أن يطلبوها على عهد يتعهدونه ، ورجاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ليس رجاء محارب انما هو رجاء هاد مرشد ، يريد القلوب ولا يريد الحروب لذاتها ٠

ولما وزعها عليه الصلاة والسلام ، جاء اليه صلى الله تعالى عليه وسلم وفد من هوازن من أربعة عشر رجلا ، وعلى رأسهم عم رضاعى لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

جاءوا اليه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد فرغت أيديهم من أموالهم بسبب حمق عوف بن مالك ، وعدم طاعته لصاحب الخبرة من قومه ، ورأوا نساءهم سبايا ٠

جاءوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسألوه أن يمن عليهم بالسبى والأموال ، أى يرد عليهم كل ما أخذ منهم ويظهر أن النبى صلى

الله تعالى عليه وسلم كان يميل الى أن يرد السبايا ، ولا يرد المال ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم لهم « ان معى من ترون ، وأن الحديث الى أصدقه ، فأبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم اموالكم » ، قالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيئا ٠

فقال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « اذا صليت الغداة ، فقوموا فقولوا انا نستشفع برسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) الى المؤمنين ، ونستشفع بالمؤمنين على رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) أن يرد سبينا » ٠

فلما صلى الغداة قاموا فقالوا ذلك ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أماما كان لى ولبنى عبد المطلب ، فهو لكم ، وسأسأل الناس ٠

فقال المهاجرون والأنصار ، ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

فقال الأقرع بن حابس أما انا وبنوتميم فلا ٠

وقال عيينة بن حصن ، اما انا وبنو فزارة فلا ٠

وقال العباس بن مرداس ، أما انا وبنو سليم فلا ، فقالت بنو سليم ، ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ فقال العباس ابن مرداس لقومه : وهنتمونى ٠

وهنا نجد الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الحر الكريم المحب للحرية يبين أنه يريد تحرير السبى ، فيقول صلى الله تعالى عليه وسلم « أن هؤلاء القوم ، قد جاءوا مسلمين ، وقد كنت استأنيت سبيهم ، وقد خيرتهم ، فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئا ، فمن كان منكم عنده منهن شىء فطابت نفسه ، فبسبيل ذلك ٠

ومن أحب أن يتمسك بحقه ، فليرد عليهم ، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفىء الله علينا ٠

فدى بذلك كل السبايا من مال المؤمنين ، وقد طابت نفوس الناس بذلك ، وقالوا قد طيبنا رسول الله واتجه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من بعد ذلك الى تعرف من رضى ومن لم يرض ، وقال ارجعوا حتى يرفع الينا وفاؤكم

امركم ، فتفرقوا ، وردوا النساء والأبناء ولم يتخلف منهم أحـــد غير عيينة ابن حصن ، فانه أبى أن يرد عجوزا صارت اليه من السبى ، ثم ردها من بعد ٠

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رد السبايا مكرمات ، وكساهن كسوة كريمة ، فكساهن من القباطى ، وأعطى كل واحدة منهن قبطية ، ولسان حاله يقول رحمة : مغلوبين مكرمين ٠

وقبل أن ننتهى من الكلام فى الغنائم ومالها ، وهى غنائم هوازن نذكر حكمة الله تعالى فيها ، ورعايته لجيش الاسلام ، وحمايته من الضياع ٠

ذلك أن فتح مكة المكرمة لم ينل فيه المسلمون شيئا من الغنائم ، فما أفاء الله تعالى على رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم والمؤمنين بشىء منها تكريما لها ، وحماية لأموالها ، فجاءوا اليه غير فاتحين بل جاءوا طائفين ساعين بين الصفا والمروة ، وان لم يحرموا احرام عمرة ٠

ولكنه جيش جرار ، يضم عشرة آلاف جاءوا من المـدينة المنـورة الى مكة المكرمة ، فلابد أن يحتاجوا ما يمون جيشا كبيرا ، فهؤلاء قطعوا الفيافى ، والقفار ، وليسوا على مقربة من ديارهم حتى ينالوا منها ما يحتاجون اليه ٠

فساقهم الله تعالى الى هوازن ، وساق هوازن اليهم ، وقذف الله تعالى الى قلب قائدها مالك بن عوف أن يخرج بمال هوازن جميعه ونسائهم ليقـوى الجيش وتجرى فيه الحماسة دفاعا عنهم ، فلم يغن عنهم من ذلك شىء ، وساق الله تعالى بذلك سبيا كثيرا ، ومالهم كله ، فأخـذ جيش الاسـلام المال كله ، ووزعه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بما أراه الله ٠

أحكام شرعية فى غزوة حنين

العـارية المضـمونة :

٦٢٨ ـــ جاء فى أول غزوة حنين أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم علم أن عند صفوان بن أمية عارية فأعار الجيش الاسلامى دروعا وأسلحة ، والنبى صـلى الله تعالى عليه وسـلم تعهد بضمانها ، وقال عارية مضمونة ، أفمؤدى هذا الضمان أن يردها عليه ، ولا يغتال لها الجيش الاسلامى ، أم المراد أنها واجبة الارجاع بقيمتها ان تلفت ، أو نحو ذلك ٠

اختلفت أنظار الفقهاء فى فهم ذلك ٠

وخلاصتها أن الفقهاء أجمعوا على أن الاعارة فى يد المستعير كالوديعة لا تضمن الا اذا تلفت بالتقصير فى الحفظ ، أو استعمالها فى غير ما أعيرت له ، فان ذلك يكون تعديـا ، والتعدى يوجب الضمان ، ولأن الاعـارة تبرع ، والتبرعات لا تضمن ان تلفت اذا كان التلف بالاستعمال الذى أعيرت له ٠

وان الشافعى رحمه الله قال ان الشروط الظاهرة فى العقود توفى كما نص عليها ، فالعارية تقبل الضمـان اذا اشترط الضمـان ، وتكون مضمونة بالشرط ، ولا تكون كالغصب لأن الغصب مضمون بالتلف دائما ، لأن اليد فيه يد معتدية ، وهى توجب الضمان عند التلف ٠

أما العـارية فالأصل أنها تكون أمانة فى يد من أخذهـا ، اذ لا يكون اعتداء ، ولكن يجوز أن يتفق الطرفان على الضمـان ، خصوصا اذا كـانت الاعـارة لأمر يكون مظنة التلف كأسلحة لحرب ، أو طاحونة للادارة ، فـان التلف يكون مظنونا وقريبا ٠

وقال أبو حنيفة ومالك وبعض جمهور الفقهاء : ان العارية لا تضمن ولو بالشرط ، لأن ذلك قلب لحقيقة معناها ، اذ هى وديعة فى معناها ، والوديعة لا تضمن ، فهى لا تضمن ، ولكن يجب أن يلاحظ أن ثمة فرقـا بين الوديعـة والعارية ، فالعارية تستعمل باذن المالك ، والوديعة لا تستعمل ، بل استعمالها بغير اذن صاحبها ، يخرج من معنى الوديعة الى معنى آخر ، وهو العـارية ، وبغير اذن المالك تتحول اليد الى يد معتدية ٠

وان أولئك الفقهاء الذين قالوا : ان العـارية لا تكون مضمونة ، قالوا ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يرد الضمان برد العين ، أو بقيمتهـا ان تلفت انما أراد أنها مؤداة أى مضمون أن تعاد الى صاحبها ان سـلمت ، فان تلفت ، لا يتصور ضمان قيمتها ، وذلك لأن العبارة رويت عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه قال مؤداة فى بعض الروايـات ، فهذا يدل على أن المراد من كلمة مضمونة فى الرواية الأولى أن تكون مؤداة ، والضمان على الأداء ، لا على التلف ، ولأن كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان اجابة لصفوان ، اذ قال النبى صـلى الله تعالى عليه وسلم : أغصـبا ــ يا محمد ، فتضمن كلام صـفوان الاسـتفهام عن أن تغتصب عينها ، فكانت اجابة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عليها مؤداة ، أننا لا نغتصبها ، بل نأخذها على أنها عارية ترد ، فكان الأقرب أن تفسر بأنها مردودة أو مؤداة ، لأن السؤال لم يكن عن الوصف ، بل كان عن أصل الأخذ عن العين بالرضا أو بالكره ، وعن نوعه أعلى وجه الملكية أم على وجه العارية ٠

وفوق أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وصف الضمان بأنه للعين ، ولا يتصور ذلك الا بردهـا ذاتهـا فليس الكلام فى ضمانهـا اذا تلفت بأداء قيمتها ولهذا كان الواضح هو ضمان ردها ٠

وفى أحكام الاتلاف فى الحرب ، أنه يجوز اتلاف كل مـا يكون اتلافه مضعفا للعدو ، اذا كان موضوع ذلك أداة من أدوات الحرب يملكونها ، فتل الحيوان الذى يركب فى الحرب فقـد عقر على كرم الله وجهه الجمـل الذى كان يركبه من اتخذ رمحه كاللواء ، يقتل بالرمح ان وجد من يقتله ، ثم يرفع الرمح من بعد ذلك كاللواء ، فجاء على ، وضرب الجمل ، فسقط الرجل فتلقاه بعض الأنصار فقتله ٠

وهذا يدل على أنه يباح من اتلاف الحيوان ما يكون أداة حرب ، ولا يعد ذلك تعذيبا للحيوان بقطع طرف من أطرافه فى ميدان القتال ٠

عطاء المؤلفة قلوبهم من غنيمة هوازن

٦٢٩ ـــ للمؤلفة قلوبهم فى الزكاة يثبت بقوله تعالى « **انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب والغارمين ، وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ، والله عليم حكيم** » ٠

هذا سهم مقرر فى الزكاة ، وهو ينفق فى سبيل تأليف القلوب ، لتؤمن ويؤمن قومها من ورائهـا ، ولايواء من يسـلم ، فيجرد من ماله أو يقطع من أهله ، فيعـان ، ولذلك قرر بعض العلمـاء أن يصرف سهم المؤلفة قلوبهم فى الدعوة الاسلامية ٠

ولذلك جعل له سهم قائم فى الزكاة ، ليكون لهم مورد دائم مستمر ، فلا يقتصر على أن يكون موردها الغنائم التى ليس لها صفة الدوام ٠

والعطاء الذى أعطيه المؤلفة قلوبهمأهو من الخمس الذى وضع تحت تصرف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لنفسه ولذوى القربى واليتـامى والمساكين وابن السبيل الذى نص عليه فى قوله تعالى : « **واعلموا انما غنمتم من شيء ، فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى ، واليتـامى والمساكين وابن السبيل ، ان كنتم امنتم بالله ومـا انزلنـا على عبدنـا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله على كل شيء قدير** » ٠

أكان عطاء المؤلفة قلوبهم من هذا الخمس ، أم كان من أربعة الأخماس العامة ·

قال الشافعي ومالك رحمهما الله تعالى هو من الخمس الذى يخص النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأربعة الأخماس قد وزعت على المحاربين ، ولأن أربعة الأخماس صارت حقا للفاتحين ، ولا يؤخذ شيء من صاحب حق الا بعد استئذانه ، ولم يستأذنهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم تكن هذه العطايا من كل الخمس الذى كان تحت تصرف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه مقسم على خمسة أحدها للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ ذلك من نصيبه هو ·

ويرى الامام أحمد أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عد ما أخذه هؤلاء من الأنفال وهى لله ولرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكما قال تعالى : « **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله وللرسول** » ·

وكأن الغنائم لا تقسم ابتداء ، وليست حقا ثابتا للفاتحين بمجرد الفتح ، وانما هى حق لهم بعد أن ينفل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما يرى نفله تقوية للدعوة ، وتاليفا للقلوب وتقريب البعيد ، وانه يجب أن يعلم ان الحروب فى الاسلام ما كانت لجمع الغنائم ، وانما كانت لدفع الاعتداء وفتح الطريق أمام الدعوة ، فما يكون للدعوة بتاليف القلوب ، أجدى من غيره ، وان الأنفال يكون التصرف فيها قبل توزيع الغنائم ، انما الغنائم بعد الأنفال والأنفال يكون التصرف فيها لمصلحة الدعوة الاسلامية ·

وهل هذا يكون الذى أعطاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من الأنفال فهل يكون لغيره من أمراء المسلمين وأئمتهم ، ونقول فى الاجابة عن ذلك ، ان ذلك يجوز ان كانوا كأبى بكر وعمر وعلى ، وعمر بن عبد العزيز فلهم ذلك ، لأن عدالتهم ودينهم يمنعانهم من أن يتخذوا أنفالا لغير المصلحة الحقيقية التى تعود الى مصالح الاسلام والمسلمين ، والدعوة الحق الى الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، وغير هؤلاء الذين يكونون على غير ما هم عليه من العدل ، والايمان ، يتخذون ذلك لهواهم ، وتقريب الصديق ، وابعاد المستحق ·

وما قرره أحمد وعلماء السنة من أن ذلك كان قبل التخميس ، يؤيده ما جاء على ألسنة الأنصار من الموجدة والمعتبة ، لأن هذا العطاء لأبى سفيان وولديه ، وقد كان ينقص من أنصبة المستحقين فى أربعة أخماس الغنيمة ، ولكن ايمانهم مكنهم من أن يعرفوا مقصد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ·

تبادل الرقيق بالحيوان

٦٣٠ ــ عندما اتجه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى السبايا من هوازن الى اهليهم ، بعد أن دخلوا فى الاسلام ، وكان العدد كثيرا ، أربعة الاف ، أطلق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من فى يده وبنى عبد المطلب من السبايا ، وعرض على المؤمنين أن يفعل ما فعلوا ، فرضى باتباعه المهاجرون الأولون والأنصار ، وغيرهم ممن لم يرتضوا باجازة ما أجاز النبى صلى الله تعــالى عليه وسلم ، فان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم طلب اليهم اطلاق سراح النساء والأبناء على أن يكون لكل رقبة من السبايا ستة نوق مما يجىء فى المستقبل من غنائم ، فرضوا جميعا الا عينية بن حصن فقد أبى حتى هذا وتلكأ ، ثم رضى بأن يطلق سراح عجوز كانت عنده ، ولم يكن عنده غيرها ، فهل كان هذا الذى فعله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم معاوضة ٠

لقد تكلموا فى هذا فبنوا عليه النظر فى أمرين :

أولهما : جواز بيع الحيوان بالحيوان مع التفاضل فى القدر والنسيئة ، كما يجوز بيع الرقيق بالحيوان ، أو شراءالرقيق بالحيوان ٠

وثانيهما : جواز التأجيل الى أجــل غير معلوم ، اذ ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد قرر انه يعطيهم عن كل رقبة من السبايا الستة من النوق فى الغنائم المقبلة ٠٠

أما بالنسبة للأمر الأول ، فقد قالوا ــ انه يجوز بيع الحيوانات بعضها ببعض متفاضلا ولا يشترط التسليم ، ومنع ذلك بعض الفقهاء على انه من ربا البيوع التى لا يجوز فيها التفاضل عند اتحــاد الجنس ، ويجب القبض مع جواز التفاضل عند اختلاف الجنس لأنهــا مضمونــات ، وقد اخذوا هذا من اثار اخرى ٠

وأما تأجيل أحد العوضين الى أجل غير مسمى ، ولا معين ، فقد اجازه احمد بن حنبل وطائفة من علماء السنة اذا تراضى عليه الطرفان ، اذ لا محذور فى ذلك ، ولا عذر ، وكل منهما قد دخل على بصيرة ورضا ٠

وقــال أبو حنيفة ان ذلك يفضى الى المنــازعة ، وان كل ما يؤدى الى المنازعة يكون باطلا ٠

وان تخريج عمل رسول الله صلى الله تعــالى عليه وسلم على انه بيع فيه نظر ، فلم تكن مقايضة بين القائمين وبين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم

انما كان هنـاك عتق فى نظير مـال ،فالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم طلب اليهم أن يطلقوا ما فى أيديهم من السبايا ، وأن يعوضهم عن هذا العتق بمال تكون قيمته هى قيمة من أعتقوهم فى نظر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد ارتضوا ما قدر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو عتق بشرط وليس ببيع ٠

وان العتق هو تبرع مالك الرقبة للرقبة نفسها ، لأنه اعطاء الحرية فهو هبة بشرط العوض والهبة (والعتق بالذات) يتسامح فيها بما لا يتسامح فى غيره ، وما كان العوض المؤجل ثمنا ، حتى تكون جهالته مفضية الى المنازعة ، انما هو عوض فى عتق فلا يؤدى الى التنازع ، ولذلك نقول انه ما كان ثمة حاجة الى مناقشة كونه ربويا ، أو غير ربوى ، وكون التأجيل الى أجل مجهول جائز أو غير جائز ، فان تصرف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعيد عن ذلك كل البعد ٠

غزوة الطائف

٦٣١ — تتبع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هوازن حيثما سارت سار وراءها ، سار وراءها الى أوطاس ، اذ دخلتها هوازن وتحصنت بها ثم ساروا الى الطـائف ، وهى ذات حصون قوية ، وهم أشداء ، ورماة ، فسار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فلما علموا بمسيرته تحصنوا بحصونهم ، وجمعوا طعاما وزادا يكفيهم سنة ، بحيث يصبرون اذا طـال الحصار عليهم ، فيجهد أصحاب محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ولا يجهدون وهم فى حصونهم يرمون ولا ينالون ، فيقتلون ولا يقتلون ٠

والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم عندما اتجه الى حصونهم أشار عليه سلمان الفارسى بالمنجنيق يرمى بها حصونهم ، فيأتيها من قواعدها ، فتنهار قوة تحصينهم ٠

وصنع لهم النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم دبابات من خشب تقتحم عليهم حصونهم ٠

مضى الرسول صلى الله عليه وسلم الى حصون الطائف ، فرموا جيش النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وصار النبل ينزل على المؤمنين كأنه جراد ، فقتل من المســلمين عــدد قيل انه بلغ اثنى عشر شـهيدا أو يزيد ، فأوى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى مكان بعيد عن مرمى النبل ، ولكنه يريد أن يعرف حالهم فى الداخل ٠

فنادى منادى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، من خرج منهم ، ودخل جيش المسلمين من العبيد ، فهم أحرار ٠

فخرج نفر من العبيد ، ونالوا حريتهم بحكم الشرع ، وبحكم ذلك النداء المحمدى الحر الكريم ، ولقد تعرف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أحوالهم، وعلم أن عندهم الزاد الذى يكفيهم سنة ٠

وأخذ عليه الصلاة والسلام يعمل على أن يخرجوا من الحصون مختارين فأمر بالنخيل أن يقطع ، وبالكرم أن تجتث ــ فرأوا أن ذلك ضياع لثروتهم ، وقالوا ما يكون لنا ان قطعت كرومنا ونخلنا ، وقال مناد من بنى ثقيف قد بعثوه يقول ، لا تفسدوا الأموال ، فانها لنا أو لكم ٠

هز ذلك نفوسهم ، وأضعف عزيمتهم ، وخصوصا أن عبيدهم أخذوا يتركونهم ، وكان العبد الذى ينال الحرية يدفعه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى بعض المسلمين يعولونه ، حتى ينال خيرا فى حريته ، واستمروا يقاومون مع ضعضعة نفوسهم والمسلمين ينالون من حصونهم ، حتى انهم ليحمون الحديد ، يرمونه على الدبابات الخشبية ، ليحرقوها ، ويخرجوا الرجال من تحتها ٠

وقد كان بين الطائف وقريش رحم ومصاهرة ٠

ولذلك تقدم ناس من قريش لثقيف يمنعونهم من المطاولة ، فالنتيجة ليست لهم ، وان العاقبة للمتقين ٠

تقدم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يطالبون ثقيفا بأن تؤمنهم ليتمكنوا من كلامهم ، وقد لانت شكيمة ثقيف ، وقبلت التفاهم ، فأمنوهما ، تقدم أبو سفيان ودعوا نساء من نساء قريش وكنانة ليخرجن اليهما ، ولكنهما لم يجبن خشية السبى كما كان لنساء هوازن ، منهن آمنة بنت أبى سفيان ٠

فلما أبين عليهما قال لهما الأسود بن مسعود يا أبا سفيان ويامغيرة الا أدلكما على خير مما جئتما له ، وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نازلا بواد يقال له العقيق قال ابن مسعود هذا انه ليس بالطائف مال أبعد رشاء ، ولا أشد مؤنة ، ولا أبعد عمارة من مال بنى الأسود ، وان محمدا ان قطعه لم يعمر أبدا ، فكلماه ، فليأخذ لنفسه ، أو ليدعنه لله وللرحم فان بيننا وبينه من القرابة ، ما لا يجهل ٠

لان القوم ، وثقيف لا يلينون الا اذا أرادوا أن يباعدوا بينهم العنف ،

ويريد السلم ، ولقد وجدوا أن الحصار عضهم ، وان كانت لديهم المؤن والذخائر ، فهو حبس كيفما كانت صورته ، وأن جيش النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أخذ أموالهم من النخيل والكروم ، ويأتى حصونهم من قواعدها وهم لا قبل لهم ، فنادوا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم بالرحم والقرابة ، وما كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يصم اذانه عن نداء الرحم والقرابة ، وهو الذى يأمر أن يوصل ما أمر الله تعالى بوصله ٠

وقد رأى الاسلام يدخل فى الطائف من مكة المكرمة وما حولها ، وان بعض بنى ثقيف دخلوا فى الاسلام وأكثرهم مال اليه ، وما كان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الا هاديا داعيا الى الحق والى صراط مستقيم ، وان اللين مع من عندهم عنف كثقيف قد يكون سببا فى أن تصغى قلوبهم الى الاسلام ، بينما العنف يعمى قلوبهم ويغلظ أكبادهم ويزيدهم عنادا ٠

فرأى عليه الصلاة والسلام استجابة لداعى الرحم الذى أثاروه ، والقرابة التى تنادوا بها ، والاصلاح فى الأرض أن يرحل ، وقد غاب عن المدينة المنورة أكثر من شهرين ٠

وان ذلك كان فى شوال ، واذا استمر فانه سيجىء ذو القعدة وهو من الأشهر الحرم ، وما كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليقاتل مهاجما فى الأشهر الحرم ، التى هى ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الذى بين جمادى وشعبان ٠

وموقف للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان موقف هجوم ، والنبى صلى الله عليه وسلم لا يخالف أمر الله تعالى باحترام الأشهر الحرم ٠

لذلك أخذ فى الرحيل عائدا الى المدينة المنورة بعد أن حاصر الطائف سبع عشرة ليلة ، وفى رواية سبعا وعشرين ليلة ، وقال ابن اسحاق : مكث بضعا وعشرين ليلة ٠

اتخذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الأهبة فى الرحيل ، وذكر أن الله تعالى لم يأذن له فى الطائف ، وذكر ذلك لخويلة بنت حكيم بن أمية ٠

فخرجت خويلة وذكرت ذلك لعمر بن الخطاب ، فقال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما حديث حدثتنيه خويلة ، زعمت أنك قلته ٠ أفلا أؤذن بالرحيل ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : بلى ، فأذن عمر رضى الله تعالى عنه بالرحيل ٠

رحل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى يثرب عائدا من تلك الرحلة المباركة غير مهزوم ولا مغلوب ولا عاجز ، ولكنه قادر ومنفذ لحدود الله ، غير مقاتل مهاجما فى الشهر الحرام ، مراعيا الرحم والقرابة ، وآخذا القوم الى الاسلام فى رفق وغير غلظة ، وخرج من بين ظهرانيهم ، ليلقى وفد هوازن وثقيف فى المدينة المنورة بين ظهرانى المسلمين ٠

ولما ارتحلوا وأخذوا يستقيمون على الطريق بعد هذا الفتح المبين ، والنصر المؤزر ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « آيبون عابدون لربنا ، حامدون » ٠

وقيل لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ادع على ثقيف ، فقال نبى الرحمة : « اللهم اهد ثقيفا وآت بهم » ٠

ويروى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم اتبعه فى أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يدخل المدينة المنورة مسلما ، وسأله أن يرجع الى قومه بالاسلام فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : كما يتحدث قومك أنهم قاتلوك ، وعرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن فيهم نخوة الامتناع الذى كان فيهم ، فقال عروة يارسول الله : أنا أحب اليهم من أبكارهم ، وكان حقيقة مجابا مطاعا فيهم ، فخرج يدعو قومه الى الاسلام رجاء الا يخالفوه لمنزلته فيهم ، فلما أشرف عليهم من مكان مرتفع يدعوهم الى الاسلام رموه بسهم فقتله ، فقال رضى الله عنه : كرامة أكرمنى الله تعالى بها ، وشهادة ساقها الله تعالى الى ، فليس فى الا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنونى معهم فدفنوه ٠

ويظهر أن قتلهم عروة ، وهو المحبب فيهم ، قد أثر فى نفوسهم ، وقد رأوا أن العرب قد دخلوا فى طاعة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنهم وحدهم الباقون على عدائه ، ولا قبل لهم به ، ولا بحرب من حولهم من العرب الذين بايعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأسلموا ٠

لذلك أجمعوا أن يرسلوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكلموا عبد بن ياليل ، وكان فى سن عروة بن مسعود ، وعرضوا عليه ذلك ، فأبى أن يجيبهم ، وقد رأى ما صنعوه مع عروة ، وكانوا هم الذين أرسلوه ، كما يحاولون ارسالهم ، فخشى أن يقع به ما وقع بصاحبه ، فقال لهم عبد ياليل ابعثوا معى وفدا فبعثوا معه ستة ، ووصلوا المدينة المنورة ، فلقيهم المغيرة ابن شعبة ، ولنترك الكلام فيما صنعه الوفد ، وما قاله الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الى الكلام فى الوفود من بعد ذلك فى وقتها من الزمان ٠٠

وان كلامنا الآن فى وفد ثقيف كلام مبتسر ، ذكرناه لنبين أن تــرك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم غير عاجز ، كان الحكمة العــالية التى ألانت قلوبا بعد شماسها ، حتى انه يروى أبو داوود أن العيلة الأحمسى واسمه صخر ، آخذ على نفسه عهدا وذمة أن يحمل ثقيفــا على مبايعة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الاسلام ، وقد استطاع أن يلين قلوبهم وأن ينزلهم على حكم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وقد كتب صخر هذا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقــول له : « أما بعــد فان ثقيفا قد نزلت عــلى ذلك يارسول الله ، وأنا مقبل بهم ، وهم فى خيلى » ٠

عندما جاء ذلك الكتاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم سر سرورا لا حد له ، لأنهم جاءوه مسلمين ، ولم تكن حرب تخرب الديار ، وأمر بــأن ينادى الصلاة جــامعة ، فقرأ عــلى المســلمين كتاب صخر ، ثم دعا لقبيــلة أحمس التى منها صخر هذا ، وقال عشر مرات : « اللهم بــارك لأحمس فى خيلهــا ورجالها » ٠

ولقد جاء صخر هذا ببعض ثقيف ، ولكن لم يكن هو الوفد الذى جــاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد ذكرنا أننا سنتكلم فى وفد ثقيف من بعد عند الكلام فى الوفود فى سنة الوفود ٠

عود الى غنائم هوازن

٦٣٢ ــ تكلمنا فى توزيع غنائم هوازن ، ولعلها كانت أكبر غنــائم غنمها من العرب ، أو لعلها تماثل غنائم خيبر أو تقاربها ، وفعلنا ذلك عقب هزيمة هوازن ، ولكن لم نسر ســيرا زمانيا ، لأن النبى صلى الله تعــالى عليه وسلم لم يوزعها الا بعد الانتهــاء من حرب الطائف ، فلم ننتظر حتى يجىء الزمان الذى وزعها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيه ، بل ذكرنا توزيعها فور الانتهاء منها ٠

والآن نبين زمان التوزيع ، وان كان متأخرا عن الغــزوة لرأى النبى صلى الله عليه وسلم ٠

وقد ذكرنا ما أعطاه النبى صلى الله عليه وسلم ، المؤلفــة قلوبهم ، ولم يكن فى المؤلفة قلوبهم أحد من بنى عبد المطلب قط ، فلم يكن فيهم العبــاس ،

ولا أولاد الحارث بن عبد المطلب ولا غيرهم ممن ثبتوا مع النبى صلى الله عليه وسلم هم وأبو بكر وعمر ولم يثبت أحد غيرهم ، ولم يجد أحد من المهاجرين فى نفسه شيئا ، لأنهم يريدون عز الاسلام ، ولا يريدون مالا ولا نسبا بل يريدون عزة الاسلام ، فلم يجد فى نفسه أبو عبيدة ، ولا عبد الرحمن بن عوف ، ولا غير هـؤلاء ٠

ولكن وجد الأنصار فى أنفسهم موجـدة لا من أجل المال ، ولكنهم حسبوا أن النبى صلى الله عليه وسلم ، نسيهم بقومه اذ التقى بهم ، فقد كان الأنصـار الذين آووا ونصروا لا يريدون المال ، ولكن يريدون الرسول عليه الصـلاة والسلام ذاته ، يريدونه هم والمهاجرون ، يريدون بقاء محبته لهم ٠

هؤلاء الأنصار كانوا أطهارا حتى فى موجدتهم ، ولكن وجـد نـاس ليسوا مهاجرين ولا أنصارا ، وليست الدعوة الاسلامية فى حسابهم ، ولا تأليف القلوب التى لم يدخلها الايمان فى نفوسهم قد تكلموا فى هذا ناكرين مما يدل على أنهم لم يكونوا أنصارا بل كانوا منافقين ، وعدهم القرآن الكريم منهم ٠

لقد أعطى النبى صلى الله عليه وسلم المؤلفة ، فقام ذو الخويصرة مـن بنى تميم ، فقال للنبى صلى الله عليه وسلم يا محمد لقد رأيت ما صنعت فى هذا اليوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيت ، قال لم أرك عدلت ، فغضب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكنهـا غضبة الرفيق الحكيم ، فقال ويحك اذا لم يكن العدل عندى ، فعند من يكون ٠

فقال عمر بن الخطاب ألا نقتله ؟ فقال الهادى الأمين صلى الله تعالى عليه وسلم ، دعوه فانه سيكون له شيعة ، يتعمقـون فى الدين حتى يخرجوا منـه كما يخرج السهم من الرمية ٠

وان قائل هذا القول لا يمكن أن يكون مؤمنا ، كما يبدو من لحن قوله ، فهو يقول فى ندائه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بقـوله ، يا محمد ؟ ولم يقل يا رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وكذلك قال قوله واحد مثله ، فقد رأى بلالا فى ثوبه مال يوزعه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : اعـدل يا محمد فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « ويلك من يعـدل اذا لم أكن أعدل ، لقد خبت وخسرت اذا لم أكن أعـدل » ٠

فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله ، أفأقتل هذا الرجل ؟

فقال الرسول الحكيم صلى الله عليه وسلم « معاذ الله أن يتحدث النـاس

انى اقتل اصحابى ، ان هذا وأصحابه يقرءون القرآن الكريم لايتجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين ، كما يمرق السهم من الرمية » ٠

ولقد بلغه أن بعض الناس عندما أعطى رسول المؤلفة قلوبهم قال هذه قسمة ما أريد بها وجه الله تعالى ، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال « رحم الله تعالى موسى ، لقد أوذى بأكثر من ذلك » وهذه اشارة الى قول الله تعالى : « **يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ، وكان عند الله وجيها** » ٠

وان هؤلاء أساس كلامهم ، وان كنت أحسب أنهم جميعا لم يدخل الايمان قلوبهم ، وهم من الأعراب الذين قال الله فيهم : « **الأعراب أشد كفرا ونفاقا ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله** » ٠

لقد فهموا خطأ طواعية لأهوائهم ومطامعهم ، أن كل من حضر القتال له حق فيها يساوى غيره ممن حضروا ، وظنوا أن هذه المساواة عادلة ، وأخطئوا اذ أن المساواة أحيانا قد تكون ظلما ، فالمساواة بين العامل المجاهد ، ومن وقف ينتظر النتيجة تكون لأى الفريقين تكون ظلما ٠

وفهموا خطأ أن الذين يحضرون الحرب فى الغنيمة لهم حقوق ، وأن من يحول بينهم وبين ما زعموه حقا لهم يكون قد ظلمهم ، وتلك أوهام قد أوجدتها المطامع ، وهى باطلة ، ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد وضع الله تحت تصرفهخمس الغنيمة ، والغنائم كلها تحت تصرف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، يقيم القسطاس والعدل والرحمة فيها ، ألم تره عندما رأى الرحمة ونظام الاسلام أن ترد السبايا الى أهلهن ، وأن يطلق سراحهن نفذ ذلك ، وقد صارت السبايا الى من هى فى أيديهن ، فنزعها منهم بحكمته ، قدمها المؤمنون طوعا واختيارا واتباعا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونفذها على بنى عبد المطلب ، ولم يحاول ان يأخذ رضا منهم ومن امتنع من المسلمين الذين لم يدخل الايمان قلوبهم حملهم على رد السبايا وعوضهم ٠

فالغنائم كلها فى يده يتصرف فيها بما توجب النبوة والدعوة الاسلامية ، والرحمة والعدل الاسلامى ، لا طلب الأهواء الذى هو الظلم ذاته ٠

لقد وجد أن الدعوة الاسلامية توجب تأليف قلوب لهم فى قومهم ، منزلة وليس لهم فى الاسلام جهاد ولم يدخل الايمان قلوبهم ، وقد أكلتهم الضغينة وقتل الجهاد والمجاهدون من قتل منهم ، ويريد تأليفهم الى الاسلام ، ونسيان الاحن ، فأعطى أبا سفيان وأولاده ، وأعطى الأقرع بن حابس وغيره ٠

لقد قال بعض أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعطيت الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، وتركت جعيل بن سراقة الضمرى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مبينا سبب العطاء ، وهو لم يمنع أحدا حقا له ٠

« أما والذى نفس محمد بيده لجعيل خير من مثل عيينة والأقرع ، ولكن تألفتهما ليسلما ، ووكلت جعيل بن سراقة لاسلامه » ٠

هذا هو أساس العطاء ، وهؤلاء نظروا الى الأموال ، ولم ينظرو الى واجب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى نشر الدعوة ، وما يراه طريقا لتأليف القلوب ٠

وان قوله تعالى : « **ومنهم من يلمزك فى الصدقات ، فان أعطوا منها رضوا ، وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون** » فهذه الآية نزلت فى المنافقين ، والذين اعترضوا كانوا من الأعراب الذين هم « **أشد كفرا ونفاقا ، وأجدر الا يعلموا حدود ما أنزل الله** » ٠

وما كان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ليخضع فى أمر الدعوة ومقتضياتها لناس حديثى عهد بجاهلية ، وحسبه أن يكون معه المهاجرون والأنصار ، والذين أخلصوا دينهم لله سبحانه وتعالى ٠

عمرة الجعرانة

٦٣٣ ـــ لم يدخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة المكرمة عند الفتح محرما لعمرة ، بل دخلها فاتحا غير محارب ، ويريد الاتصال ، ويعيد المودة ويعلن الأخوة بعد طول الافتراق ، وان المودة تجذب القلوب النافرة ، وتؤوى العقول الشاردة ٠

ولقد كان طواف فى غير احرام ، ولم تكن مناسك عمرة وتعظيم للبيت ٠

ولما انتهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من الفتح شغل بجذامة ، وارضاء قلوبها ، ومداواة الجراح التى جرحها خالد بن الوليد ٠

ولما أخذت هوازن تهم بالهجوم على جيش محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كان لابد من لقائها ، فكان اللقاء المرير ، ذو النتائج الباهرة ، وأتبعها

بالطائف ، فلما آذن الشهر الحرام بمجيء عاد الى الجعرانة وهى ميقات من مواقيت الاحرام ، فأحرم منها بالعمرة ، ودخل بيت الله تعالى معتمرا ٠

وكانت تلك العمرة فى ذى القعدة ، وذهب الى المدينة المنورة لست ليـال بقين من ذى القعدة ٠

ولم يحج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هذا العام الثامن بنفسه ، ولا بأحد ناب عنه ، وترك الحج لما كان عليه العرب من قبل ٠

ولكن كان مع المسلمين الذين أرادوا الحج عتاب بن أسيد ، فحج بهم ٠

ولكن عندما عاد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة المنـورة ، ترك أميرا عليها عتاب بن أسيد ، وكان سن عتاب كما جاء فى شرح المواهب اللدنية عشرين سنة ، فخلفه صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذه السن ، وكان مباركا فى عمله مخلصا فى نيته ، قنوعا فى ذات اليد ، لا يطمع ، بل يشبع بالقليـل ٠

أجرى عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رزقا درهما كل يوم فكان به راضيا ، غير متطلع لأكثر منه ، وكان يقول داعيا الى القناعة ٠

أيها الناس أجاع الله تعالى كبد من جاع على درهم ، فقد رزقنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم درهما كل يوم ، فليس بى حاجة الى أحد ٠

وقد خلف صلى الله تعالى عليـه وسلم بعد العمرة معـاذ بن جبل الحافظ للقرآن الكريم الراوى للسنة بجوار عتاب بن أسيد ، وخلفه ليعلم الاسلام ، ويفقههم فى الدين ، ويحفظهم القرآن الكريم ، فقد كانوا فى حاجة الى ذلك ، لحداثة عهدهم بالجاهلية ، ولم يعيشوا فى ظـل القرآن الكريم كأهـل المدينة المنورة ، بل كانوا يناوئون أهل القرآن الكريم ، وان علم بلغاؤهم مكانته ، وأنه يعلو ولا يعلى عليه ٠

وقد عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى الجعرانة بعد عمرته ، ولم يمكث بها الا قليلا ، وفيها وزع بقية الفيء والغنائم ، ومنها سافر الى المدينة المنورة حتى بلغها لليال ست بقيت من ذى القعدة ٠

وقد ترك الطائف على شركها ، وان أخـذت تميـل نحو الاسـلام على عنجهية الجاهلية ٠

وكان مالك بن عوف يغير عليها آنا بعد آن ، فان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أدناه منه واسلم وحسن اسلامه ، فكان من بعد ذلك يرهقها بالغارات ويجىء الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بما يدل على أنها تلين الى الاسلام شيئا فشيئا ، حتى لانوا كما سنبين فى وفدهم ٠

قدوم كعب بن زهير

٦٣٤ ــ قدم كعب بن زهير على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد عودته من عمرته ، وما كان لنا أن نهتم بما نكتب بشاعر أو كاهن ، وما كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحتاج الى داعية يدعو بمفاخره فرسول الله صلى الله عليه وسلم مقامه عند الله عظيم ، وما كان يحتاج الى شاعر يشيد بمنصبه فرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد دان بالطاعة له كبراء العرب ، وغيرهم هو فى مكانته رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذى كان يلقى عليه أبو جهل فرث الجزور ، فمكانته عند الله وفى نفسه ، وعند كل ذى لب واحدة ٠

ولكنا ذكرناه لأن قدومه يدل على بلوغ الدعوة الاسلامية كل نواحى البلاد العربية قاصيها ودانيها ، وان فتح مكة المكرمة جعل القلوب تتجه اليه ، والمنكرين يصدقون ، والنافرين يدنون ، ويأوون ٠

لقد كان كعب هذا يشارك المنكرين وينشده شعره فى ذم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فلما ظهر النور الذى لا ينطفىء مال الى أن يتقدم الى النبى صلى الله عليه وسلم مهديا ، بعد أن جافاه ، وهو ابن زهير بن سلمى حكيم الشعراء فى الجاهلية ، فهو من بيت جاهلى فيه شعر الحكمة ٠

وعندما هم بأن يذهب الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حذره أخوه بجير بن زهير بن أبى سلمى ، وكتب اليه يخبره أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قتل رجالا بمكة المكرمة ممن كان يهجوه ويؤذيه ، وأن من بين شعراء قريش ابن الزبعرى وهبيرة بن أبى وهب ، قد هربوا منه فى كل وجه ، فان كانت فى نفسك حاجة ، فطر الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تائبا ، فانه لا يقتل أحدا جاء اليه تائبا ، وان أنت لم تفعل ، فانج الى نجاتك من الأرض ٠

وكان قد قال قصيدة فيها ذم للاسلام ، وقد أسلم أخوه ، وأرسل اليه الكتاب المذكور آنفا ٠

ولما بلغ زهيرا هذا الكتاب ضاقت به الأرض ، وأشفق على نفسه من قصيدته ، ويقول ابن اسحاق أرجف به من كان فى حاضره من عدوه وقالوا هو مقتول ، أى أنهم أرادوا أن يحذروه ايفاده على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولكنه لم يجد بدا من أن يذهب الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولذا قال قصيدته التى يمدح فيها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وذكر فيها خوفه ، وارجاف الوشاة من عدوه ٠

ولقد خرج وقدم المدينة المنورة فنزل على رجل كان يعرفه فغدا به الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم أشار به الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال : هذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقم اليه فاستأمنه ٠

فقام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جلس اليه ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يعرفه ، فقال : يا رسول الله ان كعب بن زهير جاء يستأمن منك تائبا مسلما ، فهل أنت قابل منه ، ان انا جئتك به ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : نعم ـ فقال يا رسول الله أنا كعب ابن زهير وكان فى المجلس بعض الأنصار ، فوثب عليه رجل منهم ، فقال : يا رسول الله دعنى وعدو الله أضرب عنقه ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « دعه عنك ، فانه قد جاء تائبا ، نازعا عما كان عليه ، وغضب كعب على الحى من الأنصار كما يقال ، وما يضر غضبه على هؤلاء الذين آووا ونصروا ولم يقل فيه أحد من المهاجرين الا خيرا ٠

ولقد مدح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقصيدة هزت أعطاف رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وكان كريما يقبل طيب القول ٠

ولقد روى أنه قال ان من الشعر لحكمة ، ولننشد ابياتا منها ، لكرم موضوعها ٠

يقول فى مطلعها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول   متيم اثرها لم يفد مكبول

وبعد أن يذكر سعاد وهى كما قيل زوجته ، وغربته عنها ، يقول متجها الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وقال كل صـــديق كنت آمله　　　لا ألهينـك انى عنك مشـغول

فقلت خلوا سـبيلى لا أبـا لكم　　　فكل ما قـدر الرحمن مفعول

كل ابن أنثى وان طالت سلامته　　　يوما عـلى آلة حدباء محمول

نبئت أن رسـول الله أوعـدنى　　　والعفو عند رسول الله مأمـول

مهلا هـداك الذى أعطـاك نافـلة القـــرآن فيها مواعيظ وتفصيل

لا تأخذنى بأقـوال الوشاة ولم　　　أذنب ولو كثرت فى الأقـاويل

ثم يقول فى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

ان الرسول لنـور يستضاء به　　　مهنـد من سيوف الله مسـلول

فى عصبة من قريش قال قائلهم　　　ببطن مكة لـما أسـلموا زولوا

ويقول فى وصف أصحاب الرسول :

ليسوا مفاريح،ان نالت رماحهم　　　قوما، وليسوا مجازيع،اذا نيلوا

لا يقع الطعن الا فى نحـورهم　　　وما لهم عن حياض الموت تهليل

وفى هذه القصيدة لم يذكر الأنصار ، لأن رجلا منهم أراد قتله ، فيروى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن أنشـد قصيدته قال : لولا ذكـر الأنصار فانهم لذلك أهل ، فقال مادحا الأنصار :

من سره كرم الحياة فلا يـزل　　　فى مقنب من صالح الأنصـار

ورثـوا المكارم كابرا عن كابر　　　ان الخيـــار هم بنو الأخيـار

الى آخر قصيدة ليست مهلهلة طويلة ، بل هى موجز قصيرة ٠

وانا نذكر أننا ذكرنا كعب بن زهير لبيان أنه اذا كان الاسلام قـد فقـد عبد الله بن رواحة شاعر الدعـوة الاسـلامية والذود عنه وعـن الرسـول الكريم صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء الشاعر كعب بن زهير ، والشعراء كانوا ألسنة الدعوة الى المكارم ونشر الفضل والفضلاء فى الجزيرة العربية ٠

السرايا بعد هوازن

٦٣٥ ـــ أخذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد ما كان فى هوازن والطائف يرسل السرايا فى القبائل العربية داعية الى الاسلام ، متعرفة لأحوالها ، وكان يشغل بذلك الذين أسلموا حديثا ليألفوا الاسلام ، ويتحملوا واجباته ، وليحملوا عبء الدعوة الى الاسلام من بعد ، وليكون منهم المجاهدون فى سبيله ، وليتعودوا القيام بواجباته ، وليرضى نهمتهم من حب السلطان . ولكى ينالوا من الغنائم بالحق ممن تأبوا على الاسلام من القبائل .

فأرسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عيينة بن حصين فى المحرم من السنة التاسعة الى بنى تميم ، فى خمسين رجل ، ليس فيهم من المهاجرين ولا الأنصار أحد .

فسار اليهم يكمن نهارا ، ويسير ليلا ليفجأهم من حيث لا يشعرون ، فهجم عليهم ، وهم يسرحون مواشيهم ، فلما رأوا الجمع ولوا الأدبار ، فاستطاع أن يسبى منهم نساء عددهن احدى وعشرون ، وأخذ ثلاثين صبيا واحد عشر رجلا .

ساق هؤلاء الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأنزل فى أحد بيوت المدينة المنورة .

وجاء من بعد ذلك كبراء من تميم منهم عطارد بن حاجب ، والزبرقان ابن بدر ، وقيس بن عاصم ، والأقرع بن حابس بن الحارث ، وعمرو بن الأهتم ، ورباح .

فلما رأوا نساءهم وذراريهم بكوا اليهم .

فعجلوا فجاءوا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنادوا : يا محمد اخرج الينا فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأذن بلال للصلاة وهؤلاء تعلقوا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يكلمونه ، فوقف معهم ، ثم مضى فصلى الظهر ، ثم جلس ، ثم قدم فتكلم ، فأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثابت بن قيس بن شماس فرد عليهم أسراهم وسباياهم وأبناءهم لأنهم ما كانوا محاربين ، ويظهر أنهم كانوا غير مطيعين .

وقد قال ابن اسحق فى ذلك : دخلوا المسجد ، ونادوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : يا محمد اخرج الينا ، فتأذى رسول الله صلى الله تعالى

عليه وسلم ؛ قالوا جئنا لنفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، ويظهر أن ذلك بعد أن استردوا الأسرى والسبايا · ولقد قال الله تعالى فى عدم استئذانهم :« ان **الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون ، ولو انهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم** » ·

ولقد ذكر ابن اسحق المباراة البيانية ، أو المفاخرة الشعرية والخطابية فروى قول شاعرهم ورد حسان ، وذكر قول خطيبهم ·

لقد قال خطيبهم حاجب بن عطارد : « الحمد لله الذى له الفضل علينا ، جعلنا ملوكا ووهب لنا اموالا عظاما نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل الشرق ، وأكثره عددا ، وأيسره عدة ، فمن مثلنا فى الناس ، ألسنا رءوس الناس ، وأولى فضلهم ، فمن فاخر ، فليعد مثل عددنا ، فلو شئنا لأكثرنا من الكلام ، ولكن نستحى من الاكثار لما أعطانا أقول هذا لأن يأتوا بمثل قولنا أو أمر أفضل من أمرنا ·

فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لثابت بن قيس بن الشماس قم فأجبه ، فقام فقال :

الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وقضى فيهن أمره ، ووسع كرسيه علمه ، ثم ان من فضل الله أن جعلنا ملوكا ، واصطفى من خير خلقه رسولا أكرمه نسبا وأصدقه حديثا ، وأفضله حسبا ، فأنزل عليه كتابا ، وائتمنه على خلقه ، وكان خيرة الله تعالى من العالمين ، ثم دعا الناس الى الايمان بالله ، فآمن به المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أكرم الناس أحسابا وأحسنهم وجوها ، وخير الناس فعلا ، ثم كان أول الناس استجابة لله حين دعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنحن أنصار الله ، نقاتل الناس حتى يؤمنوا ، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ، ومن سكت جاهدناه فى سبيل الله تعالى ، ابدا ، وكان قتله علينا يسيرا ، أقول هذا وأستغفر الله العظيم للمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم ·

فتح النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هذه المباراة البيانية ارضاء لرغبة القول عندهم وليعلمهم أن المفاخرة ليست بالأنساب ، ولكن المفاخرة بالايمان والأعمال الصالحة ، والتقوى ، وليضرب المثل لهم بقومه ، وليقدم لهم الحق سائغا ، ولقد قال الزبرقان بن بدر من بعد : ان هذا الرجل خطيبه خير من خطيبنا ، وشاعرهم أحسن من شاعرنا ، وأقوالهم أعلى من أقوالنا ، وقد أعطاهم جوائز ، بشبه ما يعطى المؤلفة قلوبهم ·

سرية الضحاك بن سفيان :

٦٣٦ ــ كانت هــذه السرية كأخــواتها لتعرف أحــوال العــرب فى صحرائهم ، ونشر الاسلام بينهم ، وجعل الحبل ممدودا بينه وبينهم من غير أن يقطع ، أرسل فى هذه السرية الضحاك بن ثابت الى بنى كلاب وهو منهم فى ربيع الأول من السنة التاسعة ٠

اتجه اليهم ابن سفيان فدعــاهم الى الاسلام فلم يستجيبوا فقــاتلهم فهزمهم ٠

سرية قطبة بن عامر :

وكانت قبل هذه السرية فى صفر من هذه السنة سرية قطبة بن عامر ، الى خثعم فى عشرين رجلا خرجوا على عشرة ابل يتعقبونها ، فلمــا التقــوا ببعض بنى خثعم اقتتلوا قتالا شديدا ، وكثر الجرحى من الفريقين جميعــا وكــان فى القتلى قطبة بن عامر ، ولكن الجيش بقى بعده ، وســاق النعم والنساء وعادوا الى المدينة المنورة بهذه الغنائم ٠

وقد تجمع كثيرون من بنى خثعم وســاروا وراءهم ، ولكن كــان مطر شديد حال بينهم وبين تتبعهم ٠

سرية علقمة بن محرز :

٦٣٧ ــ وكــانت فى ربيع الآخر من السنــة التــاسعة ، وذلك أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بلغه أن ناسا من أهل الحبشة ظهروا أمام جدة ، وبدا أنهم يريدون الغــارة عليهم ، فأرسل اليهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فذهبوا اليهم ، وطــاردوهم ، وخاضوا البحر ، وراءهم فلجئوا الى جزيرة ، وقد تعجل قوم فى الأوبة فأذن لهم ، وأمر عليهم بعض المتعجلين ، وقد أراد أن يداعب من معه فأوقد لهم نارا ، وأمرهم بــالتواثب عليهم ، فأراد بعضهم أن ينزل فيه ، فرده ، وقــال انمــا كنت أضحك منهم ، ولا شك أن هذا تعابث ما كان يجوز ، ولذلك لمــا عادوا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأخبروه الخبر ، فقال : « من أمركم بمعصية فلا تطيعوه » ٠

وكدنــا لا نصدق ذلك الخبر لولا أنه روى فى الصحيحين عــن عــلى ابن أبى طالب ما يؤيده ، فعن على أنه قال : « بعث رسول الله صلى الله تعــالى

عليه وسلم سرية ، واستعمل عليها رجلا من الأنصار وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا ، فأغضبوه ، فقال اجمعوا لى حطبا ، فجمعوا ، فقال أوقدوا نارا ثم قال : « ألم يأمركم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن تسمعوا ، قال فادخلوها ، فنظر بعضهم الى بعض ، وقالوا انما فررنا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من النار ، فسكن غضبه ، وأطفئت النار ، فلما رجعوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وذكروا ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقالوا لو دخلوها ما خرجوا منهـا أبدا ! لا طاعة فى معصية الله ، انما الطاعة فى المعروف ٠

وفى هذه الرواية أن رئيس السريـة ركبه الغضب ، فعصى الله وعصى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فأمر بما أمر ، واذا أطاعوه فقد أطاعوه فى معصية فعصوا الله ، وفيه أن الأمر بالطاعة انما هو فى المعروف المعقول لا المنكر عقلا وشرعا ، فليعتبر أولئك الذين يقتلون ويرتكبون أشد المنكرات باسم الطاعة ، فبذلك تضيع الأمم والجماعات ، ولا حول ولا قوة الا بالله ٠

سرية على بن أبى طالب لهدم صنم طيىء :

٦٣٨ ـــ بعث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عليا فى خمسين ومائة رجل من الأنصار على مائة بعير ، وخمسين فرسا ومعه راية سوداء ، ولواء أبيض الى الفلس ، وهو صنم طيىء ليهدمه ، فشنوا الغارة على محلة حاتم ، وكان بعث على فى ربيع الثانى سنة تسع من الهجرة ٠

ذهب على بجيشه الأنصارى فهدم الصنم ، وكان القتال مع الفجـر ، وفروا أمام جيش المسلمين بقيادة المجاهد على ، وتركوا نساءهم وأموالهم ٠

فسبوا النساء ، واخذوا النعم والشاء وفى السبى أخت عدى بن حاتم أى بنت حاتم الطائى ، وفر عدى الى الشام وكان نصرانيا ، وقد وجدوا فى خزانة عدى ثلاثة أسياف ، وثلاثة أدرع ٠

وقد أقام على على السبى أبا قتادة ، وعلى الماشية والفضـة عبد الله ابن عتيك وقسم الغنائم فى الطريق ، وجعل السقى لرسـول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يقسم السبايا حتى اتى بهم المدينة المنورة وليس فيهم عدى بن حاتم ٠

ولقد جاءت ابنة حاتم الطائى ، فقالت : يا رسول الله لقد غاب الوافد ، وانقطع الوالد ، وأنا عجوز كبيرة ما بى من خدمة فمن على من الله عليك ،

ان رأيت أن تخلى عنى ، ولا تشمت بنا أحياء العرب فانى ابنة سيد قومى ، وان أبى كان يحمى الذمار ، ويفك العانى ، ويشبع الجائع ، ويكسو العارى ، ويقرى الضيف ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا ابنــة حاتم طيىء ٠

رق النبى صــلى الله تعالى عليه وســلم لحالها ، وذكــر بالخير اباها ايناسا لها ، وتخفيفا لفزعها ، فقال لها : « يا جارية هذه صــفات المؤمنين ، ولو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه ، خلوا عنها فان اباها كان يحب مكارم الأخلاق ٠

ويروى أنها قالت داعية للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم اللهم لا تجعل حاجتك الا عند كريم ٠

ولما التقت مع أخيها عدى بن حاتم حثته على الاســـلام ٠ فقالت عن النبى صلى الله تعالى عليه وســلم لقــد فعــل فعلة ما كان أبوك يفعلها ، ائتــه راغبا أو راهبا لقد أتاه فلان فأصــاب منه وأتاه فلان فأصــاب منه ، وبذلك كانت هى السبيل لاسلام أخيها ، وتسليم نفسه للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ فأتى النبى صــلى الله تعالى عليه وســلم وليس معه كتاب أمان ولا أمان ، فقال القوم هذا عدى بن حاتم ، وقال عدى فلما دفعت اليه أخذ بيدى ، وكان قبل ذلك قد قال انى أرجو أن يجعل الله يده فى يدى ٠

وظهرت أمام عدى أخلاق النبى صلى الله تعالى عليه وســلم ، ورفقه بالضعفاء ، لقد رأى امرأة لقيته ومعها صبى فقالت له ان لنا اليك حــاجة فقام معها ، حتى قضى حاجتها ٠

ويقول عدى بن حاتم ، ثم أخذ بيدى ، حتى أتى داره ، فألقت له الوليدة وسادة فجلس عليها ، وجلست بين يديه ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : ما يضرك ، أيضرك أن تقول : لا اله الا الله فهل تعلم من اله سوى الله قلت : لا ثم تكلم ساعة ، ثم قال ، أيضرك أن يقال الله أكبر وهل تعلم شيئا أكبر من الله قلت لا قال فان اليهــود مغضوب عليهم ، وان النصــارى ضــالون فقلت انى حنيف مسلم ، فرأيت وجهه ينبسط فرحا ، ثم أمرنى فنزلت عند رجل من الأنصار وجعلت آتيه طرفى النهار ، فبينما أنا عنده اذ جاء قوم فى ثياب من الصــوف من هــذه الثمار فصــلى ثم قــام فقــال : يأيهــا الناس ارضخوا من الفضل ولو بصــاع أو بنصف صاع ، ولو بقبضة ، ولو ببعض قبضة ، يقى أحدكم وجهه حر جهنم ، فان لم تجــدوا فكلمة طيبة ، فان أحــدكم لاقى الله وقال له ما أقول لكم ، ألم أجعل لك مالا وولدا ، فيقول : بلى ، فيقــول أين ما قدمت لنفسك ، فينظر قدامه وبعقبه ، وعن يمينه وعن شماله يقى به وجهه

نار جهنم ، ليق احدكم وجهه النار ، ولو بشق تمرة ، فان لم يجد فبكلمة طيبة ، فانى لا أخاف عليكم الفاقة فان الله ناصركم ومعطيكم حتى تسير الظعينة ما بين يثرب والحيرة ، وأكثر ما يخاف على مطيتها السرقة ٠

قال عدى بن حاتم فجعلت أقول لنفسى أين لصوص طىء ٠

نقلنا هذا الحديث ، لنرى أولا الرفق والتقريب النفسى فى المعاملة ، والعطف وحث الناس على الأخلاق الطيبة ، وذكر مآثر ذوى الأخلاق ، حتى خرج الرجل من مجلس الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو أحب الناس وكان من قبل يكرهه أشد ما تكون كراهة الرجل للرجل ٠

وان هذا الخبر يرى القارىء مجلسا من مجالس النبوة ، وانه لمجلس يهدى الى الرشد ، اجف الناس حلقا ، وأبعدهم عن الحق ، اذا لم يكتب الله تعالى عليهم الضلالة ، ويقربهم من الغواية ، والله ورسوله صلى الله عليه وسلم لهم المن والفضل ٠

غـزوة تبوك

٦٣٩ ـــ استوعبت الدعوة الاسلامية البلاد العربية ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، ومنهم من أسلم ، ولما يدخل الايمان فى قلبه ، ومنهم من آمن وأخلص للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وحمل عبء الدعوة وجاهد فى سبيلها ، وليس من العرب من لم يعلم بالاسلام ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والحق الذى يدعو اليه ، من غير مواناة ولا تقصير ٠ ولا هوادة ٠

ولابد أن يتجاوز بعد ذلك دائرة البلاد العربية الى ما يصاقبها ، من البلاد المجاورة خصوصا البلاد التى فيها العنصر العربى ، فانها بتكوينها أقرب الى الاستجابة الى ما يعم بلاد العرب التى هى مثابتهم ، وفيها الحرم الآمن الذى جعله الله آمنا ، والناس يتخطفون من حوله ٠

وأخص بذلك بلاد الشام ففيها الغساسنة من العرب ، وكان فيها اعتداء على من أسلم وكانت غزوة مؤتة ، بسبب قتل رسول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والى بصرى ٠

وانتهت مؤتة ، ولم تكن بنصر حاسم ، وان لم تكن بهزيمة ، فان جيش الاسلام لم يرجع مهزوما وانما تراجع منتظما بمهارة خالد بن الوليد ، وكانت هذه أول قيادة ناجحة له فى الاسلام ٠

ولم تكن النتيجة على المسلمين ، فلم يقتل منهم أمام مائتى ألف الا نحو اثنى عشر رجلا وقد قتل من الروم مقتلة عظيمة ، حتى انه فى هذه المعركة يطوى فى يد خالد تسعة سيوف ، وقتل الأمراء لم يؤثر بالهزيمة فى الجيش الأقل فى عدد .

وان شئت أن تقول ان غزوة تبوك امتداد لغزوة مؤتة فقل ، فهى سير فى الخطة التى ابتدأت بها ، ولم تنل مأربها من قتل قتلة الرسول الذى بعثه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

ومع أنها امتداد لغزوة مؤتة فى سببها وسيرها ، والمقصد ، قد كان لها وحدها سبب قائم بذاته ، ذلك أنه باللقاء بين المسلمين وغيرهم من الأنصار ومن معهم من العرب ، أوجد الالتحام الحربى ، بين العرب الذين عاونوا الرومان والعرب المجاهدين مع اتحاد الجنس ، من يميل الى الاسلام ، لأنه الدين الجديد فى قومهم ، وقد صار رمز القوة عندهم ، وخير لهم أن يعتزوا بأنفسهم عن أن يعتزوا بالرومان ، ففرق بين من يقول أنت أخى ، ومن يقول أنت عبدى أو تابعى ، ولذلك كان اقبال الخاضعين للغزو الرومانى شديدا لأنه الدين الجديد لاخوانهم ، ولاضطراب الدولة الرومانية ، واضطراب الأحوال فيها .

ولقد أسلم من العرب الذين استعان بهم الرومان عدد كبير .

لقد أسلم فروة بن عمرو الجذامى الذى كان قائدا لاحدى الفرق الرومانية عندما اقتتل الرومان مع المسلمين فى مؤتة .

فضاق الرومان ذرعا باسلامه ، واتهموه بالخيانة وقتلوه ، وما كان للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يترك دم هذا الرجل المسلم هدرا ، بل لابد من القصاص ، وان قتله فتنة تمنع غيره من أن يدخل فى الاسلام ، فحق أمر الله « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله** » ووجبت الطاعة لقوله تعالى : « **قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة . قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** » .

وهناك أمر آخر ذكره كتاب السيرة أنه لما نزل قوله تعالى : « **انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا** » ظن التجار الذين كانوا يقيمون المتاجر فى سوق عكاظ ، وذوى المجاز ومجنة ، وغيرها من

الأسواق فى موسم الحج ، ظنوا أن متاجرهم تكسد ، فكان لهذا ولغيره غزوة الشام فى تبوك ، وفى ذلك فتح لأبواب التجارة ٠

ذلك سبب ذكره كتاب السيرة ، وما كنا لنذكره لولا أنهم ذكروه ، فما كانت غزوات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لتسهيل تجارة مادية ، انما كانت لتسهيل الدعوة الاسلامية ، وان هذه تجارة لن تبور ، بل فيها مكسب أغلى وأعلى ، وهو رضا الله سبحانه وتعالى ٠

وان الرومان بعد غزوة مؤتة قد رأوا أن الدين الجديد يغزو النفوس بأحكامه ٠ ويغزو البلاد برجاله ، وأنهم يجب أن يعدوا العدة للقضاء عليه قبل أن يقضى على دولتهم ، فكانوا يستعدون لغزو الاسلام ، وما كان للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتركهم حتى يغزوه فى داره ، فما غزى قوم فى عقر دارهم الا ذلوا وقد رأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الروم يجمعون الجموع وأن قيصر قد أعطى أرزاقهم لسنة ، وان فى غزو الرومان تقوية لبأس العرب الخاضعين للرومان فى الشام ، اذ يجدونهم يتحفزون لرفع النير عنهم ، واخراجهم من سيطرة من يذلهم ، الى عز قومهم ٠

الحال عند الغـزو :

٦٤٠ — فى رجب من السنة التاسعة ، ويظهر أنه فى آخره أى فى آخر الشهر الحرام ، أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الناس بالتهيؤ لحرب الروم الذى قد أعدوا له عدة لحربه ، وكان ذلك فى وقت حر شديد ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما كان يبين للناس اتجاهه اذا خرج لحرب الا فى تبوك لبعد المشقة ، ولعظم المهمة ، وليستعد الناس لنوع من الجهاد شاق مرير ، فى وقت شديد غليظ اذ كان الحر شديدا ، وكانوا يجمعون ثمار حرثهم ، وغلالهم ، وفى بعض البلاد جدب ، وقد طابت ثمار الأرض التى أنتجت ، والارادة المادية عندهم ربما تغالب النية المحتسبة عند بعضهم ، ولقد أخذ صلى الله تعالى عليه وسلم يختبر النفوس ، والغزوة كلها اختبار للمؤمنين ، وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما اختار الزمان ، انما اختارته له العناية الالهية ، وارادة الروم وقد خاطب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعض الرجال ليعرف ما فى بعض النفوس ، قال للجد بن قيس ياجد ، هل لك فى جلاد بنى الأصفر (يريد الروم) ٠

فأجاب اجابة المتردد ، غير المعتزم : « أو تأذن لى ولا تفتنى ، فوالله لقد عرف أنه ما من رجل أشد عجبا بالنساء منى ، وانى أخشى ان رأيت نساء بنى الأصفر لا أضرب » ٠

اعتذار بغلبة هوى النفس عنده على الجهاد ، وأنه لا يستطيع جهاد نفسه عن الاثم ، فهو عبد هواه ، وأى فتنة أشد على الرجل من أن يكون عبد هواه ، وقد أذن له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنه لا جدوى فى رجل لا ارادة له ، وانما هى حرب ضروس تحتاج الى صبر وجهاد نفسى ، فالوصول الى العدو ليس سهلا ، والحر شديد ، واللقاء مع عدو كبير ·

وان هذه الغزوة كان فيها الناس على أنواع شتى فى نفوسهم ·

١ ـ فمنهم من قعدت بهم همتهم ، فتخلفوا عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، واعتذروا بالمعاذير ، وهؤلاء يقولون مع المنافقين : **« وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون ، فليضحكوا قليلا ، وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون »** ·

وهؤلاء منهم ضعفاء الايمان ومنهم ضعفاء العزيمة وليست لديهم قوة نفسية يتحملون بها الشدائد ولذلك كان فيهم جزع ، وخوف من الاقدام ·

٢ ـ ومنهم المنافقون الذين يثبطون ، ويريدون الفتنة ويبتغون تثبيد المؤمنين عن المجاهدين ، ويقول سبحانه وتعالى فيهم : **« لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون انفسهم ، والله يعلم انهم لكاذبون ، عفا الله عنك لم اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا ، وتعلم الكاذبين ، لا يستاذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا باموالهم وانفسهم والله عليم بالمتقين ، انما يستاذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون ، ولو ارادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم ، فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ، لو خرجوا فيكم مازادوكم الا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين ، لقد ابتغوا الفتنة من قبل ، وقلبوا لك الأمور ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون »** ·

الصنف الثالث اهل الايمان · وكلهم مجاهد بنفسه وماله ، لا يدخرون جهدا ولا مالا ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم وقرنهم فى الذكر برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : **« لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رءوف رحيم »** ·

هؤلاء هم الذين حملـــوا الدور الأول حتى صـارت الكلمة العليا لله ولرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى بلاد العرب ، فهم أيضا الذين حملوا عبء الجهاد ، عندما أخذ الاسلام ينتشر فى غير البلاد العـربية ، وخـرج الجهاد الى بنى الأصفر (الرومان) الذين كان اسمهم يرهب العرب ·

٦٤١ ــ كان على النبى صـلى الله تعالى عليه وسـلم أن يحتاط من المنافقين وكان على النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم أن يحـرض المؤمنين الذين كانـوا معه ويجمع شملهم ، وأن يكون بعضهم عونا لبعض فى هـذه العسرة الشديدة ·

أما بالنسبة للمنافقين فانهم كانوا دائبى الحركة ليثبطوا المؤمنين ، وهم يقولوا لا تنفروا فى الحر ، ليمنعوهم نفسيا من الجهاد ، بل وصلت بهم الحال الى أن يجتمعوا ببعض اليهود يأتمرون معهم ·

حدث ابن هشام بسنده أن ناسا من المنافقين كانوا يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى ، وكان بيته فى موضع اسمه جاسوم ، يثبطون الناس عن الجهاد ، وعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى غزوة تبوك ، فبعث اليهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم طلحة بن عبيد الله فى نفر من أصحابه وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم هذا ، ففعل طلحة ، فاقتحم الضحاك بن خلفة من ظهر البيت ، فانكسرت ساقه وأفلت أصحاب البيت ·

كانت عين رسـول الله صـلى الله تعالى عليه وسـلم المجاهد تترصـد أولئك المثبطين الذين بلغت حالهم حد التآمر ، فرد الله كيدهم فى نحورهم ·

والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يأخذ حذره ممن يثبطون العزائم ، وهذه المعركة معركة عزائم ، وقوة نفوس ، وجلد وصبر وقوة احتمال ·

كان النبى صـلى الله تعالى عليه وسـلم فى ذلك الوقت العصيب يثير عزائم أصحابه ، ولا يكتفى بأن يحثهم على الخـروج ، بل يحثهم على أن يعين بعضهم بعضا ، وأن ينفقوا فى الحرب ولا يلقوا بأيديهم الى التهلكة ، وانه يحتاج الى الزاد والراحلة والشقة بعيدة ، ولم يكن له اختيار فى الأمان كما ذكرنا بل انه اذ علم أن الروم يتجمعون لاقتلاع هذا الـدين من الأرض العربية ، وليستذلوا العرب ويقضوا على منبع العزة فيهم ، فما كان له أن ينتظر ، بل لابد أن يبادرهم ، ولا ينتظـرهم · لقد أراد أن يخـرج لهم بأكبر غزوة يغزوها ، أن يخرج بثلاثين ألفا ، فلابد أن يكون فى يده ما يغزوهم به ، وما يحملهم عليه ، ولا يكون معه الا القوى الأمين ·

ذكر ابن اسحاق بسنده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جد في سفره ، وأمر الناس بالجهاد والانكماش (الاسراع) وحض أهل الغنى على النفقة ، والحملان فى سبيل الله تعالى فحمل رجال من أهل الغنى ، وكان لعثمان ذى النورين الحظ الأكبر من الانفاق ، حتى كاد يحمل الجيش كله ٠

روى الامام أحمد أن عثمان ابتدأ بألف دينار فصبها فى حجر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال عبد الله بن أحمد فى مسند أبيه بسنده قال خطب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فحث على الانفاق على جيش العسرة ، فقال عثمان بن عفان على مائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، ثم نزل مرقاة من المنبر ، ثم حث ، فقال عثمان على مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « ما ضر عثمان عمل بعد هذا » ولقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « من جهز جيش العسرة غفر الله تعالى له » ٠

هؤلاء المؤمنون كان منهم من حمل نفسه وحمل معه زاده كعبد الرحمن ابن عوف ومنهم من تبرع بزاد وحملان لغيره كأبى بكر وعمر ، وغيرهما من ذوى اليسار من المهاجرين والأنصار ٠

ولكن كان من بين المؤمنين الصادقين البكاؤون ، وأولئك أرادوا الجهاد وألا يتخلفوا عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى نفير كهذا النفير ، الفاصل بين نشر الايمان فى الأرض وبين أن يقضى عليه فى مهده أهل القوة فيها ٠

كان هؤلاء النفر السبعة الذين سموا البكائين ، وقد ذهبوا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فاستحملوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأن طلبوا منه ما يحملهم عليه ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « لا أجد ما أحملكم عليه » ٠

ولقد قال الله تعالى فى ذلك الجمع الحاشد : « **واذا انزلت سورة ان آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم ، وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وطبع على قلوبهم ، فهم لا يفقهون ، لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وانفسهم ، وأولئك لهم الخيرات ، وأولئك هم المفلحون ، اعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ، وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ، سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم ، ليس على الضعفاء ، ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون**

حرج ، اذا نصحوا لله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم ، ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون ، انما السبيل على الذين يستأذنوك ، وهم أغنياء ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون » ·

وقبل أن يسير الجيش الكبير كان بعض البكائين من الأنصار الذين لم يجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما يحملهم عليه ـ وقد وجد من يعينه ، فابن يامين بن عمير بن كعب لقى اثنين منهما وهما يبكيان ، فقال ما يبكيكما ، قالا جئنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم نجد عنده ما يحملنا عليه وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج ، فأعطاهما ناضحا له فارتحلاه ·

وان بعضهم ، وهو عطية بن زيد قد أخذ يعتذر الى الله تعالى عن عدم خروجه ، ويقول « اللهم انك أمرت بالجهاد ، ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندى ما أتقوى به ، ولم تجعل فى يد رسولك ما يحملنى عليه ، وانى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى فيها فى مال أو حد جسد أو عرض ، ثم أصبح مع الناس » ·

المسير

٦٤٢ ـــ أخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى السير بجيشه الذى بلغ نحو ثلاثين ألفا ، وتبعه عبد الله بن أبى مع المنافقين وأهل الريب فلما سار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تخلف ، وما كان سيره ثم تخلفه الا ليخذل المؤمنين ليثير الريب بعمله ، كما أثاره بقوله ·

وقد جعل على المدينة المنورة محمد بن سلمة الأنصارى ·

وخلف على بن أبى طالب فى أهله ، ويظهر أن هذه تشبه ما خلفه به على الودائع يوم الهجرة ، لأن الشقة كانت بعيدة ، فاختار رجلا من أهله ليقوم على أهله وأهله ، وما كان لعلى أن يكون له بعد أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الخيرة من أمره ، بل عليه الطاعة المجردة ، ولكن المنافقين الذين من شأنهم أن يثيروا الريب ، والافساد ويسعوا بالنميم بالأحبة ـ أشاعوا قالة غير صحيحة أصلا ، قالوا ما خلف رسول الله على بن أبى طالب الا استثقالا له وتخففا منه ·

فلما أكثروا من القول فى ذلك ، أخذ على رضى الله تعالى عنه سلاحه ، ثم خرج حتى لحق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو نازل بالجرف فأخبره بما قالوا ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « كذبوا ، ولكنى خلفتك لما ورائى فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبى بعدى » روى هذا الحديث البخارى ومسلم وأبو داود الطيالسى ٠

وروى الامام أحمد رضى الله تعالى عنه أن عليا المجاهد ، استكثر على نفسه أن يكون ميدان الجهاد متسعا ، وفى غزوة كثر فيها التخلف ، أن يبقى ولا يحمل سيفه البتار ، فقال للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم « يا رسول الله لا تخلفنى فى النساء والصبيان ! فقال : يا على أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبى بعدى » ٠

وان هذا كان المنتظر من على هذا ، فان المؤمنين المتقين كانوا يتسابقون فى الخروج لأنهم لا يرضون لأنفسهم أن يبقوا فى راحة بين أهليهم والرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يسير فى الصحراء حيث الحر اللافح ٠

قعد أبو خيثمة وله امرأتان عربيتان قد رشتا حول عريشهما الماء لتكونا مع زوجهما فى جو رطيب ، فلما رأى ذلك قال : « يكون رسول الله فى الضح والريح والحر ٠ وأبو خيثمة فى ظل بارد ، ومكان مهيأ وامرأة حسناء فى حاله مقيم ما هذا بالنصف ، والله لا أدخل عريش واحدة منكما ، حتى ألحق برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهيئالى زادا » ، وأخلف عنه بعض الصحابة فى أهله ، وارتحل ناضحا له ، وأسرع حتى وصل الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم معتمدا على الله تعالى ، والناس معه ، وبعضهم يقول تخلف فلان ، فيقول عليه الصلاة والسلام دعوه ، فان يكن فيه خير فسيلحقه بكم ، وان يك غير ذلك فقد أراحنا الله منه ، حتى قيل تخلف أبو ذر ، وتلوم به بعيره ٠

ولما أبطأ بعير أبى ذر ، وهو يريد أن يلحق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، نزل وترك البعير ، وتخفف ماشيا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى قارب ركب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فنظر ناظر من المسلمين ، فقال يا رسول الله هذا رجل ماش على الطريق فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « كن أبا ذر ، فلما تأمله الناس قالوا يا رسول

الله هو والله أبو ذر فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : يرحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ويموت وحده ، ويبعث وحده » ٠

وقد مات أبو ذر ، وقد نفاه عثمان الى الزبدة ، فمات وحيدا حتى عثر به فى الصحراء عبد الله بن مسعود ، فدفنه ، وبكاه ، وقال صدق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ولقد كانت هذه الغزوة رحلة اسلامية الى حيث آثار عاد وثمود ، فمر بها ، ولقد مر بالحجر ، فسجى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثوبه على وجهه واستحث راحلته ، ثم قال لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم ، الا وأنتم باكون ، خوفا من أن يصيبكم مثل ما أصابهم فهو يدعو الى الاعتبار بالآثار ، لا بمجرد التطواف بالرسول من غير نظر الى ما تدل ٠

وبينما المؤمنون سائرون أصابهم عطش شديد ولا ماء يروون به غلتهم ، فشكوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فدعا عليه الصلاة والسلام واستسقى ، فأرسل الله سحابة مملوءة ماء ، فأمطرت ، وألقت حمولتها ، وارتوى الناس ، واحتملوا معهم ماء يرويهم عند حاجتهم الى الماء ٠

ولقد ضلت ناقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخبر عن مكانها وبعث بعض الناس فوجدوها ، وقد مضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى لأواء الصحراء وشدتها ، والمؤمنون الذين نصحوا لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، يركبون الصعاب وهم حوله يعاونونه ، ويشدون من أزره ، وكان بعض الذين تخلفوا منهم منافقون لا يكتفون بأن يكونوا مع الخوالف ، بل يتهكمون ويسخرون من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن معه من المؤمنين ، وهو فى منطلقه الى تبوك يقولون : أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب ، والله لكأننا بكم غدا مقرنين بالجبال يقولون ذلك ارجافا وترهيبا ٠

ولقد بلغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما قالوا ، فأتوا اليه يعتذرون يقول قائل انما كنا نخوض ونلعب ، فقال الله تعالى « **ولئن سألتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب** » ٠

كان ذلك أمر الذين نصحوا لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وأخلصوا ، وهذا الذى ذكرناه شأن الذين رضوا بالقعود ، وأولئك يقطعون الفيافى والقفار ليصلوا الى الغاية التى يتحقق فيها أمر الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد وصلوا سالمين وعادوا سالمين ٠

وصول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى تبوك وخطبته :

٦٤٣ ــ وصل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بجيش الايمان الى تبوك من أرض الشام ولم يلق حربا ، لأنه لم يجد جندا من جنود الرومان يحاربهم ، وقد عقد عقود ذمة مع بعض النصارى ، وأرسل سرايا لمن لم يكونوا فى طريقه ، وسنشير اليها ٠

والآن نذكر أنه عندما وصل الى تبوك ، وقف بجوار نخلة هناك ، والقى خطبة فيها حكمة النبوة ، وخلق الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهى أجمع الخطب فى الأخلاق ، رواها الامام أحمد رضى الله تعالى عنه ، وهذا نص الرواية :

أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، خطب الناس ، وهو مسند ظهره الى نخلة فقال :

ألا تحبون أن أخبركم بخير الناس وشر الناس ، ان من خير الناس رجلا عمل فى سبيل الله على ظهر فرسه ، أو على ظهر بعيره ، أو على قدمه حتى يأتيه الموت ، وان من شر الناس رجلا فاجرا جريئا يقرأ كتاب الله لا يرعوى الى شىء منه ٠

وروى البيهقى بسنده لما أصبح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

أيها الناس ، أما بعد ، فان أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وأوثق العرا كلمة التقوى ، وخير الملل ملة ابراهيم ، وخير السنن سنة محمد ، وأشرف الحديث ذكر الله تعالى ، وأحسن القصص هذا القرآن ، وخير الأمور عوازمها ، وشر الأمور محدثاتها ، وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف الموت قتل الشهداء ، وأعمى العمى الضلال بعد الهدى ، وخير الأعمال ما نفع وخير الهدى ما اتبع ، وشر العمى عمى القلب ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، وشر المعذرة حين يحضر الموت ، وشر الندامة يوم القيامة ، ومن الناس من لا يأتى الجمعة الا دبرا ، ومن الناس من لا يذكر الله تعالى الا هجرا ، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب ، وخير الغنى غنى النفس وخير الزاد التقوى ، ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل وخير ما وقر فى القلوب اليقين ، والارتياب من الكفر ، والنياحة من عمل الجاهلية ، والشعر من ابليس ، والخمر جماع الاثم ، والنساء حبائل الشيطان ، والشباب شعبة من الجنون ، وشر المكاسب كسب الربا ، وشر المآكل أكل

مال اليتيم ، والسعيد من وعظ بغيره وانما يصير أحـدكم الى موضـع أذرع والأمر الى الآخرة ، وملاك العمل خواتمه ، وكل ما هو آت قريب ، وسـباب المؤمن فسوق ، وقتال المؤمن كفر ، وأكل لحمه من معصية الله ، وحرمة مـاله كحرمة دمه ، ومن يتألى على الله تعالى يكذبه ، ومن يستغفره يغفر له ، ومن يعف يعف الله عنه ، ومن يكظم يأجره الله ، ومن يصبر على الرزية يعوضـه الله ، ومن يبتغ السمعة يسمع الله به ، ومن يصبر يضعف الله له ، ومن يعص الله يعذبه الله ، اللهم اغفر لى ولأمتى ، اللهم اغفر لى ولأمتى ، اللهم اغفر لى ولأمتى ، قالهـا ثلاثا ، أستغفر الله لى ولكم » هذا الحديث بهذه الخطبة رواه البيهقى ، ولكن قال فيه الحافظ ابن كثير هذا حديث غريب فيه نكارة وفى أسناده ضعف ، والله أعلم بالصواب ٠

ولعل روايته مجتمعا هكذا هو الذى كانت فيه النكارة وكان فيه الضعف فى اسناده وذكرناه ، لأن أجزاءه لا يمكن أن يكون فيها نكارة ، كل واحـد منها بمفرده وكله حكم رائعات ان لم تكن حديثا صحيحا فهى فى أجزائها من جوامع الكلم الذى اتصف بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وليس لنا أن نكذب على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونقول عنه ما لم يقل ، فـان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نقل عنه فى حديث متواتر أو شبه متواتر : « من كذب على متعمدا ، فليتبوأ مقعـده من النار » ٠

ولكنا نقلنا هذا الكلام كما نقله الحافظ البيهقى ، وانه يسعنا ما يسعه والعلم عند الله ٠

نتـائج تبوك

٦٤٤ ـــ لم نجد فى تبوك معركة حربية ، لأن النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم قد ذهب الى الروم لما علم أنهم يجمعون جيشا وأنفق قيصر الروم على هذا الجيش رزق عام ، سبق به لتتوافر أعطيات الجند ، وذلك ليفـرض ارادته ونفوذه على العرب كما كان ، وقد هزته مؤتة بكثرة القتل فى الرومان وان انسحب جيش النبوة انسحابا ليس فـرارا ، وخافوا أن يتبعوه ، ولكى يقضى أولئك النصارى على هذا الدين الجديد ، الذى يقوض الدولة الرومانية فى الشام على الأقل ٠

ولم يكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لينتظر فى المدينة المنورة ، بل انه يجىء اليه ، وقـد جـاء اليه فى جيش يريد الاستشهاد ، فلمـا علم ذلك

هرقل وقواده ، وقد ذاق جيشه الذى كان مائتى الف أمام ثلاثة آلاف تردد فى اللقاء ، ويظهر أنه لم يستطع أن يستعين بمن حول الشام من الأعراب كما كان فى مؤتة ، ولذلك فض جمعه ، ولم يلاق المسلمين فلم يلق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حربا ، ولم يكن من نتيجة لتبوك الا أن أرهب الله الرومان فارتدوا على أدبارهم خاسرين ، واقتص النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من انسحاب جيشه بتخاذلهم عن لقائه ٠

وكان لابد من منع الفتنة فى الدين الذى تكرر منهم ، ولذلك أوصى بارسال جيش أسامة اليهم ، ليعلمهم أن أهل الايمان لا يسلمون مسلما أو يخذلونه ٠

واذا لم تكن ثمة نتائج حربية الا هذه الصورة التى ذكرناها ، فقد كانت هناك نتائج أخرى لا تقل آثارها عن النتائج الحربية بل تزيد عليها ٠

أولها : أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم علم أحوال القبائل العربية التى تتاخم الشام من صحراء العرب ، وألقى فى نفوس أهلها روح العزة الاسلامية لكيلا يكونوا من بعد ذلك للرومان تبعا يضربون بسيوفهم العرب ، ويكونوا شوكة فى جنب ، وليريهم أن الرومان فروا من لقائه ، وبذلك يستهينون بالرومان ، ويمزقوا نفوذهم ، ويستعدوا لينالوا من الرومان ، ويضربوهم بالسيوف الاسلامية ، كما كان فى واقعة اليرموك من بعد ٠

ثانيها : ان كلمة الاسلام أخذت تتردد فى الشام بين نصارى غسان ، فكثر التابع ، وقل المانع وعلم أولئك العرب أن المستقبل للاسلام فى تلك الأرض لأنه دين الله ودين الحق الواضح الذى لا ضلال فيه ، وأنه الدين المستقيم الذى لا التواء فى معانيه ، وبذلك لا يناصرون الرومان ، ولذلك كانت واقعة اليرموك فى الشام بين الرومان والمسلمين ، ولم يكن للعرب دور فيها يعاونون الرومان به ٠

ثالثها : أن الفكر الاسلامى أخذ يتلاقى مع النصارى وتميزت الحقائق الاسلامية لدى كبراء النصارى ، ومن أسلم منهم كان له اسلامه ، ومن لم يسلم كان عقد الهدنة ، وكانت بعض السرايا تذهب فى الأرض القريبة من الشام ٠

ولعل أبرز الاتصال بين مبادىء الاسلام ، والنصارى ، مكاتبة قيصر للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

كتاب قيصر الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

٦٤٥ ــ لما نزل النبى صــلى الله تعالى عليه وســلم بتبوك بعث اليه قيصر كتابا بعد أن لم يبعث جيشا ، روى الامام أحمد أن قيصر الروم قال : « ادع لى رجلا حافظا للحديث عربى اللســان أبعثه الى هــذا الرجل بجواب كتابه (أى الذى بعثه النبى صلى الله تعالى عليه وســلم أيام الهدنة) فجىء بالرجل فدفع اليه الكتاب ، واسم الرجل التنوخى ، والقول عن الكتاب يسند اليه ، فهو يقول جاءنى فدفع هرقل الى كتابا ، فقال اذهب بكتابى هذا الى هذا الرجل ، فما سمعت من حــديثه ، فاحفظ لى منه ثلاثا ، فلينظــر فى صحيفته أكتب الى بشىء ، وانظر اذا قرأ كتابى هل يذكر الليل ، وانظر فى ظهره ، هل به شىء يريبك ٠

قال الرجل فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوكا ، فقلت أين صاحبكم ؟ قيل ها هو ذا ، فاذا هو جالس بين ظهران أصحابه محتبيا على الماء ، فأقبلت أمشى حتى جلست بين يديه ، فناولته كتابى فوضعه فى حجــره ، ثم قال من أنت ؟ فقلت أنا أخو تنوخ ٠ قال هل لك الى الاســلام الحنيفية ملة أبيكم ابراهيم ؟ قلت انى رسول قوم ، وعلى دين قوم لا أرجع عنه ، حتى أرجع اليهم ، فضحك وقال : « **انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين** » يا أخا تنوخ انى كتبت بكتابى الى كسرى والله ممزقه ، وممزق ملكه ، وكتبت الى صاحبك بصحيفة فأمسكها ٠ ولن يزال الناس لا يجدون منه بأسا مادام فى العيش خير ٠ قلت هذه احدى الثلاث التى أوصانى بها صاحبى ، فأخذت ســهما من جعبتى ، فثبته فى جنب ســـيفى ، ثم انه ناول الصحيفة رجلا عن يساره قلت من صاحب كتابكم الذى يقرأ لكم ؟ قالوا معاوية ، فاذا فى كتــاب صاحبى « تدعونى الى جنة عرضها السموات والأرض ، فأين النار » فقــال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سبحان الله ، فأين الليل اذا جاء النهار ؟ قال فأخذت سهما من جعبتى ، فألقيته فى جلد سيفى فلما أن فرغ من قراءة كتابى قال ان لك حقا ، وانك لرسول ، فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها ، انا سفر مرسلون ، قال فناداه رجل من طائفة الناس : أنا أجيزه ، ففتح رحله فاذا هو بحلة صفورية ، فوضعها فى حجرى ، قلت من صاحب الجائزة ؟ قيل لى عثمان ثم قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أيكم ينزل هذا الرجل ، فقــال فتى من الأنصار : أنا فقام الأنصارى وقمت معه حتى اذا أخرجت من طائفة المجلس نادانى رسول الله صلى الله تعالى عليه وســلم يا أخا تنوخ ، فأقبلت أهوى ، حتى كنت قائما بمجلس فى مجلسى الذى كنت بين يديه فحل حبوته عن ظهره ، فقال ها هنا امض لما أمرت به فجلت فى ظهره فاذا أنا بخاتم النبــوة فى موضع غضون الكتف » ٠

انفرد برواية هذا الحديث الامام أحمد بن حنبل فى مسنده ، ولم يكتب فى الضعاف التى قيل انها أحصيت فى المسند ، وقال فيه الحافظ بن كثير « هذا حديث غريب ، واسناده لا بأس تفرد به الامام أحمد » ٠

ومادام الخبر لا مطعن فيه ، وأخبار الثقات تقبل لأن الأصل فى خبر الثقة أن يكون صدقا ، واننا بهذا نقرر أن تبوك كانت موضع ذلك الاتصال الفكرى الذى التقت حقائق الاسلام بما عند النصارى ، وأصلحت الأفهام وتشفت الأوهام ٠

مصالحته عليه الصلاة والسلام ملك ايلة :

٦٤٦ ـــ قلنا ان الوصول الى تبوك أتى بخير كثير ، فقد كان الاتصال الفكرى والسياسى ، وقد ذكر خبر مكاتبة هرقل والنبى صلى الله عليه وسلم فى تبوك ، وقلنا ما فيه ، وركنا الى صدقه قبولا لأخبار الثقات ٠

والآن نذكر خبرا مشهورا ، وهو أن ملك أيله أتى الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، واسمه يحنة بن رؤبة ، فصالح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل خرباء وأذرح ، فأعطوه الجزية ، فكتب لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا بذلك ، وقال ابن اسحاق انه عندهم ٠

وهذا نص كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليحنة ٠

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم ، وسيارتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله تعالى ، وذمة محمد النبى ، ومن كان معهم من أهل الشام ، وأهل اليمن ، وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فانه لا يحول ماله دون نفسه ، وانه طيب لمن أخذه من الناس ، وانه لا يحل أن يمنعوا ماء يريدونه ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر ٠

ونرى أن هذا العهد الذى أعطى صاحب أيلة عهد يعم ، ولا يخص ، فهو لا يقصر على أهل أيلة ، بل من معه من أهل الشام وأهل اليمن ، وأهل البحر ، والمعية المذكورة هى التى يجمعها النصرانية واذا كان أهل اليمن وهم فى الجنوب ليسوا معه فى الحكم والسياسة ، فهم معه فى الملة والاتباع الدينى ، فعقد الذمة يسرى على هؤلاء جميعا ، اذا التزموا شروطه ، ويكون الذى عقد هو فيه صاحب أيلة ، فمن يعلمه منهم ، ويأخذ بحكمه فهو منهم ٠

وبذلك العهد يكون قد أخذ أكثر نصارى العرب يغدون اليه ·

وكتب مثل هذا الصلح الى جهم بن الصلت ، وشرحبيل بن حسنة ، أو أذن لهما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يكون لهما ما اشتمل عليه من حقوق ·

وكتب مثله لأهل جرباء ، وأذرح ، وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لأهل جـــرباء وأذرح أنهم آمنون بأمان الله تعالى ، وأمان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب ومائة أوقية ، وأن الله تعالى عليهم كفيـل بالنصح ، والاحسان الى المسلمين ، ومن لجأ اليهم من المسلمين ·

وهكذا كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يعقد العقـود الخاصـة بالسلم بين المسلمين والنصارى ومهد الســبل للمسلمين يســيرون فى تلك الديار دعاة للاسلام ، ولا شك أن هذه نتيجة من أعظم النتائج التى تتفق مع الدعوة الاسلامية ، فما جاء محمد صلى الله عليه وسلم محاربا ، ولكن جاء هاديا مبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا صـلى الله تعالى عليه وسلم ·

ولم يكتف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالعقود يعقدها ، وهو فى تبوك بل أرسل السرايا الى القبائل الشمالية القريبة من تبوك ، يسالمهم ·

سرية خالد الى أكيدر دومة

٦٤٧ ـــ ارسل الى اكيدر بن عبد الملك ، من كنانة ، كان ملكا عـلى دومة ، وكان نصرانيا ، وقد كان فى هذه السرية عشرون واربعمائة فارس ، ودومة هى دومة الجندل ، وقال البيهقى كان الجيش مكونا من المهـاجرين ، وعلى راسهم ابو بكر الصديق ، وكان خالد على رأس الأعراب ·

وان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عندما ارسل هذه السرية · قال لخالد : « انك ستجده يصيد البقر » وهذا يدل على انه امير لا يعنى بالجد من الأمور ·

خرج خالد حتى دنا من حصنه ، وصار منه بمنظر العين ، وكان ذلك فى ليلة مقمرة صـائفة ، وهو على ســطح له ومعه امراته ، وباتت البقـر تحك

بقرونها باب القصر ، فقالت له امرأته : هل رأيت مثل هذا قط ، قال ٠ لا والله قالت فمن يحرك هذه ؟ قال لا أحد ، عندئذ نزل بفرسه ، وقيل انه ماكرهم قبل أن ينزل ٠

وكان معه نفر من أهل بيته فيهم أخ له يقال له حسان ، خرجوا ، فتلقتهم خيل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأخذته وقتلوا أخاه ، لأنه أخذ يقاومهم ٠

وأكيدر هذا مرفه فاكه فى نعيم ، عليه ديباج مخوص بالذهب فاستلمه خالد ليبعث به الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وقد راع الديباج أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وجعلوا يلمسونه بأيديهم ، ويتعجبون وقد لفتهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن افتتانهم بهذا الثوب الذى هو من نعيم الدنيا الذى يطغى وأخذ يدعوهم الى نعيم الآخرة ، فقال عليه الصلاة والسلام « أتعجبون من هذا ، فو الذى نفسى بيده لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا » وقد عقد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع أكيدر عقده على أن يقدم اليه الجزية ٠

ولقد روى الواقدى أنه كان مع أكيدر ألفا بعير ، وأربعمائة درع وأربعمائة رمح ٠ ومهما يكن من صحة هذه الرواية فان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خلى سبيله وعاد الى قريته ويظهر أنه ما خلى سبيله الا على أساس الذمة ، فيكون هو ومن معه على الذمة ، كما ذكر الواقدى ومما يذكر للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه كان يصطاد البقر ، ففى هذه الموقعة كانت البقر هى التى اصطادته لأنها دقت بقرونها الباب ، فنزل من أعلى حصنه ، فاصطاده جيش خالد ، ثم كان عفو النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وفى رواية البيهقى أن سرية خالد الى أكيدر واستسلامه هى التى حملت يحنة صاحب أيلة على المجىء الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعقده معه عقد الذمة ٠

عودة المسلمين من تبوك

٦٤٨ ــ كانت غزوة تبوك غزوة مباركة ، كانت الدعوة الى الاسلام هى لبها وغايتها ، ونهايتها ، فقد نشر الاسلام بها فى شمال البلاد العربية ، واستأنس به العرب فى هذه الأقاليم ، وأخذ يسرى نوره فى الشام ذاته ، مما

كان تمهيدا لجيوش المسلمين لفتحه ، حتى تكون المواقع من مواجهة بين الاسلام والرومان ، والعرب ، ومنهم عرب الشام ، اذ غزوا باسم الاسلام ٠

وقد عاد النبى بعد ذلك الى المدينة المنورة ، ويقول ابن اسحاق اقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بضع عشرة ليلة لم يجاوزها ، ثم انصرف قافلا الى المدينة المنورة ٠

ويفهم من هذا أن مدة الاقامة بتبوك بضع عشرة ليلة لا تدخل فيها مدة السفر ، ذهابا وأوبة ، وقد ألف فى هذه المدة الناس ، وعقد عقود ذمة ، وأزال سطوات ناس ما كان يهمهم الا الترف والصيد ، وأوصل دعوة الاسلام الى الأراضى المصاقبة للرومان لكيلا تكون لهم قوة منهم اذا اشتدت الشديدة ، وقامت الحرب بين المسلمين والروم لتزول فتنة المسلمين فى بلادهم ٠

وقد حدثت وهم فى الرجوع خوارق للعادة على يد النبى صلى الله عليه وسلم وان ذلك لكثير فى حياته صلى الله تعالى عليه وسلم ، تتبعه دلائل النبوة وتسايره ، وحيثما كان فى حله وترحاله بينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يسير ، والعطش شديد ، والماء نادر ، والأرض صحراء رملة وكان فى الطريق ماء يخرج من وشل ينحدر قليلا من مرتفع ، فنهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن أن يستقى منه قبل أن يصل ، فاستقى منه ناس ، فاستقوه ، اذ لا يسقى الا راكبا أو راكبين الى ثلاثة ٠

فلما جاء اليه الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لم يجد ماء ، فدعا على الذين استقوه ، ثم وضع يده تحت الوشل (المكان المرتفع) ودعا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما شاء أن يدعو الله تعالى ضارعا اليه فانخرق ويقول فى وصفه ابن اسحاق ما ان له حسا كحس الصواعق ، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه ، وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لئن بقيتم أو من بقى منكم ، لتسمعن بهذا الوادى ٠

وان هذا الحال كحال موسى اذ استسقى لقومه فضرب الحجر فانبثق منه اثنتا عشرة عينا ، فقد قال الله تعالى فى ذلك : **« واذ استسقى موسى لقومه ، فقلنا اضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، قد علم كل أناس مشربهم ، كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين »** ٠

انها نبع النبوة وصل اليه موسى بعصاه ، ووصل اليه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم بيده ، فقد نشز الأرض يقطر قليلا فسمه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فانخرق ، وصار له حس كحس الصواعق ، كما قال ابن اسحاق ٠

القائد يرعى جنده حيا وميتا :

٦٤٩ ـــ ان القائد يجب أن يكون محبا لجنده يحنو عليهم كما تحنو الأم على ولدها ، لأنهم خـرجوا مقدمين أنفسهم فى سـبيل الله تعالى ، غير مدخرين مال ، تاركين الأهل والولد ، والراحة ، فلا جزاء لهم الا جنة الله فى الآخرة ومظاهر التكريم فى الدنيا ٠

وقد مات أحد الغزاة فى الطريق ، وكان مؤمنا صادق الايمان ، قاوم فى سبيل الاسلام قومه حتى نازعوه ثوبه ، ذلكم هو عبد الله ذو البجادين قد مات فتولى دفنه محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ووزيراه أبو بكر ، وعمـر رضى الله عنهما ، ولنترك الكلمة لابن اسحاق فهو يقـول « راويا عن عبد الله بن مسعود قال : « قمت من جوف الليل ، وأنا مع رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم فى غزوة تبوك ، فرأيت شعلة من نار فى ناحية المعسكر ، فاتبعتها أنظر اليها ، فاذا رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسـلم وأبو بكر وعمـر واذا عبد الله ذو البجادين المزنى قـد مات ، واذا هم قد حفـروا له ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى حفرته ، وأبو بكر وعمر يدليانه ، وهو يقول أدنيا الى أخاكما ، فدلياه اليه ، فلما هيأه بشقه قال : « اللهم انى أمسيت راضيا عنه ٠ فارض عنه » ٠ فيقول عبد الله بن مسعود : يا ليتنى كنت صاحب هذه الحفرة ٠

ويقـول ابن هشـام فى سبب تسميته بذى البجادين أنه كان ينزع الى الاسلام فيمنعه قومه من ذلك ، ويضـيقون عليه ، حتى تركوه فى بجاد ليس عليه غيره والبجاد الكساء الغليظ الجافى ، فهرب منهم الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما كان قريبا من الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم شق البجاد اثنين ، فاتزر بواحد ، واشتمل بالآخر ، فقيل له ذو البجـادين لذلك ٠

انظر الى تكريم النبى صـلى الله تعالى عليه وسـلم الأمين المجـاهد للمجاهدين ، لا يتركهم للذئاب تنوشهم ، بل يكرمهم فى مماتهم ، كما يكرمهم فى محياهم ، ليقدموا على الفداء كراما ٠

عصمة الله تعالى لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم

٦٥٠ ـــ قال الله تعـالى : « **يأيها الرسـول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسـالته ، والله يعصمك من الناس** » فالرسـول صلى الله تعالى عليه وسلم دائب على الدعوة لاينى ، ينتقل فى لأواء الصحراء

من مكة المكرمة الى المدينة المنورة وما بينهما ، ثم يتجاوز الفيافى والصحارى ليكون فى أرض الشام شامخا بالرسالة الالهية على الرومان ، ومن يتبعهم ، ومن يخضع ، فاذا لم يكن الله تعالى عاصمه من الذين يريدون به السوء فى كل مكان من هذه الجرداء ، فمن يكون العاصم غير الله تعالى القوى الجبار .

لقد تسلل الى جيش الاسلام بعض المنافقين ، ورجع المدينة المنورة طائفة منهم ليخذلوا المؤمنين ، وبقيت أخرى لتخذل اذا سنحت لها الفرصة فى السير ، أو فى المعترك ، ففوت الله تعالى عليهم الفرصة التى ينتهزون أمثالها دائما .

ولما تمت أمور تبوك ، وتحولت الى دعاية اسلامية صادقة ، ولم تكن معركة قتال ينفثون فيها سموم التردد والهزيمة ، ووجدوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم راجعا بجيش العسرة ، وهو فى يسر وأمن وسلام واطمئنان ائتمروا بالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ومكروا محاولين أن يطرحوه من عقبة عالية فى الطريق ، واذا كان قد أراد الخائنون اخوانهم أن يرموا عليه حجرا ثقيلا وهو جالس بجوار جدار لهم ، فقد أراد الخائنون من المنافقين أن يطرحوه من فوق عقبة فى الطريق ، ولكن الله تعالى أعلمه بما بيتوا فى الثانية كما أعلمه فى الأولى .

لما بلغوا العقبة التى كان تدبيرهم الخبيث ومكرهم السيىء عندها ، فلما بلغها صلى الله تعالى عليه وسلم أمر الجند أن يسيروا فى بطن الوادى ، وقال : من شاء منكم أن يأخذ بطن الوادى ، فانه أوسع لكم . وأخذ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم العقبة ، وأخذ المسلمون وكل الجيش بطن الوادى الا الذين ائتمروا ، وبيتوا الشر ، فقد أخذوا العقبة التى أخذها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، لينفذوا ما مكروا به ، ومكروا مكرا ، ومكر الله تعالى مكرا ، والله خير الماكرين .

لقد علم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مكرهم الخبيث .

ان أولئك المنافقين لما علموا ذلك ، وما اتخذه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لنفسه من طريق استعدوا وتلثموا ، فأخفوا وجوههم لكيلا يعرفوا ، فعرفوا بذلك التلثم الذى أرادوا أن يستتروا به ، فكشفهم المسلمون به .

لقد هموا بأمر عظيم ، وهو أن يطرحوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من فوق العقبة . فأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يلازمه عمار بن ياسر ، وحذيفة بن اليمان ، وأن يمشيا أمامه ، على أن يأخذ عمار ابن ياسر بزمام الناقة ، وأمر حذيفة بسوقها .

وبينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى سيره هو ومن معه ، اذ سمعوا وكز أولئك الذين تآمروا لركائبهم ، وتدفعها عليهم ، وقد أدرك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ماذا يريدون حسا ، بعد أن علم بنياتهم من الله ، وقد ساروا وراءهم من غير أن يعلموا ، وظنوا أنهم مدركون ما يريدون ٠

وأمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حذيفة ، وهو الذى يسوق الدابة أن يردهم ، وأبصر حذيفة غضب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبدا ما يتوقعه عليه الصلاة والسلام من شرهم فى وجهه ، فرجع حذيفة ، ومعه المجن ٠

رآهم حذيفة ملثمين ، واستقبل وجوه رواحلهم فضربها فى وجوهها بالمجن ضربا ، وأبصر القوم وهم ملثمون ، وظن أن ذلك فعل المسافر ، يتقى باللثام حر الشمس ، أو حرور الهواء ولكن المتآمرين فزعوا واضطربوا بافزاع الله تعالى لهم ، شأن من يريد جريمة ويشرع فيها اذ أنه يضطرب عندما يظن أن أمره قد كشف ، فيفزع من تتميمها ويتراجع ٠

ولذلك أسرع أولئك الملثمون المتآمرون الى الاندماج فى وسط الناس فى بطن الوادى وأبطل الله تعالى كيدهم ٠

بعد ذلك رجع حذيفة الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما أدركه ، قال له الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم : اضرب الراحلة ياحذيفة ، وامش يا عمار ، فأسرعوا حتى استووا بأعلاها ، ثم من بعد ذلك خرجوا من العقبة ٠ وهم ينتظرون الناس ٠

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحذيفة وهو الذى كان يسوق الناقة اذهب ، وأرسله النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فذهب اليهم ومن معهم ، وتبين به أنه انكشف أمرهم ــ قال الرسول صلى الله عليه وسلم له هل عرفت من هؤلاء الركب أحدا ؟

قال حذيفة عرفت راحلة فلان ، وفلان ، وكانت ظلمة الليل ، قد غشيتهم وهم ملثمون ٠

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا ٠

قالوا : لا يا رسول الله ، قال فانهم مكروا ليسيروا ورائى ، حتى اذا طلعت الى العقبة طرحونى منها ٠

قالوا اذن نضرب أعناقهم • قال أكره أن يتحـدث الناس ، أن يقـولوا ان محمدا قد وضع يده فى أصحابه « أى بالقتل » •

ويقول ابن اسحاق فى هذه القصة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : ان الله قد اخبرنى بأسمائهم ، وأسماء آبائهم ، وسأخبر بهم ان شاء الله تعالى عند وجـه الصـبح ، فانطـلق (والخطـاب لحذيفة) حتى اذا أصبحت فاجمعهم ، وقالوا انه صلى الله تعالى عليه وسلم أخبره وفى ذلك كلام بين الرواة •

ومهما يكن فان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أوصى حذيفة بألا يذكر أسماءهم ، وهم منافقون ، وقيل كان حذيفة عنـده العـلم بأسماء المنافقين ، وكان هذا سر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أسره اليه حتى قيل انه اذا مات أحد بعـد النبى صلى الله عليه وسلم تعرفوا حال حذيفة معـه ، فـان رأوا حذيفة صلى عليه علموه مؤمنا غير منافق ، وان لم يصل عليه كانوا فى ريب من أمره •

مسـجد الضرار

٦٥١ ـ كان من أولئك الذين ائتمروا بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليطرحوه من فوق القمة أو من التقوا معهم فى قلوبهم ، من أنشئوا مسجد الضرار ، وقد ذكروا انشاءه قبل سفر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يجهز الجيش ، ويجمع النفقة والرواحل ، ويدعو الجميع أن يخرجـوا معـه •

جاءوا الى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو فى هذه الحال ، فقالوا يا رسول الله ، انا قد بنينا مسـجدا لذى العـلة والحاجة ، والليـلة المطيرة الشاتية ، وانا نحب أن تأتينا فتصلى فيه ، فقال عليه الصلاة والسلام انى على جناح سفر ، وحال شغل ، ولو قدمنا ان شاء الله تعالى لصلينا لكم فيه •

وبينما هو فى عودته ، وهو (بذى أوان) موطن بينه وبين المدينة المنورة نحو ساعة جاء خبر هذا المسجد من السماء ، ونزل فيه القرآن الكريم اذ يقول سبحانه وتعالى فى بنـائه ومن بنـوه : « **والذين اتخـذوا مسـجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين ، وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن ان أردنا الا الحسنى ، والله يشهد انهم لكاذبون ، لا تقم فيـه أبدا ، لمسجد أسس على التقـوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهـروا ، والله يحب المطهـرين أفمن أسس بنيانه على تقـوى من الله**

ورضوان خير ام من أسس بنيانه على شفا جرف هار ، فانهار به في نار جهنم ، والله لا يهدى القوم الظالمين ، لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم » ·

لما نزل ذلك القول الحكيم من عند علام الغيوب الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ·

والواضح أن الذى بناه طائفة من المنافقين وليسوا من الأنصار ، الا أن يكونوا من الأوس والخزرج الذى كان المنافقون ينتمى كثير منه الى الخزرج ولا يمكن أن يكونوا من أنصار الله الذين أوذوا ونصروا ، الذين يؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ·

والآية الكريمة واضحة فى البواعث التى بعثتهم لبنائه انما اتخذوه ليضاروا المؤمنين الذين يلازمون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى مسجده والمساجد التى بناها كقباء وغيره ، التى أسست على تقوى من الله تعالى ورضوان ، انهم يريدون بذلك تفريق المسلمين بترويج ما يفرق جماعتهم ، وبث الفتن والسوء فيها ، وليترصدوا فيه ويترقبوا من يحارب الله تعالى ورسوله ، ومن يأتمرون معهم ·

ولقد قال لهم بعض الذين لم يدخلوا فى الاسلام « ابنوا مسجدكم ، واستعدوا ما استطعتم من قوة ومن سلاح ، فانى ذاهب الى قيصر الروم ، فآتى بجنده من الروم ، فأخرج محمدا وأصحابه » ·

وأن هذا القصد السيىء واضح من أن البناء كان والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يتجهز ، بجمع الجموع للذهاب الى تبوك ، وقد كانوا يتوقعون ما يتمنون ، وهو انهزام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وجيشه أمام الرومان ، ولذلك دعا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اثنين من صحابته فقال انطلقا الى هذا المسجد الظالم فاهدماه وحرقاه فخرجا مسرعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف فقال أحدهما لصاحبه ، انظر حتى أخرج اليك بنار من أهلى ، وهم بنو سالم بن عوف وذهب الى أهله ، فأتى بسعف من النخل ، فأشعلا فيه نارا ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه ، فتفرقوا عنه ·

ولقد خيب الله ظنهم ، فقد تخاذل الرومان عن أن يلتقوا مع جيش الاسلام ، وذهب عنهم ما كانوا يتحدثون فيه من كلام منبعث من نفاقهم اذ جاء على لسانهم أن المسلمين لا يستطيعون جلاد الروم ، فقد خاف الروم ولم يخف رجال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الذين قدموا أنفسهم لله تعالى ·

الثلاثة الذين خلفوا

٦٥٢ ـــ انقسم المؤمنون الذين دعاهم النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم عند الخروج الى تبوك الى ثلاثة أقسام :

وأول الأقسام وأظهرها ، وهم قوة الاسلام الأولى ، الذين شروا أنفسهم لله بأن لهم الجنة يقاتلون ويقتلون ، وهم الذين تقدموا للذهاب مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم « **لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعـوه فى ساعة العسرة من بعـد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب الله عليهم انه بهم رءوف رحيم** » •

والقسم الثانى : جماعة تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، ومنهم منافقون ، ومنهم ضعفاء الايمان ، ومنهم من فيه خور ، وضعف ، وفى كل أحوالهم ليسوا من أقوياء الايمان الذين يفـــدونه بأنفســهم وأموالهم ، وراحتهم •

وأولئك اعتذروا وقبل النبى صـلى الله تعالى عليه وسـلم اعتذارهم ، وبعضهم كاذب لا محالة ، وقال فيهم سبحانه وتعـالى : « **انما السـبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم ، فهم لا يعلمون ، يعتذرون اليكم اذا رجعتم اليهم ، قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم ، قد نبأنا الله من أخباركم ، وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون ، سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم ، فأعرضوا عنهم انهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ، يحلفون لكم لترضـوا عنهم فان ترضـــوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين** » •

عندما دخل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة المنورة بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ، ثم جاء اليه المخلفون الذين تخلفوا لمرضهم وضعفهم ، والذين لا يجدون ما يحملهم ، فكان عذرهم باديا ، يسقط تكليفهم هذا الخـروج الذى لايكون الا على أهل القوة والسلامة ، والذين يجدون ماينفقون ، ولا ما يحملهم فالله تعالى قد أسقط عنهم الحرج بقوله تعالت كلماته : « **ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج** » •

والباقون القادرون الأغنياء تقدموا بالاعتذار للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وطفقوا اليه يعتذرون ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فقبل منهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما أظهروه ، وكما يقول ابن اسحاق

قبل علانيتهم ، وبايعهم ، ووكل سرائرهم الى الله تعـالى ، وهو يعـلم أنه ان رضى عنهم ، لا يرضى عنهم الله سبحانه وتعالى ، ولكنه مأمور بألا يحكم الا بالظاهر ، واذا قبل الظاهر ، فقد يسيرون فى تحسين الباطن ٠

القسم الثالث ـ من أخلصوا دينهم لله تعالى ، ولكنهم تخلفوا من غير معذرة ، ولم يرتضوا الكذب على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخير لهم أن يعترفوا بتقصيرهم عن أن يكذبوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهؤلاء ثلاثة ، لم يعدهم النبى صـلى الله تعالى عليه وسـلم الا من أقوياء الايمان ، ولكن غلب هواهم فى القعود فى ساعة التجهيز أو غلب فيهم ضعف وقتى ، واحساس ببعد الشقة ، فرضوا أن يكونوا مع الخوالف ، ولكن فيهم قلوب ، لم يطبع عليها كأولئك الذين طبع الله على قلوبهم ٠

لذلك كان لابد من علاج نفسى لهذه القلوب التى لم ترن عليها روانى الاثم المقصود ، وان كان تقصير فقد أدركوه ، وكان ذلك العـلاج الذى رآه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : وماينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى وذلك بالاعراض عنهم ، ومهـاجرتهم ، وذلك لايقـاظ نفوسـهم ، وتعـويدهم الصبر ، وكانت هذه العقوبة تشبه الكفارة بالصوم ستين يوما متتابعة ، لأنها تكون تربية للنفس وتهذيبها ، لقد أعرض عنهم المؤمنون خمسين يوما ضـاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله تعالى الا اليه ٠

ولنترك الحديث عنهم وعن نفوسهم وعن معاملة المسـلمين الى الـذى تحدث بعوالج نفسه ، وما تلقاه وما كان فيه من صبر فريد وهو كعب بن مالك :

« جاء كعب بن مالك ، فلما سلم عليه صلى الله عليه وسلم « تبسم لـه تبسم المغضب ، ثم قال تعال ، قال فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ٠ فقال ما خلفك ! ألم تكن قد ابتعت ظهرك ٠

فقلت بلى والله ، انى لو جلست عنـد غيرك من أهل الدنيـا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ولقد أعطيت جدلا ، ولكنى والله لقد علمت ان حدثتك اليوم حديث كذب ترضى على ليوشكن الله تعالى أن يسخطك على ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد فيه على انى لأرجو فيه عفو الله عنى والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت قط أقوى منى ولا أيسر حين تخلفت عنك ، فقال رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أما هذا فقد صدق فقم ، حتى يقضى الله تعالى فيك ، فقمت ، وكان رجال من بنى سلمة ، فاتبعونى يؤنبوننى فقالوا لى ، والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت لرسـول

الله صلى الله تعالى عليه وسلم بما اعتذر اليه المخلفون ، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لك ، فوالله مازالوا يؤنبونى ، حتى أردت أن أرجع ، فأكذب نفسى ثم قلت لهم : هل لقى هذا معى أحد ؟ قالوا نعم رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل الذى قيل لك ، فقلت من هما ، قالـــوا مرارة بن الربيع العـــامرى ، وهلال بن أمية ، فذكـــروا لى رجلين صالحين شهدا بدرا ، فهما أسوة ، فرضيت حين ذكرا لى ، ونهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن كلامنا أيهـا الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لى الأرض ، فما هى بالتى أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ٠٠ فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهمـا يبكيان ٠ وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج وأشهد الصـــلاة مع المسلمين وأطوف فى الأسواق ، ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله صـــلى الله تعالى عليه وسلم فأسلم عليه ، وهو فى مجلسه بعد الصـــلاة ، فأقول فى نفسى هل حرك شفتيه يرد السلام على أم لا ، ثم أجلس قريبا منه ، فأســارقه النظر ، فاذا أقبلت على صلاتى أقبل الى واذا التفت نحوه أعرض عنى ، حتى اذا طال على ذلك من جفوة المســلمين ، مشيت حتى تســـورت جدار حـــائط قتادة ، وهو ابن عمى وأحب الناس الى ، فســلمت عليه ، فوالله ما رد على السلام فقلت يا أبا قتادة أنشدك الله ، هل تعلمنى أحب الله ، ورسوله صـــلى الله تعالى عليه وسلم ، فسكت ، فعدت له لنشدته ، ، فقال الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم أعلم ، ففاضت عيناى وتوليت حتى تســورت الجـدار ، فبينا أنا أمشى بسوق المدينة المنورة واذا نبطى من أنباط الشــام ممن قـــدم بالطعام يبيعه فى المدينة المنورة يقول من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون الى حتى اذا جاءنى دفع الى كتابا من ملك غسان فاذا فيه :

« أما بعد فانه بلغنى أن صاحبك جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ، ولا مضيعة فالحق بنا نواسك » فقلت لما قرأتها وهذا أيضا من البلاء ، فتيممت التنور فسجرتها حتىمضت أربعون ليلة منالخمسين اذ رسول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأتينى فيقول : ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأمرك أن تعتزل النســاء فقلت : أطلقهـا ، أم ماذا ٠ قال : لا ولكن اعتزلها ولا تقربها وأرسل الى صاحبى مثل ذلك ، فقلت لامرأتى الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هــذا الأمر ، فجاءت امــرأة هلال بن أمية فقالت : يا رسول الله ان هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ٠ فهل تكره أن أخدمه قال : لا ، ولكن لا يقربك ٠ قالت : والله انه ما به حركة الى شىء ، والله مازال يبكى منذ كان من أمره الى يومه هذا ، قال كعب : فقال لى بعض أهلى لـــو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأتك ، كما أذن لامرأة هلال ابن أمية أن تخدمه ٠ فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله تعـــالى عليه وسلم ، وما ندرى ما يقول رسول الله صـــلى الله تعالى عليه وســلم اذا

استأذنته فيها ، وأنا رجل شاب ، ولبثت بعد ذلك عشر ليال حتى اذا كانت لنا خمسون من حين نهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة على سطح بيت من بيوتنا ، بينما أنا جالس على الحال فى ذكر الله تعالى ، قد ضاقت على نفسى وضاقت علينا الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر ، فخررت ساجدا ، فعرفت أن قد جاء فرج الله تعالى ، وآذن له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بتوبة الله تعالى علينا ، حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبلى صاحبى مستبشرين » ٠

هنأه الناس فلم يقبل تهنئتهم وذهب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له الرسول الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم المربى المكمل أبشر بخير يوم يمر عليك منذ ولدتك أمك قال له مالك أهو من عندك يا رسول الله أم من عند الله ، قال لا ــ بل من عند الله ٠

صفت نفس الرجل ، وتهذب ، وخرج من كل ماله صدقة لوجه الله تعالى ولرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أبق بعض مالك ، فابقى سهمه من الغنائم التى استولى عليها المسلمون فى خيبر ٠

ولقد خص الله سبحانه وتعالى أولئك الذين تخلفوا فى الأرض بذكر قبول توبتهم مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع المهاجرين والأنصار فقال تعالى كما تلونا « **لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم انه بهم رءوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم ، يأيها الذين آمنوا ، اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** » ٠

العبرة والتربية :

٦٥٣ ــ ذكرنا حديث كعب بن مالك مع طوله ، لأنه حديث النفس التائبة النادمة التى زلت ، وحديث الندم بعد الزلل ، وكما يقول الصوفية : ان زلة أورثت ذلا خير من طاعة أورثت دلا ، لقد ذل لله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأنه أحس بالنفس اللوامة تحركه الى ارضاء الله ورسوله ٠

وقد مكث خمسين ليلة بذكر الله فى كل ساعاتها ، ويحس فى كل آنية منها بوخز ضمير ، وما يوقظ ذلك الوخز يرى فى نظرات النبى صلى الله تعالى

عليه وسلم ، وفى نظرات الناس ، وفى الأسواق ، وهو يصابر نفسه ويجىء خطاب من ملك غسان يطلب أن يلتحق ، فيراها نكبة أخـــرى ، ويجىء الى التنور ليسجره فيه ، وهكذا وان هذه القصة تدل على أمرين :

أولهما : أن النبى صـــلى الله تعالى عليه وســـلم رأى فى هـــذا الرجل وصاحبيه خيرا لم يره فى غيرهما من الذين اعتذروا ومنهم منافقون ، وضعاف الايمان اما هذا فقد أبدى صفحته ، ولم يرض فى موقفه بالاعتذار ، ولا يريد أن يكذب على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فهو موقف طاهر وقلب طاهر ، ولكن علق به درن قليل ، يمكن أن يزول ، ولا يتوب عليه الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفيه هذا الدرن ، ويريد الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أن تكون منه توبة نصوح تليق بالمؤمن الصادق فى ايمانه ويقينه ، فكانت هـــذه لتكون منبها يستمر خمسين ليلة ، وكأنه اعتكف خمسين ليلة ــ منصرفا فيهـــا الى الله تعـــالى ، حتى كانت القاطعة التى حملت الثـــلاثة على الاعتكاف ، فاعتكف اثنان ، وصـــار الثالث بين الناس ، وكأنه بينهم ، فهو الغريب بين أصحابه وأهله ، حتى أعلن النبى صلى الله تعالى عليه وســـلم قبول توبتهم ٠

الأمر الثانى : الذى يدل عليه ذلك الخبر أن الانســـان خلق ليأتلف مع غيره يتلمس التشجيع النفسى من نظرات ، وملامح الوجوه ، ومظاهر الأقوال والأفعال والجوارح التى تصدر عن الناس ، وان الاستنكار النفسى يفعـــل فى نفوس الأخيار مالا تفعله العقـــوبات بالنســـــبة للأشرار ، فالذين يستهينون بالاستنكار القلبى فى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « مَن رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع ، فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه » مخطئون ، وما كان عقاب هؤلاء الثلاثة الا استنكارا قلبيا بدا فى الوجوه والجوارح ولم يبد فى القـــول ٠

وان هذا الذى سنه النبى صـــلى الله تعالى عليه وســـلم ، يجب علينا اتباعه ، فلا يصح لنا ــ أن نبش فى وجوه الأشرار ، ولا الذين يرتكبون الآثام لأنه عسى أن يثير ذلك ضمائرهم فتلوم ، واذا كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد فعل ذلك مع ثلاثة لدرن يسير أصاب قلوبهم ، أفلا نفعله مع أشرار هذا الزمان ، واذا كنا نعجز عن مقاطعتهم ، فاننا لا نمالئهم ، ولا نلتف حولهم مع ظلمهم ، لأن مجرد الالتفاف حولهم يجعل الرجل من شيعتهم ، وان لم يعمل عملهم ، ويجعلنا ذلك سائرين معهم ، وان لم نعاونهم بالفعـــل ، فانا نعاونهم بالالف ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : « من مشى مع ظالم ، فقـــد سعى الى جهنم » ٠

سبعة ربطوا انفسهم بأعمدة المسجد

٦٥٤ ــ كانوا عشرة تخلفوا ، لعل منهم أولئك الثلاثة الذين ذهبوا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يستمع الى الأعذار للمتخلفين يقبل علانيتها ، ويترك السرائر الى الله تعالى ، وما كان للرفيق الطاهر الذى قبل لفظ اللسان وليس لفظ القلب الا أن يقبل العلانية ، ويترك لله ما بطن ، لأنه لا يفتش عن القلوب ٠

ان أولئك الثلاثة ذهبوا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقولون لا عذر لنا ، ولا سبيل لأن نكذب عليك ، فصدقهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وطهر قلوبهم ، وهذب نفوسهم وأزال الضر بتلك العقوبة الهينة فى ظاهرها القوية فى تأثيرها ٠

ولكن سبعة آخرون لم يذهبوا معتذرين ، لأنه لا عذر لهم ، ولم يذهبوا ينفون الاعتذار بل جاءوا وعاقبوا أنفسهم بأنفسهم ، فأوثقوا أنفسهم بسوارى المسجد النبوى ، فلما رآهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : من هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسوارى ، قالوا هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله أوثقوا أنفسهم حتى يطلقهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ويعذرهم ، فقال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم ، حتى يكون الله سبحانه وتعالى هو الذى يطلقهم ، رغبوا عنى ، وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين ، فلما بلغهم ذلك قالوا ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذى يطلقنا ، فأطلق سراحهم ، ومنع الوثاق بأمر الله تعالى ، وقيل نزل فيهم « **وآخرون اعترفوا بذنوبهم ، خلطوا عملا صالحا ، وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهم ، ان الله غفور رحيم** » أرسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ففك وثاقهم ، وأطلقهم وعذرهم ٠

ولم يجدوا أن ما فعلوه بأنفسهم فيه تكفير لتقصيرهم الذى تخلفوا به عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورأوا أن الصدقة تطفىء الذنوب كما يطفىء الماء النار ، فتصدقوا بكل أموالهم ، وقالوا يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا ، واستغفر لنا قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ما أمرت أن آخذ أموالكم » فقيل نزل قوله تعالى فيهم « **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم والله سميع عليم** » ٠

هذا قسم أخذ فى تطهير نفسه ، ولم يطهرهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بابعاد الناس ، وهم فريق واحد ، أبى أن ينتحل عذرا شعورا منه

بالتقصير فى التخلف عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وانهم بذلك وقعوا فى خطأ جسيم يكاد يكون خطيئة ٠

ولقد ذكر ابن كثير رضى الله تعالى عنه أقسام المخلفين ، فذكرهم أربعة أقسام قريبا مما ذكرنا ، قال : « كان المتخلفون عن غزوة تبوك أربعة أقسام :

١ ــ مأمورون مأجورون كعلى بن أبى طالب ، ومحمد بن سلمة وابن أم مكتوم ٠

٢ ــ ومعذورون ، وهم الضعفاء والمرضى ، والمقلون وهم البكاءون ٠

٣ ــ وعصاة مذنبون وهم الثلاثة ، أبو لبابة ، وأصحابه المذكورون ٠

٤ ــ وآخرون ملومون مذمومون ، وهم المنافقون ٠

وقد ذكرنا هذه الأقسام فى القرآن الكريم ، ونوافق الحافظ بن كثير على هــذا التقسيم ، ولكن لا نسـمى أبا لبابة وأصحابه مذنبين ، ولكن نسميهم مقصرين مخطئين ٠

وفى الحق ان غزوة تبوك التى كانت آخر غزوات فيها اختبار لنفـوس الذين مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد بدت فيها أحوال الذين كانوا مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، بدأ الأقوياء الذين لا يصدرون الا عن أمره ، وبدأ المنافقون الذين لازموه مخذلين بخروجهم ، ومخذلين فى سيرهم ومتآمرين يريدون اغتيال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وبدأ الذين ينقصهم الهمة والاستجابة فى الشدة ، وان كان لا ينقصهم الايمان وقوة اليقين ، وقد عالجهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم نفسـيا بأمر ربه ، وعالجوا أنفسهم ، والجسم القوى يقبل العلاج ، ولم يعالج النبى صــلى الله تعالى عليه وســلم غيرهم ممن تخلفوا ، بل تركهم الى ما هم فيه يحاسبهم الله تعالى ٠

الوفــود

٦٥٥ — فى العام التاسع جاءت الوفود الى النبى صلى الله **تعـالى** عليه وسلم بعد غزوة تبوك ، ويقول كتاب السيرة ، انها آخـر غزوة غزاها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد عمت الدعوة الاسلامية البلاد العربية وصار العرب بين مجيبين ، وكافرين ، ومترددين يسيرون فى طريق الاسلام ، ولما يدخل الايمان قلوبهم ، وقد جاءت وفود ممن أسلموا ، ووفود أخرى تقدم ذكرها وقد قال ابن اسحاق ، وانما كانت العرب تتربص باسلامها أمر هــذا الحى من قريش ، كانوا امام الناس وهداتهم ، وأهل البيت والحرم ، وصريح ولد اسماعيل بن ابراهيم ، وقادة العرب ، لا ينكرون ذلك · وكانت قريش هى التى نصبت الحرب لرسول الله صـلى الله تعالى عليه وسـلم وخلافه ، فلما افتتحت مكة المكرمة ، ودانت له قريش ، ودوخها الاســلام عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا عداوته ، فدخلوا فى دين الله كما قال عز وجل : « **أفواجا** » يضربون اليه من كل وجه ، يقـول الله تعالى : « **اذا جـاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فســبح بحمد ربك ، واســتغفره انه كان توابا** » أى فاحمد الله على ما ظهر من دينك ، واستغفره انه كان توابا · وقـد قال كانت العـرب تتلوم باسلامهم قبل الفتح ، فيقولون اتركوه وقومه ، فانه ان ظهـر عليهم فهو نبى صادق ، فلما كانت واقعة الفتح بادر كل قوم باسلامهم ·

ومؤدى هذا أن فتح مكة المكرمة لم يكن فتحا لمدينة لها قدسيتها فقط ، بل كان فتحا لقلوب الناس نحو الاسلام ، اذ هم لقريش تبع ، ولم يكن الفتح اكراها لقريش على الاسلام ، بل ازالة نقمة الزعماء والكبراء ، وتبين الحق الصريح الواضح ، حتى ان الكبير منهم كان يقدم على الاسلام ، لأنه علم أنه العقل وأنه الحق ، كما رأينا فى اسلام عكرمة بن أبى جهل ومن كان معه من اخوان له الى آخر لحظة من مقاومته ·

ولكن مع ذلك يجب التمييز بين من دخل فى دين الله ، والبـــلاء بلاء ، وحمل عبء المصابرة على الأذى فى مكة المكرمة ، والتهكم والاستهزاء ، **وهم** الذين جاهدوا فى سبيل الله ، وحملوا السيف ، وقاتلوا وقتلوا ، **وهم الـذين** اشتروا أنفسهم وباعوها ، حتى بلغ الاسلام ما بلغ وفتحت مكة المكرمة أو مهد للفتح بالحديبية ، يجب التفرقة بين الذين دخلوا وحملوا العبء مع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبين الذين جاءوا من بعد ، ولذا يقول الله تبارك

وتعالى : « **لا يستوى منكم من انفق من قبل الفتح ، وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى** » ٠

ويقول فى ذلك ابن كثير ، فيجب التمييز بين السابق من هؤلاء الوافدين زمن الفتح ممن بعد وفوده هجرة ، وبين اللاحق لهم بعد الفتح ممن وعد الله تعالى خيرا وحسنى ، ولكن ليس فى ذلك كالسابق له فى الزمان والفضيلة ٠

ونحن نرى أن الفتح الذى جاء به القرآن الكريم كان سنة ست بصلح الحديبية لأن الله تعالى سمى صلح الحديبية فتحا ، وقد كان كذلك ، لأنه فرق بين قوة الحرب وقوة السلام ، وقد دخل الناس بعد صلح الحديبية أفواجا فى الاسلام ، والذين كانوا قبل صلح الحديبية هم الذين قرر الله تعالى فى كتابه الكريم ، أنهم الذين رضى عنهم ورضوا عنه فى قوله تعالى : « **ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله ، فسيؤتيه أجرا عظيما** » ٠

وقال سبحانه وتعالى : « **لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم ، فانزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحا قريبا** » ٠

هؤلاء هم الذين انفقوا من قبل الفتح ، ومن جاء بعدهم ليس مثلهم ، فليس عمرو بن العاص كعلى بن أبى طالب ، وطلحة بن عبيد الله والزبير ابن العوام ، وأبى عبيدة عامر بن الجراح ، وغيرهم ، هؤلاء هم الذين سبقوا بالحسنى وقاموا مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالجهاد والاسلام غريب ، وكان من بعد ذلك عموم الدخول فى الاسلام ، ولذلك كان الذين أسلموا بعد الحديبية والفتح أضعاف الذين أسلموا من قبل ٠

وفد مزينة

٦٥٦ — جاء هذا الوفد عند الحديبية وقبل الفتح ، ومجيئه فى ذلك الوقت يدل على أن دخول الناس فى دين الله أفواجا كان بعد الحديبية ، وامتد الى ما بعد فتح مكة المكرمة وتبوك ٠

روى أن أول وفد من مضر كان وفد مزينة بأربعمائة من مضر ، وروى أن ذلك فى رجب سنة خمس ، وقد جاءوا مهاجرين ، وقالوا ان أول من وفد من مزينة خزاعى بن عبد سهم ، ومعه عشرة من قومه ، فبايع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على اسلام قومه ، ولما رجع اليهم لم يجدهم كما ظن فيهم اذ تأخروا عنه ٠

ويظهر أن أولئك الاربعمائة جاءوا بعد أن فشا الاسلام فيه ، وبعد أن أغلق باب الهجرة الى المدينة المنورة ، وأريد أن يعمر الاسلام البلاد العربية كلها ، فقال : « أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا الى أموالكم » ٠

وبذلك يكون تعيين الزمن بأن القدوم سنة خمس ، **انما كان وفد خزاعى** الذى بايع عن اسلام قومه ، ولم يكونوا قد أسلموا ، ثم جاء بعد ذلك أربعمائة فرأى أن يمكثوا دعاة للاسلام فى بلادهم وذلك بعد أنْ تكاثر المسلمون عندهم ، وذلك بعد الحديبية أو بعد الفتح ، وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم زود هؤلاء بالطعام من التمر اذ لم يكن معهم زاد ٠

وفد بنى تميم

٦٥٧ ـ وذكرنا من أخبار بنى تميم عندما هموا بالاعتداء على خزاعة ، فأرسل اليهم عيينة بن حصن فى خمسين رجلا ، فأسر منهم أسرى ، وسبى سبايا ، فجاءوا لذلك ، وقالوا من وراء الحجرات فى جفوة اخرج الينا يا محمد ، فقال تعالى : « **ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو انهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم** » ٠ وقد رد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أسراهم ، وقد تكلموا بعد ذلك مفاخرين بأنفسهم ، ورد الأنصار مفاخرتهم ٠

والآن نقول ما رواه البيهقى بسنده ٠ قال قدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الزبرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم ، وعمرو بن الأهتم التميميون ، فوقف الزبرقان بن بدر وقال :

أنا سيد بنى تميم والمطاع فيهم ، والمجاب ، وأمنعهم من الظلم ، وآخذ لهم بحقوقهم ، وهذا يعلم ذلك ، وأشار الى عمرو بن الأهتم ٠

قال عمرو بن الأهتم انه لشديد المعارضة مانع لجاره مطاع فى أدنيه ٠ فقال الزبرقان بن بدر ، والله يا رسول الله لقد علم منى غير ما قال ، وما منعه أن يتكلم الا الحسد ، فقال عمرو بن الأهتم ، أنا أحسدك فوالله انه للئيم الخال حديث المال أحمق الوالد مضيع فى العشيرة والله يا رسول الله لقد صدقت فيما قلت أولا ، وما كذبت فيما قلت آخرا ، ولكنى اذا رضيت قلت أحسن ما علمت ، واذا غضبت قلت أقبح ما وجدت ، ولقد صدقت فى الأولى ، والأخرى جميعا ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « ان من البيان لسحرا ،

وان من الشعر لحكمة ، ولعل هذه المجاوبة كانت فى قدومهم لفك أسراهم ، فهو قدوم وليس بوفد ٠

وقد روى البخارى فى فضل بنى تميم قول أبى هريرة : « لا أزال أحب بنى تميم بعد ثلاث سمعتهم من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقولها فيهم : هم أشد أمتى على الدجال ، وكانت فيهم سبية عند عائشة ، فقال أعتقيها ، فانها من ولد اسماعيل ، وجاءت صدقاتهم فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : هذه صدقات قومى » ٠

هذا ما رواه البخارى ، ورواه مسلم كذلك ٠

واقول قال على كرم الله وجهه ، فى أيام شدائد البغى ومقاومته « ما أفل لبنى تميم نجم الا بزغ لهم نجم آخر » والله أعلم ٠

وفد ثقيف

٦٥٨ — امتنع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن هدم حصون ثقيف ، وحرق كرومهم ، وأنهى الحرب ، لأنها كانت آخر شوال ، وأقبل ذو القعدة الحرام ، ولأن منهم من مال الى الاسلام ، وفشا الاسلام فى الطائف ، ولكن نخوة الجاهلية وغلظ قلوبهم منعتهم من التسليم ، وان كان الاسلام قد فشا فيهم ٠

فلما انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنهم ، اتبع أثره عروة بن مسعود ، وقد ذكرنا لقاءه بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وعودته الى قومه ، وقتلهم له بالنبل ٠

بعد قتل عروة ، وكان محبوبا فيهم ، أحسوا بأنهم صاروا منفردين بين العرب ، وخصوصا أن مكة المكرمة التى تقرب منهم قد أسلمت وأذعنت ، وأن القبائل تدخل فى الاسلام ، وربما كان مقتل عروة المحبوب فيهم كان له أثر فى نفوسهم بالندم على قتل محبوب ، فصغت قلوبهم لما كان يدعوهم اليه ، ورأوا انه لا طاقة لهم بالعرب ، وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ان أعاد الكرة عليهم لم يكن لهم به طاقة ، بل انهم اليوم لا طاقة لهم بين العرب ٠

اتجه عمرو بن أمية من كبرائهم الى كبير آخر فيهم هو عبد ياليل ، فقال له :

« انه قد ذهب أمر ليست معه هجرة ، انه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت ، قد أسلمت العرب كلها ، وليست لكم بحربهم طاقة فانظروا فى أمركم ٠

عندئذ ائتمرت ثقيف بينها ، وقال بعضهم لبعض ، أفلا ترون أنه لا يؤمن لكم سرب ، ولا يخرج منكم أحد الا اقتطع ، فأجمعوا أن يرسلوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رجلا ، كما أرسلوا عروة ، فامتنع الا أن يكون معه نفر منهم خشية أن يصنعوا به مثل ما صنعوه بعروة ابن مسعود ٠

بعثوا عبد ياليل فى وفد من خمسة كانوا فى جملتهم ستة ٠

قدموا المدينة المنورة ، فكان على رعية ابل الصحابة وكان بها المغيرة ابن شعبة ٠ لأنها نوبته ، وكانوا يتولون عليها بالمناوبة ، وعندما رآهم المغيرة نهض مسرعا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقيه أبو بكر ، فأراد أن يسبقه هو الى اخبار الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره ٠

عاد المغيرة اليهم ، وهو يعلم أنهم جفاة ليعلمهم كيف يحيون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلم يفعلوا الا بتحية الجاهلية ٠

ضرب عليهم رسول قبة فى المسجد ، والنبى صلى الله عليه وسلم يجىء اليهم فيه وكانوا يطمئنون الى خالد بن سعيد بن العاص ، وكانوا اذا جاءهم الطعام من قبل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا يطعمون الا اذا طعم منه خالد ٠

وبعد ذلك أعلنوا اسلامهم ، ولكن فى بقية جاهلية طلبوا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يبقى اللات ثلاث سنين ، فرفض ، طلبوا سنتين فأبى ، طلبوا سنة فأبى ، طلبوا شهرا ، فأبى ، وكيف يقرهم على الوثنية ساعة من زمان ٠

سألوه صلى الله تعالى عليه وسلم الا يكسروا أصنامهم بأيديهم ، فأجابهم وأرسل المغيرة بن شعبة ، وأبا سفيان بن حرب ، أن يهدموها ٠

طلبوا أن يعفيهم من الصلاة ، فقال عليه الصلاة والسلام: « لا خير فى دين لاصلاة فيه » ، وقد كان النبى صلىالله تعالى عليه وسلم قد أقامهم فى خباء فى المسجد ليروا الناس ، اذا صلوا ، فيستأنسوا بالصلاة وليعلمهم ، ولكن جفوة الجاهلية حالت بينهم وبين الأنس بالصلاة ٠

وكانوا يرون أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اذا خطب لا يذكر نفسه فقالوا كيف يأمرنا أن نشهد أنه رسول الله وهو لا يشهد به فى خطبته ، فبلغ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما قالوا ، قال ، فانى أول من شهد أنى رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) ، وكان فيهم عثمان بن أبى العاص وكان أصغرهم فكانوا يخلفونه على رحالهم ، فكان القوم كلما عادوا الى رحالهم بالهاجرة ليقيلوا ، ذهب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسأله عن الدين ، واستقرأه القرآن الكريم ، وكان يختلف اليه مرارا ، حتى فقه فى الدين ، وعلم ، وكان اذا وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم نائما عمد الى أبى بكر ، وكان يكتم ذلك عن أصحابه ، فأعجب ذلك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأحبه ٠

مكث الوفد يختلف الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يدعوهم الى الاسلام ، فأسلموا ٠

قال كنانة بن عبد ياليل الذى كان على رأس الوفد ، كما توهنا هل أنت مقاضينا حتى نرجع الى قومنا ، قال رسول الله صلى تعالى الله عليه وسلم ، ان أنتم أقررتم بالاسلام أقاضيكم ، والا فلا قضية بينى وبينكم ٠

قال : أفرأيت الزنى ، فانا قوم نغترب ، ولابد لنا منه ٠

قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حرام ، فان الله تعالى يقول : **« ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا »** ٠

قالوا أفرأيت الربا ، فانه أموالنا كلها ٠

قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : لكم رءوس أموالكم ، قال الله تعالى : **« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين »** ٠

قالوا أفرأيت الخمر ، فانه عصير أرضنا لابد لنا منها ٠

قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : ان الله تعالى قد حرمها وقرأ قوله تعالى : **« يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون »** ٠

أخذوا بما قرره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لهم ، ولكن بقية الوثنية فيهم ٠ فقد سألوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يبقى الربة (اللات) ، فقال اهدموها ، فقالوا واهمين لو علمت الربة أنك تريد هدمها لقتلت أهلها ٠

فقال عمر بن الخطاب وكان حاضرا ويحك يابن عبد ياليل انما الربة حجر ، قالوا انا لم نأتك يابن الخطاب وقال ابن عبد ياليل لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . تول أنت هدمها فنحـن لا نهدمها ، وأرسل الرسول صلى الله تعـالى عليه وسـلم سفيان بن حرب ، والمغيرة بن شعبة فهدماها كما ذكرنا .

أكرمهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعـد أن علمهم ، وطلبوا أن يؤمر عليهم أحدا ، فأمر أصغرهم عثمان بن أبى العاص ، وكان قد حفظ سورا من القرآن الكريم وأدرك معانى الاسلام .

ولكن كان المتحـدث عن ثقيف بن عبد ياليـل ، لأنهم الذين نصـبوه المتحـدث باسمهم ، وكـان عليمـا بنفـوس قومه ، يعـلم كيف يدخـل الى نفوسهم ، وأمامه تجـربة عروة بن مسعود الذى كان محبوبا أكثر من أبكارهم فلما جاءهم مسلما قتلوه .

ولذلك كتم قصة اسلامهم وما سلموا به للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم من قبولهم لتحريم الزنى والربا والخمـر ، وجاءوا اليهم مخوفين ، ولم يجيئوا اليهم مسلمين .

خوفوهم بالحرب ، وأن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم سألهم أمورا فأبوها : سألهم هدم اللات والعزى وتحريم الخمر والزنى والربا فأبوا .

أظهر الوفد الحزن والكرب ، وسرى ذلك الى ثقيف ، وذهب الوفد الى اللات وثن ثقيف يكرمها ، وأظهر كل من فى الوفد لخاصته ، أنـه جـاء من عند رجل فظ غليظ القلب يأخذ من شاء بظهر السيف ، وأدان له العرب ففـرض علينا أمورا شدادا ، هدم اللات والعزى وتـرك الأموال ... الى آخـر ما طلب .

قالت ثقيف لا نقبل ذلك أبـدا .

فقال الوفد المدرك : أصلحوا السلاح ، وتهيئوا للقتال واستعدوا لـه ، ورموا حصنكم .

فكرت ثقيف يومين أو ثـلاثة يدبرون القتـال ، ثم ألقى الله فى قلوبهم الرعب ، وقالوا والله ما لنا به طاقة ، وقد دان له العـرب كلها ، فارجعوا اليه فأعطوه ما سأل ، وصالحوه عليه ، فلما رأى الوفد أنهم قد اختـاروا الأمـان على الخوف والحرب . عندئذ أظهر لهم ما أخفى ، وقال لهم الوفد ، فـأنا قد

قاضيناه ، وأعطيناه ما أحببنا ، وشرطنا ما أردنــا ، ووجدناه أتقى النــاس وأوفاهم وأصدقهم وأرحمهم ، وقد بورك لنــا ولكم فى مسيرنا ، وفيما قاضيناه عليه فاقبلوا عافية الله ٠

قالت ثقيف ، فلم كتمتمونــا هذا الحديث وغممتمونــا أشد الغم ! قالوا أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان فاسلموا مكانهم ، وجاءتهم رسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وقد أمر على هذه الرسل خالد بن الوليد ، وفيهم المغيرة ٠

أقدم المغيرة ليهدمها ، وثقيف كلها رجالا ونساء يزعمون أنها لا تهــدم أبدا يظنون أنها ممتنعة عن الهدم ، فأخذ المغيرة يخادعهم مستهزئا بزعمهم ، وقال لأضحكتكم اليوم من ثقيف ، فأخــذ المعول يضرب به ، ثم أسقط نفســه وركض ، فارتج أهل الطــائف بضجة واحــدة ، وقالوا ٠ أبعــد الله المغيرة ، قتلته الربة ، وفرحوا حين رأوه ساقطا ، وقــالوا من شاء فليقترب ، وليجتهد على هدمها ، فوالله ما استطاع ٠

بعد أن أثار المغيرة ثقيفا مستهزئا بهم وثب وأخذ المعــول ليهدم ، وقال قبحكم الله معشر ثقيف ، انمــا هى حجــارة ومدر ، ثم ضرب البــاب فكسره ، ثم عــلا أعــلى سورها ، وعلا الرجال معــه فهدموها حجرا حجرا حتى سووها بالأرض ٠

ولكن صاحب مفتاح اللات مازال عــلى ضلاله فجعــل يقول ليغضبن الأســاس ، فليستخفن بهم فلمــا ســمع ذلك المغيرة قال لخالد ، دعنى أحفــر أساسها ، فحفره ، حتى أخرجوا ترابها فبهتت ثقيف ثم انتزعوا حليها وكسوتها وأتى بها الوفد الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وروى أن ثقيفا ، قد اشترط وفــدها أن لا صــدقة عليــه ولا جهــاد فقال النبى صلى الله تعالى عليه وســلم : « سيتصــدقون ويجــاهدون » ٠

ويظهر أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يظهر ذلك الشرط ، أو لم يظهر اجابته انتظارا لما يكون بعد اسلامهم ٠ ويروى أن النبى صلى الله تعــالى عليه وسلم أراد أن يبنى مسجدا ، حيث كان طاغيتهم (اللات) ٠

٦٥٩ ـــ ذكرنا أحوال وفد ثقيف مع طوله ، لأن فيــه بيانا لأحــوال النفوس وكيف تعالج ، انهم قوم أشداء غلاظ فانه يتبين من حديثهم كيف تسيطر

الأوهام عند نقص المدارك ، لقــد هدمت كل الأوثان فى مكة المكرمة ، فما رأينا من قريش ما ظهر من ثقيف عنــدما هدمت اللات أو الطاغية كما يسمونها وكيف كانوا يعتقدون أن من يهدمها ، يسقط ، وكيف تعابث بهم المغيرة ، فأسقط نفسه عند ضرب أول ضربة فصاحوا ثم كان الهادم هو خالد بن الوليد القرشى الذى كان حديث عهد بالجاهلية ٠

ثم فى القصة كيف تستولى الأهواء والشهوات على النفوس غير المؤمنة ، حتى انهم ليطلبون منه اباحة الزنى والخمر ، والربا ، وقد ردهم النبى صــلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وما أشــبه أجــلاف ثقيف بالمســلمين العصريين المجــددين الآن الــذين يستبيحون الربا ، ويعاضدهم بعض الذين يتسربلون سربال العلماء ، وكانوا يحفظون القرآن الكريم ، ويستبيحون الزنى أحيانا باسم المتعة وأحيــانا باسمه الصريح ، ويعــدونه تقدما ، ويستبيحون الخمر جهارا نهارا ٠

وبين أيــدى الذين أباحــوا المتعــة عندما طلبوا ابــاحة الزنى لأجــل اغترابهم ، فكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يشير اليهم بالمتعة ، لو كانت مباحة ، كما يقول أولئك المتفلسفة الذين يريدونها لأغراب التلاميذ ٠ ولا حول ولا قوة الا بالله ٠

وهناك أمر تربوى رائع ، وهو علاج كنانة بن عبد ياليل لشماس ثقيف اذ أنه أخفى اسلامه وصحبه وطلب اليهم الاستعداد للحرب ، ففكروا مليــا ، وطلبوا هم التسليم للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولو أظهر اسلامه ٠ ومن معه ابتداء ، لقتلوهم كما قتلوا عــروة بن مسعود ، ان الأمر اذا عرض مقررا قاطعا ، قاومته النفوس المشاكسة الشامسة ، لأن من طبيعة هذا النوع من النفوس أن ترد ما يعرض عليها على أمر لابد منه اذ ليسوا من الذين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، فاتبع كنانة بن عبد ياليل ، طريق التمهيد للأمر الذى قــرره ، حتى يطلبــوه هم ، فلا يكون مفروضــا عليهم ، بل يكون اســتجابة لما فى نفوسهم ٠

وننبه هنا الى أن بعض الروايات ذكرت أن ثقيفــا عرضت الأمــر عــلى أبى بكر ، فى حجته ، ولكن نجــد الســياق التاريخى لا يــؤيد هذا ، ذلك أن ابن اسحاق يقول ان وفد ثقيف كان فى رمضان ، فبينهما زمن ، وحج أبى بكر متأخر عن رمضان ، والله أعلم ٠

وفد بنى عـــامر

٦٦٠ ـــ أخذت وفود العرب التى وصل اليها الاسلام تجىء وفـدا بعد آخر ، منهم من يعلن اسلامه ويتلقى تعاليمه بالمدينة المنورة ، ومنهم من كان فيه شك ، أو عنجهية جاهليته أو لا تزال الوثنية فى قلوبهم فيتلقاهم النبى صـلى الله تعالى عليه وسلم بالموعظة الحسنة وتأليف قلوبهم ، وبعضهم جاء اقرارا بالخضوع لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، والنبى صلى الله تعالى عليـه وسلم يهديهم ويرشدهم ، وينقذهم من الضلال ٠

روى البيهقى فى دلائل النبوة أن وفـد بنى عـامر الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قالوا له أنت سيدنا وذو الطول علينا ، فقال عليه الصـلاة والسلام : لا يسخرن بكم الشيطان السيد هو الله ٠

لقد جاء ذلك الوفد مسلما ، ولكن كـان فيه عامر بن الطفيل يريد غدرا ولا يريد اسلاما ، وقد نهاه قومه عما يريد ، وقالـوا له يا عامر ان القـوم قد اسلموا فقال والله لقد كنت اليت ألا أنتهى حتى تتبع العـرب عقبى ، وأنا أتبـع عقب هذا الفتى من قريش ٠

ثم قال لمن دبر أمر الغدر معـه وهو أربد : اذا قدمنا على الرجل فـانى شاغل عنك وجهه ، فاذا فعلت ذلك فاعله بالسيف ٠

فلما قدموا أمر عامر أن ينفـذ الغـدر ، فقال مواجها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « يا محمد خاللنى ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم : لا حتى تؤمن بالله وحـده لا شريك له ٠

أبى عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكون له خليلا ، حتى يكون مؤمنا ، فلم يذعن للايمان بل انتقل الى التهديد ، وكأن المخاللة تجىء بالنصر والقهر ، فقال : أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا ٠

فلما ولى قال الذى يعصمه الله من الناس اللهم اكفنا عامر بن الطفيل ٠

فقد خذله صاحبه أربد ، فلم يعـل النبى صلى الله تعالى عليه وسـلم عليه بالسيف ، فقال له : ويحك يا أربد ، أين ما أمرتك به ؟ فقال والله ما كان وجـه الأرض أخوف على نفسى منك ، وأيم الله لا أخافك بعـد اليوم ، ثم قال أربد ، لا أبـا لك لا تعجل على ، فوالله مـا هممت بـالذى أمرتنى به الا دخلت بينى وبينه فأضربك بالسـيف ، وهـكذا وقى الله تعالى رسوله عليه الصـلاة

والسلام بأن كانت صورة أربد قاتله بينه وبين النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

خرج القاتلان من عند رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فأصاب ابن الطفيل الطاعون ، ومات فى بيت امرأة ، وقيل مات على فرس ، وقد خرج متألما من مرضه ، قائلا ، أغدة كغدة البعير ٠

وأما أربد الذى كان يد الغادر ، فانه خرج وحمله بعد عودته الى بنى عامر ، فنزلت عليهما صاعقة فقتلتهما ويروى أنه كان من حديث عامر ابن الطفيل الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه لما أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، خير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، قائلا أخيرك بين ثلاث خصال ، يكون لك أهل السهل ، ولى أهل المدر أو أكون خليفتك من بعدك ، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء ، وهذه رواية البخارى ، ويقول البخارى طعن (أى أصيب بالطاعون) فى بيت امرأة ، فقال أغدة كغدة البكر فى بيت امرأة ائتونى بفرسى أركب ، فمات على ظهر فرسه ٠

وقد ذكرنا شيئا من ذلك من قبل ٠

وان الظن أن وفاة عامر بن الطفيل كانت قبل الفتح ولم تكن فى العام التاسع ، لأن منطقها ، يومىء الى أنها كانت قبل الفتح وتبوك ، أى قبل أن يصير السلطان كله فى البلاد العربية للاسلام ، سواء فى ذلك من أسلم ومن لم يسلم ٠

ومهما يكن فانه لم تكن الوفود بعد الفتح وتبوك كلها مسلمة ، بل كان فيهم غيرهم ممن دانوا بالطاعة ٠

وفد عبد القيس

٦٦١ — فى الصحيحين البخارى ومسلم أن وفد عبد القيس قدموا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبش فى وجوههم ، وقال ممن القوم ؟ قالوا من ربيعة ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم مرحبا بالوفد غير خزايا ولا ندامى ٠

وقد رحب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بوفد ربيعة ، لما كان من التنافس بين ربيعة ومضر ، فمجيئهم دليل على أن العصبية الجاهلية خفت صوتها بجوار صوت الاسلام ، وصارت تحت قدم الاسلام وهو فوقها ٠

جاء هذا الوفد مريدا الاسلام مطمئنا اليه ، ويريدون أن يعلموا من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما يجب عليهم أن يعلموه ٠

قال قائلهم المتحدث عنهم : « يارسول الله ان بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر ، وانا لا نصل اليك الا فى شهر حرام ، فمرنا بأمر نأخذ به ، ونأمر به من وراءنا ، وندخل الجنة ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع : آمركم بالايمان بالله وحده أتدرون ما الايمان بالله ، شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من المغنم ، وأنهاكم عن أربع ، عن الربا والخيثم والنقير والمزمت ، وهى أسماء أنواع من الخمور تختلف أسماؤها باختلاف آنيتها ٠

ولقد كان فى وفد عبد القيس الجارود بن بشر بن المعلى ، وكان نصرانيا ، فلما انتهى الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كلمه ودعاه الى الاسلام وعرضه عليه ورغبه فيه ٠ فقال يا محمد ، انى قد كنت على دينى ، وانى تارك دينى لدينك ، افتضمن لى دينى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنا ضامن أن هداك الله الى ما هو خير منه ٠ فأسلم وأسلم من معه من أصحابه ٠

عاد الجارود الى قومه ، وكان حسنا شديدا فى دينه حتى مات ٠

ولما قامت الردة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم كان من قومه من ارتد ، فوقف فيهم يقول بشهادة الحق ودعا قومه أن يتوبوا ويعودوا الى الاسلام ، وهو يقول : أيها الناس ، انى أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وأكفر من لم يشهد هذه الشهادة ٠

وهكذا كانت الوفود تجىء الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا تخرج من بين يديه الا وقد خالطت بشاشة الاسلام قلوبهم ، فيعودوا الى أقوامهم ، ليعلموهم ما تعلموا ٠

وان ذلك تطبيق واستجابة لقوله تعالى : « **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم ، لعلهم يحذرون** » ٠

وفد بنى حنيفة

٦٦٢ ـــ كان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يستقبل الوفود ، ويدعوهم الى الاسلام ، سواء منهم من اهتدى ، ومن ضل وغوى ، والناس قسمان قسم يطلب الحق ويبتغيه ، ويجانب الشر ، ولا يريد الا الحق ، ولم تدنس نفسه بدرن الهوى والباطل ، ولم تركس فى مهاوى الهوى ، وما يسول به الشيطان فى الأنفس ، وقسم سيطرت عليه الأهواء فلا يتجه الى الحق يبتغيه ، ولكن يتجه الى ما تهوى الأنفس ، وما تضل به الأفهام ، وتسيطر الأوهام ٠

والنبى صلى الله عليه وسلم يستقبل الفريقين ، فمن طلب الحق واستقامت نفسه استجاب للحق ، وأسلم ، ومن ركبته الأهواء ، حاول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ازالة الغشاوة التى تنسجها الأوهام ، ومن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يريد الهدايةللجميع ، ولكن الله تعالى يقول : « **انك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء** » ٠

ومن هذا الصنف الثانى قوم مسيلمة الكذاب ، وهو وفد بنى حنيفة ٠

جاء وفد بنى حنيفة ، وفيهم مسيلمة ، وقد ستروه بثياب والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى يده عسيب من سعف النخل وقد سأله مسيلمة بعض ما تحت سلطانه ، فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : لو سألتنى هذا العسيب الذى بيدى ما أعطيتكه ، وان الشر لا يظهر الا فى أشرار ، فقومه هم الذين شجعوه على ذلك ، وكذلك قال لقومه : أما انه ليس بشركم ٠

وكان مسيلمة قبل أن يحضر قومه كتب للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا قال فيه :

من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله :

« أما بعد فانى أشركت فى الأمر معك ، وان لنا نصف الأمر ، ولقريش نصفه وليس قريش قوما يعدلون » ٠

قدم رسوله على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بهذا الكتاب ٠

فكتب اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم :

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله الى مسيلمة ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين ٠

وقدم من عند مسيلمة هذا رسولان قيل انهما قدما بالكتاب الذى ذكرناه عنه ، فقال لهما محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، « تشهدان أنى رسول الله ، فقالا نشهد أن مسيلمة رسول الله ، فقال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، لو كنت قاتلا رسولا لقتلتكما » ٠

أتى بنو حنيفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم على هذه الحالة النفسية ، وعلى هذا الضلال العقلى ، ولكن منهم من أسلم ، ومع ذلك ارتدوا من بعد ، ولقد استهواهم ضلال مسيلمة الكذاب عن الحق ، وذلك بسبب العصبية الجاهلية ، حتى كان قائلهم يقول : كاذب ربيعة خير من صادق مضر ٠

ولقد كان يزعم ذلك الكذاب المئوف العقل أنه يأتى بمثل القرآن الكريم ، فيقول زاعم أن ما يقوله يشبه القرآن الكريم فى سجع سمج ، « ولقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى من بين صفاق وحشا » ٠

وقد أخذ من قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لهم وليس بشركم ، وهى ترمى الى انهم جميعا أشرار ، وليس هو بشرهم ، أخذ من هذا ان محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم أشركه فى رسالته ، وأسقط عنهم الصلاة وهكذا يذهب الضلال فى النفس ، وتفعل العصبية الجاهلية فى الادراك ٠

وقد قال أفراده ان ذلك الوفد المشئوم ، جاء فى السنة العاشرة ، حتى عمت الدعوة الاسلامية ، ولم يكن لهم مناص من الأتباع ، فانحرفوا ذلك الانحراف ٠

وفد طيىء

٦٦٣ — قدم وفد طيىء ، وقد كان الاسلام ابتدأ فيهم قبل حضور هذا الوفد من وقت ان كانت السرية اليهم ، وهم قوم فيهم خير ٠ ولم يكن فيهم عناد كثقيف والانحراف فى الفكر كحنيفة واليمامة ٠ كان على رأس الوفد زيد الخيل ـ الذى سماه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم زيد الخير ، وروى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال فيه : « ما ذكر لى رجل من العرب بفضل ثم جاءنى ، الا رأيته دون ما يقال فيه الا زيد الخيل ، فانه لم يبلغ كل ما فيه ٠

وقد عرض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الاسلام على الوفد ، فأسلموا وحسن اسلامهم ٠

وروى أن زيد الخير قد مات بحمى المدينة المنورة عقب مغادرة الوفد للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وروى أنه مات بعد ذلك فى خلافة الامام عمر رضى الله تعالى عنه ٠

وكان له والدان قد نالا صحبة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فرضى الله تبارك وتعـالى عنه ٠

ولقد أقطعه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أرضين ، وكتب له كتابا بذلك ، وكان ذلك الاقطاع فيما يظهر اقطاع منفعة ، يستخرج المعادن والزيوت ، ويزرع ما يصلح للزراعة ، وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يفعل ذلك فى الأراضى النائية عن المدينة المنورة ليمكن استغلالها ، واخراج ينابيع الثروة فى باطنها ، ويقدمون فى ذلك أجرا لها ، وقد يكون من غير أجـر تأليفا للقلوب النـافرة ٠

وفد كنـدة

٦٦٤ — قدم الأشعث بن قيس على رأس وفد من كندة عدتها ستون أو ثمانون رجلا ، وقد دخلوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بسلاحهم وبزينة ، قد لبسوا جببا حبرات مكففة بالحرير ٠

دخلوا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يسلموا فنـكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حالهم ، فقال لهم أو لم تسلموا ، قـالوا بلى ، ثم قال ما هذا الحرير فى أعناقكم ، فكانوا طائفتين ، فأجابوا عن الاستنكار بأن شقوا الحرير ونزعوه من ثيـابهم ، وألقـوه ، فقال الأشعث بن قيس : نحن بنو آكل المرار ، وأنت ابن آكل المرار ، (يظهران ذلك اشارة الى قـوة البأس ، وأبى أن يعرب أشرفه الذى ظهر بادى الرأى) وقد ضحك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقد قال هذا النسب ربيعـة بن الحارث ، والعباس ابن عبد المطلب ، فقد كانا تاجرين ، وكانا اذا سارا فى بلاد العرب ، فسئلا من أنتما ؟ قالا نحـن بنو آكل المـرار ، يستعلون بذلك عنـد الناس ، ويعتزون ، ويظهرون البأس ، والقـوة ، لأن آكل المـرار كان ملكا فى كندة وكان أولاده ملوكا ، فكانوا يسيرون باسمه آمنين ٠

فلما قال الأشعث بن قيس للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم نحن بنو آكل المرار ، وأنت ابن آكل المرار يشير الى ما كان بين الأشعث والعباس من صحبة ،

وما كانا يقولانه فى صحبتهما وتجارتهما ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يستضحك مما كان يصنعه هو وعمه العباس الذى كان تاجرا ·

ولكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذكر نسبه الصادق ، وأنه لا ينفيه·

روى أحمد فى سنده بسند متصل الى الأشعث بن قيس قال : قدمنا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وفد كندة ، ولا يرون الا أنى أفضلهم فقلت ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال لا ، نحن بنو النضر ابن كنانة ، لا نجفوا أمنا ، ولا ننتفى من أبينا ·

وكان للأشعث بن قيس ولاية فى بعض الدولة الاسلامية فى عهد بنى أمية ، فكان يقول لا أوتى برجل نفى رجلا من قريش نسبه عن النضر بن كنانة الا جلدته ·

أكرم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الوفد ، وأعلن اسلامه ، وعاد مرضيا آمنا مسلما ·

وفد الأشعريين وأهل اليمن

٦٦٥ — ان الأنصار ينتمون الى قبائل يمنية ، وكانوا هم الذين أحبوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وهم الذين آووا ونصروا فكان لليمن محبة فى قلبه

ولقد جاء الأشعريون وأهل اليمن ، أو ناس من أهل اليمن جاءوا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مسلمين يريدون أن يتعرفوا مبادىء الاسلام ، ويستحفظوا القرآن الكريم ·

ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال عند قدومهم : قدم قوم هم أرق منكم قلوبا ·

فقدم الأشعريون ، وجعلوا يرتجزون ·

غدا نلقى الأحبه ··· محمدا وحزبه

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقول ، وقد وفدوا عليه ، جاء أهل اليمن هم أرق أفئدة ، وأضعف قلوبا للايمان ، والحكمة يمانية والسكينة فى أهل الغنم والفخر والخيلاء فى أهل الوبر ·

وروى عن جبير بن مطعم أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، قال : أتاكم أهل اليمن ، كأنهم السحاب ، وهم خيار من فى الأرض ، فقال رجل من الأنصار : الا نحن يا رسول الله ، فسكت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قال الا نحن يا رسول الله : فسكت ثم قال الا أنتم كلمة ضعيفة ٠ ،

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقبل استثناءهم من أهل اليمن ، وهم الذروة والسنام ٠

وان الاسلام فى ذاته بشرى الخير لمن دخلوا فيه ، لقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم لوفد بنى تميم أبشروا يريد بالاسلام ، فقالوا بشرتنا ، فأعطنا ، فغضب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لهذه المادية الطامعة وقال للأشعريين اقبلوا البشرى ، فقالوا قد قبلنا ، وفهموها معنوية لا مادية ، ثم قالوا يا رسول الله جئنا لنتفقه فى الدين ، ونسألك عن أول هذا الأمر ، فقال عليه الصلاة والسلام كان الله ولم يكن شىء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء ٠

وهنا نجد ظاهرة تبدو غريبة ٠ وهى مسارعة أهل اليمن ومن حولهم الى الاسلام ، ومقاومة أهل مكة المكرمة للدين الجديد مع أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم منهم ، وكان معروفا لديهم بالصدق والأمانة والبعد عما يؤثر فى الكمال الانسانى ٠

ويبدو لنا أن السبب فى ذلك تشير اليه أمور :

أولها : تمكن الوثنية عند كل أهل مكة المكرمة ومن حولها ، وسيطرة الأوهام عليهم ، واعتزازهم بأنسابهم ٠

وثانيها : حب الرياسة فيهم التى نشأت من اقامتهم بالبيت الحرام ، والاستمساك بسيطرتهم على العرب من طريق خدمتهم للبيت الحرام ، وأنهم سدنته ، وأن ذلك الدين الجديد ينزع منهم ما بأيديهم من سلطان ، فاشتدت مقاومتهم ، لا من جهة الايمان ، ولكن من جهة السلطان ٠

وثالثها : أن أهل الجنوب اليمنى ، كان فيهم علم بالأديان ، فكان فيهم اليهود والنصارى ، ولهم بذلك علم بالرسائل السماوية ٠

ولم يكن اليهود الذين كانوا باليمن من بنى اسرائيل ، بل كانوا من السامرة ، وهم اليهود الذين اتبعوا موسى عليه السلام من غير بنى اسرائيل ، فلم تكن عندهم العصبية الاسرائيلية الحادة التى كانت تؤمن بأنه لا نبى الا من

بنى اسرائيل ، ولما جاء محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، أنكروا « **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به** » ٠

وكـانوا لا يعترفون بالسامرة على أنهم من اليهود أتبـاع موسى ، لأن اليهودية عندهم جنسية وليست بعقيدة ، فكانوا يضطهدونهم ، كما يحاولون ايذاء غيرهم من أى دين ، وربما كان مجىء نبى من العرب مثيرا لحمـاستهم لـه ٠

ورابعها : أنهم نظروا الى الاسلام على أنه الدين الظـاهر فى البـلاد العربية ، فسارعوا اليه ، لأنه صار الدين الغـالب ، وصارت كلمة الله تعالى هى العليا ، والله أعلم ٠

وفد الأزد

٦٦٦ ـــ وهم من اليمـن تجـرى عليهم الأسـباب التى ذكرناها فى مسارعتهم الى الاسلام بعد أن امتدت كلمته فى البلاد العربية ٠

قال ابن اسحاق قدم وفد من الأزد ، وكان على رأسهم صرد بن عبد الله الأزدى ، قد أسلم وحسن اسلامه فأمره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على من أسلم من قومه ، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهـل الشرك من قبائل اليمن ومن جاورهم ٠

أخذ صرد بن عبد الله يجاهد من حوله من المشركين ، وكان بجـوارهم مدينة مغلقة يقال لها جرش ، وبها قبائل من اليمن ، وقد انضمت اليهم خثعم ، فتضافروا معهم عنـدما علموا أن جيش المسـلمين يسير اليهم بقيـادة صرد ابن عبد الله ٠

حاصرهم فى مدينتهم جرش نحوا من شهر ، وهم فيها ممتنعون ، فترك الحصار ، وآوى الى جبل يقال له اشكر ، واعتصم به رجاء أن ينتهز فرصة ، فيأتيهم من حيث لا يشعرون ، ويفرقهم عن بلدهم ٠

ظنوا أن صرد بن عبد الله ومن معـه ولى عنهم منهزما أو يائسا من أن يقتحم بلدهم ، فزين لهم أن يخرجوا فى طلبه ، فكان خروجهم تمكينـا لـه من ضربهم ، فانهم اذ أدركوه عطف عليهم ، ولم يكن لهم معتصم يعتصـمون به فقتلهم قتلا شديدا ، وكانت الهزيمة الشـديدة قد نزلت ، وعلم رسول الله

صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك النصر الذى كان من عند الله تعالى العزيز الحكيم ، ولم يكن بسرية من المدينة المنورة ، ولكن بمن أسلم من العرب ٠

وفى الوقت الذى علم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بهزيمة المشركين كان عنده وفد من جرش جاءه عشية أن علم ، وكان مسلما ٠

سأل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وفد جرش وكان مكونا من اثنين بأى بلاد الله تعالى شكر ، فقالا يا رسول الله ببلادنا جبل يقال له كشر ، ولذلك تسميه أهل جرش ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : انه ليس بكشر ، ولكنه شكر ٠

قالا له فما شأنه يا رسول الله ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ان بدن الله لتنحر عنده الآن » ٠ لم يفهم الرجلان مؤدى كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجلسا الى الشيخين الجليلين فى الصحابة ، أبى بكر وعثمان ، رضى الله تبارك وتعالى عنهما ، فسألا ماذا يريد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال لهما صاحبا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ويحكما ، ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينعى اليكما قومكما ، فاقدما اليه ، فاسألاه أن يدعو الله أن يرفع عن قومكما ٠

فذهب الرجلان الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سألاه الدعاء لقومهما ، فقال اللهم ارفع عنهم ٠

خرج الرجلان الى قومهما ، فوجدا قومهما قد أصيبوا فى اليوم الذى قال لهما النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك ، بل فى الساعة التى ذكر فيها ما ذكر ٠

ولقد جاء بعد ذلك وفد جرش فاسلموا وحسن اسلامهم ، وحمى لهم حمى حول قريتهم ليستغلوه ، وكان يفعل ذلك مع من يسلمون من أهل البلاد ليتمكنوا من استغلال الأرض كلها ، وذلك نظير أجرة أو خرج يخرجونه ، والله سبحانه وتعالى أعلم ٠

وفد بنى الحارث بن كعب

٦٦٧ ـــ كان يستقبل الوفود الذين يجيئون اليه مسلمين ، وان لم يكونوا مسلمين دعاهم الى الاسلام اذا جاءوا اليه ، وفى أكثر الأحيان يجيبون ، وفى بعض الأحيان يجيبون بعد تردد ، ومهما يكن فالاسلام يدخل ديارهم ، ومن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، ومن بقى على دينه ورضى أن يعيش فى ظل الاسلام عقد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عقد الذمة ٠

والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرف القبائل وأحوالها ، فمن يجىء منها دعاه الى الاسلام ، وقبل منه ما يتقدم به ، واذا تخلفت قبيلة ولم يعرف ايمانها ، ولم يتبين حالها ، أرسل اليها سرية فدعوها الى الاسلام ، ومن هؤلاء بنو الحارث ، فأرسل خالد بن الوليد فى شهر ربيع الآخر من السنة العاشرة الى بنى الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم الى الاسلام ، قبل أن يقاتلهم يدعوهم ثلاثا ، فان استجابوا قبل منهم ، وان لم يفعلوا قاتلهم ٠

ذهب اليهم خالد بن الوليد ، وبعث الركبان يضربون فى كل وجه ، ويدعون الى الاسلام يقولون لهم أسلموا تسلموا ٠

أسلم الناس ، ودخلوا فى دين الله ، فأقام فيهم خالد يعلمهم الاسلام ، وكتب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك ٠

كتب اليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يقبل ، ويكون معهم وفد منهم ، فأقبل وأقبل معه وفدهم فيهم قيس بن الحصين ذو العصبة ، ويزيد ابن عبد المدان وغيرهما ٠

قال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟ قالوا لم نكن نغلب أحدا ؟ قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ بلى ٠ قالوا كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبدأ أحدا بظلم ، استنطقهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ ليعلنوا أخلاقهم ، لأنه يقر هذه الأخلاق، ويريد منهم الاستمرار عليها ، لأنها أخلاق اسلامية أمرهم واحد يجتمعون ولا يتفرقون ولا يعتدون ، فهم لا يحاربون ٠

وقد أمر عليهم قيس بن الحصين ، فرجعوا الى قومهم ، بعد أن مكثوا فى المدينة المنورة أشهرا تعرفوا فيها الدين واستحفظوا بعض القرآن الكريم ٠

وانا نرى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا رأى من وفودهم استجابة

للاسلام ، وشيوعه بينهم أمر عليهم اميرا ، يكون متصلا بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وبذلك يكونون جميعا فى ولاية واحدة ، هى ولاية الاسلام التى يجتمعون حول لوائها ، غير متفرقين ، ولا متخاصمين ٠

وفد همــذان

٦٦٨ ـــ اقبل وفد همذان مسلما ، غير متردد ، ولا متلوم ، وكان فيهم مالك بن النمط ، وغيره ، وكان هذا الوفد عقب رجــوعه من تبوك ٠

وقد حضر هــذا الوفــد على أتم زينــة ومظهــر ، فقــد حضروا وعليهم مقطعات الحبرات والعمائم العدنية على الرواحل ، ويظهر أن ملابسهم وان كانت منمقة فيها زينة وزخرف لم يكن فيهــا حرير ، أو ذهب ، ولذلك لم يستنكر شيئا من لبسهم ٠

وقد جاءوا فى سرور باسلامهم ، ولقائهم بالنبى صلى الله تعالى عليــه وسلم ، حتى ان مالك بن النمط أخــذ يرتجز بين يدى النبى صلى الله تعــالى عليه وسلم ٠

اليك جــاوزن سواد الريف   فى هبوات الصــيف والخريف

مخطمات بحبــال الليف

وتكلموا بكلام فصيح أمام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وقد قدم لهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أمرين :

اولهما : أنه أمر عليهم مالك بن النمط ، واستعمله على من أســلم من قومه ، وأمره بجهاد من يقرب منهم من المشركين أو الكفار بشكل عام ٠

وقد عاونهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بارسال خالد بن الوليد فى سرية كما روى البيهقى ليدعو فى اليمن الى الاسلام ، وقال البيهقى مكث ستة أشهر يدعوهم ٠

وقال البراء بن عازب كنت فيمن أرسلهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع خالد بن الوليد ، الى أهل اليمن ، وقد مكث يدعوهم الى الاسلام ستة أشهر ، فلم يجيبوه ، ويظهر أنه كان قــائد حــرب ولم يكن داعيا الى الاسلام ٠

ولذلك بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من بعد ذلك بعلى ابن أبى طالب فلما دنا من الجمع اليمنى المسالم ، وان لم يكن قد دخل كله فى الاسلام ، وقد خرجوا فلم يقاتلهم ولم يدعهم الى الاسلام بالقول ، بل برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فصف من معه من المسلمين صفا واحدا ، ثم تقدم فقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

بعد قراءته كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أسلمت همذان كلها ٠

وهذا ما جاء فى صحيح البخارى ٠

وفى الحق انه قد جاء فى أخبار الوفود كلام لم تثبت صحته ، فقد قيل ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كلف همذان بقتال ثقيف ، وهذا غير معقول فى ذات نفسه ؛ لأن ثقيفا بالطائف وهمذان باليمن ، ولأن ثقيفا كانت قد أسلمت برسالة وفدها ، وهدمت اللات طاغيتهم ٠

وفى الحق ان تاريخ قدوم الوفود على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يدون بدقة ٠

قدوم وفد دوس

٦٦٩ — قدم وفد دوس على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يجاهد فى خيبر فهو لم يقدم عليه فى السنة التاسعة التى توصف بأنها عام الوفود ، والدعوة الى الاسلام عن طريقهم وكان على رأس هذا الوفد المسلم الطفيل بن عمرو الدوسى : وقد أسلم والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يهاجر الى المدينة المنورة ، وأمره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على قومه دوس يدعوهم الى الاسلام فأسلم بعض عشيرته الأقربين ، ولم يجىء الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم موفدا من قومه المسلمين الا بعد ذلك فى السنة السابعة وهو فى خيبر ، ولقد أسهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لهم فى الغنيمة ، لأنهم اشتركوا فيها ٠

وقصة اسلام الطفيل بن عمرو الدوسى ودعوته لقومه ، ثم امتناعهم ، ثم اسلامهم يحكيها رضى الله عنه ، فلنتركه يحدثنا بها ، اذ كان قد قدم مكة المكرمة وكان رجلا شريفا لبيبا ، مستقيم النظر فأحاطت به قريش تمنعه من أن يستمع الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتقول له : ان كلامه كالسحر يفرق به بين الرجل وولده وأبيه وزوجه ٠

أصاخ الى كلامهم ، ويقول فى ذلك « فوالله مازالوا بى ، حتى حشـوت فى أذنى حين غدوت الى المسجد كرسفا ، فرقا من أن يبلغنى شىء من قـوله ، فغدوت الى المسجد فاذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسـلم قـائم يصلى ، فقمت قريبا منه ، فأبى الله تعالى الا أن يسمعنى بعض قوله ۰ فسمعت كلاما حسنا ، فقلت فى نفسى : واثكل أماه ، والله انى لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فـان كان ما يقول حسنا قبلت ، وان كان قبيحا تركته ۰ فمكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى بيته ، فتتبعته ، حتى اذا دخـل بيته ، دخلت عليه فقلت : ان قومك قالوا لى كذا وكذا ، فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك ، حتى سددت أذنى بكرسف لئلا أسمع قولك ، فأبى الله تعالى الا أن يسمعنيه ، فسمعت قولا حسنا ۰۰۰ فاعرض على أمرك ، فعرض على رسـول الله صلى الله تعـالى عليه وسـلم الاسـلام ، وتلا على القرآن الكريم ، فوالله ما سمعت قولا قط أحسن منه ، ولا أمرا أعـدل منه ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت يا رسول الله ، انى امرؤ مطاع فى قومى ، وانى راجع اليهم ، فداعيهم الى الاسلام فادع الله أن يجعل لى آية تكون عونا لى فيما أدعـوهم اليه ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « اللهم اجعل له آية » ، وبعد أن ذكر هذه الآية ، وهو نور جاء على وجهه ، ثم على وسطه ۰ قال بعد ذلك : « لما نزلت أتانى أبى وكان شيخا كبيرا ، فقلت : اليـك عنى يا أبت ، فلست منى ، ولست منك ، قال ولم يا بنى ، قلت قد أسلمت وتابعت دين محمـد ، قـال يا بنى دينى دينـك ۰ فقـلت اذهب فاغتسـل وطهر ثيابك ثم تعـال ، حتى أعلمك ما علمت ۰۰۰ ثم جاء فعرضت عليه الاسلام فأسلم ، ثم أتتنى صاحبتى فقلت لها اليك عنى ، فلست منك ، ولست منى : فقـالت لم بأبى أنت وأمى ؟ قلت فرق الاسلام بينى وبينك ، أسلمت وتابعت دين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ۰ قالت فدينى دينك ، قلت فاذهبى فاغتسلى ۰۰۰ ثم جاءت فعرضت عليها الاسلام فأسلمت ۰

بعد ذلك انتقل من الدعوة الخاصة الى دعوة دوس عامة ، فدعاهم الى الاسلام ، فلم يستنكروا ولكن أبطئوا ۰

عاد الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال له : يا رسول الله انى قد غلبنى على دوس الزنى (أى اتباعهم لأهوائم وشهواتهم) فادع عليهم ، ولكن الهادى الأمين رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم لم يدع عليهم بل دعا لهم بالهداية ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « اللهم اهد دوسا » ثم قال لطفيل : ارجع الى قومك فادعهم الى الله تعالى وارفق بهم ۰

فرجع اليهم ، واستمر بأرضهم يدعوهم الى الاسلام ، حتى استجابوا او أكثرهم ·

بعد هذا جئت الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بوفد ، فنزلت المدينة المنورة بسبعين أو ثمانين فى وقت توزيع الغنـائم من خيبر ، فأسهم لهم مع المسلمين ·

ولقد حسن اسلام الطفيل وقوى ايمانه ، وان الابتداء يدل على قـوة الانتهاء ، فقد ابتدأ طالبا للحق مع الموانع والسـدود التى وضعتها قـريش فى سبيل ايمانه فاجتازها ، ووصل الايمان الى قلبه وكان الداعية فى قـومه ، حتى هداهم الى سداد ·

وان قصة ايمان ذلك الرجل تدل على قوة نفسه وعقله وخلقه ، وان المنع لم يجعله يمتنع بل جعله يبحث ويفـكر ، فاذا كانوا قد زينوا اليـه الا يسمع من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقد زين الايمان فى قلبه أن يذهب وراء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى داره ·

وهو قد باعد التقليد عن قلبه ، والتقليد هو الذى يعمى عن الحقائق ، ويمنع الاتجاه اليها ·

قدوم رسول ملوك حمير

٦٧٠ ـــ الاسلام بعد علم للعرب أجمعين به صار هو يدعو لنفسه ، لما اشتمل عليه من حقائق ولأنه دين الفطرة ، ولم تعد الحوائل تحول بينه وبين الناس ، فصار الناس يدخلون فيه طواعية من غير أى نوع من أنواع الاكراه أو التقليد ، أو الاتبـاع من غير علم ، بل صارت الحقـائق واضحة نيرة · لايمنع نصرانيا ولا يهوديا من الاتباع ، فاستقامت قلوبهم · ورضوا بالاسلام دينا ، ولم يعد الأمراء يقفون محاجزين بين الأقوام والايمان ، وخصوصا بعد أن علموا أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، كان يبقى الأمير على امرته ما استقام أمره ، وما عدل فى قومه · ولم يرهقهم من أمرهم عسرا ·

وكانت الوفود تجىء اليه معلنة الاسلام · ومنهم من كان يرسل رسولا ، وملوك حمير وهم يمثلون الكثرة الكاثرة فى اليمن لـما رأوا الاسلام قد غلب فى كل أرض الشمـال ، وتراجعت أمامه جيوش الروم التى كدسوهـا لغزو الاسلام ، واقتلاعه ، واقتلاع عز العرب ، فعاد جندهم ولم يلاقوا محمدا صلى

الله تعالى عليه وسلم بعد أن قتلت جنوده مع قلة عددهم منهم مقتلة عظيمة ، وعادوا بحكمة خالد بن الوليد سالمين لم يفقدوا الا بضعة عشر رجلا ٠

أدرك ملوك حمير قوة الاسلام منطقا وعقلا وحقا ، وأدركوا شوكة الاسلام أمام الرومان فأرسلوا رسلا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يعلنون اسلامهم والملوك كحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال والنعمان قيل ذى رغين ، ومعافر وهمدان وزرعة ذويران مالك بنى مرة الرهاوى ، قد أعلنوا الاسلام ، ومفارقة الشرك ٠

وقد كتب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كتابا للوفد الذى جاءه يبين فيه حقائق وما يجب على الأفراد ، ليعلموا به من وراءهم ، واليكم الكتاب ، كما رواه الوافدى :

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد النبى الى الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال والنعمان قيل ذى رغين ومعافر وهمدان ٠

أما بعد ذلكم ـ فانى أحمد اليكم الله الذى لا اله الا هو ، فانه قد وقع نبأ رسولكم منقلبنا من أرض الروم ٠ فلقينا بالمدينة فبلغ ما أرسلتم به ، وخبرنا ما قبلكم ، وأنبأنا باسلامكم ، وقتلكم المشركين ، وأن الله تعالى قد هداكم بهداه ، ان أصلحتم وأطعتم الله ورسوله ، وأقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وأعطيتم من الغنائم حق الله تعالى ، وسهم النبى (صلى الله تعالى عليه وسلم) ، وما كتب على المؤمنين فى الصدقة العقار عشر ما سقت العين ، وما سقت السماء ٠ وعلى ما سقى الغرب نصف العشر ٠

وان فى الابل فى الأربعين ابنة لبون ، وفى ثلاثين من الابل ابن لبون ذكر ، وفى خمس من الابل شاة وفى كل عشر من الابل شاتان ، وفى كل أربعين من البقر بقرة ، وفى كل ثلاثين تبيع جذع أو جذعة ، وفى كل أربعين من الغنم سائمة وحدها ، شاة ٠

وأنها فريضة الله تعالى التى فرضها على المؤمنين فى الصدقة ، فمن زاد خيرا فهو خير له ، ومن أدى ذلك ، وأشهد على اسلامه ، وظاهر المسلمين على المشركين ، فانه من المؤمنين له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وانه من أسلم من يهودى أو نصرانى فانه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم ٠

ومن كان على يهوديته أو نصرانيته ، فانه لا يرد عنها ، وعليه الجزية على كل حالم ذكرا أو أنثى حر ، أو عبد دينار وافر من قيمة المعافرى (ثياب

وبرود منسوبة الى معافر) أو عرضه ثيابا ، فمن أدى ذلك الى رسول الله فان له ذمة الله وذمة رسوله ، ومن منعه ، فانه عدو لله ولرسوله ٠

أما بعد ٠ الى زرعة ذى يزن اذا أتاك رسلى ، فأوصيكم بهم خيرا معاذ ابن جبل ، ومالك بن عبادة وعقبة بن عمر ، ومـالك بن مرة وأصحابهم ، وأن اجمعوا ، ما عندكم من الصدقة ، والجزية من مخالفيكم ، وأبلغوها رسلى ، وان أميرهم معاذ بن جبل ، فلا ينقلبن الا راضيا ٠

أما بعد فان محمدا يشهد أن لا اله الا الله ، وأنه عبده ورسوله ، ثم ان مالك بن مرة الرهاوى قد حدثنى أن اسلمت من أمرك حمير ، وقتلت المشركين ، فأبشر بخير ، وآمرك بحمير خيرا ولا تحزنوا ولا تخاذلوا فان رسول الله هو ولى غنيكم وفقيركم ، وان الصدقة لا تحـل لمحمد ، ولا لأهل بيته ، انمـا هى زكاة مزكى بها على فقراء المسلمين ، وابن السبيل ، وأن مالكا قد بلغ الخبر ، وحفظ الغيب ، وآمركم به خيرا ، وانى قد أرسلت اليكم من صـالحى أهلى ، وأولى دينهم وأولى علمهم فآمركم بهم خيرا ، فـانهم منظور اليهم والسـلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٠

هذا كتاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لملوك حمير ، وقد كان يخص بعضهم بخطاب ، اذ تعدد فيه لفظ أمـا بعد ، ممـا يدل على أنه يخص بعضهم بالخطاب ، وان كان مضمونها جميعا واحدا ٠

وفى هذا الكتـاب بين الله سبحـانه وتعالى فريضة الزكـاة فى الزرع والثمار والسوائم ، ويلاحظ أنه لم يذكر الا زكاة الأموال الظاهرة ،والأموال الباطنة وهى الدراهم والدنانير ، وما يتعلق بها من عروض التجارة قد بينها صلى الله تعالى عليه وسلم فقال فى كل مائتى درهم خمسة دراهم ، وروى أنه قـال فى كل عشرين مثقالا من نصف مثقال ، ولعله لم يذكر زكـاة الأموال الباطنة ، لأنه يذكر ما يجمعه الامام ، أو والى الصدقات ، أما الأموال الباطنة ، فان أصحاب المال يؤدونها ٠

ولعل هذا هو المسوغ به الامام ذو النورين عثمان ولاة الصدقات ، بأن يجمعوا زكاة الأموال الظاهرة ، ويتركوا الأموال الباطنة ، وكأنه أنابهم عنه فى أدائه ، بحيث اذا ثبت أنهم لا يؤدونها أخذها منهم ٠

ويلاحظ فى كتاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه ذكر زكاة الزرع والثمـار بأنها زكاة العقار ، وان كـانت تؤخذ من غلاته ، نصف العشر ، ان سقيت بآلة ، والعشر ان سقيت بماء العيون أو ماء السمـاء وان هذا النص

يفهم أن العقار فيه زكاة ، وقد كان العقار المثمر هو الأراضى الزراعية وثمار الأشجار ٠

وذلك لأن النصاب فى الزكاة مال نام ، والزرع ثمار الأرض ، والشجر نماؤه الثمر ٠

وقد كانت البيوت والدور والحوانيت تتخذ للحاجات الأصلية ، فلم يكن لها ثمار بذاتها ، وكذلك أدوات الصناعة ٠

والآن قد صارت الدور لا تتخذ للاقامة فقط ، بل تتخذ للاستقلال ، والنماء باجارتها فكان لا بد من زكاتها ، لأنها مال نام بالفعل ، ولأنها عقار ، وقد ذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم زكاة العقار المزروع بأنه العشر ان سقى بغير آلة ، وان سقى بآلة فنصف العشر ، وهنا نجد القياس لا يتجه الى أصل زكاة العقار ، فهو ثابت بالنص ، انما يتجه الى طريقة أخذ الزكاة ، فتقاس الغلات بالاجارة على الزرع والثمار ٠

ولذا نرى أن يؤخذ عشر الصافى بعد النفقات التى تنفق على المبانى والتحصيل ٠

٦٧١ — كتاب آخر لليمن :

كان الكتاب السابق فيه دعوة الى الاقرار بالاسلام والحث عليه وما يجب عليهم من جمع الزكوات ، والجزية ، أى تكوين ميزانية دولة الاسلام ، وهناك كتاب آخر كتبه لعمرو بن حزم عندما بعثه الى اليمن ، وهو خاص بالواجبات التى تجب على الآحاد ، فهو يفقههم فى الدين ويعلمهم السنن ، ويأخذ صدقاتهم ، وهذا نص الكتاب وقد رواه الحافظ البيهقى :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من الله ورسوله ، يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود عهدا من رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) لعمرو ابن حزم حين بعثه الى اليمن ، أمره بتقوى الله تعالى فى أمره كله ، فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، وأمره أن يأخذ بالحق ، كما أمره الله تعالى ٠ وأن يبشر الناس بالخير ، ويأمرهم به ، ويعلم الناس القرآن ويفقههم فى الدين ، وأن ينهى الناس ، فلا يمس أحد القرآن الا وهو طاهر ، وأن يخبر الناس بالذى لهم ، والذى عليهم ، ويلين لهم فى الحق ، ويشتد عليهم فى الظلم ، فان الله حرم الظلم ونهى عنه ، فقال ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ، وأن يبشر الناس بالجنة وبعملها ، وينذر الناس بالنار

وعملها ، ويستألف الناس حتى يتفقهوا فى الدين ، ويعلم الناس معالم الحج وسننه وفرائضه ، وما أمر الله به ، والحج الأكبر الجامع ، والحج الأصغر ، العمرة وأن ينهى الناس أن يصلوا فى ثوب واحد صغير ، الا أن يكون واسعا ٠٠٠ وينهى الناس ان كان بينهم هيج أن يدعو العشائر والقبائل ، وليكن دعاؤهم الى الله وحده لا شريك له ، ويأمر الناس باسباغ الوضوء وجوههم وأيديهم الى المرافق وأرجلهم الى الكعبين وأن يمسحوا رءوسهم ، كما أمر الله عز وجل ، وأمروا بالصلاة لوقتها واتمام الركوع والسجود ، وأن يغلس بالصبح ثم يذكر بعد ذلك أحكام الخمس فى الغنائم ، وأحكام الزكوات ، ونصابها وما يؤخذ من مقاديرها ا هـ ٠

وفى هذا يتبين أن أولى الأمر عليهم أن يجمعوها اذا كانت ظاهرة ، وعلى الناس أن يؤدوها ظاهرة وباطنة ، وان كانت الثانية الأمر فيها الى الضمائر ، والله أعلم بالسرائر ٠

وفد نجران

٦٧٢ ــ أخذ المشركون يسلمون تباعا لما عم سلطان الوحدانية البلاد ، وما أسلموا رهبا من قوة فى أكثر الأحوال ،بل أسلم الأكثرون رغبا فى الاسلام ، وقد زالت عنهم غشاوة الوثنية وخرجوا من التقليد للآباء الى الاستنارة بنور الاسلام ، ورأوا أن آباءهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون هذا ما كان من المشركين ، كان الاسلام يدعو لنفسه فيهم بعد أن زالت عنهم عماية الجاهلية وغشاوة الوثنية ــ أما اليهود والنصارى ــ فقد علمت أمر اليهود منهم ، ومغالبتهم للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالخيانة والنفاق ، وتأليب الناس عليه ، بعد عهود أخذوها على أنفسهم ، ومن كان منهم فى غير جوار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد أخذ عليهم ميثاق الأمان على أن يؤدوا الجزية ، كما رأينا فى كتاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأمراء الجنوب عندما ذكروا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن عندهم يهودا ومجوسا ، يريدون أن يبقوا معهم من غير أن يغيروا دينهم الذى ارتضوا ، فأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يؤدوا الجزية ، ولا يرد عليهم دينهم ٠

أما النصارى فانهم لم يكونوا فى حرب مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يثيروا عليه أحدا ، الا ما كان من الروم ، أما نصارى العرب ، وخصوصا من كانوا فى الجنوب ، فكانوا على مودة نسبية أو أقرب الى المودة ، ولذلك قال الله تعالى فى نصارى العرب الذين كانوا يوالون المسلمين :

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن

اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا ، وأنهم لا يستكبرون .» هذا وصف عام لوفد نجران الذى سنتحدث عنه ، وهناك سبب خاص حركهم للمجىء ، وهو كتاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يدعوهم الى الاسلام ، أو دفع الجزية ، أو القتال ، وذلك نص كتاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، باسم اله ابراهيم واسحاق ويعقوب أما بعد فانى أدعوكم الى عبادة الله ، من عبادة العباد ، وأدعوكم الى ولاية الله تعالى من ولاية العباد فان أبيتم فالجزية ، فان أبيتم فقد آذنتكم بحرب والسلام » .

أرسل الكتاب الى أسقفهم ، فلما قرأه ذعر ذعرا شديدا فبعث الى رجل من آل همذان اسمه شرحبيل بن وداعة وكان من همدان وكان مستشار الأسقف اذا حدثت معضلة .

فلما قرأ الكتاب قال الأسقف ما رأيك يا أبا مريم ، فقال قد علمت ما وعد الله ابراهيم فى ذرية اسماعيل من النبوة ، فما يؤمن بأن يكون هذا هو الرجل ليس لى فى النبوة رأى لو كان من أمر الدنيا أشرت عليك فيه برأى وجهدت لك فيه فنحاه ، واستشار غيره وتعدد المستشارون ، وكلهم أجاب بمثل جوابه فلما اجتمع الرأى منهم على تلك المقالة ، أمر الأسقف بالناقوس فضرب ، ورفعت المسوح فى الوادى ، أعلاه وأسفله فاجتمع حين ضرب بالناقوس بطول الوادى مسيرة الراكب السريع يوما .

وسألهم الرأى بعد أن قرأ عليهم الكتاب من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم .

فاجتمعوا على ارسال وفد منهم يأتيهم بخبر هذا الرجل ، ولما وصلوا المدينة المنورة خلعوا ثياب السفر ، ولبسوا حللا يجرونها من الحبرة ، وخواتيم الذهب ، ثم دخلوا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتصدوا له ليلا ونهارا فلم يرد عليهم ، وعليهم تلك الحلل وخوايتم فذهبوا الى عثمان ابن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف وكانوا يعرفونهما اذ كانا يتجران ويخرجان العير لهما فى الجاهلية .

ولما التقوا بهما قالوا لهما : ان نبيكما كتب الينا كتابا فأقبلنا مجيبين ، فسلمنا عليه ، فلم يرد سلامنا ، وتصدينا لكلامه ، فأعيانا أن يكلمنا ، فما الرأى منكما ، أنعود .

اتجه عثمان وابن عوف الى على بن أبى طالب يسألانه : ما رأيك يا

أبا الحسن فى هؤلاء القوم ، فقال على رضى الله عنه · أرى أن يخلعوا حللهم ، وخواتيمهم . ويلبسوا ثياب سفرهم ، ففعل الوفد ذلك ، ثم جاءوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فسلموا عليه ، فرد سلامهم ·

وظهر من هذا أن السبب فى أنه لم يرد سـلامهم أنهم جاءوا مختالين مفاخرين وأنهم يلبسون لباسا محرمة على الرجال ·

وليعلمهم أنهم ليسـوا داخلين على ملك فى أبهة ، بل على نبى يعيش عيشة الفقراء ، وأن شرفه ليس من مال وثياب ، ولكن من رسـالة الرحمن الرحيم ،وفوق ذلك ان عدم رده يخفف من خيلائهم ، ويجعلهم يعيشون كما يعيش ·

وبعد أن رد سلامهم ـ بش فى وجوهم كشأنه عند لقاء الناس ودخلوا عليه مسجده بعد العصر ، وقد صـلوا متجهين الى المشرق ، فأراد بعض المسلمين منعهم ، ولكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم السمح الكريم قـال للمانعين دعوهم ، فصلوا مطمئنين ·

كان الوفد ستين راكبا منهم أربعة وعشرون من كبرائهم ، فيهم ثلاثة لهم فضل رياسة أو شبه رياسة أو لهم العاقب ، وهو أميرهم ، وذو الرأى فيهم ، وصاحب مشورتهم لا يصدرون الا عن رأيه واسمه عبد المسيح ·

وثانيهم : السيد ، وهو ممثلهم ، وصاحب رحلهم ومجتمعهم ·

وثالثهم : أبو حارثة بن علقمة أخو بنى بكر بن وائل أسقفهم وحبرهم ، وصاحب مدارسهم وان أبا حارثة هذا قد صار ذا شرف فيهم ، ودرس كتبهم وملوك الروم من النصارى قد أعلوه فيهم ، أمدوه بالمال ، وجعلوا له خدما ، وبنوا له الكنائس ، وكرموه لما بلغهم من علمه واجتهاده ، ولعل ذلك ليجعلوا نجران تحت نفوذهم مع بعدهم ·

وكان أبو حارثة يعظم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى جهره وغيبه يروى أنه عندما اتجه أبو حارثة الى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم كان يركب بغلة ، وبجواره أخ له يركب مثلها ، فعثرت بغلة أبى حارثة فقال أخوه : تعس الأبعد يريد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم · فقال له أبو حارثة : تعست أنت ، انه والله النبى الأمى الذى كنا ننتظره · فقال له أخوه فما يمنعك من اتباعه وأنت تعلم هذا ·

قال أبو حارثة ما صنع بنا هؤلاء القوم (الرومان) شرفونا ومولـونا

وأكرمونا ، وقد أبوا الا خلافه ولو فعلت نزعوا منا كل ما ترى ٠ فاضمر عليها أخوه واسمه كرز بن علقمة ، حتى أسلم بعد ذلك ٠

وقد روى ابن اسحاق عن عبد الله بن عباس أنه اجتمع نصارى نجـران وأحبار يهود عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالت الأحبار ما كان ابراهيم الا يهوديا ، وقالت النصارى ما كان ابراهيم الا نصرانيا ، فأنزل الله عز وجل : « **ياأهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم ، وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون ، هاأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، ما كان ابراهيم يهـوديا ، ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين ، ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه ، وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين** » ٠

وقال بعض أحبار اليهود أتريد منا يامحمد أن نعبدك ، كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم ٠

وقال رجل من نصارى نجران أو ذلك تريد يا محمد واليه تدعونا ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : معـاذ الله أن أعبـد غير الله ، أو آمر بعبادة غير الله ، ما بذلك بعثنى الله ، وأمرنى ، فأنزل الله عـز وجل : « **ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس : كونوا عبادا لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب ، وبما كنتم تدرسون ، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون** » ٠

ثم ذكرهم عليه الصـــلاة والســـلام ما أخذ عليهم وآبائهم من الميثاق بتصديقه ، واقرارهم به على أنفسهم ، فتلا قوله تعالى : « **واذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة** ٠٠٠ » الى آخـــر الآيات وآخر سألوا عن عيسى ابن مريم وآخر مثله فأجيبوا بأنه رسول من عند الله وتلى عليهم ما جاء بالنسبة لعيسى عليه السلام فى سورة آل عمران من أولها الى ثمانين آية من السورة ٠

بعد ذلك أخذ النصارى يسألون أسئلتهم ، قالوا ما تقول فى عيسى فانا نصارى ، يسرنا ان كنت نبيا أن نعلم ما تقول فيه فتلا رســـول الله صلى الله تعالى عليه وســلم قوله تعــالى : « **ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين ، فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم**

وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » فأبوا أن يقـروا بذلك ٠

فلما أصبح الغد أقبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعدما أخبرهم بالمباهلة ٠ مشتملا على الحسن والحسين رضى الله عنهما فى خميل له ، وفاطمة تمشى وراءه وله يومئذ عدة نسـوة ولم يختر واحـدة منهن وكان الوفد غير الثـلاثة الذين ذكرناهم كما أشرنا فى صدر كلامنا عن نجـران ، مع رئيسـه شرحبيل لا تصدر نجران الا عن رأيه ٠ وعندما طلب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المباهلة قال :

« ان الوادى اذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يصدر الا عن رأيى ، وانى والله أرى أمرا مقبلا وأرى والله ان كان هذا الرجل ملكا ، كنا أول العرب طعن فى عينه ، ويرد عليه أمر لا يذهب من صدره ، ولا من صدور قومه ، حتى يصيبونا بجانحة ٠

وان كان هذا الرجل نبيا مرسلا ، فلاعناه ، فلا يبقى على وجـه الأرض مناحرة ، ولا ظفر الا هلك ، ثم ذكر رأيه فقال : انى أرى رجلا لا يحكم شططا أبدا ٠

لقى شرحبيل الذى لا يصدرون الا عن رأيه رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم فقال له : « انى رأيت خيرا من ملاعنتك قال رسول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم : وما هو ٠ قال شرحبيل : أحكمك اليوم الى الليل وليلته الى الصباح ، فمهما حكمت فينا فهو جائز ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مستوثقا من نفاذ حكمه عليه وعلى من وراءه ٠ لعل وراءك أحدا يثرب عليكم ٠ فقل صاحبى (صاحبان له كانا فى مجلس القول) قالا : ما يرد الوادى ولا يصدر الا عن رأيه حكم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فكان الحكم هو هذا الكتاب الذى أعطاهم اياه ٠

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما كتبه محمد النبى (صلى الله تعالى عليه وسلم) لنجران ، ان كان عليهم حكمه ، فى كل ثمرة ، وفى كل صـفراء وبيضاء وسوداء ، ورقيق ، فأفضل عليهم ، وترك ذلك كله ، على ألفى حلة ، فى كل رجب ألف حلة ٠ وفى كل صفر ألف حـلة ، وكل حلة أوقية ما زادت على الخراج أو نقصت على الأواقى فبحساب ، وما قضوا على دروع أو خيل أو ركاب أو عرض أخذ منهم ليحاسبه ٠٠ وعلى نجران مثواه رسـلى بها عشرين فدونه ، ولا يحبس رسول فوق شـهر ، وعليهم عارية ثلاثين درعا ، وثلاثين فرسا ، وثلاثين بعيرا ، واذا كان كبير باليمن وما هلك مما أعاروا

رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من دروع أو خيل أو ركاب ، فهو ضمان على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، حتى يؤديها عليهم ٠

ولنجران جوار الله تعالى وذمة محمد النبى (صلى الله تعالى عليه وسلم) وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم ، وعشيرتهم وتبعهم ، الا يغيروا مما كانوا عليه ، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم ، ولا يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ٠٠ وكل ما تحت أيديهم من مال ، وليس عليهم ريبة ، ولا دم جاهليته ، ولا يحشرون ، ولا يعشرون ، ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل ربا من ذى قبل فذمتى منه بريئة ، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر ٠٠٠ وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله ، وذمة محمد النبى رسول الله ، حتى يأتى الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بحرب » ٠

وقد شهد هذه الوثيقة من حضر مجلس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، منهم أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ، ومالك بن عوف ، والأقرع ابن حابس الحنظلى ، والمغيرة بن شعبة ٠

هذا كتاب ذمة اذا بقوا على نصرانيتهم ، أما اذا اختاروا أو بعضهم الاسلام دينا فانه من يختار الاسلام يأخذ حكم المسلمين ، ولا يكون ثمة فرق بينه وبين المسلمين ٠

وان من أساقفة نجران ورهبانهم من دخل فى الاسلام معترفا بأنه النبى صلى الله عليه وسلم المنتظر من أولاد اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام له ذلك ٠

ومن الرهبان من مال الى الاسلام ، وأراد الذهاب الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذهب اليه وأهداه بردا ، وكانت رغبته فى الحضور للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ان يرى كيف ينزل الوحى ٠ وأن يعلم الفرائض والحدود والسنن ، ومع ذلك أبى الاسلام ، واستأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يرجع الى قومه ٠ وقال ان لى حاجة ومعادا ان شاء الله تعالى ، ولكنه لم يرجع حتى قبض النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويظهر أن ذلك كان فى السنة العاشرة ٠

هذا وان السيد ، والعاقب ، وأبا الحارث الذين ذكرناهم فى أول البحث فى وفد نجران ، قد مكثوا عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يستمعون اليه ويتعرفون حاله ، وهم غير وفد شرحبيل ، وكأنه وفد من نجران وفدان لتعدد أقاليم نجران ، وكنائسهم ، واختلاف أساقفهم ٠

ومهما يكن فان وفد أبى الحارث الذى فيه السيد والعاقب قد غادر المدينة المنورة ومعهما كتاب من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبى الى الأسقف أبى الحارث ، وأساقفة نجران ، وكهنتهم ورهبانهم ، وأهل بيتهم ، ورقيقهم وملتهم ، وعلى كل ما تحت أيديهم من قليل وكثير جوار الله ورسوله ، لا يغير أسقف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهانته ، ولا يغير حق من حقوقهم ، ولا سلطانهم ، ولا مما كانوا عليه على ذلك جوار الله ورسوله ، أبدا ما نصحوا وأصلحوا عليه غير منقلبين بظالم ولا ظالمين » .

فهذا كتاب آخر الكتاب ، وفيه عقد ذمة .

ما يدل عليه أمر هذا الوفد

٦٧٣ ــ كان لنجران وفدان ، كما رأيت ، وكان ذلك لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم دعاهم الى الاسلام ، أو العهد (عهد الذمة) على أن لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، أو أن يقاتلوا ، فجاءوا اليه فى وفدين ، وكتب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كتاب عهد لكل وفد منهما .

ولعل السبب فى مجيء وفدين ، اختلاف الكنائس ، وان لم يكن ثمة اختلاف فى المذهب ، وان كان فانه لا يكون مفرقا بينهم فتعددوا .

وان هذا الوفد وغيره سواء تعددوا أم لم يتعددوا يدل على أن الاسلام أخذ ينشر نفسه بدعوته من غير حرب ، وما كان للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يحارب قوما اعتزلوا حربه وألقوا اليه السلم ، فما كان القتال ، كما يبدو من أخباره ، لأجل خلاف الدين ، انما كان لحماية الدعوة لتصل الى الشعوب ، فلا يحاجز بينهم وبينها أمراء أو ملوك ، أو أحبار ورهبان ، بل تكون وجوههم لله تعالى ، يختارون فى الأديان ما يرونه حقا ، ولأن الدعوة الاسلامية ، لابد أن يسمع الناس دعوة الحق من غير ارهاق أمير ، أو اغراء زعيم دينى أو غير دينى .

ولقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يرحب بهذه الوفود ، ويبش لهم الا أن يجد فيهم أمرا من شأنه أن يكون مفرقا بين الجماعات . بحيث يحنق الفقير ، ويرمض قلبه ، فلم يبش فيمن يدخلون عليه بزينة من الحرير محلى بالذهب ، كما كان يخرج قارون على القوم بزينته .

ولحسن لقاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يستقبلهم فى المسجد وان فعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يدل على جواز أن يدخل الكتابى المسجد ، وانى لا أرى بأسـا فى أن يدخل غير الكتابى لأجل سماع العلم الاسلامى ، وعقد المعاهدات كما كان يفعل عمر ٠

وان دخولهم المسجد حسن ، اذ يرون المسلمين يؤدون الصلوات ، ويقومون بالفرائض ، ويحيطون بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم احاطة الدائرة بقطرها ان ذلك من شأنه أن يؤثر فى نفوسهم فيستجيبوا لداعى الحق ٠

الأذعان والايمـان :

٦٧٤ ــ هنا مسألة يثيرها ابن القيم حول وفد نجران ، فقد كان منهم من يعلن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأنه النبى المبشر به فى التوراة والانجيل ، ولكنه لا يستجيب لداعى الاسلام بالانقياد والاذعان والرضا بحكم القرآن الكريم واعلان الطاعة ، ويقول ان ذلك الاذعان لخوف أن يقتل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ فيقرر ابن القيم أن ذلك لا يعد قد دخل فى الاسلام أو وصف الايمان ، لأن الايمان ليس هو مجرد المعرفة ، بل الايمان معرفة وتصديق ، واذعان ، فاذا لم تكن هذه الأوصاف مجتمعة لا يكون ثمة ايمان ٠ لأن الانقياد والاذعان غير قائمين ٠

وان ذلك كلام حق ، لأنه لابد أن يدخل فى ولاء المسلمين ، وينضم الى جماعته ، وتكون ولايته للمؤمنين ولله كما قال تعالى : « **انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا** » ٠

ونرى الاذعان قسمان : اذعان قلبى ، ويكتفى به اذا كان ما يمنع من اظهار خوف اتلافه كخوف من عدو قاهر ، أو اخفائه لكى يجذب الناس الى ما اعتنق من دين بتشكيكهم فيما يعتقدون من باطل ، وقد أجاز النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك لبعض وفد ثقيف ، فان الايمان الحقيقى قائم فى معناه وهؤلاء يؤدون الفرائض ، ويكتفى منهم بذلك ولا يطلب خوفا من الاذعان العلنى ، فالتصديق قائم والاذعان قائم ٠

والقسم الثانى : يوجد فيه معرفة كمعرفة بعض المشركين ، وأثر هذه المعرفة تصديق لسانى يظهرونه كأولئك الذين قالوا لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم نعرف أنك النبى ، ولكن لا نسلم ، لأننا نخشى أن يقتلك اليهود ، فأولئك وان عرفوا لا يؤمنون ، بل يكفرون ٠

قدوم وفد بنى سعد بن بكر

٦٧٥ — هذا الوفد كان رجلا واحدا جاء مسلما معلنا اسلامه عندما علم بأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودعوته ، وانتشرت الدعوة ، وصار لكلمة الله السلطان ، وتجاوبت بها الركبان ، فجاء يستوثق من الأمر من صاحب الدعوة الحق ، ولقد قال ابن اسحاق بسنده ، بعثت بنو بكر ، ضمام ابن ثعلبة وافدا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأناخ بعيره على باب المسجد وعقله ثم دخل وهو لا يعرف شخص محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال فى جفوة من لا يعرف : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنا ابن عبد المطلب ، وكانت المجاوبة على الوجه الآتى :

قال ضمام : انى سائلك ومغلظ عليك المساءلة ، فلا تجدن فى نفسك ٠

فقال النبى الرفيق : لا أجد فى نفسى ، فسل عما بدا لك ٠

فقال ضمام : أنشدك بالله الهك ، واله أهلك ، واله من كان قبلك ، واله من هو كائن بعدك الله بعثك الينا رسولا ، قال اللهم نعم ٠

قال ضمام فأنشدك بالله الهك واله أهلك واله من كان قبلك ، واله من هو كائن بعك ، الله أمرك أن نعبده لا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان اباؤنا يعبدونها ٠ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اللهم نعم ٠

ثم جعل يذكر فرائض الاسلام فريضة فريضة ، فذكر فريضة الصلاة ، والزكاة ٠ والصيام ، والحج ، فى كلها ينشده عند كل فريضة ، بالصيغة التى ذكرها ٠

حتى اذا فرغ منها ، قال : « فانى أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وسأؤدى هذه الفرائض ، وأجتنب مانهيتنى عنه ، لاأزيد ولاأنقص ٠

ثم انصرف عائدا الى بعيره ٠

وقد أثنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خيرا ٠

عاد الى قومه مؤمنا داعيا شاهدا بالحق ، وفاجأهم بأن أعلن كفره بالأصنام ٠ وقال : بئست اللات والعزى ٠

فخشى عليه قومه من أن يصاب بسوء لزعمهم فى الأصنام · فقالوا مشفقين · مه يا ضمام اتق البرص والجذام ، اذ يزعمون أن من سبها يصاب بذلك ، وثبت ذلك الزعم فى أوهامهم ·

فقال لهم : « انهما ما يضران ولا ينفعان ، ان الله تعالى قد بعث رسولا وأنزل عيله كتابا استنقذتم به مما كنتم فيه ، وانى أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وانى قد جئتكم من عنده ، بما أمركم به ، وما نهاكم عنه ·

استجاب قومه لداعى الايمان ، ويقول ابن اسحاق ما أمسى فى اليوم فى حاضره رجل ولا امرأة الا مسلما ، فما سمعنا بوافد قوم أفضل من ضمام ابن ثعلبة ·

والقصة رويت بهذا السياق فى الصحيحين ·

فهى ثابتة ، وهى تدل على مدى انتشار الاسلام فى ربوع البلاد العربية ومدى الاستعداد لدعوة التوحيد ، ولدين الفطرة ، فما كانت الوثنية مع معرفتهم بالله الا غشاوة أزالتها الحقيقة النيرة الناصعة ، فكانوا مسلمين موحدين ·

وفد تجيب

٦٧٦ — قلنا ان البلاد العربية قد دخلها الاسلام عندما أعلنت للجميع حقائقه ، وعرفوا خصائصه ، وزالت غشاوة الوثنية عن نفوسهم ، اذ العرب فى جاهليتهم كانوا أقرب الى التوحيد من غيرهم لأنهم يعرفون الله تعالى وفيهم بقية ملة أبيهم ابراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ·

كان وفد تجيب خير وفد جاء الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، كما ذكر ذلك عليه الصلاة والسلام ، فقد جاء مسلما منفذا لأوامر الاسلام ، مجتنبا نواهيه ·

جاء بالصدقات ، بما فضل من فقرائهم ، ولقد قال فيهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « ان الهدى بيد الله فمن أراد الله به خيرا شرح صدره للاسلام » ، وقال أبو بكر صديق هذه الأمة · يا رسول الله ، ماوفد من العرب بمثل ماوفد به هذا الحى من تجيب ·

أخذوا يسألون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن القرآن الكريم وعن السنن ، ويسألونه عن أحكام تفصيلية فكتب لهم بها ٠

ولم يطيلوا الاقامة ، فقيل لهم ما يعجلكم ؟ قالوا نرجع الى من وراءنا فنخبرهم برؤيتنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكلامنا اياه ٠ وما رد به علينا ٠

ولقد أمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يحسن ضيافتهم ٠

ولما هموا بالسفر ذهبوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليودعوه فأرسل بلالا ليعطيهم جوائز من مال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم من خمس خمسه من الغنائم ، فقد جعله عليه الصلاة والسلام للدعوة ، وما كانت هذه الجوائز من قبيل اعطاء المؤلفة قلوبهم ، فأولئك قد جاءوا مؤلفين للاسلام من تلقاء أنفسهم ، انما هذه الجوائز أعطيت رمزا لمحبة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومرضاته ٠

وبعد أن أعطى الجوائز لهم واحدا واحدا ، قال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم « ألم يبق منكم أحد ؟ » قالوا : غلام خلفناه على ركابنا ٠

جاء الغلام الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال يا رسول الله انى امرؤ من الرهط الذين أتوك آنفا ، فقضيت حوائجهم ، فاقض حاجتى يا رسول الله ، قال عليه الصلاة والسلام ٠ وما حاجتك ؟ قال الغلام حاجتى ليست كحاجة أصحابى وان كانوا قد قدموا راغبين فى الاسلام ، وساقوا ما ساقوا من صدقاتهم ، وانى والله ما أعجلنى من بلادى الا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لى ويرحمنى ، وأن يجعل غناى فى قلبى ، فأقبل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الغلام ، وقال ٠ « اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه فى قلبه » ٠

ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه ٠

انطلق الوفد ، وكان مؤلفا من ثلاثة عشر رجلا راجعا الى قومه ٠

ثم وافوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمنى سنة عشر ، ويظهر أن ذلك كان فى حجة الوداع ، بل من المؤكد ذلك ، لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يدخل بعد عمرة الجعرانة الا فى حجة الوداع ، حيث تمت رسالته ، ونزل قوله تعالى : « **اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** » ٠

عندما التقى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بوفد تجيب فى منى سألهم عن الغلام القنوع الذى دعا له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكون غناه فى قلبه ، فقالوا : يا رسول الله ما رأينا مثله قط ، وما حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله تعالى : لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ، ولا التفت اليها عاش ذلك الغلام الى أن انتقل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ، ورجع من رجع من أهل اليمن ، فقام فى قومه ، فذكرهم الله والاسلام فلم يرجع منهم أحد ٠

وفد بنى سعد من قضاعة

٦٧٧ — كان العرب قسمين — أحدهما — دخل فى الدين راضيا مختارا ، وهذا هو البناء الأول للجماعة الاسلامية ، ومن دخلوا فى دين الله تعالى من البلاد العربية قاصيها ودانيها ، وقسم رأى محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم قد أخضع المعاندين والجاحدين لأن يستمعوا ومن وراءهم لدين الحق ٠

فما كان لغير القسمين الا أن يختار مطمئنا راضيا الا أن يتقدم للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم طالب منه المعرفة ، وهذا ما رواه الواقدى بسند عن كبير وفد بنى سعد من قضاعة ، فقد قال : « قدمت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وافدا فى نفر من قومى ، وقد أوطأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسلم البلاد وأداخ العرب ، والناس صنفان ٠ اما داخل فى الاسلام راغب فيه ، واما خائف من السيف ، فنزلنا ناحية من المدينة ، ثم خرجنا نؤم المسجد حتى انتهينا الى بابه » ٠

ونقف هنا وقفة قصيرة عند كلمة كبير هذا الوفد ، وهى كلمة العرب فاننا نرى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما أداخ العرب ، ولكن أداخ الجاحدين العاندين الذين رفعوا عليه السلاح وآذوه ، فهم الذين أداخهم ، لتذهب الفتنة ، ويكون الدين لله تعالى ، وقد يكون من العرب الذين ينتظرون من دخل فى الاسلام بعد أن زالت الحاجزات بانتصار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن الأعراب من دخل فى دين القوى ، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم : « **قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم** » ٠

دخل الوفد مسجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فوجدوه يصلى على جنازة ، فقاموا فى ناحية من المسجد ، ولم يشتركوا فى صلاة الجنازة ٠

التقوا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسألهم : أمسلمون أنتم ، قالوا نعم قال فهلا صليتم على أخيكم ، فقالوا يا رسول الله ظننا أن ذلك لايجوز لنا حتى نبايعك ٠ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أينما أسلمتم فأنتم مسلمون ، يشير بذلك الى أن الدخول فى الاسلام لا يحتاج الى مبايعة ، وأن الاسلام قد تم ، وأنتم فى مكانكم شهدتم أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ٠

بايعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الاسلام ، على أن يقوموا بحقه ، فيطيعوا أوامره ويجتنبوا نواهيه ، ثم انصرفوا الى رحالهم وقد خلفوا عليها أصغرهم ٠ وقد طلبهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليتقدم هذا الذى تركوه على رحلهم ، فبايعه على الاسلام كما بايعهم ، وقال أصغر القوم خادمهم ، وكأنه أقره وأقرهم على خدمته لهم ، وقيامه على رحلهم ، ولقد كان ذلك الصغير أقرأهم للقرآن الكريم ، فكان يؤمهم ، وذلك لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم دعا له بالبركة ، ولما اعتزموا الانصراف أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لهم بجوائز ، فأعطى كل رجل أواقى من فضة وان ذلك بلاريب من خمس الخمس المخصص للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وآله ، فكان ينفقه فى سبيل الدعوة الاسلامية ٠

وفد فزارة

٦٧٨ ـــ جاء فى كتاب الاكتفاء أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد رجوعه من تبوك وفد بنى فزارة وهو مؤلف من بضعة عشر رجلا منهم الحسن بن قيس ابن أخى عيينة بن حصن وهو أصغرهم ؛ جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقرين بالاسلام ، وكانوا فى شدة فكانوا على ركاب عجاف ، سألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بلادهم ، فشكوا اليه حالهم ٠ وقالوا :

أسنتت (أى أصابتنا شدة) بلادنا ، وهلكت مواشينا ، وأجدب جنابنا ؛ وغرث (جاع) عيالنا ؛ فادع لنا ربك بغيثنا ؛ واشفع لنا الى ربك ، وليشفع لنا ربك اليك ، فرأى فيهم صلى الله تعالى عليه وسلم جهلا بربهم فقال هاديا مرشدا لمن خاطبه بهذا : ويلك هذا انما شفعت الى ربى عز وجل ؛ فمن الذى ربنا يشفع اليه ؛ لا اله الا هو العظيم ، وسع كرسيه السموات والأرض ، فهى تئط من عظمته وجلاله ، كما يئط الرجل من الحديد ٠

رق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لحالهم ، ودعا ربه مستسقيا ،

وصعد المنبر ، ورفع يديه بالدعاء ، وكان لا يرفـع يديه فى الدعـاء الا فى الاستسقاء ٠

ومما جاء فى دعائه عليه الصلاة والسلام : « اللهم اسق بلادك وبهائمك ، وانشر رحمتك ، وأحى بلادك الميتة ، اللهم أغثنا مغيثا مريحا مريعا واسـعا عاجلا غير آجل ، نافعا غير ضار ، اللهم سقيا رحمة ، لا سقيا عـذاب ٠ ولاهدم ولا غرق ، ولا حرق ، اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعـداء ، بهذا الدعاء الضارع الى الله من أحب خلق الله تعالى اليه أدرت السماء غيثا لا عيث فيه ، ونال بنى فزارة ما أزال شدتهم ٠

وفـد بهـراء

٦٧٩ ـــ قدم وفد بهراء من اليمن ، كما ذكر الواقدى ، وكانوا ثلاثة عشر رجلا فاقبلوا يقودون رواحلهم حتى انتهوا الى باب المقداد بن الأسـود وكان قد أعد طعاما لأولاده جفنة حيس (ثريد) فقدمه لهم وبارك الله تعـالى فيه ، فأكل منه الوفد ، وبقى لأولاد المقـداد ما كفاهم ، وكأنه لم ينقص منـه شىء ، وقد بقى بعد أكل آل المقداد مقدار أرسلوه الى النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم فى قصعة صغيرة ، وكان فى بيت أم سلمة ، فأكل منه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم رد ما بقى ، فأكل منه الوفد ، وهكذا استمر الوفد يأكل منه مدة اقامته ببركة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وكانت هذه أمرا خارقا للعادة ، ثبت اسلامهم ، وقد جاءوا مسلمين ، وبايعهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الاسلام ، وجعلوا يقولون : نشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ٠

وتعلموا الفرائض ، واستحفظوا بعض القرآن الكريم ، وأقاموا أياما ، ثم ودعوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد أجازهم ، كشأن كل وفد يجىء اليه ، وذلك من خمس الخمس الذى أفاء الله تعالى به ٠

ونرى أن هذه الوفود جاءت الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعـد أن وصلتهم الدعوة وأسلموا ، فجاءوا ليستوثقوا لاسلامهم ، ولينالوا بركة السماء ٠

قدوم وفد عذرة

٦٤٠ — فى صفر سنة تسع قدم اثنا عشر رجلا هم وفد قبيلة عذرة ، ولهم بقصى جد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صلة ، لأنه كان أخاهم من أمه ٠

ولذلك لما سأل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من القوم ؟ قال منكلهم من لا تنكره ، نحن بنو عذرة أخوة قصى لأمه ، نحن الذين عضدوا قصيا ، وأزاحوا من بطن مكة المكرمة خزاعة وبنى بكر ، ولنا قرابات وأرحام قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، أهلا بكم ، ورحبا ما أعرفنى بكم ، فاسلموا ٠

وقد بشرهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونهاهم عن بعض أوهام الجاهلية بشرهم بفتح الشام ، وفرار هرقل حيث امتنع فى ممتنع من بلاده ، وقد حدث ذلك فقد خلصت الشام من قبضة هرقل بعد واقعة اليرموك التى قال فيها وقد علا نشزا من الأرض سلام عليك يا سوريا ، سلام لا لقاء بعده ، ونهاهم عن سؤال الكهنة ، فان الله وحده هو الذى اختص بعلم الغيب ، ونهاهم عن الذبائح التى كانوا يذبحونها تقربا لله فى زعمهم ، وأخبرهم أنه ليس عليهم الا الأضحية قربانا لله ، وما عداها طعام يطعمونه ٠

وفـــد بلى

٦٨١ — قدم هذا الوفد فى ربيع الأول من سنة تسع ، فأنزلهم رويفع ابن ثابت البلوى عنده ، ولم يذكر عدد هذا الوفد ، ولكن يظهر أنه لم يكن عددا كبيرا ، يضيق بضيافته رويفع بن ثابت ، وقد قدم بهم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقال له هؤلاء قومى ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : مرحبا بك وبقومك وقد أسلموا ، فقال لهم الرسول عليه الصلاة والسلام : « الحمد لله الذى هداكم للاسلام ، فكل من مات على غير الاسلام فهو فى النار » ٠

وكان فى الوفد رجل مضياف ، هو هو شيخه ، وهو أبو الضبيب فسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الضيافة فقال ، يا رسول الله انى رجل لى رغبة فى الضيافة فهل لى فى ذلك أجر ، قال عليه الصلاة والسلام : نعم ، وكل معروف صنعته الى غنى أو فقير فهو صدقة ، قال يا رسول الله ما وقت الضيافة : قال : ثلاثة أيام ، فما كان بعد ذلك فهو صدقة ، ولا يصح للضيف

أن يقيم عندك فيحرجك ، ثم سأل فى أمر آخر ، وهو ما يضل من الشاء أو البعير ، فقال يا رسول الله ، رأيت الضالة من الغنم أجدها فى الفلاة من الأرض ؟ قال : هى لك أو لأخيك أو للذئب قال فالبعير ، قال مالك وله ، دعه حتى يجده صاحبه ٠

وقد انتقلوا بعد ذلك الى منزل من استضافهم وهو رويفع بن ثابت البلوى ، فكان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يأتى هذا المنزل يحمل تمرا ، ويقول : « استعن بهذا التمر » وكانوا يأكلون منه ومن غيره ٠

وان كلام النبى صلى الله عليه وسلم مع هذا الوفد اشتمل على أدب كريم من آداب الاسلام ، وعلى حكم شرعى ، يتعلق باللقطة ، ومن الحق علينا أن نشير الى الأمرين ٠

لقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فيما يروى عنه « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وان من مكارم الأخلاق الضيافة ، وانها فى ذاتها ترابط انسانى ، وتعاون ومحبة بين الناس ، وهى ضرورة اجتماعية فى البوادى وما يشبه البوادى ، فالرجل يسير فى البادية قد ينبت به الطريق ، فلا يجد مأوى يأوى اليه ، الا أن تكون ضيافة كريم ، ولذلك تكون فضيلة الضيافة ضرورة انسانية فى البادية ، ثم تخف ضرورتها كلما ابتعدت عن البادية ، فهى فى القرى شبه ضرورة ، وهى فى الحواضر حيث تتوافر الحاجات من طعام ومنام تكون معروفا ، أو مروءة ٠

وهى تأخذ الحكم الشرعى على حسب هذه الأحوال ، فهى واجبة اذا كان الانسان لا يجد له مأوى ، وقريب من الواجب اذا كان لا يجد المأوى الا بعسر ، وهى معروف يوجد ألفة ومحبة اذا كان يجد ٠

هذا ما يكون شرعا بالنسبة للمضيف ، أما الضيف فان عليه ألا يطيل الاقامة ، بحيث يحرج رب البيت بل انه لا يقبل المبيت اذا كان فيه حرج لرب البيت ، ولم تكن ثمة ضرورة ملجئة ، ولا حاجة تدفعه ٠

وفى حديث اتفقت عليه الصحاح أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ويعطه جائزة ، قالوا وما جائزته يا رسول الله ؟ قال يوم وليلة ، والضيافة ثلاثة أيام ، فما كان وراء ذلك فهو صدقة ، ولا يحل له أن يثوى عنده حتى يحرجه » ٠

وفى خبر هذا الوفد انه سأله صلى الله تعالى عليه وسلم أحدهم عن الضالة من الغنم ، وعن البعير ، فقال عن البعير مالك وله ، دعه حتى يجده

صاحبه ، فلا يأخـذه ، لأنه اذا غاب عن صاحبه طلبه ، وبحث عنه ، ولأن البعير يقوم بذاته أمدا طويلا ، ولأنــه ان أخـذه غيبة عن صاحبه ، فلا يهتـدى اليه ، اذ يطلبه ٠

وعن الشاة الضالة التى يجدها الرجل فى الصحراء ، حيث لا مرعى وحيث لا ماوى ، قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : هى لك أو لأخيك أو للذئب ، وهذا النص يفيد أنها حلال له ، وهو نص فيه حكمته ٠ ذلك أن الشاة وجدت فى الصحراء ، حيث يصعب التعريف ، وفرض أن لها صاحبا يمكن أن يعثر عليها بالتعريف بعيد ، لأنه لا يوجد من يعـرف بها ، اذ هى فلاة ، وفرض أنها تخلفت من قافلة مضت هو الأقرب ٠

وفى هذه الحال يكون ان تركها ، ربما يجـدها غيره ، فيأكلها ويذبحها ، وذلك يكون احتمالا ، وربما لا يجدها أحد فتموت جوعا ، أو يلتهمهـا الذئب ٠ وانه بعد هذا الترديد يكون الأولى أن يذبحها ويأكلها ، لاحتمال الضياع ، ولا تجوز اضاعة المال ٠

وهذا الفرض يفرض ان الشاة فى فلاة غير ممكن معرفة صاحبها ، فان كانت قريبة من خباء أو من نبع ماء ، يجىء اليه الناس ، ويمكن تعرفهم ، فانه فى هذه الحال يكون التعريف واجبا ٠

وفى الحق ان الواجد للشاة الضالة فى الصحراء تكون حالة مترددة بين أمرين : أولهما : أن يكون كالملتقط الذى يذهب فى الصحراء يبحث عن بعض النباتات المتخلفة فيها ، ويجرى التقاطها ، لأنــه لا مالك لها ، وبين أن تكون الشاة لقطة وجدها ، ولها صاحب غير معروف ، ولا يمكن معرفته فالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم حكم بأنها تأخذ حكم الالتقاط ، لأنها ان تركت أكلها الذئب ٠

والفقهاء يفرضون أنه قد يعـلم مالكها من بعـد ، فقرروا أنه ان وجـد أعطاه قيمتها ٠

وفد ذى مرة

٨٦٢ ـــ كان العرب يجيئون الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مسلمين ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يتعرفهم ، ويتعرف أحوالهم ، وقد جـاء وفـد ذى مـرة وهو مؤلف من ثلاثة عشر رجلا عـلى رأسهم الحـارث ابن عوف ، وقد ذكروا أنهم ينتمون الى نسب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ،

فقالوا : يا رسول الله انا قومك وعشيرتك نحن بنو لؤى بن غالب ، فتبسم رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم ، وسأله عن أهـله ، وفى أى مكان تركهم ، ثم سأله عن أحوال البلاد لأنهم باسلامهم صاروا رعيته · فقـال الحـارث انهم (لمسنتون) (أى فى شدة وقل) ما فى المال مخ ، فادع الله لنـا ، فقـال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « اللهم اسقهم الغيث » ·

أقاموا أياما ، ولما أرادوا الانصراف الى بلادهم جاءوا رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مودعين له ، فأمر بلالا فأجازهم ، فأعطى كل واحد عشر أواق من فضة · وجعل للحارث اثنتى عشرة ورجعوا الى بلادهم فوجـدوها مطيرة ، فسألوا متى أمطرت ، فتبين أن ذلك المطر الذى أغاثهم أنزله الله تعالى وقت دعاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ·

وفد خولان

٦٨٣ ــ هذا وفد خولان ، وفد قوم آمنوا بالله ورسوله ، وقد قدموا على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعددهم نحو عشرة ، قدموا فى شهر شعبان سنة عشر ·

وقال قائلهم لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « يا رسول الله ، نحن على من وراءنا من قومنا ، ونحـن مؤمنـون بالله عز وجل ، ومصدقون برسوله ، وقد ضربنا اليك آباط الابل ، وقد ركبنا حزون الأرض وسهولها ، والمنة لله ورسوله علينا ، وقد جئنا زائرين ·

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أما ماذكرتم من مسيركم الى ، فان لكم بكل خطوة خطـاها بعير أحدكم حسنة ؛ وأما قولكم زائرين ، فانه من زارنى بالمدينة كان بجوارى يوم القيامة » ·

ولقد كان لهم صنم كانوا يسمونه عم أنس ، وكانوا مفتونين به ، يسندون اليه بأوهامهم خوارق للعادات ، أو نعما يجريها الله تعالى ، فيحسبونها له وذلك لفرط ضلالهم ، وفتنتهم به · فلما أعلنوا ايمانهم وتبين للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم صدق ايمانهم ، ويقينهم الحق سألهم عما صنعوا فى صنمهم ، ومن يؤمن منهم فهل لهم من بقية ·

قال لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : ما فعل عم أنس ·

قالوا : أبشر : بدلنا الله تعالى به ما جئت به ، وقد بقيت منا بقـايا من

شيخ كبير ، وعجوز كبيرة متمسكون به ، ولو قدمنا عليه لهدمناه ان شاء الله تعالى . فقد كنا منه فى غرور وفتنة .

يتقصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبارهم ، ويتعرف ما كانوا عليه ، قبل هذا اليقين .

سألهم رسول الله : ما أعظم ما رأيتم من فتنته .

قال متكلمهم : لقد أسنتنا (أى أصابتنا سنة شديدة) ، حتى أكلنا الرمة فجمعنا ما قدر عليه ، وابتعنا مائة ثور ونحرناها – لعم أنس قربانا – فى غداة واحدة ، وتركناها للسباع ، ونحن أحوج اليها من السباع فجاءنا الغيث من ساعتنا ، ولقد رأينا العشب يوارى الرجال ، ويقول قائلنا : أنعم علينا عم أنس .

وان هذه المصادفة الغريبة قد فتنتهم ، فاعتقدوا أن الصنم هو الذى أغاثهم ، وهو لا ينفع ولا يضر ، وكثيرا ما تجىء الأمور مصادفة فيحسبها الواهمون أثرا للالتجاء لحجر أو لشخص ، أو لكاهن ، أو لتعويذة ساحر ، وان ذلك فتنة ، ولعل هذه المصادفات كانت من أسباب عبادة الأصنام التى لا تملك من الأمر شيئا وكان ما ينتجونه يجعلون نصفه لهذا الصنم قربانا ، ونصفه لله ، وما يجعلونه لله ، يعطونه لصنمهم شيئا ، ولا يعطون مما لصنمهم شيئا لله تعالى ، وذلك كله فيما يحسبونه للقربات .

وقد ذكر متكلم الوفد ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أنهم كانوا يقسمون لصنمهم هذا من أنعامهم وحروثهم ، وأنهم كانوا يجعلون ذلك جزءا له وجزءا لله فى زعمهم ، قالوا كنا نزرع الزرع ، فنجعل له وسطه (أى أحسنه) فنسميه له ، ونسمى زرعا آخر حجر الله تعالى ، فاذا مالت الريح ، فالذى سميناها لله جعلناه لعم أنس ، ولم نجعله لله تعالى ، فذكر لهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن الله أنزل فى كتابه عملهم مستنكرا ، فقال تعالى : « **وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله ، وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ، ساء ما يحكمون** » .

وهكذا كانت الأوهام مسيطرة عليهم تلك السيطرة ، وقد اقتلعتها عقيدة الوحدانية اقتلاعا من نفوسهم ، وكانت دعوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وما اقترن بها ظاهرة لهذه الأوهام مبينة ما فيها من زيف وباطل ، وتبين الرشد من الغى والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

وقد اوصى النبى صلىّ الله تعالى عليه وسلم بوصايا كريمة ، أوصاهم بالوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة وحسن الجوار لمن جاوروا ، وألا يظلموا أحدا وقال عليه الصلاة والسلام : « ان الظلم ظلمات يوم القيامة » • وسألوه عن فرائض الدين وأحكامه فعلمهم اياها • ثم غادروه بعد أيام ، وأجازهم العطايا ، ولما رجعوا الى قومهم لم يحلوا عقدة رحالهم حتى هدموا عم أنس صنمهم •

وفد محارب

٦٨٤ — أخذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل فى السنتين الأخيرتين من مقامه بمكة المكرمة قبل الهجرة وذلك فى موسم الحج ، بعد ان علم أنه لن يؤمن من قريش الا من قد آمن ، فكان أشد القبائل غلظة فى الرد وعنفا فى اللقاء قبيلة محارب ، ردوا دعوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى التوحيد ردا فظا غليظا منكرا ، وذلك لغلظ رقابهم ، ولذلك كانوا من آخر القبائل ايمانا ، فلم يجىء وفدهم الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مؤمنا الا فى السنة العاشرة عام حجة الوداع •

ولقد كان عدد الوفد عشرة جاءوا نائبين عمن وراءهم ، وقد أعلنوا اسلامهم ، واسلام قومهم •

ولقد نزلوا فى ضيافة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكان بلال يأتيهم بالغداء والعشاء ، حتى التقوا برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم معلنين اسلامهم واسلام قومهم •

وقد جاء معهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يوما من الظهر الى العصر • وكان فيهم رجل أخذ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالنظر فيه ، وأدامه فيه •

فقال المحاربى كأنك يارسول الله توهمتنى •

فقال النبى عليه الصلاة والسلام : لقد رأيتك وكأنه الى أنه كان منه شىء •

قال المحاربى : أى والله لقد رأيتنى وكلمتنى ، وكلمتك بأقبح الكلام ، ورددتك بأقبح الرد ، بعكاظ ، وأنت تطوف على القبائل •

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : نعم •

قال المحاربى : ما كان فى أصحابى أشد عليك يومئذ ولا أبعد عن الاسلام منى ٠ فأحمد الله الذى أبقانى حتى صدقت بك ، ولقد مات أولئك النفر الذين كانوا معى على دينهم ٠

فقــال النبى صلى الله تعــالى عليه وسلم : إن هذه القلوب بيد الله عز وجل ٠

قال المحاربى : يارسول الله استغفر لى من مراجعتى اياك ٠

قال رسول الله صلى الله تعــالى عليه وسلم : ان الاسلام يجب مــا كان قبله من كفر ٠ ثم انصرفوا من بعد ذلك عائدين الى أهلهم ٠

وقد نرى فى هذا الوفد ولقاء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ظاهرتين واضحتين :

احداهما : أن الله تعــالى قد يخرج من القلوب القاسية قلوبــا مذعنة طيبة ٠

الثانية : ضلال العقول وسيرها فى الشر ، فاذا قذف الله تعالى فيهــا بنور الحق اهتديت وآمنت وسبحان مقلب القلوب ٠

وانك ترى سماحة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورفقه ، واتيانه القلوب من حيث اقبالها ٠

وفد صداء

٦٨٥ ـــ جاء هذا الوفد مكونا من نحو ١٠٠ من أهل صداء باليمن ٠

ويرجع أمر هذا الوفد الى سنة ثمــان من الهجرة عندمــا اعتمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عمرته الجعرانه ، فــانه أرسل الى صداء باليمن جيشا مكونا من نحو أربعمائة مقاتل بقيادة قيس بن سعد بن عبادة ٠

فقدم على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رجل منهم قد علم بأمر الجيش ويظهر أنه كان يعلم من قومه أنهم يميلون الى الاسلام خصوصا بعــد أن فتح الله تعالى على نبيه الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم مكة المكرمة ٠

فجاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقــال يارسول الله جئتــك وافدا على من ورائى فاردد الجيش ، وأنا اتى لك بقومى ٠

فرد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الجيش · وقد ذهب الرجـل الصدائى واسمه زياد بن الحارث ، كما ذكر الواقـدى فى تاريخه الى قومه فأتى منهم بوفد عدده خمسة عشر رجلا ، وقد قال سعد بن عبـادة · دعهم يا رسول الله ينزلوا على فنزلوا عنـده ، فحياهم وأكرمهم ، وكسـاهم ، ثم ذهب بهم الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فبايعوه على الاسـلام ، وقالوا نحن لك على من وراءنا من قومنا ·

رجعوا الى قومهم ففشا فيهم الاسلام ، وقد توافرت أسباب فشـوه ، فهو حق فى ذاته ، ولا غرابة فى أن يفشو دين الفطرة ، بين قوم أرادوا الحـق اذ لم يعاندوا ، أو يفرضوا خصومه ، ولأنه قد تم فتح مكة المكرمة التى كانت تناوىء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتبالغ فى مناوأته · ولأن السلطان فى البلاد العربية صار للاسلام وما لعربى أن ينأى بجانبه عن دين ساد البلاد العربية الا لأنه رأى أن فى غيره ما هو خير منه ، والاسلام خير الأديان ، وهو الحق الباقى ·

فشا الاسلام فى صداء ، ويظهر أنه كانت لهم صلة بالخـزرج بدليـل ضيافة سعد بن عبـادة ·

ولذلك جاء من بعد ذلك مائة رجل منهم وافدين على الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فى حجة الوداع ، ويظهر أنه الوفـد الذى جـاء فى النهـاية مسلما ·

وعلى ذلك نقول ، انه جاء الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من صداء ثلاثة وفود ·

أولها : زياد بن الحارث الذى جاء الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وطلب اليه أن يرد الجيش ، وقد قال له رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم يا أخا صداء أئنك مطاع فى قومك · فقال له بلى من من الله عز وجـل ومـن رسـوله ·

وثانيها : الوفد الذى حضر مع زياد وعـدده خمسة عشر رجلا ، قـد استضافهم سعد بن عبادة ، وأولئك بايعوا النبى صلى الله تعالى عليـه وسلم على الاسلام ، وأن ينشروه فى قومهم ·

وثالثها : وفد الجماعة الذين جاءوا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والتقوا به فى حجة الوداع ، حيث يودع رسول الله أمته ، وقد أودعهـا أمانته ، وحملهـا رسالته ·

ولقد صحب زياد بن الحارث الصدائى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض غدواته وروحاته ، ورأى من الخوارق الحسية والمادية التى جرت على يديه ما زاده ايمانا ٠

ويروى أن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم سأل زيادا فى سيره فى الصحراء أمعك ماء يا أخا صداء ؟ قال معى شىء فى اداوة ، قال عليه الصلاة والسلام هاته فجاء به ٠ ويقول زياد : صبب ما فى الأداوة ٠ فجعل أصحابه يتلاحقون ثم وضع كفه على الاناء ، فرأيت بين كل اصبعين من أصابعه عينا تفور ، ثم توضأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأذن للصلاة ، أذن لها زياد وأقامها ؛ وأراد بلال أن يقيمها ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من أذن للصلاة يقيمها ٠

ولقد سأل زياد بن الحارث أن يوليه عليه الصلاة والسلام امرة قومه فولاه ، لأنه وجده كفئا لذلك اذ كان مطاعا فى قومه ، كما وصفه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولأنه كان داعية الاسلام فيهم فكان من الخير للاسلام ولهم أن يتولى هو ولايتهم ، ولأنه لم يرد الولاية لذاتها ، ليكون له سيطرة وسلطان ، بل أراد الامرة على قومه لغاية رأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تحققها ، وذلك جائز ، ولا يعارض قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « وانا لن نولى على عملنا من أراده » ، لأن نص الحديث يمنع الولاية ممن أرادها للسلطان والسيطرة لا للعمل ، واقامة الحق ٠

ولكن زيادا لم يستبق الولاية ، بل استقالها وأعطى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كتابى الامارة ، وولاية الصدقات ٠

وذلك لأن سائلا شكا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن واليه طغى عليهم ، ويقول ان عاملنا أخذنا بذحول الجاهلية أو بثاراتها ، ويفهم من القصة انه عزله ، وقال لا خير فى الامارة لرجل مسلم ٠ وسأل رجل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يعطيه من الصدقة فقال عليه الصلاة والسلام : « ان الله لم يكلها الى ملك مقرب ، ولا لنبى مرسل حتى جزأها ثمانية أجزاء ، فان كنت جزءا منها أعطيتكها ، وان كنت غنيا ، فانما هى صداع فى الرأس وداء فى القلب ٠

فهم زياد بن الحارث من هذا أن الولاية لا تأتى بخير للمسلم ، بل هى ابتلاء له ، فاستقال منهما ، وقال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « يارسول الله هذان كتابان (كتاب الامارة وولاية الصدقات) فاقبلهما ، فسأله الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم عن السبب ، فقال : انى سمعتك تقول : « لاخير

فى الامارة لرجل مسلم ، وأنا مسلم ، وسمعتك تقول من سأل الصدقة وهو غنى عنها ، فانما هى صداع فى الرأس ، وداء فى القلب ، وأنا غنى ٠

أقاله الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن سأله أن يدله على رجل منهم فدله عليه ٠

وهكذا نرى أن ذلك الوفد كسب من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ايمانا وعلما والله تعالى الهادى ٠

قدوم وفد سلامان

٦٨١ — هذا وقد جاء من الصحراء وفد سلامان يعلن اسلامه ، ويشكو حاله ، وكان مؤلفا من سبعة رجال فيهم حبيب بن عمرو ، وقد أسلموا ، وأعلنوا اسلامهم ٠

وقد أخذوا يسألون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن الاسلام ، وعن حقائقه ٠ وكان من أسئلتهم ما أفضل الأعمال ؟ فقال صلى الله تعالى عليه وسلم — الصلاة فى وقتها — وكانت أفضل الأعمال لأنها تهذب النفس باستمرار اذا أديت فى أوقاتها ، فهى تزيل صدأ القلب كلما اشتد فى الظهيرة ، واذا أزالته وابتدأ يتراكم فى الأصيل كانت صلاة العصر ، فاذا تراكم جاءت صلاة العشى حتى ينام طاهرا مطهرا ، فاذا جاء الصباح استقبل اليوم فى طهارة ونقاء ، وعامل الناس بالطهر ٠

وقد صلى مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صلاة الظهر والعصر ، فكانت صلاة العصر أخف من صلاة الظهر ، وقد استأنسوا بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فشكوا اليه جدب بلادهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم اسقهم الغيث فى دارهم ، فقال عمرو ، لاستئناسه بالرسول صلى الله عليه وسلم ورفقه : « يا رسول الله ارفع يديك ، فانه أكثر وأطيب ، فتبسم عليه الصلاة والسلام ، ورفع يديه ، حتى بدأ بياض ابطيه ٠٠٠

أقاموا ثلاثة فى ضيافة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم عادوا الى ديارهم ، وقد أعطاهم عليه الصلاة والسلام جوائز ، كانت جائزة كل واحد خمس أواقى فضة ٠

واعتذر بلال عن قلة ما أعطى ، وقال : ليس عندنا اليوم مال ٠ فقالوا راضين قانعين ، ما أكثر هذا وأطيبه ٠

لما عادوا الى بلادهم وجدوها قد امطرت ، وتحروا فرأوا أن ذلك المطر جاءهم فى الوقت الذى دعا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وكان مجىء ذلك الوفد فى صفر من السنة العاشرة ٠

وفد غامد

٦٨٧ — جاء هذا الوفد مسلما فى السنة العاشرة ، وعددهم عشرة وعندما اقبلوا نزلوا ببقيع الغردق وانفصلوا منه لمقابلة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتركوا أحدثهم على ركابهم ليحرسها ، وقد قابلوا الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعلمهم شرائع الاسلام ، وكتب لهم كتابا فيه هذه الشرائع ، أى موجزها ، كما جاء فى خطبة الوداع ، فليس تفصيلها ٠ ولكن فيه جملتها خصوصا ما يكون هدما لأمر جاهلى جاهلى الفوه ، وكانوا له متبعين ٠

وحدث أن حارسهم الذى هو أحدثهم قد نام عن حراسته ، فسرقت عيبة فيها ثياب أحدهم ، وفر سارقها ، وعندما التقوا بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم اخبرهم بسرقتها ، قال لهم : من خلفتم فى رحالكم ؟ قالوا أحدثنا سنا ٠ قال قد نام عن متاعكم حتى أتى آت فأخذ عيبة أحدكم فقال رجل منهم يا رسول الله ٠ ما لأحد من القوم عيبة غيرى فقال الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ فقد أخذت وردت الى موضعها ٠

خرج القوم وعادوا سراعا الى متاعهم ، فوجدوا صاحبهم فسألوه عما اخبرهم به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ قال فزعت من نومى ففقدت العيبة فقمت فى طلبها ، فاذا رجل قد كان قاعدا ، فلما رآنى صار يعدو ، فعدوت وراءه وانتهيت الى حيث انتهى ، فاذا اثر حفر واذا هو يخرج العيبة فاستخرجها ، فقالوا نشهد أنه رسول الله ٠

عادوا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأخبروه أن الأمر كما اخبر عليه الصلاة والسلام ، وجاء الغلام وأسلم وعهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، الى ابى بن كعب فعلمهم بعض ما تيسر من القرآن الكريم ، بعد أن كتب لهم كتابا بجملة الاسلام وحقائقه ٠

وقد أجازهم صلوات الله وسلامه عليه ، كما كان يجيز غيرهم ٠

وفد الأزد

٦٨٨ ـــ ذكر خبر الوفد أبو نعيم فى كتابه معرفة الصحابة بسنده ، وأبو الحافظ بسنده ، وقالوا انه قدم هـذا الوفد على رسـول الله صـلى الله تعالى عليه وسلم مؤمنا ، فدخلوا عليه ، فأعجب رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم سمتهم وزيهم ، فقال من أنتم ؟ قالوا قوم مؤمنون فتبسم عليه الصلاة والسلام ، فقال : ان لكل قول حقيقة فما حقيقة قولكم وايمانكم ؟ ٠

قالوا خمس عشرة خصلة خمس منها جاء بها رسلك ، أن نؤمن بهـا ، وخمس أمرتنا أن نعمل بها ، وخمس تخلقنا بها فى الجاهلية ٠

قال عليه الصلاة والسلام : فما الخمس التى أمرتكم بها رسلى أن تؤمنوا بها ؟ قالوا أمرتنا أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسـله واليـوم الآخر وأن نؤمن بالقـدر خيره وشره ، قال عليه الصـلاة والسلام ما الخمس التى أمرتكم أن تعملوا بها ؟ قالوا قد أمرتنا ؟ أن نقول ٠ لا اله الا الله ، ونقيم الصلاة ، ونؤتى الزكاة ، ونصوم رمضان ، ونحج البيت الحرام لمن استطاع اليه سبيلا ، فقال عليه الصلاة والسلام وما الخمس التى تخلقتم بها فى الجاهلية ؟ فقالوا ، الشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء ، والرضا بالقضاء ، والصدق فى مواطن اللقاء وترك الشماتة بالأعداء ٠

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « حكماء علماء ، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبيـاء » وانى أزيدكم فتتم لكم عشرون خصلة ان كنتم كما تقولون ، لا تجمعوا ما لا تأكلون ، ولا تبنوا مالا تسكنون ، ولا تنافسوا فى شىء أنتم عنه غـدا تزولون ، واتقوا الله الـذى اليه ترجعـون ، وعليه تعرضون ، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون » ٠

هذا وفد مؤمن حكيم ، قد انصرفوا بعد أن أخـذوا وصايا النبى صـلى الله تعالى عليه وسلم ، وعملوا بها ، وتعهدوا بالأخـذ بأحكام الاسـلام ، وبما به أمر ، وما عنه نهى وأقاموا الخلق الكريم ، والمعروف الذى تؤيده الأخلاق ٠

قدوم وائل بن حجر

٦٨٩ ـــ قـال ابن عبد البر : ان وائـل بن ربيعـة كان أحـد أقيـال حضرموت وقد وفـد الى النبى صـلى الله تعالى عليه وسلم فى ضمن وفـود اليمن ، والجنوب ، وقد رحب به صلى الله تعالى عليه وسلم عند قدومه ، وبشر قبل مقدمه فقد قال عليه الصلاة والسلام قبل مقدمه ٠ يأتيكم بقية أبناء الملوك ، فلما دخل عليه رحب به ، وأدناه من نفسه ، وقرب مجلسه وبسط له رداءه ،

وقد جاء اليه مسلما معلنا اسلام من وراءه من اتباعه فى اليمن ، ورأى فيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خيرا ، فدعا له بخير ، وقال في دعائه : « اللهم بارك فى وائل وولده ، وولد ولده » ٠

وعلى طريقة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم جعله واليا على الأقيال من حضرموت ، وكتب كتبا بهذه الولاية ، وكما يقول الحافظ بن كثير ، منها كتاب الى المهاجر بن أمية ، وكتاب الى الأقيال والعباهلة ٠

ولقد أقطعه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أرضا من أرض الجنوب وهو اقطاع منفعة ، لا اقطاع ملك ، على مال يقدمه لبيت المال ٠

وذلك لأن هذه أراض نائية عن أراض المدينة المنورة ، فلا يمكن أن يشرف عليها الامام بالمدينة المنورة بنفسه ، فيعطيها من يديرها ، على خرج يقدمه ، كأجرة لها ، أو يكون من بعضها ٠

ولما انصرف من حضرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أرسل معه معاوية ابن أبى سفيان ، وسارا فى هذه الشقة البعيدة وهو راكب ، ومعاوية راجل ، فشكا معاوية حر الرمضاء ، فقال فى شكواه ٠ انتعل ظل الناقة (أى لا ظل لها يستظل بها) ويغنى عنى ذلك ، لو جعلتنى ردفا ٠

فقال وائل : اسكت ، فلست من أرداف الملوك ٠

ولعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أرسله مع ذلك القيل العنيف ، ليرى معاوية اذلال الملوك لمن معهم ، فيكون رفيقا عندما يحول الخلافة الى ملك عضوض ، ويسير سير الملوك ٠

ومن العبر أن وائلا هذا عاش حتى آل الأمر الى معاوية ، وجعله ملكا عضوضا ، يعض عليه بالنواجذ ، يروى أن وائلا قدم على معاوية ، وهو على هذه الحال ، فعرفه معاوية وقربه وذكره بالرحلة التى كانت لهما ، ثم عرض عليه جائزة سنية ، فأبى أن يأخذها ، وقال : أعطها لمن هو أحوج اليها منى ٠

وان ذلك الرد عندى أعنف من رده عندما طلب أن يردفه ، لأن مؤدى هذا الرد ، أنك تعطى لتقرب وتدنى ، وتسكت الألسنة ، ولتعلى اسمك بين الناس ، والأولى بالعطاء المحتاج ، وان ذلك شأن الذين يبنون حكمهم على شراء الألسنة ، وادناء ذوى السلطان ، وعدم الالتفات الى بر المحتاجين والضعفاء والمساكين يجعلون عطاياهم اتجارا ، وصدقاتهم افتخارا ٠

وفـد النخع

٦٩٠ — هذا آخر الوفود التى قدمت على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، قدموا عليه فى مائتى رجل وقد نزلوا فى دار الضيافة ، وقد جاءوا مقرين بالاسلام ، وكانوا قد بايعوا قبل ذلك معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه عندما ذهب الى اليمن داعيا الى الاسلام ·

وجاءوا الى النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم نـائبين عن أقوامهم معلنين الطاعة مقرين خاضعين موالينْ مناصرين غير خارجين عن طاعة ، مع بعد الديار ·

وحادثوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأفضوا اليه بذات نفوسهم ، وكان فيهم رجل يقال له زرارة بن عمرو ، وكان رجلا مجلو النفس ، قويا فى دينه قد رأى رؤيا فأراد أن يذكرها للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليتأول هذه الرؤيـا ·

قال : رأيت فى سفرى عجبا ، وقص على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رؤياه ، وجاء فيما قص من الرؤيا أن قال : رأيت النعمان بن المنذر عليـه قرطان مدملجان ، وسكتان ، قال عليه الصلاة والسلام « ذلك ملك العـرب ، رجع الى أحسن زيه وبهجتـه » ·

ورأيت يا رسول الله : عجوزا شمطاء قد خرجت من الأرض · قال عليـه الصلاة والسلام : تلك بقية الدنيا ·

ورأيت يا رسـول الله نارا خرجت من الأرض فحالت بينى وبين ابن لى يقـال له عمـرو ، وهى تقـول لظى لظى ، بصـير وأعمى ، أطعمونى أهلكم وأموالكم ·

قال عليه الصلاة والسلام : تلك فتنة تكون فى آخر الزمان ·

قال يا رسول الله ، وما الفتنة : قال يقتـل امامهم · ويشتجرون اشتجار أطباق الأرض ، وخـالف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصـابعه ، يحسب المسىء فيها أنه محسن ، ويكون دم المؤمن عند المؤمن أحـلى من شرب المـاء ان مت أنت أدركها ابنـك ·

قال : ادع لى يا رسول الله ألا أدركها ، فدعا له رسول الله صلى الله

تعالى عليه وسلم ، وأدركهـا ابنه ، وكان ممـن اشترك فى خلع ذى النورين عثمان ٠

هذا ما جاء فى كتاب زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم ، ولم يذكر له سندا ، كما لم يذكر كتابا من كتب الصحاح أخـذ عنه ذلك الخبر ٠

ولذلك نكل اليه أمر هذه الرواية ٠

ومهما يكن من صحة ما جاء بالنسبة للرؤيا وتأويلها ، فانه ممـا لا شك فيه أنه جاء وفد النخع الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأعلنوا اسلامهم واسلام من وراءهم ، وأنهم قد علموا الاسلام ، وأن معـاذ بن جبل علمهم أمور دينهم ، وحفظهم بعض القرآن الكريم ، فجاءوا اليه مؤمنين :

وان ارسال معاذ بن جبل اليهم معلما للاسلام ، ومحفظا للقرآن الكريم ، يشير الى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ ما كان يرسل سرايا للحـروب فقط ، بل كان (خصوصا بعـد الحديبية) يرسل سرايا لتعـليم الاسـلام ، ولمجرد الدعوة ، ولكنهم كانوا مقاتلين ، لا يحملون السيف الا اذا امتنعوا عن الاسلام والعهد ، والله سبحانه وتعـالى حامى دينه ، وحـامى دعـوته لمن أرادهـا ٠

المغزى فى هذه الوفود

٦٩١ ـــ اننا ذكرنا عددا من الوفود ، ولكن لم نحصها عددا ، فقـد كانت أكثر من ذلك ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد مكث فى المدينـة المنورة يستقبل الناس لتعليمهم الاسلام سواء فى ذلك من يجيئون زرافات فى وفود عن غيرهم ، ومن يجيئون يريدون معرفة الحقائق الاسلامية ، والآحـاد الذين يجيئون من قبائل مختلفة أفرادا أو غير أفراد ٠

مكث صلى الله تعالى عليه وسلم فى المدينة المنورة لذلك ، ويرسل السرايا داعيـة الى الاسلام ٠

ويلاحظ فى هذه أمور ثلاثة :

أولهـا : أن أكثر هـذه الوفـود كان من جنـوب اليمـن وحضرموت ، وما يدانيها من نجران والقبائل العربية التى لم تشترك فى مناواة النبى صـلى الله تعالى عليه وسلم ممالأة لقريش ، أو متحزبين معهم ، أو يرون مثل رأيهم فى

عبادة الأوثان ، أو يرونه ، ولكن لا يتشددون ، فلم تكن فيهم ممانعة نفسية من اتباع الآباء والأجداد الذين يقولون « **بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون** » ولا تقف محاجزة من امرة أو رياسة تحول بينهم وبين الدخول فى الاسلام ، وخصوصا بعد أن سن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم سنة ابقاء الأمير على امارته ، ان دخل فى الاسلام مؤمنا وكان عدلا يرضى أهل امارته حكمه ، ولا يشكون منه شيئا ، فان هذه السنة جعلت الرؤساء والأمراء لا يفرضون فى الدعوة المحمدية خصما يناوأ ، ويحارب ، وذلك لأن الذاتية يكون لها دخل فى تحريك النفوس ، ولم يكن أمرهم ككفار قريش فى أول الدعوة المحمدية ، اذ فرضوا من أول الأمر أن الاستجابة تذهب بزعامتهم ورياستهم ، فكانت الذاتية أو الاثرة محركة لخصومتهم ٠

ثانيها : أن الوفود كانت تجىء الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم معلنة اسلامها وطالبة تعليم الفرائض وليشاهدوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وليقبسوا من نور الحضرة النبوية فى مجالسه عليه الصلاة والسلام ، وان ساعة فى حضرة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تغنى عن علم كثير ، بل انها هادية ملهمة كما أشار الى ذلك الامام أبو حنيفة رضى الله تبارك وتعالى عنه ٠

انهم اذ يعلنون اسلامهم ويخبرون عمن وراءهم بأنهم ارتضوا الاسلام دينا ومحمدا صلى الله عليه وسلم رسولا ، من غير عوجاء ولا لوجاء ، وان كان فيهم من تلكأ أو تردد ٠ فان كثرة المسلمين فيهم كافية لأن تجعل هؤلاء المترددين يتبعون ولا يخرجون ٠

ويلاحظ أن بلاد الجنوب كان للنصرانية واليهودية مكان فيها ، وخصوصا النصرانية ، وفيهم مجوس ، فكان رفق الاسلام بهؤلاء وعقد المعاهدات بينهم على أن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، مقربا لهم ، وكانوا أهل علم بالديانات ، ومنهم من أسلم بناء على ما عندهم من الكتب التى تبشر بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيكون اسلامهم شهادة بصدق الدعوة المحمدية ، فوق أنها تشتمل فى ثناياها ما يدل على كمال صدقها اذ هى التوحيد ومكارم الأخلاق ، وحسن المعاملات وتوثيق العلاقات الانسانية بين الناس أجمعين لا فرق بين عربى وأعجمى ، ولا قبيلة وقبيلة ٠

الأمر الثالث : أن هذه الوفود جاءت تترى وفدا بعد آخر فى السنة التاسعة والعاشرة أى بعد فتح مكة المكرمة ، وتخاذل الرومان عن لقاء الجيش الاسلامى وقد ذهب اليهم فى دارهم أى عند الشام ، وقد تخلت عن نصرتهم القبائل العربية ، فلم يفعلوا ما فعلوه فى مؤتة ، اذ كان منهم جيش كثيف يبلغ مائة ألف أو يزيدون ٠

وبذلك أخذ النفوذ الرومانى ينحسر عن العرب ، ويذهب ظله كما كان الأمر بالنسبة لفارس ٠

وان ذلك من شأنه أن ينظر الى الدين الجديد على أنه الغالب ، المزيل للوثنية ، والمحيى للعزة العربية ، فهو الذى يجعل العربى يحس بعزته أمام بنى الأصفر من الرومان ، وينفض عنه سيطرة كسرى ومن وراءه وخصوصا أن الكتب التى أرسلها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يظلها النور المحمدى وقوة الحق أمام ارهاب الباطل ، فأثار فى ذلك نخوة عربية أمام الطغاة فى الشمال والجنوب ، فكان من آثار ذلك أن ألقوا بكل نفوذ عربى ٠

وان هذا الوفد الذى لقى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان من أهل الجنوب الذى قال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم انا لا نبرم أمرا خارجيا الا بعد استئذان كسرى ، فأشار اليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأنهم سيرثون ملك كسرى ، فأعطوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، عهدا بأن يتبعوه ٠

ومن هذا يتبين رغبة العرب الذين امتد اليهم نفوذ الرومان والفرس فى أن يخلعوا نيرهم ، ويردوا اليهم أمرهم ، وقد وجدوا فى الدعوة المحمدية معينا لهم من أن يتحرروا من التبعية ، وهم الأحرار الذين فضلوا الشدة فى عزة ، عن الأمن فى ذل ٠

وقد رأى ذلك المتاخمون لفارس فى كلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وفى لقائه للوفود فى مكة المكرمة ، **أولا** عند عرضه نفسه على القبائل قبيل الهجرة ، وفى المدينة المنورة ٠ **ثانيا** عندما أخذ يلتقى بالوفود ، من حضرموت واليمن ونجران ٠

وقد أدرك العزة العربية فى الدعوة المحمدية أولئك الذين يتاخمون الرومان عندما التقى بهم فى مؤتة وفى تبوك ، لقد عاون أولئك الرومان بحكم النفوذ الرومانى فى مؤتة ، ولكنهم لما أدركوا أن العزة فى الأخوة المحمدية لم يعاونوهم فى تبوك ، فلم يريدوا لقاء جيش الاسلام بعد أن أعدوا العدة ، وعينوا المدة ، فكان ذلك اشارة للعربى الحر ، (وكلهم أحرار) الى موطن عزته ، ومكان رفعته ٠

لذلك أخذ الاسلام يدخل فى الصدور ، وقد فتحت له الأبواب ، فى القبائل المتاخمة للرومان فى الشمال وفى الجنوب كله ، وخصوصا ما تاخم الفرس ، وكان للفرس فيه نفوذ ، فوجد التخلص من هذا النفوذ المذل ، بالاسلام ٠

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يترك الأمر لتلك المنازع وحدها ، بل كان يرسل الرسل معلمين لهم والبعوث فى السرايا ، فما كان رجال السرايا كما ذكرنا الا رجال تعليم ودعوة ، ولكن لأنهم يجتازون صحراء ويلقون ناسا غلاظا شدادا ، كان لابد أن يكونوا من أهل الحرب ، والعلم معا ، فكانوا يحملون علم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، أو بالأحرى بعض علمه ، ويحملون مع ذلك سيفه ، فهم يجاهدون بالأمرين والوقائع تعين استعمال أحدهما :

وان الرسل كثيرون ، والسرايا أقل من الرسل ٠

وقد ابتدأت الرسل الى الملوك والأمراء ، سواء فى ذلك العرب وغيرهم فكتب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كما ذكرنا الى قيصر الروم ، وكسرى الفرس ، ومقوقس مصر ، ونجاشى الحبشة ، كما أرسلت الى أمراء اليمن وحضرموت ، ونجران وكثيرون من أولئك أجابوا بأن طلبوا من يعلمهم الاسلام ، لأنهم استجابوا له ، وأبقاهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على ما تحت أيديهم وكذلك منهم من أوفد وفودا بالمبايعة على الاسلام ٠

ولو وازنت بين أثر هذه الكتب فى العرب ، وأثرها فى غير العرب ، كهرقل وكسرى لوجدت أن أثرها فى الأمراء العرب كان ايجابيا بالاستجابة وعدم المخالفة ، وأما أثرها فى غيرهم ، فان استثنيت النجاشى الذى أسلم فانا نجد الباقين أجابوا بالرفض فى عنف أو رفق فهو رفض فى الحالين ٠

وان السرايا كانت كما أشرنا دعاة الى الحق ، ولنذكر خبرين يثبتان مقدار عناية النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالدعوة ، وهما خبر ارسال معاذ بن جبل وعلى بن أبى طالب ، وكلاهما كان من علماء الصحابة بالاسلام ، واذا كان معاذ قد اشتهر بالعلم وفقه الاسلام فعلى المجاهد المحارب ، اشتهر بالعلم وفقه الاسلام ، حتى قيل ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « أنا مدينة العلم ، وعلى بابها » واشتهر من بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام بالفقه والقضاء معا ، حتى ان عمر رضى الله تعالى عنه فى امارته كان اذا مسألة تعقدت قال مسألة ، ولا أبا حسن لها ، لأنه قوى العلم والفقه والادراك ٠

وان الارسال تدل عباراته وما أحاط به على أنه ما كان للقتال ، وان كان على المقاتل الأول ، انما كان للتعليم ، وتفقيه الناس فى دينهم الذى ارتضوه ٠

بعث معاذ بن جبل

٦٩٢ ــ عندما بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم معاذ بن جبل الى اليمن بعث أيضا أبا موسى الأشعرى ، قال البخارى بسنده ، بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم معاذ بن جبل الى اليمن وأبا موسى الأشعرى ، وبعث كل واحد على مخلاف ، واليمن مخلافان ثم قال : يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ، ولا تنفروا ٠

وانطلق كل واحد منهما الى عمله ، وكان كل واحد منهما اذا سار فى أرضه وكان قريبا من صاحبه فسلم عليه ، فسار معاذ فى أرضه قريبا من صاحبه أبى موسى فسلم ، فجاء يسير على بغلته حتى انتهى اليه ، فاذا هو جالس ، وقد اجتمع الناس اليه ، واذا رجل عنده قد جمعت يداه الى عنقه ، فقال معاذ يا عبد الله بن قيس أثم هذا ؟ قال هذا رجل كفر بعد اسلامه فقال لا أنزل حتى يقتل ، قال أبو موسى ، انما جئ به لذلك فانزل ؟ قال ما أنزل حتى يقتل ، فقتل ٠

سقنا ذلك الخبر من البخارى للدلالة على أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اختار طائفة من فقهاء صحابته لتعليم الناس فى اليمن وغيره أمور دينهم ، ويدعوهم الى الاسلام ٠

ولابد أن يذكر فى هذا المقام أن معاذا رضى الله تعالى عنه قد بعث مزودا بمقاتلين ، ليبدأ بالدعوة الى الاسلام فان أسلموا علمهم الاسلام ، واقتصرت بعثته على التعليم والهداية ٠

وان كانت الأخرى قاتل :

وقد روى السرخسى فى مبسوطة فى السير الصغير وصية لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أوصى بها معاذا عند قدومه على اليمن ومعه مقاتلون وهذا نص الوصية ٠

« لا تقاتلهم حتى تدعوهم ، فان أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدءوكم ، فان بدءوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلا ، ثم أروهم ذلك القتيل ، وقولوا لهم : « هل الى خير من هذا سبيل ، فلأن يهدى الله تعالى على يديك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت » (١) ٠

---

(١) مبسوط السرخسى ج ١٠ ص ٢١ ٠

وقد أغناه الله تعالى عن القتال ، فقد استجابوا ، فانتقل من الحرب الى الموعظة الحسنة التى علمه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اياها ·

واذا كان قد أوصاه الله تعالى بما يجب عند الحرب ، فقد أوصاه أيضا بما يجب على المؤمن فى كل الأحوال ، ولقد ذكر هو هذه الوصية عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فيما رواه الامام أحمد رضى الله تعالى عنه فقد جاء فى هذه الوصية : « لا تشرك بالله شيئا وان قتلت وحرقت ، ولا تعقن والديك ، وان أمراك أن تخرج من مالك وأهلك ، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمدا فان من ترك صلاة مكتوبة متعمدا ، فقد برئت منه ذمة الله ، ولا تشربن خمرا ، فانه رأس كل فاحشة ، واياك والمعصية فانه بالمعصية يحل كل سخط ، واياك والفرار من الزحف ، وان هلك الناس ، واذا أصاب الناس موت وأنت فيهم فاثبت ، وأنفق على عيالك من طولك ، ولا ترفع عنهم عصاك أدبا وأحببهم فى الله عز وجل ·

ومن وصية النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قوله له : « اياك والتنعم فان عباد الله ليسوا بالمتنعمين » ·

وبهذه الوصايا كان يعلم الناس واجبات الدين ومكارم الأخلاق ، ومما علمه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قوله : « مفتاح الجنة شهادة أن لا اله الا الله تعالى » ·

واذا كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد ترك معاذ بن جبل بمكة المكرمة عند فتحها ليقيم فيها يعلم الناس ، فقد أرسله أيضا الى اليمن ليعلم أهله مع صاحبه أبى موسى الأشعرى لتعليم الناس الاسلام ·

ومع هذا العمل الجليل ، وهو تعليم الناس ، كان رضى الله تعالى عنه يجمع الجزية دينارا من كل حالم ، ويقول فى ذلك : « بعثنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى اليمن وأمرنى أن آخذ من كل حالم دينارا وعدد من المعافر (أى الثياب) وأمرنى أن آخذ من كل أربعين بقرة مسنة ، ومن كل ثلاثين بقرة تبيعا حوليا ، وأمرنى فيما سقت السماء العشر ، وما سقى بالدوالى نصف العشر » وذلك فى زكوات الأموال الظاهرة ·

ومن هذا يظهر أنه ولاه الخراج والجزية ، وولاه الصدقات فكانت الولاية العامة شاملة — لكل ما يتعلق بادارة الحكم ·

وقد روى الامام أحمد فى مسنده تفصيلا ، وان كان لا يخرج عما اتفق

عليه الأئمة أصحاب السنن ، كما جاء فى الحديث السابق ، وهذا نص ما جاء فى رواية الامام أحمد ٠

أمرنى أن آخذ من كل ثلاثين تبعا (١) ، ومن كل أربعين مسنة ، ومن الستين تبيعين ، ومن السبعين مسنة وتبيعا ، ومن الثمانين مسنتين ، ومن التسعين ثلاثة أتباع ، ومن المائة مسنة وتبيعين ، ومن العشر ومائة مسنتين وتبيعا ، ومن العشرين ومائة ثلاث مسنات ، أو أربعة أتباع ٠

هذه رواية أحمد ، وهى لا تخرج عن الرواية الأولى كما ذكرنا ، وان كانت أكثر تفصيلا ، وان الذى يهمنا فى هذه المسألة التى نترك تفصيلها لكتب الفقه على نص الرسول صلى الله عليه وسلم فى باب الزكاة بالنسبة للنعم والزرع والنقود ٠

ان الذى يهمنا أن نذكر لماذا قصرت تعليمات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم للزكاة على هذين الأمرين وهما زكاة الزرع وزكاة البقر ، ولم يذكر لمعاذ رضى الله تعالى عنه أمر فيما يتعلق بزكاة غير البقر من النعم وهى الغنم والابل ، ونقول : ان ذلك فيما يظهر لنا يرجع الى أمرين :

أولهما : أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أمر والى الصدقات بأن يجمع الأموال الظاهرة ، وهى النعم والزروع والثمار ، وترك غيرها من الأموال التى سميت فى الفقه بالأموال الباطنة لدين الناس يقدمونها من غير تفتيش أو تكشف ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم دعا الناس الى أن يعدوا الزكاة مغنما والا يعدوها مغرما ٠

الأمر الثانى : وهو الخاص بالعناية بذكر البقر دون غيرها من النعم ، وقد بين عليه الصلاة والسلام زكاة غيرها من النعم فى مواضع أخرى ، كان يذكرها لمن يرسله لجمع الزكوات من القبائل التى تسكن الصحراء ، لأن السوائم فيها كان أغلبها من الغنم والابل ٠

أما السبب فى أنه سيجابه فى أمره لمعاذ بن جبل ذكر له زكاة البقر والزرع ، ولم يذكرها ، لأنه فيما يظهر كانت اليمن أرضا زراعية ، وفيها خصب ، وقد قال الله تعالى : « **لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم ، واشكروا له بلدة طيبة ، ورب غفور** » ٠

---

(١) التبيع الذى لم يبلغ السنة ويتبع أمه ، والمسنة : أو المسن بالغ سنة ٠

وان البقر يكثر حيث تكثر الزراعة ، وحيث تكون أرض خصبة منتجة ، ولذلك ذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لمبعوثه الى اليمن زكاة ما يكثر فى اليمن من زروع وثمار وأبقار ·

ويروى أن معاذا اتجر فى المال الذى جمعه ، لأنه باع كل ما له فى دين مستغرق كان عليه ، وجاء الى اليمن خاليا من كل عرض من أعراض الدنيا ، فتجر وكسب ، ولم ينقص من هذا المال شيئا ·

وقد كان اتجاره لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد علم خصاصته ، فأرسله الى اليمن ، وظن أن ذلك ليجبر فقره فى حلال ، ولم يعد الى المدينة المنورة الا بعد وفاة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد صار أبو بكر خليفة رسول الله ولكنه تظنن فى حل هذا المال الذى اكتسبه بالتجارة ·

جاء الى عمر رضى الله عنه وقص عليه خبر هذا المال ، وسأله ماذا يصنع به فقال الفاروق ادفعه الى أبى بكر ؛ فان اعطاكه فاقبله ، فقال الصحابى الجليل ، لماذا أدفعه اليه ، وانما بعثنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليجبزنى ·

انطلق عمر به الى أبى بكر ، وطلب اليه أن يرسل الى معاذ فخذ منه ودع له ، أى فشاركه كسبه ، فقال الصديق : ما كنت لأفعل انما بعثه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليجبره ، فلست آخذ منه ·

ولكن معاذا التقى الذى اقتبس من نور الصحبة انطلق الى أبى بكر يدفع اليه المال كله حتى السوط الذى كان يساق به : فقال أبو بكر خذه فهو لك ·

هذا وقد فوض النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اليه أمر قضاء اليمن ، وشرح للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم كيف يقضى اذا عرض له قضاء · فقد روى عنه نحو سبعين من أهل حمص أن رسول صلى الله تعالى عليه وسلم حين بعثه الى اليمن قال : كيف تصنع ان عرض قضاء : قال أقضى بكتاب الله · قال عليه الصلاة والسلام ، فان لم يكن : قال فبسنة رسول الله ، قال عليه الصلاة والسلام · فان لم يكن فى سنة رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) : قال أجتهد رأيى ، وانى لا ألو ، فضرب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على صدره ، وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) ·

وان ذلك الخبر كان أصلا للاجتهاد فى الفقه ، أخــذ به من اخــذوا بالقياس وعارض فيه من عارضوا القياس ، وانهم لشرذمة قليلون ٠

وقد أثر له رأى فى القضاء ، وهو أنه لا يرث الكافر من المسلم ، ولكن يرث المسلم من الكافر ، وبهذا الرأى أخــذ الامامية من الشـيعة ، وعمــل به معاوية ، ولكن الجمهور الأعظم من الفقهاء لم يأخذ به ٠

روى الامام أحمد بسنده عن أبى الأسود الدؤلى قال « كان معــاذ باليمن فارتفعوا اليه فى يهودى مات ، وترك أخا مسلما ، فورث معــاذ المسلم من اليهودى ، وقال : « انى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : « ان الاسلام يعلو ، ولا يعــلى عليه » فأخذ الحــكم من القياس باعتبار أن الاسلام يعلو ، والميراث يكون ثمرة لهذا العــلو ، ولأن الكفر باطل والاسلام حق يوجب الميراث ، ولا يزول الحق لأجل الباطل ٠

ولكن الجمهور الأعظم قالوا غير ذلك ، وحجتهم صريح الســنة قولا وعملا ، فقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم كما روى فى الصحيحين : لا يرث الكافر المسلم ، ولا المسلم الكافر ٠ وقد ثبت عملا ، فان عقيل بن أبى طــالب هو الذى ورث دور أبى طالب ، ولم يرث منها جعفر ، ولا على ، ولا أم هانىء ، ولا غيرهم من المسلمين عند وفاة أبى طالب ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم فى فتح مكة المكرمة : ما ترك عقيل من دار ، ولا يرث المسلم الكافر ٠

وخلاصــة القــول أن النبى صلى الله تعــالى عليه وسلم أرسل معــاذا محاربا ، ومعلما ، وجامعا للصدقات والجزية وقاضيا فى الخصومات ، فكان هاديا مهديا ٠

ويقول الحافظ بن كثير فى ولايته : كان قاضيا للنبى صلى الله تعــالى عليه وسلم ، وحاكما فى الحروب ، ومصدقا اليه تدفع له الصدقات ٠

وقد ذكرنا ما قاله رسول رسول الله معــاذ بن جبل فى اليمن هو وصاحبه عبد الله بن قيس (أبو موسى الأشــعرى) ليعــرف القارىء أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يرسل الرسل من قبله الى الجهــات النائية على أنها سرايا أحيانا ، وعلى أنهم معلمون ، وان لم تذهب عنهم صفة السرايا ٠

فالدعوة الاسلامية أو تبليغ الرسالة المحمدية هى الأصل ، وهى الغاية ، فان لم تقف فى سبيلها عقبات ، اكتفى بها ، وان وقفت محاجزات الأمــراء

والملوك كان الجيش المؤمن مزيلا لهذه المحاجزات حتى يخلو وجه الاسلام للدعوة المحمدية دعوة الله والحق ·

ولقد كانت كل بعثة محمدية معها قوة ، لأنه يجتاز فيافى وقفارا ، والأمن غير مستتب ، وقد حدث أن جاء ناس من المشركين يخادعون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذكروا له أن عندهم من يريد الاسلام فأرسل لهم من يعلمهم ، أرسل معهم قراء ، فأخذوهم ، وباعوهم للمشركين ، وآخرون قد قتلوهم ، وقد تكرر ذلك ، فكان الحذر يوجب على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ألا يرسل قراء وحدهم ، بل لابد من سرية حربية معهم ، والله تعالى فى عون عباده المخلصين ·

بعث على رضى الله عنه

٦٩٣ ـــ كانت اليمن عدة أقاليم ، فبعث عليه الصلاة والسلام عبد الله ابن قيس (أبا موسى الأشعرى) الى مخلاف ، وبعث معاذ بن جبل الى مثله ، وكانا متجاورين ، فكان كل يذهب الى صاحبه ، ولذا أمرهما النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يتطاوعا ولا يختلفا ·

وبعث على بن أبى طالب بعد خالد بن الوليد ، وهما محاربان ، ولكن أمرهما النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، بألا يقاتلا الا بعد الدعوة الى الاسلام ، والامتناع عن الاجابة الى الاسلام أو الى العهد ·

ولنذكر وصية النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لعلى بن أبى طالب كما رواها السرخسى فى كتابه شرح السير الكبير للامام محمد ، وهى تشبه وصية النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لمعاذ التى أسلفناها ·

وهذه هى الوصية : « اذا نزلت بساحتهم ، فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك ، فان قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوا منكم قتيلا ، فان قتلوا منكم قتيلا ، فلا تقاتلهم حتى تريهم اياه ، ثم تقول لهم : هل لكم الى أن تقولوا : لا اله الا الله ، ولأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير مما طلعت عليه الشمس وغربت (١) ·

---

(١) شرح السير الكبير للسرخسى الجزء الأول ص ٢٣٤ طبع جامعة القاهرة ، ولم يطبع فيها غيره ·

ولكن عليا رضى الله تعالى عنه ، لم يقاتل ، ولم يكن فى حال يعــرض عليهم ما أمره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يعرضه ، لأنه جاء الى من أرسل اليهم على من أهل اليمن قبله خالد بن الوليد ، ودعاهم الى الاسلام أو القتال فأسلموا ، ولم يقاتلوا ، وجمع منهم خالد بن الوليد فيئا وغنائم لم تخمس ، فأرسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عليا ليقسمها ، أو ليخمسها ، كما يفهم ذلك من الروايات المتضاربة ٠

قال البخارى بسنده « بعث النبى صلى الله تعالى عليه وســلم عليــا الى خالد ليقبض الخمس » وقال أبو بريدة راوى الحديث عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « وكنت أبغض عليا » ٠

وانه يبدو من السياق التاريخى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعث عليا ليأخذ خمس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وذى القربى واليتــامى والمساكين ٠

وان ذلك لم يكن وحده هو رسالة خالد ، بل كانت رســالته مــع ذلك الدعوة الى الاسلام وتعليمهم ، وأن يؤمهم فى الصلاة ٠ قال البراد بن عازب فى رواية البيهقى : « كنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد ، فأقمنا ستة أشهر يدعوهم الى الاسلام ، فلم يجيبوه ، ثم ان رسول الله صلى الله تعــالى عليــه وسلم بعث على بن أبى طالب ٠٠ فلما دنونا من القوم خرجوا الينا ، ثم تقدم فصلى بنا ، فصفنا صفا واحدا ، ثم تقدم بين أيدينا ، وقرأ عليهم كتــاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأسلمت همدان جميعا ٠

فكتب على الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم باسلامهم ، فلما قرأ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الكتاب خرج ساجدا لله ، ثم رفــع رأسه ، وقال السلام على همدان ، السلام على همدان ٠

ويظهر أن خالدا لم يعد الى المدينة المنورة ٠ بمجرد مجىء عــلى كــرم الله وجهه ، بل مكث مدة ، ولا نريد أن نفرض أن خالدا كان فى نفسه موجــدة من ارسال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عليا ، ولكن نترك الحوادث حول على تتحدث والأمور التى تدور حول على تنطق ٠

لم يكن على رضى الله عنه وكرم الله وجهه محبوبا فى الأوساط العربية ، وخصوصا الذين ينتمون الى أقوام كانت لهم محاربة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى بدر وأحد والخندق ، ثم حنين ، فقد كان سيف على كرم الله وجهه فى الجنة سريعا الى الرقاب ، كما كان سيف عمه حمزة فى بدر ، وقــد استطاع الشرك أن يقتل أسد الله حمزة ، فبقى لعلى الاحن ٠

ان عليا جاء لأخذ الخمس الذى يوضع تحت يد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لقرابته ، ولقد أخذ على ذلك الخمس ، وكان فيه سبية جميلة ، فأخذها على ، وعاشرها بملك اليمين ، فقامت لذلك ضجة ، وأمر خالد فيما يظهر أن يبلغ ذلك للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، على أن عليا ملوم فيه ، ولنترك الكلمة لأبى بريدة . حدث الامام أحمد بسنده الى أبى بريدة « قال أبو بريدة أبغضت عليا بغضا لم أبغضه أحدا ، وأحببت رجلا (١) من قريش لم أحبه الا على بغضه عليا ، فبعث ذلك الرجل على خيل فصحبته ما أصحبه الا على بغضه عليا فأصبنا سبيا ، فكتب الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . ابعث الينا من يخمسه ، فبعث الينا عليا ، وفى السبى وصيفة من أفضل السبى ، فخمس وقسم ، فخرج ، ورأسه يقطر . فقلنا يا أبا الحسن

ما هذا ؟ فقال ألم تردوا الى الوصيفة التى كانت فى السبى ، فانى قسمت وخمست فصارت فى الخمس ، ثم صارت فى أهل بيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . فكتب الرجل الى نبى الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقلت ابعثنى ، فبعثنى مصدقا فجعلت أقرأ الكتاب وأقول صدق فأمسك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يدى والكتاب . فقال : أتبغض عليا ، فقلت نعم . قال : فلا تبغضه وان كنت تحبه فازدد له حبا ، فوالذى نفس محمد بيده لنصيب آل على أفضل من وصيفة ، قال أبو بريدة ، فما كان من الناس بعد قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أحد أحب الى من على .

ان هذا الخبر يدل على أن عليا رضى الله تعالى عليه كانت تتقصى هفواته ولكنه لم يفعل حراما ، وحسبنا أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يستنكر فعله ، بل أيده . ويدل الخبر أيضا على بغض الرجل الذى أشار اليه لعلى ، وأنه كان يريد أن يصوره أمام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى موقف الظنين .

والطريق لم يكن معبدا أمام على ، لأنه حيث كان البغض ، فانه يد عثر الطريق ، ويصعب الوصول الى الحق المبين الصريح ، ولقد كان لنا أن نعلق على عمل على كرم الله وجهه ، لولا أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أقره .

ومع أن الطريق لم يكن معبدا أمامه رضى الله تعالى عليه ، فانه كان شديدا فيما يعتقد أنه الحق ، لا تأخذه فيه هوادة ، بل ينفذه فى صرامة ، لارفق فيها ، أو بالأحرى لا لين فيه .

---

(١) سياق الكلام بما يدل على أنه خالد بن الوليد فكلمة الرجل ، تشير اليه فى كل ذكر لها .

ومن ذلك أنه كان تحت يده ابل الصدقة ، وقد روى البيهقى عن أبى سعيد الخدرى : « كنت فيمن خرج معه (أى على) فلما أخذ من ابل الصدقة سألناه أن نركب منها ونريح ابلنا ، وكنا قد رأينا فى ابلنا خللا ، فأبى علينا وقال « انما لكم فيها سهم كما للمسلمين » فهو لا يريد أن يمكنهم منها قبل أن تقسم السهام ، وهو غير الوصيفة ، فانه جاء لتسلم خمس النبى صلى الله عليه وسلم وذوى قرابته ، فبالاستيلاء ، قد استولى على سهمه ، أما هم فهم يريدون الانتفاع بها من غير تقسيم ٠

وذهب من ذلك على كرم الله وجهه ليلقى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى حجة الوداع ، واستخلف على بعض من معه على الغنائم ، فسأله الناس ما منعه على كرم الله وجهه فى الجنة ، فسألوه ما منعه على ، فأجابهم ٠

لما حج على مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقفل راجعا بأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورأى ما حدث فى غيبته فرأى أثر الركوب فى ابل للصدقة فجاء بحق أنابه وقدمه ولامه على ما فعل ، وأعاد المنع كما بدأ ٠

فقال أبو سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه ٠ لئن قدمت المدينة المنورة لأذكرن لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما لقيناه من الغلظة والتضييق ٠

بلغ ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقضى لعلى وأنصفه فيما فعل ، وقال لقد علمت أنه أحسن فى سبيل الله ، ومنها ــ أنه عندما تعجل فى الحج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخلف ذلك الرجل المتساهل ، وقد أعطى ما منع على، كان قد كسا الجيش كله حللا ، كل رجل حلة ، فلما عاد على من الحج ، دنوا منه وعليهم الحلل ، فلما رأى عليهم الحلل ، قال ما هذا ؟ قالوا كسانا فلان ، فقال لمن خلفه ما دعاك الى هذا قبل أن تقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاشتكوا الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وفى الحق ان توقف على كان فى هذه المسألة سليما لأن هذه الحلل كانت من جزية موضوعة ، فما لأحد أن يوزعها ، قبل اعلان الرسول صلى الله عليه وسلم بها ٠ وتلقى أمره فى توزيعها ٠

كانت الشكوى من على كرم الله وجهه قد شاعت فى الحجيج وكثر القول فيه ، وكل من تكلم كان مغرضا لا يروم الحق ، ولعلى الحق فى كل ما فعل ،

ولكن البغض له خصوصا من له فى الجيـوش الاسلامية مكان من قبـل ومن بعـــد ٠

ولقد قال فى ذلك الحافظ بن كثير فى تاريخه : « والمقصود أن عليـا كثر فيه القيـل والقـال من ذلك الجيش بسبب منعـه اياهم اسـتعمال ابـل الصدقة ، واسـترجاعه منهم الحلل التى أطلقها لهم نائبه ، وعلى معـــذور فيما فعـل ، لكن اشتهر الكلام فيه فى الحجيج ، ولما رجع النبى صلى الله عليه وسلم من حجته وتفرغ من مناسكه ، ورجع الى المدينة المنورة فمر بغدير خم ، قام فى الناس خطيبا فبرأ ساحة على ، ورفع من قدره ، ونبه على فضله ، ليزيل ما فى نفوس كثيرين » ٠

وننبه هنا الى أمور ثلاثة يوجب الحق التنبيه اليها :

أولها : أن كلمة ابن كثير بالنسبة لعلى كرم الله وجهه « انه معذور » لانرى أنها فى موضعها ، والأولى أن يقول انه كان فيها محقا ، ففرق كبير بين المعذور والمحق ، فان المعذور مخطىء له عذر ، وأما المحق فانه غير مخطىء ، وما كان على فى أمر الحلل والرواحل الا محقـا منفذا ، ولو كان فى شدة ٠

ثانيها : أن الكلام الذى قيل فى غديرخم انتهى بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » ٠

ثالثها : أن هذا كله من بغض على كبغض أبى بريدة الذى ذكرناه وبغض الرجل الذى كان يحبه أبو بريدة ، لأنه يبغض عليا ، وأن ذلك الرجل الـذى أشار اليه أبو بريدة ، وقد نالته موجدة من ارسال على كما أشرنا ، وقـد عاد قبل عودة على كرم الله وجهه ، فعمل على اشاعة القيل والقال على امـام الهدى ، ولقد كانت عبارة النبى صلى الله عليه وسلم تومىء الى أن الـذين أشاعوا ذلك معادون لعلى ، مبغضون له بغض أبى بريدة أولا ، ولكن الله تعالى هداه بهداية النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وعلى رضى الله تعالى عليه جدير بأن ينفس الناس عليه فضله ، فقـد مكث الرجل ستة أشهر يدعوهم الى الاسلام ، فلم يستجيبوا ، وبمجرد لقاء على رضى الله عنه ، قـــد اســتجابوا لـداعى الحـق ، وعلى فـــوق ذلك العالم الجليل ، والشجاع المحارب ، وبطل بدر وأحد ، وهو الـذى حمـــل اللواء ، وعلا ، ورأى المشركون أنه لا سـبيل لأن يبقـوا أمامه فعادوا كأنهم المهزومون ، وهم الذين أصابوا جراحات فى المسلمين ٠

لقد كان على فريسة المبغضين فى موطنين :

أحدهما : فى جماعة على ، وقد برأه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ورد كيد الكائدين وأطفأ نيران الغضب عند من ظهر غضبه ·

الموطن الثانى : فى خلافته ، وخروج البغاة عليه ، وتحرك الضغائن ، وفى هذه المرة لم يكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حيا ، فلم يقف بغديرخم يقول : « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » ·

تولية على قضاء اليمن :

٦٩٤ ـــ كان القضاء فى العادات العـربية يتولاه أسن الرجال ، وأكثرهم تجارب ، ومعرفة لعادات القبائل ، فكان يقضى مثل أكثم بن صيفى الذى عاش حتى بلغ نحو التسعين من عمره ، لأن القضـاء يحتاج الى فضل تجربة ، وفضل تأثير ، لتنفيذ الأحكام نفسيا ، ويذعن المتخاصمون لها قلبيـا ويكون له من الجلال فى وسط قومه ما يجعل قوله فصـلا ، يؤمنـون بالعـدل فيـه ·

ولذلك لما عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى على أن يقضى فى اليمن فى غير الحيز الذى كان فيه معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعرى ، اذ كان اختصاصه يعم اليمن كله ، لما عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك الى على استصغر سنه وعرض على النبى صلى الله عليه وسلم أنه حدث السن ، اذ لم يكن الا فى حدود الثانية أو الثالثة والثلاثين ·

روى ابن ماجة ، والامام أحمد عن على كرم الله وجهه ، قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن ، فقلت : يا رسول الله ، تبعثنى الى قوم أسن منى ، وأنا حدث لا أبصر القضاء ، فوضع يده على صدرى ، وقال : اللهم ثبت لسانه ، واهد قلبه ، يا على اذا جاءك الخصمان ، فلا تقض بينهما ، حتى تسمع من الآخر ما سمعت من الأول ، فانك اذا فعلت ذلك تبين لك الحق ، فما اختلف على على قضاء بعـد ·

وان هذه الدعوة النبوية قد صدقت فى على كرم الله وجهه ، فقد ثبت الله تعالى لسانه ، حتى كان أخطب الناس بعد رسول الله صلى الله تعالى عليـه وسلم ، وأثبت الناس قولا بعده عليه الصـلاة والسـلام وكان مهديا ، فما لان فى حق ، ولا مالأ مبطلا ، وهـداه فى القضـاء · حتى روى أن النبى صـلى الله تعالى عليه وسلم قال : « أقضاكم على » وكان عمـر كما ذكـرنا يسـأله

اذا أعضل عليه القضاء فى مسألة من مسائله ، فيقول : مسألة ، ولا أبا حسن لهـا ٠

وقد رويت عنه روايات فى قضائه دالة على نفاذ بصيرته ، وانفتاق عقله الذى هو قبسة من الهدى المحمدى ، اذ رضع لبـان هذه الهداية صغيرا ، وتربى عليها ، ونزح بدلو المعرفة من اعظم ينبوع لها :

وقد ذكرت له مسائل فى القضاء هداه الله تعالى اليها ، فقد كان يحاول الوصول الى الحقيقة ٠ خصوصا فى الأنساب ، فلا يترك ولدا من حلال من غير أب ٠

تنازع اثنان فى نسب ولد ، ولم يكن لأى واحد منهما دليـل ، وكان المنتظر أن يتهاتر الادعاءان ، ولا يكون للولد نسب ، فلما لم يجـد سبيلا أقرع بينهما ، وحكم بالنسب لمن تحكم له القرعة ، وعليه أن يدفع الدية للآخر ، وبهذا أنصف الرجلين ولم يهدر نسب الولد ، وبهذا أخبر الامام أحمـد عن على ، وقد أفرد عن غيره بهذا الرأى ، وروى عن على كرم الله وجهه قضاء فى مسألة معقـدة ، وانتهى فيها الى حكم ، لا يزال موضع اعجاب رجال القضاء الى اليوم ٠

روى الامام أحمد أن قوما كان يغير عليهم أسد ، فبنـوا له زبية (مكانا يتردى فيه) فتدافع الناس فسقط رجل ، فتعلق به آخر ، ثم تعلق بالآخر ثالث ، وتعلق بالثالث رابع ، وقد جرحهم جميعا الأسد وماتوا ٠ فجاء أولياء المقتولين ، وهموا بأن يقتتلوا ٠ فقال لهم امام الهدى بعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، أتريدون أن تتقاتلوا ، ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حى ، انى أقضى بينكم قضاء ان رضيتم به ، فهو القضاء ، والا أحجز بعضكم عن بعض ، حتى تأتوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ليكون هو الذى يقضى بينكم ، فمن عدا بعد هذا فلا حق له ٠

كان قضاء على فى القضـية ، يسير على مبدأين : أحدهما أنـه لا يطل دم فى الاسلام ، وذلك مبدأ مقرر روى بعبارته عن على كرم الله وجهـه فى الجنـة ٠

الثانى ـ أن العجماء جبار ، أى ما تجنى الدواب ، لا غرامة فيها الا أن يكون صاحبها المتسبب ، فيغرم هو الدية كلها أو بعضها ٠

ونجد أن الأول تسبب فى هلاك الثلاثة بعده ، وقد تمكن السبع من الجميع يترديه أولا ، ثم تعلقه بالثانى والثانى بالثالث والثالث بالرابع ٠

وكانت الدية واجبة كاملة لهم جميعا بناء على القاعدة الأولى ، ولـكن يستنزل من دية كل واحد دية من تسبب فى قتـله ، وقد تسبب فى قتل ثلاثة ، فيأخذ ربعا ، باسقاط ثلاثة أرباع لمن تسبب فى قتلهم ، فهو السبب فى قتـل ثـلاثة ٠

والثانى تسبب فى قتل اثنين ، فينقص من ديته الثلثان ، فيكون لـه الثلث ، والثالث ، تسبب فى قتل الرابع ، فيخصم من ديته النصف ، والرابع ، وهو الذى سقط أخيرا لم يتسبب فى قتـل أحد ، فلا يخصم من ديته شىء قط ، وبذلك يكون المطلوب ديتان وسدس دية ، هذا معنى قول على فى قضائه ، فقد قال : « اجمعوا من قبائل الذين حفروا البئر ، ربع الدية ، وثلث الدية ، ونصف الدية ، والدية كاملة » ٠

فللأول الربع ، لأنه هلك ، والثانى ثلث الـدية والثـالث نصف الدية ، والرابع الدية ، هذا قضاء على ، وقد طلبت هذه الديات ممن حفروا البئر ، لأنهم المتسببون ابتداء ، والتسبب الآخر نسبى ، فى دائرة التسبب الأصلى ٠

ولا نعلم فى هذه القضية المعقودة المتشابكة التى ترابطت فيها الأسباب ، وتشابكت أعدل من هذا . واذا كان ثمة بعض الانفكاك فى المقدمات ، أو بتوهم ذلك ، فان قضاء على فى هذا هو أحكم القضاء ٠

ولكن أولياء المقتولين ، لم يرتضوا ذلك ، وكأن كل ولى يريد دية كاملة لمقتـوله ٠

وذهبوا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو فى حجة الوداع ، وهو عند مقام ابراهيم ، فقصوا عليه القصة ، فقال أنا أحكم بينكم ، فقال رجل من القوم ٠ يا رسول الله ، ان عليا قضى علينا ، وقصوا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قضاء على ، فأجازه رسول الله عليه الصلاة والسلام ٠

وبعد فهذا على كرم الله وجهه فى اليمن ، كان الداعية المستجاب فى دعوته للاسلام ، فآمنوا لفرط تقواه ، واشراق نور الايمان فى قلبه ، فما يخرج من القلب يصل الى القلوب ، واخلاص الداعى هو الجاذبية التى تحوط المدعو ٠ فتهديه الى الايمان ان لم تعتكر القلوب ٠ وتفسد الضمائر ، وهذا على الحاكم الحازم ، لم تأخذه فى الحق هوادة ، وليس للباطل عنده ارادة ، وان شكا الناس منه غلظة فلفســاد قلـوب تستغلظ الحق ، وتستطيب الباطل ، وقـد أنصفه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم منهم ـ ونعم المنصف العادل ٠

وهذا على فى قضائه العدل الحكيم ، والله ولى المؤمنين ٠

بعث الصديق ليكون أمير الحج

٦٩٥ ــ فى زحمة الوفود لم نسر فى مسار التاريخ ، فلم نذكر الوقائع فى مواقيتها ، ميقاتا بعد ميقات لأن الوفود لم يكن ميقات كل واحد منها محدودا بحد لا يقبل الاختلاط بغيره ، ولذا ذكرناها فى مواقيتها على وجه التقريب ، لا على وجه التعيين ، ومهما يكن فان غالبها ذكر فى ميقاته وفى مناسباته ، ولكن الأمر الذى لم نذكره فى ميقاته ، بل ذكر ما بعده ــ قبله ، هو حجة أبى بكر التى تولى فيها امرة الحج ، وهذه أول حجة كانت بامرة من النبى صلى الله عليه وسلم ، أى كانت فى ظل الاسلام ، بعد أن هدمت الأوثان من فوق الكعبة الشريفة ، ومن حولها ، بل من حول أم القرى كلها .

كان حج أبى بكر عقب غزوة تبوك التى كانت آخر غزوات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومن بعدها ، أخذ يستقبل الوفود ، ويرسل الدعاة الى الاسلام ، ويقتفى آثارهم فى دعواتهم ، ومقدار الاستجابة لهم ، فانتهى بهذه الغزوة ، عهد تأمين الدعوة فى عصر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم .

وتفرغ عليه الصلاة والسلام للدعوة ذاتها ، وقد زالت كل الحاجزات المانعة ، واستمر دخول الناس فى دين الله تعالى أفواجا ، وقد ابتدأ ذلك من بعد صلح الحديبية كما أشرنا الى ذلك فى موضعه من القول .

وعلى ذلك فالدعوة كان لها ثلاثة أدوار : الدور الأول دور وضع الأسس وتكون جماعة قوية فى ايمانها ، وان كان فيها ضعف فى السلطان ، وقلة فى العدد ، وأولئك هم الحواريون لمحمد عليه الصلاة والسلام ، كالحواريين لعيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام .

والدور الثانى دور الدعوة ، وتذليل العقبات ، وازالة الحجزات ، فالدعوة لم تكن السبيل أمامها معبدة ، بل كان لابد من عمل لتعبيدها بازالة كل العقبات التى تقف فى طريقها .

الدور الثالث كان بعد أن زالت العقبات فى الجزيرة العربية وصار الدين لله تعالى ، وقد كانت حياة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وصحابته من المهاجرين والأنصار الذين حضروا بيعة الرضوان خالصة للدعوة ، وتبيين الحقائق الاسلامية ، وبذلك كان كل من يبعثهم من أهل بيعة الرضوان ، وان بعث من غيرهم أردفه بواحد من الحواريين الأولين أو أهل بيعة الرضوان ،

كما فعل مع خالد وعلى رضى الله عنهما بالنسبة لليمن ، وقد أشرنا الى ذلك من قبل ٠

اتجه عليه الصلاة والسلام فى الدور الثالث الى تطهير مكة المكرمة من أن يدخل فيها رجس الجاهلية من عبدة الأوثان ولقد جرى حج السنة الثامنة على ما كان يجرى عليه من قبل فلم يصد عنها مشرك ، فلما آلت امرة الحج الى الاسلام ، منع الله المشركين من أن يدخلوا المسجد الحرام فى السنة التاسعة ، ونزل قوله تعالى فى سورة براءة : « **يأيها الذين آمنوا ، انما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ، ان شاء ، ان الله عليم حكيم** » ٠

يقول ابن اسحاق انه بعد تبوك التى انتهت فى رمضان قضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقية رمضان وشوالا ، وذا القعدة ، ثم بعث أبا بكر أميرا على الحج سنة تسع ، ليقيم للمسلمين حجهم ، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم ، لم يصدوا بعد عن البيت ، ومنهم من له عهد مؤقت الى أمد ٠

كان هناك اذن عهدان : عهد جاهلى ، وهو عام ، فيه اذن بألا يصدوا عن البيت ، قد كان هذا على العادة الجارية ، وقد توثق بعد الحديبية ، وعهد خاص قد عقده النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهذا يبقى الى أمده ٠

وان العهد الذى جرى على مجرى العادة الجاهلية ، قد انتهى بأن صار للاسلام الكلمة العليا ، وصار التوحيد هو الحاكم ، وجاءت ملة ابراهيم الصحيحة فى الاسلام بعد أن انحرف العرب ، وعبدوا الأوثان فلم يكن منع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بحكم القرآن الكريم ، نقضا للعهد ، ولكنه تصحيح للوضع ٠

أما عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فهو قائم على أسسه حتى ينتهى أمره ٠

وان أبا بكر ما ان فصل بركبه ، حتى لحق به على بن أبى طالب يحمل سورة براءة ، وكانت قد نزلت بأنه لا عهد للمشركين عبدة الأوثان فى أن يحجوا البيت الحرام بعد عامهم هذا ٠

قال ابن اسحاق : لما نزلت سورة براءة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان قد بعث أبا بكر ليقيم للناس الحج ، قيل له يارسول الله :

لو بعثت بها الى أبى بكر ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا يؤدى عنى الا رجل من أهل بيتى » ، ثم دعا على بن أبى طالب ، فقال له اخرج بهذه آيات من صدر براءة ، وأذن فى الناس بالحج يوم النحر اذا اجتمعوا بمنى ، أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عهد فهو الى مدته ، فخرج على بن أبى طالب على ناقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم البيضاء ، فلما رآه أبو بكر قال : أمير أو مأمور ! فقال على : بل مأمور ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس الحج اذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية حتى اذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب فأذن فى الناس بالذى أمره به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأجل أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ، ليرجع كل قوم الى مأمنهم ، وبلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة ، الا عهد كان له عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فهو الى مدته ، فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان ٠

وروى الامام أحمد أن على بن أبى طالب قال : « بعثت يوم بعثنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مع أبى بكر فى الحجة بأربعة : لا يدخل الجنة الا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عهد ، فهو الى مدته ، ولا يحج المشركون بعد عامهم هذا ٠

وهذا الكلام يستفاد منه ابطال العادات الجاهلية فى الحج كطواف غير قريش عرايا ، وقريش تمتاز بأن يطوف حجاجها لابسين ٠

ولقد قسم الحافظ ابن كثير الحجيج من المشركين الى قسمين من لهم عهد ، فانه يلتزم بعهده الى نهاية مدته ، ومن ليس له عهد يؤجل الى أربعة أشهر ٠

وهذا التأجيل ، والغاء العهد ثبت بقوله تعالى فى أول سورة براءة :

« براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتهم من المشركين ، فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ، واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين ، وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فان تبتم فهو خير لكم ، وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، الا الذين عاهدتم من المشركين ، ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا ، فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ، ان الله يحب المتقين ، فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث

وجدتموهم وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ، فان تابوا ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم » ٠

وان هذا النص الكريم فيه الوفاء بالعهد للذين أوفوا بعهودهم ، وأن من يكونون غير معاهدين ينتظرون أربعة أشهر ، حتى يصلوا الى مأمنهم فى بلادهم ٠

وليس معنى الوفاء لذوى العهد الذين عاهدوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يمكنوا من دخول البيت الحرام الا وهم باقون على شركهم ، فان الآية الكريمة صريحة فى المنع ، اذ قد تلونا قوله تعالى : « **يأيها الذين آمنوا انما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا** » ٠

وان التأجيل أربعة أشهر ، انما هو خاص بقتالهم وقتلهم ، فأعطوا مهلة أربعة أشهر ليصلوا الى مأمنهم ولا يؤخذوا على غرة ، وقد جاءوا حاجين طائفين فى زعمهم ٠

٦٩٦ ــ ونقف هنا وقفة قصيرة فى اختصاص أبى بكر وعلى فى هذه الحجة المباركة ٠

لقد اختص النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أبا بكر بأن تكون له امرة الحج ، ولما لاقاه على قال أبو بكر أمير أم مأمور ، فقال له بل مأمور ، هذا ما اختص به أبا بكر ، وان ذلك بلا ريب تشريف لأبى بكر ، واكبار لامرة الحج فى ذاتها ، واختص عليا بأن يكون المبلغ لنزول سورة براءة ، وفى أكثر الروايات أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى اختصاص على بتبليغ نزول سورة براءة « لا يؤدى عنى الا رجل من أهل بيتى » اذ ذلك بلا ريب اختصاص فيه تكريم ، وثقة كاملة من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وقد أخذ الشيعة الامامية وغيرهم ممن يجعلون عليا أولى بالخلافة من الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما ، قد أخذوا من هذا أن عليا أفضل أو أولى بالخلافة عنه عليه الصلاة والسلام منهما ، لأن الخلافة خلافة عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم يقوم بما كان يقوم به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فى أمر أمته ، ، ورياستها ، والقيام بحق التبليغ ، الذى هو أخص أوصاف الامامة الكبرى ، ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام : « لا يؤدى عنى الا رجل من أهل بيتى » فكون الخلافة لعلى كرم الله وجهه فى الجنة ، لأن الخلافة اداء لبعض أحكام النبوة ، أو لكلها ، وان كان لا نبى بعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

استدلوا بهذا ، وبقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عندما تركه فى المدينة المنورة ليقوم على أهله : « أنت منى بمنزلة هارون من موسى ، غير أنه لا نبى بعدى » ٠

فأخذوا من هذا الحديث أن لعلى عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم منزلة فوق منزلة غيره من الصحابة الأكرمين فاذا كان أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، وعمر الفاروق لهما فضل الصداقة ، فعلى بالنص له فضل الأخـوة ، والمشاركة بيد أنه ليس بنبى ، ولا يوحى اليه ، وان هذا يجعل عليا فى مكانة أعلى منهما ، وبنوا على ذلك أنه وصيه ، كما بنى الزيدية على هذا أنه أفضل من أبى بكر وعمر ، وان لم يكن وصيا ٠

واستدلوا ثالثا ـ بقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى غدير خم عند رجعته من حجة الوداع ، من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وان هذا يدل على أن الولاء لعلى ولاء للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ومعاداته معاداة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة غيره ، وهو بذلك أولى بالخلافة من غيره ، وهو أفضل من الشيخين وغيرهما ٠

ذلك ما قالوه ، وما اتفقوا عليه ، فقد اتفق الشيعة جميعا على فضـل على رضى الله عنه ، وأنه مقـدم على أبى بكر وعمـر ٠ وان اختلفوا فى ذلك كثيرا ٠

ونحن نقرر أن ما ساقوه يدل بلا ريب على فضل على أولا ، وعلى محبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثانيا ، وعلى أنه عليه الصلاة والسلام كان يعهد اليه بأشد المهام وثاقة بالدين ثالثا ٠

ولكنه لا يدل على أنه أولى بالخلافة من الشيخين رضى الله تعالى عنهما ، لأنه اذا كان قد أنابه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى تبليغ سورة براءة ، فقـد ولى أبا بكر رضى الله عنه ما هو أمس بالامرة والخـلافة ، وهو اقامة الحج ، كما اختاره لاقامة الصلاة ، وهى الامامة الصغرى ، وقد يكون ذلك ايذانا له بالامامة الكبرى كما جـرى على السـنة بعض الصحابة ، واختاره لأمر ديننا ، أفلا نختاره لأمر دنيانا ، وعلى ذلك لا نجد فى هذا أن يكون على أولى بغيره من الخلافة ٠

وأما الدليل الثانى ، وهو أنه قال له فى معرض توضيح السبب فى تركه وعـدم الذهاب معه فى غـزوة تبوك فهو بيان محبته له ولصحبته ، ردا على الاشاعة الكاذبة التى أشاعها المنافقون والمرجفون ، وهو أنه تركه استثقالا

لصحبته ، فكان لابد أن يظهر محبته ومنزلته عنده ، وهى أخوته له ، كما أن هارون أخو موسى ، ولذلك ازدياد فى القول بما يؤكد هذا المعنى ، اذ قال عليه الصلاة والسلام : غير أنه لا نبوة بعدى ، وان عليا كان أخا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى المؤاخاة التى عقدها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد بينا ذلك ، وذكرنا صحة الخبر ، ورددنا على ابن القيم فى موضعه ٠

وكونه أخاه ، وأبو بكر صديقه أبلغ ما تكون الصداقة ، فلا دليل فى هذا أيضا على أنه أحق بالخلافة ، وفوق ذلك ان الخلافة تحتاج الى الشورى اذ يقول الله تعالى : « **وأمرهم شورى بينهم** » ٠

فاذا كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد ذكر أخوة على ، وصداقة أبى بكر ، وتقديره لعمر ، فليس فى ذلك الزام ، ما دام أساس الأمر شورى المسلمين ٠

وأما الدليل الثالث ، وهو حديث غدير خم الذى يقول : من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، فقد بينا المناسبة التى قيل فيها هذا الحديث ، وهو رد الاشاعة الكاذبة ، ورد المنافقين أو من عندهم شبهة النفاق ، وبيان أنه لا يصح لمؤمن أن يبغض عليا ، لأنه اذا كان قد قتل كثيرا فهو فى سبيل الله ، وبأمر من الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فمن يبغضه لذلك ، انما يريد أن يحط من قدر الجهاد والمجاهدين ، واذا كانت النفس لا تحب من يكون سببا فى ازهاق نفس حبيب ، فالايمان يوجب ألا يظهر ذلك فى قول أو عمل ، وفوق ذلك فان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يوافقه فى أحكامه التى حكم بها ٠

وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولى كل مؤمن صادق الايمان ، كما قال تعالى : « **انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا** » فكل مؤمن ولى للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويصح أن يقال ذلك عن المؤمنين جميعا بأنهم أولياء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ومهما تكن قوة هذه الاستدلالات ، فانه من المؤكد ، أنها تدل على فضل محبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه ، وأنه يجب على كل مؤمن يحب الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يحبه ، لأنهما يحبانه كما جاء فى غزوة خيبر ، ولقد ذكرت ذلك عائشة رضى الله تعالى عنها ، فانه عندما بلغها مقتله ، وقفت على قبر الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم تقول : جئت أنعى حبيبك المرتضى ، وصفيك المجتبى ، وأحب أصحابك اليك ، جئت أنعى اليك على بن أبى طالب ٠

فعلى كرم الله وجهه هو الحبيب ابن الحبيب للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا كاف لرفع منزلته ، ومحبته ولعن كل من ينال منه ، أو يلعنه ٠

تنبيهان لابد منهما :

٦٩٧ — **التنبيه الأول :** نقف هنا وقفة قصيرة ننبه فيها الى أمر جدير بالتنبيه ، وهو أننا نقلنا عن الحافظ ابن كثير وغيره من رواة السيرة أن الذين ليس لهم عهد مقيد محدود يؤجلون أربعة أشهر حتى يبلغوا مأمنهم ، وانه بتتبعنا وتبصرنا للآيات الكريمة وجدنا أن هذه الأشهر الأربعة هى الأشهر الحرم ، لأنه ذكر بعد ذلك فى الآيات الكريمة ما يدل عليها ، فقد قال سبحانه بعد ذلك : « **فاذا انسلخ الأشهر الحرم ، فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد** » وان ذلك يبين أن الأشهر التى ذكرت فى قوله تعالى : « **فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر** » ذكرت غير معرفة ، ثم عرفت بعد ذلك بذكر أربعة الأشهر معرفة ، ومن المقررات النحوية أنه اذا أعيدت النكرة معرفة كان ذلك تعريفا لها ٠

وانا نرجح ذلك ، والله أعلم بمراده ٠

التنبيه الثانى : أنه قرر أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يريد الحج عقب غزوة تبوك ، ولكنه كره أن يحج مع المشركين ، اذ كان منهم من يحج عريانا وقد زادوا أمورا جاهلية على سنة ابراهيم عليه الصلاة والسلام فى الحج ، ولقد جاء ذلك فى تاريخ الحافظ بن كثير ، فقد قال عن مجاهد براءة من الله ورسوله الى أهل العهد خزاعة ومدلج ومن كان له عهد أو غيرهم ، فقفل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من تبوك حين فرغ ، فأراد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الحج ، ثم قال : انما يحضر المشركون ، فيطوفون عراة ، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك ، فأرسل أبا بكر وعليا رضى الله عنهما ، فطافا بالناس ٠٠٠ فآذنوا أصحاب العهد أن يؤمنوا أربعة أشهر متتاليات » ، وان هذا يدل على أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان على نية أن يحضر الحج ، ولكن عوقه عن ذلك أنه قدر أن سيحضر الحج المشركون ، ويطوفون على جاهليتهم عراة ، ويظهر انحرافهم عن سنة ابراهيم فى الحج ، فامتنع عن الحضور ، حتى لا يكون حضوره عليه الصلاة والسلام فيه نوع اقرار لعملهم ، ولم يمنعهم من الحج ، لأنه لم يعلمهم من قبل بأنه لا يجوز لهم أن يقربوا المسجد الحرام ، والحكمة الاسلامية فى الأحكام الا تنفذ الأحكام المانعة الا بعد العلم بها ٠

سورة براءة

٦٩٨ ـــ ان المتفق عليه أن أبا بكر رضى الله عنه ، ذهب بالناس يحج بهم ، وأن عليا رضى الله تعالى عنه ، ذهب حامل براءة يتلوها عليهم ٠

ويروى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عنـدما حملها عليا رضى الله تعالى عنه قال غلى : يا نبى الله تعالى : انى لست باللسن ولا بالخطيب ، فقال عليه الصلاة والسلام لابد لى أن أذهب بها أنا ، أو تذهب بها أنت ، قال على ان كان لابد فسأذهب بها أنا ، وقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « انطلق فان الله تعالى يثبت لسانك ، ويهدى قلبك ، ثم وضع يده على فيه ٠ فهذه دعوة أولى من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يثبت لسانه ويهدى قلبه ٠ والثانية كانت بعد ذلك عندما بعثه الى اليمن داعيا وقاضيا ٠

وبهذه الدعوة الطيبة الطاهرة المستجابة كان على كرم الله وجهه أخطب الناس بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

حمل على كرم الله وجهه فى الجنة ســورة براءة ، أهو حملها كلها ، وهى من طوال السور أم حمل الجـزء الأول منها الخاص بعهود المشركين ، ودخولهم البيت الحرام ٠

نقول فى الجواب عن ذلك ان عبارة ابن كثير فى رواياته تفيد أن الذى حمله على هو أول السورة الخاص بالمشركين ، ودخولهم البيت ، وعهودهم ، فقد جاء فيه عن محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا بعث رسول الله صـلى الله تعـالى عليه وسلم أبا بكر أميرا عـلى الموسم سـنة تسع ، وبعث على ابن أبى طالب بثلاثين أو أربعين آية من براءة فقرأها على الناس ، يؤجل المشركين أربعة أشهر ٠

وان هذه الرواية تدل على أنها لم تكن قد نزلت كلها ، أو حملت كلها ، بل حمـل منها ثلاثون آية تنتهى بقوله تعـالى عن أهل الكتاب : « **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم** » ، أو أربعون آية تنتهى بقوله تعـالى : « **انفـروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله** » ٠

هذا ما رواه ابن كثير ، أما ما ذكره ابن اسحاق فان ظاهره أن السورة كلها نزلت عقب تبوك وحملها على بن أبى طالب ليتلوها على الناس ، ويبين ما يتعلق بالحج ٠

ويقـول فى ذلك ابن اسحاق : نزلت براءة فى نقض ما بين رسـول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبين المشركين من العهد الذى كانوا عليه فيما بينه وبينهم ألا يصد عن البيت أحد جاءه ، ولا يخاف أحد فى الشهر الحرام · وكان ذلك عهدا على ما بينه وبين الناس من أهل الشرك ، وكانت بين ذلك عهـود بين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وبين قبائل العرب خصـائص الى آجال مسماة فنزلت فيه ، وفيمن تخلف من المنافقين عنه فى غزوة تبوك ، وفى قول من قال منهم ، فكشف الله تعالى فيها سرائر أقوام كانوا يستخفون بغير ما يظهرون ، وظاهر هذا الكلام أن سورة براءة كلها نزلت عقب غزوة تبوك ، وان نصوصها السامية كلها تؤكد هذا المعنى وتوضحه ، فهى كما رأينا عنـد الدعوة اليها تتبين فيها حال الناس مؤمنهم ومنافقهم فى هذه الغزوة عندما حال النبى صـلى الله تعـالى عليه وسـلم اليها ، وحال المخلفين ، وأعـذار المستضعفين ، وما ينبغى أن يكون بالنسبة للجهاد ·

واننا اذا تركنا ظواهر هذه الرواية فانا نقول : انها نزلت كلها عقب غزوة تبوك ، ولكن لم يحمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عليا ، الا ببعض من أولها ـ الـذى فيه منع المشركين من البيت الحـرام ، وصدهم عنه ، لأنه لا يعمر مسـاجد الله الا من آمن بالله واليـوم الآخـر ، وذلك ما صرح به ابن اسحاق امام السيرة ، فقد قال رضى الله عنه ، ولأن ذلك كان يشـتمل على ما كلف عليا أن يبلغه ، وهى الأمور التى ذكرناها آنفا ·

وعبارات ابن اسحاق بعد تعميمه الأول تفيد تخصيصا بأول سـورة براءة ·

فقد قال : « دعا عليه الصلاة والسلام على بن أبى طالب رضوان الله تعالى عليه ، فقال له اخرج بهذه القصة من صدر براءة ، وأذن فى الناس يوم النحر اذا اجتمعوا بمنى ، أنه لا يدخل الكعبة المشرفة كافر ولا يحج بعـد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عهد ، فهو الى مدته ·

وهذا النص يدل على أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حمله صـدر سورة براءة ، ولم يحمله السورة كلها ·

ما اشتملت عليه سـورة براءة :

٦٩٩ ـــ وان الروايات كلها ، قد نزلت بعد غزوة تبوك ، ولذا تعـد من أواخر السور نزولا ، وظاهر الروايات أنها نزلت دفعة واحـدة ، وان ما

اشتملت عليه يدل على أنها نزلت بعد غزوة تبوك ، ففيها أخبار المتخلفين والمعتذرين ، ومن ليس عليه حرج ، وانها اذا كانت قد ابتدأت بذكر عهود المشركين ، وتحريم دخوله على غير الذين يؤمنون بالله وأنه واحد أحد ، لا شريك له ٠

قد توسطتها أخبار المخذلين والمنافقين ، وما يجب أن يكون عليه المجاهدون ، والدعوة الى استمرار الجهاد فانه ماض الى يوم القيامة ، وتركه ذل ، أو يؤدى اليه ٠

لقد ابتدأت السورة الكريمة بذكر منع المشركين من البيت الحرام ، ووجوب قتالهم ، ونبذ عهودهم اليهم ، وأن العهد واجب الوفاء بشروط ثلاثة ألا ينقص المعاهد من التزاماته ، وألا يظاهر على المؤمنين ، وألا يكون مخالفا للقواعد المقررة فى القرآن الكريم ٠

وجاءت بعد ذلك ببيان جهاد المشركين فى الأرض العربية ، بشرط ألا ينتهكوا حرمة من الحرمات ، كحرمة الشهر الحرام ، وأن الدماء يحميها العهد اذا استقام المعاهد ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، ويحميها الأمان والجوار : « **وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه** » ٠

وقد بين سبحانه وتعالى ضلال الشرك ، وأنه لا يصح لهم أن يشفعوا لأنفسهم بأنهم تولوا عمارة البيت وتولوا سدانته وسقايته ، فان الايمان بالله تعالى هو الأول ، ولا يمكن أن يكون هذا كذلك وأن لهم فضلا فى العمارة ان آمنوا بالله واليوم الآخر ، « **انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر** » ٠

واذا كانت عمارة المسجد لا تعادل الايمان بالله واليوم الآخر ، وأن عمارة المساجد لا ثواب لها مع الكفر فانه لا يمكن أن يكون للمشركين مآثر فى أى عمارة ، لأن ما يفعله المشرك من خير هباء لا أثر له ، اذ يكون كمثل وابل من المطر أصاب أرض قوم ، فنزل على أحجار لا تنبت ، ولم ينزل على ماينبت٠

ولذلك كان الواجب جهاد المشركين ، ولأنهم لا يؤمنون بشىء لا عهد له ولاذمة ، وليس لمؤمن أن يرقب فيهم الا ولاذمة ، « **لاترقبوا فيهم الا ولا ذمة** » ٠

ولا طريق الا الجهاد ، وان الجهاد يوجب أن يكون كله لله تعالى لا يؤثر عليه أحدا من مال أو زوج أو ولد ، أو راحة ، فاذا كان الجهاد قوة بشرية ونفسية ، أو تقديما للنفس والمال ، فهو تجرد روحى ، وخصوصى لله تعالى ،

وصدق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذ يقول : « لكل أمة رهبانية ، ورهبانية أمتى فى الجهاد » ، ولذلك أمر الله تعالى عند البدء فى الكلام فى الجهاد بعد أن بين أن المشركين يصدون عن سبيل الله ويعادون المؤمنين ، وينتهزون فرصة لينقضوا ، قال تعالت كلماته ·

« قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله ، فتربصوا ، حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » ·

وذكرهم سبحانه وتعالى بأن الكثرة ، وقوة العدة لا تغنى عن الاتجاه الى الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم شيئا ، ثم ذكرهم بموقعة حنين ، اذ لم تغن شيئا ، اذ لم يكن الاتجاه الى الله من الجيش كله كاملا ، وان كان كاملا كل الكمال فى بعضه كأولئك الذين ناداهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد اشتدت الشديدة ، وكثر الفرار ، وقل الاقدام ، حتى كان المجاهدون الأبدال الذين بدلوا بالهزيمة نصرا ، وبالفرار اقداما ·

وكان الجهاد فى هذا الموضع تتميما للكلام فى البيت ، وبيان أنه لا يحميه الا الجهاد فهو الذى يمنع دخول المشركين ، ولذلك ختم آيات البيت الحرام بقوله تعالت كلماته : **« يأيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ، ان الله عليم حكيم »** ·

٧٠٠ — وقد بين الله سبحانه وتعالى معاملة أهل الكتاب من الكفار ، بأنه لا يجوز لأهل الايمان السكوت عن دعوتهم ، وان كانوا فى الجزيرة العربية أهون على أهل الايمان من المشركين الذين اذ كانوا أقل خطرا وعددا ، وان كان اليهود شرا فى أنفسهم ·

ولقد أمر سبحانه وتعالى فى سورة التوبة أن يقاتلوهم ، فقال الله تعالى : **« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »** ·

وبين سبحانه فى السورة حالهم من اتخاذهم المسيح الها ، واتخاذ اليهود عزيرا الها ، وانهم بذلك يضاهئون قول المشركين فى اتخاذهم الأوثان ، فان الشرك كما يكون بعبادة الأوثان يكون بعبادة الأشخاص ·

وذكر سبحانه وتعالى العماد الذى قام عليه انحـراف الذين قالوا انا نصارى عن الوحدانية ، وهو أن قام الأحبار والرهبان بين المسيحيين ، وبين ادراك الحقائق المسيحية ، فقد اتخذ الأحبار والرهبان أربابا ثم ذكر ما كان عليه الأحبار والرهبان ، فقال الله تعالى : « **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا ، لا الـه الا هو سبحانه عما يشركون ، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهـره على الـدين كله ولو كره المشركون ، يأيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصـدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون** » ٠

وان الله تعالى اذ بين وجوب الجهاد لكل من يعتدى على الحق ويعاند أهله ، وينابزهم على سواء ، بين سبحانه أن الأشهر الحرم القتال فيها حرام فذكر السنة فى التقويم المتصل بالقمر والشمس والأشهر الحرم منها ٠ فقال تعالى : « **ان عدة الشـهور عند الله اثنا عشر شـهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حـرم ، ذلك الـدين القيم ، فلا تظلموا فيهن انفسكم ، وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين انما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ، ويحـرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، زين لهم سوء أعمالهم ، والله لا يهدى القوم الكافرين** » ٠

غزوة تبوك فى سورة براءة :

١٠٧ ـــ قلنا ان سورة براءة من آخـر السـور نزولا ، ويبـدو من سياقها كما قلنا أنها نزلت دفعة واحـدة ، لمناسـبة ما كان من العهود فيها ابتداء وما كان من عمل المنافقين ، ولمناسبة تطهير البيت من رجس الجاهلية ومنع المشركين من دخوله ، ولكن الشطر الأكبر منها كان يتعلق بغزوة تبوك التى كانت آخر غزوات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وقد امتازت هذه الغزوة أنها كانت بعد أن أوشك الاسلام أن يعم البلاد العربية أو عمها ، وأنها كانت وقد خفض العرب الذين كانوا يتاخمون الفرس والرومان من نفوذهم ، ورضوا بالاسلام دينا ، وخلصوا بذلك من ربق الفرس والرومان واعتزوا بعزة الاسلام ٠

وامتازت أيضا هذه الغـزوة بأن ظهر التخـاذل فى أولها ، حتى كان التثاقل ، وبث الظنون فى المسلمين من المنافقين ، وضعاف الايمان ، ثم فيها بيان حال الذين ينتحلون الأعذار ولا عذر لهم ، وحال الذين يسـتأذنون فى التخلف ، فيؤذن لهم أو لا يؤذن ، وفيها عمل التخذيل فى جيوش الحق من أين تجىء ، والى أين تتجه ٠

واذا كانت غزوة تبوك آخر الغزوات المحمدية ففيهـا العبر التى توجب على كل جيش أن يتعرفها ، ويأخذ بعظاتها ، حتى يكون الجيش الاسـلامى قويا ، قد تجنب أسباب الخور وأسباب التردد والهزيمة ، وان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد قبضه الله تعالى بعد سـنة من وقوع هـذه الغزوة التى لم يكن فيها حرب ، ولكن كان فيها عظات تعرف كيف تتقى أسـباب الهزيمة والتخاذل ، والآفات التى تعترى الجيوش من أهل التردد والنفاق ، وما يحدثه من تخاذل ٠

وقد كانت سورة براءة وعاء هذه التجارب النبوية فى تلك الغزوة التى لم تشتمل على قتال ، ولكن كشفت فيها النفوس كشفا ، وابتلى فيها المؤمنون بالنفاق ، والتثاقل ودعاة الخذلان ، وكيف عالج محمد صلى الله تعالى عليه وسلم تلك الأحوال بهداية ربه ٠

واذا كان الجهاد ماضيا الى يوم القيامة ، فقـد كانت سـورة براءة تصويرا للآفات التى تعترى الجيوش فى تكوينها ، وفى سيرها ، وفى الاتجاه الى غايتها من غير التواء ٠

ولقد بينت نفوس المترددين ، وعدم ايمانهم بالحق الذى يؤيدونه ، وفيها بيان للمجاهدين المعتز بهم وأول الآفات عـدم العزيمة الموجهة المـدافعة ، والتثاقل عندما يحق الجهاد ، وقد قال تعالى فى ذلك : « **يأيها الذين آمنـوا مالكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الأرض ، أرضيتم بالحيـاة الدنيا من الآخـرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة الا قليل ، الا تنفـروا يعذبكم عذابا أليما ، ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شىء قدير ، الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا ، فانزل الله سـكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم ، انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا باموالكم وانفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون** » ٠

وتستمر الآيات الكريمة السامية فى بث الهمم ودفع العزائم ، لأن تكوين

الجيش يكون بايجاد دفعة قوية عازمة ، والاستعداد لتحمل المكاره والوثوق بتأييد الله تعالى ان خلصت النيات ، واستحصدت العزائم ٠

ولقد بين سبحانه وتعالى بالاشارة السبب فى تثاقل حركتهم وهو توقع المشقة ، وان توقع المشقة يجب أن يكون فى تقدير المجاهد ، وعزمه الحديد ٠

وبين سبحانه وتعالى أن الخور يعترى النفوس ويخلق المعاذير للاستئذان فى التخلف ، ولا يستأذنك مؤمن « **انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون** » ٠

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن المنافقين والمترددين يثيرون روح الضعف والهزيمة « **لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين** » ٠

وقد كشف الله نفوس أولئك المخذلين من أهل التردد وضعاف المؤمنين ، وبين ما تنطوى عليه نفوس المنافقين من أنهم يتمنون الهزيمة للمؤمنين ٠ « **ان تصبك حسنة تسؤهم وان تصبك مصيبة يقولوا قد اخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ، قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون** » ٠

وقد كان منهم من يؤثر أن ينفق فى الجيش فرارا من أن يكون فى ضمن المجاهدين ، فبين الله تعالى أنه لن تقبل نفقاتهم ، لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم الا أنهم كفروا بالله وبرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ، ولا ينفقون الا وهم كارهون ٠

لمز المنافقين فى الصدقات وغيرها :

٧٠٢ — النفاق هو داء الجماعات فى السلم وفى الحرب ، ففى الحرب يخذلون ، ويبثون روح التردد ، والتشكيك فى الدعوة ، والدعوة الى الاثرة ، والجهاد ايثار ، والى الحرص ، والجهاد فداء ، والى متع الدنيا ، والجهاد رهبانية ايجابية ، يدفع الى الحياة العاملة المكافحة ٠

أما فى السلم ، فانهم يشككون فى تصرفات الأبرار المخلصين ، ليوهموا الناس ، أن كل الناس مثلهم ، ليس فيهم أخيار منزهون ، وأبرار متقون ٠

فهم يلمزون كل عمل صالح ، ويوهنونه ، ويثيرون الريب ، وان اتقاءهم بعدم السماع لهم ، فهم أثاروا القول حول الصدقات التى يوزعها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويقـول سبحانه وتعالى فى ذلك : « **ومنهم من يلمزك فى الصدقات ، فان أعطوا منها رضوا ، وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون ، ولو انهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا حسبنا الله سـيؤتينا الله من فضله ورسوله ، انا الى الله راغبون** » ٠

وقد بين الله تعالى للأمة كلها مصارف الصدقات ، حتى لا يمارى منافق وليطمئن كل مؤمن ، وقد وزعهـا سبحانه وتعالى توزيعا فيه التكافل الاجتماعى الكامل ٠

والمنافقون يؤذون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويؤذون كل داعية للخير ، لأنهم والخير نقيضان ، اذا كشف أمرهم لا يقولون كشف الله تعـالى سرهم ، بل يقولون ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، يسمع أخبارهم ، ويتعرف أسرارهم ، وأن له من يسعى عليهم ، ويقول سبحانه وتعالى فى ذلك :

« **ومنهم الذين يؤذون النبى ، ويقـولون هو اذن ، قل اذن خيـر لكم ، يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ، ورحمة للذين آمنوا منكم ، والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم** » ٠

والمنافق دائما كثير الحلف بالله لضعفه النفسى ، اذ النفاق منشؤه ضعف النفس لا مجرد ارادة النفع ، فهو يحلف لستر موقفه ، ولأنه مهين يريد رضا من ينافق معهم ، ويخشى أن ينفضح سره ، ويعرف أمره ٠

وانهم مع كفرهم ، وعدم اذعانهم للحق لفرط ضعفهم ، يخشون أن تنزل سورة تكشف حالهم « **يحذر المنافقـون أن تنزل عليهم سـورة تنبئهم بما فى قلوبهم ، قل استهزئوا ان الله مخرج ما تحذرون** » ٠

ومع هذا الهلع من أن يكشف سترهم يحادون الله ورسوله عليه الصلاة والسـلام ، ويستهزئون بآيات الله تعـالى ، ويتخـذونها فى مجامعهم هـزؤا وسخرية ، « **ولئن سألتهم ليقولن ، انما كنا نخوض ونلعب ، قل أبالله وآيـاته ورسوله كنتم تستهزئون** » ٠

والمنافقون أشرار قد استمكن الشر فى نفوسهم ، لأن الكتمان تفرخ فيه الرذائل ، والضوء يكشفها ، ولأن محاولتهم ستر أحوالهم ، يوقعهم فى رذائل مترادفة رذيلة بعد رذيلة وكل واحـدة تجر أختهـا ، حتى يستمرئوا الشر ، ويكون ديدنهم ، ويختم الله على قلوبهم فلا يصـل اليه خير ، ولا ينضـج منه

ومن اللسان الا الشر ، ولذلك قال الله تعالى : « **المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر ، وينهون عن المعروف ، ويقبضون أيديهم نسوا الله ، فنسيهم ، ان المنافقين هم الفاسقون** » ٠

وقد بين سبحانه وتعالى عقابهم ، وأنه عقاب الذين من قبلهم ، وكانوا أشد قوة ، واستمتعوا بالشر ، ونالوا من الدنيا ، وخاضوا فى أهل الايمان مثل الذى خاضوا ٠

ويضرب الله تعالى الأمثال من قوم نوح ، وعاد وثمود ، وقوم ابراهيم ، وأصحاب مدين والمؤتفكة ، فان هؤلاء كفروا برسلهم ، وكان النفاق والمنافقون من ورائهم ، والنفاق غذاء الجحود ٠ اذ يدفع الجاهلين الى الكفر والعناد ٠

وفى مقابل ما توعد الله به المنافقين كان وعد الله تعالى للمؤمنين ٠

جهاد النفاق والكفــر :

٧٠٣ — اذا كان النفاق يفعل فى الجماعات ذلك الفعل ، فان جهاده يكون فى مرتبة جهاد الكفر ، بل يكون قبل جهاد الكفر ، وذلك لأن الكفــر لا يستغلظ سوقه الا بالنفاق ، والمنافقين هم الذين يفسدون العقول فيصورون الحسن قبيحا ، والقبيح حسنا ، ولذا أمر الله تعالى نبيه الكريم ، وأمته فقال تعالى : « **يايها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ، وماواهم جهنم وبئس المصــير** » ٠

ويبين سبحانه وتعالى ما يفعله المنافقون فى الجمــاعات الاســلامية ، ووجوب جهادهم ، وذلك الجهاد يكون بألا يسمع لقولهم ، ولو كانوا يحلفون ، فذلك دأبهم يقولون وينكرون ما يقولون ، ويحلفون أنهم ما قالوا ومن جهادهم أن يكشف أمرهم ، ومن جهادهم أن يحذر منهم ، ومن جهادهم ألا نخــوض فى خوضهم ، ومن جهادهم ألا نمكنهم من الجماعات الاسلامية ٠

وقد ذكر سبحانه أمارات النفاق أو بعضها ، **وأولها** الكذب ، **وثانيها** نقض العهد ، والشح على الخير ، ويقول سبحانه « **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ، ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ، فاعقبهم نفــاقا فى قلــوبهم الى يوم يلقونه بما اخلفــوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون** » ٠

أى أنهم فى نفاق مستمر ، نافقوا عندما أعطوا العهد ، ولما اختلفوا زاد

نفاقهم بسبب أنهم يكذبون ، ويكذبون على الله سبحانه وتعالى ، وهو يعلم سرهم وما يتجاوبون به بينهم ، وان المرء اذا سار فى الشر أوغل فيه ، وكلما سار زاد فسادا ٠

وانهم لا يكتفون بأن يشحوا على الخير ، بل يتجاوزون ذلك الى أن يلمزوا فى القول موهنين شأن الذين يتصدقون الصدقات المفروضة ، ويتطوعون بأكثر مما فرض ، وهكذا يكون أهل الخير فريسة ، أهل النفاق يصغرون أعمالهم ، ويهجنون ما يكون منهم ، ويستضحكون من أعمالهم ٠ ولكن ، « **فليضحكوا ، قليلا ، وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون** » ٠

والنبى عليه الصلاة والسلام يغضى عن سيئاتهم ، ويستغفر لهم رجاء أن يهديهم الله ، فيبين الله تعالى لنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم ، أن النفاق اذا استمكن فى النفس ، غلق باب الهداية ، وكان حجابا كثيفا لا يصل اليه النور قط : « **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، ان تستغفر لهم سبعين مرة ، فلن يغفر الله لهم ، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ، والله لا يهدى القوم الفاسقين** » ٠

وان من جهاد النفاق أن يحتاط النبى صلى الله عليه وسلم والمخلصون للجيش الاسلامى ، فلا يمكنوا أحدا من المنافقين من الدخول فيه ، لأنهم يلقون فيه بروح الهزيمة والفشل ، ولذلك قال سبحانه :

« **فان رجعك الله الى طائفة منهم ، فاستأذنوك للخروج ، فقل لن تخرجوا معى أبدا ، ولن تقاتلوا معى عدوا ، انكم رضيتهم بالقعود أول مرة ، فاقعدوا مع الخالفين** » ٠

هذا أمر قاطع لخير خلق الله تعالى فى هذا الوجود الانسانى ، وقد أمر سبحانه كشفا لأمرهم وجزاء لهم بما ارتكبوا فى الدنيا ، بمنع الصلاة عليهم ، فقال تعالى : « **ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ، ولا تقم على قبره ، انهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا وهم فاسقون** » ٠

وقد بين سبحانه وتعالى أن الرضا بالشر ، اذا توالى طبع الله تعالى على قلب صاحبه ، فأصبح غير قابل : لأن ينفذ نور الايمان اليه ، ولذلك قال تعالى : « **رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وطبع على قلوبهم ؛ فهم لايفقهون** » ٠

وقد ذكر سبحانه وتعالى من بعد ذلك جهاد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والذين جاهدوا معه ، فبين أن لهم الخيرات ، وأنهم الفائزون ، وأنه سبحانه أعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ٠

أعـذار النفاق :

٤٠٧ — أعذار النفـاق دائما واهيــة ، لأنه لا عــذر لهم ، فهم ينتحلونها ، وكان النفاق ابتداء فى المدينة المنورة عندما دخلها الاسلام ، ووجد نفاق فى الأعراب عندما عم الاسلام ، فهــو يتسع باتساع عموم الاســلام وشموله ، لأن النفاق يكون اذا كان كفر مع وجود قـوة للحق ، ولم يخرج الأعراب الذين كانوا يحيطون بالرومان لم يخرجوا كلهم للحرب فى تبوك ، ولذلك قال تعالى : « **وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ، سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم** » ٠

وقد بين الله سبحانه وتعالى الأعذار التى من شأنها أن تقبل ، والأعذار التى لا يمكن أن تقبل ، وبذلك يتميز العذر الحقيقى عن أعذار المنافقين التى لم يكن لها مسوغ ، فقال تعالت كلماته : « **ليس على الضعفاء ولا على المرضى، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ، اذا نصحوا لله ورسوله ، ما عـلى المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم ، وعلى الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجــد ما أحملكم عليــه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حـزنا ألا يجـدوا ما ينفقون** » ٠

هؤلاء هم الذين يكون لهم عذر ، ولا يؤاخذون فى التخلف ، وهم الذين فيهم ضعف فى القوة ، أو فى المال بألا يجدوا ما ينفقون منه ، ولا يكون مع الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ما يعينهم به ٠

أما غير ذلك فلا يعد عذرا ، ولكن يعد تخلفا وقعــودا فى وقت يجب أن تتضافر فيه القوى كلها وتجمع الجموع دائما وقد أخرج الى التجمع من التقدم للرومان الذين تعد جيوشهم بمئات الألوف لا بالعشرات منها ٠

ولذلك ذكر سبحانه وتعالى أنه لا تقبل منهم أعذار ، وانما عليهم السبيل، فهم مسئولون عن تقاعدهم ، وهو يدل على أن الايمان لم يدخل قلوبهم ٠

وقد أشرنا الى أن النفاق لم يكن من الخـزرج الـذين كانوا بالمدينــة المنورة ، بل كان منهم ، وكان من الأعراب الذين دخلوا فى الاسلام ، ولما يدخل الايمان قلوبهم ، وكانوا فى مجموعهم أميل الى الكفر ٠ وان كان فى بعضهم ايمان ، وقد قسمهم الله سبحانه وتعالى الى ثلاثة أقسام :

أولها : قسم لم يدخلوا فى الاسلام بقلوبهم ، وان خضعوا له بأبدانهم ٠ وأظهروا الطاعة ، وقد قال تعالى فيهم : « **الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم** » ٠

وأولئك علموا الاسلام ممن هم فى باطن الصحراء وحول المدينة المنورة وخضعوا ولم يستجيبوا لداعى الايمان ، وذلك لأنهم حديثو عهد بالدخول ، ولأنهم خضعوا للقوة ، وحيثما كان الخضوع للقوة كان النفاق والكفر ٠

والقسم الثانى : دخلوا فى الاسلام ، كما يدل ظاهر القرآن الكريم ، ولكنهم برموا بالصدقات ، وعدوها مغرما ، ولم يعدوها مغنما ، وهؤلاء ، ان كانوا مسلمين يعدون من ضعفاء الايمان ، وهذا القسم قال تعالى فيه : « **ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ، ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء ، والله سميع عليم** » ٠

والقسم الثالث : المؤمن الصادق فى ايمانه ، المتعرف لأحكامه ، « **ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ٠ ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول** صلى الله عليه وسلم ، **ألا انها قربة لهم ، سيدخلهم الله فى رحمته ، ان الله غفور رحيم** » وهؤلاء هم الذين أشربوا حب الايمان ٠

وقد ذكر سبحانه وتعالى أن النفاق فى داخل المدينة المنورة ، وقد علم أمر الكثيرين منهم ، وأحوالهم ، وكادوا يعرفون باستخفافهم « **ولتعرفنهم فى لحن القول** » ٠

وذكر سبحانه وتعالى أن النفاق من الأعراب حول المدينة المنورة ، ولقد ذكر الاثنين ، فقال سبحانه : « **وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم** » ٠

ما بين الايمان والضعف والنفاق :

٧٠٥ — ان الايمان فى قوة تدفع فيعمل ، فأولئك هم المهاجرون والأنصار ومن اتبعوهم باحسان ، والضعف تردد وقد يتجه الى الله تعالى فيعترف بتقصيره أو ذنبه ، فيكون منه الندم ، ورجاء الخير ، وقد ذكرهم سبحانه وتعالى بقوله : « **وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا ، وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهم** » وهؤلاء تطهر بعضهم التوبة والصدقات ولذلك قال تعالى : « **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم ، وتزكيهم بها** » وذلك لأن الصدقة تطفىء المعصية ، كما يطفىء الماء النار ٠

وأولئك الذين لم يعترفوا بذنبهم ، فى التخلف عن القتال من غير معذرة هؤلاء مرجئون الى رحمة الله تعالى اما أن يعترفوا ، ويتوبوا كاخوانهم ممن تخلفوا من غير معذرة صحيحة تسوغ التخلف ، واما أن يستمروا فى غيهم

يعمهون ، وهؤلاء يعذبهم الله بذنوبهم ، ولقد قال الله تعالى : « **وآخرون مرجون لأمر الله اما يعذبهم ، واما يتوب عليهم ، والله عليم حكيم** » ·

ولقد ذكر سبحانه من بعد ذلك أن المنافقين فى المدينة المنورة الذين مردوا على النفاق لم يكتفوا بالقعود عن الجهاد · وتثبيط المؤمنين عنه ، بل تعدوا وارادوا التفريق بين المؤمنين ، فانشأوا مسجدا لا ليقيموا فيه الصلوات ، بل ليكون وكرا لهم ، وليجروا فيه خياناتهم ، واتصالاتهم بأعداء الاسلام من الرومان ، وليفرقوا بين المؤمنين ، وسمى هذا المسجد مسجد الضرار ، ولقد قال الله تعالى فى مسجدهم هذا وفيهم : « **والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين ، وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن ان أردنا الا الحسنى ، والله يشهد انهم لكاذبون ، لا تقم فيه أبدا ، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ، أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ، فانهار به فى نار جهنم ، والله لا يهدى القوم الظالمين ، لايزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم** » ·

هذا شأن المنافقين ، وذلك شأن ضعفاء الايمان · أما شأن المؤمنين ، فانهم قد باعوا أنفسهم لله تعالى وأموالهم ، فيقتلون ويقتلون وينفقون غير مدخرين نفسا ولا مالا فى سبيل الله تعالى ولقد وصفهم الله أكرم وصف ، فقال تعالى : « **التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون ، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين** » · ووصفهم بالسائحين هنا يراد به المجاهدون الذين يضربون فى الأرض جهادا فى سبيل الله سبحانه وتعالى ، ولقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم (سياحة أمتى فى الجهاد) ·

وبين سبحانه من بعد أن العمل الصالح هو الذى يرفع الى الله تعالى لا القرابة : « **ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ، ولو كانوا اولى قربى من بعد ما تبين لهم انهم اصحاب الجحيم ، وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه** » ومع ذلك لم يغفر الله تعالى لأبى ابراهيم ·

وان من المؤمنين ناسا تخلفوا ، وأحسوا أنهم ارتكبوا كبرا ، وما أبدوا معذرة ، لأنهم لا يريدون أن يكذبوا على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، حتى لا يرتكبوا جريمتين : جريمة التخلف والكذب على الله · وأولئك لابد أن يتطهروا . تقاطعهم المؤمنون تربية لنفوسهم ، وتزكية لقلوبهم ، وقد ذكرنا

أمرهم فى قصة غزوة تبوك ، فرضوا أن يعذبوا بالهجران عن أن يكذبوا على الله ورسوله ، حتى تاب الله تعالى عليهم : « **وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حتى اذا ضاقت عليهم الأرض ، بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم** » ٠

وبعد ذلك التقسيم الحكيم ، والخير العظيم ذكر سبحانه ما كان واجبا على المؤمنين والأعراب ، فقال تعالى : « **ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ، ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا ، الا كتب لهم به عمل صالح ، ان الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون واديا الا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون** » ٠

وقد أشار سبحانه وتعالى الى الوفود ، الذين يجيئون ليتعلموا من المسلمين فذكر سبحانه وتعالى أنه ليس للمؤمنين جميعا أن ينفروا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد جاءت الوفود ، كما أشرنا فى السنة التاسعة والعاشرة ، حتى قبض صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولقى الرفيق الأعلى ، فقال تعالى : « **وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون** » ٠

ثم ذكر سبحانه وتعالى وجوب الجهاد فى ختام السورة ، كما أوجبه فى أولها فقال تعالى :

« **ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين** » ٠

بعض ما فى سورة براءة من حكم وعبر

٧٠٦ — نزلت سورة براءة عند حج الصديق رضى الله تعالى عنه ، وعقب غزوة تبوك ، ويلاحظ أنه أول حج تولى امرته مؤمن من المؤمنين ، ونفذ فيه مناسك الحج على مقتضى حكم الاسلام ، وقد حطمت الأصنام ، فكان الحج اسلاميا بالنسبة للمسلمين ، ولكن المشركين كانوا يسيرون على ما كانوا عليه ، ولم يمنعوا ، لأنه لم يكن قد جاء الأمر بمنعهم ، والاسلام لا يطبق الا ما ينزل به الوحى ، ولم يكن قد نزل الوحى بهذا المنع ٠ ولكن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم امتنع عن أن يتولى بنفسه القيام بالحق ، حتى لا يكون فى ذلك اقرار لما يفعلون ، فأناب أبا بكر عنه ٠

ولما كانت هذه السورة مبينة لمنع المشركين من الحج ، لأن هـذا الحج أول حج اسلامى ، وان رنق بفعل أهل الجاهلية وكانت مشتملة على أول المنع ، وكانت هذه السورة بعد آخر غزوة غزاها النبى صلى الله عليه وسلم وقـد اشتملت على منع المشركين أن يدخلوا المسجد بعد عامهم هذا ـ اشتملت على ما يجب لحفظ الجيوش الاسلامية وحمايتها ، والحذر من الدخلاء فيهـا ، وكانت غزوة تبوك التى أخذت منها العبرة ٠

واشتملت السورة على ما يجب أن يتوقاه المؤمنون فى بناء جماعتهم ، وما يجب أن يتحلوا به من صفات ليتكون منهم بناء اجتماعى قوى ٠

وأول ما يستفاد منه هو التوقى من أهل النفاق فانهم العنصر المخرب فى بناء المجتمع ، ولا يمكن أن يتماسك مجتمع اذا ساده النفاق ، أو تحكم فيـه المنافقون ، ولذا أكثرت السورة الكريمة من ذكر النفاق وأحواله ، وأن أهله لا يلتئمـون مع مجتمعهم ، ولا ينـدمجون فى أهله ، بل يكونون بمنـأى عن شعوره ، وعما يحس به ، فهم يؤذون فضـلاءه ، ويستهزئون بفعل الخيـر ، ويخوضون فى شئون أهل الفضل والخير ، واذا قيل لهم فى ذلك ، قالوا انا نخوض ونلعب ، وان قلوبهم دائما تكون فى جانب ، والمجتمع يكون فى جانب آخر ٠

ولذلك وجب أن يكون الجيش خاليا من المنافقين ، فلا يخرجوا فيـه لأنهم يخذلون المجاهدين ، ويثبطون هممم ، ويتخذون من الضعفاء وأهل التردد والهزيمة فريسة ينفثون فيها سمومهم ، وانهم يتخـاذلون فى وقت الشـدة ، ويفرحون بما ينزل بأهل الحق من مصيبة تسوءهم ، فان تصبهم مصيبة يفرحوا بها ، وان تصبهم حسنة تسوءهم ٠

وان الضعفاء ان اعترفوا بذنوبهم ، وتابوا قبل الله سبحانه ، وان كانوا قد خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، فاذا كانوا قد أساءوا بالقعود ، فقـد أحسنوا بالاعتراف ومع الاعتراف الندم ومع الندم التوبة ، فهم لم يصروا على الشر ، وفرق بينهم وبين الذين انتحلوا أعـذارا ، وكـذبوا ، وحلفوا وهم يعلمون أنهم كاذبون ، وما قصدوا ارضاء الله ، بل قصدوا ارضاء العباد ، فلم يتوبوا ، وارتكبوا الشر وأصروا عليه اصرارا ٠

وانه اذا كانت التوبة الصادقة جبت ما قبلها ٠ وبينت السورة الكريمة أمورا ثلاثة تدخل فى بناء المجتمع الصالح ، واذا لم تكن تخرب ٠

أولها : أن الجهاد تجريد النفس عن أعلاق الدنيا ، وما يتعلق بالأحباب

والمحبوبات من الأشياء والمتع ، وأن المجاهد ان لم يتجرد ذلك التجرد ، فان على الأمة أن تتربص حينها ، وتذهب قوتها ، ان الأمة التى تريد الحياة يجب أن تتسربل سربال الجهاد ، وتستشعر حياته ، ولا جهاد مع الاثرة ، ولا جهاد مع التعلق بالحياة ، فان لم تفعل فانها تذل وتهون ، ويتحقق فناؤها فى غيرها ، وتعيش ذليلة مهينة ٠

ثانيها : أن النفاق كما أشرنا هو مقوض الجماعات يمنع توافر الثقة بين آحادها ، والثقة أساس بنيانها ، فما لم توجد الثقة لا توجد المحبة ، والمحبة هى الرباط الذى يربط بين الآحاد ، ويربط الجماعة ، ولا يقطع حبال المودة والمحبة الا أن يظن الانسان بأخيه شرا ولا يمكن أن يكون التئام بين الأمة اذا كان كل واحد يتظنن بأخيه ، والنفاق هو المادة التى بها تقطع الصلات ٠ ولذلك وصف الله تعالى المنافقين والكافرين بأنهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل وما أمر الله به أن يوصل هو المودة والمحبة والأخوة ، وان النفاق يفسد نفوس المنافقين ، فيأمرون بالمنكر ، وينهون عن المعروف ويفسدون الناس فتسرى عدواهم الى الضعفاء ويلقون بالفرقة بين الأقوياء وما ساد النفاق فى قوم الا تقطعوا فرقا ومزقوا مزقا ٠

ولقد بين القرآن الكريم صور النفاق فى هذه السورة بما لم يبين به فى سورة أخرى ، واذا كانت سورة (المنافقون الصغرى) قد بينت خلالا للمنافقين فى أطواء نفوسهم وانحرافاتهم ، ومعاملتهم فسورة براءة ، وقد أسميها سورة النفاق الكبرى قد بينت حالهم عندما تشتد الشديدة وعندما تكون الحرب وعندما تكون الأزمات ٠

وبينت أن النفاق قد يتجاوز العلاقات الانسانية الى مظاهر العبادات ، فهم ينشئون مسجدا يكون ملتقى لاجتماعاتهم المريبة ، ويبنونه ارصادا للاتصال بينهم وبين الرومان فى الشام ، فهو ارصاد لمن حارب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ويتظاهرون بأنه مسجد ، فيكشف الله سترهم ، ويكون فى التاريخ الاسلامى مسجد الضرار ٠

وانه يجب لكى تكون الجيوش مجتمعة القوى لابد أن تكون مجتمعة العزم ، وذلك بابعاد المنافقين وعدم دعوتهم فانهم يريدون الفتنة ، ويبتغونها والفتنة فى الجيوش طريق مؤكد لهزيمته ٠

الأمر الثالث : الذى ذكرته السورة الكريمة وأكدته ، أمر المترددين والضعفاء فى ايمانهم لا فى أبدانهم فان أولئك يجب أن يخلو الجيش منهم ، لأنهم يكونون العش الذى يفرخ فيه المنافقون ، ويبثون فيهم روح الفزع والخوف ، والفرار يوم الزحف ٠

وان أمر هؤلاء مرجأ ، عساهم أن يتوبوا ، ولكنهم لا يكونون فى جيش قوى يخط خطوط النصر ، وأخيرا ان سورة براءة درس حكيم للأمة المجاهدة وقد جعل سبحانه وتعالى من غزوة تبوك التى لم يحدث فيها قتال ، بل رجع المسلمون منها لم يلقوا كيدا ، قد جعلها تعالى درسا فى ذلك فكان التكوين انتقاء للأقوياء ومن تسلل فيه من الضعفاء وأهل النفاق كشف أمرهم ٠

وفى سورة براءة بيان حال الذين وصل اليهم الاسلام ، فاعتنقوه بحكم اتباع القوى ، لا بحكم الاقتناع كأولئك الأعراب الذين كانوا يتغلغلون فى البلاد العربية ، فدخلوا فى الاسلام ، ولما يدخل الايمان قلوبهم وبينت السورة الكريمة أن مظاهر الخضوع الكامل الزكاة ، فان دفعها من يدفعها مغرما ، سواء أكان الدفع طوعا أم كرها ، فهو ليس من أهل الايمان ، وان قدم الطاعة، وان دفعها قربات الى الله تعالى فانه يكون مؤمنا مخلصا لله تعالى وللجماعة الانسانية ٠

هذه كلمات موجزة فى حكمة نلتمسها فى نزول سورة براءة عقب غزوة تبوك ، وعند حج الصديق رضى الله تبارك وتعالى عنه بتأمير النبى صلى الله تعالى عليه وسلم له ، والله سبحانه وتعالى هو الحكيم الخبير ، لا يسأل عما يفعل ، وكلنا نسأل عما نفعل ، واذا تلمسنا الحكمة ٠ فانما نقرب الى الأفهام ولا نتعرف الأسباب فنحن نقارب ، ونطلب المعرفة من الله العلى الحكيم ٠

انتشار الدعوة الاسلامية

٧٠٧ — ابتدأ نور الاسلام فى قلوب تقبلت حقيقته ، كما تتقبل الأرض الطيبة النقية البذر الصالح ، والماء الذى يسقى ويغذى ، وكما يتقبل الأحياء ضياء الشمس ، فتهتدى بها فى الدجنة الحالكة ، فتقبله الضعفاء لأنهم وجدوا فيه المعاذ والملجأ والنور والبصر ، والهداية الى الحق فى وسط الظلمات المتكاثفة عليهم ، والظلم المرهق ، وتبعوه طائعين ، راضين ٠

وانه اذا كان الفقر قد أرهقهم فيه ظلم الظالمين ، فقد أعطاهم قوة احتمال للعذاب والأذى الذى نزل بهم ممن أظلمت نفوسهم ، وختم على قلوبهم ، ولعل الله سبحانه وتعالى يختار المؤمنين الأولين لكل نبى من هؤلاء الفقراء والعبيد ، لأنهم هم الذين لقوا الصدمة الأولى فيما نالوا من ألم الفقر فى حياتهم يتحملون ألم الأذى ، ويكونون نواة الاستجابة ، وكذلك كان الحواريون لعيسى عليه السلام ، فلم يكونوا من الأقوياء الأشراف ، بل كانوا من الصيادين والعشارين ، وغيرهم من الضعفاء ٠

ولقد كان الأقوياء الذين دخلوا فى الاسلام ابتداء عددا قليلا ، كأبى بكر وعثمان وحمزة بن عبد المطلب ثم عمر بن الخطاب ، وأبى عبيدة عامر ابن الجراح ، وغيرهم فى عدد قليل كانوا يداوون ندوب النفوس الفقيرة لتصبر ، وتصابر وليكونوا قوة نسبية هادية ٠

والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يؤذى فى نفسه ويتطامن ليكون الهادى الرشيد المرشد ، وليكون النذير العريان ، كما قال عن نفسه عليه الصلاة والسلام ، فلا سيطرة تفرض الدين والرأى ، كما قال تعالى : « **لست عليهم بمسيطر** » ٠

حتى اذا اشتد الطغيان ولم يعد فى قوس الصبر منزع ، وسمع مقالة الله تعالى لنوح : « **لن يؤمن من قومك الا من قد آمن** » واستيأس من ايمان أهله اتجه الى القبائل فى موسم الحج ، يعرض عليها دعوة الاسلام ، وأن ينصروه وأن يحموا دعوته من قومه ، فاستعد لاجابته من استعد ونفر منه من نفر ، ولكن قد بلغت دعوته القبائل كلها أو جلها ، ما بين منكر جاف ، وما بين موات مؤتلف راض غير مختلف ، والذين اختلفوا كان السبب الأكبر اختلاف قومه عليه ، فكانوا ينتظرون ولا يعادون استقلالا ، ولكن ربما يعادون تبعا وتقليدا لقريش أقوى قبائل العرب ، وأشدها نفوذا وسلطانا ٠

فما سوغت لغيرهم من الذين يتبعونهم أن يخالفونهم ، ولكن الله تعالى

هدى أهل يثرب ، فامنوا وبايعوا على النصرة والايواء ، وفتحوا الصدور للضعفاء وآووا ونصروا ٠

ولكن قريشا هى القوى ، وهى البعيدة النفوذ فى البلاد العربية قاصيها ودانيها ، وهى فى البيت الحرام الذى جعله الله تعالى مثابة للناس وأمنا ، وهو أول بيت للعبادة وضع للناس وهم الذين يتولون فتنة المؤمنين الذين آمنوا ، وهم الذين اضطهدوا محمدا صلى الله عليه وسلم وصحبه ، وهم الذين هموا بقتل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فكان حقا عليه الهجرة أن يحمى المؤمنين الذين لا يزالون فى مكة المكرمة ، فكان لابد أن ينازلهم بالحق كما اعتدوا عليه بالباطل ، وأن يمنعهم من الاسترسال فى الشر : « **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين** » ودفع الشر بمجازاة أهله ليس شرا بل خير كله ، وهو الخير القوى الغالب ، وليس الخير المستسلم الذليل ٠

وان الاسلام فضائله ايجابية ، وليست سلبية ، فضائله عاملة قوية ، وليست ضعيفة مستكينة فلابد اذن من المغالبة ٠

فكانت المقابلة وكانت الدعوة وبيان الحقائق الاسلامية والشرائع التى تبنى بها المدينة الفاضلة ، وتقوم فيها الانسانية الكاملة وتكون مثلا ساميا ٠

كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى هذه الفترة المجاهدة ، يجاهد فى ميدانين متكاملين غير متنافرين يحارب أعداء الحق ، ليجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله تعالى هى العليا ، ويبث السرايا داعية الى الحق ، وفى يدها السيف لقمع الشر ، ان حال دون الحق حائل ، ويرسم الخطط للجيوش الاسلامية الهادية غير الباغية ٠

وان الغزوات الكبرى كانت من المشركين ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يدافع ، ولا يهاجم ، فالمدينة المنورة كانت مقصدهم ، والوقائع كانت على مقربة منها ، فغزوة بدر كانت على مقربة من المدينة المنورة ، وقد جاءت قريش بقضها وقضيضها ، نعم ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هم بأن يصادر عيرهم ، كما صادروا أموال المؤمنين ، ولكنهم هم الذين جاءوا بالجيش ليحاربوا ، وقد ردوا خاسرين ٠

ثم كانت غزوة أحد ، وقد جاءوا بها للثأر ، وأرادوا اقتلاع الاسلام من مأمنه ، وأصاب المسلمين جراح ، ولكنهم هم نكصوا على أعقابهم لم ينالوا خيرا ، وان جرحوا ٠

ثم لما عجزت قريش أن تنال من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وحدها

جمعت الجموع ، وحزبت الأحزاب من البلاد العربية ، وذهبوا لازالة المدينة المنورة والاسلام ، ولكن هزموا بالريح والرعب فعادوا على أعقابهم خاسرين مذعورين ٠

هذا هو الميدان الأول لجهاد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، أما الميدان الثانى فهو تربية المؤمنين وتعليمهم أحكام الدين ، وبيان الشريعة الاسلامية ، وتنظيم المجتمع على أساس العدل والفضيلة ومكارم الأخلاق ، وهو ميدان الرسالة المحمدية ، وهو غايتها ومقصدها ، وما كان القتال الا لحماية الدعوة الاسلامية ، وتوصيلها للقلوب والمجتمعات ، الآحاد والجماعات ٠

وأنه فى أثناء اللقاءات الحربية كانت المبادىء الاسلامية تسرى الى النفوس وسط صليل السيوف ، فكانت تصل الى القلوب ، والمقاتل متأثر بالمقاتل مأخوذ به ، وخصوصا اذا رأوا من خوارق العادات ، ما لا عهد لهم به ، لقد كانت غزوة الأحزاب من قبائل متفرقة ، ورأوا عيانا أن الهزيمة لم تكن بسيف ، ولا بقوى ٠ ولكن بريح عاصف اقتلع أخبيتهم ، وألقى الفزع والذعر فى نفوسهم ، وأمامهم رجل يقول انه رسول من عند الله سبحانه وتعالى ، فهلا يفتح ذلك قلوبا مغلقة ، وآذانا تستمع الى صوت الحق ، انهم لابد أن يعودوا الى أقوامهم ، ويذكروا لهم ما عاينوا أو شاهدوا ، وما رأوا بعين البصر ، وان ذلك لابد أن يصل شىء منه الى البصيرة ٠

ولقد كانت غزوة الخندق آخر الغزوات التى غزتها قريش للمدينة المنورة، وقد استيئسوا من بعد ذلك وعلموا أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم غير مخذول ، وأن أحجارهم التى لا تسمع ولا تبصر ، ولا تضر ولا تنفع ، ولا تغنى عنهم ، حتى أخذ بعض عقلائهم يدركون ما هم فيه من ضلال ، وأنه لابد لهم من أن يسمعوا صوت العقل والضمير ، وقد بدا ذلك فى بعض كبرائهم كما أشرنا ٠

الحديبية :

٣٤٥ ـــ كانت الحديبية خطوة للدعاية الى الاسلام من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقد ذهب الى مكة المكرمة بجيش عدته نحو خمسمائة وألف أو يزيدون ، وما ذهب ليقتلع مكة المكرمة ، كما كانوا يذهبون الى المدينة المنورة ، بل ذهب ليقيم شعائر الله تعالى ، ولتعظيم البيت ، وعلى الا يسألوه خطة فيها تعظيم البيت الا سلكها ٠

وقد تم عقد الاتفاق على مدة عشر سنين ، لا يقاتلهم ، وعلى أن يعود من عامه هذا ، وقد سمى الله تعالى ذلك فتحا مبينا ٠

وانه حقا كان فتحا للاسلام ، فقد لانت قلوب كانت مستعصية ، وتفتحت اذان كان فيها وقر عن سماع الحق ، فاذا كانت لم تفتح الا آجلا ، فقد فتحت القلوب نور هذه المدنية ، وكان من قريش أنفسهم من يتجه الى الاسلامويتعرف غاياته ، ومراميه ، وأنه الحق والعقل ، وملة ابراهيم عليه السلام والقبائل التى كانت ترى أمارات النبوة ، ولكن تنتظر قريشا ، ورأيها فى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ـ أخذت قلوبهم تصغى ، وأفئدتهم تتجه نحـــوه ، فأسلم الكثيرون ، وتهيأت للاسلام قلوب كثيرين ، ولما اتجه عليه الصلاة والسلام الى خيبر لاقتلاع اليهود من بلاد العرب ، كان العرب جميعا مناصرين ٠

وعندما اتجه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرومـان أحســوا بعزة العرب تغالب سلطان بنى الأصفر ، وقد كان أمرهم مرهوبا مخوفا ، قد استكان بعضهم له رهبا لا رغبا ، فلما رأوا محمـدا صلى الله عليـــه وسلم الهاشمى القرشى العربى يغزو بنى الأصفر ، أحسوا بعـــزة عربية لابد أن يكونوا معها ، واذا كانوا مع الروم فى بؤسهم فقد هداهم التفكير فى عزتهمالى الا يكونوا معهم فى تبوك ، وان ذلك بلا ريب يفتح قلوبهم لأن يدركوا الاسلام ، ويتدبروا فى أمره وغايته ، ورأوا أنه السبيل الوحيد لعزتهم ، ورفع نيرالرومان ونفوذهم ٠

ولقد ذكر كتاب السيرة أنه دخل فى الاسلام ما بين فتح مكة المكرمة وغـزوة الحديبية ناس كثيرون بلغـوا أضعاف ما دخـلوا من وقت البعث المحمدى ، الى الحديبية ، أى بلغ فى سنتين أضعاف أضعاف من دخل فيــه فى مدى تسع عشرة سنة ٠

ولما كان فتح مكة المكرمة ، ودخلت قريش فى الاسلام ، دخل فيه الذين يترددون وقد لانت قلوبهم ، لأنهم رأوا أهل مكة المكرمة ، الذين كان لهم مكان المتبوع يدخلون فدخلوا ٠

ولذلك جاءت الوفود تترى فى العام التاسع ، بعد أن فتحت فى رمضـــان من العام الثامن ، ولقد جاءت تلك الوفود مسلمة معلنة اسلامها ، تريد معرفة أحكام دينها ، وما يجب أن يقوم به المسلم ، وما يجوز له وما لا يجوز ٠

وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يرسل البعوث لتعليمهم ، ولتأديب الذين يحاولون ايذاء المؤمنين او العبث بالمقومات الدينية ، فكان أحيانا يرسل السرايا ، وأحيانا يرسل فقهاء الصحابة ، كمـا أرسل أبا موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل ، ولما أرسل خالد بن الوليد ، وهو القـائد المحـارب كان مكلفا أن يدعو الى الاسلام ، لا أن يجرد سيف القتـال ، ثم ارسل على بن أبى طالب عالم الصحابة ٠ فتولى تعليمهم ، وأخذهم بأحكام الاسلام ، ثم ولاه القضاء ،

فانفتق ذهنه بدعـوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونطق لسانه بالحكمة ، وفك عقدا من مشكلات القضاء وأقره النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وهكذا نرى أن البلاد العـربية ـ أهل الوبر وأهـل المدر ـ قد دخلهـا الاسلام ، وتقبله قلوب مؤمنة مذعنة ، وعلم أمره بعض الناس ، ولكن لم يدخل قلوبهم ، فأطـاعوا وخضعوا ، ولكن لم تؤمن قلوبهم ، وان علم الاسلام ، كان الاسلام كالغيث يصيب أرضا نقية فيمدها بالمزرع وتأتى بأطيب الثمـرات ، وكان يصيب أرضا تحفظ الماء ولا تنتفع به ، ولكنها تكون موردا لطـالبه ، وكان يصيب أرضا مجدبة لا تحفظه ليكون مصدر سقى ورعى ، ولا تنتفع به ٠

ولقد كان الناس بعد أن علموا الاسلام على هذه الأنواع الثـلاثة ، فكان منهم الذين آمنوا وأخلصوا دينهم لله تعالى ، وأولئك الذين كانوا فى المدينة المنورة ، وبعض مدائن البلاد العربية ، ورجال كانوا فى البادية ٠

ومنهم من علموا الاسلام وحفظوه ، ولكن لم يعملوا به ، وأطـاعوا ، ولكن لم تذعن قلوبهم ، ومنهم الذين مر عليهم الاسلام فعرفوا أن هناك دينا يحارب الوثنية ، ويدعو الى الوحدانية ، واحيـاء ديانة ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، ولكن التدين لم يكن موضع اهتمامهم ، فمر عليهم علم الاسـلام كما يمر الماء فى الميزاب يتحـدر ولا يبقى منـه شىء ، وأكثر هـؤلاء كان فى أعراب البادية ، ولهذا قال الله تعالى : « **الأعراب أشد كفـرا ونفاقا وأجدر الا يعلموا حدود ما أنزل الله** » ٠

ومهما تكن حال الذين علموا الاسلام ، ووصلتهم الدعـوة الاسـلامية كاملة ، فان التبليغ قد تم : وكمل العلم ٠ وما على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يدخل الهداية فى القلوب ، ولكن عليه أن يبلغ ، وينذر ويبشر كما قال تعالى : « **انما أنت منذر ولكل قوم هاد** » ان عليه أن يبين المورد العذب وعلى الناس أن يردوه ، فمن ورده استقى ، ومن لم يرده شقى ، وان النبى صـلى الله تعالى عليه وسلم ، أكمل رسالته فى أمرين :

أولهما : أن الشريعة نزلت عليه كاملة ، فأصولها كلها قد نزلت عليـه ، وعلمها أصحابه ليحمـلوا العبء كاملا من بعـده ، فبين أحـكام العبادات ، والزواجر الاجتماعية والعلاقات الانسانية فى معاملات بين الناس وعـلاقات بين الدولة الاسلامية وغيرها ، وأحكام الحروب الفاضلة ، وغير ذلك مما يسير بالانسانية فى طريق السلام والكمال ٠

وثانيهما : أبلغ الدعوة كاملة لقومه العرب ، ليكونوا المبلغين للنـاس كافة ، أو حماة هذا التبليغ ، ويتولى علماؤهم الدعـوة ٠ ويتولى سـائرهم حماية هذه الدعوة ، والله بكل شىء عليم ، وانه لم يبق بعد الكمال الا الوداع ٠

حجة الوداع

٧٠٩ — كانت حجة الوداع فى آخر التبليغ المحمدى ، اذ عم العلم بالدعوة الاسلامية البلاد العربية كلها ، وخرج نور الاسلام الى الشام ، فدخل فيه من العرب الذين كانوا يخضعون لحكم الرومان ، وسميت حجة الوداع ، لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم انتقل الى الرفيق الأعلى بعدها بأمد قصير ، ولأن العبارات فى خطبة الوداع كانت تفيد بأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا يلقاهم بعد عامهم هذا ، وسميت حجة البلاغ ٠ لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يذكر فى خطبتها عبارة التبليغ ، ونحن نرى أنها سميت حجة البلاغ ، لأنها خاتمة البلاغ الى البلاد العربية ، فعمهم العلم بالدعوة الاسلامية ، ودخلوا فى الاسلام وأشرب حبه فى قلوب بعضهم ، حتى صاروا مؤمنين ، وقدم بعضهم الطاعة له ولأحكامه ، ولما يدخل الايمان قلوبهم ٠

وقد حمل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عبء الدعوة وتبليغ ما علموا وما أدركوا من حضرة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فحمل الأمانة الذين شاهدوا وعاينوا وقبسوا من نور الوحى الالهى ، وان كان قد ختم الوحى برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم الذين رضى الله تعالى عنهم ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى بيعة الرضوان ، كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وأبى عبيدة وغيرهم من الذين كانوا كالحواريين لعيسى عليه الصلاة والسلام ، حمل هؤلاء الأطهار الأمانة ، ورعوها حق رعايتها ، وكانت البلاد العربية كلها بعد أن ارتد من ارتد ، قد تجردت لحماية الدعوة ، حتى أشربوا حب الايمان ، فكانت القيادة الحربية أحيانا لغير أهل البيعة ، ولكن يكون بجوارهم مرءوسون لهم من بعض أهل البيعة ، كأبى عبيدة ، كان بجوار خالد بن الوليد ، وان كنا نعتقد أن خالدا ممن دخل الايمان قلبه ، ولكن لم يكن كأهل البيعة فى العلم بالاسلام ، وأحكامه وفرائضه ٠

وأحيانا تكون القيادة لأهل البيعة كما كان فى فتح فارس ، فقد كان القائد سعد بن أبى وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة ٠

الخروج لحجة البلاغ ، وما قام به من مناسك :

٧١٠ — يقول ابن القيم ان الحج فرض فى السنة التاسعة ، وما كان من حج الناس قبلها انما كان على العادة التى كانت عند العرب ، ولذلك لم يرسل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أميرا على الحج الا فى السنة

التاسعة ، ولم يحج هذا العام ، لأن المشركين كانوا يحجون على عادة الجاهلية ، فأرسل أبا بكر ولم يذهب بنفسه ، حتى لا يكون سكوته اقرارا لهذه الأمور الجاهلية ، ولما منعت بمنع المشركين من القرب من المسجد الحرام ، قام صلى الله تعالى عليه وسلم بالحج وتولى امرته بنفسه ٠

وقد اعتزم الخروج من المدينة المنورة ميمما وجهه شطر المسجد الحرام لست بقين من ذى القعدة ولما عزم أعلن على الحج فى المدينة المنورة وما حولها ـ فقدموا يريدون الحج مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولما شاع الخبر فى البلاد العربية ، وافاه فى الطريق خلق كثير ، لا يحصون فكانوا من بين يديه ، وعن يمينه وعن شماله على قدر رؤية البصر ٠

خرج بمن حول المدينة المنورة نهارا فى التاريخ الذى أشرنا اليه ، وخطب الذين صحبوه من المدينة المنورة وعلمهم مناسك الحج ، وكان كلما وفد عليه ، وهو فى طريقه وفد علمه مناسك الحج ، وأبعدهم عن بقايا الجاهلية التى كان المشركون يتخذونها فى بيت الله الحرام كالطواف عرايا ٠

وبين لهم كيف يكون الاحرام ، ومواقيت الحج ، وبين لهم أنواع الاحرام وما يلزم فى كل نوع فبين لهم أن من أحرم بالحج والعمرة فعليه أن يسوق الهدى ، ولا يتحلل الا يوم النحر بعد أداء الحج ، فيتحلل بنحر الهدى يوم النحر ، ومن نوى العمرة ولم يسق الهدى فله أن يتحلل بعد السعى بين الصفا والمروة ، والطواف بالبيت سبعا ، يجب فى ثلاث منها الهرولة ، ويستسلم فى ابتداء كل واحدة الحجر الأسود تعرفا لكمالها ٠

وفى السعى سبعا بين الصفا والمروة يرمل بين الميلين الأخضرين ، وأنه يلبى بعد الاحرام بأن يقول لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة والملك لك لا شريك لك لبيك ٠

ثم بعد أن علم هذه المناسك قولا ، وأراهم اياها عملا من بعد أن أحرم من ذى الحليفة ميقات المدينة المنورة ، وعلمهم المواقيت كلها ، وأنه يحرم عندها أو قبلها ولا يمر عليها الا محرما ٠

وأهل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بعد احرامه بالحج والعمرة وأهل بعض من معه ، بالحج فقط ، لأن العمرة تدخل فيه ، وبالعمرة فقط ، وقد فهم بعض الناس من اهلاله بالحج والعمرة أنه كان قارنا أى جامعا بينهما لأنه ساق الهدى ومن أهل بالحج كان مفردا أى لم ينو العمرة فى حجته ، ومن أهل بالعمرة فقط فانه متمتع ، لأنه المتمتع ، يهل بالعمرة ، ويؤديها ثم يتحلل

منها ، ثم ينوى الحج ، ويذبح الهدى يوم النحر ، وقد سمى القـرآن القران تمتعا فجمع بينه وبين التمتع فى عبارة واحدة ، وهى قول الله تعالى : « **فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدى ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج ، وسبعة اذا رجعتم ، تلك عشرة كاملة ، ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام ، واتقوا الله ، واعلموا أن الله شديد العقاب** » ٠

وان الروايات تتضافر على أن حجه صلى الله تعالى عليه وسـلم كان قرانا وانه عليه الصلاة والسلام يرتضى لنفسه أشدها كلفة ، ولا شك أن القران يجمع كمالين الهدى يساق ويعـلم من أول اهلاله والاستمساك بالتحـريم فى مناسك الحج ، حتى تؤدى كلها من السـعى والطواف والوقوف بعرفات ثم بالمزدلفة ، ثم الذهاب الى منى بعد المشعر الحرام ، والتمتع فيه رخصـة فى أحد الأمرين ففيه رخصة التحلل قبل الحج ، ثم الاحرام له ، والحج بافـراده من غير عمـرة معه فيه رخصـة من عدم الالتزام بالهـدى ، فاختار سبحانه وتعالى القران ، لأنه لا سهولة فيه أولا ، ولأن فيه تعليم العمرة عملا ثانيا ، ولأن فيه سوق الهدى من أول الحج ، واشعاره بوضع مزادة فيه ، فقد وضع المزادة وشق جانبا من سنام زاملته ، لكان ذلك كله تعليما ، وما كان ليعلم ذلك عمليا لو كان قد أحـرم بالحج مفـردا ، أو أحرم متمتعا ، فكان القران فيـه كمال التعـليم ٠

ومع أنه صلى الله تعالى عليه وسلم اختار لنفسه القران نسكا فى الحج فقد رخص للناس ، من غير بيان أيها أفضـــل فى أن يختاروا بين الأنســاك الثلاثة : القران ، أو التمتع ، أو الأفراد ، ولكنه اشترط فى حال القران سوق الهدى ، وفى التمتع الهدى يوم النحر ٠

وقد حدث فى أثناء سير ركب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن أصاب الحيض أم المؤمنين عائشـة ، فأمرها بالاسـتمرار فى حجها على ألا تدخل المسجد الحرام ، وتطوف ، وولدت أسماء بنت عميس زوج أبى بكر ولده محمد ابن أبى بكر ، وقد أمرها أن تغتسل لاحرامها ، كما أمر عائشة رضى الله عنها وعن أبيها ٠

مضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لحجته ، والمسلمون وراءه يتعلمون من عمله ، وهو يلبى ، كلما تحـول من مكان الى مكان ، وكلما علا مرتفعا ، أو انخفض فى واد ٠

وقد منع أن يصاد حيوان من الحرم ، وأن يؤكل صيد الحرم ، لأنه حرام فما يؤدى اليه يكون حراما ، ولكن أباح للمحرمين أن يأكلوا صيد غيرهم ممن يكونون فى حل ٠

وفى أثناء سيره ، كان يبين العبر فيما جريه من أرض ، وبوادى عسفان فقال لصاحبه أبى بكر ، يا أبا بكر أى واد هذا ؟ قال : وادئ عسفان ، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « لقد مر به هود وصالح » ٠

٧١١ — ومن الروايات الراجحة يثبت أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان قارنا جمع بين الحج والعمرة فى اهلال واحد ، وقد ساق الهدى وكان ثلاثا وستين بدنة ، ولما جاء اليه على من اليمن أشركه فى بدنه ، وقد قلد البدنة وأشعرها ٠

ولكن لم يكن من معه قارنين ، بل قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها كان منهم من كان قارنا كالرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ومنهم من أفرد بالحج ، ومنهم من تمتع ، فقد روى ابن أبى شيبة أن عائشة رضى الله عنها قالت : « خرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، للحج على ثلاثة أنواع ، فمنا من أهل بعمرة وحجة ، ومنا من أهل بحج مفرد ، ومنا من أهل بعمرة مفردة فمن كان أهل بحج وعمرة معا ، لم يحلل من شىء مما حرم منه ، حتى يقضى مناسك الحج ، ومن أهل بحج مفرد ، لم يحل بشىء ، مما حرم منه حتى يقضى مناسك الحج ، ومن أهل بعمرة مفردة فطاف بالبيت ، وبالصفا والمروة حل ما حرم منه ، حتى يستقبل حجا ٠ وان هذا يدل على أمرين :

أحدهما : أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان قارنا ، ولم يدع الناس جميعا الى القران ، لأنه ربما يكون فيهم من لا يستطيع الهدى ، ومن لا يحتمل تحريم محرمات الحج مدة طويلة ، فأجاز لهم التمتع والقران والافراد ، وبين لهم مايلزم كل نوع من هذه النسك ، ولم ينه عن واحد منها ، بل لم يبين أفضلها ، وان كان الأفضل يعرف من اختيار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا من قوله ، وربما يفهم من التخيير من غير مفاضلة المساواة فيها ٠

وان الحق أن كلا له فضله فى حاله ، ففى حال الضعف ، أو عدم القدرة على الهدى يكون الأيسر ، هو الأفضل ، لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يختار الأيسر ، فما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما ، ما لم يكن اثما ٠

وقد رأى عمر (وعثمان رضى الله عنه قد تبعه) أن يكون الافراد أولى ، حتى لا يخلو البيت الحرام من قاصديه طول العام ، لأنه اذا شاع اجتماع العمرة والحج فى أشهر الحج ، ما قصد البيت فى أثناء العام ، وعمر يريد ألا يخلو البيت طول العام من قاصديه ٠

ولقد تبع ذلك عثمان رضى الله عنه ، لأنه قد تعهد عند مبايعته أن يعمل

بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسنة الشيخين أبى بكر وعمر ، واختيار الافراد فى الحج كان من سنة عمر رضى الله عنه ، ولم يقره على ذلك كثير من الصحابة كسعد بن أبى وقاص وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن عباس ، وعائشة رضى الله تعالى عنها ٠

وقد روى أبو داود والامام أحمد أن معاوية قال كان فى ملأ من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أنشدكم بالله أتعلمون أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن جلود النمور أن يركب عليها ؟ قالوا اللهم نعم ، قال وتعلمون أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن لباس الذهب الا مقطعا قالوا اللهم نعم قال أتعلمون أنه نهى عن الشرب فى أوانى الذهب والفضة ؟ قالوا اللهم نعم ، قال : « وتعلمون أنه نهى عن المتعة (أى الجمع بين العمرة والحج) قالوا اللهم لا ٠ « قال فوالله أنها لمعهن » ٠

وان هذا يدل على أن معاوية اتبع ما سار عليه عثمان اتباعا لعمـر ، للمقصد الاجتماعى الذى رآه ، ولعل معاوية ظن ، أو أراد أن يوهم أن عمله وعمل ذى النورين عثمان لنهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠ والحقيقة ـ أن لانهى عن نوع من الأنساك الثلاثة « القران والتمتع والافراد » وخصوصا أن التمتع بالجمع بين العمرة والحج قد نص عليه فى القرآن الكريم ، وما كان لأحد مهما تكن مكانته بين المسلمين أن ينهى عن أمر أجازه القرآن الكريم وبين أحكامه ٠

ولكن عمر رضى الله تعالى عنه اختار الافراد لهذا المعنى الاجتمـاعى الـذى ذكرناه ، وخالفه فيه كثيرون من الصحابة ، حتى ان ابنه عبـد الله لم يوافقه ٠

وخالف على عثمـان رضى الله تعـالى عنه ، ورد نهيه عن التمتع ردا شديدا وأعلن التمتع أمامه وفى حضرة جمع من الصحابة ٠

ولقد روى أن عبد الله بن عمر كان يرى التمتع بالقران ، أو مجـرد الجمع فى أشهر الحج بين العمرة والحج قارنا أو متمتعا ، فقال قائل ان أباك نهى عن العمرة « أى مع الحج » فقال الصحابى التقى : « أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أحق أن يتبع أم أمر أبى ٠ ولقد قال ابن عباس لمن كان يعارضه فى القران والتمتع بعمـل عمر « يوشك أن ينزل عليكم حجـارة من السماء ٠ أقول لكم قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر » ٠

الأماكن التى نزلها ، والأدعية التى ذكرها

رسول الله صلى الله عليه وسلم

٧١٢ ــ نهض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وسار فى الطريق الى مكة المكرمة بعد اهلاله من ذى الحليفة بالعمرة والحج ، أى قارنا وسار فى طريقه حتى نزل بذى طوى وصلى بها الصبح ٠ ثم اغتسل ، من يومه ، ونهض الى مكة المكرمة فدخلها من الثنية العليا التى تشرف على الحجون ، ثم سار حتى دخل المسجد الحرام واستقبل الكعبة الشريفة ، وقال : (اللهم زد بيتك هذا تشريفا وتعظيما ومهابة) ٠

ويروى أنه كان عند رؤيته البيت الحرام يقول هذا الدعاء : (اللهم أنت السلام ومنك السلام ، حينا ربنا بالسلام ، اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة) ٠

ولقد طاف ، ولما حاذى الحجر الأسود استلمه ، ثم أخذ عن يمينه ، وجعل البيت عن يساره ولما فرغ من طوافه ، جاء خلف المقام ، وقال : (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وصلى ركعتين ، والمقام بينه وبين البيت ، فلما فرغ من صلاته ، أقبل الى الحجر الأسود فاستلمه مرة أخرى ٠

ثم اتجه الى الصفا من الباب الذى يقابله ، وقرأ قوله تعالى : « **ان الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر ، فلا جناح عليه أن يطوف بهما** » ٠

بعد السعى ، استمر صلى الله تعالى عليه وسلم ممسكا بأحرامه ، فلم يتحلل ، وفعل مثل من أفرد بالحج ، أما من تمتع بالعمرة الى الحج ، وكان مهلا بالعمرة فقط فانه تحلل ، واستمر متحللا ، حتى نوى الحج من بعد ذلك ٠

استمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على احرامه ، حتى تحلل يوم النحر ، والذين كانوا معه ولم يسوقوا الهدى ، وقد أهلوا بالعمرة تحللوا بعد طوافها حتى اذا كان يوم التروية وهو اليوم الثامن من ذى الحجة أهلوا بالحج ، وصاروا فى احرام ، حتى تحللوا يوم النحر ٠

ثم اتجه صلى الله تعالى عليه وسلم الى منى ، ومعه من صحبه من المسلمين ، ومنهم من كان يلبى ، ومنهم من كان يكبر ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينه أحدا ٠

وقد صلى عليه الصلاة والسلام بالمسلمين فى منى صلاة الظهر والعصر وجمع بينهما جمع تقديم فى وقت الظهر ، وقد سار من بعد ذلك الى عرفة ٠

ويقول ابن القيم ، ضربت له قبة بنمرة ، وهى مكان فى شرقى عرفات فنزل بها حتى اذا زالت الشمس أمر بناقته القصواء فرحلت ثم سار حتى أتى بطن الوادى ، فخطب الناس وهو على راجلته خطبة عظيمة قرر فيها قواعد الاسلام ، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية ، وقرر فيها تحريم المحرمات التى اتفقت الملل على تحريمها ، وهى الدماء والأموال والأعراض ، ووضع فيها أمور الجاهلية تحت قدميه ، ووضع فيها ربا الجاهلية كله وأبطله ، وأوصاهم بالنساء خيرا ، وذكر الحق الذى لهن وعليهن ، وأن الواجب لهن الرزق والكسوة بالمعروف ، ولم يقدر ذلك بتقدير ، وأباح للأزواج ضربهن اذا ادخلن الى بيوتهن من يكرهه أزواجهن ، وأوصى الأمة فيها بالاعتصام بكتاب الله ، وأخبر انهم لن يضلوا ما داموا معتصمين به ، ثم أخبرهم أنهم مسئولون عنه ، واستنطقهم بماذا يقولون ، وبماذا يشهدون فقالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ، ونصحت فرفع أصبعه الى السماء ، أن يبلغ شاهدهم غائبهم ٠

ذكر ابن القيم خلاصة الخطبة التى كانت بعرفة ، ولم يذكر نصها ، ولا ندرى لماذا لم يذكر النص ، وقد ذكر النص ابن اسحاق فى السيرة ، فقد قال :

« مضى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على حجته ، فأرى الناس مناسكهم ، وأعلمهم سنن حجهم ، وخطب الناس خطبته التى بين فيها ما بين ،

فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، ثم قال :

أيها الناس اسمعوا قولى ، فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى هذا الموقف أبدا ٠

أيها الناس ان دماءكم وأموالكم حرام الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وانكم ستلقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة ، فليؤدها الى من ائتمنه عليها ٠

وان كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم ، لاتظلمون ولا تظلمون قضى الله تعالى أنه لا ربا ، وان ربا عمى العباس بن عبد المطلب موضوع كله ٠

وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وان أول دم أضعه دم ابن عمى ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتله هذيل ، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية ٠

أما بعد أيها الناس ، فان الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه ان يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم ٠

أيها الناس ، انما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلـونه عاما ، ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلـوا ما حـرم الله ، ويحرموا ما أحل الله وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السـموات والأرض ، وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان ٠

أما بعد أيها الناس ، فان لكم على نسـائكم حقا ، ولهن عليكم حقـا ، لكم عليهن ألا يوطئن (١) فرشكم أحد تكرهونه وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة فان فعلن ، فان الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح فان انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيرا ، فانهن عندكم عوان ، لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وانكم انما أخذتموهن ، واستحللتم فـروجهن بكلمة الله ، فاعقلـوا أيها الناس قولى ، فانى قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما ان استعصمتم به ، فلن تضلوا أبدا ، أمرا بينا ، كتاب الله وسنة نبيه ٠

أيهـا النـاس اسمعوا قولى واعقـلوه تعلمن أن المسلم أخ المسلم ، وان المسلمين أخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس منـه ، فلا تظلمن أنفسكم ٠ اللهم هل بلغت ٠

ويقول ابن اسحاق : « ذكر لى أن الناس قالوا : اللهم نعم ٠٠ فقـال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم اشهد ٠

وهنا ننبه الى أمرين آخرين يتعلقان بالخطبة ٠

أولهما : أن الجمع كان حاشدا ، والخلق كانوا مزدحمين ازدحاما لم يكن له مثيل من قبل ، فقد جاء الناس من كل فج من الجزيرة العربية ليسعدوا بصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجته ٠

ولذلك لم يكن من الممكن أن يسمع الناس جميعا صوت النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو يتكلم ، فكان بجواره صارخ يصرخ للناس بما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ابن اسحاق : كان الرجل الذى يصرخ فى النـاس بقول رسول الله صلى الله عليـه وسلم هو ربيعة بن أميـة بن خلف ، يقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل يا أيها الناس ، ان رسول الله يقول : هل تدرون أى شهر هذا فيقولون الشهر الحرام ٠٠ » ٠

---

(١) معناها يدخلن بيوتكم من لا تريدون دخولهم ٠

وهكذا كان ذلك الصارخ ينطق بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليسمع القاصى والدانى ، والقريب والبعيد من حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ٠

ثانيهما : أنه روى عن بعض الثقات زيادة عما روينا من الخطبة الجامعة وزيادة الثقة مقبولة ومن الزيادات التى رويت قول النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

أيها الناس ، ان الله قد أدى لكل ذى حق حقه ، وانه لا يجوز وصية لوارث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر ، فمن ادعى الى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا ٠

٧١٣ — بعد أن وقف بعرفات ، وألقى خطبته الجامعة ، لما غربت الشمس ، واستحكم غروبها ، كما قال ابن القيم ، بحيث ذهبت الصفرة ـ اتجه الى المزدلفة فأفاض من عرفة اليها ، وأردف اليه على ناقته أسامة بن زيد ، وهو يقول : « أيها الناس عليكم بالسكينة ، فان البر ليس بالايضاع (١) ، ثم جعل يسير العنق وكان فى مسيره هذا لا ينقطع عن التلبية كلما علا ، أو انحدر » ٠

وقد صلى المغرب والعشاء فى وقت العشاء فجمع بينهما جمع تأخير ، بأذان واحد ، واقامتين ٠

ثم صار من بعد ذلك الى منى بعد أن نام ، ولما اتجه الى منى أمر من معه ألا يرموا الجمار الا بعد طلوع الشمس ٠

وقد رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمار ثم نحر ، ثم تحلل من الاحرام ، وقد كان معه بدن كثيرة ، نحر بيده منها ثلاثا وستين فى النحر بمنى ، ثم نحر على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه الباقى ، وأمره أن يتصدق بلحومها وجلودها فى المساكين ٠

وقد ذكر ابن القيم أنه خطب فى منى خطبة عظيمة بليغة ، وكل كلامه عليه الصلاة والسلام بليغ ، وقال ابن القيم فى هذه الخطبة ، أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر ، وفضله عند الله تعالى ، وحرمة مكة المكرمة على جميع البلاد وأمر بالسمع والطاعة ، لمن قادهم بكتاب الله تعالى ، وأمر الناس أن يأخذوا

---

(١) أى ليس بالاسراع ، وهو السير بين الاسراع والابطاء ٠

مناسكهم عنه ، وقال : لعلى لا احج بعد عامى هذا ، وعلمهم مناسكهم ، وانزل المهاجرين والأنصار منازلهم ، وأمر الناس الا يرجعوا بعده كفارا يضرب بعضهم رقاب بعض ، وأمرهم بالتبليغ عنه وأخبر انه رب مبلغ أوعى من سامع، وقال فى خطبته لا يجنى جان الا على نفسه ، وانزل المهاجرين عن يمين القبلة والأنصار عن يسارها ، والناس حولهم ، وفتح الله تعالى اسماع الناس حتى سمعها أهل منى فى منازلهم ٠

وقال فى خطبته قلت : « اعبدوا ربكم ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأطيعوا اذا أمركم تدخلوا جنة ربكم وودع حينئذ الناس » ٠

ويفهم من كلام ابن القيم هذا أن خطبة الوداع ليست التى القيت فى عرفات ، انما خطبة الوداع هى هذه لأنها متأخرة عن الأولى ، والوداع للأخيرة ، ولأن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر فيها الوداع ، والذى أراه أن الحجة كانت حجة الوداع ، فكل ما فيها من كلام يتضمن معنى الوداع ٠

وبعد أن نحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حلق وفعل أصحابه ما فعل، اتجه الى البيت الحرام ، فطاف طواف الافاضة ، وهو طواف الزيارة ، وهو الركن من الحج ٠

وشرب من زمزم ، ثم عاد الى منى ، وبعد الزوال رمى الجمار ، فابتدأ بالأولى التى تلى مسجد الخيف ثم الوسطى ، ثم العقبة ٠

وتكرر ذلك فى أيام التشريق الثلاثة التى تلى يوم النحر ٠

وقد خطب النبى صلى الله عليه وسلم خطبة ثانية فى منى ، وهى ثالثة الخطب باحتساب خطبة عرفة ، ويقول ابن القيم فى هذه الخطبة :

خطب النبى صلى الله عليه وسلم الناس بمنى خطبتين ، خطبة يوم النحر ، وقد تقدمت ، والخطبة الثانية فى أواسط أيام التشريق قبل ثانى يوم النحر ، قال فيها : « وهل تدرون أى شهر هذا ، قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا الشهر الحرام ، ثم قال انى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد هذا ، الا فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا حتى تلقوا ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فليبلغ أدناكم أقصاكم ، ألا هل بلغت » ٠

ويروى أنه نزلت بعرفة آية « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** » ويروى أنه نزلت بمنى سورة « **اذا جاء نصر**

الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » ٠

لقد انتهى حج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى الحجة الأولى والأخيرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يحج قبلها فى مكة المكرمة ، لما كان يحوط الكعبة الشريفة من أوثان ، وما كان يفعله أهل الجاهلية من ذلك ، ويلاحظ أن حج النبى صلى الله عليه وسلم كان قرانا كما ذكرنا ، ولم يلزم الناس ، ولم يذكر للناس أنه أفضل من غيره ، وان كان أفضل لأن النبى صلى الله عليه وسلم قد اختاره ، وأنه مع ذلك ترك الناس أحرارا يختارون من أنواع الحج الثلاثة ما يكون أسهل عليهم ، فمن ساق هديا يختار القران ان أراد ، ومن لم يسق وأهل بالعمرة ، ولم يسق هديا ، فقد اختار التمتع ، ومن أهل بالحج ابتداء ، فقد اختاره ، ولا يسوق هديا ٠

وقد كان المسلمون الذين صحبوا النبى صلى الله عليه وسلم فى حجته منهم من اختار القران ، ومنهم من اختار التمتع ، ومنهم من اختار الاهلال بالحج ، ولا حرج مادام يختار ما يستطيعه ، ولا يشق عليه ٠

وما يروى من أن عمر اختار للمسلمين الافراد فى خلافته ، لم يكن ذلك الزاما ، وكيف يلزم مؤمن المسلمين بغير ما ألزمهم به الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يعرف عنه أنه وضع عقابا على من قرن أو تمتع ، وكيف ذلك وابنه عبد الله لم يوافقه ، ولكن عمل عمر كان رأيا ٠

وهو رأى له وجهه ، وهو ألا يخلو البيت الحرام من زواره ٠

دعاؤه صلى الله تعالى عليه وسلم فى عرفه :

٧١٤ — لقد كان النبى صلى الله عليه وسلم كثير الدعاء فى حجه ، لأنه فى ضيافة الرحمن ، وفى أرض الله ، ففى كل منسك من مناسك الحج كان يدعو الله تعالى ، ولقد كان يدعو عندما أهل بالعمرة والحج ، وكان يدعو فى طوافه ، وفى سعيه ، ويدعو فى عرفة وفى الشهر الحرام ٠

ولقد روى عن على رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان دعاؤه على عرفة فى الموقف : اللهم لك الحمد كالذى نقول ، وخير مما نقول ، اللهم لك صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى ، أعوذ بك من عذاب القبر ووسوسة الصدر ، وشتات الأمر ، اللهم انى أعوذ بك من شر ما تهب به الريح ٠

وروى عن على أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا أيضا فقال على : « انه دعائى يوم عرفة أن أقول : لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، اللهم اجعل فى بصرى نورا ، وفى سمعى نورا ، وفى قلبى نورا ، اللهم اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى ، اللهم انى أعوذ بك من وسواس الصدر ، وشتات الأمر ، وشر فتنة القبر ، وشر ما يلج فى الليل ، وشر ما يلج فى النهار ، وشر ما تهب به الرياح ، وشر بوائق الدهر » ·

وروى عن ابن عباس أنه كان فيما دعا به النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى حجة الوداع :

« اللهم انك تسمع كلامى ، وترى مكانى ، وتعلم سرى وعلانيتى ، ولا يخفى عليك شىء من أمرى ، أنا البائس الفقير المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المعترف بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل اليك ابتهال الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عبرته ، وذل لك جسده ، ورغم لك أنفه ، اللهم لا تجعلنى بدعائك رب شقيا ، وكن بى رءوفا رحيما ، يا خير المسئولين » ·

وروى أبو داود الطيالسى فى سنده عن ابن عباس قال : رأيت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عشية عرفة لأمته بالمغفرة والرحمة ، فأكثر الدعاء فأوحى اليه انى قد فعلت الا ظلم بعضهم بعضا ، وأما ذنوبهم فيما بينى وبينهم فقد غفرتها ، فقال يا رب انك قادر على أن تثيب هذا المظلوم خير من مظلمته · وتغفر لهذا الظالم فلم يجب تلك العشية ·

هذه أخبار عن أدعية النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى سامية فى معناها ، وقد رويت ، وفى بعض رجالها ضعف عند رجال الحديث ، والله سبحانه وتعالى أعلم ·

العودة الى المدينة المنورة

٧١٥ — عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى المدينة المنورة بعد أن أدى مناسك الحج ، وبينها للناس ، وفى أثناء عودته عند غدير خم وهو قريب من الجحفة ، وصله شكوى الشكاة من على كرم الله وجهه فى الجنة ·

ويقول الحافظ ابن كثير انه خطب فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة ، خطبة عظيمة وكان بغدير خم تحت شجرة هناك فبين فيها أشياء كثيرة ، وذكر

من عدل على رضى الله تعالى عنه وأمانته وقربه اليه ما أزاح به ما كان فى نفوس كثير من نفوس كثيرين من الناس عنه ٠

لقد أقبل أهل اليمن يشكون عليا من شدته فى منع ركوب ابل الصدقة ، وتوزيع حلل البز فى غيبته ، ونزعها منه ٠

فجاء فى خطبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما وافق فيه على مسلك على كرم الله وجهه فى الجنة : فقال : أيها الناس ، لا تشكو عليا ، فوالله انه لأخشى فى ذات الله من أن يشكى ٠

وفى بعض الروايات الصحيحة أن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ بيد على ، فأقامه عن يمينه ، وقال ألست أولى من كل امرىء من نفسه ، قالوا بلى ، قال فان هذا مولى أنا مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ٠

فلقى عمر بن الخطاب عليا ، فقال له : « هنيئا لك أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة ، وقد روى حديث من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ٠

رواه أصحاب السنن الأربع ، والامام أحمد بطرق صحيحة ٠

فكان حقا أن يكون أولى أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد بينا ذلك فيما مضى ، وبينا أنه مع صحته لا يدل على أنه أولى بالخلافة من الشيخين أبى بكر وعمر ، فالخلافة تقتضى النظر الى أمور كثيرة ، يصح أن يكون بعضها محبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولكن ليست كلها ، فمحبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا تجعل غيره ليس أهلا للخلافة ٠ والله تعالى أعلم ٠

الوداع بعد التمام

٧١٦ ـــ نزل قوله تعالى : « **اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا** » وقال الرواة فى الصحاح ، ان نزولها كان والمسلمون واقفون بعرفة يوم الجمعة ، فلما سمعها عمر بكى فقيل له ما يبكيك ؟ قال ما بعد الكمال الا النقصان ، والنقصان هو وداع رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا ، وكأنه فهم رضى الله عنه بعقله المدرك وبصيرته النافذة ٠ أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بلغ رسالة ربه ، وأنه اذ بلغها ،

فلم يبق الا أن يذهب الى ربه ، وقد أدى واجبه وبلغ وأنذر وبشر ، وعلم الناس علم الشريعة ، وعلم القرآن الكريم ٠

وأنه صلى الله تعالى عليه وسلم علم بعلم ربه أنه قد آن الوداع ، فكان في خطبه فى الحج ، لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا ٠

ولقد نزل وسط أيام التشريق سورة النصر : « **اذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا** » وقالوا ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد عرف أنه الوداع ، وقد فسر ابن عباس فى حضرة جمع من الصحابة بأن السورة تدل على أجل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ووافق عليه عمر رضى الله عنه ، ولم يعترض عليه أحد ، وذلك بطريق الاشارة أو التظنن ، لأنه اذا تم النصر ، وعم الاسلام قد آن أوان المفارقة ٠

وان آيات القرآن الكريم تدل على أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مبعثه وحياته لأجل محدود ، وأنه ليس بمخلد وأن وفاته كغيره من البشر أقرب اليه من حبل الوريد لبشره ٠

١ ــ ومنها قوله تعالى : « **انك ميت وانهم ميتون ، ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** » ٠

٢ ــ ومن ذلك قوله تعالى : « **كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، والينا ترجعون** » « **كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور** » ٠

٣ ــ ومنها قوله تعالى : « **وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه ، فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين** » هذه قبسة من الآيات القرآنية ، وغيرها كثير ٠

ومن الأحاديث التى تنبأ فيها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بقرب أجله ولقاء ربه قوله لابنته فاطمة : « ان جبريل كان يعارضنى القرآن الكريم فى كل سنة مرة وانه عارضنى به العام مرتين وما أرى ذلك الا اقتراب أجلى » ٠

٤ ــ وروى البخارى ، كان يعتكف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذى توفى فيه اعتكف عشرين يوما ٠

وهكذا تتضافر الأخبار عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه توقع وفاته فى العام الذى حج فيه ، أو بعده بقليل ٠

بعث أسامة بن زيد

٧١٧ — ومع أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يتوقع الموت القريب وقد ظهرت أماراته كان قائما بواجب التبليغ واعزاز الاسـلام لآخر لحظة من لحظاته ، فالواجب مسـتمر ، لا يعـوقه مرض ان كان قادرا على الارسال والبعث ، ولا يعوقه توقع الموت وقربه ، لأنه مادامت الحياة ، فالواجب قائم ٠

بعث أسامة الى أرض فلسطين :

وقد أجمع الرواة على أنه عليه الصـلاة والسلام جعـل فى امرته الشيخين أبى بكر وعمر ، ولقد بنى الشيعة على ذلك أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد توقع الموت ، ودخل جسمه المرض وآذن بوداع ، بعثهما فى جيش أسامة ليخلو الجو لعلى كرم الله وجهه ، ولا ينازعانه الخلافة ٠

ولا نحسب أن ذلك يصلح تعليـلا ، أو حكمة ، لتولى أسـامة امرة الشيخين ، وقد كان يمكن أن يولى أحدهما الجيش ، والآخر يعاونه ، فان ذلك قد يتحقق فيه ما فرضوه مقصدا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والحق أن اختيار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأسامة يمكن أن تتعرف حكمتـه بغير ذلك ٠

فأبوه زيد بن حارثة ـ كان القائد الأول للمسلمين الذى كان يحمـل الراية ، وقد قتله الرومان ، فكان من حكمة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يمكنه من قتـلة أبيه ، فيكون أكثر حمية من غيره ، وأشد حماسة ، وأيضا فان أسامة كان شابا ، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد توقع الموت أن يولى الشباب ٠

وان زيدا لم يكن قرشيا ، بل كان أبوه من الموالى أعتقه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتبناه ، حتى ألغى التبنى بحكم القرآن الكريم من بعـد الهجرة ، وان تعيينه وهو بهذه الحال ، بيـان لأن السـيادة لا تكون دائمـا للقرشيين ، وتوكيدا لهـذا المعنى السامى جعـل شيخين من شيوخ قريش والمسلمين فى امرته وكانت لهما مكانتهما فى قريش جاهلية واسلاما ، فكـان جعله أميرا عليهما منعا للسيطرة القرشية ، ومنعا للارستقراطية الاسلامية ٠

وان هذه الأمور تلمس لحكمة فعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليست تعليلا دقيقا ، ولقد كان هذا البعث آخر سرية أرسلها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكأنها كانت اشارة الى أن يتجه المسلمون بالدعوة الاسلامية الى خارج الجزيرة العربية ، ولقد شدد عليه الصلاة والسلام فى تنفيذ هذه السرية ، شدد فيها وهو حى ، وشدد فى التوصية بتنفيذها اذا مات ، ولكن لم تنفذ الا بعد حياته ·

وتخلف عنها الشيخان أبو بكر وعمر ، فأما أبو بكر ، فقد اختبره الله تعالى بالخلافة ، وارتداد الأعراب ، وكان لابد أن يبقى ليحمى المدينة المنورة ، وليحمى العقيدة ، وليحمل المرتدين على التوبة ·

وأما عمر ، فلأنه كالوزير لأبى بكر ، استأذن أسامة فى أن يبقى بجواره فى هذه الشديدة لتكون قوة المسلمين المؤمنين متضافرة ، فى دفع هذا البلاء ، والشديدة شديدة ، والبلاء بلاء ، فقد اجتمع أبو بكر وعمر وعلى ، والزبير وطلحة ، وعبيدة وعبد الرحمن بن عوف ليصدوا الردة ، ويتحقق قول الله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ، فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين ، أعزه على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم** » ·

الوداع

٧١٨ ــ عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لخمس بقين من ذى الحجة فى السنة العاشرة ، وعاش أكرمه الله تعالى بقية ذى الحجة ، والمحرم كله ، واعتراه بعد ذلك وجع مرض الموت متجها الى لقاء الرفيق الأعلى فى صفر من السنة الحادية عشرة ، روى أن ذلك ابتدأ فى الليلة الحادية عشرة منه وروى أنه ابتدأ لليال بقين منه فى آخره ، ثم كانت الوفاة بعد حياته المباركة للبشرية كلها فى ربيع الأول ، وروى فى أوله فى ليال مضت منه · وروى أنه فى الثانى عشر منه ، ويرجح ذلك الأكثرون من الرواة ، وكان ذلك فى يوم الاثنين من ذلك الشهر الذى كان فيه ميلاده ومبعثه ، وهجرته ، ثم توديعه الدنيا الى لقاء ربه الكريم ·

وكانت أمارات الوداع ظاهرة بينة ، ونذكر أمورا ثلاثة كانت فى أولى مرضه :

أولها : أنه روى عبد الله بن عمرو بن العاص عن أبى مويهبة مولى

رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم · قال بعثنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من جوف الليل ، وقال ان الله تعالى أمرنى أن أستغفر لأهل هذا البقيع ، فانطلقت ·

وفى رواية الامام أحمد عن أبى مويهة أنه قال : « أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يصلى على أهل البقيع ، فصلى عليهم ثلاث مرات ، فلما كانت الثالثة قال يا أبا مويهة أسرج دابتى ، فركب ومشيت حتى انتهى اليهم فنزل عن دابته ، وأمسكت الدابة ، فوقف فقال : ليهنكم ما أنتم فيه مما فيه الناس ، أتت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضا ، الآخرة أشد من الأولى ، فليهنكم ما أنتم فيه مما فيه الناس ، ثم رجع فقال يا أبا مويهة انى خيرت بين مفاتيح ما يفتح على أمتى ، ولقاء ربى ، فاخترت لقاء ربى ·

وان هذه الرواية تدل على أن الصلاة على أهل البقيع من موتى الصحابة كانت قبل ذهابه عليه الصلاة والسلام الى قبورهم ، وخطابه اياهم ·

وقد روى ابن اسحاق عن ابن مسعود عن عائشة أنها قالت رجع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من البقيع ، وأنا أجد صداعا فى رأسى وأقول واراساه ، فقال : بل أنا والله يا عائشة واراساه ، ثم قال : وما ضرك لو مت · قلت ، والله لكأنى بك لو فعلت ذلك · لقد رجعت الى بيتى ، فأعرست فيه الى بعض نسائك ·

وفى هذا الخبر نجد أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد أعلن تقديره وتكريمه لصحابته ، وهم أموات كما كانوا أحبابه ، وهم أحياء ·

الأمر الثانى : الذى يجب التنبيه اليه أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أوصى بالأنصار خيرا · روى البيهقى بسنده أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه فى مرض موته وقد اشتد به وعكه خرج فجلس على المنبر فكان أول ما ذكر بعد حمد الله تعالى والثناء عليه ذكر أصحاب أحد فاستغفر لهم ثم قال :

« يا معشر المهاجرين ، انكم أصبحتم تزيدون ، والأنصار على هيئتها لا تزيد ، وانهم عيبتى التى آويت اليها ، فأكرموا كريمهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم · ثم قال عليه الصلاة والسلام أيها الناس ان عبدا من عباد الله تعالى قد خيره الله تعالى بين الدنيا ، وبين ما عند الله : فاختار ما عند الله ، ففهمها أبو بكر رضى الله تعالى عنه من بين الناس فبكى ، وقال : « بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا وأموالنا يا رسول الله » ·

وان هذه الرواية فيها الوصــية بالانصــار ، لأنهم قوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهم الذين آووا ونصروا ، وقد نفذت هذه الوصية فى عهـد الراشدين وعمر بن عبد العزيز ، أما ما كان من بنى أمية نحو الأنصار فالله أعلم بهم وهو مجازيهم عليه ٠

الأمر الثالث : ما رواه البخارى عن الفضل بن عباس أنه قال : أتانى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهو يوعك وعكا شديدا وقد عصب رأسه ، فقال خذ بيدى يا فضل ، فأخذت بيده حتى قعد على المنبر ثم قال : ناد فى الناس ، فناديت الصلاة جامعة فاجتمعوا ، فقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خطيبا فقال :

أما بعد أيها الناس قد دنا منى خلوف من بين أظهركم ، ولن أفى هذا المقام فيكم ، وقد كنت أرى أن غيره غير مغن عنى حتى أقوم فيكم ، ألا فمن كنت قد جلدت له ظهرا ، فهذا ظهرى فليستقدمنه ومن كنت أخذت له مالا فهذا مالى ، فليأخذ منه ، ومن كنت قد شتمت له عرضا ، فهذا عرضى فليستقدمنه ، ولا يقولن قائل انى أخاف الشحناء من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، الا وان الشحناء ليست من شانى ، ولا من خلقى ، وان أحبكم الى من أخـذ حقا كان له على ، أو حللنى ، فلقيت الله عز وجل ، وليس لأحد على مظلمة ، فقام رجل ، وقال : يا رسول الله لى عندك ثلاثة دراهم فقــال عليه الصــلاة والسلام ، أما أنا فلا أكذب قائلا ، ولا أســتحلفه على يمين ، فيم كــانت لك عندى ؟ قال أما تذكر أنه مر بك سائل فأمرتنى ، فأعطيته ثلاثة ، قال عليه الصلاة والسلام : « أعطه يا فضل » ٠

ثم عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مستمرا فى مقالته الأولى وقال : أيها الناس من عنده من الغلول شىء فليرده ، فقام رجل فقال يا رسول الله عندى ثلاثة دراهم غللتها فى الله فقال عليه الصلاة والســلام ، فلم غللتها ؟ قال : كنت محتاجا اليها : قال عليه الصلاة والسلام خذها منه يا فضل ٠

ثم عاد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مستمرا فى مقالته الأولى وقال : يأيها الناس من أحس من نفسه شيئا فليقم أدعو له ٠ فقام اليه رجل ، فقــال : « انى لمنـافق ، وانى لكـذوب ، وانى لشــئوم » فقــال عمــر ابن الخطاب ويحك لقد سترك الله لو سترت على نفسك ؟ ٠ فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : مه يا ابن الخطاب فضوح الدنيا أهون عند الله من فضوح الآخرة ، اللهم ارزقه صدقا وايمانا وأذهب عنه الشؤم اذا شاء ٠

توديعـه لابنتـه :

٧١٩ ـــ اختبر الله نبيه عليه الصلاة والسلام وهو بشر بفقد أولاده ، واحدا بعد الآخر ، لقد رزقه تعالى من خديجة أحب أزواجه اليه ستة : ذكران وأربع بنات ، فقد القاسم والطيب ، وهو فى قوة شبابه ، وفقد بعد ذلك وهـو فى دار الهجرة ثلاث بنات من بناته ، فقد رقية وهو فى غزوة بدر الكبرى ثم فقد زينب ، ثم أم كلثوم ٠

وأصيب وهو فى كهولته بموت ابراهيم أصغر أولاده ، وكان قرة عين ، وقال بعد دفنه متحاملا على أصحابه ناظرا الى أحد ، يا جبل انـك لا تحمل ما أحمل ٠ وقال نبى البشر ذلك ، وهو هادىء ، فبكى عليه الصلاة والسلام ، والبكاء من الرحمن ، والصراخ من الشيطان ٠

لم يبق له من أولاده الا فاطمة الزهراء زوج أحب أصحابه اليه ، فتجمع حب من فقدوا جميعا اذ صارت هى الوحيـدة ، والمستـأثرة بالأبوة المحبـة العطوف ٠

وكان لابد أن يخصها بوداع لها بعد ذلك الوداع العام الذى ذكرناه ٠

وروى فى الصحيحين عن عائشة رضى الله تعالى عنها ، قالت اجتمع نساء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنده ، لم يغـادره منهن امرأة فجاءت فاطمة (رضى الله عنها) تمشى ، لا تخطىء مشيتها مشية أبيها ، فقال عليه الصلاة والسلام مرحبا يابنتى فاقعدها عن يمينه (أو شـماله) اختلاف فى الرواية ، ثم سارها بشىء فبكت ، ثم سارها فضحكت ، فقلت لها خصك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالسرار ، وأنت تبكين فقلت أخبرينى ما سارك ، فقالت ما كنت لأفشى سر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فلما توفى عليه الصلاة والسلام قلت أسألك لما لى عليك من الحق لما أخبرتنى ٠ قالت أما الآن فنعم ، فقد سارنى فى الأول ، قال لى ان جبريل كان يعارضنى فى القرآن الكريم كل سنة مرة وقد عارضنى فى هذا العـام مرتين ، ولا أرى ذلك الا لاقتراب أجلى ، فاتقى الله واصبرى فنعم السلف أنا لك ، فبكيت ، ثم سارنى فقال أما ترضين أن تكونى سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة ، فضحكت ٠

هذا وداع النبى صلى الله عليه وسلم لابنته ، ويروى انه قال لها انها ستكون أول أهله لحاقا به ٠

هذا وداع الأب البار لابنته الزهراء سيدة نساء هذه الأمة ٠

انك ميت وانهم ميتون

٧٢٠ — روى البخارى أن عبد الله بن مسعود دخل على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له : انك لتوعك وعكا شديدا !! فقال له النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أجل ، انى أوعك كما يوعك الرجلان منكم ، قلت ان لك أجرين!! قال عليه الصلاة والسلام نعم : نعم ، والذى نفسى بيده ، ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه ، الا حط الله عنه خطايا كما تحط الشجرة ورقها .

وروى عن أبى سعيد الخدرى ، أنه وضع يده على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال للرسول صلى الله عليه وسلم انى لا أستطيع أن أضع يدى عليك لشدة حماك ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « انا معشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء ، كما يضاعف لنا الأجر » .

وروى البخارى فى صحيحه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال فى مرضه : « اشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فان كان فى دينه صلابة شدد عليه » .

أخذ المرض يدب الى جسم نور الوجود محمد صلى الله تعالى عليه وسلم حتى ضعف ، ومن قرابته من يحسب أن ما فيه من ذات الجنب ، وكان هذا رأى أقرب أهله اليه العباس ، وكان من طبهم لذلك أن يلد المريض فى فمه ، وقد لدوا رسول الحق صلى الله عليه وسلم وهو فى غفوة منه ، فلما صحا أحس بأثره فى فمه ، فأمر بأن يلد من كان فى حضرته واستثنى العباس ، ولعله لمكانته من كبر السن ، وفعل ذلك مع علمه بأن الذى أمر بلده هو عمه العباس رضى الله تعالى عنه ، وقال عليه الصلاة والسلام فى اللد والتخوف من ذات الجنب : « انها من الشيطان وما كان الله تعالى ليسلطه على » .

اشتد المرض برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولزم فراشه ، فاستأذن نساءه فى أن يمرض فى بيت عائشة ، وقد روى البخارى خبرها فى ذلك ، قالت لما ثقل المرض على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واشتد ، استأذن أزواجه أن يمرض فى بيتى ، فاذن له ، فخرج ، وهو بين الرجلين تخط رجلاه الأرض بين العباس بن عبد المطلب وبين رجل آخر . ولقد سئل ابن عباس عن الرجل الآخر الذى لم تذكر اسمه ولم تكن على جهل به ، قال هل تدرى من الآخر الذى لم تسمه عائشة فقال السائل — لا — قال ابن عباس هو على بن أبى طالب . لم تذكر اسم على فعفا الله عنها ، ورضى عنها .

نقل الرسول صلى الله عليه وسلم الى بيت عائشة ، وقد اشتدت الحمى ، فكان يقول : اهريقوا الماء على ، فأراقوا عليه صلى الله تعالى عليه وسلم ماء كثيرا ، حتى لقد روت أم المؤمنين عائشة أنه أهريق عليه سبع قرب من الماء ، لم تحل أوكيتهن ٠

ولقد قالت عائشة رضى الله تعالى عنها فيما رواه البخارى كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ، ومسح عنه بيده ، فلما اشتكى وجعه الذى توفى فيه طفقت أنفث عليه بالمعوذات التى كان ينفث بها ٠

صلاة أبى بكر :

٧٢١ — اشتد المرض على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وشق عليه أن يؤم الناس للصلاة ، فكان لابد أن ينيب أحدا من المؤمنين الأولين الذين كانوا من أول الناس اسلاما ، وكان خليله وصديقه وصفيه ابو بكر أول الرجال اسلاما هو المختار ، فاختاره ليصلى بالمسلمين فلا تتعطل الامامة للصلاة ، ويخشى أن تتعطل الصلاة ، وهى عمود الاسلام ، ولا دين من غير صلاة ٠

روى الامام أحمد أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يخرج للصلاة ، فصلى بالناس عمر رضى الله تعالى عنه ، وكان ذلك استجابة لقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، اذ قال مروا من يصلى بالناس ، فلم يكن من كبار الصحابة الا عمر وزير رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الثانى ، وكان عمر رضى الله تعالى عنه مجلا مجهرا ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأين ابو بكر ، فبعث الى ابو بكر وهذا الخبر يدل على أن الامام عمر ما صلى الا فى غيبة أبى بكر ، والاستجابة لأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم امرا عاما ، اذ يقول : مروا من يصلى بالناس ، ثم عين من بعد صلاة عمر ، من يؤم الناس وهو ابو بكر رضى الله تعالى عنه ٠

روى البخارى عن الأعمش عن عائشة قالت لما مرض النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مرضه الذى مات فيه ، فحضرت الصلاة ، فأذن بلال ، فقال : مروا ابا بكر فليصل بالناس ، فقيل له : ان ابا بكر رجل أسيف اذا قام مقامك لم يستطع ان يصلى بالناس ، وأعاد عليه الصلاة والسلام أمره فأعادوا كلامهم ، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : انكن صواحب يوسف ، مروا ابا بكر فليصل ، فخرج ابو بكر فوجد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى نفسه خفة ، فخرج يهادى بين رجلين ، كأنى أنظر الى رجليه تخطان من الوجع ،

فاراد أبو بكر أن يتأخر فأومأ اليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن مكانك ثم أتى حتى جلس الى جانبه ، قيل للأعمش الراوى عن عائشة : فكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأبو بكر يصلى بصلاته ، والناس يصلون بصلاة أبى بكر ، فأومأ برأسه · نعم ·

وقد استمر أبو بكر طول مدة مرض النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يصلى بالناس ، حتى توفى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وانتهى الى الرفيق الأعلى ، تاركا وراءه ذلك الميراث الانسانى الخالد ، وهو شريعة الله تعالى التى بلغها ، وعلم الناس بها ما بين مشرق ومغرب فى الجزيرة العربية ، ثم ترامى أمرها الى ما وراءها ·

وقد انقطع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى مرضه ثلاثة أيام لم يخرج الى الناس فيها ، وكان يصلى بهم أبو بكر كما ذكرنا ، وقد كانت آخر صلاة صلى مع الناس صلاة الظهر ، قبل الثلاث ·

وروى البخارى عن أنس بن مالك رضى الله تعـالى عنه ، وكان ملازما للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن أبا بكر كان يصلى بهم فى وجع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الـذى توفى فيه ، حتى اذا كان يوم الاثنين وهم صفوف فى الصلاة ، فكشف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ستر الحجرة ينظر الينا ، وتبسم يضحك ، فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤيا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ونكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف ، وظن أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خارج للصلاة ، فأشار الينا أن أتموا صلاتكم ، وأرخى الستر ، وتوفى من يومه ·



هكذا كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قائما على تبليغ رسـالة ربه ، حتى آخر جزء من حياته ، فهو اذ يحتضر ينظر الى مقدار اسـتجابة النـاس لدعوته الى ربه ، حتى اذا اطمأن تبسم ضـاحكا ، ثم أسلم نفسه لله تعالى ، الذى قبضه اليه ، ففاضت روحه الطاهرة ، وانتقل الى الرفيق الرحيم ، انتقل الى الملأ الأعلى ·

لكل اجل كتـاب :

٧٢٢ ـــ استبشر المسلمون خيرا عندما أزاح عليه الصلاة والسلام الستر لينظر اليهم وهم يصلون وقد تبسم ضاحكا ، فظنوا البرء والسلامة ،

وقد فرحوا ، حتى كادوا يخرجون من الصلاة فرحا ، ولم يظنوا أنها الوداع الأخير • ورؤية البلاغ الكامل الذى اعتقد أنه قد أتم تبليغ الرسالة •

كان ذلك فى يوم الاثنين اذ كانت هذه الرؤية المودعة ، الأجل المكتوب ، وكان أبو بكر الصديق الأمين قد اطمأن بهذه النظرة ، فذهب الى السنح حيث يقيم ، ولكن ما لبث الا قليلا ، حتى نعى الناعى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اليه ، فجاء لتكتحل عيناه برؤية الرسول صلى الله عليه وسلم الذى كان ملء السماء والأرض وكان مسجى فى فراشه ، ولنترك الخبر الأليم كما وصفته أم المؤمنين عائشة حب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لنترك لها البيان :

بينما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على منكبى ، اذ مال رأسه نحو رأسى فظننت أنه يريد من رأسى حاجة فخرجت من فيه نقطة باردة ، فوقعت فاقشعر لها جلدى فظننت انه غشى عليه ، فسجيته ثوبا فجاء عمر ، والمغيرة ابن شعبة فاستأذنا فأذنت لهما ، وجذبت الى الحجاب • فقال عمر واغشياه ما أشد غشى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قاما ، فلما دنوا من الباب قال المغيرة لقد مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال عمر : كذبت ، بل أنت رجل تحوطك فتنة ، ان رسول الله لا يموت حتى يفنى المنافقين » فكأن عمر رضى الله عنه كبر عليه أن يموت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كما يموت الناس ، وقد دفعه الى ذلك فرط محبته ، وجاء أبو بكر الصديق ، فنظر الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال انا لله وانا اليه راجعون • مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم أتاه وقبل رأسه وقبل جبينه ، وقال واصفياه ، ثم قبل جبهته ، وقال • واخليلاه ، مات رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم •

خرج عمر رضى الله عنه الى المسجد يخطب فى الناس ، ويقول : ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يموت حتى يفنى المنافقين • عندئذ تقدم أبو بكر ثم قال : « **انك ميت ، وانهم ميتون ؛ ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** » « **وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين** » فمن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت ، ومن كان يعبد محمدا ، فان محمدا قد مات •

وروى أن أبا بكر عندما قبل جبهة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال فداك أبى وأمى ما أطيبك حيا وميتا ••

وروى أن عمر رضى الله عنه توعد بالقطع أو القتل من يقول ان محمدا صلى الله عليه وسلم قد مات ·

وروى أن خطبة أبى بكر كانت أطول مما ذكرنا ، ويروى أنه رضى الله عنه ، حنى على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقبله وبكى ، وكل هذه أخبار ثقات ، يجمع بينها ، ولا تنافر فيها ، فكل حفظ ما سمع ، وشهد بما رأى ، والناس جميعا كانوا فى فزع وجزع ·

وخطبة أبى بكر التى هى أطول مما ذكرنا ابتداء ، قال فيها :

ليس ما يقوله ابن الخطاب شيئا ، توفى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثم قال باكيا ، والذى نفسى بيده ، رحمة الله عليك يا رسول الله ، ما أطيبك حيا وميتا ثم غشاه بالثوب ، ثم ذهب الى المسجد سريعا ، وقال : ان الله عز وجل نعى نبيه الى نفسه ، وهو حى بين أظهركم ، ونعاكم الى أنفسكم ، وهو الموت حتى لا يبقى منكم أحد الا الله عز وجل قال تعالى : **« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه ، فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين »** وقال تعالى لمحمد **« انك ميت ، وانهم ميتون »** وقال تعالى **« كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام »** وقال تعالى : **« كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم يوم القيامة »** ·

ان الله عمر محمدا وأبقاه حتى أقام دين الله ، وأظهر أمر الله ، وبلغ رسالة الله ، وجاهد فى سبيل الله ، ثم توفاه الله على ذلك ، وقد ترككم على الطريقة ، فلن يهلك هالك الا من بعد البينة والشفاء ، فمن كان يعبد الله ربه ، فان الله حى لا يموت فاتقوا الله أيها الناس ، واعتصموا بدينكم ، وتوكلوا على ربكم ، فان دين لله تعالى قائم ، وان كلمة الله تامة ، وان الله ناصر من ينصره ، ومعز دينه ، وان كتاب الله تعالى بين أظهرنا ، وهو النور والشفاء ، وبه هدى الله تعالى محمدا ، وفيه حلال الله تعالى وحرامه ، والله لا يبالى من أجلب علينا ، من خلق الله ، ان سيوف الله تعالى لمسلولة ما وضعناها بعد ، ولنجاهدن من خالفنا ، كما جاهدنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا يبغين أحد الا على نفسه ·

هاتان خطبتان للصديق رضى الله تعالى عنه ، فى يوم الفزع الأكبر ، ولعله كان يكرر قوله كلما رأى هلعا ، وجزعا ، ليرد اليها شارد لبها ، وقد طاشت أحلام ، وهلعت قلوب ، فكان يكرر التثبيت ·

غسل الجثمان الطاهر ودفنه :

٧٢٣ — اتجه المؤمنون الى اقامة خليفة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل ان يغسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويوارى جثمانه الطاهر ، فقد اجتمع الأنصار ، وعلى رأسهم سعد بن عبادة ليفكروا فى هذا ، فأسرع اليهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما خشية أن يتفرق أمر المؤمنين ، فى سقيفة بنى ساعدة ، وأنهوا أمر الخلاف باختيار أبى بكر رضى الله تعالى عنه خليفة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولم يحضر الاجتماع أحد من بنى هاشم أو أقرباء النبى صلى الله عليه وسلم الأدنون ، العباس وعلى وغيرهما من بنى هاشم ، ولعل ذلك كان لانشغالهم بأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

وقد انتقل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ضحى يوم الاثنين ، فمكث بقية يوم الاثنين وبعض يوم الثلاثاء ، حتى اذا تمهدت الأمور وتمت كما ذكر الحافظ بن كثير شرعوا فى تجهيز النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

ويقول ابن اسحاق : لما بويع أبو بكر أقبل الناس على جهاز رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد كانت وفاته يوم الاثنين ، وغسله ودفنه ليلة الأربعاء ٠

اجتمع الناس لغسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وليس فى البيت الا أهله ، وعمه العباس بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب ، والفضل ابن عباس ، وقثم بن العباس ، وأسامة بن زيد بن حارثة ، ودخل من بعد أوس بن خولى الأنصارى البدرى الخزرجى نادى عليا ، فقال : يا على ننشدك الله ، وحظنا من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال له على ادخل فحضر الغسل ٠

وغسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعليه قميصه ، وتولى الغسل على كرم الله وجهه فأسنده الى صدره ، وعليه قميصه ، وكان العباس وفضل وقثم يقلبونه مع على ، وكان أسامة بن زيد وصالح مولاه يصبان الماء ، وجعل على يغسله ، ولم ير منه شيئا ، وهو يقول بأبى وأمى ما أطيبك حيا وميتا ، وكانوا يغسلونه صلى الله تعالى عليه وسلم بالماء ، والسدر ، جففوه ، ثم صنع به مما اختلط بالماء ٠

وقد كفنوه صلى الله تعالى عليه وسلم فى ثلاثة اثواب اثنان أبيضان وثالث حبرة ٠

ودفن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى بيت عائشة حيث مات ، لخبر نسب الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن الأنبيـاء يدفنون حيث يموتون ·

وقد تولى دفنه عليه الصلاة والسلام أربعة من أهله ومواليه العبـاس وعلى ، والفضل بن عباس ، وصالح مولاه لحدوا له لحـدا ، ونصبوا اللبن نصـبا ·

★★★

هكذا انتهت الحياة الدنيوية لأكرم خلق الله على الله ، وأكرم انسـان للانسانية ، عاش حياته مجاهدا منذ خلقه الله تعالى الى أن قبضه سبحانه وتعالى اليه ، جاهد الرذيلة غلاما ، فكان الفاضل فى صـباه ، وكان الأمين فى شبابه لم تكن الحياة أمامه رخاء سهلا ، بل ذاق اليتم ، وان لم يقهر ، كما يقهر اليتامى ، وذاق طعم الفقر ، وان لم يترب نفسه ، حتى اذا كلف أداء الرسالة حمل عبئها ، وذاق مرارة الأذى فى سبيلها ، وهو صابر مصابر ، حتى اذا هاجر حمل السيف مجاهدا ، كما حمل القرآن الكريم هاديا معلما ، يعلى الانسانية ويكرمها ، ويسامح ويواد ، حتى كان الانسان الكامل فى هذا الوجود؛ واذا كان قد دفن جسده فلن تدفن شريعته ·

تركة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم

٧٢٤ ـــ لم يترك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مالا ٠ ولم يكن لديه فى آخر حياته عند وعكة الموت الا ذهبة تصدق بها فى آخر حياته ، فلم يكن مالكا المال ، ولكن اذا كان مال كان لما يقدمه للبر ، فكان يعيش على خبز الشعير ، ويمر المال بيده ، مرور الماء ، ويسيل الى الضعفاء والمساكين ، وأبناء السبيل واليتامى فلا يبقى فى يده شىء ، واذا بقى لا يكون ميراثا لأهله ، وهو يقرر فى شريعته « نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما تركناه صدقة » ، فكأن كل ما يتركه صدقة لا يملكه ولد ولا عم ، بل فى مصرف الخير والبر ، فما كان الأنبياء ليختزنوا مالا ، ولا يورثوا تراثا ، ولكن يورثون علما ، وشرعا ، وبلاغا للناس ، فذلك ميراثهم ، وهو خير تركة زاخرة ، وهى العلم الكامل ٠

ولقد كان ثمة خلاف فى أرض « فدك » ذكرناه فى موضعه ، ولم تكن فدك كما يصور التاريخ ملكا للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، بل كان على حكم ملك اليتامى والمساكين والفقراء ، وأبناء السبيل ، يصرف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما يفىء اليه من غلاتها فى مصارفها ، وكان لأهل البيت وذوى القربى حظ مقسوم ، ولما جرى الخلاف بين سيدة نساء المؤمنين فاطمة الطاهرة بنت أطهر من أقلته الأرض ، وأظلته السماء ، لم يكن خلافا على الملكية ، كما توهم عبارات المؤرخين ، بل كان خلافا على ادارتها ، وصرفها فى مصارفها ، اذ كان فيها نفقات لأمهات المؤمنين ، فيتولى ذوو القربى ما كان يتولاه هو عليه الصلاة والسلام ، فعارض فى ذلك الصديق رضى الله عنه ٠

ثم كان من بعده أن وافق عمر رضى الله تعالى عليه ، على أن تكون الادارة بين العباس وعلى ، على ما ذكرنا من قبل ٠ وان الميراث العظيم الذى تركه النبى صلى الله عليه وسلم شريعته ، وهى محفوظة بحفظ القرآن الكريم اذ يقول سبحانه : « **انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون** » ٠

زوجات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم

٧٢٥ ــ يحلو لبعض الكتاب غير المسلمين أن يقولوا ، ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان رجلا شهوانيا ، بدليل أنه تزوج نحو ثلاث عشرة ، وتوفى عن تسع وقد أسرفوا على أنفسهم فى القول ، وعلى الحقيقة فطمسوها فى زعمهم ، ولكن الحق أبلج ، نير يكشف دائما ما يكون من غمة يحاول أصحابها أن يعموا الحق ويدلسوا على أهله .

لقد زعموا أن النبى صلى الله عليه وسلم شهوانى ، لزواجه ، ونحن نتخذ من زواجه دليلا على أنه لم يكن شهوانيا ، بل كان أقرب الى أن يكون سلبيا ، لا تغلبه شهوة ، ولا يسيطر عليه هوى فى أى ناحية من النواحى .

لقد تزوج أم المؤمنين خديجة وهو شاب مكتمل قوى فى الخامسة والعشرين من عمره ، وكانت هى فى الأربعين من عمرها ، وعاش معها نحو ست وعشرين سنة ، أى تجاوزت نحو السادسة والستين ، وانجب منها ستة أولاد ، ولم يفكر فى أن يتزوج عليها ، وكان معروفا بالعفة ، والشهوات تتقزز فى نفس أمثاله ممن هم فى مثل سنه ، وهو بالنسبة لهم العفيف النزيه الذى لا يزن بريبة قط ، ونساء قريش يتمنين أن يكون ضجيعا لهن ، ولكنه كان فى عزوف عن كل شهوة ، ونظرة الى النساء .

حتى اذا توفيت أم المؤمنين خديجة وقد تكاثرت مشاغله ، فكان مشغولا بالدعوة الى التوحيد ومكابدة الأذى الذى تفاقم بعد وفاة خديجة وأبى طالب .

ولقد كان التعدد من بعد ذلك ، والمقاصد ليست هى الشهوة ، كما أن الشهوة ليست بعض هذه العناصر ، والدلائل تدل على أنها كانت بعيدة كل البعد .

وانا نذكر أن هذا التعدد كان أما لأن امرأة بعض الصحابة الذين جاهدوا معه قد قتل وهو يهاجر ، وكانت امرأته أهلها فى الشرك ، فاما تعود اليهم فتتعرض للعذاب والردة ولا أحد معها فى دار الهجرة من قومها ، فيتحمل هو عبء الزواج منها حفاظا لها ورعاية ، ولا ينظر فى ذلك الى أنها يرغب فى الزواج منها ، أو ليس فيها ما يرغب الا رعايتها وحمايتها ، اما هذا ، واما ليربط بها مع معين له فى التبليغ ، فيرتبط معه برباط المصاهرة

مع رباط الايمان · واما لانقاذ امرأة من الرق ، من غير نظر الى كونها جميلة أو غير ذلك ·

واما لبيان أحكام شرعية ، فيطبقها عملا ، ليكون أسوة للناس فى محاربة أمر جاهلى قد اعتادوه ، وان لم يقره الاسلام ، فيفعله النبى صلى الله عليه وسلم لكيلا يكون حرج على الناس فى أن يفعلوه · واما ليرتبط بالقبائل العربية، ليتخذ منها دعاة للاسلام · واما لازلة النفرة ، وجلب المودة ·

هذه بعض مقاصد التعدد وكلها أو جلها لحماية المرأة من الضياع ، فقد حمل نفسه عليه الصلاة والسلام بأمر ربه عبء ذلك ، فكان الزواج تكليفا ، لا للرغبة بله الشهوة ·

وهذا اجمال ، ولنذكر تفصيله فى زواج كل امرأة من أمهات المؤمنين بعينها ·

لقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن يعقد زواجه ممن كتب عليه أن يتزوجها ، لا يدخل بها الا بعد أن يتأكد رضاها بهذا الزواج ، وأنها راغبة فيه راضية ، فيطلب اليها أن تهب نفسها له ·

٧٣٦ — وعدد زوجات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاث عشرة ، وكانت له جاريتان مارية القبطية وريحانة بنت زينب ، وقد أعتق ريحانة فأسلمت ، ولحقت بأهل لها ، وبقيت مارية ، وروى أنه أعتقها وتزوجها ، وبقيت عنده ، حتى توفى صلى الله عليه وسلم ·

وأول أزواجه صلى الله تعالى عليه وسلم أم المؤمنين خديجة ، وقد ذكرنا خبر هذا الزواج فى موضعه من حياة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وقد بقى معها نحو ست وعشرين سنة كما أشرنا ، وكان له منها أولاده الستة ، القاسم والطيب ، وقد ماتا قبل الهجرة ، أو قبل البعثة ، ورقية وأم كلثوم وزينب وفاطمة ، وماتا قبله ، ولم يمت بعده الا فاطمة ، وقد ماتت رضى الله عنها بعد وفاته بستة أشهر ، وبأولادها حفظت العترة المحمدية فى ولديها الحسن والحسين وهما سيدا شباب أهل الجنة ، كما ورد بذلك الأثر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم · ولم يتزوج فى حياتها غيرها ، كما ذكرنا ·

وتزوج النبى صلى الله عليه وسلم من بعدها قبل الهجرة سودة بنت زمعة ، وكانت فى نحو سن خديجة أى فى نحو ست وستين من عمرها ، ولم تكن فى جمال خديجة ·

وكانت قد اسلمت مع زوجها ، وهاجرا الى الحبشة فرارا من أذى الجاهليين من قريش ، ومات بعد أن عادا ، وكان أهلها لا يزالون على الشرك ، فاذا عادت اليهم فتنوها فى دينها ، فتزوجها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حماية لدينها من الفتنة ٠

وتزوج من بعدها أم المؤمنين عائشة بنت صاحبه الصديق ، وكانت فى نحو التاسعة من عمرها فما كانت لتشتهى لأنها كانت ضاوية ، حتى يقال انه تزوجها للشهوة ، ولم يدخل بها الا بعد الهجرة ، وما كان الزواج اذن لشهوة يبتغيها ، ولكن لصحبة بالصديق يوثقها ، بالمصاهرة ، وهى تشبه النسب ، وقد كان أحد وزيريه ٠

ويروى أنه تزوجها قبل سودة ، ولكن الرواية الراجحة ما ذكرنا ، ولعل التقارب فى الزمن بين الزواجين لم يعين السابق منهما تعيينا دقيقا فى الروايات ٠

٣ ـ وبعد الهجرة تزوج عليه الصلاة والسلام حفصة بنت عمر بن الخطاب وكانت زوجا لخنيس بن حذافة مات عنها مؤمنا ٠

وكان الزواج لتوثيق الصحبة بأبيها رضى الله عنه ، فقد كان الوزير الثانى للنبى صلى الله عليه وسلم ٠ وما أحاط بزواجه يدل على أن مودته عليه الصلاة والسلام هى التى دفعت الى هذا الزواج ، ذلك أن عثمان رضى الله تعالى عليه لما ماتت زوجته رقية وغزوة بدر قائمة ، رغب عمر رضى الله عنه فى أن يزوج ابنته حفصة من عثمان رضى الله تعالى عنه ، فعرض عليه ، فسكت عثمان ، فشكا عمر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال سيتزوجها من هو خير من عثمان ، وسيتزوج عثمان من هى خير من حفصة ، فتزوج النبى صلى الله عليه وسلم حفصة ، وتزوج عثمان أم كلثوم بنت النبى صلى الله عليه وسلم ٠

ونرى من هذا أن زواجه عليه الصلاة والسلام منها كان ربطا للمودة ، وارضاء للقلوب ٠

٤ ـ وتزوج عليه الصلاة والسلام والحرب قائمة بينه صلى الله تعالى عليه وسلم وبين المشركين بقيادة كبيرهم أبى سفيان ، تزوج أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان هذا ٠

كانت قد سافرت مع زوجها عبد الله بن جحش الى الحبشة ، ولكنه تنصر ، وخرج عن الاسلام فكانت بين أن ترجع لأبيها زعيم الشرك فتفتن فى دينها ، وبين أن تعود الى المدينة المنورة لا مأوى لها ، فآواها النبى صلى الله

عليه وسلم بزواجه منها ، فبعث النبى صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمرى الى أرض الحبشة فخطبها عليه الصلاة والسلام ، فزوجها منه عثمان ابن أبى العاص ، ودفع النجاشى صداقها · وهو أربعمائة دينار · وبعث بها الى النبى صلى الله عليه وسلم ·

وبهذا الزواج أصاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هدفين : أحدهما أنه وقاها من الشرك وأن تفتن فى دينها ، وأصهر من أبى سفيان الذى سر منه ، ورحب به ، وروى أنه قال نعم الفحل محمد ·

٥ ـ وتزوج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم زينب بنت خزيمة ، وهى من بنى عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة ، ويقال لها أم المساكين ، وقد قتل زوجها يوم أحد ، وكان ذلك ايواء لها ، وتشجيعا لها على اعانة المساكين ، ولكنها لم تلبث الا قليلا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم توفيت فى حياته عليه الصلاة والسلام ·

٦ ـ وتزوج النبى عليه الصلاة والسلام زينب بنت جحش ، وكانت زوجا لزيد بن حارثة ، وقد تزوجته على أنه ابن محمد صلى الله عليه وسلم اذ أطلق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذلك الاسم ، لما رفض أن يعود مع أهله ، ورضى أن يبقى مع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلما أنزل الله سبحانه وتعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم : « **وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل ، ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم** » تململت ببقائها مع زيد ، اذ تبين أنه ليس بقرشى ، وقد تململ زيد من كبريائها واستأذن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى طلاقها ، فقال له اتق الله وأمسك عليك زوجك ، وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتزوجها بعد أن يطلقها زيد ، ولكنه أخفى ذلك ، وخشى مقالة الناس أن يقولوا تزوج محمد زوجة ابنه ·

ولكن الله تعالى أمره بقوله تعالى : « **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** » وان الله تعالى أمره بذلك لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطرا فأمر النبى عليه الصلاة والسلام بذلك الزواج لكى تزول تلك العادة المستحكمة فيهم وهى عادة التبنى التى سرت اليهم من الرومان ، وليست من طبائع القرابة ، بل هى كذب ، وافتراء وفساد للأسرة ، اذ يدخل فيها ما ليس منها ؛

٧٢٧ — واقرأ الآيات التى اشتملت على ذلك ·

« ومـا كـان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من امرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ، واذ تقول للذى انعم الله عليه وانعمت عليه ، امسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس ، والله أحـق أن تخشاه ، فلما قضى زيـد منها وطرا زوجناكها ، لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم ، اذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا ، مـا كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدرا مقدورا الذين يبلغون رسالات الله ، ويخشونه ولا يخشون احدا الا الله ، وكفى بالله حسيبا ، ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليما » ·

هذا أمر زينب بنت جحش ، وزيد بن حارثة كما ساقها القرآن الكريم ، وهى تدل :

أولا : على أنه فى الجاهلية كان يعتبر الدعى ـ أى المتبنى ـ ابنا والغى الله تعالى حكم هذه العادة ، وقد تلونا من قبل فى أول سورة الأحزاب ما يدل على ذلك ·

ثانيا : على أن الله تعـالى اقتضت حكمته أن يؤكد ابطـال ذلك الحكم الجـاهلى الذى يدخل فى الأسرة بحكم النسب من ليس منها ، فلا تتعـاطف بحكم الفطرة ، وتفسد الأسر ، واقتضت حكمته أن يكون تأكيد الابطال بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم يتزوج زوجة دعيه ، وقد فسدت العلاقات بينهما بتململ القرشيـة مـن أن تكـون تحت غير قرشى هو عتيق وليس ابنـه ، فاستكبرت ، وتململ زيد من كبريائها فأراد تطليقها ، فقال له الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم أمسك عليك زوجك ، وهو يعلم أن الله كتب أن يطلقها ، وكتب على محمد صلى الله تعـالى عليه وسلم أن يتزوجها ، ولكنه يخفى فى نفسه ما لا يبديه من أن الله تعالى كتب الطلاق من زيد ، وللزواج منه صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه يخشى أن يجابه العرب ، بمخالفة ما ألفوا ·

ولقد أمـر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يتزوجها بعد الطـلاق لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهم وطرا ·

ودلت الآيات **ثالثا :** على أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن أبا لأحد من رجال العرب ، ان انتفت أبوة الأدعياء ، هذا ما تدل عليه الآيات الكريمات بظاهرها ، ومقصدها ومرماها ·

ولكن الذين يفسدون المعـانى ، ويريدون الكيد للاسلام اخترعوا هذا اختراعا فى العهد الأموى ، اخترعها يوحنا الدمشقى ونشرها بين المسلمين ليقولها أتباعه ، وينشروها بين بعض التابعين ، وقد توهم صدقها بعض الذين تبهرهم الروايات من غير تمحيص ، ومع الأسف كان من بين هؤلاء أبو جعفر ابن جرير فنقلها مصدقا لهـا ، ونقلها أكثر المفسرين عنه ، حتى بين كذبهـا وافتراءها ابنكثير فى كتابه تفسير القرآن العظيم ، رضى الله تعالى عنه ، وعفا الله عن الطبرى فى أن نشر ذلك الضلال وان نقل الكذب لا يحوله الى صدق ، ولو كان الطبرى ناقله ٠

ومن الغريب أن حملوا الآية الفرية التى افتروها ، وكان المتعصبون من غير المسلمين هم الذين ادعوها ، لقد ادعوا أن النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم رآها تغتسل ، فوقع فى قلبه حبها ، فأراد من زيد أن يطلقها ليتزوجها ، وادعوا أن ذلك هو ما أخفاه ، وخشى من الناس ، وأن الله أبداها ، وان ذلك لا يمكن أن ينطبق بحال من الأحوال على معانى الآية وظواهرها ، الا أن يكون ذلك اختراعـا اخترعوه ، ويدل على مناهضة الآية لهذه المعانى الفاسدة مـا يأتى :

أولا : أن الزواج منها لم يكن كما تدل الآية برغبة من النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى تكون الشهوة هى المحركة ، بل ان الزواج كـان بأمر الله تعالى وذلك بنص الآية بقوله تعالى : « **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** » ٠

ولأن الله تعالى نسب التزويج الى ذاته العلية ، بأن الله تعالى هو الذى قال « **فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها** » وذكر سبحانه وتعالى السبب فى هذا الزواج الذى فرضه الله تعالى وتولى تعالى عقده ليس الشهوة ، وانما هو الا يكون على المؤمنين حرج فى أن يتزوجوا أزواج الذين يتبنونهم وليس شهوة ، ولا ما يشبهها ٠

والخشية التى خشيها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هى مجـابهة ما عليه الجاهلية ، فعاتبه سبحانه وتعالى على هذه الخشية بأن الله تعالى أحق بأن يخشاه فيطيع أوامره ٠

وثانيا : أن الله تعالى قال : « **وتخفى فى نفسك ما الله مبديه** » فيقولون هو العشق الذى أخفاه ، والآية تناقض ذلك ، لأن الله تعالى ما أبدى عشقا ، ولكن أبدى الأمر بالزواج ، فكان هو الذى أخفاه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على زيد ، وقال : أمسك عليك زوجك واتق الله ٠

وثالثا : أن الآية الكريمة تدل بنصها ومغزاها على أن موضوعها منع أن يكون المتبنى ابنا ، ولذلك أمر الله تعالى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتزوج امرأة دعيه ، ليكون ذلك بيانا للشرع عمليا ، كما بينه النص القرآنى ، قولا مفروضا بالمنع المؤكد ٠

ولذلك أكد سبحانه وتعالى النفى بقوله تعالى : « ما كان محمد أبا احد من رجالكم ، ولكن رسول الله » هذا هو المعنى الجلى من غير تلبيس كذاب ، ولا اتباع متوهم ٠

وكنا نود أن يدرك المفسرون ، واللذين يتكلمون فى معانى القرآن الكريم ، وأخبار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حقيقة هذه الفرية ، ومصدرها ، الذى أراد افشاءها كيدا للمسلمين بعد أن بين ابن كثير الحافظ للسنة ، كذب هذه الرواية ، ورد كلام ابن جرير ردا قويا ٠

وكنا نود أن يتعرف الذين يكتبون الآن فى السيرة ذلك ، وكنا نحسب أن لهم ذوقا بيانيا ، وعمقا فى دلالات الألفاظ ومراميها ، كنا نود منهم أن يمحصوا القول ويدركوه ، ولكن غلبت النزعة الروائية التى نسمع أمثالها منسوبا اليهم ، فكتبوا فيما تصدوا له من كلام فى السيرة عنوانا يقول : النبى العاشق ، وقد كتبوا تحت العنوان تلك الفرية المفتراة على أنها وقائع وقعت ، وكأنها قصة من الروايات التى كتبوها ٠

وتبعهم من يقلدونهم من غير أن يفرقوا بين حق وباطل ، ولا أقول عفا الله عنهم ، لأن أقوالهم لا تزال تردد منسوبة اليهم ، ولهم فى المجتمع الأدبى مكانة ، جزاهم الله تعالى بمقدارها ٠

زواجه عليه الصلاة والسلام ببقية نسائه :

٧٢٨ — ١ – وتزوج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أم سلمة واسمها هند بنت أبى أمية بن المغيرة ، وهى مخزومية ، وقد مات عنها زوجها ، أبو سلمة ، وهو عبد الله بن عبد الأسد ٠

وعند موت زوجها ، وقد توفى عنها وهى شابة طلب اليها أن تتزوج من بعده ، ودعا لها مخلصا أن يتزوجها من هو خير منه ، وقد رأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنها ذات عيال ، ويحتاجون الى من يرعاهم ، وكانت هى وزوجها مهاجرة ، فانقطعت عن ذويها ، ولابد لها هى وأولادها من يحوطهم ويرعاهم ، فكان عليه الصلاة والسلام ، وتزوجها لرعايتها ورعاية أولادها ٠

٢ ـ وتزوج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جويرية بنت الحارث ، ويقول ابن هشام فى زواجها : « لما انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من غزوة بنى المصطلق ، ومعه جويرية بنت الحارث ـ دفع بجويرية الى رجل من الأنصار وديعة عنده ـ وأمره بالاحتفاظ بها ، وقدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة المنورة ، فاقبل أبوها الحارث بن أبى ضرار بفداء ابنته ، فلما كان بالعقيق نظر الى الابل التى جاء بها للفداء ، فرغب فى بعيرين منها ، فغيبهما فى شعب من العقيق ، ثم أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال يامحمد : أصبتم ابنتى ، وهذا فداؤها ، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : فأين البعيرين اللذين غيبتهما بالعقيق فى شعب كذا ٠٠ فقال الحارث : أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله صلى الله تعالى عليك وسلم ، فوالله ما اطلع على ذلك أحد فأسلم الحارث ، وأسلم معه ابنان له ٠٠٠٠ » ٠

وان الغزاة كانوا قد أسروا من قومها نحو مائة ، فلما تزوجها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من أبيها ، وكانت قد أسلمت أطلق كل من كان فى يده أحد من الأسرى أسراه ، وقال : كيف نسترق أصهار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فعتق بزواجه عليه الصلاة والسلام أهل مائة من بيوت بنى المصطلق ، وتقول أم المؤمنين عائشة فى ذلك : « ما كانت امرأة أبرك على قومها من جويرية ، لقد عتق بها مائة بيت من بيوت قومها » ٠

ونرى من هذا أن زواج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان بقصد سام ، وهو أن يعتق هؤلاء الناس وألا يسجل على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم انشاء الرق ، فيكون ممنوعا الى الأبد ، ولو كان الأعداء يسترقون منا ، ومن غير أن يتركهم يسترقون ، فيكون مباحا الى الأبد ٠

فما كان الزواج للشهوة ، بل كان للعتق ٠

٣ ـ وتزوج صلى الله تعالى عليه وسلم صفية بنت حيى بن أخطب ، وقد سيقت مع أختها ، وأمرهما بلال على قتلى خيبر ، والذين أسروا فيمن أسر منهم ، فلام النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بلالا ، وقال له : أليس فى قلبك رحمة ، أتمر بالفتاتين على قتلى قومهما ، وعرض الفتاتين ليتزوجهما بعض الصحابة فتزوجت أختها ، وبقيت هى فتزوجها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليطيب نفسها ، وليرقأ جرحها ٠

٤ ـ وتزوج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ميمونة بنت الحارث ابن حزن الهلالية وقد اختارها زوجا له العباس بن عبد المطلب ، لتوثيق ما بينه

عليه الصلاة والسلام ، وبين القبائل العربية ، وقد أصدقها العباس رضى الله عنه من ماله أربعمائة درهم ، ويروى أنها هى التى وهبت نفسها للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ذلك أنها لما علمت خطبة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قالت للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم : البعير وما عليه لله ولرسوله ، وكانت على بعير عندما انتهت اليها الخطبة ، وقد قال الله تعالى : « **وامرأة مؤمنة ، ان وهبت نفسها للنبى ...** » .

٧٢٩ — هؤلاء عددهن عشر ، وهن بعد خديجة ، وبضمهن اليها يكون العدد احدى عشرة وكلهن دخل بهن ، ولذلك يعدون أمهات المؤمنين ، ولا يتزوجن أحدا من بعده ، ولذلك قال تعالى « **وأزواجه أمهاتهم** » وقال فى منع زواجهن من بعده : « **وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا** » .

ويقول الرواة ان عدد أزواج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاث عشرة ، فهن أمهات المؤمنين ومات عن تسع ، اذ ماتت فى حياته خديجة ، وزينب أم المساكين .

وتزوج باثنتين لم يدخل بهما ، وهما ـ أسماء بنت النعمان الكندية تزوجها ، فوجد بها بياضا فى ابطها ، فسرحها بمعروف ومتعها ، بعد أن طلقها ، وقد كانت كندية ، وقبائل كندة كانت بعيدة عن المدينة المنورة ، وقد أسلمت ، فكان لابد أن يربط النبى صلى الله تعالى عليه وسلم برباط بينها وبينه ليؤنسها بهذه المصاهرة فى هذا البعد المترامى .

والثانية : امرأة من سلالة النعمان اسمها أميمة بنت النعمان بن شرحبيل وقد أراد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتزوجها ، لأنها من أطراف الجزيرة العربية فى الجنوب ، وعليه الصلاة والسلام يريد أن يقرب البعيد ، ويزيل الوحشة ، وقد كانت المصاهرة رباطا وثيقا بين كبراء القبائل تنهى حربا أو تدفع قتالا ، وما كان على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من غضاضة فى أن يوثق ما بينه وبين القبائل بهذه المصاهرة .

ويروى فى زواجه منها أنه عليه الصلاة والسلام عندما دخل بها ، وكان عليه الصلاة والسلام اذا تزوج امرأة طلب منها أن تهب نفسه له عليه الصلاة والسلام ، استيثاقا من رضاها به زوجا ، فقد كان يعقد أولياء المرأة ، وخشية ألا يكون ذلك برضا حر فيه اختيار كامل ، فلما اختلى بها قال لها هبى نفسك لى ، اعترتها نعرة جاهلية فقالت وهل تهب الملكة نفسها للسوقة ، ثم قالت أعوذ بالله ، فقال عليه الصلاة والسلام لقد عذت بمعاذ عظيم ، فطلقها ، وسرحها سراحا جميلا .

العـــبرة

٠٧٣ — هذه زيجات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بلغت عدتهن ثلاث عشرة من الأزواج ماتت اثنتان فى حياته الكــريمة الطاهــرة ، وهمــا أم المؤمنين خديجة أفضلهن ، وأكثرهن عطفا ، وقد سمى عام موتها مع عمه الحانى الكريم عام الحزن ، والثانية زينب أم المساكين رضى الله عنها ٠

واثنتان لم يدخل بهما ، وطلقهما قبل الدخول لعيب جثمانى فى احداهما ولنفرة من الثانية بدت فى قولها ، وقد عاشت الى ستين عاما بعد الهجــرة ، وكانت تسمى نفسها الشقية لحرمانها من جوار أكرم من فى الوجود من خلق الله سبحانه وتعالى ٠

وقد كان يعتزل بعضهن أحيانا ، ويرجىء الاتصال بهن أحيانا ، وعلى أى حال فقد انتهى الحل له صلى الله تعالى عليه وسلم بهذا العدد اذ تحققت فيه كل المقاصد الاجتماعية التى تتعلق بالدعوة ، وقال تعالى فى ذلك :

« ترجى من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء ، ومن ابتغيت ممن عزلت ، فلا جناح عليك ، ذلك ادنى أن تقر اعينهن ، ولا يحزن ، ويرضين بما اتيتهن كلهن ، والله يعلم ما فى قلوبكم ، وكان الله عليما حكيما ، لا يحل لك النســاء من بعــد ، ولا تبــدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن الا ما ملكت يمينك ، وكان الله على كل شىء رقيبا » ٠

وان هذا النص الكريم يدل على أمرين جليلين :

أولهما : منع الحل بعد هذا العدد ، اذا ستوفى التعدد بالنســبة لتعدد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مقصده ، وان هذا العدد خاص بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقد قال تعالى من قبل فى تحليل هذا القدر من العــدد : **« خالصـــة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضـــنا عليهم فى ازواجهم ، وما ملكت أيمانهم » ٠**

ثانيهما : أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن يتصــل بنســائه جميعا كل ليلة ـ كما توهم عبارات بعض المحــدثين ـ مما أخــذ منه أعــداء الاسلام ادعاء أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان شهوانيا ، واســتندوا الى أقوال هؤلاء والى تهافت بعضهم فى القول حتى انه ليقول كان عند النبى

صلى الله تعالى عليه وسلم قوة أربعين رجلا ، فالآية ترد كل هذا ، فقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يرجىء من يشاء منهن ، ويؤوى اليه من يشاء ، ويعتزل بعضهن ، ويبتغى من يعتزل من بعد ذلك ، مما ينافى ما ادعاه بعض المحدثين من أنه عليه الصلاة والسلام كان يمر عليهن ويتصل بهن واحدة ، واحدة كل ليلة ، مما فتح الباب للمغرضين والكذابين من أعداء الاسلام والمنحرفين ممن تسموا بأسماء المسلمين ·

بقى أن نتكلم فى بعض أسباب هذا التعدد ·

قد أشرنا من قبل الى أن تعدد زوجات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان لايواء الضعيفات من أزواج المهاجرين اللائى لا مأوى لهن فى هذه الغربة التى انقطعن فيها عن أهليهن ، ولربط الصلات بينه وبين كبار أصحابه ، ولمنع تحكم الوثنيين فيمن تربطهم بهن رابطة نسب من نساء المهاجرين الذين يقتلون أو يموتون أو يرتدون ، وقد أشار الله سبحانه وتعالى الى ذلك فى قوله تعالى : « **يا أيها النبى انا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيتأجورهن ، وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ، وبنات عمك ، وبنات عماتك ، وبنات خالك ، وبنات خالاتك التى هاجرن معك ، وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى ، ان أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين ، قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم** » ·

ويستفاد من هذا النص ان زواج المهاجرات كان للرحم التى تربطه بهن من عمومة أو خئولة ، وان ذلك يشمل قرابته لقريش ، فلا يضيعهن عند موت أزواجهن شهداء ، بل لابد أن يتولى هو ايواءهن فى ظله الظليل ·

وقد رأيت أن بعضهن تزوجها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر ربه تبيينا للشرع وتنفيذا لأحكامه ، وقد تعرض النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأمر ربه لمجابهة العرب فيما كانوا يألفون ، ويرونه أمرا طبيعيا لا يخالف ، وقد تأثر به بعض المؤمنين ، حتى ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد حدث منه ذلك قبل الحكم بالمنع ، فبين الله تعالى أنه ضد الحقيقة ، وأن البنوة تكون من الصلب ، لا من الادعاء ، وأشار سبحانه وتعالى الى أنه ادخال فى النسب ما ليس منه ، اذ قال سبحانه : « **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فان تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم** » ·

٧٣١ ـــ وهناك أمران آخران فى حكمة تعددالزوجات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم غير ما سبق ذكره أو أشير اليه ، من أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كان يتزوج لتوثيق المعاونة بمن يحب من أصحابه ، واعانة

الضعيفات من النساء ، حتى انه كان يتحمل عبء من ليس له ولى من قريب أو ذى حسب ، ولكيلا ترتد بعد ايمان ، والارتباط بالمصاهرة بين من تنأى ديارهم ، وقد يلحون فى العداوة وبينه صلى الله تعالى عليه وسلم ٠

نقول هناك أمران غير هذا الذى ذكرناه أو أشرنا اليه ٠

أحدهما : أن يتولى نساء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم النساء أمور دينهن ، فما كان النساء بعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى عهد الصحابة والتابعين يغشين مجالس العلم يتعلمن أمور الدين ، بل كن يذهبن الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يسألنه فى حياته ، ومن بعده كن يسألن أزواجه أمهات المؤمنين ، كعائشة وأم سلمة وغيرهما ممن عمرن بعد الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولعله من فضول القول أن نقول أن كثيرا من الأحكام الخاصة بالمرأة رويت عن أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها وعن أبيها الصديق ٠

وان حفصة أم المؤمنين كانت الأمينة على المصحف الذى انتهت كتابته فى عصر أبيها الامام الفاروق رضى الله تعالى عنه ، وجزاه عن الاسلام خيرا ٠

ولعل الأمر الالهى بألا ينكحن من بعده أبدا كما تلونا من قبل كان لهذا المعنى وليتفرغن لتعليم النساء أحكام الدين وفضائله ، وآدابه ، وروحه ومعناه ، وأخبار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى أهله ، وفى ذاته الطاهرة ، وانك لترى من ذلك الشىء الكثير فى رواية عائشة رضى الله عنها ، فقد كان لها ذكاء يندر فى نساء العرب ، وانه قد نزكى ما روى من أنه يؤخذ منها نصف الدين ، وهو النصف الخاص بأحكام النساء ٠

ثانيها : أن نساء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كن يتخذن قدوة حسنة للنساء فى عفتهن واحتسابهن وآدابهن لأنهن اخذن بآداب النبوة ، والمرأة تتأثر بالمرأة أكثر مما تأثر بالرجال ، تصلح بصلاح صواحبها من النساء ، وتفسد بفساد صواحبها منهن ، فالمرأة تصلح المرأة ، أو تفسدها ٠ وانا لنرى ذلك واضحا اليوم ، وانه كان كذلك فى الماضى ، فالانسان ابن الانسان ٠

وان الله تعالى تعهد نساء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالارشاد والتأديب ، لأنهن الأسوة والقدوة قال تعالى : وهو أصدق القائلين : «**يأيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن ، وأسرحكن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فان**

الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما يا نســاء النبى من يات منكن بفاحشــة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ، وكان ذلك على الله يســيرا ، ومن يقنت منكن لله ورسوله ، وتعمل صــالحا ، نؤتها أجــرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما ، يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقــول فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفا ، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، ويطهــركم تطهيرا ، واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ، ان الله كان لطيفا خبيرا » ٠

فنساء النبى صلى الله تعالى عليه وســلم بهذا التأديب الالهى الذى لم يخرجن عن نطاقه كن بالنسبة للنساء الصــورة المثالية ، والقــدرة القائمة الثابتة لنساء المؤمنين ، بل نساء العالمين ولأنهن المثل السامى عقب ذلك بما يجب أن تكون عليه المؤمنات المقتديات بنساء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال تعالى عقب ما أمر به نساء النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بما أمر به من ارشاد ٠ وتهذيب ٠ وتوجيه للعلو :

« ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ٠ والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات والمتصــدقين والمتصــدقات والصــائمين والصـــائمات والحافظين فروجهم والحافظات ٠ والذاكــرين الله كثيرا والذاكرات أعــد الله لهم مغفــرة وأجرا عظيما » ٠

هذا وان الاقتران فى التلاوة بين ارشاد نساء النبى صلى الله تعــالى عليه وسلم ومنزلتهن ، وبين أوصاف المؤمنات يشير الى أن أخلاق نساء النبى صــلى الله تعالى عليه وســلم مثل أعلى لنســاء المؤمنين ويوعز باتباعهن ، واتخاذهن مثلا ساميا غاليا ، لأنهن القدوة الصالحة الطيبة ٠

واذا كان فى الآيات أمر بأن يقرن فى بيوتهن ، بألا يخرجن الى الطرقات متبرجات متزينات يبدين زينتهن ما ظهر منها وما خفى ، بل يلتزمن القــــرار فى البيت لا يخرجن الا لمصلحة تقتضى الخــــروج ، فلا يقــررن فى البيت الا للاستعداد للخروج ، فتغص الطرقات بهن ، هذا وان النبى صلى الله تعــالى عليه وسلم بتفرق نسائه فى القبائل والعشائر من بعض وفائه قد عم تعليمه ، وعمت الآداب الاسلامية ، والأخلاق الكريمة نساء المسلمين ، وكلما كثر العدد عم الهدى المحمدى وشاع ، وسر فى الأمة سريان النور فى الأرضين ٠

أما بعـد

٧٣٢ — فهذه سـيرة النبى صـلى الله تعالى عليه وسـلم ، خاتم النبيين ، لا ندعى أننا وصلنا الى الغاية من تصـــويرها ، أو توضيحها ، أو أزلنا غشاوة عنها ، ولا ندعى أننا تسـامينا حتى أدركناها وعلمنا أسرارها ، وكونها ونورها فى هذا الوجود ، ولكنا رأيناها فوق طاقاتنا ، وأدركنا منهـا ما استطعنا ادراكه ، وسددنا وقاربنا ، واذا لم تبلغ الشأو . ونصل الى الغاية فاننا قصدنا وأردنا واحتسبنا النية ، ومثلنا كمثل من أراد أن يبلغ قمة تتصل بالسماء ، فعجز عن بلوغها ، فرضى بأن يقف على السطح ، ويرى النور فوقها فحسبه منها المشاهدة ، دون الوصول ، ولقد رأينا فيما رأينا قمة العلم النبوى وان لم نستوعبه ، واستغرقنا نور الهداية ، وان لم ندرك كل ما جرى ٠

اللهم اغفر لنا تقصيرنا ، فان منشأه قصورنا ، وانا نلتمس ونقـرب ، ولا نعلو ، فان ذلك فوق طاقتنا ، وتجاوز وسـعنا ، وهو فوق تكليفنا ، فانك قلت وقولك الحق « **لا يكلف الله نفسا الا وسعها** » ولا تكلفنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ٠

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد عدد ما كان وعدد ما يكون ، وعدد ما هو كائن الى يوم القيامة ، انك نعم المعين ، ونعم النصــير ، وانك الموفق والهادى ، وما توفيقنا الا بك ، وهو يشـد العـزم فى محيط قدرتنا ، ويقرب البعيد يا أرحم الراحمين ؟

(تم الكتاب بأجـزائه الثلاثة بحمد الله وتوفيقه فى مجـــــــلدين)

الفهـرست

ما يشتمل عليـه المجلد الأول

الجزء الأول

الجزء الثانى فى المجلد الثــانى



فهرست الجزء الثالث من المجلد الثانى

١١٩٦ ـ انتشار الدعوة الاسلامية

١١٩٦ ـ الضعفاء والعبيد هم الذين ابتدأوا بالايمان وبعض الأقوياء ١١٩٧ ـ تتابع الغزوات أثر فى معرفة الناس بالاسلام ١١٩٨ ـ الحديبية واثرها ١١٩٩ ـ انتشار الاسلام بعدها ٠

١٢٠١ ـ حجة الوداع

١٢٠١ ـ الخروج لحجة الوداع ١٢٠١ ـ المناسك كما قام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٢٠٢ ـ الحيض لا ينقض الاحرام ١٢٠٣ ـ كان النبى صلى الله عليه وسلم قارنا ولم يكن كل من معه قارنين ١٢٠٦ ـ الأماكن التى نزلها صلى الله عليه وسلم والأدعية التى ذكرها ١٢٠٧ ـ خطبته صلى الله عليه وسلم بعرفة ١٢٠٩ ـ خطبته عليه الصلاة والسلام بمنى ١٢١١ ـ دعاؤه عليه الصلاة والسلام بعرفة ١٢١٢ ـ العودة الى المدينة المنورة ٠

١٢١٣ ـ الوداع بعد التمام

١٢١٤ ـ التنبؤ به ١٢١٥ ـ بعث أسامة بن زيد الى أرض فلسطين ١٢١٦ ـ الروايات فى الوداع ١٢١٩ ـ توديعه صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة الزهراء ١٢٢٠ ـ انك ميت وانهم ميتون ١٢٢١ ـ صلاة أبى بكر بالناس ١٢٢٢ ـ لكل أجل كتاب ١٢٢٣ ـ وفاته صلى الله تعالى عليه وسلم ١٢٢٣ ـ ما كان من عمر الفاروق ١٢٢٤ ـ خطبة أبى بكر ١٢٢٥ ـ غسل الجثمان الطاهر ١٢٢٦ ـ انتهاء حياته الدنيوية (صلى الله عليه وسلم) ١٢٢٧ ـ تركة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ١٢٢٨ ـ زوجات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ١٢٣٤ ـ زواجه صلى الله تعالى عليه وسلم ببقية نسائه ٠

١٢٣٧ ـ العبرة ١٢٤١ ـ أما بعد ١٢٤٣ ـ بيان ما يشتمل عليه المجلدان ٠



(تم بحمد الله وفضله)

● قام بمراجعة هذه الطبعة للمجلدين واعطاء أمر الطبع ، وتصويب الفهرست ، العبد الفقير الى ربه العلى القدير **محمد عبد الغنى السيد** رئيس حسابات دار الفكر العربى ايمانا واحتسابا وتقربا الى المولى سبحانه وتعالى بأن يتقبل منه أو يغفر له ان وقعت بعض اخطاء مطبعية هامشية لا تخفى على فطنة القارىء رغم ما بذل من جهد وخاصة مراجعة الآيات القرانية الشريفة ٠ والله سبحانه وتعالى هو الذى ترجى منه المثوبة والرحمة والمغفرة ٠

(والصلاة والسلام على خير البشر الرسول الأمى صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله وصحبه والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين) ٠

(وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) ٠٠٠



● كما لا يفوت دار الفكر العربى أن تخص بالشكر والعرفان **الأستاذ هانى احمد غريب** مدير دار غريب للطباعة الذى كان له فضل السبق فى اظهار هذه الطبعة بهذه الصورة الكريمة ٠

ولله المن والفضل علينا اجمعين ؟

رقم الايداع بدار الكتب ٧٩/٤٤٨٧
الترقيم الدولى ٦ ـ ١٩٠ ـ ٣٠٦ ـ ٩٧٧

دار غريب للطبــاعة

١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩